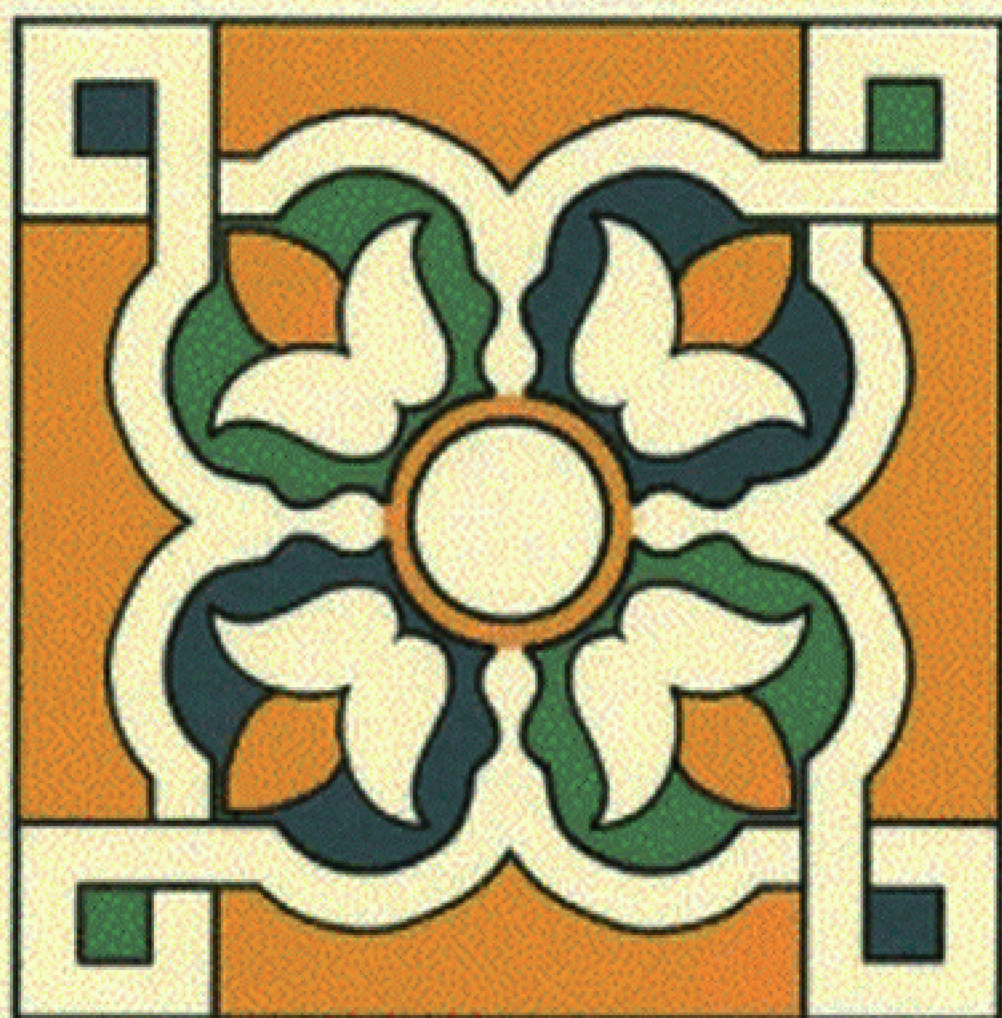
الشيعة

في المملكة العربية السعودية

الجزء الأول

العهد التركي

١٨٧١ - ١٩١٣م



حمزة الحسن

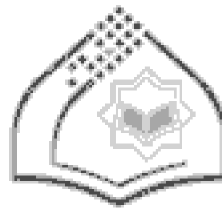
دار الساقي



الشيعة

١٤٣٠

في المملكة العربية السعودية



تصميم الغلاف: ماريا شعيب

حمزة الحسن

الشيعة في المملكة العربية السعودية

الجزء الأول

العهد التركي

١٨٧١ - ١٩١٣م



الطبعة الأولى ٢٠١٠

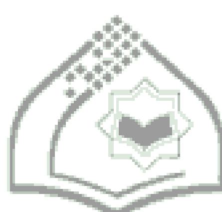
ISBN 978-1-85516-603-5

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب.: ١١٣/٥٣٤٢، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤-٢٠٣٣
الهاتف: ٨٦٦٤٤٢(٠١)، فاكس: ٨٦٦٤٤٣(٠١)
e-mail: info@daralsaqi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا
مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾

النساء - ١٤٨


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

تقديم

لا يقصد من هذا البحث المطول لأحوال الشيعة في المملكة العربية السعودية ولمدة تزيد على ١٢٠ عاماً، خلال عهدين متلاحقين «العثماني والسعودي»، لا يقصد منه المقارنة بين هذين العهدين، رغم ما ورد في ذلك من الإشارات الكثيرة.

ولا يناقش الكتاب قضايا فكرية - عقائدية، وإن جاء ذلك في مواضع قليلة محددة وبصورة سريعة للغاية.

ولا يهدف الكتاب إثارة قضايا طائفية، تزيد في الفرقة، وتضع المزيد من الحواجز بين أتباع الدين الواحد والوطن الواحد.

والكتاب إنما خُصص للدفاع عن المواطنين الشيعة في المملكة، فلأنهم الفئة الأكثر حرماناً واضطهاداً في المجتمع السعودي.. حيث أدى الحرمان والاضطهاد إلى خلق توترات أمنية مزمنة، آن لها أن تنتهي، وآن لطلاب الإصلاح من أبناء الوطن الاهتمام بجذرها ومعالجته إذا كانوا يعملون فعلاً من أجل بناء وطن يشعر فيه كل أبنائه بالأمن والطمأنينة والاحترام.

إن قضية التمييز الطائفي في البلاد، كان يجب أن تكون محط اهتمام كل المخلصين والعاملين من أجل رفعة الوطن، وكان من المفترض أن يدافع هؤلاء عن أبناء وطنهم وجلدتهم، من أجل مصلحة الجميع.. إلا أن هذا لم يحدث مع بالغ الأسف، إلّا في حدود ضيقة للغاية، بل انخرط بعض المثقفين في مشروع السلطة الطائفي، وتجاهل بعضهم الآخر الموضوع، حتى لا يورط نفسه في مشاكل سياسية مع النظام، ولكن كانت هناك مجموعة من أبناء الوطن رفضوا التمييز الطائفي وحاربوه جهد إمكانهم، بل ودفع

بعضهم ثمن موقفه ذاك.

بَدَهِيٌّ أن الانتماء إلى طائفة لا يجعل المرء طائفيًا، فالطائفية ليست مجرد انتماء، وإلا أصبح كل إنسان في المملكة -بل وفي كل مكان من العالم- طائفيًا.

كما أن دفاع المرء عن طائفته التي انتمى إليها بحكم الوراثة أو بحكم التبني والاقتناع بفكرها، ليس أمراً معيباً، خاصة إذا كانت تلك الطائفة تتعرض لشتى أصناف القهر والإذلال.. إلّا إذا كان القصد من ذلك الدفاع، هضم حقوق المواطنين الآخرين، ماديًا ومعنويًا.. وهذا الكتاب لا يتبنّى هذا النوع من الدفاع، بل يدعو إلى معاملة المواطنين على قدم المساواة في الحقوق والواجبات، بغض النظر عن انتماءاتهم المذهبية والمناطقية والقبلية.

إن التمييز الطائفي، وليس الانتماء الطائفي، أو الدفاع عن الطائفة التي ينتمي إليها المواطن، هو الذي يجعل من الإنسان طائفيًا.

وقد حرص الكتاب على إيضاح معالم سياسة التمييز الطائفي التي ينتهجها الحكم السعودي ضد المواطنين الشيعة، ودعا إلى إلغاء تلك السياسة التي أحدثت توترات داخلية شديدة، وأثرت في الأوضاع الأمنية في أهم منطقة من مناطق المملكة.

إن دفاع المواطن عن طائفته التي تتعرض للأذى، دفاع عن النفس، باعتباره أحد أفراد تلك الطائفة، وهذا أمر طبيعي جدًا لأن (المواطنة) في المملكة أُخضعت منذ وصول العائلة السعودية إلى الحكم لمعيار مذهبي.. فالمواطن الصالح بنظر تلك العائلة، هو ذلك المواطن الذي يتخلى عن هويته المذهبية لصالح هويتها هي، أما من يتمسك بهويته فلا يوثق به، ولا يحق له حتى مجرد المطالبة بحقوق المواطنة.

من خلال هذه الرؤية، جرى التعامل مع العديد من أبناء الوطن، فنزعت حقوقهم الدينية والوطنية، خاصة الشيعة، الذين اعتبروا رغم أغلبيتهم في مناطق النفط ذوي قيمة كميّة ضئيلة.

والغريب أن العديد من أركان النظام الطائفي في المملكة يعتبرون دفاع الشيعة عن أنفسهم ودعوتهم لإلغاء سياسة التمييز المنتهجة ضدهم عملاً طائفيًا، فأصبح ضحايا التمييز الطائفي، الذين لا يملكون سلطة ولا قوة ولا مالاً ولا صوتاً.. طائفيين. وأما

أولئك الذين يمارسون الطائفية بالقول والفعل ومن مركز القرار، وهم في موقع المسؤولية الوطنية.. أولئك الذين يعتبرون أنفسهم جنوداً في الحرب الطائفية التي أشعلوها، خدمة لمصالح فئة أو عائلة.. أولئك الذين يملكون وسائل الإعلام، وأسلحة القتل، وأموال النفط، ويحتكرون الفتيا والتحدث باسم الدين.. أولئك وحدهم هم الوطنيون الوحدويون!!.

لقد أُعدّ هذا الكتاب من أجل تحقيق غرضين أساسيين:

الأول: التعريف بالمواطنين الشيعة في المملكة، تاريخاً وثقافة وهوية.. لأنهم رغم كثرتهم أُريد لهم أن يكونوا مجهولين داخل وطنهم وخارجه، لا يكاد يحسّ بهم أو يعرفهم أحد، وكأنهم غير موجودين أصلاً في هذه البلاد، وكان المطلوب منهم تسيير الصناعات النفطية في مناطقهم بصمت، حتى لا يصيب الحرج حكومة العائلة المالكة حين يقال: إن عدداً كبيراً من رعاياها هم من الشيعة.

والهدف الثاني: تسليط الأضواء على معاناة الشيعة في ظل الحكم الحالي القائم على تصورات طائفية.. والدعوة إلى مساواة المواطنين، واحترام خصوصية كل فئة ومذهب في أقاليم المملكة المختلفة في التاريخ والثقافة والعادات والطباع والاقتصاد بل وفي المناخ أيضاً.

وفي ختام هذا التقديم أود التنبيه إلى حقيقة أنه رغم وجود خاصية لكل إقليم من أقاليم المملكة، التي توحدت رسميًّا قبل ستين عاماً تقريباً.. فإن النزعة الانفصالية ضعيفة ولكنها موجودة، يساعد على ذلك السياسات الحكومية نفسها، فالمضطهد لكونه من الحجاز أو لأنه ينتمي إلى مذهب التشيع في الشرق، قد لا يشعر باحترام للكيان السياسي القائم، الذي لا يحترم خصوصيته، أو الذي يريد أن يلغي تلك الخصوصية بالقوة والجبر.. ومن حق المواطن الذي يحرص على وحدة البلاد، أن يخشى أن يكون السيف الذي وحدها هو نفسه الذي ينفخ فيها الروح الانفصالية، ويجري كل ذلك تحت السطح، فإذا ما ارتفع سلطان القهر الذي يعتبر عامل التوحيد الأول والأخير، قد يكون مآلنا مثل مآل الإمبراطورية الروسية أو الدولة اليوغسلافية.

كلنا نعي حقيقة أن الوحدة أفضل من الانفصال، لكن الوحدة التي تعرّض حقوق شريحة واسعة من السكان إلى الخطر والضياع، لا ينظر إليها باهتمام، وتتفشى

في المضطهدين الروح الانفصالية.. وهذا بالقطع موجود في مناطق الشيعة والحجاز، وربما في مناطق أخرى من المملكة.. وليس هناك من حلول للقضاء على مثل هذه الروح الآخذة في الانتشار إلا بالقضاء على عوامل التذمر، وأن يكون توحيد المصالح والنفوس أهم من توحيد الأراضي بالقوة.. ومن هنا ينبع خطر ما تجره سياسة التمييز الطائفي والمناطقي الحكومية.. إنها تجرّنا إلى التشرذم وتؤجّج في نفوس مواطنينا الروح الجاهلية الانفصالية، رغم أن العائلة المالكة لا تزال تفاخر بأنها حققت الوحدة بالسيف، ولكن ألم يئن لهذا السيف أن يوضع في غمده قبل أن يتحول ضد السياف نفسه؟.

لقد آن لبلدنا أن تعيش روح التسامح، وآن لها أن تعزّز وحدتها وفق تلك الروح، حتى نصل بالوحدة إلى أرقى مستوياتها فيشعر كل مواطن بأنه محترم، فيحرص على حفظ الكيان كله، بعد أن يرى أن مصالحه مرتبطة بمصالح الآخرين.



حمزة جعفر الحسن

١٢/ أكتوبر/ ١٩٩١

العهد التركي

١٨٧١ - ١٩١٣




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

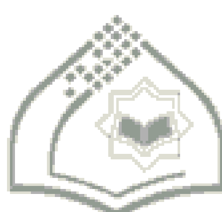
١

الشيعة في المملكة

الهوية، التاريخ، السكان



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

إن تواجد الشيعة في المملكة العربية السعودية أصبح اليوم من الظواهر شديدة الإثارة التـي فرضت نفسـها على الباحثين والدارسـين، خاصـة خلال الخمس عشرة سـنة الأخيرة. وبعد أن كان الشـيعة في المملكة أقليّة لا تثير اهتمام أحد، بل لم يكن يشـعر بوجودها الأقربون فضـلاً عن الأبعدين، وبعد أن كان الاسـتغراب والدهشـة يصدمـان العديد من الناس حول أصل وجود هذه الأقليّة في بلد تحكمه أقليّة مذهبيّة أخرى، بدأ العالم ومنذ نوفمبر ١٩٧٩، أي بعد انتفاضة الشيعة ضدّ الاضطهاد الموجّه إليهم، يتابع تحرّكهم ويدرس أحوالهم وظروفهم، وعلاقة ذلك بالاضطراب السياسي وتأثيراته المستقبليّة على كيان المملكة بشكل عام.

وفي خضم هذا التوجّه والاهتمام المتزايد أُثيرت الكثير من المسـائل المتعلّقة بوجود الشـيعة في أهـم منطقة في المملكة، ليس حـول معتقداتهم، وإنما حول أسـاس تواجدهم ومناطق سـكناهم وتاريخهم وظروفهم وأحوالهم اليوم، وعلاقاتهم بالسـلطات الحاكمة التي تعاقبت على حكم مناطقهم.

إن الإجابـة عن مثل هذه التسـاؤلات يبـدو أمراً ضروريًا للغايـة، وإن تمّ بصورة سريعة، نظراً لأن واقع أي شعب، مرتبط بتاريخه وتراثه الثقافي والفكري.

تاريخ التشيّع في المنطقة

التشـيّع مذهبـاً ليس جديـداً فيـما يُعرف اليـوم بالمنطقـة الشرقيـة في المملكة «الأحسـاء والقطيـف»، باتفـاق جميـع مـن أرّخ لها مـن الماضـين والمعاصرين، ولكنهـم اختلفـوا في تحديد المـدّة التـي دخلها التشـيّع، هل هي في عهد الرسـول ﷺ أم في عهد الإمـام علي بن أبي طالب

عليه السلام، حيث يرى الشيعة أن التشيّع كان معروفاً في عهد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأن العديد من الصحابة عُرفوا بموالاتهم للإمام علي عليه السلام، ويعتقدون أن أوّل من بذر بذور التشيّع فيما عُرف قديماً بمنطقة البحرين، التي كان تشمل (أوال والخط وهجر، والمعروفة اليوم باسم البحرين والقطيف والأحساء على التوالي).. هو الصحابي الجليل أبان بن سعيد بن العاص الأموي، الذي ولّاه رسول الله صلى الله عليه وآله البحرين مسؤولاً عن بيت المال، وكان أبان من الموالين للإمام علي عليه السلام، فغرس بذور التشيّع في المنطقة، وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله لم يبايع أبان أبا بكر بالخلافة حتى بايع الإمام علي عليه السلام نفسه، وتشير بعض الروايات التاريخية إلى أن سبب عزل أبان عن منصبه بعد وفاة الرسول مباشرة يعود، إلى موقفه هذا.

بيد أن المؤرخين الآخرين يقولون: إن التشيّع لم يكن معروفاً حتى خلافة علي بن أبي طالب عليه السلام، وإن منطقة البحرين «القديمة» اعتنقت التشيّع في عهده، وإنها شاركت الإمام في حروبه كلّها (الجمل وصفين والنهروان).

وأيّا كان الأمر، فإن التشيّع ليس جديداً على هذه المنطقة، وإنما عمره يزيد على أربعة عشر قرناً، ويثبت المؤرخون لهذه المنطقة أن رجالها من الصحابة والتابعين والشعراء كانوا من الشيعة، وهم أكثر من أن يذكروا.

منهم على سبيل المثال: الصحابي الجليل حُكيم بن جبلة العبدي، وقد تولّى إمارة السند في عهد الخليفة عثمان بن عفان، وكان مشهوراً بالشجاعة والولاء، واستشهد في معركة الجمل (الأصغر) هو وابنه، وأتباعهما بعد أن رفضوا نزع البيعة من الإمام، وقد ذكره الإمام علي في تبرير قتاله للخارجين عليه بقوله: «...قتلوا شيعتي، وقتلوا أخا ربيعة العبدي، رحمة الله عليه، في عصابة من المسلمين، قالوا: لا ننكث كما نكثتم، ولا نغدر كما غدرتم، فوثبوا عليهم فقتلوهم -إلى أن قال- فقاتلوني وفي أعناقهم بيعتي، ودماء قريب من ألف رجل من شيعتي، فقتلتهم بهم».

ومن رجال الشيعة الذين نبغوا من هذه المنطقة، زيد بن صوحان العبدي، وقد قُتل يوم الجمل، وكان أحد سادات الشيعة في المنطقة، وسبق أن قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «زيد ما زيد؟! تسبقه يده إلى الجنّة ثم يتبعها جسده».. فكان كما قال صلى الله عليه وآله[1].. وقد وقف الإمام علي عليه عند مقتله وفيه رمق، فقال: رحمك الله يا زيد، فلقد كنت خفيف

(١) تحفة المستفيد في تاريخ الأحساء القديم والجديد، الشيخ علي آل عبدالقادر، ص٣٠١.

المؤونة، كثير المعونة. فرفع زيد رأسه وقال: وأنت رحمك الله يا أمير المؤمنين، ما علمتك إلّا بالله عليماً، وفي أم الكتاب عليّاً حكيماً، وأن الله في صدرك لعظيم، والله ما قاتلت معك على جهالة، ولكني سمعت أم سلمة زوجة رسول الله ﷺ تقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله»، فكرهت أن أخذلك فيخذلني الله تعالى.

ومن الصحابة، صعصعة بن صوحان العبدي، أسلم على عهد رسول الله ﷺ، وكان من سادات عبدالقيس وخطبائهم المفوهين، قاتل مع الإمام علي في معاركه، واستشهد أخواه سيحان وزيد في الجمل، توفي في عهد معاوية وقيل: إن الأخير قتله غيلة.

ومنهم التابعي صحار بن العياش العبدي، شهد مع الإمام علي عليه السلام جملة مواقعه.. وكذلك حويرثة بن سميّ العبدي، وقدامة بن مسروق العبدي الذي استشهد مع الإمام علي في صفين.. ومنهم الصحابي الجليل عمرو بن المرجوم العبدي، كان أبوه أحد رؤساء عبدالقيس في الجاهلية، قاتل مع الإمام في الجمل وصفين، وكان من أوائل المجيبين لدعوة الإمام لقتال معاوية، كانت له وقفة مشهودة قال فيها مخاطباً الإمام علي عليه السلام: «وفّق الله أمير المؤمنين، وجمع له أمر المسلمين، ولعن المحلّين القاسطين، الذين لا يقرؤون القرآن، نحن والله عليهم حنقون، ولهم في الله مفارقون، فمتى أردتنا صحبك خيلنا ورجلنا».

ومنهم الحارث بن منصور العبدي الذي شهد صفين مع الإمام علي، والحارث بن مرّة العبدي، الذي كان قائد الميسرة في صفين، وهو الذي غزا الهند سنة ٣٩هـ بعد أن استأذن الإمام في ذلك.

ويذكر المؤرخون أن قبائل الشيعة في البحرين (الأحساء والقطيف والبحرين الحالية)، وهي قبائل ربيعة (عبدالقيس وبكر بن وائل)، كانت من أشد الأنصار لعلي، ولذلك كان يعتمد عليها في حروبه أكثر من أي قبيلة أخرى.. وذكروا أن الإمام علي كان لا يعدل بها أحداً من الناس، كما كان كثير الثناء عليها، ومن جملة مديحه لها في صفين قوله لرؤسائها: «أنتم درعي ورمحي.. أنتم أنصاري ومجيبو دعوتي، ومن أوثق حيّ في العرب في نفسي»، ووصف الإمام علي رايات ربيعة (عبدالقيس وبكر بن وائل تحديداً) بـ«أنها رايات الله». وكان الإمام قد رأى رايات خفاقة فقال: «لمن هذه الرايات؟ فقالوا: هذه رايات ربيعة. فقال: بل هي رايات الله، عصم الله أهلها وصبّرهم وثبّت أقدامهم». وفي

صفين أُعجب الإمام بزحف حامل راية ربيعة الحمراء (الحضين بن منذر) فقال:

لِـمَـن رايـة حـمـراء يخفق ظلّها إذا قيل قـدّمـهـا حضين تقدّما
ويدنوا بها في الصفّ كيما يديرها حمام المنايا تقطر الموت والدما

وليس هناك من شـك في أن الغالبيّة العظمى -على الأقل- من سكان الأحساء والقطيف كما البحرين الحالية، كانوا شيعة موالين لأهل البيت منذ عهد الإمام علي عليه السلام، وقد استمرّ تشبّثهم بولائهم هذا بعد وفاة الإمام وسيطرة الأمويين على الحكم الذين حاولوا ترسيخ أقدامهم في المنطقة، إلّا أنهم فشلوا في ذلك لكثرة المناوئين لهم، ولنزوح الكثير من المعارضين للحكم الأموي إلى تلك المنطقة سواء من الحجاز أو من العراق أو غيرها.. ومن الثابت أن منطقتي الأحساء والقطيف كانتا بؤرة معارضة للدولة الأمويّة حتى انحلالها واستيلاء العباسيين على الخلافة.

وكما حدث للأمويين، فإن العباسيين أهملوا إقليم البحرين لاضطرابه، وكانت ولايتهم عليه اسميّة، وقد اتّخذ العباسيون المنطقة منفى للمعارضين، ربما لكثرة المعارضة فيها، ولم يكن لهذه المنطقة في نهاية القرن الثالث الهجري أيّ علاقة بالخلافة العباسية.

وفي هذه الفترة سيطر القرامطة على المنطقة، وأمعنوا في الشيعة قتلاً وتحريقاً على النحو الذي وصفه شاعر الشيعة ابن المقرب العيوني:

وحـرّقـوا عبد قيس فـي ديـارهـمُ وصـيّـروا الغرّ من ساداتها حمما

واستطاع العيونيون الشيعة في سنة ٤٦٦ هـ إنهاء حكم القرامطة والإجهاز عليهم، وحكموا المنطقة نحو ١٧٠ عاماً.

وإلى هنا فإن معظم سكان المنطقة من الشيعة، وقد بقوا كذلك في عهد الدويلات المتعاقبة كبني عقيل وآل عصفور وآل جروان وآل جبر وآل مغامس.. وحين زار ابن بطوطة المنطقة لاحظ شيعيّتها -بغضّ النظر عن موقفه المذهبي المعادي-، فقد قال: «ثم سافرنا إلى مدينة القطيف، وهي مدينة كبيرة حسنة ذات نخل كثير، يسكنها طوائف العرب، وهم رافضيّة غلاة، يظهرون الرفض جهاراً لا يتّقون أحداً[1]، ويقول مؤذنهم في أذانه بعد الشهادتين: أشهد أن عليًا وليّ الله، ويزيد بعد الحيعلتين: حيّ على خير العمل..

(١) أي أنهم يمارسون حريّاتهم الدينيّة دون خوف.

ويزيد بعد التكبير الأخير -أي بعد الانتهاء من الأذان-: محمد وعلي خير البشر، من خالفهما فقد كفر»[1].

كما أشار ابن بطوطة إلى هجر فقال: إن بها من النخيل ما ليس ببلد سواها، وإن أهلها عرب، أكثرهم من قبيلة عبدالقيس ابن أفصى.

بعد هذا سيطر البرتغاليون على المنطقة في أول استعمار غربي صليبي لمنطقة الخليج، فاستنجد الشيعة بالعثمانيين رغم الخلاف المذهبي، فكانت لهم الغلبة وحكموا المنطقة من سنة ٩٦٠هـ إلى سنة ١٠٨٠هـ، حيث استطاعت قبيلة بني خالد القوية أن تنهي الحكم العثماني وتحكم المنطقة حتى سنة ١٢٠٧هـ. وفي عهد الخوالد هذا، وبعد أن فرضوا حكمهم بالعنف في بدايته، اندمجوا مع الشيعة، وتحوّلت كثير من أفرع قبيلتهم إلى جماعات مستقرة تعتنق المذهب الشيعي.

ومنذ عهد السعوديين الذي بدأ سنة ١٢٠٧هـ وحتى سنة ١٢٣٣هـ بقي العنصر الشيعي مؤثراً سكانيًا واقتصاديًا، واستمر هذا الحال طوال العهد المصري ثم السعودي الثاني، حتى عودة العثمانيين ثانية إلى المنطقة سنة ١٢٨٨هـ وحكمهم لها أكثر من أربعين عاماً وبالتحديد حتى عام ١٣٣١هـ أي إلى أن أجلاهم الملك عبدالعزيز عنها.. طيلة هذه السنين كانت الغَلَبَة السكانية لصالح الشيعة حتى الوقت الحاضر.

وملخص القول: إن التشيّع كان ولا يزال المذهب الأول في المنطقة، منذ دخول الإسلام إليها وحتى اليوم.. ولا صحّة للأقوال المغرضة التي تقول: إن التشيّع انتشر أو وفد من إيران، بل إن الصحيح هو عكس ذلك.. فأهل هذه المنطقة كانوا عنصراً هامًّا في فتوحات فارس، وكانت الهجرة منهم إليها وليس العكس، فضلاً عن أن المذهب السنّي كان هو المذهب الرسمي في إيران قبل قيام الدولة الصفوية، أي أن عمر التشيّع في إيران لم يزد عن خمسة قرون.

في الجانب الأدبي برز من قبائل الشيعة الكثير من الشعراء، وظهرت في أشعارهم مسحة التشيّع لأهل البيت عليهم السلام، نذكر منهم:

(١) رحلة ابن بطوطة، المسماة تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الكتاب اللبناني، ص١٨٦.

الأعور الشني (بشر بن منقذ العبدي):

وكان أحد أهم شعراء الإمام علي في الجمل، وصفين، قال بعد حرب الجمل محرّضاً الإمام على قتال معاوية:

قُلْ لهذا الإمام قد خَبَت الحر ... بُ وتمّت بذلك النّعماءُ
وفرغنا من حرب مَنْ نقضَ العهـ ... ـدَ وبالشامِ حيّة صمّاءُ
تنفثُ السمّ ما لِمَن نهشتهُ ... فارمها قبل أنْ تعضَّ شفاءُ
إنّه والذي يحجّ له النا ... سُ ومن دون بيتهِ البيداءُ
لضعيفُ النخاع إن رُميَ اليـ ... ـومَ بخيلٍ كأنّها الأشلاءُ
جانحاتٍ تحتَ العجاج سخالاً ... مجهضاتٍ تخالها الأسلاءُ
تتبارى بكلّ أصيدَ كالفحـ ... ـلِ بكفّيه صعدةٌ سمراءُ
ثمّ لا ينثني الحديدُ ولمّا ... يخضبُ العاملين منها الدماءُ
إنْ تذرهُ فما معاويةُ الدّ ... هر بمعطيك ما أراك تشاءُ
ولنيلُ السماك أقرب من ذا ... ونجمُ العيّوقِ والعوّاءُ
فاضربِ الحدّ والحديد إليه ... ليس والله غير ذاكَ دواءُ

وجاء الأعور الشني إلى الإمام في صفين وقال له: «زاد الله في هداك وسرورك، نظرت بنور الله فقدّمت رجالاً وأخّرت رجالاً، فعليك أن تقول وعلينا أن نفعل، أنت الإمام، فإن هلكت فهذان من بعدك -يعني الحسن والحسين-، وقد قلتُ شيئاً فاسمعه».
قال الإمام: هاتِ. فأنشد الشاعر:

أبا حسن أنتَ شمسُ النهار ... وهذان في الحادثات القمر
وأنت وهذان حتى الممات ... بمنزلة السمع بعدَ البصر
وأنتم أناسٌ لكم سورةٌ ... يقصّر عنها أكفّ البشر
يخبّرنا الناس عن فضلكم ... وفضلكم اليوم فوق الخبر
عقدت لقوم ذوي نجدةٍ ... من أهل الحياء وأهل الخطر
ضربناهمُ قبل نصف النهارِ ... إلى الليل حتى قضينا الوطر
ولم يأخذ الضربُ إلّا الرؤوسَ ... ولم يأخذ الطعنُ إلّا الثّغَر

فـنـحـنُ أولـئـك فـي أمـسـنـا ... ونـحـنُ كـذلـك فـيـمـا غَـبَـر

وقال مفاخراً بربيعة التي ينتمي إليها مبدياً اعتزازه بمديح الإمام علي عليه السلام لها، واعتماده عليها:

أتـانـا أمـيـرُ المؤمنين فحسبنا ... على الناس طرًّا أجمعين بها فضلا
على حين أن زلّت بنا النعلُ زلّةً ... ولم تترك الحربُ العوانُ لنا فحلا
وقـد أكلـت منّـا ومنهم فـوارسـاً ... كما تأكلُ النيرانُ ذا الحطب الجزلا
وكـنّـا لـه فـي ذلـك الـيوم جنّـةً ... وكـنّـا لـه مـن دون أنفسنا نعلا
فأثنى ثـنـاءً لـم يـرَ الـنـاسُ مثله ... على قومنا طـرًّا وكـنّـا لـه أهلا

وهجا في صفين أحد أعدائه فقال:

مـا زلـتَ تنظرُ في عطفيك أبّهةً ... لا يرفعُ الطرفَ منك التّيهُ والصّلفُ
لا تحسبُ الـقـومَ إلّا فقعَ قرقرةٍ ... أو شحمةً بزّهـا شـاوٍ لـه نُطَفُ
حتى لقيتَ ابن مخزومٍ وأيّ فتى ... أحـيـا مـآثـر آبـاءٍ لـه سلفوا
لـمّـا رأيـتـهـمُ صُـبـحـاً حسبتهمُ ... أُسدُ العرينِ حمى أشباله الغُرُفُ
ناديتَ خيلك إذْ عضّ الثّقافُ بهم: ... خيلي إلـيَّ، فما عاجوا ولا عطفوا
هـلّا عطفتَ على قتلى مصرّعة ... منها السكونُ ومنها الأزدُ والصّدِفُ
قد كنتَ في منظر من ذا ومُستَمَعٍ ... يا عُتبُ لولا سفاهُ الرأيِ والسرفُ
فاليوم يُـقـرعُ منك الـسّـنّ عن ندمٍ ... ما للمبارز إلّا العجز والنّصَفُ

وكان الشني من الرافضين للتحكيم، كما كان رافضاً أن يكون الأشعري هو ممثل جيش الإمام، وحين أُجبر الإمام علي على قبول أبي موسى الأشعري، قال الشني ساخطاً وساخراً من شريح بن هاني الذي تولّى تجهيز أبي موسى:

زَفَـفـتَ ابـنَ قيسٍ زفـافَ العروس ... شـريـحُ إلـى دُومـةِ الـجـنـدلِ
وفـي زفّـكَ الأشـعـريّ الـبـلاءُ ... ومـا يُـقْـضَ مـن حـادثٍ ينـزلِ
ومـا الأشـعـريّ بـذي إربـةٍ ... ولا صـاحـبِ الخطبةِ الفيصلِ
ولا آخـذاً حـظّ أهـل الـعـراقِ ... ولـو قـيـلَ هـا خُـذهُ لـم يفعلِ
يـحـاول عـمـراً وعـمـروٌ له ... خـدائـعُ يـأتـي بـهـا مـن علِ

فــإن يـحـكـمـا بـالـهـدى يُتبعا ... وإن يحكما بـالـهـوى الأمـيـلِ
يـكـونـا كـتـيـسـين فـي قـفـرةٍ ... أكـيـلـي نـقـيـفٍ مـن الـحـنـظـلِ

وفشا في الناس أن أبا موسى سيخلع الإمام عليًّا قبل أن يصل دومة الجندل، فأرسل له الأعور الشني راكباً ومعه هذه الأبيات:

أبـا مـوسـى جـزاكَ الـلـه خـيـراً ... عـراقـكَ إن حـظّـك فـي الـعـراقِ
وإنّ الـشـام قـد نـصـبـوا إمـامـاً ... مـن الأحـزابِ مـعـروفَ النفاقِ
وإنّـا لا نـزال لـهـم عـدواً ... أبـا مـوسـى إلـى يـومِ التلاقي
فـلا تجعل مـعـاويـةَ بـن حـربٍ ... إمـامـاً مـا مـشـتْ قـدمٌ بـسـاقِ
ولا تـحـكـم بـأنّ سـوى عـلـيٍّ ... إمـامـاً، إنّ هـذا الـشـرّ بـاقِ

وجاءت النتيجة المتوقّعة من التحكيم، ورجع وفد الإمام علي إلى الكوفة مكتئباً، فقال الشني متألّمًا:

ألَـمْ تـرَ أنّ الـلـه يقضي بحكمهِ ... وعـمـروٌ وعـبـدالـلـه يختلفان
وليسا بـمـهـدَي أُمّـة مـن ضلالةٍ ... بـدرمـاء سخما فـتـنـةٍ عَـمِـيَـانِ
أثـارا لما في النفس من كلّ حاجةٍ ... شـديـدانِ ضـرّاران مؤتلفانِ
أصمّان عن صوتِ المنادي تراهما ... عـلـى دارة بـيـضـاء يعتلجان

وهناك شعر كثير لأعور الشني، الذي يعدّ من فحول الشعراء.

الصلتان العبدي:

واسمه قثم بن خبيئة من بني محارب من عبدالقيس.. كان من شيعة الإمام علي عليه السلام، وقد رافقه في حروبه، كالجمل وصفين، كما كان أحد شعرائه المشهورين في تلك المعارك.

من شعره في صفين، هجاؤه لأحد أعدائه بعد أن وسّدته السيوف الثرى:

ألا يـا عُبيد الله مـا زلـت مولعاً ... ببكر لها تُهدي اللّغا والتهدّدا
كـأنّ حـمـاةَ الـحـيّ من بكر وائـلٍ ... بذي الرّمث أُسـدٌ قد تبوّأن غرقدا
وكـنـتَ سفيهاً قـد تـعـوّدت عـادةً ... وكـلّ امـرئٍ جـارٍ على ما تعوّدا

فأصبحتَ مصلوباً على شرّ آلةٍ صريع قناً بين العجاجةِ مُفردا
تشقّ عليك الجيبَ ابنةُ هانئ مسلّبة تبدي الشّجا والتلدّدا
وكانت ترى ذا الأمرَ قبل عِيانهِ ولكنّ أمرَ الله أهدى لك الردى
وقالت: عُبيد الله لا تأتِ وائلاً فقلتَ لها: لا تعجلي وانظري غدا
فقد جاء ما منّيتها فتسلّبت عليكَ وأمسى الجيبُ منها مقدّدا
حباكَ أخو الهيجا حُريث بن جابرٍ بجيّاشةٍ تحكي الهديرَ المندّدا

وقال في التحكيم:

لعمرُك لا أُلفي مدى الدّهر خالعاً عليًا بقول الأشعريّ ولا عمروِ
فإن يحكما بالحقّ نقبلْهُ منهما وإلّا أثرناها كراغية البَكرِ
ولسنا نقول الدّهرَ ذاك إليهما وفي ذاكَ لو قُلناهُ قاصمةُ الظهرِ
وما اليوم إلّا مثلُ أمس وإننا لفي وَشَلِ الضحضاحِ أو لُجَّةِ البحرِ

وللصلتان شعرٌ يفيض حكمة، يقول:

أشابَ الصغيرَ وأفنى الكبيرَ مرورُ الغداةِ وكرّ العشي
إذا هزمت ليلة يومها أتى بعد ذلك يومٌ فتي
نروحُ ونغدو لحاجاتنا وحاجة من عاش لا تنقضي
تموتُ مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقي
بُنيّ بدا خبء نجوى الرجال فكن عند سرّك خبْء النّجي
وسرّك ما كان عند امرئٍ وسرّ الثلاثة غير الخفي
كما الصمت أدنى لبعض الرشاد وبعض التكلّم أدنى لعي

وقال في تحكيمه بين الفرزدق وجرير:

فإن كنتما حكمتماني فأنصتا ولا تجزعا وليرضَ بالحق قانعُ
فإن ترضيا أو تجزعا لا أقلكما وللحق بين الناس راضٍ وجازعُ
فإن يكُ بحر الحنظليين واحداً فما تستوي حيتانه والضفادع
وما يستوي صدر القناة وزجّها وما يستوي شمّ الذرى والأكارعُ
وليس الذنابى كالقدامى وريشها وما تستوي في الكفّ منك الأصابعُ

ألا إنما تحظى كليب بشعرها وبالمجد تحظى دارمٌ والأقارعُ

زياد الأعجم:

سكن إصطخر فغلبت العُجْمَةُ لسانه، عاش حتى أواخر الحكم الأموي، مدح العباسيين في البداية ثم عاد فهجاهم بعد أن نكّلوا بآل البيت الذين أخذوا الحكم باسمهم، وقال:

يا ليت جور بني مروان دام لنا وليت عدل بني العباس في النار

قيل: إن الفرزدق أراد هجاء عبدالقيس، فبعث له زياد بأبيات جعلته يتراجع، منها:

وما ترك الهاجون لي إن هجوته مصحاً أراه في أديم الفرزدق
ولا تركوا عظماً يرى تحت لحمه لكاسره أبقوه للمتعرّق
سأكسر ما أبقوه لي من عظامه وأنكث مخ الساق منه وأنتقي
وإنّا وما تهدي لنا إن هجوتنا لكالبحر مهما يلقَ في البحر يغرق

محمد بن ثمامة العبدي:

عاصر العهد الأموي، ومن شعره:

أتزعم أنني أهوى خليلاً سواك على دنوٍ أو بعاد
جحدتُ إذاً موالاتي عليًا وقلتُ بأنني مولى زياد

يحيى بن بلال العبدي:

عاش في صدر الدولة العباسية، من شعره:

أمّا الدعاة إلى الجنانِ فهاشمٌ وبنو أميّة من دعاة النارِ
أأميُّ ما لك من قرار فالحقي بالجن صاغرة بأرض بوارِ
فلئن رحلتِ لترحلن ذميمة وإذا أقمت بذلّة وصَغارِ

الأمير علي بن المقرّب العيوني:

ومن شعره في مديح تاج الدين إسماعيل العلوي:

آباؤه من قريش خيرها حسباً وعزّ حاضرها فيهم وباديها

الضاربون الطّلى والـهـامَ ضاحيةً   في الحرب حين يهزّ الحربَ جانيها
والطّاعنو الخيل شـزراً كـلّ نافذة   نـجـلاء تـبـرقُ منها عـيـنُ آسيها
والموقدون إذا نـارُ القرى خَمَدت   وعـامَ بين اللقاح الـخُـور راعيها
قــومٌ لهم ذروة العلياء يعرفها   دانــي معدّ إذا عُـــدّت وقاصيها
عافوا الظواهر من أُم القرى وبنوا   أبـيـاتـهـم عـــزّةً فـي سـرّ واديـهـا
وأصبحت كعبة الله الـحـرامُ وقد   أضحتْ ومنهم برغم الخصم واليها
ســادوا قريشاً عُـلاً فـي جاهليتها   ومَـــنْ يسامي قريشاً أو يباريها
وكـلّ علياء في الإســلام فهي بهم   تُبنى وقطب الرحى منهم وهاديها
يا مَـنْ يسامي إلى مجدِ بني حسنٍ   عدمتَ رشدك هل خلقٌ يساميها
قبيلةٌ مـن رســول الـلـه عُنصرها   ومــن عليّ فتى الدنيا ومُفتيها
إن القروم السوامي من بني حسنٍ   يُحصى الترابُ ولا تُحصى أياديها

الشيخ جعفر بن محمد بن حسن العبدي الخطي (المعروف بأبي البحر):

ومن شعره في وطنه القطيف:

إن القطيف وإن كَـلِـفْـتُ بحبها   وعَـلَـت على استيطانها زفراتي
إذ أيـن جـزت رأيـت فيها مدرجي   طـفـلاً وأتـــرابـــي بـهـا ولـداتـي
لأجـــلّ ملتمسي وغـايـة منيتي   أنــي أقـيـم بتلكم الـسـاحـات
فسقى الـغـمـام إذا تحمل ركبه   تلك الرحاب الفيح والعرصات

وهزل الشيخ أبو البحر مرة بشاعر قطيفي سنة ١٠٠٧هـ فقال:

يـا خـلـيـليّ مـن ذوابـــة شيبا   ن ويـدعـى لـمـا يـنـوب الخليل
إن هـذا الفتى الـذي وسـم الشعر   بـعـار مـا أن نــراه يــزول
قـد نـضـا مـديـة الـجـهـالـة يفري   ودَجَ الـفـضـل فـهـو مـنـه قتيل
يـا حـمـاة الـقـريـض هـبّـوا لأخذ   الثأر فالخطب لو علمتم جليل
وخـذوا بالترات مـن قاتل الشعر   فما الـحـزم أن تـضـاع الـذحـول
لاك في فيه شحمة الشعر من لم   يـــدرِ مـــا فـــاعـــل ولا مفعول
وادّعـــى رتـبـة البلاغة فـي القول   غـبـيّ لـم يـدرِ «أيـــش» يقول

ورثى شيخ القطيف الأكبر أبا علي عبدالله بن ناصر بن مقلد من بني وايل، فقال:

أكفّ البرايا من تراثهم صفرُ ... وبيض المنايا من دمائهم حمرُ
وخيل الرزايا ما تزال معدّة ... تقاتلنا فرسانها ولها النصرُ
تكرّ علينا البيض والسمر بالردى ... فتبلغ ما لا تبلغ البيض والسمرُ
خليليّ من أبناء بكر ووائل ... قفا واندبا شيخاً به فُجعت بكرُ
وبدراً تراءى للنواظر فاهتدت ... به برهة ثم اختفى ذلك البدر
وعضباً ثنت أيدي النوائب حدّه ... فهلّا اعتراها من مضاربه عقر
أرامي الردى أخطأتنا وأصبته ... أسأت لنا جذّت أناملك العشرُ

الشيخ فرج الخطي:

من أعلام القرن الثاني عشر الهجري، ومن شعره:

هلّا شممتَ روائح التفاحِ ... سَحَراً بقبّة خامسِ الأشباحِ
ورأيتَ نور الله يشرقُ عندهُ ... كالشمس يخمد نيّر المصباحِ
وبكيتَ مصرعهُ المهول بلوعةٍ ... تفري العيون بدمعها السفّاحِ
وسهرتَ ليلك باكياً لمصابه ... وشكوتَ ذاك لفالقِ الإصباحِ
خطبٌ إذا استشعرت أيسر أمره ... عسرت عليّ مسالك الأفراحِ
إنّي لأعجب عند ذكر خطيرهِ ... لتعلّق الأبدان بالأرواحِ

الشيخ حسن التاروتي:

صاحب الرائعة المشهورة في رثاء الإمام الحسين عليه السلام، التي يقول فيها:

ألّا راعبية بالأجرع ... صبابة وجدٍ فلم تهجعِ
أم استوجدت وأتت مورداً ... تمضمض منه ولم تجرعِ
أجارتنا ليس دعوى الأسى ... بأنْ تخضبي الكفّ أو تسجعي
إليَّ حمامة جرع الحمى ... فليس الشجيّ كمن يدّعي
فإمّا استطعت حنيناً له ... يلفّ الحنايا وإلّا دَعي
ودمعٌ إذا فار تنورهُ ... دماً لم أقلْ يا جفوني اقلعي
وداعٍ دعاه: ائتنا للهدى ... ولم يكُ هيّابةً إذا دُعي

ومــن حــولــه تــبّــع إن دعــا   فــمــا حِــمــيــرٌ مَــنْ دعــا تُــبــع
كــأن الــنــجــوم بــهــم تــهــتــدي   إذا حــلّــهــا الــبــدرُ فــي مــطــلــعِ
فــيــا راكــبــاً ظــهــر مــجــدولــةٍ   شــأتْ أربــع الــريــح فــي أربــع
إذا لــمــعــت نــار طــور الــغــري   فــأنــتَ بــوادي طــوى فــاخــلــعِ
وصــلِّ وســلّــم وصِــلْ واســتــلــم   لــقــدس أبــي الــحــســن الأنــزعِ
ونــادِ وقــل: يــا زعــيــم الــصــفــوف   ومــركــز دائــرةِ الأجــمــعِ
أثــرْ نــقــعــهــا فــحــســيــن قــضــى   وغــلّــة أحــشــاه لــم تــنــقــعِ
إذا قــعــدَ الــشــمــرُ فــي صــدره   فــمــا لــقــعــودك مــن مــوضــعِ

الشيخ يوسف أبو ذيب:

ومن شعره:

كأني بــه والفيلقُ اللجبُ حوله   وكــل لــهــامٍ يــقــتــفــيــهِ لــهــامُ
يعبّي بقلب ثابت الجأشِ جيشه   لخوض عبابٍ شبَّ فيه ضرامُ
ويرمي بهم زج المغاوير غارة   كما زجَّ من عوج القسيّ سهامُ
مدججة تغشى الوغى فكأنّه   على الهولِ للحرب الضروس لحامُ
قضى بين أطراف الأسنّة والضبا   بحرّ حشا يذكي لظاه أوامُ
ومن حوله أبنا أبيه وصحبه   كمثلِ الأضاحي غالهنَّ حمامُ
على الأرض صرعى من كهول وفتيةٍ   فرادى على حرّ الصفا وتوامُ
مرمّلة الأجساد مثل أهلّةٍ   عراهنّ من مورِ الرياح جهامُ
وتلك النساء الطاهرات كأنّها   قطا بين أجراع الطفوف هيامُ
يطفنَ على شمّ العرانين سادة   قضوا وهمُ بيضُ الوجوه كرامُ
ويضربن بالأيدي النواصي تولّهاً   وأدمعها كالمعصراتِ سجامُ
وتهوي مروعات بأروع أشمطٍ   طليق المحيّا إن تعبسَ عامُ

الشيخ محسن فرج:

ومن قصائده:

لعمرك مــا الــبــعــاد ولا الــصــدود   يــؤرقــنــي ولا ربــع هــمــودُ

ولـم يـجر الـدمـوع حـداء حـادٍ ... ولا ذكـرى لـيـال لا تـعـودُ
ولـكـنْ أسـبـلَ العينين خطبٌ ... عـظـيـمٌ لـيس يخلقه الـجـديـدُ
عـشـيّـةَ بـالـطـفـوفِ بنـو علـيٍّ ... عـطـاشـىً لا يـبـاح لها الـورودُ
تـذادُ عـن الـفـرات وويـل قـومٍ ... تـذودهـمُ أتـعـلـمُ مـن تـذودُ؟
ألا ويـلُ الـفـرات ولا استهلّتْ ... عـلـى جنـبـيـهِ بـارقـة رعـودُ

الشيخ حبيب التاروتي:

ومن شعره:

سـمـعـاً مـهـفـهـفـة مـن هَـجَـرِ ... أنغمةَ الـصـوت ذا أم رنّـة الوترِ
وذا الـذي عـطّـر الآفـاق فائحهُ ... ترديد نفسك ذا أم نفحة العطرِ
وصفحة الوجه تبدو منك مسفرةً ... أم قرص شمس الضحى أم غرّة القمر
وذا الـذي فـوق متن الظهر منسدل ... ستر الدّجى مرتخٍ أم دجنة الشعَر
وهـذه الوجنةُ الحمراء خـدّك أم ... نـار بثلج فلا بدعاً مـن الـقَدَرِ

الشيخ علي نقي ابن الشيخ أحمد زين الدين الأحسائي:

قال يرثي ابنه حسن، وهو من أعزّ أولاده:

أبـنـيّ لا بـكـت الـعـيـون سـواكـا ... وتـرادفـت سـحـاً عـلـى مغناكا
فـلـقـد بـكـيـت بـدمـعـة مـهـراقـةٍ ... تسقي مـن الـدمـع الملثّ ثراكا
ولـقـد بكيت والـعـيـون نـواعـس ... أرق الـجـفـون بـمـدمـع يغشاكا
قـد كنتُ آمـل أن تعيش لحادثٍ ... مـن بعد مـا يغشى الحمام أباكا
وتـكـون بـعـدي لليتيمة كـافـلاً ... تـبـكـي أبـاهـا حـسـرةً فـتـراكـا
نصبَ المنون عليك أشراك الردى ... فـي قـبّـة لـم تـنـقـشـع بـسـواكـا
إنـي وعـيـشـك لا أعـيـش بفرحةٍ ... مـن أجـل موتك أو أرى لقياكا

ورثى زوجته «نوار»، فقال:

نـوارٌ لقد حـلّـت بتربك رحمة ... تـعـطّـر سـاكـن الـبـرّ والـبـحـر
نـوار خذيها بالتحيّة واعلمي ... بـأن الليالي وصلها ليلة القدر

سقى اللـه قبـراً يا نـوار اكتنفنه هواطل غيث ضـمّ قلبي من قبر
وأردف قبـراً ضـمّ جسمك لحده روافـل مزن الغاديات مدى الدهر
وأسكن قلبي بين جسمك والثرى يقي ناعماً عن ناعم الترب في القبر
إذا مـتّ فادفـنـي بجانب قبرها لعلّ فـؤادي يبرد اليـوم من حرّ
أمـا والـذي صلّى الأنـام لوجهه وقامت له الأشياء بالنهى والأمر
لقد خامرت قلبي فلم يبقَ موضعٌ تحلّ سواها فيه في عامر الدهر

وقال في الفخر رادًّا على بعض أعراب نجد:

إذا افتخرت قومي بمجدٍ مؤثلٍ ففخركم شغرٌ وحلب عشار
لقد كانت النساب في جنب وائلٍ كمثل سـراج فـي ضـيـاء نهار
فمن ذا يـدانـي للمكارم غيرنا ومـن ذا يـدانـي غـيـركـم لشنار
أقـول لـه: كـف الـفـخـار فإنما مـفـاخـركـم بيـن الأنـام عـواري
تـفـاخـرُ قـومـاً كنتمُ أعـبُـداً لهم تـبـاعـون فيهم صفقة بخسار
فخلّوا سبيل المجد تنمى لأهلها ودونـكـم ذلًّا بـكـلّ صـغـار
لبسنا مـن المجد الأثيـل ملاحفاً وإنّـا عـن الـعـار الملم عـواري

وقال في الفخر أيضاً:

وإنّـي امـرؤ لا أرتجي ذا خصاصةٍ أتته الليالي فضل نائلها المرّ
ولا أسـأل الأسـقـاط فضل نوالهم فما الحرّ إلّا أن يقال أخو الصبر
ولست بـمـلّاقٍ أُضـاحـكُ عابساً فما ذاك من خلقي وما بيَ من كبر
ومـا أنـا ركّـاب الـمـفـازةِ طالباً مطامع تستندي من المدح والشعر
سأنفق مالي ما حييت على الملا فإن قلّ مالي كنتُ أنفقُ من صبري
أعـفّ تـقـىً حتى لقد ظُـنَّ أنني نكولٌ إذا ما الأمر ضاق به صدري
وأسطو لدى الهيجاء إنْ شبّ جمرها كما الليث يسطو حين هيج في الخدر
وأحـمـي ذمـاراً شـرّف الله أصله بفعل المعالي والمكارم والفخر
أنا ابن أباة الضيم لا أحمل الأذى ولو كان فيه مورد البيض والسمر

أصل الشيعة العرقي

سكن منطقة البحرين (القديمة) قبائل عربية عديدة قبل الإسلام، كالأزد الذين استقروا بكثافة في عمان، وأياد التي هاجرت من الحجاز، وقبائل تنوخ -وهي قبائل جاءت من تهامة وعقدت حلفاً فيما بينها على الإقامة (التنوخ)-.. غير أن قبائل ربيعة مثل (عبدالقيس وبكر بن وائل) بمختلف أفرعها، أزاحت أياداً والأزد عنها وسيطرت على البحرين جميعاً، فكانت الواحات بيد أفرع من عبدالقيس، ثم يليهم إلى الغرب بنو بكر بن وائل، وإلى غربيهم في البادية بنو تميم.

وقبل أن يدخل الإسلام إلى المنطقة، وبحكم غناها وثروتها واتصالاتها بالأقوام المختلفة لأجل التجارة.. سكن فيها عدد من العناصر غير العربية كالزطّ المجهولي النسب، والنبط، والسيابجة، وعدد محدود من الفرس الذين كانوا يحكمون المنطقة في جاهليتها.. إلّا أن الغالبية كانت من عبدالقيس العرب. وحينما ظهر الإسلام اعتنقه أهلها سلماً، فكانت المنطقة ثاني منطقة تدخل الإسلام بعد المدينة المنورة.

وتدفقت على المنطقة بعد ظهور الإسلام قبائل امتزجت بالسكان.. فسكنتها بطون من بني عامر، وبني كلاب وغيرهم.. وفي الوقت نفسه هاجرت أعداد كبيرة من عبدالقيس إلى العراق في العقد الثاني الهجري في خلافة عمر بن الخطاب، خاصة إلى البصرة والكوفة اللتين ابتنيتا حديثاً.. ولعلّ هذا ما يفسّر الوجود الشيعي المكثّف فيهما الذي بدا واضحاً في أواخر خلافة عثمان بن عفان.

إن كثيراً من أُسر الشيعة المتحضرة -وهي كلّها متحضّرة- ترجع في أصولها إلى هذه القبائل العربية، وإنْ كان المتحضرون في كل بلاد الدنيا لا يهتمون بالأنساب والاعتزاز بها.. وإن العديد من سكان الأحساء والقطيف يعرفون أصولهم العرقيّة، رغم أنهم لا يستطيعون إثبات هذا الانتماء بذكر اتصاله بفرع معروف من فروع إحدى القبائل المذكورة، ويعتبر الباحثون أن هذا الأمر طبيعي جدًّا، وهي إحدى صفات التحضّر والاستقرار[1].

---

(١) المعجم الجغرافي للمنطقة الشرقيّة، الجزء الأول، حمد الجاسر، ص٥٨.

وبعكس هذا نجد البدو يعتزّون بأنسابهم ويعرفون أصولهم، وكانت بادية الأحساء والقطيف تتلقّف الكثير منهم، وهم في أغلبهم سنّة يفدون من وسط وغرب وجنوب الجزيرة العربية، في حين كان السكان الحضر وعلى الدوام شيعة. كان البدو يفدون إلى مناطق الشرق، طمعاً في مراعيها المعشبة، وقرباً من مصادر الثراء والغنى والمياه والزراعة التي يقوم عليها الحضر.. وكان الخلاف بين البدو والحضر أمراً مألوفاً في كل الأنحاء، ومن بينها الأحساء والقطيف، ولم يكن ذلك يعود لأسباب مذهبيّة، فالبدو -كما يقول الباحثون- هم من أبعد الناس عن روابط الدين فضلاً عن المذهب، ولكن لأسباب اجتماعية واقتصادية، وعادات تأصّلت في البدو.

تجدر الإشارة إلى أن كل قبيلة متى ضعفت، وزاحمتها قبيلة أخرى أقوى منها، فإنها تعمد كلها أو بعض فروعها إلى أحد ثلاثة أمور: إما الانضواء تحت سيطرة الأقوى، أو الهجرة إلى بلاد أخرى، أو الاستقرار في المدن والتحضر، فتترك البداوة، ويزول الاسم إلّا من بعض الأفرع الضعيفة التي تنتسب إليها[1]. ولذا فإن الكثير من الأسر الشيعية تنتمي إلى قبائل ضعفت أو هزمت في حروب سابقة، ونخصّ بالذكر قبيلة بني خالد التي ينتمي أعداد غير قليلة من الشيعة إليها.. وكان بنو خالد قد ضعفوا بهزيمتهم على يد السعوديين مرة، وبظهور العجمان مرة أخرى، فاستقرت أفرع منها في المنطقة وتحضّرت وتشيّعت واندمجت مع السكان.. كما أن بعض بني خالد هاجر إلى جنوب العراق وانضوى تحت قبائل أخرى، ولم يبق من القبيلة -في منتصف هذا القرن- سوى بضعة آلاف قليلة تعيش على هامش الحياة السياسية في المنطقة بعد أن كانت زعيمة البدو والحضر معاً.

إن الشيعة عرب في أصلهم، وهم قسمان: قسم ينتمي إلى القبائل العربية الأصلية القديمة التي كانت تقطن المنطقة قبل الإسلام (عبدالقيس وبكر بن وائل)، وقسم ينتمي إلى أصول بدوية تحضّرت واعتنقت المذهب الشيعي، أو عوائل وفروع قبائل أغراها السكن والرفاه، فوفدت من مدن ومناطق مختلفة -خاصة من نجد- إلى الأحساء والقطيف واندمجت مع البقيّة وذابت عصبيّتها.

معظم المصادر العربية والأجنبيّة تجمع على أن شيعة الأحساء والقطيف من ذوي الأصول العربية، وأنهم سكان المنطقة الأصليين منذ قرون طويلة.

(١) المصدر السابق، ص٥٩ - ٦٠.

وبرزت في السنوات الأخيرة ادّعاءات تقول: إن الشيعة غير عرب؛ لأسباب طائفيّة وسياسيّة معروفة. وكانت مثل هذه الادّعاءات قد راجت قبل أن تصبح البحرين إمارة مستقلة، حيث طالب الشاه الإيراني المخلوع بها، وكان العداء السياسي مع إيران الشاه، ومحاولة الأخيرة الادّعاء بتمثيلها لكل الشيعة في البحرين بقسميهم العربي وهو الأكثرية، والأقليّة ذات الأصول الأعجميّة التي وفدت قبل قرون أثناء سيطرة فارس عليها.. كان هذا هو الذي دفع بالقليل من الكتّاب إلى القول بأن الشيعة غير عرب، في حين تصدّى لهم آخرون وأثبتوا عروبة البحرين من خلال عروبة التشيّع والشيعة، وبالتالي عدم أحقيّة فارس في تمثيلهم.

ومن المعلوم والشائع في كتابات المؤرخين المعاصرة والغابرة، قولهم: إن سكان البحرين (القديمة) هم من البحارنة الشيعة، وإنهم دون غيرهم سكان هذه المنطقة الأصليين.

وبالنسبة لمنطقتي الأحساء والقطيف، فإن احتكاكها بفارس كان ضعيفاً، عدا التوافق المذهبي، ونزوح جماعات من الشيعة إلى أقاليم فارس المأهولة بالعرب على امتداد ساحل الخليج الشرقي، وبالخصوص إلى ما عرف سابقاً باسم إمارة «عربستان».. ولم يثبت المؤرخون، كما لم يعهد السكان الشيعة المحليون، أن عناصر فارسية استوطنت هذه المنطقة، بعكس مناطق الخليج الأخرى، حيث تتواجد أقليّات إيرانية شيعيّة وسنيّة في الإمارات وقطر والكويت.

غير أن تصاعد الخلاف بين إيران بعد ثورتها على الشاه مع الحكومة السعودية، وعزف الأخيرة على الوتر القومي -الذي سبق لها أن حاربته بالعزف على الوتر الديني في العهد الناصري- هو الذي سوّغ لبعض الطائفيين الطعن في عروبة الشيعة وعروبة التشيّع أيضاً.

وهناك العديد من الطائفيين لا تظهر عروبتهم وهم يجدون الإيرانيين ذوي الأصول السنيّة في مختلف دول الخليج، ولا يهتمون بالسلالات الصينية والأندونيسية والهندية والتركية والإيرانية في الحجاز، ولم يحاول هؤلاء تجريد أولئك من حقوقهم الدينية والوطنية بدعوى عدم عروبتهم.. ولكن عدداً من هؤلاء الطائفيين -وبينهم مسؤولون في الدولة السعودية- لا يتورعون عن اتهام رعاياهم الشيعة بأنهم إيرانيون،

يجب طردهم من البلاد! .. إن هؤلاء يتجاهلون حقيقة أن التشيّع والشيعة ليسا طارئين في هذه المنطقة، بل إن الطارئ هم غيرهم الذين لم يمض على بقائهم في مناطق الشيعة أقل من قرن من الزمان، كما يتجاهلون حقيقة أن معارضة الشيعة السياسية للحكومة السعودية قد أُلبست لباساً مذهبيًّا لأغراض معروفة للقاصي والداني.

إن الشيعة في المملكة، ورغم أنهم يتبعون المذهب الاثني عشري كالإيرانيين والعراقيين واللبنانيين وغيرهم، إلّا أنهم عرب، وفي بعض الأحيان يسمّون بـ(البحارنة)، نسبة إلى البحرين القديمة، دلالة على أصالتهم في هذه المنطقة، وهم عرقيًّا قريبون من الشيعة في البحرين[1].

ولا شك في أن أصول الشيعة في البحرين والمنطقة الشرقية من المملكة واحدة، فهم ينتمون جميعاً إلى القبائل العربية القديمة (عبدالقيس بوجه خاص)، وتاريخ المنطقتين واحد إلى أن جاء الاستعمار البرتغالي، فانفصلت البحرين (أوال) عن (الخط وهجر)، كما هو ثابت لدى المؤرخين.

ويضاف إلى هذا أن العوائل في المنطقتين متقاربة نَسَبيًّا، رغم فواصل الحدود، وتكاد لا توجد عائلة في منطقتي الأحساء والقطيف ليس لها ارتباط أو صلة بعوائل في البحرين.. واضح من التاريخ أن الهجرات بين المنطقتين تجري بسهولة، إمّا لأسباب اقتصادية، أو فراراً من الاضطهاد السياسي والمذهبي.. فحينما سيطر آل خليفة سنة ١٧٨٣م على البحرين واحتلوها، أمعنوا في الأهالي قتلاً وسحقاً، ففرّ هؤلاء الشيعة إلى الأحساء.. ويذكر كرستن نيبور أنه في منتصف القرن الثامن عشر كان في البحرين ٣٦٥ قرية ومدينة، وبعد احتلال آل خليفة للبحرين بغزوهم لها من البرّ، أصبحت لا تحتوي إلّا على مدينة واحدة محصّنة، إلى جانب ٤٠ - ٥٠ قرية في حالة سيئة بسبب الحرب الطاحنة بين الغزاة والسكان الشيعة[2].

وبالعكس حدثت هجرات قويّة للشيعة من الأحساء والقطيف إلى البحرين في

(1) Saudi Arabia Modemization, The Impact Of Change On Stabilit. By John A. Shaw & David E. Long, The Center For Stratigic And International Studies. George town University Washington D. C, 1988 P98.

(٢) مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٣٦، أكتوبر ١٩٨٣. دراسة للدكتور محمد رياض تحت عنوان: الخليج والخليجيون قبل عام ١٩٣٠/ دراسة الجغرافيا والسكان والاقتصاد، ص٢٤٥.

مطلع القرن الثالث عشر الهجري، حينما سيطر الوهابيون على المنطقة، وحدثت هجرة مشابهة لتلك سنة ١٩١٣م/ ١٣٣١هـ، وهي السنة التي احتلّ فيها الملك عبدالعزيز ما يعرف اليوم باسم المنطقة الشرقية.. وتحفل دراسات المؤرخين بتأكيدات على أن الشيعة في البحرين ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: الأصليون، والمهاجرون من الأحساء والقطيف، والإيرانيون -وهم قلة-.

وكما أشرنا فإن الشيعة يسمّون بـ(البحارنة)، وهي لفظة يطلقها الطائفيون للسخرية والانتقاص.. ومفرد البحارنة بحراني، وهي صيغة عربية صحيحة للانتساب، فكل من سكن البحرين (الأحساء والقطيف والبحرين الحالية) فهو بحراني، ولأن كل البحارنة تقريباً هم من الشيعة، لذا أصبحت الكلمة مرادفة في المعنى للشيعي.. فالبحراني تعني الشيعي وتعني ساكن المنطقة الأصلي.. إلّا أنّها تعطي بالنسبة للطائفيين معنى دونيًّا تمييزيًّا، فالبحراني الشيعي ابن المنطقة بالنسبة لهم، هو غير العربي (الذي يعني البدوي القبلي والسيّد المسيطر)[1].. الجدير بالذكر أن هناك العديد من التابعين ممن سكن المنطقة يلقبون بالبحراني، بل إن ابن المقرّب العيوني -الشاعر الفحل- ورغم محاولة الطائفيين إلغاء تشيّعه، فإنه يلقب بالعيوني البحراني[2].

ويؤكد أحد الباحثين العرب في دراسته لأصول سكان منطقة الأحساء، أنهم أحفاد لقبائل عربية كانت تسود في الجزيرة العربية منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة[3].. إلاّ أن أحد دعاة الطائفيّة عكس الآية فقال: «والسنّة في الإقليم يرجعون إلى أصل عربي وهم أحفاد العرب الأوائل الذين قطنوا هذا الإقليم منذ زمن بعيد... أما الشيعة فيرجعون في أصولهم إلى أصل عجمي، والقليل منهم من أصل هندي»[4]!.. ولا ندري بماذا يفسرّ الكاتب وجود أغلبيّة شيعية في هذه المنطقة إن كانت أعجميّة أو هنديّة!!

ومما يؤسف له أن الباحثين الأجانب عرفوا أصول الشيعة العربية بأكثر مما فهمها ويفهمها أولئك الذين يملي الحقد الطائفي عليهم في كتاباتهم.. قال أحدهم بأن الشيعة

(١) انظر كتاب: البحرين/ التغيير السياسي والاجتماعي، للدكتور محمد الرميحي، ص٤٨ - ٤٩.
(٢) راجع ديوان ابن المقرّب العيوني، تحقيق عبدالفتاح الحلو.
(٣) الخليج العربي، دراسة في أصول السكان، يوسف محمد الصميط، القاهرة ١٩٧٠، ص٢٦.
(٤) الإصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبدالعزيز، عبدالفتاح بوعليّة، ص٤٧، والكاتب ليس سعوديًّا، وإن كان يحمل الجنسيّة السعوديّة!.

هم عرب يعتنقون شكلاً من الإسلام يتضمّن تبجيل القديسين[1]، وهو إن فهم أصل الشيعة، فإنه لم يستوعب معتقدهم.

ويرد الدكتور الرميحي من الأقوال التي تورد أن شيعة البحرين غير عرب، ويعلّق على دراسة لإحدى الدانماركيات لقرية شيعية في البحرين، بأنها خلطت بين (البحارنة) و (العرب): «ووصل بها الحدّ إلى أن تفتي بأن البحارنة غير العرب، فقالت: هم أنفسهم -أي البحارنة- يصرّون على أنهم غير عرب مثل الحاكم وعائلته.. إنهم يدعون أنفسهم بحارنة».. ويضيف الرميحي: «لقد فشلت الكاتبة في أن تبين المعنى الواضح مما نقلته عن بعض سكان القرية، حيث إنهم يعرفون الشيعة بـ(البحارنة) والسنّة بـ(العرب). فلو سألت نفسها إذن من هم البحارنة لاستطاعت أن تتوصّل إلى أنهم عرب أيضاً»[2].

غير أن الدكتور الرميحي اعترف بصعوبة التعرّف على أصل الشيعة العرقي، واشتكى أن ما بين يديه من مراجع لم يسعفه في تحديد الأصول، مع هذا قال: «إننا نميل إلى القول بأن الشيعة في البحرين -ويصدق ذلك على الأحساء والقطيف- من أصول عربية من العراق لأن اللهجة التي يتكلمون بها تقارب اللهجة العربية السائدة في جنوب العراق».

لا شك في أن هناك صعوبة في التعرف على أنساب الشيعة، ومرّد ذلك كما أشرنا إلى قوانين التحضّر والاستقرار، فهذه المنطقة عريقة في الحضارة، ومجتمع الحضر يذيب -في العادة- الأنساب والأصول، خاصة في التجمّعات الدينية التي لا تتفاخر بأنسابها، ونحسب أن منطقة البحرين بشكل إجمالي واحدة منها.. والذي ميّز المنطقة وبعض مناطق عمان عن نجد ومشيخات الخليج الأخرى، أنها كانت متحضّرة قبلها بمئات -إن لم نقل بآلاف السنين-. فهذه المشيخات ما هي إلّا قبائل مترحلة في أغلبها إلى أن استقرّت قبل سنوات قليلة وتحوّلت إلى إمارات.. والقبائل تحافظ على أنسابها لأنه لا قيام لقبيلة إلّا بها.

فلا الدين عندها يجمع أفرادها بأقوى مما يجمعها النسب، ولا روح الأخوة والإسلام تشدّهم كعصبيّة القبيلة. ولتحضّر هؤلاء المتأخر في نجد وقطر والكويت

(١) مايكل فيلد، التجار، الجزء الأول، ترجمة دهام عطاونة، ص٦٩.
(٢) الرميحي، مصدر سابق، ص٤٨ - ٤٩.

وبعض قبائل عمان والإمارات، فإن من الطبيعي أنهم يعرفون أنسابهم.

لكن هل يمكن معرفة أنساب سكان دمشق أو القاهرة أو بغداد؟!.. إن المسألة تبدو في غاية الصعوبة، وبالنسبة للشيعة فإنها تبدو أكثر إغراقاً في الصعوبات، لخصوصيّة في المذهب الشيعي الذي لا يحفل بالقوميات أكثر من أي مذهب إسلامي آخر.

ومع أن هناك الكثير من العوائل النجدية والقبليّة الأخرى استوطنت الأحساء قبل حوالي ثلاثة قرون واعتنقت المذهب الشيعي، إلا أن معظم أفرادها لا يدركون أصولهم العرقية ولا انتماءاتهم المذهبيّة السابقة، إلّا قلّة من رجالهم المعمرين في السن.

وهناك مسألة أخرى تتعلق بصعوبة التعرّف على أصول السكان من خلال اللهجات.. صحيح أن الشيعة في البحرين والمنطقة الشرقية في المملكة تأثرت لهجتهم باللهجة العراقية، نظراً للتداخل المذهبي، وباعتبار أن العراق كان مهوى العلم والعلماء، وأن معظم علماء الشيعة في هذه المناطق درسوا في تلك البقاع، وأن معظم الشيعة يزورون الأماكن المقدسة الدينية.. قد تكون هذه أسباب تأثّر لهجة الشيعة في الخليج باللهجة العراقية، لكن الاختلاف بينها واسع بيّن.

قد تكون لهجة الشيعة في المنطقة غريبة على مسامع السكان البدو الوافدين، تماماً مثلما هي لهجتهم غريبة على أسماع السكان الأصليين، فهل يصحّ أن يقيّم البدوي الوافد لهجة السكان الأصليين ويقرّر أنهم -وبحكم اقتراب لهجتهم بلهجة سكان آخرين- أنهم من أصل مشترك، أو وافدين من ذلك البلد؟!

ومع وضوح عروبة سكان المنطقة، فإنك تجد من يعرّف كلمة (البحراني) بصورة خاطئة متعمّدة، فيقول: إن شيعة البحرين والقطيف والهفوف ينطقون باللغة العربية(!).. واستكثر عليهم أن يصفهم بالعرب، أو أن يقول: إن لغتهم هي العربية، وإنهم لا يجيدون غيرها.. ثم أشار بتفاخر إلى أن السنة في الأحساء يطلقون لقب البحراني على كل شيعي[1].

(١) الإصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبدالعزيز، ص٤٨.

أماكن تواجد الشيعة وعوائلهم وشخصياتهم

يسكن الشيعة الاثنا عشرية (الإماميّة) في مدن وقرى المنطقة الشرقية، إضافة إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة.. يقول الدكتور عبدالله الحامد: «لا يوجد في كل الأقاليم -في المملكة- دين غير الإسلام.. والإماميون في مكة والمدينة، ويتكاثرون في الأحساء والقطيف. والقطيف خاصّة كل سكّانها من الشيعة»[1]، فيما يتمركز الإسماعيليون جنوب المملكة (نجران وقراها)، وتوجد أقليّات شيعيّة (زيدية وإماميّة) في مدن وقرى مختلفة من المملكة.

أماكن وعوائل الشيعة في الأحساء

الهفوف

وهي عاصمة الإقليم وتشمل نحو ثلث سكانه.. وتبلغ نسبة الشيعة في الهفوف نحو ستين بالمائة من سكانها، ويقطنون العديد من أحيائها بأغلبيّة ساحقة مثل: الرفعة الشمالية، الرفعة الجنوبية، الكوت، الفريق الشمالي، الفاضليّة، التعاون، المزرع، السدرة، الحداديد، السويج، النعاثل، الرقيات، اليحيى، الأندلس، الزقيقان.

من العوائل الشيعة فيها:

- آل بوخمسين، وتوجد عوائل من آل بوخمسين في الكويت والبصرة نزحوا من الأحساء.
- العامر، ولهم أقرباء في الزبير.
- الشوّاف، ولهم أقارب في الكويت.
- البوحليقة، ولهم بعض الأقارب في الكويت.
- الرمضان، ولهم بعض الأقارب في الكويت.

(١) الشعر في الجزيرة العربية، الدكتور عبدالله الحامد العلي، ص٣٨ - ٣٩.

- الأمير، وللعائلة أقارب يقطنون في الكويت.
- القطان، وللعائلة أقارب في الكويت.
- ومن عوائلها: آل بو علي، البقشي، الخرس، الشبيث، السادة (آل صالح)، الوصيبعي، الهلال، الطويل، الغريري، السادة (الحداد)، بو مره، آل حمد، آل سليمان الناصر، العوض، آل إبراهيم، المعيلي، آل حمادة، آل معيوف، آل عبدالسلام، الغدير، المبارك، الحليلي، الجاسم، التمّار، القضيب، السليمان، الحمضة، الحدّاد، البوناصر، آل سعد، العبد النبي، محمد صالح، الغراش، العبد الرضا، العبدالباقي، الحسن، العمر، العمران، الحميدي، آل بن سليمان، الشبعان، الغانم، آل ابن الشيخ.
- ومن عوائل الهفوف: السادة (آل السويج)، وللعائلة فرع في البصرة يحمل الاسم نفسه. وعائلة الحرز. وعائلة الوايل.
- ومن بين عوائل الهفوف: عائلة الهاجري، وعائلة آل خليفة، وعائلة المهنا، وعائلة البغلي، وعائلة القرقوش، وعائلة بن دهنين، وعائلة الصحّاف.

المبرز:

وهي المدينة الثانية في الإقليم الأحسائي، ويبلغ عدد الشيعة فيها نحو ٥٥٪ من سكانها، ويقطنون الأحياء التالية: الشعبة القديمة، الشعبة الجديدة، السياسب، المجابل (المقابل)، العيوني، العتبان، النزهة، اليحيى، الخرس، الراشدية، محاسن، الحمادية، القوع (قوع العتبان).

ومن العوائل الشيعة فيها:

- السادة، ومن بينهم عوائل (العلي، الهاشم، الصالح، اليوسف، المحسن، الأحمد، السلمان والحسن).
- الجبران، ويرجح أنهم من قبيلة بني هاجر، وكان سكنهم في قرية البطالية ثم نزحوا إلى المبرز.
- ومن عوائل المبرز: آل ماجد، وهم قسمان شيعة وسنّة ينتمون إلى قبيلة عنزة.

- ومن عوائل المبرز الشيعيّة: الخليفة، البشر، البحراني، والكويتي، والقطيفي، والمهنا، والناصر، وآل شمس (شيعة وسنة ينتمون إلى قبيلة سبيع)، وعائلة الملا (شيعة وسنّة)، والبوصالح، والحداد، والمرهون، والاسماعيل، والبراهيم، والعلوان (شيعة وسنّة)، وعائلة العمران (شيعة وسنّة من عنزة)، والبوخضر، الحميد (شيعة وسنة)، والخميس، والغشام، والمجحد، والزين، والحمّود، وعائلتي المبارك والعيسى (شيعة وسنّة)، وعائلة العليوي، والعوض (شيعة وسنّة)، والعويض، الحواج، النجيدي، الصايغ، الوايل، النمر، الدجاني، النجار، التمار، الوصيبعي، آل ثاني (شيعة وسنة)، آل بن سعد.

وفيما يلي قرى الأحساء التي تسكنها أكثرية شيعية:

الجبيل:

وهي قرية تقع شرقي الهفوف، قال الشيخ آل عبدالقادر عن سكانها «وأهلها شيعة فلاحون»[1].. ومن عوائلها السادة (آل حسين، آل هاشم، آل حسن، آل بن محسن).. آل الشايب، آل عبدالرضا، آل بن نصر، آل عيسى، آل عبدالله، آل حيا، آل عبّود، آل ممتّن.

الشهارين:

وتقع شرقي قرية الفضول، وكلّ سكانها من الشيعة، قال صاحب التحفة عن ذلك بعبارته المعتادة: «قرية الشهارين يمرّ بها نهر من عين برابر.. سكانها شيعة فلاحون»[2].

ومن بين سكنتها العوائل التالية: آل بديوي، آل صقر، آل عبّاد، آل حسين، العقيلي، الدالوي[3].

(١) آل عبدالقادر، مصدر سابق، ص٣٩.

(٢) المصدر السابق، ص٣٩.

(٣) وينتمي إلى عائلة الدالوي الباحث والطبيب الشعبي المشهور: ناصر علي الدالوي، الذي اكتشف عقاراً يسبّب العقم الدائم، وآخر للعقم المؤقت. وقد سجّلت اكتشافه الأوّل موسوعة الطبّ العالميّة. اعتقلته المباحث السعودية لعشرة أيام في عام ١٩٨٧ لمسائل تتعلّق ببحوثه، وقيل: إن الشيخ زايد آل نهيان -رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة- عرض عليه أن يسكن في الإمارات لإعداد أبحاثه وتجاربه، ولكنه اعتذر عن ذلك بأنه «لا يستطيع أن يترك وطنه».

البطّالية:

وتُنسب إلى مالك بن بطّال، أحد رجال الدولة العيونية التي حكمت المنطقة، وقد مدحه ابن المقرّب العيوني بقوله:

ومالك حين ندعوه فأي فتى   حرب إذا ما التقى الرجاف فالتطما

والبطالية قرية قريبة من مدينة هجر التي كانت معروفة في العهد الإسلامي -كما يقول علامة الجزيرة حمد الجاسر- والذي زارها عام ١٣٥٨هـ فقرّر أنها قائمة على أنقاض مدينة الأحساء التي اتخذها (القرامطة) منطلقاً لهم، وأنها كانت تتكون من أحياء أربعة، وقال: إنها تروى من عيني (الحارّة والجوهرية).

وشاهد الجاسر مساحة واسعة يطلق عليها الناس (قصر قريمط).. وكانت هناك آثار أخرى مثل (المسجد الجامع) الذي يسمّيه الأهالي (مسجد قريمط)، وكذلك آثار الحمّام الذي قتل فيه آخر رؤساء القرامطة. غير أن هذه الآثار زالت وأنشئت على أنقاضها أبنية حديثة[1].

قال لوريمر عن سكان البطالية في مطلع القرن العشرين، أن فيها ٣٢٥ منزلاً، وأن سكانها من الشيعة.. وقال آل عبدالقادر «وجميع أهلها شيعة فلاحون»[2].

ومن العوائل التي تسكنها: المسبّح، وهناك عائلة الشيخ وعائلة العبدالرضا، والكرّي، والحجّي، والمسلّمي، وآل رزق، وآل عمّار.

المطيرفي:

وجميع أهلها من الشيعة، وتكثر في القرية الينابيع الحارّة والنخيل والزروع، ويسكنها آل خويتم (من الزعب)، وقد كانوا زعماء البلدة فيما مضى. كما يسكنها عائلة البندر، والعبيدون، والبخيتان التي ينتسب إليها عمدة البلدة في الوقت الحالي.

ومن عوائلها آل حجّي، والسادة (آل علي)، الجزيري.

---

(١) المعجم الجغرافي للمنطقة الشرقية، الجزء الأول، ص٢٣١ - ٢٣٢.

(٢) آل عبدالقادر، مصدر سابق، ص٤٥.

وكان العديد من بني خالد قد انتقلوا إليها فيما مضى من السنين وتشيّعوا[1].

بني معن:

وهي قرية تقع شرق الهفوف، وكل سكانها من الشيعة.. ويسكنها من العوائل: آل عطيّة، وآل خميس (قيل إنهم من سبيع)، وآل بو قرين، والسادة، والشقاقيق[2].

الدالوة:

وجميع سكانها من الشيعة. ومن عائلاتها: السادة (آل ناصر، وآل هاشم)، وآل تريكي، المطاوعة[3].

القارة:

وكل سكانها من الشيعة.. ومن عوائلها: السادة (آل محسن وآل الشخص والسلمان)، وآل الشخص عائلة علمية. وهناك عائلة العيثان.

وتشتهر القارة بجبلها المعروف باسمها (جبل القارة).

المنصورة:

وكل أهلها شيعة، ومن عوائلها: السلمان، العبّاد، آل حبابي، آل أوباري، الفضلي. ومن عوائلها أيضاً: السلطان والعيسى.

التيمية:

وجميع سكانها من الشيعة، وكانت بلدة علم وفضل.. قيل: إنّها كانت عامرة

---

(١) قال أحد كبار آل خويتم: إن الأمير محمد بن فهد بن جلوي -أمير الأحساء- سأله عن نسب عائلته -والأمير له اهتماماته بهذه المسائل-، فأجاب: إنه من الزعب. فقال الأمير: أريد مصادر أعتمد عليها. فقال له: إنكم لم تتركوا للشيعة كُتباً، فقد أحرقتموها.

وقال آخر من زعماء العائلة: إنه يحتفظ بـ«صك» أعطاه الملك عبدالعزيز لعمدة البلدة -المطيرفي- يمنحه سلطات واسعة في بلدته، ولكنه يعترف بأنها كانت مجرد (ورقة) لا قيمة لها.

(٢) لقاء في ١٥/ ٢/ ١٩٨٩ مع السيد محمد. ن. غ.

(٣) لقاء مع م. ب. خ، في الثامن من محرم ١٤٠٩هـ.

بالمجتهدين، الذين بلغوا أربعين مجتهداً في آن واحداً، وذلك قبيل الاحتلال السعودي الأخير للمنطقة.. وأشارت روايات المؤرخين الرسميين إلى أن مساجد هذه القرية وغيرها من القرى قد هدمت باعتبارها (كنائس!).

قال المرحوم الشيخ فرج العمران فيها:

قدّسوها مدينة التيميّة ... فهي من خيرة القرى الهجريّة

قدّسوا تلكم الربوع اللواتي ... هي بالأمس مشرقاتٌ مضيّة

جمعت أربعين من علماء الدّ ... ين ممّن نالوا المراقي العليّة

ويسكن التيمية: آل بو عامر، آل عبدالرزاق، آل عباد وغيرهم.

الطريبيل:



جميع سكانها شيعة، وهي من القرى التاريخية القديمة.. من العوائل القاطنة بها: الهاجري، آل بوشفيع.

التويثير:

جميع سكانها من الشيعة، وسكان القرية كغيرها من القرى، خليط من أبناء القبائل التي تحضّرت، إضافة إلى السكان الأصليين.. ويسكن القرية عدد من السادة (آل حاجي، آل برّاقي، آل بن محسن، الحسن)، كما ويسكن القرية آل عبدالله، والشقاق.

القرن:

جميع سكانها من الشيعة.. ومن عوائلها: الحسين، وعائلة السادة، وآل عطيّة، وآل جريدان.

الحوطة

وجميع سكانها من الشيعة، منهم عائلة الشريط.

القرين:

جميع أهلها من الشيعة. ومن عوائلها: الجبران، وآل حسن الناصر، وآل بو علي، والسادة.

العَقَار:

جميع سكانها من الشيعة، كما قال الشيخ آل عبدالقادر، ولكن الأستاذ حمد الجاسر نقل خطأً عن كتاب (دليل الخليج) بأن جميع سكانها من السنّة.

الحليلة:

تقع شمال شرق المفوف، كان للدائرة السنيّة التركية فيها أراضٍ مزروعة بالأرز، وجميع سكانها من الشيعة. من عوائلها آل مبارك، آل خميس، آل سلطان، البحراني، آل بورقيبة، آل كشي، آل عباد، الخضيري، الحليمي، الحليل.

غمسي:

جميع سكانها من الشيعة. ومن عوائلها: الراشد.

المزاوي:

جميع سكانها من الشيعة. ومن عوائلها: آل نصيّر.

المركز:

جميع سكانها من الشيعة، ومن عوائلها: آل حسين، آل ناصر، السلمان، السادة (آل هاشم)، الجاسم.

السيايرة:

جميع سكانها من الشيعة، ومن عوائلها: الراشد، العليوي.

بني نحو:

قرب الهفوف، جميع أهلها من الشيعة.

أبو ثور:

قرية جميع سكانها من الشيعة.

الرميلة:

جميع سكانها من الشيعة. ومن عوائلها: الناصر، الشقاقيق، الراشد، آل صالح، السادة (السلمان)، اللويمي.

الساباط:

من قرى الهفوف، وجميع سكانها من الشيعة. ومن عوائلها: آل محسن، آل حسن، آل بطي، البحراني.

العمران الشمالية:

تقع في شمال شرقي الهفوف، وجميع سكانها من الشيعة. من عوائلها: آل علي، آل السليم، النجيدي.

العمران الجنوبية:

وتقع شمال شرقي الهفوف. ومن عوائلها: السادة، الشايب.

الشعبة:

يقع إلى جانبها جبل كنزان الذي وقعت بالقرب منه موقعة كنزان بين الملك عبدالعزيز والعجمان.. معظم سكان القرية من الشيعة.. ومن العوائل التي تسكنها: الحليمي، الخميس.

المنيزلة:

وتسكنها أكثرية شيعيّة، ومن عوائلها، آل حسين، آل ناصر، السلمان.

الفضول:

قرية تسكنها أكثرية شيعيّة. ومن عوائلها: المطر، آل صويّل، آل كاظم.

وكانت قرية الفضول قد صارت مثلاً بعد أن (ذبح) الوهابيون معظم سكانها (ذبح النعاج) كما يقول المؤرخ الوهابي حسين بن غنّام متفاخراً في كتابه «روضة الأفكار والأفهام».. وكانت المجزرة قد وقعت عام ١٢٠٣هـ.

جليجلة:

يسكنها خليط من السنّة (العجمان) والشيعة، وقد تزايدت أعداد الشيعة حتى قدّروا بنصف سكان القرية. ومن عوائلها آل جعفري، آل جعيدان، الحسن.

الطرف:

كانت الغالبية من سكانها من أهل السنّة، غير أن الكثير منهم رحلوا إلى مناطق أخرى وخاصة إلى المدن، ونزح إليها عدد من العوائل الشيعية.. يقدر الشيعة فيها بالنصف تقريباً من مجموع السكان. ومن عوائل الطرف الشيعية: البديوي، الأحمد، الشملان، آل شريدة.

الجفر:

يقدّر عدد الشيعة فيها بنصف السكان، ومن عوائلها: العالم، آل جاسم، آل أحمد.

الجشّة:

يسكنها خليط من الشيعة والسنّة، ومن عوائلها الشيعيّة، آل بدر، المليفي.

الصبايخ:

وكلّ أهلها شيعة.

وهناك عدة قرى يسكنها الشيعة مثل: أبو الرمل، أبو الحصى، الدويكية، الصبايخ، الشويكيّة، السيدوية، السويدر، الضاحية، العرّاميّة، العُليّة، الغرس، واسط.

مراكز تواجد الشيعة في القطيف

القطيف:

جميع سكانها من الشيعة، ومن عوائلها:

- أبو ذيب، البحارنة، البحر: من الميّاس، الحجّي، آل جمعة، أخوان، الجشي، وهي عائلة علميّة وأدبيّة، المحروس: من الأسر الشهيرة في الكويكب بالقطيف، آل الخنيزي (الخطّي)، السنان، آل حمّار، السويكت، الصفار، آل العلقم، آل غريب، الجامد، المديفع، الرمضان، آل قيصوم، الماحوزي، القطان، الشويكي، المقابي، المسلم، الحوّاج: من السادة، العلويات، البدر، المسحّر: من السادة الموسويين، قطنوا الكويكب، الغانم: عائلة تولّت زعامة الشيعة في القطيف في العهد الماضي، الذهبة: تقطن هذه العائلة الكويكب، الحكيم، الإسكافي: تسكن هذه العائلة الدبابيّة، آل رقيّة، آل خزام، أبو عزيز: عائلة تسكن باب الشمال، النهاش: من القلعة، السويدان، الخضراوي: من السادة، الحايك، الدهّان، المسعود، الطويل، الزاير، العصفور، البيات، الماجد: وهم من السادة يسكنون في الدبابيّة في القطيف، الشماسي، آل الغريافي، آل البريكي، العوّى: وهي عائلة مشهورة نزحت من البحرين في ظروف قاهرة أواخر القرن الثاني عشر الهجري، الخميس، العمران: وينتمي إلى هذه العائلة الكثير من العلماء والأدباء، ذكر أغلبهم المرحوم العلامة الشيخ فرج العمران في كتابه (تحفة أهل الإيمان في تراجم آل عمران)، الغرّاش، آل نصر الله، المصطفى، آل الخباز: وهم سادة، الخباز: وهم ليسوا سادة، آل عبدالجبار: وهي من الأسر المشهورة بالعلم والأدب، السادة، المدن: من سكنة منطقة الدبابية، الميلغي: وهم من السادة، العبد العال، آل العوامي، آل شعبان، الجامع: وتسكن هذه العائلة في القلعة، أبو جعيّد، الشيوخ، المهدي، الفارس، الدار، الميلاد، الموسى.
- ومن عوائل القطيف الأخرى: القفاص، القلاف، المبارك، المحاسنة، المحسن، المحفوظ، العيد، العبادي، الضيف، الصحاف، الصبيخي، شروفنا، المشد، سلاط، الربيع، الرجب، رضا، دعبل، حيدر، حميدة، الحمود، حمزة، الحمام،

الحمالي، البستاني، الجاسم، الثنيان، البرمكي، المزين، المشكاب، الأخضر، الأسماعيل، الأسود، الأصمخ، الأصيل، أمان، البحراني، بزبوز، البزرون، البشراوي، البطي، البناي، التاروتي، تاريخ، تحيفة، تنبل، الجارودي، الحامد، الجبيلي، الجراش، الجساس، الجصاص، الجعفر، الجنبي، الحساوي، حكروه، حمادة، خزعل، الخضر، الخضير، أبو شومي، أبو صعب، خلف، خليتيت، خليفة، الخميري، خواهر، الخياط، خويطر، الخويلدي، الدبيسي، الدشيشي، الدهنيم، زكريا، السعيد، المطلق، المعيوف، المغاسلة، مغيص، الناس، الناصر، المجهوج، الهزيم، الهلال، الهنقامة، الهواشم، اليتيم، اليوسف، الهاشم، الناجي، المعتوق، مطر، المطاوعة، مسبيح، المرزوق، المرار، المخرّق، المختار، المخامل، المحيميد، المحيسن، المحمود، القفشات، العيسى، سهوان، السيف، السيهاتي، الشاخوري، شباط، الشنخنخ، شهاب، الشملاوي، الصادق، الصايغ، صباخ، الصباغ، الصحاف، الضامن، الإبراهيم، أبو تاكي، أبو شاهين، الضو، الطاق، طلاق، الطحان، عاشور، العباس، العسيف، العلوان، العلوي، العليوات، العلي، العيد، الغراب، الغمغام، الفردان، القديحي، القصاب.

سيهات:

وهي من أهم المدن في المنطقة، وقد شغل الكثير من قياداتها بالحرب والسياسة وتحالفاتها، ولأهالي سيهات وقفات مشهودة تذكرها كتب التاريخ في مقاومة الغزاة.. وتعرّضت المدينة لشتى صنوف المخاطر، وقام الغزاة بالانتقام من أهلها مراراً بإقامة المجازر لهم، خاصة في الدولة السعودية الأولى والثانية.

جميع سكان سيهات من الشيعة، وأكثر عوائلها من أصول قبلية، خاصة من الخوالد والعجمان والهواجر وسبيع.. وقد نلحظ هذا من خلال تعداد أسماء العوائل القاطنة بها اليوم.

من عوائلها: المطرود، المطوع، النصر، الخميس، الشيخ (آل أبي المكارم)، آل جظر، الدّاوود، آل قريش، آل الزواج، آل الدبيس، العباس، آل الزاكي، آل المسكين، آل مدلوح، الراشد، آل المعلم، السالم، المسلّم، الحمود، الصيود، القلاف، آل السبع،

الشافعي، آل الصليل، الشويخات، الهويدي، الشمر، آل إبراهيم.

ومن عوائل سيهات الأخرى: الهزاع، الناصر، الهلال، المزعل، المرزوق، المتروك، المبارك، المحفوظ، المشامع، المنيان، المحسن، الكبيش، الفضل، الغانم، السلهام، السكيري، الرشود، الربعان، السبيعي، الرميح، السواد، السيهاتي، سليس، الداود، الخريدة، الباشا، الدرويش، الخميري، البيات، جراد، الجفال، الحلال، الحكيم، الحميدي، الخرداوي، البوري، المرهون، المشهد، اليامي، نصر الله، المؤمن، المدن، المرشود، المعلم، السادة، البشير، البشراوي، التركي، الحماد، الحمد، خليفة، الخواهر، السدرة، السعدون، شاخور، الشافعي، الشهاب، شومان، شيبان، الصياحي، الضاحي، العرب، العرادي، العواد، العيد، العيسى، القراش، المحيف، مساعد، المسبح، المسجن، المشرف، المطر، المويس، المعتوق، الهمل، الأمان، برهان، إخوان، الجعصي، الزبيدي، الهاشم... وغيرهم.



صفوى:

وهي مدينة تاريخية قديمة، ويقع إلى جانبها مقلع (جاوان) الغني بآثار الحضارات البائدة.. وتقع المدينة شمالي القطيف، وبينها وبين ميناء رأس تنورة -المرفأ النفطي المعروف- كيلو مترات معدودة.

جميع سكان المدينة من الشيعة، وكان يعيش في أطرافها بعض البدو الذين تحضّروا، ثم ما لبث أن رحل معظمهم عنها.

وعوائل المدينة خليط من ذوي الأصول القبليّة المعروفة، ومن حفدة القبائل القديمة التي سكنت المنطقة قبل الإسلام.. من هذه العوائل:

السادة، الابراهيم (شمريون من العارض)، آل صادق ينتمون إلى قبيلة عبدالقيس، القريش (من سبيع)، اليوسف (قحطانيون فخذ حسمة)، الحمدان، آل حميدان (المبارك وأصلهم من الأحساء)، آل مبارك، الحبيب، الدخيل، آل عبدالباقي، المرهون، آل الملا، آل هاني، آل مدن (القصاب)، آل سعيد، آل الخويلدي، آل صلاح، المهدي، آل دهيم، آل عجاج، المعلم، آل فريد، الرهين، العواد.

ومن عوائل صفوى الأخرى: السيف، الخلف، الصالح، الحايكي، الخميس، الفريد، الكاظم، المسلم، المطلق (من المهاشير من بني خالد)، الناصر، العقيلي، البشري، الفردان، العامر، المطرود، المتروك، الغانم، الغريب، الزاهر، الزاكي، آل فاران، القرين، آل شاهين، نصفان، المعيني، آل داود (من الحوطة بنجد ينتسبون إلى عنزة)، الدخيل.

تاروت:

وهي الجزيرة المشهورة التي تحوي كنوزاً من الآثار القديمة، وتتبعها سنابس والربيعيّة والزور ودارين -البلدة التاريخيّة المشهورة-.

معظم سكان الجزيرة وقراها من الشيعة.. ومن عوائلها:

آل سيف، آل الدعلوج (وهم سادة)، المعتوق وينتهي نسب هذه العائلة إلى آل مرهون، الخباز، الحجّاج، العبندي، آل شلي (من الربيعية)، الدرورة (من السنابس)، آل ربيع (من الربيعية)، آل صليل (من السنابس)، الماء، الدرازي، آل عبدالمحسن، آل زرع، المصلي، أبو سرير، الجنوبي (من السنابس)، الدرويش (من السنابس) وهم سادة، العماني، الحداد (من السنابس)، البيابي، المحسن (من السنابس)، السنّي، العقيلي، آل غنّام، الأسود، آل حبيل، القطري، آل عمران، آل طلاق، الكزاز (من السنابس)، آل الصايغ وهم ينتسبون إلى آل المعتوق المرهون، القروص (من السنابس)، العليوات، الكوي، العبادي، الحبيب (من السنابس)، الخيري (من السنابس)، الشايب، الصفار يرجع نسبهم إلى همدان، العيد، آل حسين، آل صليل، العلق (من الربيعية).

ومن عوائل تاروت الأخرى: آل إبراهيم، البحراني، البحارنة، الجليح، الجمعان، الحبيب، الدبيسي، الخالدي، الصادق، الصفوان، السالم، الفردان، القلاف، المحاسنة، المطر، المعلم، المطوع، البدر، أمان، الجامد، الجامع، الجبران، الجشي، الجمعة، الجيراني، الخاطر، حيان، الدهنيم، الداود، الدعبل، الدغام، الراشد، السليس، السهوان، الزاير، الطويل، العوّى، المادح، القديحي، المدن، المرزوق، المختار، المرهون، المطلق، المياد.. وغيرهم.

العوامية:

وهي مدينة ملتصقة بالقطيف من ناحية الشمال، وقد قامت البلدة على أنقاض

مدينـة (الـزارة) قاعـدة المنطقة قديماً، والتي هدمهـا القرامطة وأشـعلوا في ربوعها النار. ونسـبت البلدة إلى أبي البلهول العوام بن محمد بن يوسـف الزجـاج أحد بني عبدالقيس الذي أخذ البحرين من القرامطة.

وجميع سـكان البلدة من الشـيعة، ورجالها مشـهورون بقوّة البـأس والمواجهة مع العدو.. وقد تفرّد أهلها خلال التاريخ القريب بمقاومة طغيان الحكم السعودي.

أمّا عوائلها فكثير منها ينتمي إلى أصول قبليّة قريبة معروفة نزحت من نجد.. فآل نمـر وآل فرج وآل زاهـر عدنانيون، وقد نُسبوا متأخراً إلى القحطانيـة -كما يقول زعيم العوامية الراحل عبدالله بن مهدي الفرج-.

ويعـود نسـب هذه العوائل الثلاث (آل نمر وآل زاهـر وآل فرج) إلى نمر بن عائد بن عفيصان.. وينقل النسّـابون أن جدهم كان يتردّد بين العوامية وقرية (الأسـلمية) في نجـد، وأنه اعتقد بالمذهب الشـيعي، زوّجه العلامة الشـيخ محمد العرجان (المتوفى سـنة ١٠١٩هـ) ابنته (عدا)، فأولدها ثلاثة أبناء هم نمر وفرج وزاهر، وإليهم تنتسـب الأسر الكبيرة الثلاث في العوامية.

وقيل: إن آل عفيصان كانت لهم الزعامة في (الأسلمية) مع بني تميم، إلّا أن استيلاء الأخيرين عليها واستفرادهم بالحكم، عجّل بنزوح الكثير منهم إلى المنطقة الشرقية[1].

فمن عوائل العوامية: آل النمر، آل الزاهر، آل الفرج، آل أبي المكارم/ آل الشـيخ، وهي عائلة دينية مشـهورة سـكنت البحرين بعد أن قدمت من الحجاز قبل أن تسـتقرّ في البلـدة. آل جريـدي، الحـماد، آل ثويمر من سـبيع الذين ينتمي إليهـم (آل قريريص وآل صويمـل وآل زنادي[2])، آل ضيـف، وآل عريّض، البراكي، الجوهر، آل ربح (وهي عائلة كبيرة مشـهورة)، المطر، آل تحيفة (كانوا يسمون آل درويش) وهـم قحطانيون، ولهم أبناء عـم في قريـة الملّاحـة، آل مشـيخص، الدبيسي، آل مبيـوق، آل عرجان وهـم من سـبيع، العوى، الصباح.

(١) أعلام العوامية، الشيخ سعيد أبي المكارم، الجزء الأول، ص١٥.
(٢) لقاء مع (س.ح.ع) في ١٦/ ١٢/ ١٤٠٨هـ

الآجام (الأوجام):

وهي قرية كانت إلى عهد قريب منفصلة عن واحة القطيف، وكانت أكثر اتصالاً بالداخل الصحراوي، والتصقت في علاقاتها مع البدو الرحل.. الأمر الذي دعا بعض الشيعة إلى وصف سكانها بأنهم «بدو الشيعة» نظراً لعلاقاتهم الوطيدة مع البدو، رغم أن جميع سكان القرية من الشيعة وهم جميعاً متحضّرون.

ومعظم سكان الآجام ينتمون لأصل قبلي واحد.. فالعوائل الثلاث المشهورة (الناصر، السنان، المرزوق) قحطانية الأصل، هاجرت من شمال اليمن قبل قرون عديدة، وسكنت قرية بني معن قبل أن تستقر في البلدة.

كما أن هناك عوائل أخرى كالسادة، آل جميع، العاشور، المبارك، والمحيسن، وآل رهن.



القديح:

بلدة صغيرة المساحة، ولكنها مكتظّة مزدحمة بالسكان الذين ينتمي جميعهم إلى المذهب الشيعي..

من عوائلها: السادة (آل أبو الرحي، الخضاروة)، آل طعان، آل الشرفا (وهم سادة)، الشميمي (من السادة)، آل عرفات، الخباز (سادة)، آل الجنبي، الحليلي، آل مسباح، آل حيَّان، الخاطر، آل توفيق، آل الشيخ ينتمون إلى أسرة البلادي، المقيلي، الناصر، آل العبيدي، العوازم، آل غزوي.

ومن العوائل الأخرى في القديح: آل البلادي، وآل شهاب، وآل حوري، وآل شاهين، البشراوي، العلوان، البندري، آل جعفر، آل صفوان، الحمادي، وغيرهم.

أم الحمام:

وتقع شمال غرب مدينة سيهات. وجميع سكانها من الشيعة.

ومن عوائلها: الشبيب، المرهون وهي أسرة علمية وأدبية برز منها العديد من العلماء والأدباء والخطباء، البرّاك، الكعيبي، الشملاوي، الحرز، آل راضي، آل مسبّح.

ومـن عوائلهـا: الحايـك، عبيّـد، الطويـل، آل عبّـاس، آل عبدالنبـي، البحـراني، السـتراوي، الزاير، عبدالعال، المويس، العوامي، الرضوان، الطلالوة، المحيميد، الهلال، الربيع، العلوي، المدن، الهاشم، السادة (المعلم - المدن)، الصليل، المريط، أمان، معتوق، العاقـول، السـويكت، المنصـور، الخميري، آل الشـيخ، آل محمد علي، هنيـدي، قنبر، آل جبر، الناصر، الفتيل، المعلّم، الجراش، القيصوم، وقع، السريو، المحيسن، الميرزا، الخباز، القصار، الطفيّف، الحللي، اليوسـف، النجراني، المرزوق، الزبيّل، آل سـعود، الحميدان، سـيف، شنار، الأسعد، شـهاب، الشخل، السـالم، الجفال، الشـوملي، عطيّة، لطف الله، عبداللطيف، أبو شيف، نصيف، سرحان، الموسى، صبيع، خضيّر.

الجش:

وتقع شمال غرب مدينة سيهات، وجميع سكانها من الشيعة.

ومن عوائلها: آل سنبل، الخواهر، آل ضاحي، آل حمزة، آل عوّاد، آل حمود، آل سلام، آل خميس، آل نصيف، آل ذاهب، آل مبارك، آل درويش، المغاسـلة، آل سـعيّد، آل زاير، آل عشوة، آل كنيص، آل عاشور، آل عياش، آل عبدربه، المرزوق، آل أحمد، آل عبدالمحسن، آل سـيف، القمر، آل عويوي، المدبّس، آل ضيف، آل موسى، آل إبراهيم، العوامي، الجرّاش، آل مهنّا، آل سليمان، السبع، رمضان، آل تركي، آل حيان، العيد، الجشّي.

الجاروديّة:

وهـي بلدة تاريخـة معروفة، قريبـة من البدراني، الـذي كان منطلقـاً للحجاج فيما مضى، وجميع أهلها من الشيعة.

ومن عوائلها: آل حبيل، آل سيد طالب، آل سيد طويلب، آل مشعل، الجارودي، الصفار، آل سـليمان، آل المنشـاد، آل معلّم، العيّاشي، آل سيد كاظم، الشرفا، السادة، آل رمضان، آل مدن، الشهاب، آل عيد.

الخويلدية:

وجميع سكانها من الشيعة.

ومـن عوائلهـا: آل نتيـف، الشرفـا، آل الأمـرد، السـادة، آل عبـاس، الخويلدي،

الصحّاف، الراشـد، السمّاك، المرزوق، المدرهم، العجيمي، الزواد، الصاهول، الجمعان، الرميّض، المحروس، الطريدي، الجميعان، القاسم، القطان، الصويلح، العلوي، سهوان، قنبر، الناصر، القمر، عطيّة، عبيّد، المزين، آل عبداللطيف، الهاشم، آل عبدالعال، الحريفي، الميّاد، العفلوج، المرهون، لاشـط، آل محفوظ، آل حبيب، آل تركي، النشـمي، الرضوان، الطاق، شهاب، النحوي، البشراوي، الجارودي، حرملة، آل سالم، آل إبراهيم، طريدي، غنّام، دعبل، آل شبّر.

التوبي:

وجميع سكانها من الشيعة.

من عوائلها: آل الشيخ، آل موسى، الجراش (أفرادها سادة موسويون)، أبو الفلفل (أفرادها سادة موسويون).



حلّة محيش:

وتقع جنوب القطيف، وجميع سكانها من الشيعة.

ومـن عوائلها: الخميس، السـادة، الشـعلة، الهاشـم، العجيّان، الجنبـي، الشرقي، الباقـر، البوري، العكـش، النغموش، درويـش، المتروك، الكحيلي، الفـردان، المحيشي، اليوسـف، الشخل، المرود، الفلفل، المنا، المادح، المقرقش، القصاب، البطران، الطلاق، العجمي، العوامي.

الملّاحة:

وجميع سكانها من الشيعة.

ومن عوائلها: آل درويش، آل زهيري.

الشويكة:

كانت قرية قبل سنوات قلائل، ولكن عمران القطيف امتدّ إليها، فأصبحت جزءاً منها.. وجميع سكان البلدة من الشيعة.

البحاري:

جنوب القديح، وجميع أهلها من الشيعة.

ومن عوائلها: الميلاد، الحماد، العبكري، الثنيان، الشقيقي، العفيريت، الغاوي، المحيسن، العلي، الدهنين، العليو، السويّد، النزغة، آل أبو صعب، الضامن، آل سويف، آل شريف، الزيداني، الرضوان، الميّاد، المغيص، آل عون، آل درويش، آل زيد، المرعي، الخليف، الحميد، الميّاس، أمان، حاجي، عاشور، الكاظم.

عنك:

ويسكنها كثير من الخوالد، وبينهم عدد غير قليل من الشيعة يعرفون بـ«العليوات»، ومن عوائل الشيعة الأخرى: العيد، رمضان، شعبان، آل نصيف، آل خميس، الأمان، الدخيل، القنبر، المشهدي، الخواهر، السالم.

الشيعة في مناطق المملكة الأخرى

يتواجد الشيعة في مناطق المملكة المختلفة وبكثافة متفاوتة. في الأسطر التالية تحديد لمواقعهم وعددهم:

المدينة المنورة:

وتسكنها أربع جماعات شيعيّة جعفريّة:

النخاولة:

ومفردها نخلي، وهم من القبائل العربيّة، وقد تداخل معهم عدد من أبناء القبائل الأخرى طلباً للحماية قبل نحو قرنين من الزمان مثل (العصارى) الذين ينتمون إلى عنزة (بني أعصر). والنخاولة هم أكثر الشيعة عدداً وانتشاراً، وقد تعرّضوا للاضطهاد والأذى بسبب التحامل الطائفي.. يقول أحد المتحاملين: «بيت النخلي، وكلّهم شيعة شنيعة، وغالبهم جهلة لا يكادون يفهمون شيئاً من مذهب الرافضة، وإنّما وجدوا آباءهم على أمّة وهم على آثارهم مقتدون، وهم معهم بلا شك في النار يحشرون».. وأضاف مفترياً:

«وقد ذاع وشاع وملأ الأسماع أن أصلهم من بقايا أولاد النساء اللواتي حملن بالزنا في قضيّة الحرّة المشهورة في أيام الخبيث يزيد بن معاوية -قبّحه الله- حين استباح المدينة قتلاً ونهباً وفسقاً وسلباً. وقيل: إن النخاولة بعضهم من العبيد، وبعضهم من الهنود، وبعضهم من اليمن، وبعضهم من المغرب، وبعضهم من مصر، وبعضهم من الحجاز وغير ذلك»[1].

وقال متحامل آخر: «والبساتين والحقول يقوم بحراستها والخدمة فيها ورعي مواشيها، بل بالخدمة في البيوت أيضاً، مجموعة من ذريّة الأعجام يسمّون النخولة، وهؤلاء بالمدينة أشبه بالفلاحين في مصرنا، ولولاهم ما قامت الزراعة، وهم رافضة.. واحتقاراً لهم وعقاباً على نزعتهم الباطلة، كلّفهم رئيس البلدية بأن يقوموا بطرد الكلاب من حول المسجد النبوي، ويجتمع بهم الأعجام في مواسم الحج، ويؤجّرون منهم الدور بما فيها»[2].

ويبدو أن الاحتقار والتشكيك والإهانة إنّما يرجع إلى أمرين: سمرة بشرة النخاولة، وتمذهبهم بالمذهب الشيعي.. أي أن القضيّة ترجع إلى تمييز عنصري وطائفي في آن واحد، وهذا أقبح أنواع التمييز وأشنعها.

من زعماء الشيعة المشهورين في مدينة الرسول ﷺ الشيخ محمد العمري، وابنه الشيخ كاظم العمري.

الأشراف:

ويأتون بعد النخاولة في العدد، وهم سادة من بني هاشم. كما أنهم ينتشرون في مناطق أخرى غير المدينة المنورة مثل مكّة المكرمة وجدّة والطائف ومدن المملكة الجنوبيّة.

قال صاحب كنز الأنساب[3]: إن من بين من ينتمي إلى هذه القبيلة (الأشراف) في

---

(١) تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من أنساب - عبدالرحمن بن عبدالكريم المدني - ت ١١٩٥هـ وهو متعاطف مع الوهابيين وأفكارهم كما هو واضح من كتابه.

(٢) مرآة الحرمين، إبراهيم رفعت باشا، جزء ١، ص٤٤٠.

(٣) كنز الأنساب ومجمع الآداب، حمد بن إبراهيم بن عبدالله الحقيل، الطبعة العاشرة، ص١٣٨ - ١٣٩.

المنطقتين الغربية والجنوبية من المملكة: الحيادرة، والنسبة إليهم حيدريّة، وهم بطن من بني جعفر الصادق يُعرفون ببني أيمن. وآل إبراهيم ويسكنون ينبغ النخل، وآل حسين مع قبيلة الضفير -سادة حسينيّون-.

ومن المعروف تاريخيًّا أن الأشراف في مكّة كانوا على مذهب الشيعة، وأن المماليك كانوا على مذهب السنّة، وقد حكم الأشراف المناطق المقدّسة سنوات طويلة في القرون الماضية وحتى وقت قريب أيضاً.

قبائل حرب وجهينة (الحروب):

حيث اعتنق بعض أفرعها المذهب الشيعي (فرع بني علي/ الفريد، وغيرهما). وقد أشار أحد الكتّاب إلى انتشار المذهب الشيعي بين قبائل حرب وجهينة[1].

المشاهدة:

وهم من أصول عربية ويتواجدون في مكة والمدينة المنورة، إلّا أنّهم أقلّ الفئات عدداً. ومن آل المشهدي الكاتب والروائي محمد بن عيسى المشهدي.

أما الأحياء التي يسكنها الشيعة في المدينة المنورة وما حولها فهي:

١- وسط المدينة، جنوب الحرم المدني.. حيث يوجد حيّ كان يسمّى فيما مضى بزقاق النخاولة، أو محلّة النخاولة، ويسمّى في الوقت الحالي بحيّ الروضة.. كما يوجد النخاولة شمال غربي المسجد النبوي (باب الكومة).

٢- قبا، كانت قرية تبعد ميلين عن المدينة المنورة، والآن أصبحت حيًّا من أحيائها الجنوبيّة، وتسكن الحيّ أكثريّة من النخاولة.

٣- قربان، حي جنوبي المدينة المنورة، ويسكنه إضافة إلى النخاولة شيعة الحروب والمواليد.

٤- حي العوالي، جنوب شرقي المدينة المنورة، ويسكنه النخاولة والحروب بكثرة. على أن الشيعة منتشرون في معظم أحياء المدينة المنورة، ولكن بكثافة أقل، كما في الحارة

(١) قيام الدولة السعودية، عبدالكريم الغرايبة.

الشرقية التي يتواجد بها عدد غير قليل من الأشراف وبشكل أقل من النخاولة. وكذلك يصدق القول على الحارة الغربية وحي العيون.

وبالطبع هناك أعداد غير قليلة من الشيعة الزيدية أقامت في السنوات الأخيرة في المدينة المنورة. ويوجد الشيعة في ا لعديد من القرى المحيطة بالمدينة المنورة أو التي تدخل ضمن إطارها الإداري، من بين هذه القرى:

* **وادي الفرع**، الواقع جنوب المدينة المنورة، وقد اشتهرت قرى الوادي -وبينها قرى شيعية عديدة- بكثرة مياهها ونخيلها وطبيعتها الخلّابة، ومن القرى الشيعيّة المعروفة قرية (أبو ضباع) ويسكنها لفيف من الحروب والأشراف.

* **السويرقية**، وتقع جنوب شرقي المدينة، وغالبيّة سكان القرية من الشيعة الأشراف.

* **ينبع النخل**، ويطلق هذا الاسم على جهة واسعة على شكل عقد من القرى ينتظم من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي. والمنطقة عامرة بالسكان والبساتين وتبعد عن المدينة المنورة حوالي ١٥٠ كيلومتراً. ويذكر البعض أن الاسم جاء من كثرة الينابيع واستمدت شهرتها من مرور طرق القوافل بها، ولقد أقطعها رسول الله ﷺ رجلاً من جهينة يدعى كشد بن مالك، ثم اشتراها عبدالرحمن بن أسعد، واشتراها منه الإمام علي بن أبي طالب، وتصدّق بعينين من عيونها.

وبمنطقة ينبع النخل ٢١ قرية قدّر عدد سكانها في إحصاء ١٩٧٤ بنحو ١٩٢٠٧ نسمات[1]. ويشير أحد المؤلّفين[2] إلى أن في ينبع ما لا يقل عن ثلاثين ألفاً من الشيعة الكيسانية. ويبدو أن المقصود هنا ليس سكان ينبع النخل وإنّما ينبع البحر/ الميناء، حيث يقترب منها (جبل رضوى)، وهو ما أشار إليه ياقوت الحموي بقوله: «ورأيته من ينبع أخضر، وأخبرني من طاف في شعابه أن به مياهاً كثيرة وأشجاراً، وهو الجبل الذي يزعم الكيسانيّة أن محمد الحنفيّة به مقيم حيّ يرزق».

* **مهد الذهب**، وهي القرية المعروفة بمناجم الذهب، ويتواجد فيها عدد غير

(١) المصدر السابق، ص١٧.
(٢) الملامح الجغرافية لدروب الحجيج، سيد عبدالمجيد بكر، ط ١٤٠١هـ، ص١٤٠.

قليل من الشيعة من قبائل عربيّة متفرّقة.

ويقدّر مجموع الشيعة في المدينة المنورة والقرى الأخرى المحيطة بها، بنحو مائة ألف نسمة.

الشيعة في مناطق الحجاز الأخرى:

هناك وجود للشيعة في مكة المكرمة والقرى المحيطة بها، والطائف وجدة (التي يوجد بها حيّ كبير من الشيعة الحروب).. ويقدّر عدد الشيعة الاثني عشرية في هذه الأمكنة بنحو عشرين ألف نسمة، ولقسم آخر من الشيعة (الزيود) وجود قوي في المدن الحجازية، ويقدّر عددهم في مناطق جنوب وغرب المملكة -حيث وجودهم الأساس- بمائة وستين ألف نسمة.

الشيعة في نجران:

ينتشر الإسماعيليون في المناطق الجنوبية من المملكة، وبالخصوص في نجران وتوابعها، ويسمّون (المكارمة)، نسبة إلى العائلة المكرمية التي كانت تحكم نجران، والتي اشتهر منها حسن بن هبة الله المكرمي، الذي هزم السعوديين في الدرعية في بداية تأسيس دولتهم الأولى. وينتسب هؤلاء إلى قبائل يام الشهيرة، والزعامة منحصرة في فرع «أبو ساق». ويقدّر عدد الإسماعيليين الشيعة في جنوب المملكة بين ٢٥٠ - ٣٠٠ ألف نسمة.

وهناك عدد من الزيود في نجران من قبيلة وائلة، ويسكنون زور آل حارث وزور وادعة.

كما أن هناك عدداً غير قليل من الأشراف الشيعة ويسكنون وسط وادي نجران، ومن رؤسائهم الشريف أحمد أبو طالب. وهناك عدد قليل من الشيعة الاثني عشرية في منطقة نجران، كما يوجد عدد قليل أيضاً من الشيعة الكيسانيّة.

الشيعة في حائل:

سكنت قبائل طيئ تلك المنطقة، وكانت من أنصار الإمام علي في كل حروبه، وقد

تشيّعت واشتهر العديد من زعمائها بحملهم للتشيّع، كعدي بن حاتم الطائي.

ويذكر المؤرخون أن الإمام الحسين التقى بأحد زعماء طيئ -الطرماح بن عدي بن حاتم الطائي- خارجاً من الكوفة المحاصرة فمنعه الحرّ الرياحي -أحد قادة الأمويين قبل أن ينحاز إلى معسكر الحسين ويقتل معه في كربلاء-، وانحاز الإمام إلى الطرماح وسأله: أخبروني خبر الناس وراءكم؟. قال الطرماح: أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم، ومُلئت غرائرهم، واستميل ودّهم، واستخلصت نصيحتهم، وهم ألْبٌ عليك، وأما سائر القوم فأفئدتهم معك وسيوفهم غداً مشهورة عليك.

قال الإمام: فخبّروني عن رسولي إليكم؟ فقالوا: من هو؟ قال: قيس بن مسهّر الصيداوي. قال الطرماح وجماعته: نعم، أخذه الحصين بن تميم، فبعث به إلى ابن زياد، فأمره ابن زياد بلعنك ولعن أبيك، فصلّى عليك وعلى أبيك، ولعن ابن زياد واباه، ودعا الناس إلى نصرتك، وأخبرهم بمقدمك، فأمر به ابن زياد، فأُلقي من طمار القصر فمات.

فتغرغرت عينا الحسين عليه السلام بالدموع، ولم يملك دمعه، ثم قال: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾.

قال الطرماح بن عدي: «والله إنا لننظر وما نرى معك أحداً، ولو لم يقاتلك إلّا هؤلاء الذين نراهم ملازميك لكفى بهم، فكيف وقد رأينا قبل خروجنا من الكوفة ما لم نرَ قط مثلهم ناساً في صعيد واحد عُرضوا ليُسرّحوا إليك، فننشدك الله إن قدرت ألّا تقدم شبراً إلّا فعلت. فها هنا بلد منعك الله به -حائل-، حتى ترى رأيك، فسر بنا حتى ننزلك جبلنا الذي يدعى أجأ، امتنعنا به والله من ملوك غسّان وحمير ومن النعمان ومن الأسود والأحمر، والله ما دخل علينا ذلّ قط، ثم تبعث الرجال إلى من ينزل أجأ وسلمى من طيئ، فيأتيك الرجال، وأنا زعيم لك بعشرين ألف طائي يضربون بين يديك بالسيوف».

فقال الإمام عليه السلام: «جزاك الله وقومك خيراً، إنه قد كان بيننا وبين هؤلاء القوم من أهل الكوفة قول لسنا نقدر معه على الانصراف، ولا ندري علام تنصرف بنا وبهم الأمور في العاقبة». فودّع الطرماح وجماعته الإمام وقالوا: «قد حملنا ميرة من الكوفة لأهلينا، فنحن نحملها إليهم ونعود إليك».

يقول الطبري وابن الأثير: إن الإمام استعجل الطرماح عند التوديع، ووفى الطرماح بوعده، وعاد بعد أن وضع الميرة عند أهله وأوصاهم، ولكنه لما بلغ عُذيب الهجانات، لقيه سماعة بن بدر، وأخبره بمقتل الإمام الحسين عليه السلام، فرجع الطرماح إلى أهله[1].

إن قبائل شمّر التي تسكن حائل هي قبائل طائيّة الأصل، واشتهرت على الدوام بتسامحها الديني، ورغم اجتياح موجة التعصّب المذهبي نجداً بظهور الوهابيين، كانت حائل أقلّ ميلاً إليها، رغم أن الريحاني يقول: إن دولة آل رشيد وهابيّة المذهب والشعارات، بل إن عبيداً أخا عبدالله بن رشيد مؤسس الدولة كان «رسول الوهابيّة الأكبر في الجبل، وكان بيته محط رحال الوهابيين في حائل». هنا تجب ملاحظة أن دولة الشمريين لم تقم على أساس مذهبي وإنّما قامت على عصبية قبليّة، وحين انتهت تلك العصبيّة أزيلت دولة شمّر من الخارطة.

ويبدو أن أمرين جعلا الشمريين أكثر تسامحاً من غيرهم في نجد:

الأول: ارتباط العديد من فروع شمر بالعراق، وبخاصة النجف الأشرف التي كانت -كما يبدو- أكثر المدن العراقية التصاقاً بالصحراء الجنوبية العراقية وسكانها البدو الذين ينتقلون إليها بين الفينة والأخرى. وقد استقر العديد من الشمريين في النجف والمدن العراقية الأخرى، وبرز بينهم العديد من العلماء ومراجع الدين. وكانت اللحمة القبلية لا تزال قوية يومئذٍ، لذا كان من الصعب على شمر حائل مجاراة الوهابيين في مغالاتهم العقائدية.

الأمر الآخر هو أن الشمّريين -كغيرهم من عرب الجزيرة العربية- لم يكونوا أصحاب مدرسة فكريّة -كما في الحجاز والأحساء-، ورغم تراثهم الشيعي فإنهم لم يكونوا يحملون حساسيّة تجاه الأفكار، وحين جاء الوهابيون بأفكارهم، خضعوا لها باعتبارهم ضعفاء عسكريًا، إلّا أن التجربة الوهابيّة الأولى أسفرت عن تدمير قرى نجد واحدة واحدة على يد القوات المصرية، ولم يصب حائل من الدمار إلّا النزر القليل، بل لم يشهد لها بأنها وقفت ضدّ القوات المصريّة الغازية.

(١) راجع كتاب: تجارب الأمم، لابن مسكويه، الجزء الثاني، ص٦١ - ٦٢.

ولعلّ تلك النهاية المأساوية، هي التي شجّعت الشمّريين على استبعاد المذهب كأداة لخدمة السياسة، وكان بإمكانهم فعل ذلك حين سيطروا على كامل وسط الجزيرة العربية وطردوا آل سعود منها.. لكنهم لم يتعرّضوا لأيّ من القوى الدينية، بل سمحوا لمن أراد بأن يبشّر بمذهبه، مع أنهم بقوا على معتقداتهم السنيّة، وكان أبناء عمومتهم في العراق شيعة.

لقد كان واضحاً للباحثين أن حائل، وحتى وهي خاضعة لسلطان السعوديين -في دولتهم الثانية- كانت بعيدة عن التعصّب، وإن تمسّكت بشعارات المذهب الوهابي، كما قال الريحاني، وكما قال الرحالة «والين» الذي زار حائل في عهد فيصل بن تركي: إن في شمّر تسامحاً في شرب الدخان، و «المبدآن الأساسيان اللذان لا تزال تتمسك شمر بهما من تعاليم الوهابية، هما رفض الوسطاء بين الله والعبد، والمبدأ الثاني هو الحرص على أداء الصلاة جماعة في المسجد»[1].

ويشير فاسيليف إلى تسامح شمّر بقوله: «كان أمير شمّر يتميّز بالتسامح الديني، وقد سمح للشيعة بأن يقيموا أو يتاجروا في حائل..». وكتب بلغريف: «إن التجار من البصرة ومشهد علي -النجف- وواسط والباعة من المدينة وحتى من اليمن كانوا يستقرّون في سوق حائل الجديد بعد عروض مغرية. وقدّم طلال لبعض منهم مقاولات رسمية وهي نافعةٌ لهم وله في آن واحد، في حين منح البعض الآخر امتيازات وتسهيلات، وكان يولي الجميع الدعم والحماية»[2].

ويفسّر أحد الكتاب هذا التسامح في تعليقه على ما كتبه الريحاني من تمسّك أخي حاكم شمّر بالوهابية، وأن بيته محط رحال رجالها بالقول: «لكنهم في نفس الوقت اعترفوا بالهزيمة، أو لنقل استفادوا من أخطاء التجربة، فكانوا أكثر تسامحاً، أو تهاوناً -حسب موقفك-». وينقل عن تقرير الخارجية البريطانية قولها بأن الشمريين «سمحوا للشيعة وغيرهم بسكنى حائل، وتخفّفوا كثيراً من أوامر ونواهي المذهب الوهابي، رغم احتجاجات فيصل الذي لا يزال اسميًّا سيّدهم، وإحدى بناتهم تزوجها ابنه»[3].

---

(١) السعوديون والحل الإسلامي، جلال كشك، ص٢٤٠.

(٢) فصول من تاريخ العربية السعودية، إليكسي فاسيليف، ط لندن، ص١٨٩ - ١٩٠.

(٣) جلال كشك مصدر سابق، ص٢٣٦.

ولمّا سيطر ابن سعود على حكم الرياض، أثار قضيّتين بين أتباعه فيما يتعلّق بحكم الشمريين لحائل، هما: ولاء أهل حائل لدولة الخلافة، التي هي العدو التاريخي للوهابيين، ووجود الشيعة في حائل، وعدّ الحاكم السعودي هاتين القضيّتين مبرّراً لأتباعه في حرب ابن رشيد والاستيلاء على حائل. وكتب ضابط البعثة المدنيّة في بغداد إلى حكومة الهند يقول -نقلاً عن سليمان الدخيل- بأن الأخير يعتقد أن الإخوانيّة ستنتشر بين عنزة، وخلال أربع سنوات فإن كل البدو سوف يقبلون الانضمام إلى سلك الإخوانيّة. وأضاف أن دعايات ناجحة وكبيرة تنتشر بين قبائل شمّر ستشكّل ضغطاً على الأمير فيما يتعلّق بالتجار الشيعة. وتابع الدخيل بأن الشيعة والسنّة الذين خاضوا في التدخين يعدّون أكثر الكارهين للإخوان[١].

واحتلّ ابن سعود حائل في نوفمبر ١٩٢١م بدعم بريطاني قويّ[٢]، وعلى غير

(١) FO.371 - 4147 وثيقة مؤرخة في الثالث من نوفمبر ١٩١٩م، ومرسلة من ضابط البعثة المدنيّة البريطانية إلى حكومة الهند.

(٢) أعدّ المعتمد البريطاني في البحرين الكولونيل ديكسون مذكّرة إلى رؤسائه، حول أوضاع نجد استعرض فيها خارطة التحالفات القبليّة في نجد. وبينها إمكانية قيام تحالف بين قبيلة عنزة وابن سعود لمهاجمة حائل من الشمال والجنوب. ثم يطرح ديكسون رأيه في موضوع حسّاس وهو: مساعدة بريطانيا لابن سعود من أجل إسقاط الحكم الرشيدي، مستعرضاً فوائد ذلك للحكومة البريطانية.

يقول ديكسون: «هل سيكون من مصلحة حكومة صاحب الجلالة أن ترى ابن رشيد مرّة أخرى تابعاً لنجد؟! أنا أرى أن ذلك في مصلحتها. إن وسط جزيرة عربيّة قوي بقيادة ابن سعود الذي هو على أمتن علاقات الصداقة مع الحكومة البريطانية، سوف يناسب على ما أرى السياسة البريطانية حتى آخر تفاصيلها، وسيحلّ هذا مشاكل كثيرة، وسيجعل الدول الساحلية الصغيرة -التي تحكمها بريطانيا- أكثر اعتماداً علينا مما هي عليه الآن. إن الكويت والبحرين وإمارات الساحل المتصالح وعمان واليمن والحجاز وحتى سورية، ستبقى دائماً في حالة فزع ورعب من جارها القوي، وستكون أكثر تجاوباً وانصياعاً لرغبات حكومة صاحب الجلالة البريطانية مما هي عليه اليوم أيضاً.

وفي الوقت الحاضر، فإن كل هذه الدول الساحليّة -ونتيجة الحرب العالمية الأولى، والحديث المملّ عن حقوق الدول الصغيرة- قد تحركّت خيالاتها وداخت طرباً (لهذه الأقاويل)، وهي عديمة الانضباط وتودّ دائماً لو تستطيع الانحراف عن الصراط المستقيم (الصراط البريطاني!!). وستكون أول من يبدأ بالصراخ والعويل إذا أصبح جار قوي خطراً يتهدّدها. وهي تعرف حاليًّا حق المعرفة أن ابن رشيد قويًّا في نجد يجعل ابن سعود يفكر مرتين قبل أن يحرّك قوّة كبيرة بعيداً عن نجد. إنها كالثعلب تشعر في أمان وهي تدوس على ذنب الأسد، وتعلم أنها في مأمن من الضربات الانتقاميّة.

.. إذا أصبح ابن سعود أقوى رجل في جزيرة العرب، فإن النفوذ البريطاني سيزداد بشكل هائل، وسيطول أمد هذا النفوذ إلى ما لا نهاية بين الدول الساحلية. أما إذا استمرّ ابن سعود وابن رشيد في حروبهما المتطاولة بلا نهاية، بحيث يضعف الاثنان إلى درجة الإنهاك، فستكون النتيجة الأولى، ميلاً

العادة فقد حرّم أمير نجد السلب في المدينة «وكان الشيعة أكثر من يُخشى على حياتهم، ولكن ابن سعود أصدر إيعازاً خاصًا يكفل لهم الحماية، غير أن الإخوان لم يوافقوا على تسامح أميرهم وانتقدوه علانية لغضّه النظر عن المشركين»(١).

غير أن الحقيقة تفيد بأن أغلب الشيعة في حائل طُردوا منها إلى العراق، أو هاجروا إلى المدينة المنورة والحجاز بصفة عامة قبل أن يحتلّه السعوديون بعد نحو خمس سنوات من سقوط حائل، وحتى آل الرشيد فرّ الكثير منهم إلى العراق، واعتنق أكثرهم المذهب الشيعي.. ولأنه لم ترسم بين جبل شمّر والعراق والأردن الحدود، فإن ابن سعود كان يرى أن كل قبائل شمّر وعنزة تابعة له، وهؤلاء يقطنون أماكن بعيدة تعدّ جزءاً من العراق «أضف إلى ذلك أن بعض قبائل شمر وغيرها من القبائل الرافضة لمطامع السعوديين قد ارتحلت إلى العراق» كما تقول المس بل(٢).

للتخلّص من النفوذ البريطاني، والتدخّل في شؤون الدول الساحلية. ويجب ألّا ننسى أن كل هذه الدول الساحليّة الصغيرة تطمح إلى توسيع رقعة أراضيها الداخلية.

ويضيف ديكسون: من الطبيعي أن حكومة صاحب الجلالة -إن هي أرادت حقًا أن تساعد ابن سعود لكي يصبح الأقوى، وكانت ترغب بالتأكيد في دعمه في إخضاع ابن رشيد لسلطته- فإن أسرع أسلوب وأسهله لتحقيق هذا الغرض، هو أن تعلن الحكومة البريطانية حالة حصار شديد ضد ابن رشيد، بدءاً من النجف بالعراق وحتى الكويت، بما في ذلك حصار هاتين المدينتين، على أن يكون تنفيذ الحصار في الكويت بيد المسؤولين البريطانيين هناك.

إن حصاراً كهذا -إذا ما أرفق بتهديد من ابن سعود بشن الحرب- سيجبر ابن رشيد وخلال ثلاثة أشهر على أكثر التقديرات، على قبول أيّة شروط تفرض عليه. ولتحقيق أهداف الحصار من طرف الكويت، لابدّ من الاستيلاء المباشر على السلطة فيها من قبل البريطانيين، ذلك أن حصاراً محليًا يديره الشيخ سالم الصباح سيكون مهزلة.

أما إذا كان وجود ابن رشيد قويًا مهمًا وحيويًا بالنسبة لحكومة صاحب الجلالة، فما عليها إلّا أن تدعم ابن سعود بثبات وبطء بالطريقة نفسها التي كان الأتراك يدعمون ابن رشيد وفي كل الأحوال يجب أن نجعل الدول الساحليّة تعيش في حالة خوف ورعب دائمين من الجار النجدي الكبير، لأنها بهذه الوسيلة فقط ستظلّ راغبة في الإبقاء على علاقات طيّبة معنا. يجب أن تشعر كلّها بضرورة حمايتنا والحاجة إليها، وإلّا أفلتت من بين أيدينا.

واقتنع الإنجليز بهذا التحليل، فانهالت المساعدات على ابن سعود، وبعد سنة واحدة فقط، كان ابن سعود ومستشاره البريطاني جون فيلبي يطرقان أبواب حائل».

انظر الوثيقة السريّة E 12852 التي أعدّها ديكسون في ١٢/ ٨/ ١٩٢٠م، والمسجّلة بتاريخ ١٨/ ١٠/ ١٩٢٠م.

(١) فاسيليف، مصدر سابق، ص٢٧٧.

(٢) المصدر السابق، ص٢٧٨.

ورغم هذا بقي أعداد من الشيعة في حائل، رغم كل المصاعب، دون إعلان هويّة، شأنهم شأن شيعة مدن وقرى نجد الأخرى.. فهناك شيعة في الرياض وفي القصيم وفي الأفلاج والحريق، ولهم أحياء معروفة، على الأقلّ لدى الحكومة.

ويصعب تقديم تقديرات لعدد الشيعة في حائل ومناطق نجد الوسطى والجنوبيّة، ولكن -وقياساً لعددهم في الرياض- يمكن إعطاء رقم عشرة آلاف نسمة[1].

الهجرات من وإلى الأحساء والقطيف

عرفت المنطقة هجرات سكانية كبيرة قبل آلاف السنين، لكننا لا نريد العودة إلى الماضي الموغل في القدم، فحسبنا القول: إن الجزيرة العربية وبالأخص أجزاءها الوسطى والجنوبية كانت على مرّ التاريخ، تقذف بموجات بشريّة هائلة إلى الشمال، فزوّدت منطقة الهلال الخصيب وما جاورها بالكثافة البشرية التي تحتاجها للإعمار.

وقد هاجر إلى هذه المنطقة (البحرين القديمة) وسكنها الكنعانيون والعمالقة والفينيقيون والكلدانيون (الجرهائيون)، ثم توافد إليها العديد من القبائل العربية العدنانية كقضاعة أوائل القرن الميلادي الأول، وعلى رأسها زعيمها مالك بن فهم، ثم لحق بهم أقوام من أياد والأزد ثم سيطر عليها أقوام ربيعة (عبدالقيس وبكر بن وائل)[2].

وبظهور الإسلام كانت الغلبة السكانية في الحاضرة لقبيلة عبدالقيس.. وفي عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الذي كان عهده عهد توسّع وفتوحات للدولة الإسلامية، حدثت أكبر هجرة في تاريخ هذه المنطقة، حيث رحل العديد من سكانها إلى المناطق المفتوحة التي أسهموا في فتحها ضمن الجيش الإسلامي، خاصة للعراق، حيث استقرّ الكثير منهم في المدن المؤسسة الجديدة كالبصرة والكوفة، أو في المدن الموازية على الشاطئ الشرقي لخليج العجم.. وقد كان لهذه الهجرة دور مهم في تاريخ العراق السياسي خاصة في عهد الإمام علي عليه السلام والعهد الأموي وشطراً من العهد العباسي.

(١) في لقاء المؤلف مع عدد من هؤلاء الشيعة، أبدوا مخاوفهم من ذكر أسماء عوائلهم والقبائل التي ينتمون إليها، والأحياء التي يسكنون فيها، خوفاً على أنفسهم من الاضطهاد.

(٢) انظر تفصيلاً عن هذه الهجرات في كتاب ساحل الذهب الأسود، للأستاذ محمد سعيد المسلم، ص٥٩ - ٨٠.

وفي العهد الأموي حدثت هجرة في السكان من الحجاز والعراق إلى منطقة الخليج والأخص إلى (الأحساء والقطيف) فراراً من الاضطهاد السياسي والمذهبي الذي مارسه الأمويون بحقّ أتباع أهل البيت عليهم السلام، ومما شجّع على ذلك أن المناطق المهاجر إليها كانت بعيدة عن مركز الخلافة في دمشق.. وبوصول أعداد من الشيعة من المناطق الأخرى إلى الأحساء والقطيف تعزّزت حالة الرفض والثورة على الحكم الأموي، وأصبحت منطقة البحرين مركزاً من مراكز الثورة ضد الأمويين ثم العباسيين.. وقد أدّى تنكيل العباسيين بمن أخذت الخلافة باسمهم إلى توافد مجموعات سكانية إليها..[1] لذا لم يكن غريباً أن تكون المنطقة ملجأً للشيعة في عهد الدولتين الأموية والعباسية[2].

وفي الحقيقة فإن المنطقة أصبحت بؤرة تجمّع لمختلف فئات المعارضة الساخطة على الحكمين الأموي والعباسي.. وقد وجد الخوارج فيها ملجأً لهم، مع ما يفترض أنهم على عداء مع الإمام علي وشيعته.. ونجد أنه حينما خرج الخوارج من نجد (اليمامة) توجّهوا أول ما توجّهوا إلى البحرين سنة ٦٧هـ، وحينها قبل الأزد في عمان حكمهم، أمّا الشيعة (عبدالقيس) فرفضوا ذلك وقالوا: «لا ندع نجدة يتولّى أمرنا وهو حروري مارق».. غير أن نجدة هزمهم ووضع السيف في رقابهم، ودخل القطيف واستباحها، وفي ذلك قال الشاعر حمل بن المعنى العبدي:

نصحت عبد القيس يوم قطيفها | وما خير نصح بعد لم يتقبّل
فقد كان في أهل القطيف فوارس | حماة إذا ما الحرب شدّت بيذبل

على أن المجموعات السكانية الفارّة من جحيم الحكم الأموي إلى المنطقة، ما لبث أن شاركت في ثورات الشيعة في العراق كثورة التوابين وثورة المختار الثقفي، يدلنا على ذلك أن إبراهيم بن مالك الأشتر ورد للمنطقة وساهم فيها بعد في تلك الثورات، ولا زال له عقب في القطيف نفسها. في حين أن شيعة آخرين انطلقوا إلى ما وراء الخليج شرقاً بعد هجوم عبدالملك بن مروان سنة ٧٣هـ على المنطقة وإجبار أهلها على مفارقة التشيّع.. انطلقوا إلى الهند والصين، فنشروا الإسلام هناك، وتشير العديد من الدراسات الحديثة إلى أن الشيعة هم أول من نشر الإسلام في الصين، ويوجد اليوم عدّة ملايين منهم.

---

(١) الرميحي، مصدر سابق، ص٤١.
(٢) الخليج العربي (١٨٤٠ - ١٩١٤) - الجزء الأول - للدكتور جمال زكريا قاسم، ص٣٩.

لقد اجتذبت المنطقة العديد من المهاجرين على مرّ العصور لسببين أساسيين:

أولهما: غنى المنطقة المشهود له قبل الإسلام وبعده وإلى اليوم، حيث توافر المياه وخصوبة الأرض، وتوفر المراعي وكثرة الزراعة.. وقد ساهم موقع ما يعرف اليوم باسم (المنطقة الشرقية) الجغرافي في ذلك كثيراً لقربها من البحر، وممارسة أهلها التجارة واختلاطها بالأقوام المختلفة، ووقوعها عند ملتقى القوافل البريّة القادمة من الجنوب، أو السفن القادمة من الهند وجنوب شرق آسيا إلى منطقة الهلال الخصيب.. كل هذه العوامل كان لها أثر كبير في اجتذاب شتّى الأقوام ومختلف القبائل..[1] وللحق فإن الهجرات إلى المنطقة كانت في الغالب لأسباب اقتصادية، وكان أكثر المهاجرين يأتون فراراً من المجاعة والقحط الذي يلفّ نجداً والمناطق الجنوبية من الجزيرة العربية.

أمّا **السبب الآخر** فهو الاضطهاد الديني والسياسي، إضافة إلى عامل الحروب التي تشتعل في المناطق البدوية، والتناحرات القبليّة التي لم تخلص البلاد من شرّها إلّا في وقت متأخر.. كل ذلك دفع بالهجرات قدماً نحو هذه المنطقة.. وواضح أن هذا العامل -العامل الديني والمذهبي- كان أقلّ أهمية من سابقه، خاصة في العصور المتأخرة.

ومع هذا نجد أن إقليم (نجد) قد دفع خلال القرنين الماضيين بجماعات سكانية هائلة إلى منطقة الخليج لأسباب مذهبيّة واقتصادية.. ففي بداية تكوّن الدولة الوهابية أواخر القرن الثاني عشر الهجري نزح علماء نجد الحنابلة إلى منطقة الأحساء والقطيف التي كانت تحت حكم الخوالد، ومعهم الآلاف من البشر، لكنهم ما لبثوا أن أكملوا هجرتهم إلى جنوبي العراق والكويت باحتلال الوهابيين للأحساء والقطيف. ولا شكّ في أن الكويت وبعض إمارات الخليج مَدِينة بوجودها كدول إلى الكثافة السكانية النجديّة الهائلة التي أعقبت سيطرة الوهابيين الأولى على نجد والأحساء، ثم إلى تدفّق النفط والرخاء الاقتصادي الذي عمّها.

وبالنسبة للشيعة، فلم يكن هناك أي سبب يدفعهم للنزوح عن موطن آبائهم وأجدادهم، فالعيش الرغيد متوفّر، وليست هناك بقعة في الجزيرة العربية بأسرها تضاهي منطقة الأحساء وغناها.. إنّ السبب الذي حملهم على الهجرة كان على الدوام الاضطهاد المذهبي.. ولم يتمّ ذلك بصورة مفجعة إلّا في العهد السعودي، خاصة في أوّله،

(١) يوسف الصميط، مصدر سابق، ص٢٧. والدكتور الرميحي، مصدر سابق، ص٤١.

حيث رافق القمع والتشدّد والقتل للمخالفين في الرأي والمذهب تأسيس دولة الوهابيين الأولى.

وبمقدار ما استقبلت المنطقة من هجرات كبيرة ذابت مع السكان، واعتنقت مذهب الأكثرية الشيعية فيه، غادرت الإقليم هجرات واسعة بفعل الاضطهاد الطائفي.. وتأتي هجرة الشيعة في مطلع القرن الثالث عشر كأكبر هجرة في تاريخ المنطقة بعد الهجرة الأولى التي تمّت إثر الفتوحات الإسلامية لفارس.

إنّ أقلّ التقادير تشير إلى أن نصف السكان قد هجروا الإقليم في الفترة الواقعة بين عام ١٢٠٥ - ١٣٥٠هـ.. ولولا أن المنطقة اجتذبت في وقت سابق الكثير من القبائل، لما بقي من الشيعة إلّا القليل.. إذ يقدّر عدد الشيعة من ذوي الأصول القبليّة السنيّة حوالي نصف عدد الشيعة الكلي في المنطقة الشرقية.

وبديهي أن سياسة التفريغ السكاني للشيعة من مناطقهم، والاستحواذ على أملاكهم، من أراضٍ وبساتين ودور، على أساس أنهم كفار يجوز سلب ما لديهم.. أدّى إلى تقليص أعداد الشيعة، وتقليل نسبتهم إزاء الطوائف المذهبيّة الأخرى.

تجدر الإشارة هنا إلى أن بادية الأحساء حينما استضافت بني خالد، كانت الغَلَبة السكانية والمذهبية للشيعة. وبسيطرة بني خالد على المنطقة، كان من المتوقع أن تقلّ نسبة الشيعة، غير أنه مع مرور الزمن تحضّر بنو خالد وانضوت العديد من أفرعهم تحت لواء التشيّع، وهو أمر أحدث بعض اللبس لدى المؤرخين، فكثير منهم يتحدث عن بني خالد كقبيلة شيعية صرفة، أو أن أكثرها على مذهب التشيّع.. منهم الدكتور صلاح العقاد الذي قال بأن «غالبية قبيلة بني خالد في الأحساء تعتنق المذهب الشيعي»[١].

في حين ردّ باحث آخر: «لم يكن بنو خالد من الشيعة، إلّا أن سكان الأحساء هم من الشيعة»[٢].

إن الذي بقي من بني خالد ويحمل اسم القبيلة بعد انهيار سلطتها الفعليّة بضعة آلاف هم من المالكية السنّة، أمّا البقيّة فقد تخلّوا عن البداوة وتحضّروا وتشيّعوا.

---

(١) التيارات السياسية، الدكتور صلاح العقاد، ص٥٨.

(٢) الرميحي، مصدر سابق، ص٣٦.

ولما جاء العجمان إلى المنطقة حوالي منتصف القرن الثالث عشر الهجري، واستقروا في بادية الأحساء، زاحموا قبائل المرّة وبني هاجر والعوازم وسبيع.. وأصبحت الكلمة الأولى لهم. وبعد حوالي نصف قرن خاضوا حروباً شرسة ضد الملك عبدالعزيز الذي أراد توطينهم في هجر الإخوان كسراً لشوكتهم، وقد نجح بشكل متأخر في سنة ١٩١٩. وبمرور الزمن، وبعد ظهور النفط توطّنت هذه القبائل وتحضّرت وسكنت في المدن النفطية الجديدة، وأصبح أتباعها في عداد سكان المنطقة.

إن هذا يقودنا إلى التأكيد على أن معظم السنّة في الأحساء وفي البحرين، هم من المستوطنين حديثاً في هذه الديار، ففي البحرين كانت الغالبية الساحقة من السكان شيعة (أكثر من ٩٥٪) حتى احتلال العتوب لها سنة ١٧٨٣، في عملية سطو واضحة.. فقد كان العتوب من القبائل التي تبحث عن ملجأ تسكن إليه، وقد وفدت من أعماق الجزيرة العربية، وتوجهت إلى قطر، ومنها قفزت على البحرين واحتلتها. وفي البدء كان الغزاة قلّة، قياساً لعدد السكان، ولكن مع تصاعد المقاومة لحكمهم القاسي والشرس، احتاجوا إلى حلفاء جدد يواجهون بهم الأكثرية الشيعية المتحضّرة، فأغروا الدواسر بالمجيء وأقطعوهم الأراضي الزراعية المصادرة من الشيعة باعتبارها من حق المنتصر، وحوّلوا الضرائب المفروضة على الشيعة دون غيرهم إلى جيوب الحلفاء القبليين.

وفي العقود الأخيرة، فتح حكام البحرين باب الهجرة للسنّة القادمين من الجزيرة العربية، في عمليّة إعادة توازن سكاني مع السكان الأصليين، وفي الوقت نفسه تشدّدوا في رفض كل عربي يحمل الهويّة الشيعيّة. ومع كلّ هذا فإن الغالبية من السكان اليوم هم من الشيعة، تماماً مثلما كانوا بالأمس، رغم فرار عشرات الألوف من السكان إلى الساحل الإيراني (خاصة بوشهر والمحمرة).

وبالنسبة للأحساء والقطيف، فما جرى لهما لا يختلف عمّا جرى في البحرين.. فهناك اتخذت الممارسات الطائفية صفة الخضوع للمنتصر، وهنا أُلبست الممارسات مسوح الإسلام. إن كل المصادر السعودية التي عُنيت بتاريخ المنطقة، تؤكّد حقيقة أن الوجود السكاني السنّي كان قليلاً في الماضي.. وقد عاش هؤلاء تحت حكم دول شيعية كالحكم العيوني وحكم آل عصفور، دون اضطهاد أو تدخّل في شؤونهم المذهبيّة. أيضاً عاش الشيعة فترات زاهية من عهودهم تحت رئاسة حكام من السنّة، ولم يشكل المذهب

يومها مشكلة لدى السكان وتعاونهم.

كما أن أغلب المصادر تؤكد أيضاً أن الهجرات السنيّة قد زادت بشكل كبير بعد الاحتلال السعودي الأول للمنطقة الشرقية، ولكن هذه الهجرات -بعكس الهجرات الأولى- لم تندمج في المذهب الشيعي، لأن النعرات الطائفيّة، والتمييز الطائفي المقيت ضدّ الشيعي كان إحدى ثمرات الحكم السعودي القائم على المذهب الوهابي.. ولم يكن المهاجرون الجدد على استعداد لتقبّل العَنَت والاضطهاد بالانتماء إلى مذهب يترتّب عليه إهدار الدم، ومصادرة الأموال والتهجير من الوطن.. وفي كتاب (تحفة المستفيد) أسماء عوائل السنّة في الأحساء في الستينيات الهجرية من القرن الماضي، وقد حدّد أصولهم العرقية، كما حدّد في كثير من المواقع الفترة الزمنيّة التي قدموا فيها للمنطقة.

لقد حدث فرز طائفي منذ القرن الثالث عشر الهجري، واستتبعه جواز اضطهاد السكان الأصليين، وقد استقرّ العديد من النجديين في الأحساء واستحوذوا على ممتلكات وأراضي وبساتين الشيعة التي صودرت منهم، أو التي تركوها وفرّوا بأنفسهم خشية القتل.. ولم تكن الهجرة بالنسبة للشيعة اختيارية بل اضطرارية.. فالعنف والدموية للغزاة لا تحتاج إلى شواهد، فكلّها مسطّرة في كتب الموالين قبل غيرهم.. وقد نفى الوهابيون آلاف الأشخاص لأنهم لم يتخلّوا عن مذهبهم ويقبلوا بالمذهب الوهابي الجديد.. قال مؤرّخ وشاعر الوهابيين (ابن غنّام) وهو يتحدث عن نفي الشيعة من وطنهم بتفاخر:

وقد ولي الأحسا سعود فأسعدت ... مساعيه أهل الخير فانتظموا سمطا
وأبعد أهل الشرك عنها وأُبعدت ... مذاهبهم فيها وما أبصروا غمطا
نعم هدّمت للرفض فيها كنائس ... وكل شعار الرفض عن أرضها ميطا
ولم ينفِ إلّا كلّ من عمل الردى ... ومن كان سبّاباً لمنطقه مسطا

وبعد تدمير الدرعية، وإنهاء الحكم السعودي على يد قوات محمد علي باشا، زادت الهجرة من نجد لأسباب اقتصادية، ذلك أن الدرعية -وهي العاصمة- كانت ترفل بالثراء مما يأتيها من ضرائب من المناطق الأخرى التي تسيطر عليها، وبتدميرها وإنهاء الحكم السعودي فيها عادت نجد إلى فقرها القديم، فارتحلت جماعات إلى الكويت والأحساء والبحرين وقطر وجنوب العراق.. لكن هذه الهجرات ضعفت بانبعاث سلطة الوهابيين من جديد وتأسيس الدولة السعودية الثانية، إلى أن جاء الأتراك واستولوا على الأحساء

فخفّت الهجرة النجديّة إلى الإقليم، بسبب اعتبار الوهابيين سلطة الأتراك كافرة، لا يجوز أن يكون المسلم تحت ولايتها، بل إن من الواجب عليه أن يهاجر منها.

وبمجيء آل سعود واحتلالهم للمنطقة سنة ١٣٣١هـ، هجر الأحسائيون وأهل القطيف بلادهم في هجرة كبيرة إلى البحرين والكويت والعراق وإيران وقطر والإمارات، بل وصلت بعض الهجرات إلى الشام، فراراً من الاضطهاد الوهابي، وفي الوقت نفسه تصاعدت الهجرة من نجد إلى المنطقة، ثم تضاعفت بشكل طاغٍ بعد إنتاج النفط، وجذب الشركات للبدو كأيدٍ عاملة.

في العقود الأربعة الماضية، وضعت الحكومة السعودية مخططاً طموحاً لتعديل النسبة المذهبية لصالح مذهبها في المنطقة، فقدّمت إغراءات جديدة في مجال العمل والخدمات للمهاجرين الجدد، وتعمّدت حرمان الشيعة من كل هذا، وأرفقت بذلك حملة إعلامية طائفيّة شرسة ضدّ الشيعة ضمن حسابات الصراع الإقليمي المعروف.

استوطن المنطقة بُعيد احتلال ابن سعود لها كل القبائل التي كانت مستقرّة في البادية، ضمن المشروع العسكري - السياسي الذي وضعه الملك والذي عُرف بمشروع «الهِجَر».. وعلى هذا الأساس استقرّ العجمان وبنو مرّة والهواجر وبعض أفرع السبيع والعوازم ومطير وبنو خالد.. وفي الوقت نفسه وفد إلى المنطقة عدد غير قليل من قبائل البريمي، كالمناصير، وقبيلة البو منذر (تحت مشيخة قران بن مانع)، وكان استيطان أتباع هذه القبائل للمنطقة قد تمّ في أواخر العقد الثاني من هذا القرن الميلادي[1].

ففي عهد حمدان بن زياد -حاكم أبو ظبي-، التجأت بعض القبائل المتصارعة إلى الأحساء.. حيث قامت نزاعات بين المناصير والمزاريع وبنو ياس من جهة، والعوامر وآل بو شمّاس والدروع من جهة أخرى.. والتجأ الجميع إلى عبدالله بن جلوي حاكم الأحساء طلباً للحماية، في حين التجأت أفرع من بني ياس -كالحوامل والقبيسات- إلى أبو ظبي.. ومنذ ذلك الحين استقرّ المناصير في الأحساء بزعامة الشيخ راشد بن مانع، في أواخر العقد الثاني الميلادي، ثم تبعهم في يونيو ١٩٢٥ العوامر والدروع[2].

(١) الحدود الشرقية للجزيرة العربية، ج. ب. كيلي، ص ٣٢٠ - ٣٢٥.
(٢) الخليج العربي (١٩١٤ - ١٩٤٥)، الجزء الثاني، جمال زكريا قاسم، ص ٢٩٧ - ٣٠٠.

ثم استقبلت المنطقة وفي الفترة نفسها الدواسر الذين رفضوا الإصلاحات السياسية والاقتصادية في البحرين سنة ١٩٢٣م، فدعاهم الملك عبدالعزيز للسكن في المنطقة (الدمام) فكانوا نواة سكانها.. ومع تصاعد إنتاج النفط في الأربعينات الميلادية، وفدت جماعات كبيرة من جنوب المملكة، تبحث عن العيش والاستقرار، فكان أن تلقفتها ماكنة صناعة النفط، وضمتها الدولة إلى المدن الحديثة.

من جهة أخرى، نرى أن الهجرات الشيعية من المنطقة كبيرة ومذهلة، نستطيع تحديدها في خمسة اتجاهات.

الأول: الهجرة إلى العراق.. حيث نزحت جماعات كثيرة إلى هناك، خاصة بعد سيطرة الوهابيين على المنطقة في القرن التاسع عشر الميلادي.. وكان من بينهم من سكن البصرة، فيما سكن آخرون في المدن الشيعية المقدسة كالنجف وكربلاء.. وقد أشار الأستاذ محمد سعيد المسلم إلى وجود حيّ يعرف بـ«حيّ القطافة» -نسبة إلى القطيف- من لواء المنتفق، وقدّر سكانه في عام ١٩٦٠ بنحو عشرين ألف نسمة[(1)]. ولربما كان تواجد المهاجرين في جنوب العراق أكثر من غيره، خاصة من الأحسائيين، الذين انهمكوا في الزراعة، حتى أصبح من الشائع أن يطلق على المزارع هناك لقب «حساوي»[(2)].

الثاني: هناك قسم كبير من الشيعة المهاجرين أقام في منطقة عربستان «خوزستان الإيرانية حاليًّا».. ويعيش عدد غير قليل منهم في المدن العربية عبادان والمحمرة «خرمشهر» والأهواز وبوشهر.. وهؤلاء لا زالوا يمارسون مهنهم كمزارعين، ولا تزال لغتهم الأم هي العربيّة، كما أن بعضهم لا زال محافظاً على قدر ولو قليل من الارتباط بموطن أجداده.

الثالث: وهناك وجود غير قليل من شيعة الأحساء والقطيف في الكويت. وقد استقبلت الكويت أكثر من أي مشيخة خليجية أخرى المهاجرين من نجد والأحساء.. وإذا كانت روابط البحرين بالمنطقة معلومة في التاريخ باعتبارهما كياناً سياسيًّا واحداً، وتسكنهما طوائف عربيّة ذات أصول مشتركة، ويجمعهما المذهب والتاريخ المشترك.. فإن للكويت أيضاً علاقة خاصة بالأحساء. إذ إن هذا الكيان المعروف اليوم باسم الكويت

---

(١) محمد سعيد المسلم، مصدر سابق، ص١٢.

(٢) الجغرافية السياسيّة للكويت، د. محمد رشيد الفيل، ص١٧٩.

لم يؤسّس إلّا على يد بني خالد، حكام المنطقة، حيث ابتنوا لهم حصناً سُمّي بـ«الكوت»، كان ينزل فيه زعماء القبيلة بين الفينة والأخرى.. ثم ما لبث أن تجمّع حوله لفيف من البدو، وبعدها جاء آل صباح فاستقروا بالقرب من الكوت وسيطروا على ما حوله متمتعين بحماية بني خالد.. وشيئاً فشيئاً تحوّل الكوت إلى الكويت، كما يثبت ذلك جميع المؤرخين دون استثناء.

وحتى مطلع القرن الثامن عشر الميلادي، كان المجتمع الكويتي لا يملك أيّة خاصيّة، فقد احترفت أعداد من السكان مهنة الغوص من أجل اللؤلؤ إضافة إلى صيد الأسماك، لكن البدو الرحّل الذين يقدمون ويظعنون كانوا هم الأكثرية.. وبعد أن جاء آل صباح وما تلا ذلك من انبعاث حركة العنف الوهابي في وسط وشرقي الجزيرة العربية، وما نشأ عنها من تدفق المهاجرين والمضطهدين، وتطلّعهم إلى أماكن يسودها نوع من الأمان والاستقرار.. وجد هؤلاء في الكويت مكاناً ملائماً للسكن والإقامة[1].

من هنا نلحظ أن تشكيل الكويت السكاني الحديث مدين -قبل النفط- إلى وفود جماعات نجدية وإحسائية، لما كانت تتعرض له في مناطقها من بطش وإرهاب[2]. وفي تقسيم سكان الكويت على أساس مذهبي، نجد أن السنّة يتشكّلون إضافة إلى الأسرة الحاكمة، من سنّة نجد المعارضين للمذهب الوهابي، ومن بعض سنّة العراق والأحساء، إضافة إلى بعض الأعاجم السنّة.. ويضاف إلى السنّة هؤلاء أفرع من قبائل مطير والعجمان كانت تحوم في مناطق متنازع على تبعيتها.

أما الشيعة في الكويت.. فهم عرب وأعاجم، ويشكّل الأحسائيون والبحرانيون والعراقيون القسم الأول، وهناك حيّ في الكويت يعرف حتى اليوم باسم حيّ «الحساوية»، ويقع جنوب حي (الشرق)، ومعظم سكانه من الأحساء، كانوا إلى وقت قريب يعملون في صناعة النسيج والعباءات العربية[3].

وفي حيّ «القبلة» توجد إضافة إلى الأسر النجدية المهاجرة، أُسرٌ أخرى من مقاطعة

(١) دراسات في تاريخ الكويت الاجتماعي والاقتصادي في العصر الحديث، د. بدر الدين عباس خصوصي، الطبعة الثانية - الكويت، ص١٢٣.
(٢) المصدر السابق، ص٢٥٨.
(٣) محمد رشيد الفيل، مصدر سابق، ص٥٨٦.

الأحساء، كما توجد في حي «الشرق» مجموعات من العوائل القطيفية والإحسائية[1].

أما الشيعة العجم فقد هاجر بعضهم إلى الكويت قبل أكثر من قرنين من الزمان، كعائلة معرفي.

وإضافة إلى ما تدفّق على الكويت من المهاجرين في بداية تأسيس الدولة السعودية الأولى.. تدفّق إليها بُعيد احتلال الأحساء سنة ١٩١٣ عدد غفير من أهل المنطقة، وقد أفاد هذا التدفّق الكويت اقتصاديًّا، فكان ذلك أحد أهم عوامل ازدهارها، مثلما حدث في الهجرة الأولى في مطلع القرن الثالث عشر الهجري[2].

ولأن أرض الكويت ليس صالحة للزراعة، فيبدو أن الهجرات الأحسائية إلى بالخصوص شملت الحرفيين، بعكس الهجرات القطيفية والأحسائية إلى العراق التي مارست أعمال الفلاحة. ولذا تشير المصادر التاريخية إلى أن الأحسائيين انخرطوا في الكويت في صناعة الآلات والأدوات النحاسية والمنزلية، كصناعة القدور وأباريق القهوة، كما مارسوا مهنة الحدادة، فصنعوا السكاكين والمطارق وآلات الهدم والبناء، والمسامير التي تستعمل في بناء السفن، والقداديم والكلاليب والملاقط وغيرها[3].. أما المهنة التي برع الأحسائيون فيها منذ القدم، فهي صناعة النسيج، وبالأخص صناعة المشالح الأحسائية ذات الشهرة العالمية، فكان حيّ الحساوية من أنشط الأحياء في هذه الصنعة -قبل أن يدمّرها النفط-.. وبرزت أسماء شيعية شهيرة من عائلة البغلي والقطان وغيرهما، الذين عُدّوا أساتذة هذه المهنة[4].

رابعاً: الهجرة إلى البحرين، والهجرة هنا ضمنيّة لأسباب ذكرناها سابقاً.. إلّا أن المؤرخين لم يفتهم التأكيد على حقيقة تبادل الهجرات بين المنطقتين كلّما ألمّ بإحداها عاصفة طائفيّة أو سياسية، مثلما حدث سنة ١٧٨٣م في البحرين، أو ما حدث بعد ذلك بعقدين في الأحساء، أو أثناء الحرب الأهلية السعودية على الأحساء، وذلك في العقد السابع من القرن التاسع عشر الميلادي، أو أثناء الحرب بين البادية والشيعة في القطيف سنة ١٩٠٨،

(١) المصدر السابق، ص٥٨٠ - ٥٨٢.
(٢) تاريخ الكويت، عبد العزيز الرشيد، ص٦٤. ومحمد رشيد الفيل، مصدر سابق، ص٣٩٤.
(٣) محمد رشيد الفيل، مصدر سابق، ص٣٤٤ - ٣٤٥.
(٤) المصدر السابق، ص٣٣٦ - ٣٣٧.

أو بعد احتلال ابن سعود للأحساء سنة ١٩١٣، أو بعد أن أفتى علماء الوهابية بضغط من الإخوان وبأمر من الملك عبدالعزيز بقتل الشيعة أوطردهم إن لم يغيّروا مذهبهم وما تبع ذلك من هجرة واسعة إلى البحرين في ١٩٢٧ - ١٩٢٨.

يقسّم المؤرخون السكان في البحرين إلى أكثرية شيعية وأقليّة سنيّة حاكمة.. ويتشكّل السنّة من العتوب، والهولة الإيرانيين الذين نزحوا من الشاطئ الشرقي للخليج سنة ١٩٢٥م، والبياسر وبنو خضير.. إضافة إلى الدواسر، وعدد آخر من القبائل النجدية السنيّة[1].

والشيعة في البحرين على ثلاثة أقسام: **الأول**: البحارنة، وهؤلاء هم السكان الأصليون، وهم الأكثرية. **والثاني**: هم الشيعة من ذوي الأصول القطيفية والأحسائية «وقد نزحوا إلى البحرين بعد أن خضعت مناطقهم لحكم الوهابيين في القرن التاسع عشر»[2]، و «زادت هجرتهم إلى البحرين، خاصة بعد استيلاء عبدالعزيز بن سعود على الأحساء في عام ١٩١٣»[3]. أما **القسم الثالث**: فهم الشيعة الإيرانيون، وهم قلّة نزحوا إلى البحرين قبل معظم السنّة في الفترة الواقعة بين عام ١٦٢٢ وعام احتلال العتوب إلى البحرين سنة ١٧٨٣.. وقد جاء الإيرانيون إلى البحرين بعد طردهم للاستعمار البرتغالي منها[4].

خامساً: هناك جاليات أحسائية معروفة في قطر ودولة الإمارات العربية المتحدة، تمارس التجارة، ولكن لا يعلم متى تمت هجرتها، ويرجح أنها كانت بعد عام ١٩١٣.. ويضاف إلى هذا هناك أسر شيعية قليلة نزحت من المنطقة واستقرت في الهند والباكستان وسوريا وغيرها.

عدد السكان

ما يدهش الباحثين والمهتمين حقًّا، هو عدم وجود رقم حقيقي ومعتمد من قبل الحكومة وأجهزتها الرسمية، فيما يتعلق بتعداد السكان. فحتى الآن لا توجد سوى

---

(١) جمال زكريا قاسم، الجزء الثاني، ص٢٠٤. ويوسف الصميط، مصدر سابق، ص٣٦. وكذلك الرميحي، مصدر سابق، ص٥٢.

(٢) جمال زكريا قاسم، الجزء الثاني، ص٢٠٥. ويوسف الصميط، مصدر سابق، ص٣٦.

(٣) المصدر السابق، ص٢٠٥.

(٤) المصدر السابق، ص٢٠٥.

تقديرات متفاوتة ومتناقضة أحياناً لا يمكن الوثوق بها، أو الاعتماد عليها في أي مشروع بحث، أو مشاريع خطط عمل استراتيجية.

والسعودية من غير جدال من أكثر الدول افتقاراً إلى الأرقام والبيانات الإحصائية، مما أوجد صعوبات في إجراء أي دراسة تحليلية للسكان[1].. بل إنه يمكننا القول ومن دون مبالغة: إن السعودية من أكثر الدول خوفاً وخشية من الإحصاءات، ليس في مجال تعداد السكان فحسب، وإنّما في شتى الجوانب المهمة الاقتصادية والاجتماعية. ونظراً لغياب الإحصاء الموثق والمعتمد، فإن من المستحيل إعطاء رقم دقيق لعدد السكان الشيعة[2].

وكانت مجلّة الإيكونوميست البريطانية قد أصدرت تقريراً محدود التداول في عام ١٩٩٠، فسّر سبب إحجام المسؤولين السعوديين عن إجراء تعداد للسكان في المملكة، بأن ذلك محاولة من جانب الأمراء للتغطية على ضخامة عدد السكان غير السعوديين الذين كانوا يقدّرون بأربعة ملايين وافد، معظمهم من اليمن، كما يرمي الأمراء إلى إخفاء عدد المواطنين الشيعة الذين يطالبون منذ زمن طويل بإلغاء سياسة التمييز الطائفي التي تمارس ضدّهم.

كانت الحكومة السعودية تتداول رقم ثمانية ملايين عدداً لسكان البلاد لمدّة طويلة. وفي سبتمبر ١٩٧٤م، جرى إحصاء متخلّف باعتراف المسؤولين، أظهر أن عدد السكان في حدود سبعة ملايين، وهو رقم كانت بعض أجهزة الدولة الرسمية تعتمده، وهو من تقديرات منظمة اليونسكو. ويبدو أن نتيجة الإحصاء غير الدقيق مبالغ فيها، حيث أشارت مجلة اليمامة السعودية، إلى أن عدد السكان وفق ذلك الإحصاء الذي لم تنشره الحكومة يتراوح بين ٥,٥ - ٦ ملايين مواطن يحملون الجنسية السعودية. وقد أكّد عدد من المسؤولين في وزارة المالية التي أشرفت على الإحصاء، أن هذا الرقم كان هو بالفعل النتيجة التي أظهرها الإحصاء.

---

(١) سكان المملكة العربية السعودية، محمد أحمد الرويثي، ط ٢ الرياض ١٩٧٩، ص٢٣.

(2) Shi'ism And Social Protest, Edited By Juan R.I. Cole & Nikki R. Keddie, Yale University Press, U.S.A, 1986, Chapter 9 (The Shi'i Minority In Saudi Arabia), By Jacob Godberg, P. 230.

في ذلك الإحصاء، وهو الأوّل والأخير، جرى توزيع بيانات في المدن الرئيسيّة، كما تمّ وضع بعض الملصقات على أعمدة الكهرباء والحيطان، والطريف أن عدداً قليلاً محدوداً للغاية من السكان شعروا بأن هناك إحصاء للسكان. ولم تنشر الحكومة تفاصيل الإحصاء عن التركيب العمري والنوعي والاقتصادي، ممّا يدلّ على أن العمليّة لا تعدو وضع أرقام عدّها المسؤولون لتتناسب مع الأوضاع السياسية.

وقد انتشرت -يومها- شائعات قويّة بأن عدد السكان لم يزد عن أربعة ملايين نسمة. ولكي يتنصّل المسؤولون من الإحصاء ونتائجه اعترفوا بأن موظفي الإحصاء، ما هم إلّا موظفين في وزارة المعارف دُرّبوا لمدة شهر قبل إجراء الإحصاء، وهي فترة لا تكفي حتى لمعرفة المبادئ الأوليّة للإحصاء. «ولوحظ أن همّ الغالبيّة من المشتركين، إنهاء وقت التعداد بأيّ شكل والحصول على المكافأة المالية»[1].

بهذه الاعتباطيّة جرى تعداد السكان سنة ١٩٧٤.. وقبل هذا التاريخ باثني عشر عاماً (١٩٦٢) قامت مصلحة الإحصاء بإجراء (حصر) للسكان ليكون مرجعاً، ولكن نتائج هذا الحصر ما لبث أن أُلغيت رسميًّا. وقد كان الحصر مجرّد تجربة، وقد قدّر عدد السكان السعوديين بنحو ٣,٢ مليون نسمة. ويبدو أن الرقم لم يعجب الأمراء الذين كانوا يعتمدون رقم ثمانية ملايين «فاعترضوا على ما أسموه بعيوب ظهرت في عمليّة الحصر، فألغوا نتائجها رسميًّا، بعد أن طبعوا ووزّعوا النشرة الأولى المتعلّقة بنتائج العمليّة في مدن المملكة»[2].

لا تريد الحكومة السعودية أن تقدّم رقماً صغيراً لعدد السكان، إذ سيثار حينها سؤال حول تبرير الإنفاق المتزايد والتلاعب بالثروة الوطنيّة. ومن جهة أخرى لا تريد الحكومة أن تُظهر العدد الحقيقي للسكان الشيعة -مع أن حالة الاضطهاد الطائفي ستؤثر بلا شك في ذلك-.. إنها تريد تقليص عدد السكان الشيعة لأسباب سياسيّة معروفة. وقد سبق أن سأل الكاتب أمين الريحاني الملك عبدالعزيز في مطلع العشرينات الميلادية: «هل ترون أن من الواجب الديني محاربة المشركين حتى يدخلوا في دين التوحيد -المذهب الوهابي-؟». فأجاب الملك: «لا.. لا.. وضرب الأرض ضربتين بعصاه، ثم قال: هذا

(١) محمد أحمد الرويثي، مصدر سابق، ص٢٤، ص٣٥ - ٣٦.
(٢) المصدر السابق، ص٢٣ - ٢٤.

الحسا عندنا أكثر من ثلاثين ألف من أهل الشيعة، وهم يعيشون آمنين..»[1]. فالملك لم يعتبر الشيعة مشركين فقط، وإنّما قال بأن عددهم ثلاثون ألفاً، في حين أن البيانات الحكومية تشير إلى غير ذلك. اعتماداً على نظام الضرائب الذي سنّه السعوديون.

من كل هذا يتبيّن أن هناك صعوبات عديدة في تحديد رقم لعدد السكان في المملكة بشكل إجمالي، إذ إن ما هو متداول لا يعدو تقديرات، تقترب أو تبتعد عن الحقيقة بنسب متفاوتة. غير أن هناك خطأً فادحاً وقع فيه معظم الباحثين، الذين التفتوا إلى تواجد الشيعة المكثّف في مناطق الشرق الغنيّة بالنفط، والتي تعاني من اضطرابات سياسية مزمنة، وتجاهلوا الأعداد الكثيرة للشيعة في مناطق المملكة الأخرى (في الغرب والجنوب والشمال).

ومن المهم إلفات النظر إلى أن بحثنا عن تعداد الشيعة في البلاد، يكتسب أهميّة سياسيّة، باعتبار أن النظام السياسي القائم يعتمد أساساً على الفرز الطائفي في سياساته وتحالفاته الداخلية والخارجية، حيث يشكّل المذهب إحدى أهم قواعد الموقف السياسي والاجتماعي.

تقديرات السكان في الماضي والحاضر

في مهمّة استخباريّة بالدرجة الأساس، تحرّك الكاتب والمخبر الإنجليزي ج. ج. لوريمر نحو الأحساء -وكانت يومئذٍ تحت قبضة الحكومة العثمانيّة- مصطحباً معه عدداً من الباحثين والمساعدين، من أجل إعداد مسح جغرافي وسياسي شامل لها.. فحدّد مواقع المنطقة الطبوغرافية ومصادر الثروة، وعدد القرى واحدة واحدة، وتحدث عن سكانها ومنازلها وما يملكون من ثروات ومزارع، وما تحويه تلك القرى أو المدن من عيون. وكانت خلاصة المسح الذي دام مدّة غير قليلة، أن طُبع في كتاب يحمل اسم «دليل الخليج»، يحوي ١٤ مجلداً، سبعة منها في الجغرافيا، وسبعة أخرى في السياسة.. ولم توزّع هذه المجلدات إلّا على المسؤولين البريطانيين المهتمين بالمنطقة والذين يتعاطون مع شؤونها، حيث لم يطبع منه سوى ٥٠ نسخة. وفي الخمسينات الميلادية تسرّبت نسخ من الكتاب، وتُرجم وطبع في قطر مرتين على حساب أميرها.

(١) أمين الريحاني، ملوك العرب، المؤسسة ال عربية للدراسات والنشر ١٩٨٠، ص٥٨٨ - ٥٨٩.

قدّر لوريمر في دراسته (سنة ١٩٠٧) عدد سكان الأحساء بحوالي ١٥٨ ألف نسمة، بين بدو وحضر. في حين أفادت تقديرات أخرى للفترة نفسها أن عدد سكان الكويت كان يبلغ ٣٥ ألفاً، والبحرين ١٠٠ ألف، وقطر ٢٧ ألفاً، وساحل عمان بأكمله ٧٢ ألفاً[١].

ويلاحظ أن لوريمر قدّر نسبة الشيعة في الأحساء بثلاثة أرباع السكان الحضر، وأشار إلى أن الشيعة في القطيف وما حولها يشكّلون الأكثريّة الساحقة، وقال: إن عدد سكان القطيف يقدّر بنحو ٢٨ ألف نسمة[٢].

وفي الثلاثينات الميلادية، قدّر عمر رضا كحالة سكان الأحساء فقال: إن عددهم ٢٥٠ - ٣٠٠ ألف نسمة[٣]. وفي الفترة نفسها قدّر مستشار الملك عبدالعزيز -الشيخ حافظ وهبة- عدد سكان الحضر بـ ٩٠ ألف نسمة، قال: إن ستين ألفاً منهم ينتمون إلى المذهب الشيعي.

وقدّر فايدل -صاحب مؤلَّف واحة الأحساء- عدد الشيعة في الأحساء سنة ١٩٥٥ بنحو ١٣٠ ألف نسمة، وقال: إن نسبتهم إلى السنّة والبدو المستوطنين حينئذٍ بكثافة عالية بعد أن تفجّر النفط هي ٤٥ إلى ٥٥. ونظراً لهذا التقدير الضئيل لعدد الشيعة، فقد شكك فاسيلييف في الرقم، وقال: إن الشيعة ربما يخفون معتقداتهم، فمن المحتمل أن عددهم في المنطقة الشرقية كان أكبر مما ذكره الباحثون[٤].

وفي عام ١٩٦٠، قدّر الأستاذ محمد سعيد المسلم عدد السكان في القطيف وقراها -دون الأحساء- بمائة وخمسين ألفاً، وقال: إن عدد الشيعة يمثّل ٩٦٪ من السكان في واحة القطيف، وأشار إلى أن نسبة السكان قد زادت في تلك الفترة لارتفاع نسبة المواليد وانخفاض نسبة الوفيات[٥].

وبناءً على تقديرات محمد سعيد المسلم لعدد سكان القطيف، فإنه يمكن تخمين

---

(١) مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، عدد ٣٦، أكتوبر ١٩٨٣/ ذو الحجّة ١٤٠٣هـ.
(٢) لوريمر، دليل الخليج، القسم الجغرافي، الجزء الثاني، ص٨٤٦.
(٣) جغرافية شبه الجزيرة العربية، عمر رضا كحالة، ص١٠٦ - ١٠٧.
(٤) فاسيلييف، مصدر سابق، ص٣٤٩.
(٥) محمد سعيد المسلم، مصدر سابق، ص٥٧.

عدد سكان الأحساء في العام نفسه ١٩٦٠ بنحو ٢١٠ آلاف نسمة.. فيكون عدد الشيعة في واحتي الأحساء والقطيف حوالي ٣٥٠ ألف نسمة.

وقدّر الأستاذ الدكتور عبدالله السبيعي عدد سكان الواحتين -الأحساء والقطيف- في عام ١٩٦٠ بـ ٦٠٠ ألف نسمة[١]. وفي الفترة نفسها، قدّر باحث أمريكي سنة ١٩٥٩ عدد السكان الشيعة بأكثر من ١٠٠ ألف نسمة، يعيشون في الأحساء والقطيف، وأشار إلى الشيعة (المكارمة / الإسماعيليين)، الذين كانوا يسيطرون على نجران قرب الحدود اليمنية، دون أن يذكر عددهم[٢].

وواضح أن حساب هذا الباحث غير دقيق لضعف اطّلاعه، فقد قال في حديثه عن سكان المنطقة الشرقية: إن الهفوف يسكنها (٦٠ ألفاً)، والمبرز (٢٨ ألفاً)، وإن في الأحساء ٥٢ قرية قدّر عدد سكانها مجتمعة بنحو (١٥٠ ألفاً)، والخبر (٣٥ ألفاً)، والقطيف (٢٥ ألفاً)، والدمام (١٥ ألفاً)، والظهران (١٥ ألفاً). ويكمن الخطأ في تقديرات الكاتب الأمريكي أنه لم يحتسب عدد الشيعة في القرى الأحسائية -وهي في غالبيتها قرى شيعيّة-، كما نعتقد أنه لم يضف إلى حسابه عدد الشيعة في قرى القطيف وهي كثيرة. غير أن من المدهش حقّاً هو أن تقديراته لسكان المدن التي زارها، والتي أشرنا إليها أعلاه، هي تقديرات تقارب الصحّة[٣].

وتتضح نسبة شيعة الشرقية بالنسبة لعموم المملكة بالمقارنة مع سكان المدن الأخرى المهمّة. فقد أشار الأمريكي إلى أن أكبر مدينة سعودية في أواخر الخمسينات الميلادية هي مكة المكرمة، وقال: إن عدد سكانها (١٢٠ ألفاً)، في حين أن عدد سكان جدة (١٠٠ ألف نسمة)، والمدينة المنورة (٤٠ ألف نسمة)، وينبع الميناء/ البحر (عشرة آلاف نسمة)، أمّا العاصمة الرياض فقال: إن سكانها يبلغون يومئذٍ (٧٥ ألفاً) وارتفع الرقم حتى أصبح أكبر من عدد سكان مكة المكرمة.

وواضح من مجمل الأرقام التي وُضعت تقديراً لعدد السكان في المملكة، أنها

---

(١) الدكتور عبدالله السبيعي، اكتشاف النفط وأثره على الحياة الاقتصادية في المنطقة الشرقية، ط ١٩٨٧، ص٣٠.

(2) Saudi Arabia, It's pepole, It's society, It's culture. By George A. Lipsky, Harf Press, U.S.A 1959, P. 25, 35, 44, 70.

(3) George A. Lipsky, P. 25.

متباعدة وتقريبية، أما إحصاءات الحكومة -إنْ وجدت- فهي غير موثوقة من قبل كل الباحثين على الإطلاق.

حسب «حصر» السكان عام ١٩٦٢ الذي ألغت الحكومة نتائجه، فإن عدد سكان الأحساء والقطيف وصل إلى ٥٧٥ ألف نسمة، بينهم ٢٠٠ ألف بدوي مترحّل[١]، وذلك من مجموع عدد السكان المقدّر بـ ٣,٢ مليون نسمة. وفي عام ١٩٧٤ قدّر عدد سكان المنطقة الشرقية بحوالي ٧٧٠ ألف نسمة من أصل سبعة ملايين هم مجموعة سكان المملكة. وفي عام ١٩٧٧م - ١٣٩٧هـ قدّرت مصلحة الإحصاءات العامّة في وزارة المالية والاقتصاد الوطني عدد سكان المنطقة الشرقية بـ ٧٦٢٠٢٧ نسمة. وكلّ هذه الأرقام لا تعدو التخرّصات، وإن لم تخلُ من الدسّ أيضاً.

باندلاع انتفاضة الشيعة في المنطقة الشرقية في مطلع عام ١٤٠٠هـ - نوفمبر ١٩٧٩م، تزايدت الحاجة لمعرفة عدد الشيعة في المملكة ومواقعهم وتأثيرهم، ولكن الباحثين فوجئوا بشحّة الإحصاءات، وتناقض الأرقام. فاعتمد الباحثون على التخمين أو الجمع بين المتناقضات!، أو وضع أرقام متباعدة لتقريب التخمين!. تماماً مثلما فعلت الأمم المتحدة من قبل، حيث قدّرت في منتصف السبعينات الميلادية عدد سكان المملكة بين ٦ - ١٠ ملايين نسمة![٢].

قدّر فاسيلييف عدد الشيعة في الأحساء والقطيف في مطلع الثمانينات الميلادية بين ٣٠٠ - ٣٥٠ ألف نسمة، وقال: إنهم يقطنون أهمّ منطقة استراتيجيّة في البلاد[٣].

في الفترة نفسها قدّر «عضيد دويشة» نسبة الشيعة في المملكة إلى بقيّة السكان بـ ١٢٪، ولكنه لم يذكر عدد سكان المملكة في الأساس، وأشار إلى أن المنطقة الشرقية تسكنها أغلبيّة شيعيّة[٤].

روبرت ليسي، الكاتب والصحافي البريطاني، قدّر عددهم عام ١٩٨٢ بمائتي ألف

(١) الصميط، مصدر سابق، ص٢٦.

(٢) الرويثي، مصدر سابق، ص٢٤. لقد نُشرت أرقام أقرب إلى الحقيقة تقول: إن عدد سكان المملكة بين ١٩٦٢ - ١٩٧٤ يقدّر بـ ٣,٢ - ٤,٤ مليون نسمة.

(٣) فاسيلييف، مصدر سابق، ص٥١٧.

(٤) السعودية تبحث عن الأمن (مترجم)، عضيد دويشة، المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية - لندن.

نسمة، ونظنّ -من خلال تتبعنا لسياق حديثه- أنه قصد منطقة الاضطرابات فقط، ونعني بها القطيف، ولم يشمل رقمه سكان الأحساء الشيعة[1].

وقدّر باحثان غربيّان في مركز الدراسات الاستراتيجية الدولية عدد الشيعة عام ١٩٨٢ بنحو ٢٧٥ ألف نسمة، ١٥٠ ألفاً منهم يعيشون في واحة القطيف ويشكلون ٩٨٪ من سكانها، وأشارا إلى الشيعة يشكّلون نصف عدد سكان الأحساء. والخطأ واضح في التقدير هنا، لأن سكان الأحساء أكثر من سكان القطيف، في حين أن تقديرات الباحثين قالت: إن عدد سكان الأحساء الشيعة لا يتجاوز ١٢٥ ألف نسمة، أي أقل من سكان القطيف. ومن جهة ثانية أشار الباحثان إلى أن عدد سكان المملكة سنة ١٩٨٠ بلغ ٤,٣ مليون نسمة، وفي موقع آخر قالا: إن الرقم أقل من أربعة ملايين نسمة[2].

أما الباحث جوزيف كشيشيان، فقد قدّر عدد الأقليّة الشيعيّة في المملكة بين ٢٥٠ - ٤٠٠ ألف نسمة، وقال: إنهم يسكنون بصورة رئيسية في مدن القطيف والهفوف وسيهات، ويعمل غالبيتهم في صناعة النفط، وبالتالي لا يمكن الاستغناء عنهم. وأشار إلى أن الطرد بالجملة للشيعة السعوديين المتهمين بنشاطات معادية للدولة سيلحق الضرر بصناعة النفط[3].

من جهته قدّر الكاتب البريطاني «مايكل فيلد» عدد الشيعة في السعودية في منتصف الثمانينات بحوالي ٣٨٠ ألف نسمة[4]. وقدّر مؤلفا كتاب SHI'ISM AND SOCIAL PROTEST عددهم بـ ٢٠٠ ألف نسمة[5].

---

(١) روبرت ليسي، المملكة، ترجمة دهام عطاونة، انظر الفصل المتعلّق بانتفاضة الحرم تحت عنوان (المهدي).

(2) John A. Shaw & David E. Long. P. 46, 97.

الطريف أن المؤلّفين قدّما إحصاءً لعدد الأجانب في السعودية فقالا: إنهم يمثلون نصف السكان، أي أكثر من مليوني نسمة، منهم «١٠٠ ألف كوري جنوبي، ٥٠ ألف تايلاندي، ٢٠٠ ألف فلبيني، ٧٥ ألف هندي، ٣٠٠ ألف باكستاني، ٤٠ ألف أمريكي، ١٠ آلاف ألماني، ١٥ ألف فرنسي، ١٣ ألف إيطالي، ١٠ آلاف يوناني.. إلخ».

(٣) دراسة عنوانها: «رسائل جهيمان السبع»، أعدّت للندوة التي عقدت لبحث موضوع «الأصوليّة الإسلامية» في الاجتماع السنوي العشرين لمؤسسة الدراسات الشرق أوسطيّة/ بوسطن في ٢١/ ١١/ ١٩٨٦.

(٤) مايكل فيلد، التجار، ص٧٠.

(5) Shi'ism And Social Protest, P. 230 - 231.

وقدّر وليام كوانت في كتابه «السعودية في الثمانينات» عددهم بـ ٣٠٠ ألف نسمة، وجيمس بوكان بـ ٤٠٠ ألف نسمة، وجيمس بل -صاحب مؤلف الإسلام والسياسة والشيعة في الخليج- بـ ٤٠٠ ألف نسمة. واعتمد جاكوب غولدبيرغ في دراسة عن الأقليّة الشيعية في السعودية، رقماً قال: إنه معتدل، وهو ٣٥٠ ألف نسمة من ستة ملايين هم عدد سكان المملكة. وقال جاكون: إن أكثر من ثلث سكان الأحساء شيعة، وأن ٩٥٪ من القطيف وما حولها من الشيعة، وكذلك نصف سكان الهفوف.

وفي عام ١٩٨٧/ شعبان ١٤٠٧هـ قدّر الأستاذ يوسف خالد أبو بشيت في مقال له عن القطيف وحدها، قدّر عدد سكانها بـ٨٩ ألف نسمة.. كما قدّر عدد سكان القطيف مع مجموع القرى والمدن المحيطة بها بربع مليون نسمة.. وبالطبع فإن هذا الرقم لا يشمل الأحساء[1]. في الفترة نفسها -أواخر الثمانينات- كان أعيان الشيعة في القطيف يعتمدون رقم ٤٠٠ ألف نسمة عدداً لسكان القطيف وقراها، أساساً في خطاباتهم ومراسلاتهم مع المسؤولين الحكوميين.

وفي دراسة ميدانيّة قام بها لفيف من خريجي الجامعة في منطقة القطيف في صيف عام ١٩٨٩، وُضع خلالها حصرٌ لعدد طلاب وطالبات الابتدائيّة والمتوسّطة والثانوية، وطلاب المعاهد المهنيّة والصناعية والجامعات، وعدد العاملين في شركة أرامكو النفطية. وجرى حصر عدد المدارس والأندية والشركات الأهلية والمستشفيات والمساجد وعدد خطوط التلفون وغيرها. وكانت نتيجة الدراسة والحصر أن وُضعت تقديرات لعدد سكان منطقة القطيف وقراها، فجاءت على النحو التالي:

القطيف: ٨١ ألفاً، القديح: ٢٠ ألفاً، البحاري: سبعة آلاف، أم الحمام: ١٦ ألفاً، الجاروديّة: ٨,٥ ألف نسمة، الجش: ١٢ ألفاً، الخويلدية: ٧ آلاف، الأوجام: ٩,٥ ألف نسمة، العواميّة: ٢٦ ألف نسمة، سيهات: ٤٥ ألفاً، صفوى: ٤١ ألفاً، تاروت: ٢٨ ألفاً، الربيعية: ١٤ ألفاً، سنابس: ٢٠ ألفاً، حلّة محيش: ٧,٥ ألف نسمة، الملّاحة: ٧,٥ ألف نسمة، متفرّقات (الدمام - الخبر - الجبيل - بقيق - الثقبة - رحيمة - الظهران): ٤٥ ألف نسمة. وأشارت الدراسة إلى أن عدد سكان القطيف وضواحيها، إضافة إلى سكنة

(١) مجلة القافلة، تصدرها شركة أرامكو النفطية، عدد شعبان ١٤٠٧هـ موضوع يحمل عنوان: (القطيف.. مدينة تاريخيّة عريقة). الصفحات ٦ - ١٥.

المدن -دون الأحساء- تصل إلى ٣٩٥ ألف نسمة، في حين قدّرت الدراسة عدد السكان الشيعة في الأحساء بـ ٥٦٠ ألف نسمة.

وأوضحت الدراسة لعيّنة عشوائيّة من ٥٠٠ شخص، أن معدّل الزيادة السنوية للسكان الشيعة في القطيف خلال العقود الأربعة الماضية كان: ٣,٧٪ سنويًا، وأن هذه النسبة آخذة في التصاعد لتصل في الوقت الحاضر إلى ٣,٩٪ سنويًا. وأرجعت الدراسة سبب هذه الزيادة المذهلة إلى عدّة عوامل:

أوّلها: انخفاض نسبة الوفيات خلال العقد الماضي، فبعد أن كانت الوفيات بين المواليد في أواخر السبعينات تزيد على ١٤١ في الألف -وهي نسبة مرتفعة جدًّا-، انخفضت هذه النسبة في أواخر الثمانينات لتصل إلى ما يقارب ٣٠ في الألف، ويرجع ذلك إلى تحسّن مستوى الخدمات الصحيّة.

ثانيها: الزواج المبكر، حيث تبيّن الدراسة أن معظم الزيجات تتمّ بالنسبة للرجال في ١٨ - ٢٥ سنة، وبالنسبة للفتيات بين ١٦ - ٢٢ سنة. ويرجع سبب الزواج المبكر إلى أمرين هامّين: البيئة الدينيّة المحافظة، وعدم وجود صعوبات أمام الشباب في إقدامهم على الزواج، حيث إن المهر لا يزال منخفضاً، ومعظم المهور بين ١٠ - ١٥ ألف ريال، في حن تصل في مناطق من المملكة إلى مئات الألوف من الريالات.

ثالثها: دفع المجتمع الشيعي لأفراده نحو كثرة الإنجاب، ولعلّ ذلك بسبب -أو أحد أسباب- شعور الأقليّة بعدم الاطمئنان، وضرورة التحدّي. وتشير الدراسة إلى أن عادات المجتمع الشيعي وتقاليده جعلت من إكثار النسل بحدّ ذاته قيمة يعتدّ بها. إن أسرة يبلغ عدد أطفالها خمسة، يعتبر ضئيلاً في رأي عامّة الناس.. ومن الأمور الاعتيادية جدًّا بل والشائعة أن يكون عدد الأطفال عشرة وأكثر، بل إنك تجد شباباً كثيرين لم تتجاوز أعمارهم الثلاثين لديهم خمسة أو ستة أطفال.. وتقول الدراسة: إن هذا لا علاقة له بمستوى المجتمع الثقافي، خاصة وأن مستوى الوعي بين الطائفة الشيعية هو الأكثر قاطبة بين سكان المملكة.

من جهة أخرى لا يبدو أن معدّل زيادة السكان في القطيف يختلف عنه في الأحساء، والتي يبدو فيها التمدد الشيعي واضحاً في كلّ القرى، بل إن القرى المختلطة

غَلَبَتها كثافة شيعيّة، مع ملاحظة أن الأحساء كانت المحطّة الأهمّ للهجرات القادمة من الداخل الصحراوي، ومن جنوب المملكة. وقد لعبت زيادة النسل بين السكان الشيعة في الأحساء دوراً مهمّاً في إبقاء الغلبة للعنصر الشيعي، كما كانت طوال القرون الماضية، رغم الهجرات الهائلة القادمة من مناطق الجزيرة العربية المختلفة.

وبهذا يمكن إعطاء تقدير معتدل لعدد السكان الشيعة في عموم المملكة بمليون وخمسمائة ألف نسمة (٩٥٥ ألفاً في المنطقة الشرقيّة - ٢٨٠ ألف نسمة في المنطقة الغربية، تشمل الشيعة الزيود والإمامية/ الاثني عشرية - ٣٠٠ ألف نسمة في المناطق الجنوبية من الإسماعيليين).

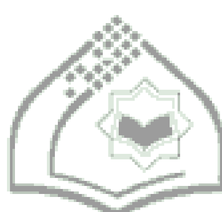
وتتحدّد نسبة عدد الشيعة لمجمل السكان بناء على تقديرات عدد سكان المملكة والتي تتراوح في الوقت الحالي بين ستة ملايين واثني عشر مليون نسمة، أي بين ١٢,٥٪ - ٢٥٪.



٢

الشيعة والوهابيون الأوائل




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

في سنة ١١١٥هـ/ ١٧٠٣م، ولد في العيينة -إحدى قرى نجد- الشيخ محمد بن عبدالوهاب، صاحب الدعوة التي حملت اسمه، وكان أبوه قاضياً ومدرساً على مذهب الإمام أحمد بن حنبل.

وبعد أن بلغ صاحب الدعوة من العمر ثلاث عشرة سنة زار المدينة المنورة، والتقى بالعالم النجدي الشيخ عبدالله بن إبراهيم بن يوسف آل سيف، وتوثّقت علاقته به ودرس على يديه، كما درس عند الشيخ محمد حياة السندي. وبعد أن عاد الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلى نجد قادماً من الحجاز ارتحل إلى العراق وزار بغداد والبصرة، وقيل: إنه بقي هناك مدّة أربع سنوات حيث قرأ على يد الشيخ محمد المجموعي في البصرة، وهناك اصطدم مع العديد من الآراء والأفكار السائدة، فقام السكان إليه وطردوه من المدينة، فارتحل إلى الأحساء -وكان فيها فحول العلماء- والتقى بالشيخ عبدالله بن محمد بن عبداللطيف الشافعي، فدرس على يديه، ثم عاد إلى حريملاء حيث كان يقيم والده.

في حريملاء حاول الشيخ إظهار آرائه التي تميل إلى التشدّد، فاصطدم مع أهل حريملاء، بل إنه جرى بينه وبين أبيه جدال وخلاف، ويقول أتباعه: إنه دارى أباه إلى أن مات، فأعلن دعوته بصراحة، ولكن أهل حريملاء تصدّوا له وطردوه، أو حاولوا قتله، فذهب إلى العيينة، وحاول جهده أن يكسب ولاء حاكمها عثمان بن معمر، فنجح إلى حين، ولكن الحاكم الخالدي في الأحساء (سليمان آل محمد)، هدّد ابن معمّر، بالاستيلاء على نخيله وبساتينه في الأحساء، وبمنع سكان العيينة من الورود إلى الأحساء والقطيف للتجارة.

لهذا أخرج ابن معمر الشيخ محمد بن عبدالوهاب، فالتجأ إلى حاكم الدرعية، وكانت من أصغر القرى النجدية وأضعفها وأقلّها موارد، حيث لم تكن بيوتها تزيد على الخمسين بيتاً، وهناك أجرى الشيخ صفقة اتفاق مع الحاكم السعودي في سنة ١١٥٨هـ/ ١٧٤٥م، قامت على أساسه ما عُرف فيما بعد بالدولة السعودية الأولى. وتضمّن الاتفاق اقتسام السلطة، بحيث تكون السلطة السياسية في يد محمد بن سعود وخلفائه، وتكون السلطة الدينية في يد آل الشيخ. ولم يشر إلى هذا الاتفاق من المؤرخين الأوائل إلّا صاحب كتاب لمع الشهاب.

في حين يشير بقيّة المؤرخين إلى أن الشيخ اتفق مع محمد بن سعود على أن يحاربا الشرك ويأمرا بالمعروف وينهيا عن المنكر، وألّا يغادر الشيخ الدرعيّة إذا ما حققت دعوته انتصارات. وكان الحاكم السعودي يدرك أن توسيع سلطانه ونفوذه لن يتمّ إلّا بإعلان «الجهاد الديني» الذي كان يعني محاربة المناطق المجاورة باعتبار أن أهلها من المشركين، وأن دارهم دار حرب.

ومن هنا ندرك لماذا تصدّى لهذه الدعوة معظم علماء الدين ومعظم حكام المناطق في الجزيرة العربية. ذلك أن أتباع الشيخ محمد بن عبدالوهاب غالوا في كثير من الأمور الخطيرة، وأوّلها اعتقادهم بأن من يرى غير رأيهم كافر حلال الدم والمال، وقيامهم بنشر آرائهم الدينيّة بقوّة السلاح وليس بالحجّة والإقناع، وظلّ التعصّب والمغالاة يلازمان أتباع الدعوة الوهابيّة - السلفيّة حتى قيام الدولة السعودية الثالثة في مطلع القرن العشرين[1].

لقد وقف علماء الأحساء السنّة بمن فيهم الحنابلة وأكثر علماء نجد والحجاز ضدّ صاحب الدعوة وآرائه، ومن بينهم أخو صاحب الدعوة الشيخ سليمان بن عبدالوهاب الذي ألّف كتاب «الصواعق الإلهيّة في الردّ على الوهابيّة»، حيث أنكر على أخيه الاجتهاد واعترض على آرائه وقابلها بآراء من المصادر الحنبليّة نفسها التي يعتمد عليها أخوه، وهي كتب ابن تيمية.

وحين بدأت الدعوة الوهابيّة تتمدّد إلى خارج الدرعيّة، وقف ضدّها الجميع، ليس

(١) الدولة السعودية الأولى (١٧٤٥ - ١٨١٨م = ١١٥٨ - ١٢٣٣هـ) عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم، القاهرة ١٩٦٩م، ص٣٩ - ٤٠.

اعتراضاً على آراء الشيخ الدينيّة فحسب، وإنّما أيضاً لاعتراضهم على اتساع نفوذ الأسرة السعودية، ودخلت الدرعية حروباً دامية استمرت نحو أربعين عاماً إلى أن استطاعت السيطرة على إقليم نجد بما فيه من قرى ومدن، ولم تخل مدينة أو قرية إلّا ودخلت مع آل سعود في حرب، ولم ترضخ واحدة إلّا وتثور الثانية وتتمرّد، فتقمع من جديد ويقتل المعارضون أو يطردون من وسط الجزيرة العربية بالكامل، أو تمارس بحقّهم الإقامة الجبريّة في الدرعية، أو يؤخذ أعيان كل بلدة رهائنَ لمنع قيام التمرّدات[1].

وفي أواخر القرن الثاني عشر، وبعد أن انتهى الوهابيون من السيطرة على المناطق النجدية -أو كادوا-، التفتوا إلى الأحساء، حيث لم تكن لهم الجرأة ولا المقدرة فيما مضى على مقارعة الحكم الخالدي، بل إن حكام بني خالد حاولوا احتلال الدرعيّة مرتين انطلاقاً من الأحساء، وبالاعتماد على الساخطين الكثر من الحكم السعودي/ الوهابي في الدرعيّة.

ومنذ عام ١٢٠٠هـ وحتى ١٢٠٨هـ، اتخذت غارات الوهابيين على المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية طابعاً شرساً، ويبدو أن الغرض كان إثارة السكان المحليين وإثبات عدم قدرة الخوالد على حمايتهم، وقد كانت الغارات سريعة وخاطفة ومفاجئة[2].

أما مبررات احتلال الأحساء، فتنحصر في موضوعين أساسيين:

الأول: الموضوع الاقتصادي: ويبدو أنه كان العامل الأساس لاحتلال الأحساء والقطيف. تقول الدكتورة مديحة درويش: إن العامل الاقتصادي «هو الدافع الأساس في ضمّ الأحساء، التي تمتاز بكثرة واحاتها الخصبة، الوفيرة المياه، هذا إلى جانب وقوعها على الخليج حيث الحركة التجارية والمصائد التي تشكّل مورد رزق كبير في ذلك الوقت، كان كل هذا من أهم الأشياء التي تتطلّع إليها الدولة السعودية في زيادة دخلها، ومساعدتها في القيام بأعبائها التوسعيّة، هذا بالإضافة إلى أنها ستجعل منها دولة تطلّ على الخليج، مما يتيح لها الفرصة للاتصال الخارجي، وكذا تمهيد السبيل لضم بقيّة مناطق الخليج»[3].

---

(١) المصدر السابق، ص٤٧، ٥٥.
(٢) تاريخ شرقي الجزيرة العربيّة، أحمد مصطفى أبو حاكمة، ترجمة محمد أمين عبدالله، ص١٧٣.
(٣) تاريخ الدولة السعودية حتى الربع الأخيرمن القرن العشرين، ص٣٣.

ويشير إلى الأمر ذاته الأستاذ عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، حيث يقول: إن إقليم الأحساء يضمّ الكثير من الواحات الخصبة التي تتوافر فيها المياه، التي جذبت أنظار عدد كبير من القبائل النجدية، ولذا رأى حكام الدرعيّة بعد أن سيطروا على نجد أن يزيدوا من مواردهم، خاصة وأن الأحساء تشرف على الخليج حيث الحركة التجارية والمصايد، مما سيتيح للدولة أن توسع من دائرة اتصالاتها، وتمهّد لضم بقيّة مناطق الخليج إلى حوزتها[1].

الثاني: الموضوع المذهبي: حيث كان المذهب الشيعي يسود مناطق الشرق (الأحساء والقطيف)، ولما كان الحكم في الدرعيّة قائماً على أساس مذهبي، يلغي كل المذاهب الأخرى، ولما كانت خصومة الحكم مع الشيعة أكبر، لهذا كان احتلال الأحساء يعني انتصاراً مذهبيًا للحكم السعودي، حيث تمّ فرض مبادئ الدعوة الوهابيّة على سكانه، كما قام الوهابيون بتدمير المساجد الشيعية التي يشير إليها ابن بشر بلفظة (الكنائس)، كما قام الوهابيون بحرق الكتب الدينية الشيعية[2].

على هذا الأساس، الطمع في خيرات المنطقة، والانتصار للمذهب، تحرّك الوهابيون بكل ما لديهم من قوّة لاحتلال مدن الشرق وقراه.

في سنة ١١٧٦هـ، سار عبدالعزيز بن محمد بن سعود في جيش نحو الأحساء، وأغار على قرية المطيرفي الشيعيّة وقتل من أهلها سبعين رجلاً، واستولى على أموال كثيرة. وفي طريق عودتهم إلى نجد أغار الوهابيون على المبرز وقتلوا عدّة رجال من أهلها[3].

وفي سنة ١١٧٨هـ تحالف حاكم بني خالد مع بعض القرى النجدية المعارضة لحكم آل سعود، وأرسل إلى حاكم نجران حسن بن هبة الله المكرمي يدعوه لمناصرته، فوجّه الأخير قوّة إلى الدرعية لمساندة الخوالد ووجّه أقسى ضربة لقوات الدرعية، كادت أن تنهي الحكم السعودي، فقد تقابلت قوات الدرعية مع حاكم نجران في حاير سبيع، ولكن الدائرة دارت عليهم، وقتل من الدرعية أكثر من ٥٠٠ شخص، الأمر الذي دعا

(١) عبد الرحيم بن عبد الرحمن، مصدر سابق، ص٦٩.
(٢) المصدر السابق، ص٦٨.
(٣) ابن بشر، ج١، ص٤٦. وانظر تاريخ نجد، ص١١٨، الذي استخدم هذا اللفظ: وهجم المسلمون «على من كان فيه من المشركين».

الشيخ محمد بن عبدالوهاب أن ينحو منحى الدبلوماسيّة، لإقناع المكرمي بعقد اتفاق صلح ينهي تقدّمه نحو الدرعية واحتلالها.

وحين وصل الحاكم الخالدي تؤازره القوات النجدية الساخطة، وجد أن الاتفاق قد تمّ بين حليفه ومحمد بن سعود، فأراد أن يثنيه عن المضي في تنفيذ الاتفاق، لكن المكرمي أجاب: «لو كان هذا الاتفاق قبل أن يجري الصلح بيننا وبينه، لانتظم الأمر على وفق خاطرك، ولكن الآن نحن حصل مرادنا من الانتقام، وقد طلب منا العفو، ونحن أهل له عند القدرة، وأعطيناه فلا يمكننا إبدال القول، أما أنت فمختار بحربك معه، نحن لا نتعرض بشيء»[1].

استاء الحاكم الخالدي من الوضع، وحاصر الدرعيّة بمعونة حلفائه أهل القصيم مدّة شهر كامل، ولكنه لم يواصل حصاره، وعاد إلى الأحساء.

في سنة ١١٩٨هـ أغار سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود على أهل قرية العيون الأحسائية واستولى على مواشيهم وحيواناتهم، ونهب بيوتهم وقتل منهم عدداً من الرجال، ثم قفل راجعاً إلى الدرعية[2].

وفي سنة ١٢٠٢هـ، أمر الحاكم السعودي، عبدالعزيز بن محمد بن سعود، أمر سليمان بن عفيصان بالغزو، فغزا قطر وقتل من أهلها (آل أبي رميح) رجالاً كثيرين، واستولى على الكثير من أموالهم، ثم قصد قرية (الجشّة) الشيعية في الأحساء، فأغار عليها بغتة وقتل عدداً من رجالها. وفي السنة نفسها أغار سليمان بن عفيصان على ميناء العقير الأحسائي فأخذ ما فيه وأشعل في ربوعه النار[3].

وفي سنة ١٢٠٣هـ، سيّر الحاكم السعودي جيشاً إلى الأحساء لمقاتلة بني خالد، ونازلهم مدّة يومين ثم رحل عنهم ولم تقع اشتباكات كبيرة، لأن القائد السعودي -ابن الحاكم- خشي من خيانة بعض الأعراب، ولكنه مرّ أثناء عودته على بعض القرى أخذ ما فيها من طعام وغيره[4].

(١) لمع الشهاب، ص٤٢.
(٢) ابن بشر، ج١، ص٤٦.
(٣) المصدر السابق، ص٨٣.
(٤) المصدر السابق، ص٨٥.

وفي العام نفسه قاد سعود بن عبدالعزيز جيشاً وقصد به الأحساء ونازل أهل المبرّز، ولكنّ أهلها استعدّوا له فلم يستطع الاقتراب منهم، ولم تقع سوى مناوشات صغيرة، ثم ارتحل إلى قرية الفضول الشيعيّة فدهمها على حين غرّة وقتل من أهلها ثلاثمائة رجل، واستولى على ما في القرية من متاع وغيره[1].. وافتخر المؤرّخ السعودي الذي عاصر الأحداث يومئذٍ الشيخ حسين بن غنام، بأن أهل القرية «ذُبحوا كالنعاج، فصارت قرية الفضول مضرب الأمثال»[2].

وفي هذه الأثناء اشتدت الخلافات بين الخوالد على الزعامة، إلى حدّ أن التجأ بعض زعمائهم إلى الحاكم السعودي في الدرعيّة، وساروا معه في جيش لمقاتلة منافسيهم وأخذ حكم الأحساء.. ومنذ ذلك الحين أصبح حكم الخوالد في الأحساء في مهبّ الريح، والتجأ الكثير من زعمائهم إلى قطر والبحرين وغيرهما.

وفي سنة ١٢٠٤هـ، سار سعود بن عبدالعزيز في جيش ضخم، ومعه عدد من جلوية بني خالد المختلفين على زعيمهم عبدالمحسن السرداح وابن أخته دويحس بن عريعر، وفي مكان يقال له غريميل وقعت المعركة بين الطرفين واستمرت ثلاثة أيام، هزم على أثرها عبدالمحسن وهرب إلى المنتفق، وحاز الجيش السعودي من الإبل والغنم والأمتعة مالاً يعدّ ولا يحصى، وقتل من الخوالد الكثيرين. وأصبح الحكم بيد السعوديين من الناحية الفعليّة، إلّا أن قوّة الخوالد لا تزال موجودة، ولذا استعمل سعود -بأمر والده عبدالعزيز- زيد بن عريعر رئيساً لبني خالد وحاكماً على الأحساء[3].

وفي جمادى الأولى ١٢٠٦هـ، انطلق سعود ومعه جيشه من الدرعية قاصداً القطيف، فحاصر أهل سيهات، واستطاع أن ينفذ من أسوارها، وقتل العديد من الأهالي بعد انتهاء المعركة، وأمر سعود جنده بنهبها. ثمّ مرّ الجيش السعودي على «عنك» وهي قرية قريبة من سيهات، وقتل من أهلها أكثر من أربعمائة رجل، وأخذ أموالاً كثيرة من أهلها، وصالح الشيعة الوهابيين على الفرضة بخمسمائة أحمر[4].

---

(١) المصدر السابق.
(٢) تاريخ نجد (روضة الأفكار والأفهام) لابن غنام، ج١، ص١٥٩.
(٣) ابن بشر، ج١، ص٨٥.
(٤) ابن بشر، ج١، ص٨٨.

في هـذه الأثناء رفـض الخوالد حكم زيد بن عريعر واعتبروه صنيعة السـعوديين، واجتمعوا على براك بن عبدالمحسن، وطردوا آل عريعر.

وفي سـنة ١٢٠٧هـ وقعت الواقعة بحكم الخوالد، حيث جيّشـت الدرعيّة جيشـاً ضخـماً لقتالهـم في الباديـة عنـد الجهراء، وقـد تتبّع الأمير سـعود آثارهـم، وأغـار عليهم فانهزمـوا وتبعهـم جيـش الدرعيّة يقتل وينهـب، وانهزم بـراك ومعه قلّة مـن الخيالة إلى المنتفـق، وقيـل: إن عدد قتلى الخوالد بلـغ ألفي رجل، واسـتولى السـعوديون على جميع ركابهم وخيلهم وأمتاعهم وفرشهم وجميع ما معهم، ومن بينها مائتا فرس، ولم تقم لبني خالد بعهد الوقعة العظمى (الشيط) قائمة[١].

وزحف سـعود بجموعه من الشـمال قاصداً الأحسـاء بعد أن أنهى القوة الكبرى لبنـي خالد، فنزل بالقرب من عين نجم وخرج أهل الأحسـاء فبايعوه ودخل الوهابيون الأحسـاء «وهدموا جميع ما فيه من القباب التي بنيت على القبور والمشـاهد الشركيّة فلم يتركوا لها أثراً»، وأقام سـعود في الأحسـاء شـهراً، وعيَّن العديد من العلماء الوهابيين في المسـاجد للصـلاة ولتعليم المذهـب الوهابي، كما عـيّن محمد الحملي أميراً على الأحسـاء، وحسـين بن سـبيت رئيسـاً لبيت المال، وأقام حصناً وضع فيه عدداً مـن الجنود.. ولكن ما إن غادر سـعود الأحسـاء حتى ثار أهالي الأحساء على الحكم السعودي وقتلوا الأمير المعـيّن ورئيس بيت المال، وعدداً من العلماء الوهابيين، واسـتولى زيد بن عريعر الخالدي على الأحساء من جديد[٢].

في العـام التالي ١٢٠٨هـ قصد الأمير سـعود ومعه جيوش نجد الأحسـاء، فأتى قرية الشـقيق وحاصرها مدة يومين، ثم أخذها عنوة واسـتولى عليهـا وهرب منها أهلها بعد أن قتل منهم عدة رجال.

واجتمع أهل القرى الأحسـائية الشـمالية في قرية القرين الشيعيّة فحوصرت، فيما ذهبت جموع أخرى من الجنود إلى قرية المطيرفي، فحوصرت هي الأخرى، وحصلت على الأمان بدفع نصف ما لدى أهليها من أموال[٣].

---

(١) المصدر السابق، ص٩٨.
(٢) المصدر السابق، ص٩٨ - ٩٩.
(٣) المصدر السابق، ص١٠٠.

وسار الوهابيون يريدون المبرز، فخرج زيد بن عريعر للقتال ولكنه لم يفلح في صدّ المهاجمين فتراجع محتمياً بالأسوار، وبعد أيام قلائل حدثت مصادمات قتل على أثرها نحو مائة من الخوالد وعدد قليل من جيش الدرعيّة.. ثم توجّه الجيش إلى قرية البطالية الشيعية فقاومت وقتل من أهلها رجال، كما قتل عدد من الشيعة في قرية الجبيل أثناء المواجهة.. «هذا وجميع البوادي الذين مع سعود يدمرون في الأحساء ويصرمون النخيل ويأخذون من التمر ويعبونها أحمالاً ويأكلون ويطعمون رحائلهم من الحاضر والباد، واكتالوا جميع البوادي من الأحساء نهباً وقرّوا الرحايل وأقاموا على ذلك»[1].

ولمّا رأى الأحسائيون تدمير القوات الغازية لمزارعهم وتشديد الحصار عليهم، تمّردوا على زيد بن عريعر، وأرسلوا براك بن عبدالمحسن السرداح إلى الأمير السعودي في الدرعيّة -الأمير عبدالعزيز- للتفاوض، فأمّنهم الأمير السعودي شرط أن تكون الأحساء خاضعة للدرعيّة، وأن يكون حكم الأحساء داخلاً ضمن ولاية السعوديين، وعيّن الأمير عبدالعزيز براك أميراً على الأحساء، وأمر ولده الأمير سعود بالعودة إلى الدرعية وفكّ الحصار. ويعتبر المؤرّخون أنه في هذا العام (١٢٠٨هـ) انتهت ولاية الخوالد المستقلّة عن حكم القطيف والأحساء.

في رمضان ١٢١٠هـ اتّفق رؤساء الشيعة والسنّة في الأحساء على مقاومة الحكم المذهبي الوهابي، الذي فعل بهم الأفاعيل، ساعدهم في ذلك الأمير الخالدي المعين من قبل الدرعيّة براك بن عبدالمحسن، واستعدّوا للحرب والمقاومة، فأرسل إليهم الحاكم السعودي -الأمير عبدالعزيز- بعسكر يقوده إبراهيم بن سليمان بن عفيصان كمقدّمة لجيش على رأسه ابنه سعود، فقاتلهم ابن عفيصان، ولكنه لم يستطع المقاومة إلى أن جاءه المدد، فقتل من الجبيل نحو ستين رجلاً، واستسلم عدد من الزعماء، فاشترط عليهم أن يقيموا بصفة إجباريّة في الدرعيّة[2].

لكن الأمير سعود الذي كان يعدّ العدّة لجمع الجيوش من بوادي نجد، سار في ذي القعدة من العام ١٢١٠هـ نفسه، إلى الأحساء بغرض تأديب السكان وإرهابهم.. ويصف لنا المؤرخ الوهابي ابن بشر ما جرى على النحو التالي: «نزل سعود قرب الرقيقة..

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق، ص١٠٥.

وبات تلك الليلة وأمر منادية ينادي أن يوقد كل رجل ناراً وأن يثوّروا النبادق عند طلوع الشمس، فلما أصبح الصباح، رحل سعود بعد صلاة الصبح، فلما استولوا على ركائبهم وساروا.. ثوّروا بنادقهم دفعة واحدة. فأظلمت السماء وأرجفت الأرض وثار عجّ الدخان في الجو وأسقط كثير من النساء الحوامل في الأحساء. ثم نزل سعود في الرقيقة المذكورة فسلم له وظهر عليه جميع أهل الأحساء على إحسانه وإساءته، وأمرهم بالخروج إليه فخرجوا».

وأضاف: «وأقام في ذلك المنزل مدة أشهر يقتل من أراد قتله -كذا- ويجلي من أراد جلاءه، ويحبس من أراد حبسه، ويأخذ من الأموال، ويهدم من المحالّ، ويبني ثغوراً ويهدم دوراً، وضرب عليهم ألوفاً من الدراهم وقبضها منهم.. وأكثر فيهم سعود القتل.. فهذا مقتول في البلد، وهذا يخرجونه إلى الخيام ويضرب عنقه عند خيمة سعود، حتى أفناهم إلّا قليلاً. وحاز سعود من الأموال ما لا يعد ولا يحصى، فلما أراد الرحيل من الأحساء أمسك عدة رجال من رؤساء أهله.. وظهر بهم إلى الدرعية وأسكنهم فيها»[1].

ورغم تقدّم النفوذ السعودي في الأحساء، إلّا أن إقليم القطيف لم يخضع للحكم السعودي، معتمداً في ذلك على قوة الأهالي أنفسهم، وعلى تحالفهم الوثيق مع زعماء الخوالد، الذي أبقوا على أقوى النفوذ والدفاع في تلك المنطقة.

ويذكر مؤلف «لمع الشهاب» ذلك بقوله: «وبقي شرق الأحساء بلادين -بلداناً- كثيرة يبلغ عددها أربعين قرية، وأهل ذلك شيعة المذهب، وكبيرهم قاطبة علي بن أحمد، وكان شجاعاً، فأرسل له سعود بن عبدالعزيز أن يطيع ولا يكاتب آل حميد، فأبى عن ذلك وأظهر العداوة لسعود. فسار سعود بنفسه إلى بلاد الشرق وجعل يحاربه علي بن أحمد ستة أشهر، فلم يدرك سعود من حرب علي بن أحمد شيئاً»[2]. ويضيف موضحاً كيفيّة سقوط القطيف: «ثم إن الأمر استقلّ لآل سعود في أرض بني خالد أتمّ الاستقلال، ما عدا بلادين الشرقية من تبعة الأحساء والقطيف كذلك، فسار -جيش سعود ثانياً- على حرب علي بن أحمد صاحب بلاد الشرق، فافتتح جملة من قراه، وقد انحصر علي بن أحمد في قلعة صغيرة بالقطيف كانت محفظاً له هو وأبناء عمّه ومائة رجل، فحاصرهم سعود،

(١) المصدر السابق، ص١٠٦.
(٢) لمع الشهاب، ص٧١.

ورماهـم بالمدفع حتـى هدم طرفاً من البنيان، وكلّما صنع ذلـك بهم وحمل عليهم: ردّوه. ولما أراد الله ذهاب علي بن أحمد، وتمكّن آل سعود في الأحساء، زُيّن له أن يطلب منهم ذمّةً وأماناً، فعاهدوه على ما طلب، ولما سلّم لهم الأمر حبسوه سبعة أيام، ثم بدا لهم أن يضربوا عنقه، فأمر سعود بإحضاره، واحتجّ عليه بحجج فاسدة وضرب رقبته بيده، فانظر إلى قلّة وفائهم بالعهد»[1].

ويعلّق الأستاذ أبو حاكمة -محقق كتاب اللمع- على جملته الأخيرة بالقول: «هذا من المواطن القليلة في الكتاب، حيث ينساق المؤلف مع التعليقات العاطفيّة».

غير أن الحكم السعودي لم يستتب في القطيف التي ما لبث أن تمرّدت، فأرسل الحاكم السعودي عسكراً إليها «وكان فيها حينئذٍ عبدالله بن سليمان المهشوري الخالدي، وفيها أيضاً كبيرٌ على الرعايا أحمد بن غانم القطيفي، فسار إبراهيم بن عفيصان مع ذلك العسكر أميراً عليه، وكان عدده ثمانية آلاف، فنزل سيهات، بينها وبين القطيف ثلاثة فراسخ، فلما سمع عبدالله بن سليمان بذلك، أرسل العسكر الذي معه في القلعة -قلعة القطيف- لمقاتلتهم مع ابنه علي، فوقعت الحرب هناك وانكسر ابن عفيصان بعسكره إلى ناحية جنوب القطيف في موقع يقال له ظهران لا سكنى فيه، بل كان قديماً مسكوناً، وبقي هناك عشرة أيام، وبُعد ذلك المكان عن القطيف مسافة يوم، فجعل يغزو أطراف القطيف وينهب ويقتل حتى الأطفال في المهد، فأطاعه أكثر قرى القطيف».

وكان سقوط القطيف على النحو التالي: «.. وحمل على قلعة القطيف أوّل الليل، فلم يزل البارود يثور، والصاعد يصعد -إلى القلعة- حتى منتصف الليلة، دخلوا القطيف، فأمر -ابن عفيصان- بالقتل الذريع لكل أحد إلى طلوع الشمس.. ثم إن الذين قتلوا من أهل القطيف عددهم كباراً وصغاراً، ألف نفس»[2].

بعد هذا تحصّن عبدالله بن سليمان الخالدي وكثير من الأهالي في قلعة تاروت، وبعد جهد جهيد «دخلها ابن عفيصان، وكل من ظفر به هنا ضرب عنقه، ثم استقلّ الأمر لآل سعود في أرض القطيف، وكتب إبراهيم بن عفيصان إلى عبدالعزيز -الحاكم السعودي في الدرعية- بالفتح. فبعث إليه أن أقبل إلى الدرعيّة.. وسار إلى الدرعيّة وقد أخذ من القطيف

(١) المصدر السابق، ص٧١ - ٧٢.
(٢) المصدر السابق، ص ٧٢ - ٧٣.

أموالاً كثيرة أكثرها رشوة، أعطوه أهل القطيف خوفاً من احتجاج آل سعود عليهم»[1]. وبهذه الهزيمة التي مُني بها بنو خالد والشيعة، حقّق الوهابيون أكثر من نصر عسكري، فقد كان انتصارهم انتصاراً سياسيًا واقتصاديًا ودينيًا في الوقت نفسه، ولقد استفزّت هذه الانتصارات العثمانيين الذين خشوا من توسّع النفوذ السعودي إلى جنوب العراق، فعملوا على إعداد حملات عسكرية، أدّت في النهاية إلى إنهاء الحكم الوهابي من كل الجزيرة العربية[2].

ففي عام ١٢١١هـ أمرت الدولة العثمانية زعيم المنتفق في البصرة ثويني بن عبدالله أن يقود حملة لتحطيم قوّة الوهابيين الذين باتوا يهددون العراق بهجماتهم المتكررة عليه. فجمع ثويني قواته من القبائل المجاورة وانضمّ إليه بنو خالداً جميعاً -عدا فرع المهاشير-، ودعمه والي الأتراك على العراق بقوات بلوشية تحمل البنادق، كما جهّزه بخمسة مدافع، وأعدّ الكثير من السفن لنقل المقاتلين بحراً إلى القطيف.

نزل ثويني عند ماء الجهراء بالكويت أواخر ١٢١١هـ.. فوافته القبائل، وجهّزت الدرعية قوات كبيرة لمواجهته، وتقدمت القوات السعودية نحو الطف، ولكن ثويني تقدّم إلى قرية ثم إلى الطف، وتراجع السعوديون إلى قرب الأحساء، وأصاب القوات السعودية الفزع والخوف لكثرة الاستعدادات الحربيّة التي جهزها العثمانيون لمواجهتها.. إلّا أن حادثة غير عادية وقعت وغيّرت كلّ شيء.. ففي الرابع من محرّم ١٢١٢هـ، تقدّم عبد من جبور بني خالد وطعن ثويني غيلة وقتله، فتشتت الجيش خاصة وأن الشقاق زاد في الخوالد، وحين قتل ثويني تراجع براك بن عبدالمحسن السرداح وانضم إلى القوات السعودية، وهاجم الثويني وقوّاته فمزّقها في معركة سميت «سحبة»، وقيل: إن براك هو الذي غدر بثويني. وتراجع الجيش المدجّج بالسلاح لا يلوي على شيء، وتشتّت شمل البدو والأعراب، واستولى السعوديون على المدافع والأموال والأمتعة والمواشي والخيول. ولما فرغ قائد الجيش السعودي -الأمير سعود- من الحرب سار إلى شمال الأحساء، وطلب من أهله تجديد البيعة والطاعة، وقتل عدداً من الرجال الذين لم يظهروا ولاءهم أثناء المحنة، وأخذ من الأموال ما لا يحصر![3]

---

(١) المصدر السابق، ص٧٦.

(٢) أبو حاكمة، مصدر سابق، ص٧٦.

(٣) ابن بشر، ج١، ص١٠٧ - ١٠٩. وانظر أيضاً: العراق بين احتلالين، عباس الغزاوي، المجلد السادس، ط ١٩٥٤م، ص١٢٢ - ١٢٤.

في العام التالي ١٢١٣هـ أمر سليمان باشا بإعداد العساكر لحرب الوهابيين والاستيلاء على الأحساء، ومما شدّ من عزمه الهجمات الكثيرة التي قام بها الوهابيون بعد أشهر قلائل من وقعة سحبة على سوق الشيوخ وما جاورها، فاجتمعت الجموع وتهيأت الأسباب ووضع على رأس القيادة الكتخدا (الكيخيا) علي باشا. فقد انطلق الأخير من بغداد في الثاني والعشرين من شهر ربيع الثاني، ونزل في البصرة برهة من الزمن وأعدّ السفن لنقل الأرزاق، واجتمع عليه قبائل شمّر والظفير وبدو آخرون. وكان يفترض أن يذهب المقاتلون إلى الدرعية عن طريق الأحساء بعد أن يسيطر الجيش عليها، إذ وجد من الصعب عليه أن يقتحم الصحراء دون مؤونة كافية، ودون استخدام البحر. وفعلاً تمّ نقل المشاة والمدفعية والمؤن إلى ميناء العقير عن طريق قوارب تم استئجارها من شيوخ الكويت.

ويقول ابن بشر: إن الكيخيا استولى على الأحساء «وتابعه أهل المبرز والهفوف وقرى الشرق وجميع نواحيه نقضوا العهد»، وقد كان أكثر سكان الإقليم قد رحبوا بالقوات العثمانيّة أملاً في التخلّص من الضغط الاقتصادي والمذهبي الذي مارسه الوهابيون، وأشار أحد الباحثين إلى أن الكيخيا علي باشا أرسل قبل وصوله إلى الأحساء رسائل إلى وجوه السكان داعياً إيّاهم إلى الانضمام إلى قواته، وقد وجدت تلك الدعوة استجابة، وخاصة من السكان الشيعة الذين كانت نفوسهم غير راضية عن حكم آل سعود وأفعال الوهابيين[1].

غير أن الكيخيا لم يستطع السيطرة على حصن الهفوف الذي قاوم فيه إبراهيم سليمان بن عفيصان، كما أن حصن المبرز لم يسقط، رغم سقوط كل المدن والقرى، ورغم استمرار الحصار الذي دام مدّة شهرين.

هنا انسحب الجند بقيادة الكيخيا، وبعد أسبوعين من مسيرهم شمالاً التقوا دون ميعاد مع قوات سعودية على رأسها الأمير سعود عند ماء في ديرة بني خالد يقال له «ثاج»، فوقع الرعب في الجند السعودي، وأرسل الأمير سعود رسالة ذات لحن طائفي يطلب فيها الصلح وأن يعود الفريقان كل إلى بلده.. يقول سعود في رسالته إلى الكيخيا علي باشا:

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، مصدر سابق، ص١٨٩.

«من سعود العبد العزيز إلى علي

أمّا بعد ما عرفنا سبب مجيئكم إلى الأحساء، وعلى أي منوال جئتم. أما أهل الأحساء فهم أرفاض ملاعين، ونحن جعلناهم مسلمين بالسيف، وهي قرية الآن ليس داخلة في حكم الروم، بعيدة منكم، ولا يحصل منها شيء بسوى تعبكم. ولو أن جميع الأحساء وما يليها تؤدّى لكم دراهمها ما تعادل مصارفكم التي عملتموها في هذه السفرة ولا كان بيننا وبينكم من المضاغنة قبل ذلك، إلا ثويني فهو كان معتدي ولقي جزاءه. فالآن مأمولنا المصالحة فهي خير لنا ولكم والصلح سيد الأحكام»[1].

ورغم ضعف الجند السعودي، إلا أن قوّة الجيش التركي كانت ظاهرية، فالمدافع كانت عاطلة عن العمل لأن لوازمها دفنت في منطقة القطار الأحسائية أو أُحرقت لعدم القدرة على حملها، كما أن الذخيرة والأطعمة قد نفذت، والجيش لا يملك غير قوت يومه، والأثر من هذا أن جيش علي كيخيا ترك المياه العذبة إلى المالحة التي لا يستساغ شربها، فسيطر على الأولى الجند السعودي.. لهذا كلّه ارتضى الكيخيا الصلح وكتب له:

«من علي باشا إلى سعود العبد العزيز:

أمابعد فقد أتانا كتابك، وكل ما ذكرت من أمر المصالحة صار معلومنا.

لكن على شروط نذكرها لك، فإن أنت قبلتها وعملت بها فحسن، وإلّا فإننا ما عاجزون عنك ولا من طوائفك بعون الله وقوته. وعندك الخبر الصحيح:

إذا اشتدت الهيجاء، وانشقت العصا فحسبك الضحاك والسيف المهنّد

حيث لنا مقدار أربعة أشهر في بلادك نجوب الفلا ونستأسر أهل القرى ما قدرت تظهر من مكانك غير هذه الدفعة. وبهذه الدفعة أيضاً اغتررت بقول ابن عفيصان. أما الشرط الأول هو أن الأحساء لا تقربها بعد ذلك. والثاني الأطواب -المدافع- التي أخذت من ثويني أنك ترجعها، والشرط الثالث تعطيناجميع ما صرفناه على هذا السفر، والرابع ألّا تتعرض للحجاج التي تجيء إليك من العراق ولا تتعرض لأبناء السبيل وتكف عن غزوك العراق، وتكون معنا كالأول. فهذه الشروط التي أخبرناك بها والسلام على من اتبع الهدى»[2].

(١) عباس الغزاوي،مصدر سابق، ص١٢٩ - ١٣١.
(٢) المصدر السابق، ص١٣٢ - ١٣٣.

وردّ سعود على الشروط بقوله:

«جاءنا كتابكم وفهمنا معناه. أما عن حال شروط المذكورة، فأولاً الأحساء هي قرية بعيدة إلى دياركم وخارجة عن حكم الروم، وما تجازي التعب، ولا فيها شيء يوجب الشقاق بيننا، فهذا حالها. وأما الأطواب فهي عند والدي بالدرعية، إذا صدرت إليه أعرض الحال بين يديه، والوزير سليمان باشا أيضاً يكتب له، فإن صحّت المصالحة وارتفع الشقاق من الطرفين فهي لكم، وأنا كفيل بها إلى أن أجيبها إلى البصرة. وأما مصارفكم فأنا لم أملك من هذا الأمر شيئاً والشور في يد والدي، والذي عندنا فهو يصلكم. وأما ما ذكرتم عن الطريق، وعدم التعرّض للحجاج المتردّدين وما لهم عندنا غير الكرامة والتسيار. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وقد كان اعتذار سعود عن قبول بعض وأهم الشروط مبرراً من الناحية الظاهرية، ولذا أُمضيت المصالحة طبق الشروط التي وافق عليها وقبل بها الطرفان[1]. وبعد إتمام الصلح عاد سعود إلى الأحساء وأقام مدّة شهرين، انشغل خلالهما بترتيب الأوضاع الداخلية السياسية والعسكرية، وعاقب المتعاونين والمتعاطفين مع القوى السياسية المجاورة التي تسعى لإنهاء الحكم الوهابي من الأحساء. وكان أغلب المتعاطفين والمتعاونين قد رحلوا من الأحساء خشية الانتقام في وقت رحيل الكيخيا من الأحساء. يقول ابن بشر عن انسحاب الكيخيا من الأحساء: «وانهزم معهم أهل الأحساء الخائنون لا يلوي أحد على أحد ولا والد على ولد، وتركوا محالهم وأمتعتهم وأموالهم»[2].

أوضاع الشيعة في الدولة السعودية الأولى

تجمعت في الحكم السعودي الأول صفات عديدة جعلته شرساً للغاية، وعبئاً على كاهل المواطنين في مختلف المناطق.. وقد كانت القبليّة، والمذهبية الجذر الحقيقي لكل الخطايا التي ارتكبت يومئذٍ بحق سكان الجزيرة العربية دون استثناء، فالدماء التي سالت والأعراض التي هتكت، والأموال التي سلبت، والارواح التي أُزهقت، ارتكبت في الغالب على أساس تصورات مذهبية، وفي المقابل كان هناك استبداد وإلغاء لكل

(١) المصدر السابق، ص١٣٣.
(٢) ابن بشر، ج١، ص١١٨.

الكيانات السياسية أو شبه السياسية.. كان هناك عائلة واحدة حاكمة فقط، لا تتسلط باسمها فحسب، بل وتجد لها مشروعية بتبنيها رسالة مذهبية.

وكان الرافضون للحكم المتمذهب، أوالرافضون لإلغاء الكيانات القبلية الضعيفة لصالح كيان قبلي واحد، يواجهون بالقتل، ليس باعتبارهم معارضين للسيطرة السعودية، بل لأنهم -بمنطق السعوديين وحلفائهم الدينيين- يعارضون رسالة السماء، فحقّ عليهم القتل والسلب والنفي والاضطهاد.

من الحالات النادرة في تاريخ شبه الجزيرة العربية، أن تجد مثالاً لتلك الهجرة التي تمت بعيد استيلاء الوهابيين على أواسط الجزيرة العربية ثم على شرقها، وأخيراً غربها وجنوبها. لقد هاجرت جماعات عديدة وقبائل وشخصيات كثيرة جدًّا إلى مناطق تقع خارج السيطرة الوهابية، ولولا تلك الهجرات لما قامت الكيانات السياسية الهزيلة اليوم في الخليج. بالطبع هناك من يبرر القسوة والإرهاب الذي اتصف به الحكم السعودي - الوهابي الأول، بأنه كان ضروريًا لبناء الكيان السياسي الكبير، فمن وجهة نظرهم كان البناء عسيراً في مجتمع قبلي، ومتنوع مذهبيًا وجغرافيًا، دون استخدام الأدوات الجراحية القاسية، ودون أن تكون هناك رسالة للحكم يبشرها للناس، فإن أي كيان لا يمكن أن يقوم.. وقد كانت الرسالة «مذهبية» تسعى إلى إلغاء «مذاهب» أخرى بقوة السيف والبارود. وكانت الرسالة في ظاهرها رسالة وحدة أقاليم مفككة، وفي حقيقتها رسالة تفرد وسعي دائب للنفوذ والسلطة من قبل عائلة واحدة.

لم يكن حال الشيعة في شرق الجزيرة العربية يختلف عن بقية المناطق، اللهم إلا في حدّة القمع الذي وجه ضدهم، إذ لم يكن المطلوب من قبل الحكام السعوديين إلغاء الكيان السياسي في شرق الجزيرة العربية فحسب، بل كان المطلوب أيضاً إلغاء الهوية المذهبية الشيعية لصالح هوية مذهبية جديدة جاء بها الحكام الجدد، وكان هذا يعني بصورة واضحة تسليط المزيد من العنف والاضطهاد على سكان تلك المنطقة.

من هنا كان أمراً بدَهِيًا لحكم مذهبي أن يسيء بشكل كبير لرعاياه، بل إن هذا الحكم سعى إلى ألّا يكون هناك رعايا يدينون بمذهب غير مذهبه، في كل المناطق التي سيطر عليها، وخاصة في المناطق الشيعية التي تعتبر ذات وضع استثنائي.

على الصعيد العقائدي، حاول الوهابيون الأوائل إلغاء الخصوصية المذهبية لسكان

مناطق الشرق بالقوة. ومنذ البداية لم يكن الوهابيون مقتنعين بأنه يمكن تغيير الخارطة المذهبية، لأن الشيعة كانوا الأصعب دوماً، وعلى مر التاريخ، وثانياً لأن الشيعة كانوا أشد المقاومين للاحتلال الوهابي - السعودي، كما رأينا خلال استعراض الأحداث التي سبقت سقوط مناطق الشرق تحت قبضة الوهابيين. لهذا لم تكن للحكام الجدد وأعوانهم القناعة ولا الاستعداد لتغيير آراء الناس بالإقناع والإرضاء والنقاش، وقد كان هذا دأبهم مع غير الشيعة أيضاً الذين عادة ما يسارعون إلى الرضوخ سياسيًّا ومذهبيًّا للمنتصر، ولكن لم يحدث هذا للشيعة وإن كانوا قد خضعوا الحين للمنتصر سياسيًّا فحسب.

لهذا كانت القاعدة الوهابية المقاتلة والحاكمة مندفعة بروح مذهبية جارفة يعززها الانتصار السياسي والعسكري في إفناء الطرف الخصم، وقد قامت هذه القاعدة المقاتلة والفئة الحاكمة بحملة إبادة فورية للسكان.. نتج على أثرها الكثير من المذابح وفرار معظم العلماء والأدباء والوجهاء إلى خارج المنطقة، مصحوبين بمئات من المواطنين، كما حدث في الأحساء حيث نزح الشيخ أحمد زين الدين الأحسائي -أحد أكبر العلماء في ذلك الوقت- وبمعيته العديد من العلماء والمواطنين إلى العراق، ومن ثم إلى إيران، وبقي في الخارج حتى سقوط الدولة السعودية على يد القوات المصرية، فعاد وحج ولكن الحمام وافاه في الديار المقدسة فدفن في البقيع. يضاف إلى هذا الكثير من العلماء الذين قتلوا فور سقوط المدن والقرى الشيعية تحت قبضة الغزاة.. يقول أحد الكتّاب: إن سعود الكبير قتل نحو مائتين من علماء الأحساء(١).

وعلى الفور، بادر الغزاة إلى تدمير المساجد والحسينيات الشيعية باعتبارها كنائس، كما يشهد بذلك المؤرخ الوهابي عثمان بن بشر، كما تمّ تعيين القضاة الوهابيين محل القضاة الشيعة، فكان من قضاة سعود الكبير على الأحساء محمد بن سلطان العوسجي من أهل ثادق، فلما توفي حل محله عبدالرحمن بن نامي. وكان قاضي سعود على القطيف محمود الفارسي، عرفه ابن بشر بأنه مهاجر فارسي، وعلى تهامة أحمد الحفظي.. وفي عهد عبدالله بن سعود -آخر حاكم في الدولة السعودية الأولى- لم يتغير هؤلاء القضاة.

وعين السعوديون أئمة للمساجد من الوهابيين، وجرى إجبار الشيعة على الصلاة جماعة خلف الإمام المعين والمنصب براتب من قبل السلطة الحاكمة.

(١) العراق بين احتلالين، عباس العزاوي، المجلد السادس، ص١٢١.

من جهة ثالثة صادر الوهابيون الأوقاف الشيعية، واعتبروها من حق المنتصر، وكانت الأوقاف ضخمة للغاية من نخيل وبساتين ودور وأراضٍ ومدارس وغيرها.. كان يجري الإنفاق منها على المعوزين والفقراء وطلبة العلوم الدينية الذين يتلقون تعليمهم المحلي في مدارس كانت هي أيضاً من الأوقاف وتسمى «حوزات».

وجرى أيضاً إحراق المكتبات الشيعية، وآلاف من المخطوطات، باعتبارها كتب ضلال وكفر وزندقة.. وللحق لم تكن كتب الشيعة وحدها التي تعرضت لعقاب المنتصر، وقد رأينا هذا في الحجاز قد تكرر أكثر من مرة، وهناك كتب بعينها سلط الوهابيون غضبهم ضدها.. غير أن إهانة الكتب الشيعية وحرق تراث الشيعة الفكرية والأدبي الذي كان في قمة العطاء، قد جاء بعشوائية وتخبط وعدم تمييز بين ما يتعارض مع رؤى المذهب المنتصر وما يوافقه. وقد كان لذلك الفعل أثر كبير في ضياع أهم تراث الشيعة في المنطقة، وهو أمر عانى منه الشيعة حتى الوقت الحالي، يزيد في ذلك الأمر سوءاً أن الحكومة السعودية وبأوامر رجال المذهب الوهابي صادرت العديد من مكتبات التراث الشيعية الباقية في السنوات العشر الماضية، ولا يعلم حتى الآن ما فعلت بها، وهي تحوي كنوز حقيقية في شتى حقول المعرفة.

على صعيد ممارسة الشعائر المذهبية الشيعية.. ولا نقصد هنا أن لدى الشيعة شعائر خاصة بهم، ولكن ما نقصده بالتحديد ما تعارف الشيعة على إحيائه من ذكريات دينية إسلامية يمارس عموم المسلمين -في الحجاز وفي خارج المملكة إحياءها في الوقت الحالي- كالاحتفال بذكرى مولد الرسول، وذكرى هجرته، ووفاته، وكذلك ولادة ووفيات الأئمة الاثني عشر، وقد خصصوا للإمام الحسين سبط الرسول مناسبة عاشوراء، وهي ذكرى استشهاده التي أصبحت عنواناً لمظلومية الشيعة ودفاعهم عن العقيدة الإسلامية في قبال حكومات الجور والاستبداد.. وأسسوا أمكنة سموها «حسينيات» يقيمون فيها هذه المناسبات الدينية.

على هذا الصعيد، مُنع الشيعة من ممارسة هذه الشعائر، باعتبارها كفراً وهرطقة، وبدعة لا محل لها من الدين ولا أساس.. فكان أن منع المواطنون من إحياء هذه المناسبات التي كانت على مر السنين عنواناً للمذهب الشيعي.. وقد هدم الوهابيون كما قلنا «المساجد كما الحسينيات» لهذه الأسباب، ولكن المواطنين في حقبة العهد السعودي

الأول، استطاعوا -رغم الخطر- أن يمارسوا شعائرهم بسرية تامة وفي المنازل، تماماً مثلما يفعل الحجازيون اليوم في الاحتفال بذكرى المولد النبوي، ومجالس ذكر فضائل الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام. ومع كل هذا فشل الوهابيون في تأسيس جذور لهم بين الشيعة، وواجهوا صعوبة في نشر مذهبهم في شرقي الجزيرة العربية لسبب هام «هو أن معظم سكان مدنها ولا سيما القطيف كانوا من الشيعة. وقد كانت هذه نقطة ضعف بالنسبة للسيادة والتسلط الوهابي في الأحساء، وقد سببت لهم متاعب كبيرة»[1]. وقد كان الشيعة المنتشرون في ساحل الخليج وبعض مدنه -خاصة القطيف- بيئة من بيئات المعارضة[2].

على الصعيد الاقتصادي، استخدم الوهابيون أسلوب المصادرة لأملاك السكان الشيعة الذين هربوا فراراً من الاضطهاد المذهبي، كما تمت مصادرة الكثير من الأملاك الشخصية بحجج مختلفة وبمبررات واهية.. وبطبيعة الحال، فإنه إذا كان من حق المسلم أن يسلم على ماله ودمه وعرضه في دولة الإسلام، فإن الدولة المتمذهبة التي لم تعترف بأن الشيعة مسلمون من الأساس، والتي تعتبر نفسها تطبق الشريعة، قامت بمصادرة حقوق المسلم الشيعي لأن الكافر لا حرمة لماله ولا لدمه ولا لعرضه. وقد كان الاعتماد على المصادرات أسلوباً لملء خزينة بيت المال قد ملأ النفوس بالثورة الخافتة ضد الدولة وسلطانها، ليس في ماطق الشيعة فحسب بل وفي كل المناطق[3].

لقد كان احتلال الأحساء والقطيف في العهود السعودية جميعها ذا هدف اقتصادي، وفي الدولة السعودية الأولى كان ما يجبى من الأحساء والقطيف من زكوات يفوق جميع مناطق الجزيرة العربية التي خضعت لحكم الوهابيين. أشار إلى ذلك ابن بشر في معرض تقديراته للزكوات المجبية، وكذلك مؤلف لمع الشهاب الذي قال: إن الزكاة المجبية من مناطق الشيعة «الأحساء والقطيف» بلغت ستمائة ألف ريال، في حين لم تزد زكوات بادية نجد عن ٤٠٠ ألف ريال، والحجاز ٢٠٠ ألف ريال، ورأس الخيمة وعمان ٢٧٠ ألف ريال.. وهناك محاصيل الأملاك في الأحساء ونجد الحاضرة ٣٠٠ ألف ريال.

وغير المصادرات والزكوات، وضع الحكام السعوديون يومها نظاماً يقضي بموجبه

(١) تاريخ الكويت الحديث، أبو حاكمة، ص١٠٨. وأيضاً الشيعة والاضطراب الاجتماعي، ص٢٣٣.
(٢) التيارات السياسية في الخليج، صلاح العقاد، ص٥٨.
(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الدولة السعودية الأولى، ص٢٤٣.

أن يدفع المواطنون الشيعة مبالغ تحت مسمى «الرقبية، أو الروسية، أو الجهادية» وتعطي معنى واحداً هو «الجزية» باعتبار الشيعة غير مسلمين. ولكن الأمراء السعوديين كانوا حريصين على عدم تسميتها بالجزية، وإنما ضريبة الخدمة العسكرية.. لم يكن الوهابيون يريدون من الشيعة أن يشاركوا في معاركهم، ولم يكونوا في الوقت نفسه راضين بأن يعتبر الشيعة كفرة بحيث لا يدفعون الزكاة، وقد كان هذا النظام معمولاً به حتى سنة نهاية العشرينات الميلادية من القرن الحالي.

على الصعيد السياسي، كان عمال الحاكم السعودي يُعيَّنون من نجد في كل الأحوال، وكانت هناك بيوت معينة قد حكمت مناطق ا لأحساء والقطيف.. كآل عفيصان، وآل السديري، وكان حاكم الإقليم الذي ينتخبه الأمير السعودي يجب أن يتوفر فيه الولاء السياسي، بل والأهم من ذلك أن يكون موالياً مذهبيًّا.. وبالطبع فإنه كان من السهل على الدولة السعودية الأولى أن تركل جانباً الكيانات السياسية التي سحقتها، وأن تصفي القيادات السياسية والقبلية قتلاً وبالإقامة الجبرية في الدرعية، وهو أم استخدم بتوسع رهيب.. ولكن كانت هناك استثناءات نراها واضحة، ففي بعض مدن وقرى القصيم كان الأمير السعودي يرجح شخصاً من عائلة معينة من البلدة نفسها، وقد يضع حاكماً لا يتوفر فيه الولاء المذهبي، ولكنه في الوقت نفسه لا يجعل له من الصلاحيات إلا الاسم، حيث يعين شخصاً آخر يكون هو الحاكم الفعلي وإن توارى في الظل. وفي الغالب، فإن المناطق المعارضة، أو التي تتمتع بنسيج اجتماعي قوي، يعين من بين قياداتها شخصية اسمية حاكمة.

نجد هذا واضحاً في بعض مدن وقرى نجد، كما نجده في مناطق الأحساء والقطيف.. ففي الأحساء، وبسبب ضعف الشيعة الواضح، ونتيجة التصفيات التي طالت القيادات الاجتماعية والسياسية أثناء حروب ما قبل الاحتلال، عين الحاكم السعودي إبراهيم بن عفيصان ثم توارى في الظل وعين مكانه سليمان بن محمد بن ماجد، ثم عاد وتم تعيين إبراهيم بن عفيصان في عهد سعود الكبير، وفي عهد عبدالله بن سعود كان حاكم إقليم الأحساء فهد بن سليمان بن عفيصان -أخا إبراهيم-.

وفي القطيف التي تعتبر إقليماً منفصلاً عن الأحساء، بقيت الزعامة الشيعية السياسية التي كانت منحصرة في بيت آل غانم، حيث أبقى الأمير عبدالعزيز أحمد بن

غانم حاكماً للقطيف، وفي عهد سعود الكبير استمر أحمد بن غانم في الحكم، وفي عهد عبدالله بن سعود كان الحاكم القطيفي هو إبراهيم بن غانم. وكان آخر ولاة آل غانم، وهو علي بن عبدالله، قد قتل بيد الوالي الحقيقي عبدالله المداوي في عهد فيصل بن تركي.

وفي الحقيقة فإن الاستثناء الذي حظيت به القطيف، لم يكن ذا معنى هام، فقد شعرت العائلة السعودية الحاكمة بأن مناطق الشيعة في القطيف مغلقة يصعب التعامل معها من الخارج دون أن تكون هناك أداة محلية تساعد على ذلك.. وقد كان الأدوات آل غانم، الذين كانوا يحكمون بالاسم فحسب.

إن المتتبع لسلسلة أمراء مناطق الشيعة، سوف يدهش لأن القيادات السياسية قد انتهت أو عطلت فعالياتها منذ الاحتلال السعودي الأول للمنطقة. وأن أمراء مناطق الأحساء كانوا على الدوام من خارج الأحساء، وحتى القطيف كان حكامها الاسميون من الشيعة -الزعامات التقليدية- إلى بداية عهد فيصل بن تركي بن عبدالله في طوره الثاني.

كان زعماء الشيعة التقليديون هم من آل غانم في الدولة السعودية الأولى، واستمروا حتى عهد الدولة السعودية الثانية، إلى أن برز الزعيم أحمد بن مهدي بن نصر الله، ثم آل جمعة (منصور وعبدالحسين)، حيث كان الأخير آخر زعيم سياسي، تشاء الأقدار أن تكون نهايته قتلاً على يد الملك المؤسس عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود!.

الشيعة في الدولة السعودية الثانية

سقطت الدولة السعودية الأولى تحت قبضة القوات المصرية التي أرسلها محمد علي باشا لتحرير الحجاز والأماكن المقدسة. وقد كان هذا السقوط أمراً طبيعيًا تحتمه الظروف الداخلية والخارجية معاً. فالدولة العثمانية شعرت بأن سمعتها أصبحت في الحضيض بعد أن سيطر السعوديون على الحجاز وألغوا اسم الخليفة العثماني العثماني من أن يذكر على المنابر، ومنعوا الحجيج من كل بقاع الأرض الإسلامية، الأمر الذي شكل تحدياً للحكومة العثمانية، وامتحاناً لسمعتها كحامية للديار المقدسة، وكانت البلدان المحيطة تتوق لترى نهاية السعوديين، بسبب منع الحجيج وبسبب الغارات التي شنها

الوهابيون بعيداً عن مركز سلطتهم في العراق، حيث مذابح كربلاء والنجف، وفي الشام وفلسطين. فقد وصلت القوات السعودية إلى هناك لتقوم بغارات خاطفة تقتل وتنهب وتعود بالغنائم.

وعلى الصعيد الداخلي، كانت هناك نقمة في الحجاز بسبب فرض المذهب الوهابي أولاً، وبسبب تدهور الحياة الاقتصادية الذي نشأ عن انقطاع الحج. وفي مناطق أخرى من الجزيرة العربية، كانت النفوس مشحونة بالثورة على الحكم السعودي، إما بسبب المصادرات المالية، أو بسبب العنف والقسوة التي استخدمت بتوسع في تأسيس الملك السعودي، أو لأسباب قبلية، ذلك لأن القبائل صعبة المراس ولا تقبل بالأنظمة الإدارية التي تكاد تلغي دورها السياسي والاجتماعي من الوجود.. وهناك الأسباب المذهبية والاقتصادية الأخرى.

لقد كان يتراءى للحكام السعوديين أن القبضة الحديدية والخضوع الظاهري لسلطان القوة، كافياً لاستمرار الدولة، بل وتوسيع رقعتها.. رغم أن مظاهر الانشقاق السياسي والديني بادية للعيان حتى في نجد حيث الثورات القبلية المتتالية التي ما تلبث أن تخمد واحدة حتى تقوم أخرى. ولكن غاب عن أعين الحاكمين أن امتلاك القوة يختلف عن امتلاك النفوس، وأن الخضوع الظاهري لا معنى له إن لم يكن هناك ولاء حقيقي لا يعتمد على المال ولا على الترهيب، وقد رأى الوهابيون كيف تحولت عنهم القبائل في نجد والحجاز -حتى قبيلة عنزة التي تدعي العائلة المالكة أنها تنتسب إليها- وكذلك سكان الحضر، بمجرد أن وصلت طلائع القوات المصرية إلى ميناء ينبع. بل إن عدداً من الموالين لآل سعود وأعمدة أركانهم، لما رأوا مصالحهم تتعارض مع بقاء آل سعود انضموا إلى القوات الغازية، مما جعل المؤرخ ابن بشر يغضب لذلك ويشنع على الفاعلين فعلهم.

سقط الحجاز أولاً بقيادة طوسون باشا، ثم سقط الجنوب بقيادة محمد علي باشا نفسه، ثم سقطت نجد بأكملها بقيادة إبراهيم باشا الذي أمره السلطان العثماني -وخلافاً للاتفاق- بأن يهدم الدرعية ويشعل في ربوعها النار، وسيق السعوديون وآل الشيخ إلى القاهرة كأسرى حرب ورهائن، وأُرسل الزعيم السعودي إلى الآستانة لينفذ بحقه حكم الإعدام على يد الجلادين.

سقطت الدرعية سنة ١٢٣٣هـ ولكن قبل سقوطها أرسل والي العراق العثماني محمداً وماجداً ابني عريعر بعشائرها بني خالد وساعدهما بعشائر المنتفق والعشائر المناوئة لآل سعود ممن قربتهم الحكومة العثمانية وقت الحاجة، أرسلوا إلى الأحساء للسيطرة عليها، فحاصروها قبل أن يفتح إبراهيم باشا الدرعية، فاحتلا الأحساء والقطيف[1] بسهولة ويسر، بسبب العلاقات الحسنة بين الأهالي والخوالد هذا إضافة إلى روابط النسب التي حكمت علاقات الكثيرين بهم.

غير أن إبراهيم باشا، ما لبث أن فرغ من احتلال الدرعية، فأرسل محمد الكاشف ومعه عبدالله بن عيسى بن مطلق كوالٍ من قبله على الأحساء، ومعهما نحو ٢٤٠ جنديًا، فسيطرا على الأحساء والقطيف، وهرب آل حميد ومعهم عربان الخوالد، وأعمل الجنود القتل والنهب في المنطقة وعاثوا فيها فساداً، وكانت نيتهم تتجه إلى ترك الأحساء، وقاموا بمصادرة جميع أموال الأمراء السعوديين وأتباعهم، وقتلوا الكثير من الموالين للحكم السابق، وكان بينهم قضاة ومشايخ، بينهم القاضي عبدالرحمن بن نامي الذي حُبس ثم قتل.

وتشاء إرادة الله، أن يكون مصير قيادات السعوديين في الأحساء والقطيف والتي تولت حكمها بعد احتلالها، والتي أذاقت الناس الذل، أن يقتلوا على يد القوات المصرية، وأن تصادر أملاكهم أيضاً كما قتلوا هم قيادات الشيعة السابقين وسلبوا الناس أموالهم. هذا ماحدث لعبدالله بن عفيصان ولفهد بن عفيصان ولمتعب بن إبراهيم بن عفيصان الذين استأصل الباشا خزائنهم -على حد تعبير ابن بشر- وقد قتل هؤلاء في القصيم وليس في الأحساء.

من جهة أخرى شعر الإنجليز في الخليج بالفزع من التمدد المصري لمناطق الساحل التي يسيطرون عليها، ولكنهم رأوا إمكانية عقد اتفاق مع محمد علي باشا والتعاون معه في القضاء على النفوذ السعودي في مناطق الخليج الأخرى، وبالتحديد في رأس الخيمة التي تضخمت قواتها البحرية وقامت بهجمات عديدة ضد سلطان مسقط وضد السفن البريطانية نفسها، وكان الإنجليز غير متأكدين حتى ذلك الوقت من إمكانية إنهاء نفوذ القواسم في رأس الخيمة، رغم انتهاء الحكم السعودي في وسط الجزيرة العربية، وكانوا

(١) العراق بين احتلالين، المجلد السادس، ص٢٥٨.

يأملـون لـو أن قـوات إبراهيـم باشـا واصلت حملتهـا لتحتـل رأس الخيمـة وتنهي نفوذ القواسم المزعجين لها.

وفي الوقت نفسه كانت هناك خشية من أن يتسع النفوذ المصري فيضر بمصالحها.. لهذا قامت عبّارة بريطانية بإنزال قـوات عسـكرية بريطانية في القطيـف، وكتب فيلبي يقـول: «مـن الصعب الافتراض بأن إنـزال القوات العسـكرية البريطانية في القطيف في وقت احتلال المصريين للأحسـاء يمثل شـيئاً غير اسـتعراض العضلات ضد المصريين. فقد كان بسـط نفوذهم على ساحل الأحسـاء تحدياً للمواقع البريطانية في ساحل الصلح البحري»[1].

وقـال لوريمـر: إن بريطانيا أصرت على إبعاد النفوذ المـصري، والتظاهر بأنها تقوم بحمايـة المصالـح التركيـة.. وفي ١٨ يونيو ١٨١٩ وصل الكابتن جورج فوسـتر سـادلير من فرقة صاحب الجلالة ٤٧ إلى سـاحل الأحسـاء في مهمة خاصة لإبراهيم باشا، ولكن السفينة جنحت إلى ساحل رملي مما أفشل المهمة.. أما المهمة فتستهدف: التعرف على نوايا ومشـاريع إبراهيم باشـا بعد إخضاعه للساحل الأحسـائي، وجمع المعلومات الممكنة عن طبيعـة الأحسـاء والقطيف وموارده‍ما ومساحتهما والمدن وكل ما يـراه ضروريًّا.. وأن يتعرف على ما إذا كان إبراهيم باشـا ينوي اسـتئصال القواسـم، وماذا يمكن للإنجليز أن يقدموا من مسـاعدة.. وحمل سادلير سيفاً كهدية مع خطاب تهنئة!. ولكن سادلير تأخر كما يبدو حيث بادرت القوات المصرية إلى الانسـحاب من المنطقة، وحين وصلت المدمرة فستال من بوشهر إلى القطيف «لم يجد هناك من المصريين سوى الحاكم واثنين من مساعديه. لهذا وضع نفسه تحت حماية بني خالد، وسافر إلى الهفوف، ومن هناك قرر مصاحبة الجيش التركي المنسحب.. وأشاد في تقريره بأهمية إقليم الأحساء وميناء القطيف والعقير لضرب رأس الخيمة، وحين وصل جدة رفض إبراهيم مناقشته في أي أمر يتعلق بالخليج». فنوايا بريطانيا الاسـتعمارية معروفة لديه ولأبيه.. وبقي سـادلير أربعة أشهر في جدة ريثما وجد وسيلة النقل التي تعيده إلى الخليج، وذلك في يناير ١٨٢٠ [2].

ارتحلت القوات المصرية بعد أن قضت بضعة أشهر في الأحساء، كما أن عبدالله بن

(١) فاسيليف، ص١٣٨.
(٢) كشك، ص٢٠٣ – ٢٠٥.

عيسى توفي، فعاد الخوالد وحكموا الأحساء، حيث ملّك الأحسائيون ماجد بن محمد بن عريعر، الذي أرسل ابنه الضرير سعدون إلى القطيف وحكمها.. كان ذلك في نهاية سنة ١٢٣٤هـ.

انتهت مهمة إبراهيم باشا بتدمير الدرعية، فسحب قواته وعاد إلى مصر.. وبعودته عاد رؤساء البلدان الذين أقصاهم آل سعود عن رئاستها، وشبت المنازعات والفتن والحروب.. وفي أواخر ذي الحجة سنة ١٢٣٤هـ أتى محمد بن مشاري بن معمر من العيينة إلى الدرعية لكي يصبح حاكماً لها، وراسل عدداً من البلدان الصغيرة التي ناصرته فيما بعد، ولكن خشي عدد من الرؤساء القدامى على نفوذهم فاستنصروا بحاكم الأحساء الخالدي الذي سار على رأس جيش غير قليل، وتابعه أهل الخرج والرياض وحريملاء، ووقعت معارك مع ابن معمر، الذي استطاع خداع الحاكم الخالدي بالهدايا والخضوع لسلطانه ولسلطان الخلافة العثمانية.

في هذه الأثناء ظهر مشاري بن سعود ونازع ابن معمر على الحكم واستطاع التخلص منه، ودانت له معظم قرى نجد. وهنا انزعج الأتراك ومحمد علي من عودة النفوذ السعودي سريعاً، وأنّبت دولة الخلافة محمد علي لسحبه قواته من وسط الجزيرة العربية، خاصة وأن مشاري بن سعود كان يستعد للزحف على الأحساء والقطيف لاحتلالها. وكان إبراهيم باشا لا يزال في المدينة المنورة، فأرسل جيشاً قويًّا لإعادة السيطرة عليها وإبعاد السعوديين عن الحكم.

في هذه الأثناء سيطر تركي بن بن عبدالله آل سعود على الحكم، فواجهته الحملة المصرية الثانية وهزمته شر هزيمة، ومارس جنودها الكثير من الأعمال الإرهابية، ولكنها لم تستطع استئصال السعوديين رغم ضعفهم وانزوائهم في الدرعية.

انشغل تركي بن عبدالله في حرب القوات المصرية، في حين كان حكام الأحساء من الخوالد يعملون على إثارة السكان المحليين في القرى والبلدان النجدية ضده، وراسل ماجد بن عريعر دولة الخلافة حاثًّا إياها على مقاومة النفوذ السعودي، وعمل على توطيد حكمه في مناطق الشرق، ولكنه سرعان ما انتبه إلى أن النفوذ السعودي لابد وأن يتمدد إلى الساحل الشرقي، حيث لا يمكن لحكومة نجدية موحّدة أن تستقيم دون خيرات الأحساء، خاصة وأن سنين مجاعة وفقر مرت على النجديين منذ احتلال الدرعية على

يد قوات إبراهيم باشا. ولكن الحملة المصرية اكتفت بالعقاب السريع وانسحبت فعاد تركي إلى الرياض وسيطر عليها سنة ١٢٤٠هـ واتخذها عاصمة لملكه، وأخضع البلدان النجدية الثائرة، ثم استطاع القضاء على التحالف النجدي الأحسائي في معركة «حفر العتك».. ويحلول عام ١٢٤٤هـ، كان تركي قد أنهى بالفعل كل التمردات وقضى على كل خصومه في كامل إقليم نجد.. بقي عليه أن يعيد نفوذ آبائه في الشرق، وهو أمر حيوي لمنطقة خرجت للتو من نقاهة الحرب. لم يكن بإمكان تركي، أن يكرر خطأ أسلافه فيحتل الحجاز ويثير دولة الخلافة، ولكنه لا يستطيع بأي حال أن يستغني عن الأحساء والقطيف ومنفذيها البحريين الهامين.

في محرم ١٢٤٥هـ، أرسل تركي بن عبدالله آل سعود محمد بن عفيصان على رأس جيش لغزو الأحساء، فأغار على قافلة مقبلة من ميناء العقير واستولى عليها وكان فيها من الأموال الشيء الكثير، وقد كانت هذه الغزوة مجرد اختبار لقوة الخوالد، الذين ما لبثوا أن جمعوا جموعهم لمحاربة حكام نجد بالتحالف مع فهيد بن مبارك الصيفي رئيس سبيع، وضويحي الفغم رئيس الصهبة من مطير، ومزيد بن هذال وأتباعه من عنزة، ومطلق بن نخيلان رئيس بني حسين.. انطلقت الجموع لمواجهة تركي الذي سيّر جيشاً بقيادة ابنه فيصل الذي هرب للتو من الإقامة الجبرية في مصر، والتقيا عند ماء معروف، ودارت المعارك عدة أيام، ولكن كانت النهاية مأساوية للخوالد، حيث قتل ماجد بن عريعر في الأول من رمضان، فهدّ ذلك من عزم الخوالد، ولكنهم صمدوا حتى أواخر رمضان، حيث قدم تركي بنفسه، بعد أن بعث إليه ابنه فيصل يبشره بقرب النصر، وتقابل المحاربون في معارك أخيرة فكانت النهاية في السابع والعشرين من رمضان ١٢٤٥هـ حيث هزم الخوالد وقتل منهم الكثيرون هم وأتباعهم، واستولت القوات النجدية على مصالحهم وخيامهم وأسلحتهم وأمتعتهم وفرشهم وإبلهم وغنمهم وجميع ما معهم من حلي وأواني، وسميت الوقعة بوقعة السبية، لكثرة ما سبي فيها من حلي وحلل وأنعام[1].

أكمل تركي بن عبدالله الحرب بمتابعة الخوالد إلى قريب الأحساء، وكتب إلى الزعماء المحليين يطالبهم بالخضوع، فأجابوه، فتقدم إلى الأحساء وحينها هرب من بقي

---

(١) ابن بشر، ج٢، ص٣٥ - ٣٧.

من بني خالد إلى الشمال، ودخل تركي الهفوف بغير قتال، وبقي في الأحساء نحو أربعين يوماً، واستولى على ما وجده من أملاك بني خالد، من الذهب والفضة والخيل والركاب وأخذ نخيلهم، وعزز تركي نصره العسكري بنصر مذهبي حين أصر على تعيين إمام في كل قرية للصلاة بالشيعة جماعة، وأمر بمعاقبة من يتخلف عن ذلك، كما عين الشيخ عبدالله الوهيبي قاضياً.

ثم أرسل لأهالي القطيف مهدداً وداعياً إياهم للخضوع، فأرسلوا وفداً لمبايعته، ورتب لهم من الأئمة والقضاة مثلما فعل في الأحساء.. وقبل أن يرتحل عين تركي عمر بن محمد بن عفيصان أميراً على الأحساء، ولكن يبدو أنه أبقى زعماء القطيف المحليين في مناصبهم.

في عام ١٢٤٨هـ كان الموقف في الأحساء والقطيف تشوبه بعض الاضطرابات، فسار تركي بنفسه على رأس قوة كبيرة لتأديب العجمان وآل مرة، ووصلت القوات السعودية إلى البياض قرب القطيف، وحينها خرج عدد من الرؤساء المحليين بينهم زعيم القطيف الشيعي عبدالله بن غانم وقدم له الولاء والهدايا، ولما تأكد تركي من هدوء الأوضاع عاد إلى الرياض بعد أن تزوج في الأحساء[1].

في العام التالي (١٢٤٩هـ) تمردت مدينة سيهات القريبة من القطيف، واستعان زعماء البلدة بآل خليفة في البحرين الذين لهم مطالبات بالدمام وكانوا على خلاف دائم مع الحكام السعوديين الذين قاموا بدعم المعارضين لآل خليفة خصوصاً رحمة بن جابر الجلاهمة.

والسبب في تمرد أهل سيهات هو أن آل خليفة في البحرين وجهوا حملة إلى القطيف لضمها، وذلك سنة ١٢٤٩هـ فسيطروا على دارين وتوغلوا في جزيرة تاروت واجتاحوها، وكان عبدالله بن غانم زعيم القطيف -الذي كان مسؤولاً عن بيت المال فيما مضى- قد أعدّ العديد من السفن لمقابلة الأسطول البحراني، واتفق مع أهل سيهات على أن يواجهوا العدو سويّة، وأن يجهزوا سفنهم وتواعدوا في يوم معين، ولكن أسطول عبدالله بن غانم تأخر، مما اضطر أهل سيهات لمواجهته وحدهم، وكانت قوتهم أضعف من أن تواجه آل خليفة، فمنوا بهزيمة ساحقة وخسروا الكثير من الأموال والأنفس،

(١) ابن بشر، ج٢، ص٤٤.

واعتبروا تأخر عبدالله بن غانم خدعة منه لتوريطهم في حرب لا قبل لهم بها وحدهم، فتواعد أهل سيهات على قتله والانتقام منه، وذهبت جماعة منهم إلى القلعة وهاجموه في عقر داره واعتقلوه واقتادوه إلى بلدتهم، ورغم تشفّع أكبر زعيم ديني للشيعة في القطيف يومئذٍ الشيخ علي بن عبدالجبار في ابن غانم، إلّا أنهم قتلوا زعيم القطيف، ثم خافوا العاقبة فتحالفوا مع آل خليفة لصدّ الهجوم السعودي المتوقع، وعرضوا على حاكم البحرين تسليم البلدة له[1].

توجه فيصل بن تركي لقمع المتمردين على سلطان أبيه، سواء في سيهات أم في جزيرة العماير حيث قام سكان هذه بالتعرض لأهل القطيف وثارت الحرب بينهم وبين الأهالي، فاضطر تركي إلى إرسال ابنه لقمع الاضطرابين على حدّ سواء، واستطاع الابن أن يقمع أهل العماير، ولكن سيهات استعصت عليه، فنزل المريقيب غرب سيهات وحاصرها حصاراً شديداً ورماها بالمدافع، وقطع الكثير من نخيلها، وكان الحاج علي بن عبدالرحيم زعيمها، واستطاع بالاتفاق مع آل خليفة أن يخفف من أثر الحصار عن طريق البحر، حيث كانت المؤن والذخائر تصله إلى ميناء سيهات من البحرين، وخشي فيصل من امتداد نطاق التمرد إلى القطيف نفسها، فرتب حصونه فيها، وعين على حصونه في دارين محمد بن يوسف العجاجي -أحد النجديين المقيمين حديثاً في الأحساء- كما جعل أناساً آخرين على حصون تاروت.. وفي هذه الأثناء وافاه خبر مقتل أبيه تركي، فلم يبلغ أحداً، وسار إلى الأحساء وهناك تزود بالمال والسلاح والطعام، ورتب اتفاقات مع زعيم الجبل في حائل ومع آخرين في نجد وكان مع فيصل زعيم القطيف عبدالله بن غانم، أخذه خشية أن يميل إلى المتمردين في سيهات مستغلاً توتر الأوضاع في نجد[2].

أعاد فيصل السيطرة على الرياض وانتقم من قاتل أبيه وهو مشاري بن سعود في صفر ١٢٥٠هـ، وكان مديناً في ذلك إلى الأحساء بحيث قام عمر بن عفيصان بوضع موجودات بيت المال تحت تصرفه، وكان ذلك من أهم عوامل نجاحه في قهر مشاري بن سعود[3].

---

(١) محمد سعيد المسلم، ساحل الذهب الأسود، ص١٨٢ - ١٨٣.

(٢) ابن بشر، ج٢، ص٤٨ والمسلم، مصدر سابق، ص١٨٣، وعلية ص٢٩، وعبد الرحيم عبدالرحمن، محمد علي وشبه الجزيرة العربية، ص٢٦٩ - ٢٧١.

(٣) عبد الفتاح علية، الدولة السعودية الثانية، ص٣١.

كما قام فيصل بإخماد الاضطرابات في الجنوب، وأرسل في ربيع الآخر سنة ١٢٥١هـ جنداً بقيادة عبده زويّد الذي كان قد أخبره بقتل أبيه، أرسله إلى القطيف لإخماد تمرد أهالي سيهات، ويبدو أن الأخيرين لم يكونوا راغبين في الحرب بناء على نصيحة أمير القطيف، وبناء على تغير المعادلة السياسية حيث هادن فيصل آل خليفة في البحرين لانشغاله بالمشاكل التي ستأتي له من الحجاز، حيث كان محمد علي يعد خالد بن سعود في مصر لولاية نجد لهذا أعلن أهالي سيهات ولاءهم للحاكم الجديد، وقام العبد زويّد بإجراء تغييرات في المناصب، وعاد إلى الرياض ومعه علي بن عبدالرحيم أمير سيهات، وأمير القطيف الجديد، كي يقدموا فروض الولاء والطاعة[1].

تحركت حملة مصرية أعدها محمد علي بقيادة إسماعيل بك، وخالد بن سعود -وقد كان من بين من أخذهم إبراهيم باشا إلى القاهرة وأقاموا فيها- تحركت الحملة من الحجاز سنة ١٢٥٢هـ باتجاه القصيم فسيطرت على قراها ومدنها، وكلما جمع فيصل الجموع انفضت بالمال الذي كانت تنفقه الحملة، وكان معظم المواطنين في نجد غير راغبين في المواجهة مع المصريين، ولم تزل ذاكرتهم حيّة تحتفظ بسجل السنوات الماضية وما فعله بهم المصريون على يد إبراهيم باشا وغيره. لهذا قرر فيصل أنه لا يمكن له المواجهة، وأن الساخطين على الحكم قد بدؤوا يجهرون بسخطهم في الرياض العاصمة نفسها، فقرر أن يخرج من نجد كليّة ويلجأ إلى الأحساء، حيث أنصاره من آل عفيصان، فدخل الرياض وأخذ كل أملاكه، لكنه لم يستطع الخروج حيث كان له بالمرصاد من أهل البلد كثيرون، فوهب الدراهم والأموال حتى تمكن من الخروج بماله وعياله، وهكذا انقلب أهل المدن وقبلهم البدو عليه[2].

وما أن حلت سنة ١٢٥٣هـ حتى خضعت قرى نجد للقوات المصرية، وأصبح خالد بن سعود الكبير زعيماً لنجد من قبل محمد علي باشا، في هذه الأثناء ثارت قرى الحوطة والحلوة والحريق وأذاقت القوات الغازية طعم الهزيمة وإن لم تكن كاسحة.. هنا أراد فيصل بن تركي الذي أقام في الأحساء أن يستغل الوضع فيعيد سيطرته على

(١) ابن بشر، ج٢، ص٦٨، والدولة السعودية الثانية، ص٤١. ومحمد علي وشبه الجزيرة العربية، ص٢١٨.

(٢) محمد علي وشبه الجزيرة العربية، ص٢٨٦ - ٢٨٧. والدولة السعودية الثانية، ص٤٤. وابن بشر، ج٢، ص٧١.

نجـد، فتزود من الأحسـاء وحمل الكثير مـن المال، وانطلق إلى نجـد واتصل بالمعارضين للحكم المصري، واسـتطاع أن يحاصر خالد بن سـعود في الرياض مدة من الزمن، ولكنه فـك الحصـار ورحل عن الرياض في شـعبان ١٢٥٣هـ تحت ضغط القـوات المصرية. واسـتعد الطرفان لعقد الصلح واجتمع فيصل مع خالد في السـابع عشر من شبعان من السنة نفسها لإقرار الصلح، ولكنه لم ينعقد، حيث عرض خالد أن يحكم فيصل الأحساء فحسـب، وأن يحكم هو نجداً وقراها، ولكن فيصل الذي قبل العرض اشترط أن يرحل الجنود المصريون -سند خالد من نجد-، فرفض الأخير ذلك، وتجدد القتال[1].

في هذه الأثناء راسل خورشيد باشا -وكان والياً للمدينة- الأمير فيصل، وقدم له الهدايا لينسحب من نجد ويقنع بحكم الأحساء، لأن ذلك أبقى له وأجدى، وهدده إن لم ينسـحب، بإرسال فرقة تحتل الأحساء، فانسحب فيصل إلى المنفوحة وأبلغ أتباعه بقبول عرض خورشـيد، ولكنه غير رأيه فيما بعد رغم إغراء آل غفيصان له.. وأرسـل عمر بن عفيصان إلى الأحساء ليحفظها كما أرسل امراءه إلى عمان وبلدان أخرى في جنوب نجد. وهنا أعد خورشيد عدته لتدعيم وضعه في نجد انطلاقاً من المدينة المنورة التي يقيم فيها، فأعاد إسماعيل بك وأحل مكانه آخر وأرسل قوات إضافية إلى نجد كان هو على رأسها، حيث زحفت على القرى النجدية واحتلتها واحدة تلو الأخرى بمساعدة القبائل البدوية من سبيع وقحطان وغيرهما. ووصلت نجدة من عمر بن عفيصان من الأحساء، وقاتلت إلى جنب فيصل ولكنها هزمت، وفرّ المقاتلون من عند فيصل، واستطاع خورشيد محاصرة الدلم -مقر فيصل بن تركي- وطال الحصار فاضطر الأهالي إلى التسـليم، وسـلم فيصل شرط أن يسـافر مع أخيه جلوي وولديه عبدالله ومحمـد وابن أخيه إلى مصر ليقيموا فيها إقامة جبرية، وقد انعقد الصلح سنة ١٢٥٤هـ وفي الثاني من شوال من السنة نفسها اقتاد الجند الأمير فيصل إلى الحجاز ومنه إلى القاهرة[2].

بعد هزيمة ابن عفيصان، رحل إلى الأحسـاء في حين أرسـل خورشيد بعد هزيمة فيصل بيومين عبدالرحمن الحملي بكتاب إلى عمر بن عفيصان وإلى زعماء الأحساء يطلب منهـم القدوم إليه مع منحهم الأمان، فخرج الأحسـائيون عدا ابن عفيصان الذي هرب إلى البحريـن ومنهـا إلى الكويت. ووصل أهالي الأحسـاء إلى خورشـيد في شـهر شـوال

(١) محمد علي وشبه الجزيرة العربية، ص٢٩٧ - ٢٩٨.

(٢) ابن بشر، ج٢، ص٨٤. ومحمد علي باشا وشبه الجزيرة العربية، ص٣٠٨ - ٣٠٩.

١٢٥٤هـ وقدموا فروض الطاعة وعادوا إلى بلادهم، بعدها أرسل خورشيد مع أحمد السديري -الذي أصبح أميراً على الأحساء- قوة من الجند بقيادة خزام المغربي، ثم أرسل له قوة أخرى بقيادة الفاخري لتعزيز القوة في الأحساء، واستطاع والي الأحساء أن يكسب ولاء المواطنين وودهم نظراً لمعاملته السمحة، فأقر العمال على مراتبهم، وكتب لرؤساء القطيف «فقدم إليه علي بن عبدالرحيم أمير سيهات، وسعد بن غانم أمير القطيف وأخوه وأبو السعود -من وجهاء القطيف- وبايعوه، وركب الكاشف برجال من الترك حفاظاً على القطيف، ثم إن الباشا أرسل رجلاً من العسكر يقال له أبو طاهر وجعله رئيساً لعسكر القطيف، وأمّر أحمد السديري على رجال يخرصون الزرع في الأحساء والقطيف فخرصوها من غير تعد ولا ظلم»[١].

كان محمد علي باشا يريد السيطرة على المناطق التي كانت خاضعة لنفوذ السعوديين، باعتباره الوريث، ولكن قوة المصريين وطموح محمد علي أخاف الإنجليز وهم أسياد المنطقة الخليجية منذ زمن غير قصير.. وربما كان مخطط محمد علي أبعد من ذلك حيث كان يحلم بالسيطرة على العراق والكويت إضافة إلى أطماعه في بلاد الشام. وقد أوكل مهمة إخضاع هذه المناطق تدريجيًّا إلى محمد رفعت الذي لعب دوراً هامًّا في تاريخ المنطقة، فسيطر سيطرة تامة على الموقف في القطيف التي أصبحت مركزاً للاتصالات بمشايخ الخليج ولا سيما أمارة البحرين، أدرك خورشيد باشا أهمية الأحساء والقطيف لإحكام السيطرة على نجد من ناحية، والوقوف بوجه التحركات البريطانية من جهة أخرى، ومن هنا كان تركيزه عليهما، ولذا أرسل قوة كبيرة بقيادة محمد رفعت، وأعطى أوامر صريحة باتخاذ القطيف قاعدة لتحرك قواته لأهمية مينائها وصلاحيته للعمل، ولقربها من البحرين، وطلب خورشيد لغرض التوسع إرسال قوات من جدة إلى القطيف بحراً»[٢].

أدرك خورشيد أيضاً أن آل خليفة غير مهتمين بالسيطرة على الأحساء، أو ليست لهم قابلية هضمها، وكان هم آل خليفة الانطلاق من قلعتهم في الدمام، ومهاجمة الشيعة في القطيف، أو تسليط الهواجر -حلفاء آل خليفة- والعماير المقيمين في قلعة عنك عليهم.

---

(١) ابن بشر، ج٢، ص٨٥ - ٨٦. والدولة السعودية الثانية، ص٥١. ومحمد علي باشا وشبه الجزيرة العربية، ص٣١٧.

(٢) محمد علي باشا وشبه الجزيرة العربية، ص٣١٨ - ٣١٩.

فرأى أن يضع حدًّا لهجمات البدو على القطيف، التي كانت في أوجها يومئذٍ إلى حد أن الكثير من الأهالي اضطروا إلى الهجرة باتجاه البحرين.

قرر محمد رفعت إخضاع القطيف إخضاعاً تامًّا، فاتجه من الأحساء في يوم الاثنين ٢١ ذي القعدة على رأس قوة ومعه محمد آغا الكاشف الذي كان على رأس القوة، فوصل القطيف يوم الخميس ٢٤ ذي القعدة ١٢٥٤هـ ووجد أبواب السور مغلقة، والبلاد محاصرة، ونخيلها خربه لكثرة ما عبث فيها البدو، كما وجد أن أهلها لا يستطيعون الخروج خوفاً من الهجمات التي تقع عليهم من عربان الهواجر والعماير.. فأمر رفعت أهل القطيف بفتح ابوابها ودخل بقواته البلد، ووجد أحد عشر مدفعاً ونحو مائتين وخمسين أقة بارود، وحينها أمر المقاتلين من الأهالي أن ينضموا إلى قواته وأعد مدفعين من المدافعين التي وجدها في البلد والتي لم يكن أهل القطيف على دراية بكيفية استعمالها بطريقة صحيحة، وخرج محمد رفعت على رأس القوة إلى قلعة عنك حيث يقيم عربان العماير وغيرهم، فهجم على القلعة وتمكن من الإمساك بشيخ العماير، وهرب بقية الرجال الذين كانوا في القلعة في مركبين إلى البحر، واستولى على قلعة عنك وحاز على ثلاثة مدافع فيها، إلى جانب بعض العفش والتمر، فرتب الأمر وأخذ المدافع إلى القطيف[1].

بقي بعد التخلص من غائلة البدو، آل خليفة في حصن الدمام.. وبعدها يستطيع ولاة محمد علي باشا توسيع نشاطهم خارج حدود المنطقة. أرسل محمد رفعت إلى مبارك بن عبدالله آل خليفة -ابن أمير البحرين المقيم في قلعة الدمام- طالباً منه أن يأتي إليه ليمنحه الأمان، فأرسل مبارك شيخ الهواجر ليقف على جلية الأمر، وفي القطيف أقنع محمد رفعت شيخ الهواجر، بأنه لا يريد سوى القلاع (لكون القلاع ليست إلا للحكام، وأن هؤلاء الناس مضرين لأهل البلاد، ومضرين علينا في الجمرك، وأنه ليس له هدف عدواني، وأرسل الأمان مع شيخ الهواجر إلى مبارك، فقبل الأخير بالأمان، ولكي يثبت محمد رفعت حسن نواياه أطلق سراح شيخ العماير ورد إليه مركبه الذي سبق له الاستيلاء عليه، ومنحه ورقة أمان له ولجماعته، شريطة أنت يسكنوا جزيرتهم «جزيرة العماير»).. وبذلك بدأت الحياة تعود إلى القطيف وسكانها، كما بدأ خورشيد يضع مخططه للمرحلة

(١) المصدر السابق، ص٣٢٠ - ٣٢١.

التالية، وهي احتلال البحرين[1].

قام محمد رفعت بزيارة سريعة إلى البحرين، في الأول من ذي الحجة سنة ١٢٤٥هـ، وكتب تقريراً إلى خورشيد يقول فيه: إن البحرين ذات أهمية قصوى لاستقرار الأحوال في الأحساء والقطيف، وأشار إلى أن ميناء البحرين ذو أهمية في المنطقة، وحيث إن ميناء القطيف لا تستقر مياهه على حال، ولا ترده إلا سفن صيد السمك الصغيرة، أما ميناء الأحساء -العقير- فلا يوجد به أهل وأن أهل الأحساء لا يملكون سفناً صغيرة ولا كبيرة.. ولاحظ محمد رفعت في تقريره أنه منذ وصوله إلى المنطقة وسفن البحرين تمتنع عن المجيء إلى ميناء القطيف، وأصبحت ترسو في الدمام عند القلعة، رغم أنه لا يسكن تلك الأنحاء سوى بعض البدو الرحل، وأشار إلى أن عدم مجيء سفن البحرين إلى القطيف يضر بأحوال المنطقة الاقتصادية فضلاً عما تسببه من اضطرابات سياسية، وقال: إن البحرين كانت تابعة لفيصل بن تركي، وإنها أصبحت ملجأ لكل الذين يريدون الخروج على الحكم المصري من قبائل الهواجر وبني خالد والعماير والمهاشر وآل صبيح، الذين يقيم بعضهم بالقرب من قلعة الدمام، وتأخذهم السفن المغادرة للدمام نحو البحرين.

وقال محمد رفعت في تقريره: إن أمير البحرين رفض الدخول في الطاعة، وأنه رأى مندوباً عن المقيم البريطاني في بوشهر، كما أن مندوباً عن والي بغداد كان في البحرين قال: إنه يدفع بآل خليفة بألّا يقدموا ولاءهم لمحمد علي. ورأى محمد رفعت في البحرين جمعاً غفيراً من الذين رفضوا الدخول تحت الطاعة من أهل الأحساء والقطيف ونجد، وعلى رأسهم عمر بن عفيصان، حاكم الأحساء السابق، ومحمد بن سيف العجاجي، حاكم القطيف السابق، وفهد بن عفيصان.

وفق هذه المبررات التي قدمها محمد رفعت كتب: «إن هذه الجزيرة إذا لم تدخل تحت طاعة الحكومة، فإن تلك المضرات المذكورة لا تنقص بل تأخذ بالازدياد... وإن الاستيلاء عليها سبب لحصول الحركة في ميناء الأحساء والقطيف، ولإدارة أمور العساكر الموجودة في فيلق نجد، هذا ما نراه في إدخالها تحت حكومة ولي النعم»[2].

---

(١) المصدر السابق، ص٣٢١ - ٣٢٢.

(٢) المصدر السابق، ص٣٢٣ - ٣٢٦.

حاول خورشيد في مراسلاته أن يعقد اتفاقاً مع حاكم البحرين عبدالله بن أحمد، ولكن الأخير خشي أن يعقد اتفاقاً يسبب غضب حكومة بغداد وحكومة الإنجليز وربما حكومة فارس عليه. ولكنه رضخ أخيراً واتفق مع خورشيد باشا على دفع الزكاة بالاتفاق مع محمد رفعت، وأن يوالي ويعادي من يواليه ويعاديه خورشيد.. وحين شاع نبأ الاتفاق انزعجت جميع الأطراف المعادية لمشروعات محمد علي في شرق الجزيرة والخليج وعلى رأسها بريطانيا التي بدأت مقاومتها لهذه العلاقة بصورة فعلية.. حيث أرسلت في البداية قوات لتحتل جزرة خرج، وأرسلت بعض القوات إلى البصرة حتى تكون عائقاً أمام تقدم قوات محمد علي، كما أنها تطلعت لوضع البحرين تحت وصايتها، وأرسلت إلى محمد علي تنذره بأنه إذا ما حاول احتلال البحرين أو مد سلطانه على الخليج، فإنها لن تقف مكتوفة الأيدي[1]، ثم لما لبثت أن أرسلت سفناً لضرب حصار على مينائي القطيف والعقير، مع ملاحظة أن الحكام السعوديين لم يكونوا مهتمين بركوب البحر، ولم يكن لديهم سفن حربية على الدوام، بل كانوا أحياناً يستخدمون سفن الغوص التي يمتلكها الرعايا في القطيف ونواحيها[2].

ورغم ضغط الإنجليز، فقد وقع محمد رفعت مع حاكم البحرين اتفاقاً آخر تضمن فيما تضمن: «أن يأمر أمير البحرين ولده المقيم في بر الدمام، بطرد عرب الهواجر والعماير المقيمين عنده، وألّا يقبل أحداً منهم إلا أولئك الذين يوالون محمد رفعت. وتضمن الشرط الثاني أن يسمح لحاكم البحرين بأن يأخذ «العوايد» التي كانت له في السابق من غواصي البحرين والقطيف، وبعض غواصي القرى الأربع التي تقع على ساحل بحر قطر. وثالثاً: أن يقبل عبدالله بن أحمد إقامة ممثل من طرف خورشيد وأن يقبل بنقل العسكر إلى البحرين وغيرها، ورابعاً: يتم تسليم الهاربين من كل طرف إلى الطرف الآخر، وكان توقيع الاتفاقية في صفر ١٢٥٥هـ.

هدد المقيم السياسي في بوشهر -ثم في خرج- بإفساد الاتفاق بالقوة، وقال: إن حكومة الهند لا ترغب في استيلاء خورشيد على البحرين؛ لأن ذلك مخالف للاتفاق بين محمد علي والإنجليز، ولكن خورشيد اعتبر البحرين تابعة لآل سعود، وأن الحكومة المصرية هي الوريث لحكومة السعوديين، وحاول التفاوض سلمياً مع المقيم، ولكن

(١) المصدر السابق، ص٣٢٩.
(٢) الدولة السعودية الثانية، ص٢٣٩ - ٢٤٠.

المقيم رفض ذلك، وراح يغري ويتوعد أمير البحرين لتمزيق المعاهدة فرفض.

ورأى المقيم هناك، أن خورشيد باشا قد بدأ بغزو معاقل الإنجليز في عمان وإمارات الساحل، والكويت، انطلاقاً من القطيف والأحساء، واقترح على حكومته في بومباي أن تقوم البحرية البريطانية بعرض مسلح في منطقة الخليج، وأن تفرض حصاراً عسكرياً على موانئ القطيف والعقير وسيهات[1].

كانت الأوضاع عموماً تخدم الاستراتيجية المصرية في شرق الجزيرة العربية، إلا أن مقتل محمد رفعت باشا على يد البداة قد أصاب النفوذ المصري في الخليج في المقتل، فقد أقدم ثلاثة من العوازم -حسب قول ابن بشر- على قتل محمد رفعت نظراً لسياسته الداخلية السيئة القائمة على الإكراه والمصادرة والعنف وفرض شتى صنوف الضرائب التي لم تكن معهودة فيما مضى... وبعد مقتله طلب بنو خالد الرئاسة، ولكن خورشيد أبى أن يعطيهم إياها وأرسل إلى الأحساء قائداً عسكرياً آخر من عنده اسمه محمد أفندي شرمي.. كان ذلك أواخر سنة ١٢٥٥ هـ. وعين خورشيد عيسى بن فايز رئيس جبل شمر أميراً على الأحساء، وجعل الأمير السابق أحمد السديري مسؤولاً عن بيت المال[2].

انتهت مشروعات محمد علي حين تصدت له الدول الكبرى وأرغمته على سحب قواته من بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية، ضمن معاهدة لندن الموقعة عام ١٢٥٦هـ وما كاد خبر انسحاب القوات المصرية ينتشر حتى شب الصراع في منطقة نجد بين خالد بن سعود وبين عبدالله بن ثنيان وانقسمت البلاد إلى فريقين.

ففي سنة ١٢٥٦هـ - ١٨٤٠م أمر محمد علي خورشيد باشا أن يقدم عليه، وقبل أن يغادر عيّن أحمد بن مبارك رئيس حريملاء أميراً على الأحساء، وبذا أصبح خالد بن سعود حاكماً على نجد والأحساء ومعه ٢٠٠ - ٣٠٠ جندي فحسب، ثم جاءه عمر بن عفيصان من الكويت وصار في خدمته، وفي صفر من عام ١٢٥٧هـ قدم بعض رؤساء أهل الأحساء -نجديي الأصل- وكان بينهم موسى الحملي وعبد الرحمن بن مانع، قدموا إلى خالد بن سعود في الرياض، ومعهم أمير الأحساء حمد بن مبارك، فأقاموا عنده واستعمل الحملي عليهم أميراً، في حين أصبح عبدالرحمن بن مانع مسؤولاً عن بيت المال.

---

(١) محمد علي وشبه الجزيرة العربية، ص٣٦٠.

(٢) ابن بشر، ج٢، ص٨٦ - ٨٧. ومحمد علي وشبه الجزيرة، ص٣٤٥ - ٣٤٦.

وفي العام نفسه اختلف عبدالله بن ثنيان -الذي وصفه المؤرخون بأنه كان سفاكاً للدماء- مع خالد بن سعود، وكان في خدمة خورشيد باشا، اختلفا واستعد الطرفان للحرب، ورفع الثنيان شعار تخليص نجد من القوات المصرية، وانقسمت البلدات النجدية بين مؤيد ومعارض، وجنَّد كل طرف أتباعه، واستطاع الثنيان تحقيق عدد من الانتصارات على خالد لضعف تدبيره، ودانت معظم نجد لعبدالله الثنيان، وانزوى خالد بن سعود في الأحساء، ثم حاول أن يقوم بعملية لاسترداد ملكه إلا أنه فشل، حيث أمر من بقي من القوات بالخروج معه، ولكن لم يكن إلَّا القليل، فهرب وترك خيامه وقصد الدمام، فنزل في بره وهرب عنه أكثر خدامه ورجاله، فاضطر خالد إلى الهرب إلى الكويت، ومنها انتقل إلى مكة المكرمة براً عبر القصيم، ولم تمضِ سوى مدة قليلة حتى توفي[1].

وفي بداية ١٢٥٨هـ أمر عبدالله بن ثنيان عبدالله بن بتال المطيري أن يسير إلى الأحساء ويسيطر عليها، فلما فعل ذلك، أرسل إلى عمر بن عفيصان أن يسير إليها ويصبح أميرها.. فسار في منتصف محرم من العام نفسه ومعه أكثر من مائة رجل، ودخل الأحساء ونزل قصر الكويت، وأتاه رؤساء أهل الأحساء فبايعوه، ولكنه أمرهم بالوفود على ابن ثنيان في الرياض وتأدية فروض الولاء، ففعلوا، وأبقى عنده أربعة منهم رهن الإقامة الجبرية، ريثما يتأكد من خضوع المنطقة الكامل له[2].

ولكن القطيف لم تخضع، فبعد بضعة أشهر أمر ابن ثنيان بلال بن سالم الحرق وهو عبد في رجال معه أن يسير إلى القطيف ويسيطر عليها، وفي الوقت نفسه أرسل فهد بن عبدالله بن عفيصان في رجال من أهل الخرج والوشم وسدير أن يقصدوا الأحساء، وأن يتولى فهد الإمارة فيه بالنيابة عن ابن عمه عمر، ريثما يقوم الأخير بإحكام السيطرة على القطيف، بعد أن تصله قوات بلال الحرق، وكان هذا الإجراء ضرورياً كي يحصل ابن ثنيان على منفذ له على البحر، وقد سار عمر بن عفيصان من الأحساء ومعه فلاح بن حثلين ورجال من قبيلة بني هاجر وآل مرة والعماير... فلما وصلوا القطيف حاصروها حتى اضطرت إلى الاستسلام وتولى عمر بن عفيصان الإمارة فيها، ثم تقدمت القوات إلى سيهات وحوصرت ورميت أسوارها ومنازلها بالمدفعية حتى استسلمت. وأرسل ابن

(١) ابن بشر، ج٢، ٩٥ - ٩٦. والدولة السعودية الثانية، ص٥٨.
(٢) الدولة السعودية الثانية، ص٧٦.

عفيصان حاكمها علي بن عبد الرحيم، إضافة إلى أمير القطيف علي بن عبداله بن غانم إلى «الرمحية» ليقابلا ابن ثنيان ويعلنا تأييدهما وخضوعهما.. وكما يقول ابن بشر: «أمر ابن غانم الرافضي رئيس أهل القطيف أن يرب إلى ابن ثنيان واستدعى ابن عبد لارحيم رئيس سيهات فأسره وهدم سور سيهات، فلما قدم ابن غانم على ابن ثنيان في الرمحية ناويه بأشياء، وقال: إنك تمالي صاحب البحرين على طوائف المسلمين، وذكر له أشياء غير ذلك، ثم حبسه وأخذ منه أموالاً عديدة، وحبس ابن مانع -عبد الرحمن مسؤول بيت المال من طرف خالد بن سعود- وعذبه وأخذ أمواله وحبس رجالاً وأخذ منهم أموالاً وأخذ من العربان خيلاً وركاباً».. ومن الواضح أن السبب الحقيقي هو اعتناق الأميرين المذهب الشيعي كما يلمح إلى ذلك أحد الكتاب السعوديين، الذي قال: إن ابن ثنيان حاكم علي بن غانم محاكمة صورية[1].

ولكن علي بن عبد الرحيم، رئيس سيهات استطاع الهرب من عند عبدالله بن ثنيان إلى البحرين.. بعدها طلب حاكم الرياض من أحمد السديري أن يصبح أميراً على القطيف بعد أن أصبحت المنطقة الشيعية مفرغة من أهم زعاماتها فواحد في السجن وآخر في المنفى!

وفي بداية سنة ١٢٥٩هـ وصل فيصل بن تركي إلى نجد قادماً من منفاه بالقاهرة، وقيل: إنه هرب من مصر مع ابنه عبدالله، ولكن الوثائق المصرية تقول: إن الحاكم المصري رأى أن وسط الجزيرة العربية قد خرج على السيادة المصرية بقيادة ابن ثنيان، وبالتالي لم يعد لوجود فيصل في المنفى أي معنى بل إن بإمكانه أن يقدم شيئاً مفيداً للحكم المصري في حال سيطرته على نجد.

اصطدم فيصل بعبد الله بن ثنيان كما هو متوقع، حيث اعتبر نفسه الحاكم الشرعي، ولكن ابن ثنيان لم يستسلم وتقدم فيصل مدعوماً بقوات آل رشيد وشمر من حائل واستولى على الكثير من المدن والقرى، وحاصر الرياض إلى أن تمكن بعد نحو شهر من القبض على ابن ثنيان والاستيلاء على الحكم فدانت له نجد كلها.

وأسرع فيصل للسيطرة على الأحساء باعتبارها ذات أهمية اقتصادية واستراتيجية، حيث أرسل عبدالله بن بتال المطيري إليها ليكون أميراً فور انتهائه من احتلال الرياض.

(١) ابن بشر، ج٢، ص٩٧. والدولة السعودية الثانية، ص٥٨.

ولكن التمردات لم تنته من الأحساء والقطيف طوال عهد فيصل، وقد كان أول عمل عسكري قام به في فترة حكمه الثانية هو قمع حركات التمرد في المنطقة... فبعد بضعة أشهر من احتلال الأحساء، قصد فيصل في أواخر عام ١٢٥٩هـ وبداية عام ١٢٦٠هـ جهة القطيف، فأغار على المناصير وعلى آل مرة، ثم أغار على الهواجرن، ثم نازل آل خليفة الذين عادوا إلى حصن الدمام فحاصرهم اثني عشر يوماً حتى استسلموا. وحيث فرغ الأمير فيصل من عملياته في الدمام قفل راجعاً إلى الأحساء وأقام فيه نحو أربعين يوماً، وفي تلك الأثناء عيَّن فيصل أميراً جديداً على القطيف وهو عبدالله بن سعد المداوي، الذي وصفه ابن بشر بالشهامة والشجاعة، كما عيَّن ناصر بن علي العريني قاضياً على القطيف لنشر المذهب الوهابي بين سكانه، أما أمير الأحساء أحمد السديري فمن صفاته التي يتعرض لها المؤرخ الوهابي ابن بشر، أن له «قوة على الأنجاس» وهو هنا يخفي مقصده، لكنه سرعان ما يأتي بقضية قتل أمير القطيف عبدالله المداوي لزعيم الشيعة هناك علي بن عبدالله بن غانم، ليتبين أن (الأنجاس المقصودين) هم الشيعة.. يقول: «ثم إن عبدالله المداوي أحضر علي بن عبدالله بن غانم الرافضي رئيس القطيف في السابق، فقاربه بأشياء وضربه حتى مات. فغضب الإمام فيصل وأرسل إليه غلامه بلال بن سالم الحرق فأشخصه إليه وجلس بلال مكانه، فلما قدم على الإمام اعتذر من ضربه لابن غانم، وذكر الباعث لذلك، فقبل منه ورده إلى القطيف أميراً»[1].

أما الأستاذ المسلم فيسرد قصة مقتل زعيم القطيف، علي بن عبدالله بن غانم بشكل آخر.. فقد ورث علي الزعامة بعد مقتل أبيه عبدالله بالاتفاق مع الأمير فيصل بن تركي، وكان علي على خلاف مع أبيه مما جعله يترك القطيف إلى مسقط، ثم عاد وأصبح زعيم القطيف الأوحد.. وكان فيصل قد عين المداوي حاكماً للقطيف، مع زعامة اسمية لابن غانم.. فلما قدم المداوي إلى القطيف أسكنه ابن غانم في أحد قصوره «ولكن المداوي أخذ يتصرف حسبما شاء له هواه، ويرتكب أعمالاً من الظلم والعسف تجاه المواطنين فأثار تذمرهم، فاستغل سوء الوضع وكيل بيت المال علي بن صالح السنان، الذي كان موظفاً من قبل علي بن غانم والذي كانت له مطامع في الرئاسة، فأخذ يحيك الدسائس بين رئيسه وبين الممثل النجدي، فدعا مرة علي بن غانم في منزله، وأخذ يشكو إليه تصرفات المداوي على مسمع من المداوي نفسه، فأجابه بأنه كتب في عزله، فحنق الأمير

(١) ابن بشر، ج٢، ص١١٠.

على علي بن غانم، وأمر رجاله بأن يقتلوه خنقاً عندما يزوره كجاري عادته في الصباح الباكر.. فخنقوه ورموا بجثته في زقاق غير سالك وظل ملقى مدة ثلاثة أيام دون أن يعلم بمكانه أحد، وتحقق لعلي بن صالح السنان حلمه، فورث زعامة البلاد، ولكن هذه الرئاسة لم تستمر طويلاً، إذ عمد أحد أقارب القتيل فوشى به لدى المندوب النجدي -عبدالله المداوي- فهجم عليه في منزله وقتله، وورث الزعامة من بعده كاتبه مهدي بن نصر الله -والد الزعيم والشاعر أحمد مهدي بن نصر الله-. ويقال: إن سبب القتل هو أن المندوب النجدي قدم ومعه حوالة مالية فماطله علي بن صالح، وفي أثناء زيارته لسلمان بن غانم، أمر سلمان ساقي القهوة بأن يتخطاه، فلما أبدى استنكاره، أجاب سلمان بأنك -أي المداوي- لو كنت رجلاً لما ماطلك ابن السنان، فطاش غضباً وتحمس وذهب إلى ابن السنان وهجم عليه في مجلسه صباحاً وقتله، فلما سمع رجاله إطلاق الرصاص هجموا على القاتل -المداوي- وقضوا عليه في الحال»[1].

هذه القصة أخذها المسلم نقلاً عن والده، ولا شك في أن هناك خلفيات أخرى لمقتل زعيمي القطيف (ابن سنان، والغانم) على يد ممثل الحكومة النجدية عبد الله المداوي.. وهي كون الزعيمين شيعيين، وأن القطيف كانت حتى ذلك الحين تعارض الحكم السعودي رغم إعيائها.. وقد كان من متاعب السعوديين في مناطق الشرق «انتشار المذهب الشيعي بين السكان ووجود تقليد استقلالي قوي»[2].

ورغم الحجج التي ساقها المداوي حين وفد إلى الرياض ليحقق فيصل بن تركي في أسباب قتله لابن غانم.. إلا أن فيصل كان مقتنعاً بأن الجرم الحقيقي لعلي بن غانم هو كونه شيعي المذهب «ويبدو أن العوامل النفسية كان لها تدخل في القضية إذ إن المداوي أراد أن يتخلص من رجل ينافسه الزعامة في المنطقة، وبخاصة أن أهالي القطيف يؤيدون زعيمهم علي بن غانم لأنه شيعي المذهب.. وبخاصة أن المقتول كان شيعي المذهب»[3].

لا يعتبر العديد من المؤرخين أن هناك دولة سعودية ثانية، وإن كل ما وجد لا يعدو عصر تشتت وانهيار قبل أن تبعث السلطة السعودية من جديد في مطلع القرن

(١) محمد سعيد المسلم، مصدر السابق، ص١٤٨ - ١٨٥.
(٢) الدولة السعودية الثانية، ص٧٤.
(٣) المصدر السابق، ص٩٩. والذي يقول ص١٠٥: أن فيصل أرسل المداوي من القطيف إلى عنيزة المتمردة على حكم فيصل ولكن أهلها رفضوه واعتبروه أجنبياً.

العشرين على يد الأمير الشـاب عبـد العزيز بن عبد الرحمن، ليعيـد للعائلة المالكة مجدها السابق، الذي انهار إثر اجتياح الجيوش المصرية جزيرة العرب من غربها إلى شرقها، ومن شمالها إلى جنوبها.

لم يستتب الحكم للسلطة المركزية في الدولة السعودية الثانية، إلا لفيصل بن تركي بعـد عودتـه الثانية مـن منفاه في مصر.. حيـث دام حكمه أكثر من عقدين، لكن سـلطته كانت أقل من سـلطة أسـلافه في الدولة السـعودية الأولى، حيث لم يخضع الحجاز لحكم السعوديين، لضعفهم العسكري أولاً، ولتفهمهم أن السيطرة على الحجاز ستفتح لهم من المشاكل الكثير، وقد يؤدي إلى انهيار الحكم السعودي نفسه.

وإذا كان الحكام السعوديون الأوائل قد عملوا على محاربة الدولة العثمانية والتوسع في مناطق نفوذها، وإسـقاط هيبتها، والتركيز على أحقيتهم في قيادة العالم الإسلامي بدلاً منهـا، فـإن الحكام السـعوديين في الدولة السعودية الثانية وبالخوص تركـي بن عبدالله وابنه فيصل، كانا أكثر استيعاباً لحجم قوتهم ولحجم القوى الكبرى في الخارج (الإنجليز والعثمانيـين)، وقد عمل فيصل بالخصوص على عدم اسـتثارة الإنجليـز والعثمانيين، كما أعلن أكثر من مرة خضوعه للسلطان العثماني، ودفع في أكثر من مرة ضريبة هذا الخضوع عـبر حكام الحجاز. ولكن فيصـل لم يتنازل عن ادعاءاته التاريخية بأن عمان والمشـيخات المتصالحة فيما بعد إضافة إلى البحرين يجب أن تخضع لسـلطانه كما خضعت لسـلطان أبيه وأجداده في الماضي.. ولكن التسـليم بهذا من قبل الإنجليز كان مستحيلاً، كما كان صعباً عـلى فيصـل أن يواجههـم بالقوة، وقـد أدت تدخلاتـه إلى هجمات بريطانيـة على موانئ الأحساء والقطيف أكثر من مرة، وتعرضت لقصف المدفعية البحرية البريطانية.. ولكن الإنجليز -مع ذلك- سـمحوا له في بعض الأحيان باسـتلام الجزيـة من حكام البحرين ومسقط، شرط ألَّا يعني ذلك أي معنى سيادي، وإنما تحمل معنى دينيًّا بحتاً.

إضافة إلى أن السـعوديين في الدولة السـعودية الثانية قد حكموا رقعة من الأرض كانت أقل مما حكمه أسـلافهم.. ويشـير عـدد من الباحثين إلى أن أهـم الاختلافات بين الدولتـين السـعوديتين الأولى والثانية: هو ضمور التوجه المذهبـي بالصورة الفاقعة التي كانـت معهـودة في الدولـة الأولى.. ولعـل السـبب في ذلك هو ما أشـاعه منـاخ هزيمة السـعوديين قبـال القوات المصرية، حيـث تبين أن النجديين أنفسـهم لم يكونوا يخضعون

لسلطان السعوديين السياسي والديني إلا بالإكراه، فلما تحرروا من سلطان القوة، تمردوا على السلطان السياسي والديني معاً، خاصة في القصيم، واضطر تركي بن عبدالله وابنه فيصل إلى القتال مجدداً ومقارعة الرؤساء المحليين في كل المدن والقرى النجدية. ومن الواضح أن اللحن الديني في الدولة السعودية الثانية كان ضعيفاً، وإن كان لا يزال ركناً أساسيًّا من أركان إخضاع القاعدة للسلطة السياسية.. ويقول الباحثون: إن حدّة التعصب المذهبي قد خفت في عهد تركي وابنه فيصل، حيث لم يكتسب القتال الصفة الدينية والمذهبية البحتة، كما اختفت إلى حين شعارات تكفير المسلمين الآخرين، تمهيداً لاحتلال أراضيهم؛ لأن الغزو لم يقم للبلدان المجاورة، فضلاً عن أن تركي بن عبدالله اعتبر العائلة السعودية المالكة أحق من غيرها بالحكم، ليس لأنها تتبنى مذهباً جديداً تحاول فرضه على الناس، وإنما باعتبارها صاحبة تراث سياسي توحيدي، أقره الشيخ محمد بن عبدالوهاب حين جعل الحكم في العائلة السعودية وأرسى دعائم وراثة العرش في حياته لاثنين من الحكام هما عبد العزيز بن محمد بن سعود وابنه سعود.

بالطبع لم يتغير الوضع كثيراً بالنسبة للشيعة في الأحساء والقطيف، فتعصب الوهابيين قد يخف، ولكن ليس إلى حد التعايش مع الشيعة، واحترام خصوصيتهم المذهبية، وعدم تغيير قناعاتهم بالعنف والقوة، واجبارهم على الخضوع للمذهب المنتصر.. مع هذا يقول المستشرق السوفياتي إليكسي فاسيلييف: إنه خلافاً للأمراء السابقين طبق تركي وفيصل في الأحساء سياسية متسامحة الأمر الذي ساعدهما على تركيز سلطتهما هناك.. ولاحظ أن الوهابية فقدت بريقها، وأن من الصعب اعتبار أنصار السعوديين من الملتزمين بالمبدأ الوهابي المتعصب.. وأشار إلى أن الوهابية لم تعد تتميز بالتعصب الذي كانت عليه في الدولة السعودية الأولى، مع أنه ذكر في معرض تقييمه للنظام السياسي والاجتماعي في الدولة السعودية الثانية أن «أمراء الهفوف يعينون دوماً من النجديين، ولم يكن سكان المنطقة الشرقية متعاطفين كثيراً مع الرياض والوهابيين. إلا أن أهمية هذه المنطقة كبيرة لدرجة جعلت أمير الرياض يرى ضرورة الاحتفاظ بحاميات دائمية هناك»[1].

ويقول مؤرخ غربي آخر: إن الحكومة الوهابية في الدولة السعودية الثانية كانت أكثر تسامحاً من الأولى.. ويستشهد على ذلك بأن الشيعي محمود الفارسي عين قاضياً للحسا..

---

(١) فاسيلييف، المصدر السابق، ص١٤٧ - ١٤٨، ص١٧٩.

والحقيقة أن الفارسي إيراني سني اعتنق المذهب الوهابي، كما أشار إلى ذلك ابن بشر وكان قاضياً للقطيف وليس للأحساء، في عهد فيصل بن تركي، أما قاضي الأحساء فقد كان عبدالله الوهيبي ثم الشيخ عبد اللطيف بن الشيخ مبارك، وفي أواخر أيام فيصل كان القاضي الشيخ أحمد بن مشرف.. إضافة إلى هذا يقول: إن المواطنين الشيعة لم يتعرضوا لاضطهاد كبير في ممارستهم لشعائرهم الدينية.. ومع هذا فإن تركي بن عبدالله وابنه فيصل حاولا قدر ما استطاعا نشر المذهب الوهابي وعيّنا العلماء والمدرسين لإعادة تعليم الشيعة على النمط الوهابي، كما عينا أئمة وقضاة في مختلف المدن والقرى الشيعية في الأحساء والقطيف[1].

ومع أن فيصل بن تركي قد حاول إرضاء الزعماء المحليين بعكس أسلافه الذين عانوا نتيجة التمردات المحلية، بسبب القضاء على البيوتات الحاكمة في المناطق الخاضعة لسلطانهم.. فإنه لم يمارس الأمر ذاته بالنسبة للأحساء والقطيف، بل على العكس، تعرضت القيادات السياسية الشيعية إلى تصفيات وملاحقات، كما رأينا ذلك بالنسبة لأكبر زعيمين في واحة القطيف علي بن غانم وعلي بن عبدالرحيم، أو كما حدث في عهد أبنائه إبان الحرب الأهلية، حين اضطر الزعيم أحمد مهدي بن نصر الله إلى الفرار من المنطقة بعد أن صودرت أملاكه وكان قاب قوسين أو أدنى من المقصلة. وقد سبب هذا بالخصوص تمردات كثيرة في منطقة القطيف واستياءً بالغاً بين السكان.

ولم يثبت أن سياسة فيصل في ترضية الزعامات المحلية في نجد كانت ناجحة، إذ إنه انشغل لفترة طويلة في اخضاع التمرد تلو الآخر.. كما أن زعماء القبائل -خاصة في الأحساء- من العجمان وآل مرة قد تحدوا أكثر من مرة الزعامة السعودية، وعاشت مناطق الشرق فترة عاصفة من الاضطرابات التي لم تنته حتى موته رغم الحملات المتكررة التي قادها هو بنفسه أو قادها ابنه عبدالله، وبطش -بكل القسوة المعروفة عن السعوديين- بالزعامات القبلية والحضرية على حد سواء، وصح ما قاله أحد الباحثين الغربيين بأن فيصل تعزز سلطانه وتغلب على كل معارضة متبقية من قبائل نجد والأحساء عن طريق ما أسماه أحد المعاصرين بقسوته التي لا تعرف الرحمة[2].

على الصعيد الاقتصادي، يقدر بلغريف عدد السكان الشيعة بالنسبة للحضر في

(١) الشيعة والاضطراب الاجتماعي، ص٢٣٣ - ٢٣٤.
(٢) كيلي - الحدود الشرقية لشبه الجزيرة العربية، ص١٢٦.

الدولة السعودية الثانية فيقول: إن عددهم يصل إلى ربع مليون نسمة، في حين يبلغ تعداد سكان الأقاليم الأخرى في حدود مليون وربع المليون نسمة.. ولكن ما يدفعه الشيعة من ضرائب مختلفة وزكوات يساوي جميع ما يدفعه السكان الآخرين في كل الأقاليم بما فيها كامل نجد وعمان وإمارات الساحل المتصالح والبحرين.. حيث تتسلم الحكومة من الشيعة من الواحتين مائتي ألف ريال سنويًا هي عبارة عن زكوات وضرائب (من بينها الجهادية/ الرقبية) وجمارك وغير ذلك.. في حين يدفع جبل شمر ١٦ ألف ريال، و القصيم ٢١، والوشم ٦، والسليل ٣، والدواسر ٤، والأفلاج ٢، والحريق ١٠، واليمامة ٦، والعارض ٥، ومسقط ٦، والبحرين ٤، وشيوخ الساحل من رأس الخيمة إلى أبو ظبي ٢١، ومن صحار والقسم الداخلي من عمان ٨، ومن جميع القبائل بما فيها قبائل الأحساء والقطيف -وهي قبائل غير شيعية- ١١٤ ألف ريال، بحيث يصل المجموع ٢٠٠ ألف ريال، أي أن واحتي الأحساء والقطيف في كفة، وباقي المناطق الخاضعة للحكم السعودي في كفة أخرى[1].

ولا يفسر مقدار ما يجبى من أموال من مناطق الشيعة، القول بأنها غنية، بل إن الضرائب المفروضة على السكان كانت ولا شك عاملاً مهماً في ذلك.. وينبغي الالتفات إلى أن امراء الدولة السعودية الثانية كانوا يحاولون التخفيف عن رعاياهم في نجد لاسترضائهم، في مقابل تعويض النقص المادي من مناطق الشرق. وما يجري على الشيعة لا يجري على غيرهم. وكان الحكام السعوديون يعتبرون المنطقة خزاناً ماليًّا لحل مشكلاتهم كلما احتاجوا إلى ذلك.

حدث عام ١٢٦٠هـ أن وقعت معركة بين العجمان وحليفتها سبيع من جهة وقبائل مطير من جهة أخرى، وقد تكبدت مطير خسائر فادحة من الإبل والأسلحة والقتلى، وتشير المصادر التاريخية إلى أن قبيلة مطير هي المعتدية «إلا أن الأمير فيصل بن تركي عوض عن خسائر مطير بكرم وسخاء من بيت مال القطيف، لأن محمد الدويش -زعيم مطير- كان من المخلصين له»[2]. ومع هذا حوكم العديد من الشيعة وقتلوا بحجة أنهم يتهربون من دفع الضرائب، أو أنهم اعتدوا على بيت مال المسلمين!.

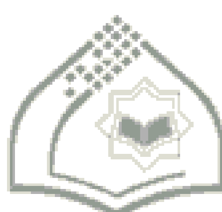
(١) الدولة السعودية الثانية، ص٢٥٤ - ٢٦٣.
(٢)المصدر السابق، ص٩٩.

٣

الأحساء والقطيف

في الحرب الأهلية السعودية




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

قبل أن يودع فيصل بن تركي الحياة في ١٨٦٥ - ١٢٨٢هـ، كان قد وثّق علاقاته مع الإنجليز في الخليج بصورة أكبر مما كانت عليه في عهد أسلافه، إذ سمح للمقيم السياسي البريطاني في الخليج لويس بيلي بزيارته في الرياض، وتوقيع معاهدة معه، أشار إليها الملك عبد العزيز فيما بعد أكثر من مرة. وقد ابتدأت زيارة الكولونيل بيلي للرياض في ٥/ ٣/ ١٨٦٥، وكان من بين أهدافها التالي:

أولاً: الحصول على مركز استراتيجي بحري في القطيف أو العقير.

ثانياً: تأمين المصالح البريطانية في محميات الخليج من قبل حلفاء الحكم السعودي، وفي هذا السياق يقول بيلي في تقريره عن الرحلة: «لقد شعرت جازماً، أنه إذا تمكنت من إقامة علاقات مع حاكم كفيصل، فإننا نتوقع فائدة من نفوذه على رؤساء الساحل. ولن نخشى من أن يتحول هذا النفوذ في اتجاه لا يتوافق مع الاتجاه المتمدن»[1].

ثالثاً: دراسة تضاريس الجزيرة العربية ومناخها واقتصادها وسكانها، ولذا فهو قد قدم وصفاً للأحساء موضحاً أهميتها الزراعية والاستراتيجية باعتبارها بلداً ساحلياً تطل موانئه على الخليج، وكان بيلي قد مرّ بالأحساء في طريق عودته إلى قطر في الثامن عشر من مارس ١٨٦٥.

---

(١) دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر، الدكتور عبد الفتاح حسن أبو عليّة، الرياض ١٩٨٦، ص١٣١.

انظر أيضاً، الخليج العربي، دراسة لتاريخ الإمارات العربية (١٨٤٠ - ١٩١٤) ج١، للأستاذ جمال زكريا قاسم، مطبعة جامعة عين شمس، ص٧٩.

رابعاً: التعرف على مراكز القوى في الحكم السعودي، خاصة وأن فيصلاً، الحاكم السعودي، يعيش آخر حياته، وقد أصيب بالعمى والشلل، ورأى بيلي كيف أن «عبد» الحاكم السعودي المدعو محبوب بن جوهر يتمتع بنفوذ قوي، لدرجة أنه تبرّع من تلقاء نفسه بعرض مشروع معاهدة تلزم السعوديين بمنع أعمال السلب والنهب، الضارّة فقط بالمصالح البريطانية[1].

كما لم يضيّع بيلي الفرصة، فالتقى بأبناء فيصل وبالخصوص «عبدالله وسعود» وخرج بانطباع سيئ عن عبدالله الذي خلف والده فيما بعد، وعرف أن سعوداً هو أكثر ميلاً للإنجليز، لذا لا غرابة أن نجد بيلي فيما بعد، من أكبر المناصرين لسعود أثناء اشتعال الحرب الأهلية بينه وبين أخيه عبدالله. وقد كتب لحكومته بضرورة مناصرة سعود لتحقيق أطماعها في الأحساء.

وملخص القول أن زيارة بيلي حققت كامل أهدافها، عدا ما يتعلق بإعطاء تسهيلات للإنجليز في موانئ القطيف والأحساء، وذلك خشية من الحاكم السعودي أن يثير ذلك العمل نقمة الحكومة العثمانية التي كان السعوديون يومئذ يخضعون لسيادتها الأسمية.

فمن جهة استحصل بيلي من خلال المعاهدة الموقعة على «تعهّد من الإمام فيصل بن تركي بمعاقبة كل من يقوم أو يمارس أعمال السلب والقرصنة في كل من مينائي الدمام والعقير السعوديين.. وحرصاً على سير الأمور في إطارها الصحيح، فإن الإمام السعودي طلب من بيلي أن يتصل به مباشرة في حال وقوع حوادث تؤدّي إلى تعكير صفو السلام في المنطقة»[2]. وطلب فيصل بن تركي من الكولونيل البريطاني أن تتولّ المقيمية البريطانية في بوشهر رعاية مصالحه البحرية، بمنع الاعتداء البحري عليه، وصيانة الأمن في الخليج[3].

(١) المصدر السابق، ص١٣٦.

(٢) من تقرير بيلي، انظر المصدر السابق، ص١٣٥.

(٣) قيام العرش السعودي، دراسة تاريخية للعلاقات السعودية البريطانية، ناصر الفرج، لندن ١٩٨٨، ص٢٣.

انظر: سياسة بريطانيا في الخليج العربي، ١٨٥٣ - ١٩١٤، ج٢، الدكتور فؤاد سعيد العابد، منشورات ذات السلاسل، الكويت ١٤٠٤هـ، الصفحات ٤٥ - ٤٧.

وأفصح فيصل عن رغبته في تنظيم المراسلات مع المقيمية في بوشهر[1]. كما وحقق بيلي نجاحاً في تحديد سلطة السعوديين في المناطق الواقعة تحت السيطرة والنفوذ البريطانيين، وأهم ما في ذلك، أنه أوضح لفيصل بن تركي أن دفع الزكاة من قبل حاكم عمان أو المشيخات الأخرى، لا يعني أي سلطة له، وإنما هي أتاوة ماديّة لا تتعدى هذه الحدود، وهو أمر أوضحه بيلي فيما بعد للحاكم السعودي الجديد عبدالله الفيصل عن طريق مبعوثه إلى بوشهر في فبراير ١٨٦٦.

ومن الناحية الاستخباراتية، حصل بيلي على كم هائل من المعلومات عن القبائل والاقتصاد والسكان، وعاداتهم، وعن الجغرافيا، فكانت أشبه ما تكون بمسح «تجسسي» لكل داخل الجزيرة العربية الواقع تحت نفوذ الوهابيين.. وقبل أن يغادر بيلي الرياض، وأثناء الوداع قال له فيصل إنه: «أصدر تعليماته الشديدة إلى عماله في منطقة الساحل» بما اتفق عليه.. وقد عرج بيلي في طريقه على الأحساء ومعه فريقه الاستخباري لمعرفة أوضاعها.

قبل أن يموت فيصل بن تركي، جرى امتحان لهذا الاتفاق، ففي أغسطس ١٨٦٥، أرسل الحاكم السعودي وكيله إلى مسقط طالباً زيادة الزكاة إلى ثلاثة أضعافها، وقد رفض ثويني حاكم عمان الطلب.. مما أدى إلى قيام الوهابيين باحتلال ميناء صور العماني ونهبه وقتل الكثيرين وسلبهم. وقد صادف أن كان في الميناء بعض الهنود من ذوي التبعية البريطانية، فكانوا بين من قُتل وأُسر.

في تلك الأثناء، كان بيلي قد سافر إلى بومباي لعرض تقرير عن رحلته إلى الرياض على رؤسائه، فاقترح أن يُسمح لثويني بمحاصرة الأحساء، أو أن تقوم حكومة الهند بالاحتجاج على فيصل بشكل مباشر، أو عن طريق الحكومة العثمانية، وذلك لأن فيصلاً يحقد على حاكم مسقط!

عاد بيلي في شهر اكتوبر ١٨٦٥ إلى مقره في بوشهر، وأرسل احتجاجاً إلى فيصل على مهاجمة أتباعه في «صور»، فرد الأخير بأنه أصدر تعليماته إلى وكيله في البريمي، تركي السديري، بإطلاق سراح ذوي التبعية البريطانية، وإعادة الأملاك المنهوبة منهم.

---

(١) ناصر الفرج، مصدر سابق، ص٢٣. وأيضاً الخليج العربي، ج١، ص٨٠.

لقد أيد الحاكم العام للهند بيلي، وأيد اقتراحه القاضي بمساعدة ثويني في حملة عسكرية على موانئ الأحساء والقطيف، وأبلغ الحاكم بيلي بأن التعليمات صدرت لرئيس البحرية في بومباي، بأن يرسل كل ما يمكنه من سفن للخليج بأسرع وقت، على أن تكون صلاحية استخدامها بالشكل الذي يراه بيلي مناسباً، شرط ألَّا يتم التدخل في العمليات البرية، التي هي مكلفة سياسيًا وبشريًا.

وبدأت الاستعدادات لمهاجمة القطيف والعقير بشكل حماسيّ حيما زار بيلي مسقط في أوائل ديسمبر ١٨٦٥، وهناك أبلغ الأخير ثويني، بأن حاكم البحرين عرض عليه التعاون، فرتّب بيلي الأمر على أساس أن يقوم «تركي»، أخ ثويني، بالتحرك على رأس الأسطول للقطيف، على أن يجهز ثويني حملة بريّة لمهاجمة الوهابيين في البريمي، ورافق بيلي الأسطول المتجه إلى البحرين.. ولكن حين وصل الأسطول إلى هناك، تراجع محمد بن خليفة، حاكم البحرين فقرر تركي وبيلي العودة إلى مسقط[1].

في هذه الأثناء «أواخر ديسمبر»، وصلت سفينة بريطانية لميناء صحار تحمل الكثير من البنادق، هذا ومازال المقيم بيلي مصرًّا على مهاجمة القطيف، وزار السفينة في السادس من يناير ١٨٦٦، وطلب من قائدها باسلي «PASLEY» بأن يحمل رسالة إلى فيصل يهدّده فيها بقصف القطيف ومرفأ الدمام الصغير، إذا لم يدفع أربعين ألف ريال تعويضاً عن المنهوبات، وطالبه بأن يتعهّد بعدم القيام بمهاجمة الأراضي العمانية «كانت سهام قد هوجمت للتوّ على يد الوهابيين»، وأن يقدم اعتذاراً مكتوباً.. وحدد بيلي مهلة تنتهي في الثاني من فبراير ١٨٨٦ [2].

وصل نبأ وفاة فيصل بن تركي إلى بيلي في الثامن من يناير ١٨٦٦، ومع هذا أصر على الهجوم، وفي الثالث عشر منه، وصل باسلي إلى البحرين، وأرسل الرسالة إلى الأمير، مع قارب محلّي إلى القطيف وعاد إلى أبو ظبي.. وفي الثامن والعشرين من يناير واصل باسلي مهمته، فأبحر إلى القطيف ثانية، وقد وصلها بعد يومين، فلم يجد جواباً على رسالة بيلي، وقد أخبره حاكم القطيف بأن عليه الانتظار ١٢ يوماً حتى يحصل على جواب،

---

(١) العابد، مصدر سابق، ج٢، ص٤٦ – ٤٧.

(٢) الحدود الشرقية للجزيرة العربية، جي. بي. كيلي. تعريب خيري حماد، ص١٢٩. وانظر: العابد، ج٢، ص٤٨.

ولكنه رفض الانتظار[1].

وفي الموعد المحدد، وبعد أن تأخر الجواب، توجهت السفينة الحربية هاي فلاير «HIGH GLIER» نحو القطيف بقيادة الكابتن باسلي، وأطلقت نيرانها على قلعة صغيرة ودمرتها، ثم تحركت مجموعة من القوارب بقيادة الملازم «فيلوز» باتجاه الساحل، ودخلت ميناء القطيف في الثاني من فبراير ١٨٦٦، ودمرت الحصن الصغير المعروف باسم «برج أبو الليف» كما دمرت سفينة محلية كانت راسية في الميناء -كما يقول لوريمر- إضافة إلى عدد من القوارب الصغيرة وسفن صيد اللؤلؤ. ثم تحركت السفينة في اليوم التالي ٣/ ٢/ ١٨٦٦ باتجاه الجنوب الشرقي نحو مرفأ الدمام الصغير، وحاول البريطانيون إنزال قواتهم هناك، فووجهوا بمعارضة طفيفة.. ولما لم يكن أمر الإنزال جاداً، فقد اكتفت «هاي فلاير» بقصف المرفأ الذي تمّ بقيادة الملازم يونج[2].

لم يكن بإمكان السعوديين الرد بسرعة على تهديدات بيلي وإنذاراته؛ لأنّ فيصل بن تركي كان قد توفي للتوّ في أواخر ديسمبر ١٨٦٥، وكان الحاكم الجديد، ابنه عبدالله، مشغولاً بتسلّم كرسي الحكم.. ولم يكن بيلي من جهته، يريد أن يمرّ الحادث دون رد فعل وحفظ ماء الوجه، فضلاً عن أن المواصلات لم تكن مهيّأة، وإلّا فإن عبدالله الفيصل كتب رداً بتاريخ ٢٧/ ١/ ١٨٦٦، وسلمه إلى مبعوثه ليذهب به إلى بوشهر ويقابل المقيم البريطاني هناك.. وكان مستحيلاً أن يصل المبعوث خلال خمسة أيام، بل إنه احتاج إلى أكثر من شهرين ونصف!!

شعر الحاكم السعودي الجديد أنه لا يستطيع مواجهة القوة البريطانية، فأرسل إلى والي بغداد، نامق باشا، وفداً يعرض بالنيابة عنه خضوعه للباب العالي، ويدعوه للتنسيق ضد العدوان المتكرر على ساحل الأحساء، والعمل على حماية الشاطئ من أية عمليات عسكرية أخرى.. وبالفعل توقفت الهجمات البريطانية بعد هذه الاتصالات.

قام نامق باشا بتقديم احتجاج إلى القنصلية البريطانية في بغداد على أفعال بيلي،

(١) العابد، ج٢، ص٤٨.

(٢) انظر: فصول من تاريخ العربية السعودية، اليكسي فاسيلييف، لندن ١٩٨٨، ص١٨٧. وأيضاً: ناصر الفرج، مصدر سابق، ص١٤. وكيلي، مصدر سابق، ص١٢٩. والدكتور محمد عرابي نخلة، تاريخ الأحساء السياسي، الكويت ١٩٨٠، ص١٣٥. والدولة السعودية الثانية (١٢٥٦ - ١٣٠٩هـ) للدكتور عبد الفتاح أبو عليّه، ص٢٠٢.

وذلك في مارس ١٨٦٦، ولكن الإنجليز رفضوا الاحتجاج وأبلغوا العثمانيين بأن نجداً ليست مقاطعة تركية، ورفضوا التسلم بأن أمراء نجد يعترفون بسيادة العثمانيين عليها. وقد أصرت حكومة الهند بأن حكم السعوديين متوارث، ولا توجد سلطة عثمانية حقيقية عليها، رغم الإيمان بأن السعوديين يدفعون مبلغاً سنويًا لحكومة الخلافة[1].

هذا الجواب البريطاني صحيح، وقد سبق لهم أن أسمعوه للأتراك عندما احتجوا على ضرب الأسطول البريطاني لمرفأ الدمام عام ١٨٥٩، في عهد فيصل بن تركي.. وهذا ما دعا نامق إلى طرح موضوع السيادة المباشرة للدولة العليّة على الأحساء لحمايتها، وقد رفض الوفد السعودي الذي أرسله الأمير عبدالله الفيصل ذلك، وانتهى الأمر إلى فرقة بين الطرفين.. إذ تمسك كل من نامق باشا وعبدالله بحقه في إدارة أمور الأحساء.. وكانت هذه النتيجة أحد الدوافع التي جعلت الحاكم السعودي يسارع لاسترضاء البريطانيين بإرسال «المانع» إلى بوشهر لمقابلة بيلي، وتقديم تعهد سعودي بعدم التعرض لإمارات الساحل الخاضعة للنفوذ والسيطرة البريطانية[2].

كان من أول الأعمال التي قام بها الحاكم السعودي الجديد «عبدالله الفيصل» هو إرسال مندوب عنه يُدعى محمد بن إبراهيم بن مانع، إلى بوشهر والتي وصل إليها وقابل بيلي في الحادي والعشرين من أبريل ١٨٦٦، وسلمه رسالة الأمير السعودي.. وهناك تعهد المندوب السعودي نيابة عن الحاكم في الرياض بالتالي:

«أقرُّ أنا محمد بن عبدالله بن مانع، بالنقاط التالية وأؤكدها:

١- خولني الإمام عبدالله بن فيصل، أن أطلب إلى الصاحب المقيم في الخليج ليكون وسيط الصداقة بين الأمير عبدالله بن فيصل والحكومة البريطانية.

٢- أؤكّد للمقيم في الخليج نيابة عن الإمام عبدالله بن فيصل، أن الإمام لن يلحق الأذى أو الضرر بالرعايا البريطانيين المقيمين في الأراضي الواقعة تحت سيطرة عبدالله بن فيصل.

٣- أؤكد للمقيم في الخليج نيابة عن الإمام عبدالله بن فيصل، أن الإمام لن يهاجم

(١) جمال زكريا قاسم، ج١، ص١٧٣.
(٢) تاريخ العراق الحديث، عبد العزيز سليمان نوار، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٨، ص٤٠٢.

أو يلحق الأذى بأراضي القبائل المتحالفة مع الحكومة البريطانية، ولا سيما تلك المقيمة في مملكة مسقط، وذلك باستثناء تلقي الزكاة المألوفة منذ أمد بعيد.

كتبت هذا بيدي في بوشهر، يوم السبت الخامس من ذي الحجة سنة ١٢٨٠هـ.

محمد بن عبدالله بن مانع»[1].

أبرق بيلي لحكومته مُطلعاً إياها على التعهد السعودي فوافقت عليه، وخوّلته تسوية الأمور بين مسقط والرياض -كما طلب الحاكم السعودي- شرط ألّا تُوقع اتفاقية إلّا بعد عرضها على الحكومة البريطانية.. وقد أطلع بيلي المبعوث الوهابي على ردّ حكومته في الأول من مايو ١٨٦٦ [2].

الحرب الأهلية السعودية

كانت الحرب الأهلية بين سعود الفيصل وأخيه عبدالله، مقدمة للاستيلاء التركي على الأحساء، ولزيادة التدخل البريطاني لبسط النفوذ على ما تبقى من الشريط الساحلي الممتد من الكويت وحتى عمان، ونعني به شريط الأحساء الساحلي.

كان يمكن أن نعد الحرب بين الأخوين حرباً عائلية صرفة، لولا أن القوى الشعبية من قبائل ومدن ومناطق شاركت فيها بكل ثقلها في بداية الأمر فأخرجها ذلك عن كونها حرباً عائلية؛ لأن السكان سواءً كانوا في الأحساء أو في نجد، كانوا «حطب» الصراع الذي أحرقته منافسات الأخوين لتسنم العرش.

وما يخصنا في هذا الموضوع بالتحديد، أن الأحساء كانت إحدى أهم بؤر الحرب والصراع، ولاقت من الأذى أكثر من أي منطقة أخرى، وكان التقاتل للحصول عليها والاستئثار بخيراتها قد تعدى حدود طرفي النزاع، ونقصد بهما ابني فيصل بن تركي.. إلى أطراف دولية كالعثمانيين والإنجليز.. من هنا كانت أهمية التعرض لموضوع الحرب ومؤثراته الاقتصادية والسياسية، ونتائجه التي رسمتها سنين الحرب العجاف.

(١) جي. بي. كيلي، مصدر سابق، ص١٣٠. وانظر: أيضاً الدكتور محمد عرابي نخلة، مصدر سابق، ص١٣٦. والدولة السعودية الثانية، مصدر سابق، ص٢٠٢. وناصر الفرج، مصدر سابق، ص٢٤ – ٢٥.
(٢) العابد، مصدر سابق، ج٢، ص٥٠.

فبعد سنة واحدة فقط من حكم عبدالله الفيصل، ثار عليه أخوه سعود، طالباً الزعامة، فخرج من الرياض إلى أمراء آل عائض في نواحي عسير طالباً النصرة.. فكتب عبدالله كتابين أحدهما لابن عائض يحذره من مساعدته، والآخر إلى أخيه سعود يمنّيه ويغريه بالعودة إلى الرياض «ليعطيه ما يرغب فيه من المخصصات»[1]. ولكن سعوداً أبى وجمع قوة من بدو نجران وأبها، ووفد عليه رؤساء قبيلة العجمان الكارهين لعبدالله بسبب المجازر التي ألحقها بهم في وقعتي «ملح» و«الطبعة»، ووفد عليه آل مرة برئاسة فيصل المرضف، ودعمه أمير السليل من الدواسر، وأعانه أيضاً بدو من آل شامر، وعطف عليه أمير نجران بولديه، وسار الأمير سعود متّجهاً بالجموع إلى نجد فواجهته قوات عبدالله بقيادة أخيه محمد، والتقى الجمعان في مكان يدعى «المعتلى»، وهناك أُلحقت بسعود هزيمة ساحقة، وأُصيب بعدة جروح، وقتل من جنده الكثيرون منهم ابنا أمير نجران.. ففر سعود مع بقية جنده من العجمان وآل مرّة إلى جهة الأحساء، وهناك بقي مع آل مرّة إلى أن برئت جراحه بعد أن أمضى وقتاً في البادية، ثم توجه إلى البريمي في ضيافة تركي بن أحمد السديري الذي مال إليه ضد عبدالله»[2].

هنا بدأت عملية الحرب الأهلية تأخذ طابعها الواضح والصريح:

أولاً: فقد انشق البيت السعودي على نفسه، حيث تحالف عبد الرحمن الفيصل مع أخيه سعود، في حين تحالف محمد الفيصل مع أخيه عبدالله.. وانقسمت الأسرة بين مؤيد لهذا الطرف أو ذاك.

ثانياً: ثم انقسم الولاة في المناطق، سواء من الأسرة السعودية أو من خارجها، فالأحساء وتوابعها كالبريمي، والتي يحكمها السديريون، انضمت إلى سعود الفيصل، وكذلك انضم بعض رؤساء الجنوب.. في حين بقيت نجد في أغلبها -عدا القصيم- مع عبدالله، خاصة حائل.

---

(١) تحفة المستفيد تباريخ الأحساء في القديم والجديد، محمد بن عبدالله آل عبد القادر، ط٢، ١٩٨٢، ص١٦٧.

(٢) المصدر السابق، ١٦٧.

وانظر أيضاً، الدولة السعودية الثانية، ص١٦٠ - ١٦١.

وأيضاً، خير الدين الزركلي، شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز- ط٣، بيروت، ص٤٧.

وصراع الأجنحة في العائلة السعودية المالكة، فهد القحطاني، ط١- لندن ١٩٨٨، ص١٦.

ثالثاً: وانقسمت القبائل في الولاء أيضاً، فالعجمان دعموا سعوداً، في موطنهم الأحساء، وكان من دواعي دعمهم له، أن أم سعود الفيصل عجمانية، وكذلك إحدى زوجاته، وأن عبدالله قاتلهم وعاملهم بقسوة في عهد أبيه فيصل بن تركي.. كما انضم الدواسر وآل مرة إلى سعود، في حين انضمت قحطان إلى عبدالله[1].

رابعاً: وسارع سعود لعقد حلف مع الإنجليز وأمراء البحرين وعمان من ورائهم، كما سارع الإنجليز لنصرته من أجل الأحساء، فلم يكن أمام عبدالله إلا الالتجاء للدولة العثمانية وواليها في بغداد.

خامساً: وانشق رجال الدين الوهابيون فيما بعد، بعضهم أيّد طلب عبدالله العون من دولة الخلافة، وبعضهم وصفه بالإلحاد!

سادساً: والأطرف من ذلك كله، أن المؤرخين السعوديين انقسموا فيما بينهم، بين مؤيّد لعبدالله الفيصل، الحاكم الشرعي بزعمهم، ضد «الخارج» سعود «حليف الإنجليز».. وبين معارض لعبد الله الذي اعتبره الملك عبد العزيز أنه أحمق لأنه تحالف مع الأتراك.

وفوق هذا كان هناك تباين في شخصية الأخوين.. يقول بلجريف: إن عبدالله الفيصل كان صارماً قاسياً، الأمر الذي يورق لسكان المدن المحافظين.. أما سعود، فكان صريحاً سخيًّا يحب الفخفخة، الأمر الذي يروق للبدو[2]. ويقول آخر: إن عبدالله كان متعصباً في أمور الدين، بعكس سعود، الذي كان يميل إلى التسامح والاعتدال، وإن عبدالله أسند الإدارة في المقاطعات إلى ولاة قساة[3].

ووصف مؤرخ سعودي الأخوين قائلاً بأن: «عبدالله يوصف بالكرم والتقى، مع تشدد في أمور الدين» وأما سعود فهو «أميل إلى التسامح في أمور الدين من عبدالله» ولم يفته القول بأنهما كانا «متنافسين من أيام أبيهما، معروفاً ذلك عنهما»[4].

---

(١) فاسيلييف، مصدر سابق، ص١٨٥.
(٢) المصدر السابق، ص١٨٥.
(٣) الدولة السعودية الثانية، ص١٥٧ - ١٥٨.
(٤) الزركلي، مصدر سابق، ص٤٧. وانظر حول تباين الشخصيتين، تاريخ الأحساء السياسي، مصدر سابق، ص١٣٧ - ١٣٩.

ومهما يكن من أمر فقد أوضحت معركة «المعتلى» خارطة التحالفات في شبه الجزيرة العربية، وبيّنت فيما بعد خارطة مواقف القوى الدولية.. أما سعود الفيصل، فإنه ومن البريمي، وبتشجيع من أمراء عمان والبحرين والإنجليز «بدأ يخطط من أجل فصل المنطقة الشرقية -الأحساء- عن أخيه، لكي تفقد الرياض جزء حيوياً ومنفذاً هامًّا على الخليج، معتمداً هناك على مساعدة المقيم البريطاني في الخليج».. كما رأى سعود «أن يضرب مراكز المقاومة في قطر والمؤيدة لعبدالله، وكذلك الأحساء، القلعة السعودية في منطقة الشرق، والقطيف التي يرى فيهما مؤيدين له»[1].

موقف الإنجليز

منذ وفاة الأمير فيصل بن تركي، بدأ البريطانيون بالضغط العنيف على الساحل الأحسائي، من قاعدتهم بالبحرين «المستعمرة» والتي اعتبر السعوديون حكامها مخلب قط للإنجليز، وفي عام ١٨٧٠ تطورت الأمور إلى حد أن حاصرت سفن البحرين القطيف بدفع وتشجيع من المعتمد البريطاني هناك، بل إن نشاط شيخ أبو ظبي يومئذ وصل القطيف أيضاً.. ويومها هدد عبدالله الفيصل باحتلال البحرين، فأمرت السلطات البريطانية الشيخ عيسى آل خليفة برفع الحصار، وهكذا كان.

ولّما كان الغرض، هو السيطرة على ساحل الأحساء، وإبعاد عبدالله الفيصل الذي بدأ ينسق مواقفه مع الأتراك، فقد وجد الإنجليز طريقاً أفضل.. ففي ذلك الحين كان النزاع محتدماً بين الأخوين، وقد وجد سعود الفيصل في شيخ البحرين والإنجليز أقوى مؤيد لمشروعاته.. حيث تغاضى بيلي -المقيم البريطاني في بوشهر- عن مساعدات شيخ البحرين المقدمة لسعود «إذ كان من صميم قلبه يريد أن ينتصر سعو دعلى عبدالله.. وكان بيلي يردد دائماً في مكاتباته مع حكومته، بأن سعوداً خير للإنجليز من أخيه»[2].

وجرت اتصالات عديدة بين سعود وشيخ البحرين، ترتّب على أثرها انتقال الأول من البريمي «وقيل عمان» إلى البحرين ليتخذها قاعدة للانطلاق، وكان ذلك في سنة ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م، وهناك أكرم آل خليفة، والمعتمد البريطاني وفادته، ودعموه

(١) الدولة السعودية الثانية، ص١٦٠ - ١٦١.
(٢) عبد العزيز نوار، مصدر سابق، ص٤٧. وانظر: الدكتور محمد عرابي نخلة، مصدر سابق، ص١٤٠.

بشتى الإمكانات[1].. ولعل أبلغ وصف للمساعدة البريطانية في البحرين والتي تلقاها سعود، والتي مكنته فيما بعد من السيطرة على الأحساء، ما نقله أحد أتباعه.. من أن سعوداً كان يكرر دائماً «بأنه لن ينسى العطف الذي لقيه من المسؤولين البريطانيين أثناء إقامته في البحرين»[2].

والحقيقة، فإن سعوداً عمل على كسب الإنجليز وشيخ البحرين إلى صفه حتى ولو أدى ذلك إلى أن يضع الإنجليز أقدامهم على الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية.. فقد جاء في كتاب موجه من سعود إلى الشيخ عيسى أنه في حاجة لمساعدته.. وأكد أن الساحل سيعتبر تحت الحماية الإنجليزية إذا ما قدم الإنجليز المساعدات له[3].

على أن الإنجليز لم يبخلوا بالمساعدة، فقد كان حصار القطيف يصب في صالح سعود؛ لأن ذلك قد أدّى إلى انقطاع المؤن والإمدادات عن عبدالله.. غير أنهم لم يكونوا على استعداد لأن يتسع النزاع بين الأخوين ليصل إلى البحرين، ولهذا أمر الإنجليز - بعد تهديد عبدالله بمهاجمة البحرين- الشيخ عيسى بأن يفك الحصار مبقياً على قنوات الدعم والتشجيع لسعود[4].

وفعلاً بدأ المذكور بالاتصال بالقبائل البدوية في الأحساء تمهيداً للاستيلاء عليها.. ووفد عليه العديد من رؤسائها وأفرادها ووعدهم بالغنائم.. ومن جملة من كاتبهم، راكان بن حثلين المشهور بالشجاعة وزعيم قبيلة العجمان[5]، «ومنّاه سعود بحكم المنطقة الشرقية -الأحساء والقطيف-»[6].

كان واضحاً لدى الجميع أن سعود الفيصل يتلقى الدعم من الإنجليز، ويبدو أن ذلك لم يشكّل أية معضلة له في تحالفاته مع القبائل أو مع الحضر.. وقد اعتبر عبدالله

---

(١) الزركلي، مصدر سابق، ص٤٧.

(٢) محمد عرابي نخلة، مصدر سابق، ص١٤٣.

(٣) عبد العزيز نوار، مصدر سابق، ص٤٠٩.

(٤) محمد عرابي نخلة، مصدر سابق، ص١٤١.

(٥) العجمان ينتسبون إلى مذكر بن يام من همذان، هاجروا من نجران إلى جهات الأحساء حديثاً سنة ١٢٦٠هـ أيام حكم فيصل بن تركي، ويمتازون بالشجاعة والجرأة حتى لقد لُقبوا بألمان العرب.. انظر صفحات من تاريخ الأحساء، عبدالله أحمد شباط، الدار الوطنية ١٩٨٩، ص٩٧.

(٦) الدولة السعودية الثانية، ص١٦١ - ١٦٢.

أخاه «مخلب قط للبحرين التي تقف وراءها الدولة البريطانية»، في حين كان الشائع في الدوائر العثمانية في بغداد «أن سعوداً ما هو إلا عميل للقنصل البريطاني»، ولهذا رأى مدحت باشا، والي بغداد، أن تولّي سعود لنجد «مضيعة لهذه البلاد وإلقاء بها في يد الأجانب»[1].

وكتب عبدالله الفيصل لوالي مصر، الخديوي إسماعيل، مُعرضاً باتصالات أخيه بالإنجليز، فقال: «وقبل هذا بمدة، وصل إلى طرفنا بنجد بيلي، قنصلوص الإنجليز بخليج بحر فارس ومعه هدية، وقد فهمنا موجب قدومه أن مرامه أن نعطيه مركز في ساحل البحر إما البحرين أو الدمام أو بعض القطع غيرها، وقد تعذرناه ورجعنا هديته عليه، حيث إن هذه الاماكن التي في يدنا من الممالك المحروسة الراجعة إلى خليفة رسول الله السلطان نصره الرحمن، وقد رجع منّا مأيوس مكدّر لعدم جر إيجاب مطلوبه».

وأضاف عبدالله: «وكان أخينا سعود ولد سفيه وجاهل، واستجلبه القنصلوص الموماً إليه فأفسده وأغراه بتحريكات المفاسد، وأمدّه بما يقتضي له من الذخيرة والمهمّات، وجمع له حربية من الأشقياء، ولازلنا نردعه ونكسر شوكته، والقنصلوص الموماً إليه كلما دمرناه عمّره بالذخيرة والنقود بواسطة أهل البحرين...»[2].

وحدث أثناء تواجد سعود في البحرين، أن أرسل أخوه عبدالله سرية لقتال قواه التي يقودها ابن عمه «محمد بن عبدالله بن ثنيان» ووقعت معركة قرب قطر، هزمت فيها قوات سعود، وقتل فيها قائده، إلا أن ذلك لم يفتّ في عضده، بل واصل مشروعه الأساسي، وهو الانطلاق من البحرين لاحتلال الأحساء؛ لأن القطيف كانت شبه خاضعة له بعد أن تحالف معه زعيم الشيعة الشيخ أحمد مهدي بن نصر الله، كما سنرى.

وجاءت اللحظة الحاسمة، حينما انطلق سعود الفصيل بقواته من البحرين مستخدماً سفن شيخها، ومصطحباً معه عدداً من آل خليفة، منهم «أحمد بن الغتم» في عدّة رجال، وحطّ الجميع رحالهم على شاطئ العقير واستولوا عليه، وهناك انضم إليه -حسب الاتفاق- العجمان وآل مرّة، وتوجّه بهم نحو حاضرة الأحساء، فكان أول ما صادفهم قرية «الجفر» حيث يسكنها أخلاط من الشيعة والسنة، فدخلها سعود عنوة

(١) عبد العزيز نوار، مصدر سابق، ص٤١٢ - ٤١٣.
(٢) جمال زكريا قاسم، ج١.

وانتهبها الجند[1].

ثم قصدوا قرية «الطرف»[2]، فصالحهم أميرها وسلمت وأطاعت، فمشى جيش سعود إلى الهفوف، فما كان من أمير الأحساء إلا أن خرج لمواجهته ومعه جماعة قليلة من العجمان وآل مرة، فيهم راكان بن حثلين، الذي أقسم للوالي على الوفاء والصدق، والتقى الجيشان في «الوجاج» بين الهفوف والقرى الشرقية، وحينها ظهرت الخيانة من رؤساء العجمان، «فعطفوا على أهل الهفوف يقتلون ويسلبون وانهزم الأمير ناصر بن جبر بالناس... ثم زحف سعود حتى وصل الأحساء وحاصرها أربعين يوماً، وأمعن العجمان في الإفساد في البلاد، بالنهب وقطع الثمار، فذهب أهل المبرز وصالحوا الأمير سعود ليتسلم بلادهم، حماية لهم من الفساد.. لكن العجمان استبدوا بالأمر لأن الشوكة لهم، وأذاقوا الناس عذاب الهون، وكانوا لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمّة» كما يقول صاحب التحفة[3].

وقد أخذ سعود من الأهالي الكثير من الأموال التي فرضها عليهم، واستولى على بيت المال، ووزع المنهوبات على جنده، وأطلق العنان لقواته أن تعبث بالزرع والنخيل التي يملك معظمها الشيعة العاملون بالفلاحة، وما كان أحد يستطيع أن يشكو أو يتذمر.. واستمر الأهالي قابعين في منازلهم خوف البطش، وأهملوا زراعاتهم التي هي رأس مالهم الأول؛ لأن عاقبة الذهاب إلى بساتين النخيل قد تكلّف الإنسان حياته.. خاصة وأن البدو التابعين للأمير سعود قد خيّموا في النخيل، وتركوا دوابهم ترعى في الحقول وتفسد الزرع.

وقد قُتل مجموعة من المزارعين الساكنين في نخيلهم، وفتك جنود سعود بآخرين في الشوارع والطرقات، بل إن كثيراً من البيوت والقرى انتهبت.. هذا ولا زالت الهفوف محاصرة، فأرسل عبدالله الفيصل جيشاً لحرب أخيه، واستخلاص الأحساء، ووضع على الجند محمد الفيصل.. فلمّا علم سعود بذلك فكّ الحصار عن الهفوف، وانطلق نحو

---

(١) آل عبد القادر، مصدر سابق، ص١٦٨.

(٢) قال الأستاذ حمد الجاسر، أنها سميت بـ«الطرف» لوقوعها في طرف واحة الأحساء من الناحية الجنوبية، ويسكنها إضافة إلى الشيعة عدد من السنة. انظر معجم المنطقة الشرقية حمد الجاسر، ج٣، ص١٠٢٥.

(٣) آل عبد القادر، ص١٦٨ – ١٦٩، وانظر الدولة السعودية الثانية، ص٦٢.

بئر «جودة» حيث التقى بأخيه محمد الفيصل، وذلك في السابع والعشرين من رمضان ١٢٧٨هـ، الموافق للأول من ديسمبر ١٨٧٠، وهزمه شرّ هزيمة، وأسره ثم بعث به فيما بعد إلى سجن القطيف ووضعه تحت المراقبة.

وقيل: إن عد القتلى في المعركة بلغ ٢٠٠٠ رجل، أكثرهم من نجد، فكانت ضربة قاصمة لم تقم لعبد الله بعدها قائمة، وأدت هزيمته في «جودة» إلى امتعاض وحنق النجديين، خاصة وأن الهزيمة تمت قبل العيد بأيام معدودة[١].

وترتب على نتائج المعركة أن سقطت الهفوف واستسلمت، فقد كتب سعود بعد انتصاره في «جودة» إلى رؤساء الأحساء يأمرهم بالقدوم إليه ومبايعته، ثم دخل الهفوف وسلب أموالاً كثيرة من أهلها، وفرّقها على حلفائه من العجمان والجند الذين كانوا معه[٢].

ومهما يكن من أمر، فقد قام البريطانيون، عن طريق شيخ البحرين وحاكم مسقط، بدور بالغ الأثر في الصراع الذي دار بين أقطاب الحكم السعودي.. والهدف من ذلك كان تدعيم سيطرة سعود الفيصل على الأحساء -بدرجة أساس- ليتاح لهم في مرحلة متقدمة تنفيذ السيطرة المباشرة عليها، خدمة لأهداف الإمبراطورية البريطانية، والتي كان من رأيها -كما كان رأي بيلي- أن انتصار سعود سيؤدي إلى استقرار الأمور في الخليج لصالحها[٣].

موقف مشايخ الوهابية من الصراع

وقف المشايخ حينما نشب الصراع بين الأخوين، مع عبدالله الفيصل، باعتباره إماماً شرعيًّا، ونصحوا سعوداً بعدم إثارة الفتنة، كما كاتبوا شيوخ نجران في بداية الأمر، بعدم دعمه وتحريضه.. لكن حينما هُزم عبدالله في «جودة» وولّى هارباً، نصحه آل الشيخ -زعماء المذهب الوهابي- بعدم الاستعانة بالدولة «الخاسرة» وهي دولة الخلافة العثمانية، وذلك حينما رأوا بوادر تحرك إمامهم بهذا الاتجاه.. ولكن هؤلاء المشايخ خضعوا فيما بعد

---

(١) محمد عرابي نخلة، مصدر سابق، ص١٤٢، وانظر: الزركلي، مصدر سابق، ص٤٨، وأيضاً: الدولة السعودية الثانية، ص١٦٢.

(٢) الخليج العربي، ج١، ص١١٩، ١٧٨، ١٧٩. وانظر: آل عبد القادر، مصدر سابق، ص١٧٠.

(٣) عبد العزيز نوار، مصدر سابق، ص٤١٠.

لإمامة المتصر سعود، رغم نعتهم إيّاه بالفجور والفسق، واعتبروا إمامته شرعية، مادام وصل إلى الحكم عن طريق القوة أو غيرها.

وأوضح هذا الموقف زعيم المذهب الوهابي يومئذ، الشيخ عبد اللطيف بن الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب[1]، في رسالة أوضح فيها موقفه لأنصاره، جاء فيها:

«... القصد بيان ما أشكل على الخواص المنتسبين من طريقتي في هذه الفتنة العمياء الصماء. فأول ذلك مفارقة سعود لجماعة المسلمين وخروجه على أخيه، وقد صدر منّا الردّ عليه وتسفيه رأيه، ونصيحة ولد عايض وأمثاله من الرؤساء عن متابعته والإصغاء إليه ونصرته، وذكّرناه ما ورد من الآيات القرآنية والآثار النبوية، بتحريم ما فعل والتغليظ على من نصره، ولم نزل على ذلك إلى أن حصلت وقعة جودة، فثُلّ عرش الولاية، وانتثر نظامها وحبس محمد بن فيصل، وخرج الإمام عبدالله شارداً، وفارقه أقاربه وأنصاره. وعند وداعه أوصيته بالاعتصام بالله وطلب النصر منه وحده، وعدم الركون إلى الدولة الخاسرة -يعني الدولة العثمانية-[2]».

لم يأمل عبدالله الفيصل بالبقاء في حكم الرياض بعد سقوط الأحساء؛ لأن الأخيرة تعتبر قلب نجد الاقتصادي والتجاري والمالي، وبسيطرة سعود عليها، تم خنق نجد اقتصاديًّا.. وقد توافق في ذلك العام أن أجدبت الأرض بسبب قلة المياه، وجاء سعود ليغلق على سكان نجد اتصالهم بساحل الخليج، وليمنعهم من خيرات الأحساء، ما فاقم النقمة على الحاكم عبدالله، ثم إن النجديين الذين فقدوا الكثير من رجالهم -والدماء لّما

(١) ولد الشيخ عبد اللطيف عام ١٢٢٥هـ وتوفي عام ١٢٩٣هـ بعثه فيصل بن تركي، الحاكم السعودي، إلى الأحساء لنشر الدعوة الوهابية، لإقناع علماء السنة في الأحساء باعتناقها، وذلك عام ١٢٦٤هـ حيث بقي هناك مدة عامين. وعبد اللطيف وأبوه عبد الرحمن أحييا الدعوة الوهابية بعد خمودها نتيجة حملة محمد علي باشا، وقد سوغا من الناحية العملية حكم فيصل بن تركي، وقبله تركي بن عبدالله، بالشرعية اللازمة.

انظر مشاهير علماء نجد وغيرهم، لمؤلفه عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ، دار اليمامة للبحث والترجمة، الرياض، ط١، ١٩٧٢، ص٧١ - ٧٢.

(٢) عبد الرحمن آل الشيخ، مصدر سابق، ص٨١ - ٨٢، والرسالة موجهة إلى زيد بن محمد وصالح بن محمد الشثري، ويبدو أنهما كانا من النجديين القاطنين يومئذ في الأحساء.. والواضح أن الرسالة كتبت بعد سيطرة دولة الخلافة على الأحساء، وبعد ضياع الحكم السعودي، لهذا ترى أن الرسالة متحررة من القيود التي تفرضها الاستقطابات والمحاور. نص الرسالة من ص٨١ إلى ص٨٧.

تجف بعد- أصبحوا بالغي السخط عليه، وبالتالي لم يأمل بأي دعم منهم، في أية حملة قادمة.

وهكذا بادر عبدالله فور سماعه أخبار الهزيمة، بالخروج من الرياض، بعد أن أخذ ماله الوفير وعياله وحريمه وخدّامه، وتوجه بهم إلى حائل حيث حاكمها محمد بن عبدالله بن علي الرشيد.. والمعلوم أن عبدالله الفيصل تزوج لطيفة بنت عبيد الرشيد إلى أن مات، فتزوجت أخاه محمد الفيصل بعده، ولكنه مات سريعاً أيضاً.. على أن ابن الرشيد لم يقدّم لعبدالله دعماً يُذكر منتهزاً هو الآخر الفرصة للسيطرة على كامل نجد.

لم يُغامر سعود الفيصل بغزو نجد واحتلال الرياض قبل أن يدعم مواقعه في الأحساء، رغم أن الرياض كانت خالية من حاكمها، ولكنه لم يتأخر أيضاً.. ففي ذي القعدة ١٢٨٧هـ عاد عبدالله الفيصل إلى الرياض بعد أن تحالف مع القحطانيين بزعامة محمد بن هادي بن قرملة[١]، وفي محرم ١٢٨٨هـ تجهّز سعود من الأحساء وخرج إلى الرياض تاركاً أمرها بيد واليه الجديد فرحان بن خيرالله.

وفي موقع يقال له «الجزعة» التقى سعود بسرية لأخيه فأفناها، وغنم جميع ما عندها من المال والسلاح، وتقدّم باتجاه الرياض، ففرّ منها عبدالله ومحمد بن قرملة والتجأ إلى قبائل قحطان في الجنوب، ودخل سعود المدينة دون قتال، فأعمل فيها النهب والسلب لموقفها العدائي منه.. وجاءه زعماؤها يعلنون ولاءهم التقليدي[٢].

ويصور لنا الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ، الوضع في الرياض قبل سيطرة سعود عليها، قائلاً: «ثم قدم علينا سعود بمن معه من العجمان والدواسر وأهل الفرع وأهل الحريق وأهل الأفلاج وأهل الوادي -الدواسر-، ونحن في قلّة وضعف، وليس في

(١) جاء محمد بن هادي بن قرملة إلى الأحساء في شوال ١٢٨٧هـ للتحالف مع سعود الفيصل، إلا أن الأخير لم يكرمه، وكان -كما يبدو- مستكفياً بقوة العجمان الذين علا شأنهم بعد احتلال الأحساء والسيطرة على القطيف.

وتجدر الإشارة إلى أن العجمان كانوا على خلاف مع محمد بن قرملة، أحد زعماء القحطانيين، ولعل سعوداً لم يستطع أن يحل الخلاف بين الطرفين ويضعهما تحت قيادته، ولهذا ضحّى بالقحطانيين مؤثراً العجمان المسيطرين على بادية الأحساء. وهكذا عاد محمد بن قرملة إلى نجد وتحالف مع عبدالله الفيصل الهارب من الرياض، وطلب إليه العودة إليها، ورجع معه في ذي القعدة سنة ١٢٨٧هـ.

(٢) آل عبد القادر، مصدر سابق، ص١٧٠. وانظر: الدولة السعودية الثانية، ص١٦٤. وأيضاً انظر: الزركلي، مصدر سابق، ص٤٨.

بلدنا من يبلغ الأربعين مقاتلاً، وخرجت إليه وبذلت جهدي... خشية استباحته البلدة، ومعه من الأشرار وفجّار القرى، من يحثّه على ذلك، ويتفوه بتكفير بعض رؤساء بلدتنا، وبعض الأعراب يطلقه بانتسابهم إلى عبدالله الفيصل»[1].

«فوقى الله شر تلك الفتنة.. ودخلها -سعود- بعد صلح وعقد، وما جرى من المظالم والنكث شيء دون ما كنّا نتوقعه.. وصارت له ولاية بالغلبة والقهر، تنفذ بها أحكامه، وتجب طاعته في المعروف.. وما قيل في تكفيره لم يثبت لدي».

تتالت المشاكل في واحة الأحساء إلى أن جاء الأتراك واستخلصوها من سعود، ثم ما لبث أن قدم عبدالله إلى الأحساء، وهناك وجد أن الرأي العام المحلي ناقم على السعوديين، وبرزت بوادر ضغط على الأتراك بعدم تسليم البلاد لعبدالله، فما كان من الأخير إلا أن هرب منها مع أخيه محمد الفيصل، الذي أطلق العثمانيون سراحه من سجن القطيف.

في هذه المرحلة استطاع عبدالله العودة إلى الرياض، بعد أن اصطفاها له أعوانه، فدعمه آل الشيخ -والمؤسسة الدينية بقوة- على أن يُظهر «التوبة والاستغفار» من استقدامه للأتراك باعتبارهم مشركين لا يجوز الاستعانة بهم على المسلمين، «ومنهم أخوه سعود الذي استعان بالإنجليز». وتمّت السيطرة لعبد الله على الرياض، فيما سيطر الأتراك على الأحساء، وبقي سعود في البادية بين نجد والأحساء ومعه فلول آل مرّة والعجمان، ولكنه في النهاية عاد وسيطر على الرياض بعد محاولات فاشلة في احتلال

---

(١) علّق مؤلف كتاب مشاهير علماء نجد على مسألة تكفير أتباع سعود لأخيه عبدالله وأتباعه، بأن السبب هو استنصار الأخير «بالدولة العثمانية، فاستغل أعداؤه الموالون لأخيه سعود هذه الغلطة والزلّة فكفّروه بها وكفّروا أنصاره.. وذلك كله أغراض سياسية، فالإمام عبدالله معرف تمسكّه بشرائع الدين، وقد جوّز له هذه الاستعانة وأفتاه بها رجل من علماء وقته، ردّ عليه الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ في عدّة رسائل. انظر: مشاهير علماء نجد، ص٨٣.

ويبدو أن الاستعانة بالإنجليز لدى الوهاب أخف بكثير من الاستعانة بدولة الخلافة، فكما أن استعانة عبدالله بالأخيرة شائعة، فكذلك معونة الإنجليز لسعود شائعة أيضاً، ولكننا لا نجد أحداً أنتقد سعوداً في ذلك، بل والغريب أن سعوداً وأتباعه استغلوا كره النجديين لدولة الخلافة «الملحدة بنظرهم» فأثاروهم على عبدالله، في حين لم يقم الفريق الآخر بالشيء ذاته بالنسبة لسعود والإنجليز؛ لأن الحساسية ضد الأخيرين قليلة أو معدومة.

وهنا نجد من يردّ على المشايخ الذين أجازوا لعبدالله شرعيًا الاستنصار بدولة الخلافة، ولا تجد في المقابل أي صوت يعارض استنصار سعود بالبريطانيين.

الأحساء.

وهنا وقف آل الشيخ الموقف الأول نفسه: وهو القبول بحكم سعود، طالما أن له الغلبة والقهر، وقبل هذا طلب المشايخ الأمان لأهالي الرياض، وعدم استباحة بلدتهم.. «وأما عبدالله الفيصل، فقد نصحت له كما تقدّم أشد النصح، وبعد مجيئه -لما أخرج شيعة عبدالله سعوداً، وقدم إلى الأحساء- ذاكرته في النصيحة، والتباعد عن أعدائه وأعداء دينه، أهل التعطيل والشرك والكفر البواح -أي العثمانيين- وأظهر التوبة والندم، واضمحل أمر سعود، وصار مع شرذمة من البادية حول آل مرّة والعجمان، وصار لعبد الله غلبة ثبتت بها ولايته.. ثم ابتلينا بسعود، وقدم علينا مرة ثانية، وجرى -ما بلغكم- من الهزيمة على عبدالله وجنده، ومرّ بالبلدة منهزماً لا يلوي على أحد، وخشيت من البادية، وعجّلت إلى سعود كتاباً في طلب الأمان لأهل البلدة، وكفّ البادية عنهم... فدخل سعود البلدة واتّجه عبدالله إلى الشمال، وصارت الغلبة لسعود...»[1].

مضت فترة غير طويلة وأصاب المرض سعوداً ومات، فخلفه أبناؤه في الصراع، ودخل عبد الرحمن الفيصل بقوة في المعمعة، مع بقية أخوته حتى سيطر على الرياض وحكمها مدة ليست طويلة، هذا والصراع قائم على أشدّه، وعبدالله يتحفّز ويجمع البوادي للعودة، فكان أن أقنع الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ، الأمير عبد الرحمن الفيصل بالتنازل لأخيه عبدالله، فجاء الأخير ومعه البوادي، فأظهر العبوس، وكان البوادي يستأذنونه في نهب النخيل، إلا أنه فيما بعد أظهر اللين «وتحقّق عندي دعواه التوبة، وأظهر لدي الاستغفار والندم، وبايعته على كتاب الله وسنة رسوله».. كما يقول زعيم الوهابيين يومئذ.

ويشرح مؤلف «مشاهير علماء نجد»: «وقوله: أظهر الاستغفار والندم، يريد بذلك الإمام عبدالله الفيصل، وسبب استغفاره وندمه وتوبته أن استعان بالدولة العثمانية على قتال أخيه سعود، وهذا لا يجوز؛ لأنه حرام في الشرع الاستعانة بالمشرك على قتال المسلم، ومعلوم أن الدولة العثمانية كانت وثنية تدين بالشرك والبدع»[2].

هذا مع العلم أن سعوداً كان متواطئاً مع الإنجليز، ولكنه لم ينل معشار ما نال

(١) رسالة عبد اللطيف آل الشيخ السابقة، مشاهير علماء نجد، ص٨٤.
(٢) المصدر السابق، ص٨٤.

عبدالله على فعلته؛ لأن الدولة العثمانية أشد كفراً -عند علماء الوهابية- من الإنجليز، وقد سُجلت الملاحظة ذاتها حينما انحاز الوهابيون إلى صف البريطانيين في الحرب العالمية الأولى ضد دولة الخلافة.

واعتبر الملك عبدالعزيز ما فعله عمه حماقة.. قال لشكسبير -المعتمد السياسي البريطاني في الكويت- في لقاء معه عام ١٩١١، أي قبل احتلال الأحساء وتخليصها من الأتراك، إن عمه عبدالله «رغم أنه حافظ في بادئ الأمر على علاقات الصداقة السابقة مع الحكومة البريطانية، فإنه بلغ به الحمق حدًّا دفعه إلى القيام بمبادرات لإقامة علاقات مع الأتراك»[١].. وعلّق الزركلي على طلب عبدالله النصرة من الأتراك بقوله: «ويالها من زلّة»[٢].

غريب حقًّا أن يثير تعامل عبدالله الفيصل مع الأتراك زوبعة بين الوهابيين، في حين لا يثير تعامل سعود الفيصل وأخيه عبد الرحمن وابن الأخير «الملك عبد العزيز» مع الإنجليز أي اعتراض أو استياء، وهي ملاحظة مهمة جديرة بالالتفات، فقد علّق الدكتور صلاح العقاد على توقيع ابن سعود معاهدة الحماية مع الإنجليز زعام ١٩١٥ بالقول: «كيف يثير إعلان التبعية للعثمانيين ضجة عند الوهابيين في عهد عبدالله الفيصل في القرن التاسع عشر، بينما لا نكاد نسمع عن اعتراض واحد على معاهدة دارين التي وضعت الدولة السعودية في مصاف إمارات الخليج الواقعة تحت الحماية البريطانية؟»[٣].

وانعكس موقف الوهابيين النجديين تجاه الصراع على شعرهم، فهذا أحمد بن عيسى يطلق صرخته داعياً آل فيصل لنبذ الخلاف ومواجهة العدو، فيقول:

«متى ينجلي هذا الدجى والدياجرُ؟ متى ينتهض للحق منكم عساكرُ؟
.. فحتى متى هذا التواني عن العُلى كأنكم ممّن حوته المقابرُ»[٤].

---

(١) وثيقة رقم (E 20868) رسالة من المعتمد السياسي البريطاني في الكويت «الكابتن شكسبير» إلى الميجور بيرسي كوكس، المقيم البريطاني في بوشهر، مؤرخة في الثامن من أبريل ١٩١١.

(٢) الزركلي، مصدر سابق، ص٤٨.

(٣) التيارات السياسية في الخليج والجزيرة العربية، الدكتور صلاح العقاد، ص٢٢٤ - ٢٢٥.

(٤) الشعر في الجزيرة العربية، نجد والحجاز والأحساء والقطيف، خلال قرنين ١١٥٠هـ- ١٣٥٠هـ للدكتور عبدالله الحامد العلي، دار الكتاب السعودي ط١٩٨٦، ص١٢٨. تجدر الإشارة إلى أن هذه الطبعة سجّلت على أساس أنها الطبعة الأولى، في حين أن هناك طبعة «أولى» سبقتها عام ١٩٨١ - ١٤٠٢هـ.

وللشيخ عبد اللطيف آل الشيخ قصيدتان صوّر فيهما الحرب الأهلية وموقفه منها.. وأوضح أنهما قد قيلتا بعد سيطرة الأتراك على الأحساء، وبعد انتهاء الحكم السعودي.. يوضح هذا تعرّضه للحكم التركي في الأحساء بالشتم، إضافة إلى تحلله من القيود السياسية السعودية، فجاء موقفه صريحاً معبراً.

أولى قصائده نونيّة، قالها معرّضاً بعبدالله الفيصل، واصفاً استنصاره بدولة الخلافة، بأنه استنصار بالشيطان، كما ندّد بالعلماء الذين رأوا أن بيعته باقية في الأعناق[1]:

يارب واحكم بيننا في عُصبة ... شدّوا ركائبهم إلى الشيطانِ
سلّوا سيوف البغي من أغمادها ... وسعوا بها في ذلة وهوانِ
صرفوا نصوص الوحي عن أوضاعها ... وسعوا بها في زمرةِ العميانِ
وقضوا بأن العهد باقٍ للذي ... ولي الولاية شيعة الشيطانِ
وقضوا له -بالجزم- أن متابه ... قد هدّما أعلى من البنيانِ

أما قصيدته الثانية فهي رائية يذم فيها أولاد فيصل المتحاربين، فيقول[2]:

وجرّ زعيم القوم للحرب دولة ... على ملة الإسلام فعل المكابر[3]
ووازره في رأيه كل جاهل ... يروح ويغدو آثماً غير شاكر
وآخر يبتاع الضلالة بالهدى ... ويختال في ثوب من الكبر وافر[4]
وثالثهم لا يعبأ الدهر بالتي ... تبيد من الإسلام عزم المذاكر[5]

ثم يذكر الشاعر آل سعود بأنهم انتصروا بجهد المشايخ، واستطاعوا بناء دولتهم بفضلهم، ولكن:

فلما أتاهم نصر ذي العرش واحتوى ... أكابر كنز اللهى والذخائر
سعوا جهدهم في هدم ما قد بنى لهم ... مشائخهم واستنحصوا كل داعر

---

(١) المصدر السابق، ص١٢٧.
(٢) عبد الرحمن آل الشيخ، مصدر سابق، ص٨٩ - ٩٠.
(٣) المقصود بزعيم القوم، عبدالله الفيصل، الذي استعان بالأتراك، والبيت الذي يليه تشنيع بالمشايخ الذين أزروه وأفتوه بطلب الاستعانة.
(٤) المقصود هنا هو سعود الفيصل.
(٥) المقصود بالثالث،محمد الفيصل، على الأقرب، وليس عبد الرحمن الفيصل.

وساروا لأهل الشرك واستسلموا لهم وجاؤوا بهم مع كل علج وفاجر[1]
ومُذ أرسلوها أرسلوها ذميمة تهدّم من ربع الهدى كل عامر
وباؤوا من الخسران بالصفقة التي يبوء بها في دهره كل خاسر
.. فقل للغويّ المستجير بظلّهم ستحشر يوم الدين بين الأصاغر
ويُكشفُ المرتاب أيّ بضاعة أضاع وهل ينجو مجير أمّ عامر

موقف الشيعة من الصراع

تعيش في القطيف والأحساء وضواحيها، أغلبية شيعية ساحقة منذ قرون عديدة ولا تزال، غير أنه بقي في هاتين الواحتين الغنيتين أعداد قليل من أتباع المذاهب الإسلامية الأخرى، ازدادت بعد احتلال السعوديين لهما في مطلع القرن الثالث عشر الهجري، حينما قطنت أعداد غفيرة من النجديين الأحساء، وبقيت الأغلبية الغالبة للسكان في ذلك الإقليم بمدنه وقراه تعتنق المذهب الشيعي الاثني عشري حتى هذا اليوم، رغم وفود أعداد غير قليلة من أبناء القبائل أو من المناطق الأخرى للاستيطان والعمل بعد تفجّر ينابيع النفط.

من هنا فإن حساسية المنطقة نابعة من حيث أكثرية السكان الشيعية، وسيطرتهم على موارد المنطقة الاقتصادية، فكانوا أول من يتأثر بالأوضاع غير المستقرة واختلال الأمن.. ولما شب لهيب الصراع بين أفراد الأسرة السعودية الحاكمة، وأصبحت الأحساء ساحة لذلك الصراع، كانت أهم قوتين يحسب هلها الحساب هما «القبائل البدوية وسكنة الحواضر».

- **القبائل البدوية غير المستقرة**، التي تعيش في بادية الأحساء من أطراف الكويت والعراق شمالاً، حتى واحة يبرين جنوباً.. ومن أطراف حاضرة الأحساء والقطيف حتى الحدود النجدية وسط الجزيرة العربية.. وأهم هذه القبائل «العجمان» والتي لم يمض على استيطان أفرادها في بداية الأحساء أكثر من ثلاثة عقود من السنين، ويأتي في المرتبة الثانية بنو هاجر، وآل مرّة، والعوازم، وبنو خالد.

وقد استطاع سعود الفيصل أن يجتذب هذه القبائل إلى صفه وأطمعها بالإغراءات والمغانم.. وكان للعديد من هذه القبائل أحقاد وضغائن ضد الحاكم عبدالله الفيصل

(١) الأتراك هم المعنيون بأهل الشرك في هذا البيت.

كالعجمان وآل مرّة، ولم يكن لأي منها دافع ديني أو وطني، بعكس الوهابيين والشيعة، وإنما كانت هدفها السلب والنهب والتحرر من آسار الضبط الشديد الذي مارسته وفرضته الدولة المركزية.. ولذا فقد كان موقف القبائل منسجماً مع أعرافها وخصوصياته وطبائعها.

- سكنة الحواضر في القطيف والهفوف وقراهما، وهم الشيعة، عدا قليل من السنة، وهؤلاء يقوم عماد الاقتصاد عليهم، حيث الزراعة والتجارة والصناعات المحلية.. ولا شك في أن موقف الشيعة بأغلبيتهم الساحقة مؤثر في نتيجة الصراع.. إلا أننا نستطيع أن نلحظ فارقاً في الموقف بين سكان الأحساء وسكان القطيف.. فالشيعة في الأحساء اتخذوا موقف الحياد، في حين انضم شيعة القطيف إلى سعود الفيصل، ولكل من الفريقين أسبابه وظروفه ودوافعه.

ومن بين أهم الأسباب التي دفعت بشيعة الأحساء لاتخاذ موقف الحياد:

أولاً: مبادرة سعود بمهاجمة القرى والأرياف «وهي شيعية في الغالب»، وذلك قبل أن يسيطر عليها عمليًا بحوالي ثلاث سنوات، ويومها سمح لأتباعه بنهب تلكم القرى وتخريبها، وقتل الآمنين فيها، مما عزّز قناعة الشيعة هناك بأن الدخول في الصراع لن يغيّر من النتيجة التي هي اضطهادهم أنى كل الفائز في المعركة.

ففي عام ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م، تعرض الشيعة في الأحساء لاضطهاد أتباع سعود، حيث كان العجمان يعيثون فساداً في الضواحي، ويتلفون الزرع والنخيل وينهبون المواشي، ويقتلون الأهالي.. ولم يكن الأمير هناك، محمد بن أحمد السديري، مؤيداً لعبدالله، وأصابته الحيرة إذ لم يرَ أن من صلحته أن يرمي بكامل ثقله إلى جانب سعود، فتغاضى عن ممارسات أتباعه.. ثم ما لبث أن أرسل عبدالله الفيصل سريّة من أهل الرياض ونواحيها بقيادة عمه عبدالله بن تركي لتأديب العجمان وآل مرّة.. فطردهم من تلك النواحي، وقبض على عدد منهم وقتلهم شرّ قتلة، وحرق بيوت المتعاونين معهم، وأجرى أعمالاً انتقامية كهدم المنازل لعدد من مؤيدي سعود[1].

---

(١) آل عبد القادر، مصدر سابق، ص١٦٧، والدولة السعودية الثانية، ص١٦١. وانظر أيضاً: الدكتور محمد عرابي نخلة، مصدر سابق، ص١٤٠.

وبعد هذه الأعمال عزل عبدالله واليه السديري، وعيّن مكانه ناصر بن جبر الخالدي لاستقطاب ولاء الخوالد وحتى عام ١٢٨٧هـ كانت الأحساء بيد عبدالله الفيصل، الذي دعّم حامياته فيها، وأرسل إليها عام ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩ سريّة برئاسة فهد الدغيثر، اصطدمت فيما بعد بقوات سعود المحتشدة بالقرب من قطر فهزمتها.

ثانياً: لقد عانى الشيعة في فترات الحكم السعودي الأولى من الضعف، حيث جُرّدوا من قواهم السياسية والعسكرية والاقتصادية -إلى حد كبير-، مما جعلهم غير قادرين على التعاطي مع المستجدات بكفاءة وفاعلية -خاصة في الأحساء-، حيث أن واقعهم يومها تنقصه الوحدة والانسجام، والأهم من ذلك القيادة السياسية المبادرة والكفوءة التي تدرس الخيارات التي تحقق للطائفة الشيعية الغالبة سكانيًا، بعض المكاسب بحيث ترفعهم إلى مستوى متعادل مع بقية المواطنين، وتضع حدًا لما تعانيه من اضطهاد وتفرقة.. ولعل أهم أسباب الضعف هذا، هو أن القوى الاجتماعية والسياسية والدينية المحلية قُضي على معظمها قتلاً وتشريداً، خاصة في الأحساء التي تتمتع بأهمية أكبر من القطيف من الناحية الاقتصادية، والتي كانت تمثل التحدي الأهم بالنسبة للحرب المذهبية التي شنها الوهابيون طوال حكمهم.

ثالثاً: أن طبيعة الشخصية الأحسائية تميل إلى السلم والموادعة والصبر وتحمّل الأذى، وهي أقل ميلاً إلى التدخل في الأمور السياسية، وأكثر اهتماماً بأمور المعاش وتهيئة أسبابه.

ومع هذا فإن الموقف الحيادي لم يُنجِ شيعة الأحساء، من دفع ثمن باهظ جدًا في الاقتصاد وفي الأنفس التي شرّدت أو قُتلت، حينما سيطر سعود عليها، وأفسح المجال لأتباعه بسلبها ونهبها.. فأصبحت الأحساء إقطاعية دون محامين تكون الضحية أمام المنتصر أيًا كان، فيفعل بها وبأهلها ما يشاء.

أما موقف الشيعة في القطيف، فقد رأى زعيمهم السياسي الشيخ أحمد بن مهدي بن نصر الله، أن يتحالف مع سعود الفيصل، ورتّب اتفاقاً معه يقضي بدعمه على أساس صيانة حقوق الأهالي الدينية وعدم التعرض لممتلكاتهم.. وأصبحت القطيف تابعة لسعود، ومحطًا لرجاله، ومصدراً لتمويله.. وواضح أن القطيف لم تسقط بالقوة وإنما بالتحالف، وقد سُجن فيها بعدئذ محمد الفيصل بعد هزيمته في جودة.

والسبب في اتخاذ القطيف هذا الموقف، هو ممارسة زعمائها لنشاطهم السياسي، إذ لم تزل لهم يومها بقية تتنفّس وتتفاعل مع الأوضاع وتستجيب للتحديات.. كما أن الشيخ أحمد بن نصر الله رأى ببصيرته أن قوات عبدالله ستندحر، إضافة إلى أن سعوداً عُرف عنه التحرر المذهبي، ولا يقيّم السكان على أساس الانتماء المذهبي، وهذا -بنظرنا- هو أهم

سبب لاندفاع الشيعة في القطيف إلى دعمه.

قال أحد المؤرخين بصريح العبارة: إن سعوداً «لقي تأييداً كبيراً من الشيعة في القطيف، إذ كانوا على استعداد لمناصرته لما عُرف عنه من تحرر مذهبي، على النقيض من سياسة أخيه عبدالله التعصبية»[1]. وقال الأستاذ عبد العزيز نوار حول موقف الشيعة من الصراع -وقد خلط بين الأحساء والقطيف، أو لعله غلّب اسم الأحساء على شقيقتها باعتبار الأخيرة جزءاً منها- قال: «كانت الأحساء منذ البداية من المناطق التي قاومت الحركة الوهابية باستمرار، فالمؤثرات الشيعية فيها قوية.. وعلى الرغم من المجهودات الوهابية المتتالية، ظلت الأحساء أقل الجهات ميلاً للحركة الوهابية، ولذلك كانت أكثر ميلاً إلى سعود لما عُرف عنه من كراهية للتعصب المذهبي»[2].

ويستأنس من هذا القول أن أهم دوافع الشيعة في معاداة الحكم السعودي، انتهاجه سياسة التمييز والاضطهاد الطائفي.. ومسألة دعم سعود الفيصل، هي إحدى المرّات القليلة التي قام بها الشيعة حفاظاً على هويتهم المذهبية، وطمعاً في المساواة.. ولا نتعدى الواقع ونجانب الحقيقة إذا قلنا: إن الاضطرابات والتحركات السياسية التي شهدته الأحساء والقطيف في الدولة السعودية الأولى والثانية، وفي الدولة السعودية الحالية حتى اليوم، إنما ترجع في جذورها إلى عامل الاحتقار والاضطهاد الطائفي الذي يمارس بحق الأغلبية الشيعية.

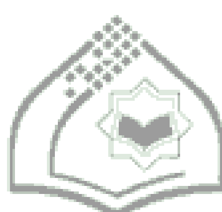
وبتحالف القطيف سلمت من الأذى إلى حد كبير، حتى نقض سعود الفيصل عهده مع الأهالي، واضطهد زعيم الشيعة هناك ونهب أمواله وأملاكه، وحاول قتله مما اضطره إلى الهرب، ودفعه إلى مكاتبة العثمانيين ودعوتهم لاستخلاص المنطقة من أيدي آل سعود[3].

(١) الخليج العربي، ج١، ص١٧٨.
(٢) عبد العزيز نوار، مصدر سابق، ص٤١١، وانظر محمد عرابي نخلة، ص١٤١.
(٣) أنوار البدرين، المرحوم الشيخ علي البلادي القديحي، ص١١٨.

٤

حملة مدحت باشا
لاحتلال الأحساء والقطيف (١٨٧١م)




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

لمّا رأى عبدالله الفيصل أن ليس باستطاعته صدّ أخيه المدعوم من المقيم البريطاني في الخليج، لم يكن أمامه سوى الالتجاء إلى دولة الخلافة للاستعانة بها، ولا شك في أنه فكّر في عواقب إقدامه على هذا الأمر، وما قد يثيره من غضب واستياء لدى الوهابيين وزعمائهم الدينيين في نجد. ولابد أنه قد احتمل أن يصطفي الأتراك المنطقة لأنفسهم، خاصة وأن هذا الموضوع قد طُرق في عهد نامق باشا في بداية حكم عبدالله. إذ إن العثمانيين حاولوا مراراً إقناع الحكام السعوديين بأنهم طالما كانوا غير قادرين على حماية الأحساء التي تخضع اسميًا للسلطان العثماني، فليفسحوا إذن المجال لهم لمواجهة الطامعين.

وقد أحدث استنصار عبدالله بدولة الخلافة بلبلة في صفوف النجديين -كما رأينا- وأثارهم ضد حاكمهم، رغم محاولاته إسباغ الشرعية الدينية «من وجهة النظر الوهابية» على تحركه، حينما طلب من بعض مشايخ المؤسسة الدينية -من الدرجة الثانية- إجازته بفتوى تخوله طلب المعونة من الأتراك، وقد فعلوا.

وكتب عبدالله الفيصل ثلاث رسائل إلى العراق بيد رسوله عبد العزيز بابطين، وأرفقها بالهدايا، إحداها إلى مدحت باشا والي بغداد الجديد «ابتدأت ولايته سنة ١٨٩٦»، والثانية إلى خليل بك والي البصرة، والثالثة إلى محمد الرفاعي نقيب أشراف البصرة، استحثهم فيها على نصرته، وأعلن فيها ولاءه للدولة العليّة، وأنه رهن إشارتها.

في تلك الأثناء كانت الدولة العثمانية بصدد انتهاج سياسة جديدة تحدوها الرغبة في وقف تسلل النفوذ البريطاني المتزايد في الخليج، فها هي عمان ومشيخات الخليج تسقط تباعاً، وها هي البحرين تغدو مستعمرة متقدمة للنفوذ الأجنبي في شبه الجزيرة العربية،

وها هي الكويت لم يبق فيها للدولة العثمانية سوى العلم العثماني الذي يُرفع على سفن صيد الأسماك واللؤلؤ.

وهكذا رأى السلطان العثماني عبد العزيز أن ينتهج سياسة حازمة تجاه كل ذلك، فعمل على تقوية الحاميات العثمانية في العديد من الولايات، وعين مدحت باشا والياً على العراق، فكان الرجل المناسب في المكان المناسب، من أجل إعادة النفوذ والوجود العثماني إلى الخليج.. وأصبح الاستيلاء على الأحساء والقطيف بنداً أساسيًّا في استراتيجية الدولة العثمانية.

على أن أوضاع الدولة العثمانية الداخلية كانت مساعدةً لتجهيز حملة تسيطر على الأحساء، فالجيش العثماني أصبح جيشاً نظاميًّا مجهّزاً بالأسلحة الحديثة، ولما عُيِّن مدحت باشا والياً على العراق تهيأ لها أكثر من أي وقت أن تضع خططها موضع التنفيذ.. فمدحت يؤمن ببسط نفوذ الأستانة على المناطق التابعة لها إسميًّا تعويضاً عن الخسائر التي تعرضت لها في البلقان، وكان يرى أن تحقيق الانتعاش الداخلي للدولة لا يتم إلا بضم ممتلكات جديدة إليها. وفوق هذا كانت لدى مدحت رغبة شديدة في مناوأة مركز الإنجليز في الخليج، وقد دأبت صحيفته التي أسسها «الزوراء على تأكيد سيادة العثمانيين على الساحل العماني، وكل الخليج وإماراته.. والواقع أن مدحت باشا ومنذ توليه بغداد كان دؤوباً في وضع الخطط للاستيلاء على الكويت والبحرين وقطر والأحساء والقطيف ونجد[1].

من الطبيعي والحال هذه، أن يتخذ العثمانيون موقفاً متشدداً ضد سعود الفيصل، حيث رأى مدحت أن توليه أمر نجد مضيعة لها وإلقاء بها في يد الأجانب، وأن من الواجب عليه شخصيًّا أن ينقذ هذه البلاد مما ستتردى فيه، خاصة مع إدراك مدى الخطورة التي تتهدّد العراق من التواجد الكثيف للبريطانيين[2].

مسألة مهمة أخرى تُطرح في هذا الصدد، وهي أن الأجواء العامة في الأحساء والقطيف كانت مهيأة لقبول الحملة العثمانية، بل ودعوتها والتعاون معها، فقد ذاق الأهالي في هاتين الواحتين مرارة الظلم اقتصاديًّا ومذهبيًّا وأمنيًّا على يد البوادي التي

(١) جمال زكريا قاسم، ج١، ص١٧٤ - ١٧٥.
(٢) عبد العزيز نوار، مصدر سابق، ص٤١٣، وانظر: العابد، ج٢، مصدر سابق، ص٢٢٣.

مالت مع سعود، وكانت شرسة في مهاجمة المدن والقرى الأحسائية والقطيفية من أجل نهبها.. الأمر الذي هيّأ الأهالي من الناحية النفسية والعملية لاستبدال الحكم السعودي، وقد دفع ذلك بالزعيم أحمد مهدي بن نصر الله لتشجيع الأتراك في الاستيلاء على المنطقة، وتخليص الأهالي من محنتهم، حيث منعتهم حميتهم الدينية من التعامل مع الإنجليز باعتبارهم «كفاراً» وما كانوا بأنفسهم قادرين على مواجهة السعوديين والانفراد بحكم أنفسهم، خاصة بعد أن طالت سني الحرب الأهلية، وشرّدت الآلاف من السكان قاذفة بهم إلى الإمارات المجاورة وقضت على سبل المعاش، كما أن الحياة الاقتصادية عامة أصابها انتكاس مريع بسبب الاختلال الأمني.

وحتى نجد نفسها أنهكتها الحرب الأهلية، عدا المناطق الشمالية «حائل»، ولم يكن الحكم السعودي يومها يلقى التعاطف، في وقت بدأ فيه نجم الشمّريين بالبزوغ واللمعان، مما سهل فيما بعد تمددهم جنوباً بمباركة الأهالي أنفسهم.

هنا انتهز مدحت باشا دعوة عبدالله الفيصل للاستنصار، وراح يعدّ العدة لاحتلال الأحساء ثم الانطلاق منها نحو نجد، وبادر لأخذ الإذن من إستانبول، فباركت الأخيرة تجريد الحملة من بغداد بالتأييد، إلا أن مدحت لم يشأ إرسال جنده إلى بلاد مجهولة، فأسرع بإرسال بعض الموظفين في مهمة استطلاعية واشترى لهم سلعاً وأرسلهم إلى القطيف والأحساء في زي التجار، فأقاموا هناك مدة شهرين، وقفوا خلالها على قوة سعود الفيصل الحربية، وقلاعه ورجاله، وحالة الأهالي وآرائهم، وعرف هؤلاء التجار الأماكن التي يمكن للسفن الكبيرة أن تقترب، حيث قرروا أن أفضل موقع هو «رأس تنورة» الذي يبعد عن القطيف حوالي عشرين كيلو متراً[1].

واصل مدحت إعداد حملته، وأجرى التحالفات مع بني خالد حكام الأحساء السابقين ورتب اتفاقاً للاستعانة بناصر باشا السعدون، رئيس قبائل المنتفق، وقد رافق منصور باشا «أخ ناصر» الحملة فيما بعد.. كما طلب مدحت من حكام الكويت الدعم والمعونة، فتجمّعت قوات الحملة بضعة أيام في الكويت، وأمر حاكمها أخاه مبارك بقيادة بعض القوات ضمن الحملة البرية، فيما شاركت حوالي ثمانين سفينة صغيرة في نقل المؤن

(١) مذكرات مدحت باشا، يوسف كامل حتاتة، ص١٧٤ - ١٧٥. وانظر: عبد العزيز نوار، مصدر سابق، ص٤١٧.

إلى ساحل القطيف.

اكتمل الإعداد للحملة التي أريد لها أن تكون حملة بحرية/ برية في آن واحد تحت قيادة الفريق محمد نافذ باشا، وهي تتشكّل من:

- ثلاثة آلاف جندي نظامي، وبين ١٥٠٠ - ٣٠٠٠ مقاتل من قبائل المنتفق وبني خالد وبدو آخرين.

- جهزت الحملة بتسعة مدافع ميدان، وحوالي ثمانين سفينة صغيرة تحمل المؤن، وزوّدت أيضاً بسفينتين حربيتين هما «نينوى، وبروسّة» إضافة إلى سفينة الحراسة خوجة بك، فيما أسرعت الباخرتان العثمانيتان «لبنان، الإسكندرية» عبر قناة السويس إلى الخليج لتعزيز وجود الأسطول العثماني فيه، وقد حملت هذه السفن العديد من المقاتلين والرؤساء، ومن بينهم زعيم القطيف أحمد مهدي بن نصر الله[1].

تحركت الحملة من بغداد في الحادي والعشرين من أبريل ١٨٧١، الموافق للتاسع والعشرين من محرم ١٢٨٨هـ، وزوّد مدحت قائدها نافذ باشا ببيان مطوّل مؤرخ في يوم انطلاق الحملة، من أجل توزيعه على أهالي القطيف. وكان الاتفاق أن تلتقي الجيوش البحرية والبرية عند رأس تنورة، فكان الالتقاء في السادس والعشرين من شهر مايو ١٨٧١، حيث عسكرت هناك مدة أسبوع، ثم انطلقت باتجاه الهدف الأول، وهو الاستيلاء على القطيف.. وذلك بعد أن دارت المكاتبات والوساطات بين الأهالي من أجل التسليم، فتقدّمت القوات البرية باتجاه صفوى واستولت عليها دون مقاومة، وكذلك العوامية، أُخذت سلماً وبترحيب من الأهالي، ووصلت القوة إلى القطيف في المحل المسمى «الخنزيّة» فسلم زعماؤها، بعد أن سبق القدوم إليها أحمد مهدي بن نصر الله، ولم يبق من القطيف سوى القلعة التي تحصن فيها السديري، أمير سعود الفيصل عليها، إلا أنه استسلم بعد ثلاث ساعات من القصف البحري وولّى هارباً.. وهكذا سقطت القرى الأخرى تباعاً.. إلا أن تاروت -كما ينقل عبد العزيز الرشيد- ذهب إليها

(١) تاريخ الكويت الحديث، أحمد مصطفى أبو حاكمة، ص٢٥١. والعابد، مصدر سابق، ج٢، ص٢٣١. وفاسيلييف، مصدر سابق، ص١٩٤ - ١٩٥. ومحمد عرابي نخلة، مصدر سابق، ص١٥٣ - ١٥٦، وكذلك عبد العزيز الرشيد، تاريخ الكويت، ط ١٩٧١، ص١٣٣. تجدر الإشارة إلى أن حملة الأحساء تطرّق إليها العديد من المؤرخين بالتفصيل، انظر مثلاً: جمال زكريا قاسم، ج١، مصدر سابق، ص١٧١ - ٢٠٤.

قسم من الجند من العربان وبادروا بنهبها، ولكنهم منعوا عن ذلك(١).

وفور سقوط القطيف ونواحيها وزّع نافذ باشا بياناً على السكان، كان قد أعده مدحت، يتضمّن شرحاً لأهداف الحملة، ومطمئناً الأهالي على أنفسهم وأموالهم، كما تضمّن إنذاراً شديد اللهجة لسعود الفيصل والمتعاونين معه، من القبائل المتمرّدة الخارجة عن الضبط والقانون، ومما جاء في البيان المطوّل:

«أيها الناس والعشاير الساكنون في الأحساء والقطيف وجهات نجد كافة.. تحيطون علماً هو أنه كما هو معلوم لدى جميعكم أن قطعة النجد وملحقاتها وكافة المحال الداخلة فيها، هي من الممالك المقدّسة الراجعة للدولة العليّة مثل ساير الممالك المقدّسة، كالعراق واليمن ومصر وتونس وطرابلس.. وأن حماية هذه الممالك والأراضي وصيانة الناس الساكنين فيها، داخلة تحت دولة حامي ذوي الإسلام».

وأشار الإعلان إلى تدهور الحالة في نجد وسيطرة العربان وتعديهم على الأهالي، مهدداً إياهم بالضرب بقوة، موضحاً: «أن سعود الفيصل قد أغرى بعض الجهّال وأغفلهم وخرج باغياً على يأخيه المنصوب قائمقاماً على بقعة نجد من جانب الدولة العليّة، وجاء إلى أطراف الأحساء والقطيف، وجاس خلال الديار وأخذ الأهالي الموجودين هناك. فهو في هذه الحال قد حصل على ذنبين كبيرين، وجُرمين خطيرين، فأما الذنب الأول فهو التجاوز على حقوق حكومة أخيه عبدالله الفيصل المودعة بعهدته من طرف ذي الشرف الجليل السلطان. وأما الذنب الثاني فهو تشجيع الملة الإسلامية والتبعية العثمانية على محاربة بعضهم بعضاً، بحيث إن ذلك التشجيع يكون سبباً في تفريق القوة الإسلامية. ولمّا كانت حقوق الحكومة المخوّلة لعهدة عبدالله الفيصل لازمة، وأن جميع البلاد والعباد هي وديعة الله تعالى تحت الظل السلطاني الظليل، وأن ترصيص هذه الحالات وإبقاءها لازم بتأسيس أساس مأمورية محكمة الأساس، بهذه قد عيّنت الدولة فرق عسكرية كافية من بغداد تحت إدارة صاحب السعادة الفريق نافذ باشا، ركن من أركان لأرودي السادس، وها هي قد خرجت إلى ساحل القطيف مع ذلك المقدار من السفاين النارية.. فالآن يلزم لكل منكم أن يعلم أن حكومة قطعة نجد بأطرافها وأكنانها، لما كانت مخوّلة من طرف

(١) عبد العزيز الرشيد، مصدر سابق، ص١٣٤. وانظر تاريخ الكويت السياسي، ج٢، حسين خلف الشيخ خزعل، ص١٣٧.

حضرة مولانا السلطان أدامه الرحمن، إلى عهدة عبدالله الفيصل، فإنها اليوم قد أُبقيت بعهدته وتقررت. وإن المومأ إليه الآن هو قائمقام نجد، وراجع إلى ولاية بغداد. وأما المقصد من تعيين العساكر السلطانية، إنما هو محافظة حقوق الحكومة».

«إن سعود الفيصل هو متهم، فإذا أظهر الندامة وأبدى التوبة من أفعاله، وجاء إلى الفرقة العسكرية، وطلب الدخالة لأجل تحصيل عفو الحضرة السلطانية ومرحمتها السنية، يقتضي أن يرسل إلى بغداد.. وإذا أظهر المخالفة، فإن المعاملة السديدة تجري بحقه مع التأسف، تطبيقاً للآية الكريمة ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ ...﴾ إلى آخر الآية الشريفة.. وكما قال عزّ من قائل: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ وقد صار مفهوماً من منطوق هذه الآية الكريمة أن مآل الباغين مثل سعود وطائفة المتفقين معه على هذا البغي، إذا لم يرجعوا عن بغيهم من الأمور الواجبة شرعاً، وإذا وجد أحد من الناس معه، فإنما ذنوبهم في رقابهم، كما قال الله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾. وإذا كافة الناس الموجودين في الأحساء والقطيف، والواقفين على ساق الخدمة للفرقة العسكرية والأهالي والعشاير والقبائل، فإنهم مهما كانوا متى ما لم يقفوا بصدر العسكر ولا بوجه الحكومة، فإنهم تحت راية الرأي والأمان، وكافة أرواحهم وأموالهم وأعراضهم محفوظة، بموجب أحكام الشريعة المطهّرة، ومضمونة من كافة التجاوز والمداخلات فيها»[1].

أثار الإعلان ارتياح السكان، وانعكس ذلك على سكان الأحساء، الذين بادروا إلى التعاون مع الحملة العثمانية، مما سهل عليها التقدّم بسرعة بعد أن رتّب نافذ باشا حامية للاتراك في القطيف.. فقد تحركت الحملة جنوباً لمهاجمة مرفأ الدمام الذي يقطن بالقرب منه أعداد من البدو في الخيام أشهر الصيف، وفي الطريق سيطرت القوات على قلعة «عنك» ووصلت بعد برهة إلى المرفأ، فاستولت عليه دون أية مقاومة في الخامس من يونيو حزيران ١٨٧١، وهرب من حامية المرفأ المسؤول عنها، وهو عبد العزيز بن سعود، وغنمت القوات العثمانية أحد عشر مدفعاً وكميات كبيرة من الذخيرة، جاء القسم الأكبر منها من البحرين.

(١) جمال زكريا قاسم، ج١، ص٤٨٣ - ٤٨٦.

حتى هذا الوقت لم تصطدم الحملة بقوات سعود الفيصل، الذي كانت خطته تعتمد على إبعاد القوات التركية عن الشاطئ حتى تطول خطوط اتصلاتهم، وحينها يهاجمهم البدو ويفنوهم قتلاً أو يموتوا عطشاً.. أما الحصون فستستسلم بعد حصار من فيها وتجويعهم بقطع خطوطهم عن البصرة برًّا، وقد عرض سعود هذه الخطة على بيلي طالباً منه أن يتكفل بمنع الأتراك من استخدام البحر، ولكن بيلي لم يجبه؛ لأن مواجهة العثمانيين من أجل تحقيق هدف سعودي كان مستحيلاً[١].

على أن خطة سعود تحمل عناوين عديدة للضعف، الذي كان أحد مصاديقه عدم الاصطدام بالقوة الكبيرة التركية، التي كانت تعتمد على خطة بسيطة هي السيطرة على الشاطئ والمدن والقرى الواقعة بجانبه، ثم التمدد نحو الأحساء، ثم التوغّل برًّا لاحتلال الرياض.. نعم لربما كان بإمكان خطة سعود النجاح لو أن الأحساء والقطيف لا تشرفان على الساحل، أو لو أن الإنجليز جازفوا بإعلان حرب بحرية ضد الأتراك، أو لو كان الآخيرون تقدموا نحو الرياض، فحينها يسهل ضرب خطوط الإمدادات.

لكننا نعلم أن الأحساء والقطيف قريبتان من الساحل، وحينما سمح سعود للقوات العثمانية بالتقدم لضعفه، كان ذلك يعني ضياعهما من يديه.. ثم إن الأتراك لم يغامروا بالتقدم نحو الرياض -وإن كانوا قد خططوا لذلك- فخلفاء مدحت على ولاية بغدا دلم يواصلوا مشروعاته، ربما لأن حليفهم ابن الرشيد حاكم حائل، بدأ بالتمدّد جنوباً، لإنهاء السيطرة السعودية على كامل التراب النجدي.

تابعت قوات نافذ باشا مسيرها نحو الأحساء مخلّفة وراءها السفن الحربية في القطيف، واستمرت في تقدّمها رغم ما أصابها من ضعف بسبب هلاك حوالي ٤٠٠ جندي في الطريق، في وقت أنهك المرض وسوء الطقس حامية القطيف والسريتين اللتين وُضعتا في الدمام[٢].. وصلت الحملة إلى القطار شمال بدلة العيون، وحينها كتب نافذ باشا لوالي الأحساء من قبل سعود الفيصل «المملوك» فرحان بن خير الله، أن يستسلم، وإلّا فإن الهلاك سيكون مصيره، كما وزّع نافذ منشوراً آخر على الأهالي يخبرهم بمقدمه غداً «المنشور مؤرخ في ١٨/ ٤/ ١٢٨٨هـ[٣]»، ويدعوهم إلى استقباله بالطاعة، ويؤمنهم

(١) العابد، مصدر سابق، ج٢، ص٣٢١.
(٢) تاريخ الكويت الحديث، ص٢٥٢. ومحمد عرابي نخلة، مصدر سابق، ص١٦٤.
(٣) يوافق السادس من يوليو ١٨٧١.

فيه على أنفسهم وأملاكهم، ويذكّرهم بما بلغهم من حسن المعاملة لأهالي القطيف.. جاء في البيان:

«الباعث لتحرير الكتاب، هو أنه قبل هذا أرسلنا لطرفكم مكاتيب مخصوصة، وملفوفة بطيّها إعلانات مطبوعة، متضمّنة أسباب كيفية مأموريتنا، وخلاصة أفكار صاحب الدولة العليّة، وزبدة ما في ضمير حضرة السلطنة السنيّة، أنها مجرد إرجاع أمن البلاد ليستريح الناس، ويصرفوا أوقاتهم في مكاسبهم، وازدياد ثروتهم، واستجلاب دعواتهم الخيرية، لدوام أيام الدولة، وقد فهمتموه مفصّلاً، ولأجل ذلك صرفنا النظر في هذه الدفعة عن الإطناب والإسهاب في بيان ذلك، واقتصرنا على إخباركم بمجيئنا هذا اليوم، ووصولنا القطار، وغداً إن شاء الله نرحل، ونتوجّه إلى الأحساء. فمن استقبلنا بالطاعة، نقابله بعهد الله وأمانه على نفسه وماله، ونبذل دونه الرعاية والحماية، ومن يستقبلنا بالعصيان ودم الطاعة فسنسحقه بحول الله وقوته بسنابك الخيل، ونجعل داره تدعو عليه بالثبور والويل، وبناء على ما بلغنا أنكم اليوم في أسوأ حال، من جراء ما لقيتموه من شدائد الظلم والوبال، وتمنّيكم سرعة مجيئنا لأجل استخلاصكم من ذلك، سارعنا للمجيء، فإذا أحاط علمكم بذلك فتوكلوا على الله واستقبلونا بالمواجهة، ولكم عهد الله وأمانه، على الأنفس والأموال، وسوف ترون إن شاء الله ما يسركم، ويكفيكم شاهداً على هذا ما بلغكم من حسن معاملتنا لأهل القطيف وملحقاتها من أهل القرى والعشائر. ليكون معلومكم، ولأجل ذلك بادرنا بتحريره، ثمانية عشر ربيع الآخر، سنة ثمان وثمانين ومائتين وألف[1]».

بين سقوط الدمام في ٥ يونيو ١٨٧١، ودخول الأحساء في ٧ يوليو ١٨٧١، شهر كامل أمضته القوة التركية في مقاطعة القطيف، وفي هذه المدة تمّت مراسلة أهالي الأحساء وزعمائها من الشيعة والسنة، للوقوف على رأيهم، فوجدت التشجيع الكافي من الأهالي والآمال المعلقة على القوة العثمانية في إقرار الأمن. وقد ركّز منشور نافذ باشا الموجّه لأهالي الأحساء على قضية الأمن؛ لأن المشاكل الأخرى تهون دونها، وأوضح أن هدف الحملة هو بسطه وإقراره، وهذا ما كان يريده الأهالي. وقد لعبت هذه المراسلات والمنشورات دوراً بالغ الأثر في الضغط على والي الأحساء السعودي للفرار، و التسليم

(١) آل عبد القادر، مصدر سابق، ص ١٧١.

بعدم المقاومة، بعد أن رأى الأهالي غير متحمسين للقتال معه.

وحين دخل نافذ باشا ورئيس أركانه البكباشي رجب بيك الهفوف، استقبلهما الأعيان والأهالي بالترحاب البالغ، وفرّ من ساعتهم الأنصار القليلون الموالون للحكم السابق.. وهكذا تحقق الانتصار السهل والسريع للقوات التركية وتكللت أهداف الحملة بالنجاح غير المتوقع.

ويرجع سبب الانتصار السهل والحاسم لقوات الحملة العثمانية إلى سوء أفعال الحاكم السعودي، سعود الفصيل، للأهالي وبالخصوص للشيعة، وما قامت به قواته من أفعال مشينة بحقهم، وكما أشار تقرير بريطاني في يوليو ١٨٧١، أنه ما كادت القوات العثمانية تتقدّم قرب مقاطعات الأحساء، حتى انتفض السكان ضد قوات سعود ورغبوا إلى العثمانيين(١).

والحقيقة أن أتباع المذاهب السنية الأخرى، عانوا أيضاً من عدم الاستقرار، وتعرّضوا للمضايقات، بل وفرّ العديد من رجال الدين إلى الإمارات المجاورة، وفي العموم كانت أحوال المواطنين من السوء لدرجة الترحيب بالقوات التركية. وقد أشار الدكتور محمد عرابي نخلة، إلى أن سبب عدم المقاومة هو: أن أتباع سعود من العجمان أساؤوا معاملة سكان المدينة «الهفوف»، كما أن قسماً كبيراً من سكان الواحة هم من بني خالد الذين أعلنوا انضمامهم للسلطات العثمانية، فقد لاحت لهم بارقة أمل من جديد بعودة الحكم إليهم، هذا إضافة إلى أن العداء المذهبي بين الوهابيين والشيعة قد ساهم في هزيمة السعوديين(٢).

موقف الوهابيين من احتلال الأحساء

استاء مشايخ الوهابية من استيلاء الأتراك السهل على الأحساء، ومما زاد من حنقهم هو قبول الأهالي السنة والشيعة بالحكم التركي.. وكان تشديدهم على أتباع المذاهب السنية أكبر، خاصة بعد أن عاد الجميع لممارسة معتقداته المذهبية بحرية، وتبين

(١) جمال زكريا قاسم، ج١، ص١٨٢.
(٢) الدكتور محمد عرابي نخلة، مصدر سابق، ص١٦٥ - ١٨٧.

أن أتباع المذهب الوهابي قلّة قليلة جداً، خرجت من الأحساء، إلّا من تنكّر لمذهبه، وأصرّ على البقاء.. ذلك أن الوهابيين اعتبروا الأحساء بلد كفر وزندقة، يجب مغادرتها طالما يسيطر عليها الكفرة المشركون!

وصوّر الوهابيون الأحساء بمجرد أن استولى عليها الأتراك، بأنها مرتع للمفاسد والكفر والزنا وكل المحرمات والموبقات الأخرى، وغير ذلك من المبالغات. قال أحدهم يصف الحالة وهو قابع في نجد[1]:

ويبدو بها التعطيل والكفر والزنا ويعلو من التأذين صوت المزامر
أناخ لدينا للضلالة شيعة أباحوا حمى التوحيد من كل فاجر

ثم يتعرض للذين قبلوا الحكم التركي:

وقابلهم بالسهل والرحب عصبة على أمة التوحيد أخبث ثائر
يقولون لكنّا رضينا تقيّة تعود على أموالنا والذخائر

أما زعيم الوهابية حينها، الشيخ عبداللطيف آل الشيخ، فقد آذاه خضوع الأهالي للحكم العثماني، فراح يشتم ويقرّع ويصفع باليمين وبالشمال.. ويبدي تألمه الشديد؛ لأنه أصبح للشيعة كلمة وحرية في العقيدة:

وصار لأهل الرفض والشرك صولة وقام بهم سوق الردى والمناكر
وأذّن بالناقوس والطبل أهلها ولم يرض بالتوحيد حزب المزامر[2]

ويعود مقرّعاً للسنة كيف قبلوا حكم «الصليب العثماني!» ويصمهم بالضلال:

فيا أمة ضلت سبيل نبيّها وآثاره يوم اقتحام الكبائر
يعزّ بكم دين الصليب وآله وأنتم بهم ما بين راضٍ وآمر

ويصل الأمر إلى الدعاء بجهنم عليهم وتهديدهم بالنار لأنهم لم يدعموا أهل الحق «الوهابيين» ولأنهم كفروا بدين الله، ولأنهم نسوا عهودهم:

(١) قصيدة لعبد الرحمن بن طوق النجدي، مشاهير علماء نجد، مصدر سابق، ص٨٧.
(٢) المقصود أن أهل الأحساء اعتنقوا عقيدة العثمانيين «عقيدة الناقوس المسيحي» وأنهم لم يرضوا بدين «التوحيد» الوهابي.

هَـوَت بكم نحو الجحيم هـوادة ... ولـذّات عيش نـاعـم غير شاكر
سيبدو لكم من مالك الملك غير ما ... تظنّون أن لاقـى مـزيـر المقابر
يـقـول لـكـم: مـاذا فعلتم بأمة ... على ناهج مثل النجوم الزواهر[1]
سللتم سيوف البغي منهم وعطلت ... مساجدهم مـن كـل داع وذاكـر
وواليتموا أهـل الجحيم سفاهة ... وكنتم بـديـن الـلـه أول كـافـر[2]
نسيتم لنا عـهـداً أتـاكـم رسولنا ... به صارخاً فوق الـذرى والمنابر[3]
فسل ساكن الأحساء هل أنت مؤمن ... بهذا وما يحوي صحيح الدفاتر؟
فقال الشقي المفتري: كنت كارهاً ... ضعيفاً مضاعاً بين تلك العساكر[4].

وإذا كان موقف الشيعة في المنطقة تجاه الأتراك ما يسهل هضمه لدى الوهابيين، فإنهم لم يتحمّلوا موالاة أتباع المذاهب الأخرى لهم.. فهذا ابن سمحان[5]، يحضّ الأهالي على الثورة ضد الأتراك، ويطعن مشايخ المذاهب بأنهم جبناء، وعليهم أن يغادروا الأحساء بلد الشرك والكفر.. قال موجّهاً حديثه للشيخ عبد اللطيف بن عمير[6]:

إذا لـم تـبـادرهـم بعيب لدينهم ... وتكفيرهم جهراً فقد كنت أوجرا
ففرض عليكم واجـب أن تهاجروا ... كما قد أتـى نصًا بـه الله أخبرا

---

(١) المقصود بالأمة التي على نهج النجوم الزواهر، هم الوهابيون، وكذلك البيت الذي يليه.

(٢) المعني بأهل الجحيم هم التراك.

(٣) الغريب أن قائل هذا الشعر، كان قد ناقش علماء السنة في الأحساء في عهد فيصل بن تركي ليتحولوا إلى الوهابية، وقالت المصادر السعودية أنه نجح في مهمته، ولكن هذه القصيدة تثبت عكس ذلك، وكما قال الدكتور عبدالله الحامد العلي، أن الخلاف بين العلماء السنة في الأحساء، وهم أصحاب مدرسة في الفقه والثقافة، شأنهم في ذلك شأن علماء الحجاز، وبين مشايخ الدعوة الوهابية، يبدأ صغيراً إلى أن ينتهي إلى الأصول، ولهذا لم تنجح حتى ذلك الحين الدعوة الوهابية بين صفوف السنة في الأقليم.

(٤) عبد الرحمن آل الشيخ، مصدر سابق، ص٨٩.

(٥) هو سليمان بن سمحان، ولد سنة ١٢٦٧هـ في قرية «السقا» قرب أبها، عاصمة أقليم عسير، هاجر إلى الرياض سنة ١٢٧٨هـ، إثر استيلاء المصريين عليها، واشتغل معلماً لصغار آل الشيخ، وأثناء الخلاف بين أولاد فيصل غادر إلى الأفلاج، ثم عاد بعد وفاة سعود الفيصل للرياض، فعيّنه عبدالله الفيصل كاتباً عنده، والملاحظ أنه لم يتطرق في شعره إلى الخلاف بين الأخوين، وما تلاه من نكبات، خوفاً على نفسه، توفي عام ١٣٤٩هـ.

(٦) الشيخ عبد اللطيف آل عمير، له صلات قوية بالأتراك، وكان نديماً للوالي على الأحساء أحمد عزة العمري، وقد كان الأخير شاعراً.. انظر شعراء هجر، من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر، للدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، دار العلوم ١٩٨١، ص٢٣٧ - ٢٣٨.

ثم يوضّح أنه من غير المفيد التقرّب من الأتراك، ولا يكفي الانزواء عنهم بخيرهم وشرّهم:

ولكن بتكفير لهم وبشتمهم جهاراً وتصريحاً وغيباً ومحضرا!

ولا يطيب لابن سمحان الاكتفاء بهذا القدر من الدعوة للثورة والتكفير الذي استخدمه بشكل واسع، حتى أدخل -بحسب قول الدكتور عبدالله الحامد- بشراً كثيراً في الكفر والزندقة، منهم المعاصرون والمتقدّمون، و المحسنون والمسيئون، مما جعل الدكتور يلتمس له العذر، قائلاً: إن ابن سمحان يعبر عن حالة نفسية، وليس عن الدعوة الوهابية، وأن قضية تكفير الدولة العثمانية قضية ذات طابع سياسي، ليس له من الدين مستند. ومن شِعْر ابن سمحان المتطرف في التكفير، ما يتحدث به ضد أحد خصومه السنة من علماء الأحساء، معدداً منكرات ليس لها أصل من الصحّة والواقع، ثم ينثني على الشيعة بصورة تهكمية صارخة، قائلاً: إن إظهار التشيع شائع لا أحد ينكره:

واعلم بأن الظُّلْمَ والظُّلَمَ التي قد شادها الاصرار والآصار
في هذه البلد التي أنتم بها والحكم بالقانون والأوزار
وبها اللواط لدى العساكر والزنا والخمر والتنباك والمزمار
والرفض عندكم رخيصٌ سعره إظهاره ما إن له إنكار
والله حرّم مُكث من هو مسلم في كل أرض حلها الكفار
ولهم بها حكم الولاية قاهرا فاربأ بنفسك فالمقام شنار[1].

وقد تصدى علماء السنة لابن سمحان وأضرابه، وكان شعر هجائهم قويًا شديداً أنَّ منه ابن سمحان وتوجّع، حتى ثارت ثائرته واستعدى عليهم قاسم بن ثاني، حاكم قطر ليكبتهم، قال عبدالله بن عبد القادر مهاجماً ابن سمحان[2]:

يا قبح الله بدعيًّا يحاول من إثبات بدعته ما كان ينهار
أخو هوى مولع بالحق يدفعه له على أهله رد وآثار
يقول: هذي فروع ضل آخذها وإنما هي قرآن وآثار
وضلّل الناس في تقليدهم سلفاً هُمُ الهداة الأُلى للدين أنصار

(١) الدكتور عبدالله الحامد العلي، مصدر سابق، ص١٥٢، ١٠٨.
(٢) المصدر السابق، ص٢٩٧.

يقول قد عبدوا الأحبار واتخذوا   لله نـــداً فحسب الأبـعـد النار

وحينما أبدى علماء الأحساء مآخذهم العديدة على آل سعود وحكمهم السابق، نرى ابن سمحان يعتذر لآل سعود ويقول: إن هزلهم خير من جدّ حكامكم:

ففيهم أمــور مـنـكـرات وفعلها   حــرام عليهم لا يسوغ ولا يحل
ولـكـنـهـم أولـــى بـكـل فضيلة   وأحسن حالاً من ذويك ذوي الخطل

ويمكننا تلخيص سبب موقف مشايخ الوهابية العدائي للحكم العثماني في الأحساء، في النقاط التالية:

أولاً: جعلت فكرة التكفير التي اعتمدها الوهابيون وطبقوها على جميع المسلمين ممن خالفهم في الرأي، جعلتهم في موقف مضاد للعثمانيين، باعتبارهم هم والشيعة والسنة في الأحساء كفرة وزنادقة، لا سيما وأن للوهابيين ثارات ضد العثمانيين الذين أسقطوا دولتهم الأولى، وهدموا الدرعيّة في حملة محمد علي باشا المعروفة.

ثانياً: اعتبر الوهابيون الأحساء إحدى مقاطعاتهم، كما اعتبروا سيطرتهم عليها انتصاراً مذهبيًّا كبيراً لهم، إضافة إلى المكسب السياسي والاقتصادي والاستراتيجي.. وبالطبع لا يمكن لهم تحمّل ضياعها، وإن كانت المنطقة قد خضعت لهم سنوات قليلة مملوءة بالفتن والاضطرابات.

ثالثاً: المسألة المهمة الأخرى، هي كون الوهابيين مندفعين بأقصى قوة ضد الشيعة، الذين هم أكثر كفراً من الأتراك -بنظرهم- وكان الشيعة يشكّلون تحدياً مذهبيًّا حاولوا تطويعه بالقمع والإرهاب.. ولشدّما آلمهم رؤية الشيعة يعودون لممارسة عقائدهم المذهبية بحرية كاملة، فراحوا يصرخون ويعيّرون ويهدّدون بسيف ضائع في خضم الفتن السياسية في نجد.. ولمّا لم يجدوا ما يهددون به انكفؤوا يهجون أبناء فيصل بن تركي على صراعهم وتضييعهم للأحساء.

موقف الإنجليز من الحملة العثمانية

قبل أن تنطلق حملة مدحت باشا من بغداد، وحينما كان يجري الأخير استعدادته لها، حاول قدر الإمكان ألّا يتسرّب خبرها إلى الإنجليز، وشدّد على موظفيه بألّا يلتقوا

بأي بريطاني، ولما قرب أكتمال الحملة، عرف البريطانيون عن طريق جواسيسهم بأمرها، فأرسلوا للباب العالي مستفسرين عن أهدافها، فأجاب وزير الخارجية التركي مطمئناً بأن نجداً وتوابعها من أملاك الدولة، أما الإمارات الأخرى فليس لحكومة الأستانة أطماع فيها[1].

لم يكن للبريطانيين من حجة للاعتراض، فهم يعلمون أن نجداً والأحساء خاضعتان إسميًّا لدولة الخلافة، وكثيراً ما كان فيصل بن تركي، وأبناء فيصل يتحدثون مع الإنجليز بوصفهم ولاة للعثمانيين، ولكن بريطانيا خشيت من أن يجازف العثمانيون بإقلاق مصالحهم في المناطق الأخرى، أو على الأقل أن يهبّ الخاضعون تحت نفوذهم لمعاونة الأتراك المندفعين بقوة.. أي أنهم كانوا خائفين من فقدان هيبتهم لدى المشايخ الخاضعين لهم، كما حدث فعلاً في الكويت، التي آزرت الحملة البحرية والبرية.. كما كانوا قلقين من انتقاص سيادتهم الكاملة في مياه الخليج[2].

عاد مدحت باشا فأزعج الإنجليز بتصريحاته، فقال مؤكداً في صحافته أن نجداً تعني بالنسبة إليه كل المناطق التي كانت خاضعة لها في يوم من الأيام، كالبحرين وعمان وعموم الساحل المتصالح وقطر، فبادر البريطانيون بفزع إلى الباب العالي عراضين عليه الاتفاقيات المعقودة بينهم وبين شيوخ الإمارات المحلية. فمثلاً، حدث في مارس ١٨٧٠ أن صرح مدحت بأن البحرين تابعة لنجد، وأن الأخيرة تابعة بدورها للسلطة العثمانية، فأبرق القنصل البريطاني في بغداد إلى السفير البريطاني في القسطنطينية قائلاً: «يُقال: إنه لو نجحت حملة نجد، فإنها ستسير لاحتلال البحرين ومسقط وساحل الجزيرة العربية».. ولما عُرضت هذه المخاوف على الباب العالي، أكد من جانبه أنه لا يعتزم التعرض لتلك البلدان، رغم أن البحرين إمارة لا تزال تابعة لدولة الخلافة.

على أن القلق استمر مسيطراً على عقول صنّاع السياسة البريطانية، من أن تجدّد الدولة العثمانية نشاطها وتمدّ يدها إلى الأطراف البعيدة من إمبراطوريتها، فحاولوا مراراً أن يوقفوا الحملة بالاحتجاج حيناً، وبالإنذار والتهديد حيناً آخر، من أن حملة مدحت «تعكّر صفو السلام في المنطقة».

---

(١) التيارات السياسية في الخليج والجزيرة العربية، الدكتور صلاح العقاد، ص١٧٦.
(٢) تاريخ الكويت الحديث، ص٢٥٠.

وزاد امتعاض البريطانيين من الانتصارات السهلة التي حققها الأتراك في القطيف والأحساء، وكانوا يتمنون لو أن الحملة تتوقف عند الأحساء، إلا أن تحول قاسم آل ثاني -ابن حاكم قطر- إلى محالفة العثمانيين أفسد حسابات الإنجليز.. فقد أشار قاسم على نافذ باشا بعد استقراره في الهفوف، أن يجعل قطر تحت الحماية التركية تخلصاً من عبء الضريبة التي يصرّ البريطانيون عليه أن يؤديها لحكام البحرين، فخرجت قوة من الأحساء واستقرّت في الدوحة وفرضت الحماية عليها، ويومها لم يرَ الشيخ قاسم، الذي كان قبل ثلاث سنوات «١٨٦٨» قد وقّع معاهدة مع بريطانيا، في وجود الحامية العثمانية تعارضاً مع مركزه واستقلاله كزعيم لقبائل قطر[١].

صعق الإنجليز لجرأة مدحت باشا وثقته بقدرته على تصفية النفوذ البريطاني من كل شاطئ الخليج الغربي، فحين وصل خبر رفع العلم العثماني على الدوحة إلى المقيم في بوشهر، بادر بإرسال السفينة الحربية «HUGH ROSE» إلى قطر في منتصف ١٨٧١، للتأكد من الخبر الصاعق.. فجاء التأكيد بأن العلم العثماني يرفرف على الدوحة، وأن سفناً كويتية وعثمانية قد زارتها، فعاد المقيم وأرسل نائبه الميجور سميث إلى الدوحة، ليتأكد من الأمر ثانية، فاجتمع الميجور بحاكم قطر محمد آل ثاني، وعلم منه أنه لم يرد الحماية العثمانية، لكن ولده قاسم أجبره على قبولها، وهو الذي رفع العلم التركي.

أبرق المقيم في بوشهر، الكولونيل بيلي، إلى القنصل البريطاني ببغداد يأمره بالاجتماع مع مدحت باشا، ويستفسر منه عمّا يجري في قطر. وقد قابل مدحت الدهاء البريطاني بالمثل، فقال: إنه لا يعلم بأن العلم التركي يرفرف على قطر، فضلاً عن أن التأكيدات العثمانية لم تشملها.. ثم طعن السلطات البريطانية في الصميم بقوله: إن البحرين تابعة لنجد، ملمحاً إلى احتمال ضمّها[٢].

بل ها هو مدحت -بجرأته المعودة- يحاول إقناع شيخ البحرين، بأن يسمح للعثمانيين بإقامة قاعدة لعملياتهم العسكرية لضرب سعود الفيصل على الأراضي البحرينية، فأوعز البريطانيون لحاكم البحرين أن يرفض الطلب، بل ورفض التعاون من الأساس.. مع أن طلب مدحت حمل في طيّاته تهديداً وإحراجاً للشيخ عيسى، الذي

---

(١) العقاد، مصدر سابق، ص١٧٤ - ١٧٧. وانظر الدولة السعودية الثانية، ص١٦٩.

(٢) الدكتور محمد عرابي نخلة، مصدر سابق، ص١٦٧ - ١٦٨.

استمر في دعم سعود الفيصل في مهاجمة القوات التركية، ملمّحاً إلى أنها طرف في النزاع.. ورغم أن مدحت لم يرد أن يحصل على قاعدة عسكرية في البحرين، وبنظرنا فإنه لم يتوقع ذلك، فإنه أجبر الإنجليز وشيخ البحرين على الانكماش، وجعلهم يفكّرون فيما قد يؤديه تماديهم في دعم سعود الفيصل.

لقد كانت عين الإنجليز مفتوحة على الأحساء باعتبارها الحلقة المفقودة في سلسلة المقاطعات المتناثرة على الخليج، فحاولوا إعاقة تجريد الحملة من الأساس، فإذا بمدحت يأخذ قطر ويطرق أبواب البحرين، ويقضي على التواءات شيوخ الكويت المعهودة!

شعر الإنجليز أن مدحت باشا يريد استغلال الدعم البريطاني لسعود الفيصل، وتورّط البحرين ومسقط في ذلك لتوسيع نفوذ العثمانيين، وكان مدحت صريحاً حينما قال: إن نجد تشمل البحرين وقطر ومسقط وكل الإمارات الأخرى.. ولهذا أبدى البريطانيون الحياد الظاهري في الصراع العثماني السعودي، وتركوا سعود الفيصل وحيداً حينما رأوا أن القوة التركية عازمة على إنهاء نفوذه. ومن جهته شعر الشيخ عيسى بن علي حاكم البحرين بأن دعمه وصداقته لسعود هي السبب في تهديد العثمانيين له، وخشي من أن تودي به تلك العلاقة إلى خطر انتقام العثمانيين منه.. ومن الملاحظ أن عيسى كان على استعداد لمعاونة سعود، طالما لم يخرج ذلك عن النطاق المحلي، أي في علاقته مع غيره من الشيوخ، ولكن عندما أدرك ما يجرّه عليه ذلك من تهديد الأتراك بدأ يتراجع عن تأييده، وكان هذا هو الموقف البريطاني عينه.

فقد أعرب عيسى للميجور سيدني سميث في الأول من نوفمبر ١٨٧١، بأنه يرغب في الوقوف على الحياد في الصراع العثماني السعودي، وأنه لن يستطيع تقديم المساعدات لسعود الفيصل بعد اليوم؛ لأن ذلك يعرض بلاده للخطر، ولم يلبث أن أكد عيسى حياده بفرض ضريبة مقررة على حمولة من القمح كانت مصدّرة من الهند لحساب سعود.. وعاد فكتب مرة أخرى للمقيم بيلي بأنه يخشى أن يلتجئ سعود مرة أخرى للبحرين في محاولة لتنظيم صفوفه والبدء بجولة جيدة من المعارك ضد الأتراك، فاقتنع بيلي أنه ليس من الصالح الوقوف مع سعود في معركة خاسرة إلى الحد الذي يهيج الأتراك بالسماح له بالالتجاء للبحرين، ونصح بيلي عيسى بأن يكتب لسعود محذّراً إيّاه من اللجوء إليه.

أكثر من هذا.. لمّا رأى الإنجليز الاندفاع التركي للسيطرة على سواحل الخليج

كلها، وإحكام السيطرة على مياه الجزيرة العربية من جهاتها المتعددة، قدّموا احتجاجات متكررة إلى الباب العالي ضد زيادة الأسطول العثماني في الخليج، مستفيداً من فتح قناة السويس، وقدوم سفينتين حربيتين لتنضمّا إليه.. في الوقت الذي اعترفوا فيه بأن نجداً جزء من الإمبراطورية العثمانية، وطلبوا عدم التدخل في شؤون الإمارات الأخرى، وهددوا بزيادة السفن البريطانية لإعادة التوازن[1]. ولم تتراجع تركيا عنت طموحاتها إلّا بعد إبعاد مدحت باشا عن حكم العراق الذي حاول -أثناء زيارته للأحساء وتفقد قواته فيها- زعزعة الوجود الأجنبي في البحرين، فاعترضته السفن البريطانية فأدى إلى تراجعه عن مخططه -إلى حين-.

بقي أن نوضح موقف بريطانيا من سعود الفيصل أثناء تقدم القوات العثمانية واحتلالها المنطقة.

أول ما يلاحظه الباحث هو أن الإنجليز كانوا ضد الحملة، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لدولة استعمارية تطمح إلى مدّ نفوذها إلى أي مكان تستطيعه، ولا يحتاج الأمر إلى إيضاح بأن وجود الأتراك في الأحساء يعيق بشكل كبير تنفيذ هذه الطموحات، خاصة وأن تركيا دولة عظمى منافسة، بحساب ذلك الزمان.

أما سبب عدم الاصطدام بالقوة التركية فراجع من وجهة نظرنا إلى الأمور التالية:

أولاً: أن الحرب الكبيرة تكون في الغالب من أجل هدف كبير، وأن المجازفة بحرب مع الأتراك من أجل الأحساء هي بالحساب البريطاني حرب غير معلومة النتائج، وستكون الحرب عالمية شاملة تنتهي بنهاية أحد الطرفين، ولم تكن بريطانيا يومها متأكدة من النصر. وكانت سياستها تقوم على اقتطاع أجزاء من الإمبراطورية العثمانية بالتعاون مع الدول الأخرى، كما حدث في حرب البلقان، فضلاً عن أن سياسة بريطانيا كانت قبل مدّة وجيزة من الحملة تعتمد على تقوية الإمبراطورية العثمانية ضد الإمبراطورية القيصرية الروسية.

ثانياً: ليست هناك مسوغات قانونية في شن الحرب على أراضي الأحساء والقطيف

(١) محمد عرابي نخلة، مصدر سابق، ص١٦٨ - ١٦٩.

وقطر بل وكامل نجد، وهي أراضٍ سبق لتركيا أن سيطرت عليها سنوات طويلة، وكانت بريطانيا هي العنصر الدخيل والطارئ في المعادلة.

إن الإنجليز ومنذ البداية حاولوا تحاشي الحرب المباشرة مع الأتراك، بالامتناع عن دعم سعود الفيصل، وإن كانوا راغبين في ذلك.. ولعلهم رأوا أن الحكم السعودي مشرف على نهايته نتيجة الحرب الأهلية من جهة، وأن آل سعود لن يكون بمقدورهم -حتى مع الدعم البريطاني- ثني الحملة التركية عن أهدافها، هذا إضافة إلى ما سيسببه الدعم من تحرش تركي بمناطق النفوذ البريطاني في البحرين وساحل عمان المتصالح.

ولهذا رأيناكيف أن بيلي لم يجب على التماسات سعود الفيصل بتنسيق العمل لمواجهة الحملة التركية بحراً، في حين يتصدى لها هو من البر، ورأينا بيلي مرة أخرى يوافق -وإن لم يكن يدفع- باتجاه منع سعود من اللجوء إلى البحرين، حماية لها، رغم الإغراءات التي قدمها الأخير.

ومن خلال مطالعتنا للمصادر السعودية، نجد أن هناك عتاباً للإنجليز، وملخص العتاب هو: لماذا سمح الإنجليز وهم سادة البحر للحملة العثمانية البحرية بالقدوم؟.. ولماذا لم يكونوا أكثر جديّة في تنفيذ تهديداتهم ضد الأتراك؟

يقول أحد السعوديين[1]: «إن بريطانيا لم تكن جادّة في استخدام القوة عند عدم جدوى الإنذارات»، وهذا أمر طبيعي، فالمصلحة البريطانية لم تكن في شن حرب لم تكن متأكدة من الانتصار فيها، ومن أجل هدف صغير يكون في النهاية ملكاً للسعوديين.

على أن بريطانيا لم تكن بالضرورة -وفي بداية الأمر- تريد الأحساء والقطيف لها، بمقدار ما كانت لا تريده للعثمانيين، بمعنى أنها كانت تريده لسعود الفيصل لتؤمن المرحلة الأولى حمايتها لمحمياتها، ومن ثم تبسط نفوذها الكامل على الأحساء نفسها.. لكن سياسة بريطانيا لم تزد عن دعم سعود الفيصل بالسلاح والإمكانات وتهييج القبائل البدوية التي تطوق الأحساء وواحة القطيف، ولذا يقول المؤلف السعودي بعد ن بيّن أن بريطانيا لم تكن تنوي استخدام القوة: «لذا لجأت إلى أهون الطرق وأسهلها» وهي الحرب بالنيابة «حين أخذت تساعد الأمير سعود بن فيصل عن طريق كل من حاكمي

(١) دراسات في تاريخ الخليج والجزيرة العربية، ص١١٥.

مسقط والبحرين»!.

ولقد أسمع الملك عبد العزيز الكابتن شكسبير، المعتمد السياسي في الكويت، أثناء لقائه بـه في أبريل ١٩١١ المقالة نفسـها، فقـد كان الملك يومئذ يريد مـن البريطانيين منع الأتراك من القدوم إلى الأحساء بحراً ومهاجمتهم، وهو بإمكانه منازلتهم في البر واحتلال الأحسـاء والقطيف وتخليصهما من أيدي الأتـراك.. وضرب الملك عبد العزيز مثالاً على ذلك من واقع الحرب الأهلية بين أعمامه فقال:

«حين قدم الأتـراك إلى الأحسـاء، كان جميع أفـراد عائلة آل سـعود في صراع مع بعضهم البعض، مما مكّن الأتراك من الاسـتيلاء على الأحسـاء والقطيف بسهولة كبيرة، إلّا أنهـم لم يتوغلـوا أبعـد من ذلك إلى نجـد.. ولم يكن بإمكان الأتراك أبـداً أن يأتوا عن طريق البر، كما لم تكن الحكومة البريطانية مُصيبة بسماحها لهم بالقدوم عن طريق البحر؛ لأن السـفن الحربية البريطانية كانت دائماً تقوم بحراسـة الساحل، وكانت ترفض السماح لحملات عسـكرية بالتحرك بحراً. عرض سـعود الفيصل هذا الأمر على المقيم البريطاني في بوشهر، وارتمى أمامه طالباً حمايته، إلا أن الإنجليز لم يصغوا إليه»[1].

وغنيّ عـن القول أن الحملة التي قادها نافذ باشـا كانت برية وبحرية، وأن الكثير مـن القـوات وصلت إلى الأحسـاء برًّا كـما أوضحنا، أمـا أن الإنجليز سـمحوا للأتراك باسـتخدام البحـر، فذلك أمر ما كان يمكنهم مواجهته بأكثـر من الاحتجاج، وقد فعلوا ذلك كما اسـلفنا، وأما أن يحارب الإنجليز الأتراك بالنيابة عن الآخرين، فما اعتاد هؤلاء أن يدخلوا حرباً بالنيابة عن أحد، بل العكس من ذلك تماماً.

مقاومة السعوديين للحملة التركية

رأينـا كيـف انتزع الأتـراك القطيف والأحسـاء بسـهولة فائقة، دون حـدوث أية صدامـات أو مقاومة سـعودية تذكر.. ففي الوقـت الذي تمّت فيه السـيطرة التركية على المنطقة، تشجّع أهالي الرياض في الثورة على سعود الفيصل وأخرجوه، وتولّى عمه عبدالله

(١) الوثيقة البريطانية (E 20868) رسالة من شكسبير إلى المقيم البريطاني الميجور كوكس بتاريخ الثامن من أبريل ١٩١١.

بن تركي الحكم، ويومها كان عبدالله الفيصل قد قدم للأحساء بناء على طلب نافذ باشا، وهناك التقى بأخيه محمد الفيصل الذي أطلق سراحه من سجن القطيف، وأصبح سعود الفيصل طريد الفيافي والقفار في بادية الأحساء، يلمّ شمل القبائل من جديد ليهاجم الأحساء والقطيف والرياض أيضاً.

بعد شهرين فقط من استيلاء الترك على المنطقة، بدأ سعود بتوجيه الإنذارات لهم ويدعوهم للانسحاب، وفي الوقت نفسه أرسل للمقيم البريطاني في بوشهر، بيلي رسالة يذكر فيها أنه قد سيطر على أوضاع نجد تماماً، وأنه يريد أن يحل السلام بين السكان بعد أن سيطر على ما كان في حوزة أخيه الموالي للأتراك.. وأعلن أنه يؤيد بريطانيا في كونها الوحيدة المسؤولة عن حماية منطقة الساحل، وعرض في الرسالة على بيلي: أنه يضع نفسه تحت الحماية البريطانية(١).

وفي آخر جمادى الآخرة ١٢٨٨هـ، أوائل شهر اكتوبر ١٨٧١، نزل سعود الفيصل على قبلة العجمان ووفد إليه آل مرّة، وحرّضهم على مهاجمة الأحساء، واجتمع لديه خلق كثير من الطامعين في النهب والسلب، وجعلوا يغيرون على القرى، وينهبون المارّة، ويفسدون الزروع والثمار، فخرج إليهم قائد الجيش التركي ومعه عبدالله الفيصل، بجميع ما لديهم من الجيوش والمدافع، ووقع بينهم القتال في الموضع المسمى «الخويراء» جنوب الهفوف، فهُزم جند سعود، وأمنت البلاد وشملها الاستقرار(٢).

في هذه الأثناء فرّ عبدالله الفيصل وأخوه محمد الفيصل من الأحساء إلى نجد، وتشير المصادر السعودية إلى أن السبب هو خوف عبدالله من الاعتقال، إذ رأى أن نية الأتراك كانت تميل إلى عدم تسليم الأحساء والقطيف إليه.

ولربما كان العثمانيون -وبالخصوص مدحت- يميلون إلى تسليم المنطقة إلى عبدالله الفيصل بعد القضاء على أخيه، إلا أنهم سرعان ما غيّروا رأيهم لسببين:

الأول: إلحاح الأهالي على نافذ باشا، ثم على مدحت باشا بألّا يسلّما السعوديين الحكم في المنطقة، لأسباب واضحة، هي أنهم للتو قد انتعشوا من الأمن الضارب أطنابه،

(١) رسالة من بيلي إلى حكومة الهند في ٢٨ سبتمبر ١٨٧١، انظر: الدولة السعودية الثانية، مصدر سابق، ص١٧٢.

(٢) آل عبد القادر، مصدر سابق، ص١٧٢، وتاريخ الكويت الحديث، ص٢٥٢.

كما أنهم رأوا أن الحكم العثماني أخف وطأة من حكم السعوديين الذي أثقل الأهالي بالمظالم والتعديات في معاشهم ومعتقدهم.

الثاني: شعور الدولة العثمانية بأن البيت السعودي الحاكم ضعيف وغير قادر على وضع حدّ للفوضى السياسية والأمنية، وحماية قوافلها التجارية المنطلقة من وإلى العراق عبر شمال نجد، كما لا تستطيع المنطقة في ظل الحكم السعودي من إيقاف الانتشار البريطاني، أو على الأقل تأجيله، حفاظاً على ولاياتها في العراق.

ويبدو أن نقاشات ومطالبات عديدة قدّمها وجهاء وتجّار الأحساء والقطيف إلى نافذ باشا، تدعوه إلى عدم تسليم السلطة لعبدالله الفيصل، ولاشك في أن الأخير كان على اطّلاع بما يجري حوله، وموقف السكان المعارض له، ولربما كان واضحاً لديه، أن نافذ باشا قد تأخر في تسليم الحكم له، ريثما يأتي مدحت للأحساء لتفقّد قوات الحملة، وشعر أن النتيجة لن تكون في صالحه، وبالتالي فهو معرّض لخطر الاعتقال، فقرر الفرار.

غادر مدحت باشا بغداد متجهاً لساحل الأحساء في ٢٨ أكتوبر ١٨٧١، فوصل إلى ميناء العقير في الأول من نوفمبر، ولكنه انطلق مباشرة من هناك إلى القطيف أولاً، حيث قابله زعماؤها واحتفوا به، وألحّوا عليه بعدم تسليم الحكم للسعوديين، وإلا فإن البلاد ستعود إلى سابق عهدها من الفتن، وأقنعوه بأن النتيجة المحتملة هي أن تخسر تركيا نتائج مجهوداتها التي جرّدت الحملة من أجلها، وقدّم وجهاء القطيف، وفي مقدمتهم زعيمها أحمد مهدي بن نصر الله، أشبه ما يكون بعريضة رسمية بهذا الطلب، وقّع عليها زعماء المدن والقرى في الواحة.

وحدث الأمر ذاته حينما وصل مدحت إلى الأحساء، فقد قدّم له شيوخها وعلماؤها وتجارها عريضة يطالبون فيها الباب العالي، بأن يأخذ على عاتقه إدارة المنطقة مباشرة[1].. وبناء على هذا الإلحاح أصدر مدحت منشوراً وزّعه على الأهالي معلناً فيه نهاية الحكم السعودي للأحساء والقطيف، وتعيينه نافذ باشا كأول متصرّف لسنجق نجد.. وأكد مدحت في منشوره أسباب اتخاذ هذا القرار بأن الأهالي يرفضون الحكم السعودي الذي يعتمد على القسوة والظلم والاضطهاد[2].

---

(١) العابد، مصدر سابق، ج٢، ص٢٤٠.

(٢) تاريخ الكويت الحديث، ص٢٥٢. والدولة السعودية الثانية، ص١٦٩.

غير أن مدحت لم يتخذ هذا القرار إلا بعد أن طلب من عبدالله الفيصل أن يأتيه لمقابلته في الأحساء، وبعد أن رفض الأخير الطلب خوفاً على نفسه. وقد أشارت «مذكرات مدحت باشا» إلى أن رفض عبدالله القدوم هو الذي أضاع عليه الأحساء!

لم يكن عبدالله راغباً أو قادراً على مواجهة الأتراك، وكتب لمدحت باشا مبدياً استعداده لدفع ضريبة مقابل اعتراف الباب العالي به حاكماً على الإقليم، وأضاف بأنه «لا يحق للسلطان تجريده من ممتلكات آبائه وأجداده، وأن السلطان والموقعين على العريضة التي قدمت له -من الأهالي- خُدعوا بمحتوياتها وأغراضها، فالسلطان اعتقد أن الموقعين يطالبون بالحكم التركي المباشر، بينما اعتقد موقعوا العريضة أنهم كانوا بذلك يطالبون بالحماية من الضرائب الزائدة على دخلهم وممتلكاتهم...» التي كانت في العهد السعودي السابق[1].

وغني عن القول أن هذه الحجة السعودية ضعيفة، فالأهالي بأجمعهم عانوا من الضرائب غير الشرعية التي سنّها السعوديون لابتزازهم، مما دفع بمدحت إلى سنّ نظام ضرائبي جديد، يقوم على أسس الشريعة الإسلامية، وكانت هذه احدى المآخذ التي قدّمها الأهالي لتبرير مطالبتهم بالحكم التركي تخلصاً من الحكم السعودي.

وبالطبع فإن عبدالله الفيصل تابع احتجاجاته لدى الباب العالي ولدى مدحت باشا، ولكن أيًّا منهما لم يعرها اهتماماً جادًّا؛ لأن موقف عبدالله بالغ الضعف، حيث أنه بعد أن سيطر على الرياض عاد أخوه سعود واحتلها من جديد، ولعل في رسالة عبدالله للخديوي إسماعيل، والي مصر، وطلبه الوساطة منه لدى الباب العالي من أجل إرجاع الأحساء، أو الاستفادة بإجراء معاش له منها، ما يدلّل على الضعف والتذلّل. وسنلاحظ كيف أن هذه الرسالة كتبت بلغة بالغة الاستعطاف والترجّي.. يقول عبدالله في الرسالة:

«... سار عسكر تحت رياسة الفريق نافذ باشا وضبطوا الأحساء والقطيف، وخادمكم -يعني نفسه- قد توجهت لخدمة الدولة، وحضرت عند الفريق الموما إليه بالأحساء وملتقي بالخدمة، وبعد هذا صدر من والي بغداد إعلانات جملة إلى كافة الرعايا بالاعتراض على آل فيصل وعدم استخدامهم، وهذا خلاف ما كنا نأمله من مراحم

(١) العابد، مصدر ساق، ج٢، ص٢٤١.

الدولة وعدالتها، وصرت مأيوس وظهرت من الأحساء، ولازالت معروضاتي مترادفة على الفريق المومأ إليه وإلى والي بغداد، مستجلباً مراحم وتعطّفات دولتي وعدالتها التي هي ملجأ كل مسلم، ولا صدر مني بحق الحكومة، ولا بحق الرعية ما يوجب الصدود والتغافل عن خادمكم، فأما الشقي سعود، فهو لا يزال على فساده، ومرتين يتلاقى مع العساكر الشاهانية التي طاعتها فريضة على كل مسلم، والآن خادمكم جامع حربيّة من الرعايا والعشاير، وبحول الله ندمّره ونقطع عرق فساده، حيث إن اليوم كافة أهل نجد والعسكر الذي بالأحساء والقطيف بغير طمأنينة من حركاته وفساده.. فأما نحن أهل هذا البيت غرس المرحوم المبرور محمد علي باشا طيب الله ثراه، وأنجاله المعظّمون. فالذي نلتمس من شفقة مراحمكم أن تنظرون خادمكم وتنقلون بعرض حالي على أعتاب دولتي العليّة، وتستجلبون وقوع أنظارها السنيّة بصدور فرمان يتضمن وقوع أنظارها على عبدها، ومع الأنظار تحسن على عبدها بمعاش من واردات الأحساء والقطيف، وتستجلبونا بذلك الدعوات الخيريّة منا ومن كافة الفقراء والرعية، وتخلص رقاب هذه الأمة من جور هذا الشقي وسفاهته، ولأجل الدخالة على مقامكم العالي والالتجاء إلى فضلكم المتوالي، واستجلاب مراحمكم في تسوية الأحوال بما يراه نظركم.. وقد حررنا هذا العرض وشرحنا ما يلزم، ونحن حالاً قريبين من البصرة منتظرين من فضلكم الجواب، وعلى كل حال الأمر لحضرة من له الأمر، أفندم».

ختم عبدالله الفيصل

عبدكم

عبدالله الفيصل[1].

سعى سعود من أجل التفاهم مع أخيه عبدالله لمهاجمة الأتراك، وكان من مصلحة الإنجليز أن يتم التفاهم والتعاون فتخفّ قبضة العثمانيين على الأحساء، ويقلّ تدخّلهم في أمور الخليج[2]. وقد تعاون الإخوان عسكريًا في الإغارة على القطيف والأحساء.. ففي أبريل ١٨٧٢ وصل سعود الفيصل ومعه العجمان وآل مرّة بالقرب من القطيف لمهاجمتها، في الوقت الذي حشد فيه عبدالله قوة من الهواجر والدواسر لاحتلال الهفوف، وكان التخطيط هذا بتقاسم الهوجم يهدف إلى تشتيت قوة الأتراك.. ومع أن حالة القوات

(١) جمال زكريا قاسم، ج١، ص٤٨٧، والرسالة غير مؤرخة.

(٢) عبد العزيز نوار، مصدر سابق، ص ٤٣٣.

العثمانية لم تكن جيدة بسبب تفشي الأمراض فيها، رغم استبدال أعداد كبيرة من الجنود أثناء زيارة مدحت للأحساء.. إلّا أن القوات استطاعت إنزال الهزيمة بالأخوين، حيث هرب البدو من جيش سعود، وأما جند عبدالله فقد كان منهزماً فاسداً كالعادة[1].

كان هذا آخر هجوم قوي لسعود الفيصل، فقد أصبح يائساً من النصر، خاصة بعد تخلي الإنجليز والشيخ عيسى عن دعمه رغم إلحاحه المتواصل[2]، فاتجه نحو حلحلة الخلاف مع الدولة العثمانية بالسلام أكثر من أي وقت مضى.. وكان سعود أثناء وجود مدحت في الأحساء قد حاول التفاهم مع الأخير، وقدّم عرضاً وقّع عليه عدد من مشايخ نجد يطلبون فيه إسناد حكم نجد إلى سعود في إطار التبعية للدولة العثمانية[3]، ولكن مدحت لم يعره اهتماماً، وعرض سعود مرة أخرى على والي بغداد أن يستعيد الأحساء وتكون تحت إدارته المباشرة، غير أن طلبه لم يلقَ قبولاً لدى الأتراك، إذ إنهم كانوا مصممين على الاحتفاظ بالأحساء وعدم التعامل مع آل سعود[4].

مع بداية عام ١٨٧٣ زحف سعود مرة أخرى لاحتلال الرياض، فهزم أخاه عبدالله، وأعاد احتلال المدينة، وفرّ أخوه إلى بادية الكويت، ومعه جموع من أعراب قطحان.. وبدأ سعود بالاتصال من جديد مع المقيم البريطاني في بوشهر من أجل الحصول على الدعم والمساعدة، ومنوّهاً بالسياسة البريطانية التقليدية التي تمنع استخدام مياه الخليج للأعمال الحربية، وذلك فهو أهمل ساحل الأحساء لحماية بريطانيا مما أفقده إيّاه، وراح يكرر طلب المساعدة البريطانية بصراحة.. لكن بيلي، وبناء على أوامر حكومته، أبلغه بأنه لم يكن طرفاً في أية معاهدة بحرية مع بريطانيا، وأن الأخيرة لم تتعهّد -رسميًّا- بحمايته، وبالتالي لا حق له بالعون! وطلب سعود فيما بعد التدخل من الإنجليز لدى السلطات العثمانية من أجل أخيه «عبد الرحمن» مما كان له أثر فعال في عودته من العراق ليبدأ حربه ضد العثمانيين من جديد[5].

ورغم إحجام السلطات الإنجليزية عن تقديم العون لسعود، خوفاً أن يستغل

(١) الدولة السعودية الثانية، ص١٧٢ - ١٧٣.

(٢) محمد عرابي نخلة، مصدر سابق، ص١٧٨ - ١٩٤.

(٣) عبد العزيز نوار، مصدر سابق، ص ٤٣٢ - ٤٣٣.

(٤) العابد، مصدر سابق، ج٢، ص٢٤٤.

(٥) محمد عرابي نخلة، ص١٩٤.

الأتراك ذلك حجّةً للتمدد نحو مناطق النفوذ البريطانية، فإنها لم تتوقف عن الدسـائس، وتشـجيع المعارضة، وكانت تتمنى أن يلتقي الأخوان، عبدالله وسـعود، وأن يعملا معاً عـلى إضعـاف الأتراك في قاعدة نفوذهم «الأحسـاء» وإشـغالهم عن التوجـه للمناطق الأخرى[١].

شـجعت بريطانيا المفاوضات بين السـعوديين والأتراك حتى تعجّل بإنهاء الحكم التركـي في الأحسـاء، بل إنهـا حاولت التوسـط بين الطرفـين، إلا أن الأتـراك لم يكونوا راغبين في الوساطة البريطانية، وإن كان سعود الفيصل يلحّ عليها، وقد سبق له أن كتب لبيلي يستشيره في الشروط التي عرضها العثمانيون عليه، ومنها أن يبعث باثنين من أولاده رهائنَ إلى بغداد، وأن يدفع المبلغ نفسـه الذي كان أبوه فيصل يدفعه للسـلطان، وقد قدّم هذا العرض خليفة مدحت باشا على ولاية بغداد «رؤوف باشا»[٢].

فشلت العروض السابقة، كما فشلت القوات السعودية في تحقيق أي مكسب لها في الأحسـاء، وكان كل ما يطمح إليه سعود هو البقاء في سلطته داخل نجد.. وفي ١٨٧٣/ ١٢٩٠هـ طلب سـعود من حاكم بندر عباس، أحمد خان أن يتوسـط لدى رؤوف باشا في الأمر، وكانت السـلطات العثمانية تميل إلى الاتفاق معه على أسـاس أن يدفع الضريبة السنوية مثلما كان الحال في عهد أبيه على أن يقدّم رهائن إلى سلطات بغداد لضمان استمرار ولائـه.. وقد ذهب أخ سـعود، عبد الرحمن الفيصل -ولد الملك عبـد العزيز- إلى بغداد عام ١٨٧٣ كرهينة وبقي مدة عام، وبالتحديد حتى أغسطس ١٨٧٤ [٣].

وقـد اعتاد الكتّاب السـعوديون تضخيم مدة بقاء الأمـير عبد الرحمن في بغداد إلى ثلاث سـنوات، وقالوا: إنه كان سـجيناً في المعتقل، وهذا غـير صحيح، لأن عبد الرحمن غـادر وبسـهولة بغـداد ودون اعـتراض.. يقول الملـك عبد العزيـز لشكسـبير، المعتمد البريطـاني في الكويـت، حـول هذا الاتفاق: إن عمه سـعود، وبعد أن فشـل في الحصول على دعم القنصل بيلي، حاول «ترتيب اتفاق مع الأتراك، الذين وعدوه بالكثير ولكن لم

(١) المصدر السابق، ص١٩٤ - ١٩٥. سجل البريطانيون في أغسطس ١٨٧١ شائعات ترددت في القطيف بأن القوات العثمانية على وشك الذهاب إلى الساحل العماني، إلا أن الكولونيل روس الذي سجل هذه الشائعة ونقلها إلى المقيم بيلي، عاد ونفاها.

(٢) العباد، مصدر سابق، ج٢، ص٢٤٣.

(٣) عبد العزيز نوار، مصدر سابق، ص٤٣٤.

يفعلوا شيئاً، إذ أرادوا أن يروا سعوداً يحضر شخصياً إلى بغداد لكي يسجنوه ثم يستولوا على نجد بأكملها. وحين وافقوا على أن يذهب أخوه عبد الرحمن بن فيصل مكانه مع وعد بالأمان، فإنهم في الواقع قاموا بسجنه»[1].

ويجب الالتفات إلى حقيقة مهمة، وهي أن الاتفاق الأخير لم يكن يتعلق بتسليم الأحساء لسعود، وإنما بإبقاء حكم الرياض له، حيث صرف العثمانيون النظر عن متابعة الحملة لاحتلال نجد، وتم استدعاء مدحت للأستانة في ربيع ١٨٧٢.

محاولة عبد الرحمن احتلال الأحساء

عانت القوات التركية كثيراً من الأمراض أثناء تواجدها في المنطقة، خاصة في القطيف الملتصقة بساحل البحر، مما جعل مدحت يتطلّع إلى بناء بلدة جديدة على بعد قليل منها، وحين غادر الأخير القطيف في الثامن والعشرين من ديسمبر ١٨٧١، اصطحب معه الجنود المرضى والمتعبين بعد أن جاء ببدل عنهم[2].

ومن الواضح أن العثمانيين كانوا عازمين على سحب قواتهم من الأحساء والقطيف، مع إبقاء عدد قليل من الجنود في الحاميات، وانتهاج سياسة تتولى من خلالها القوى المحلية دوراً في حكم المنطقة، مع ارتباطها الرسمي بالدولة.. غير أن هجمات السعوديين -في العامين اللذين تليا حملة الأحساء- على المدن الأحسائية والقطيفية والقرى التابعة لها، أجّلت هذا الانسحاب، مع أن العثمانيين لم يتأخروا في سحب قواتهم.. فبمجرد أن لاحت لهم الفرصة عام ١٢٩٠هـ - ١٨٧٣ سحبوها في الوقت الذي رُتّب فيه اتفاق ضمني مع سعود الفيصل، سافر بموجبه أخوه عبد الرحمن إلى بغداد كرهينة.

ويعزو العديد من المؤرخين أسباب سحب القوات العثمانية، وانتهاج سياسة محلية إلى ثلاث أمور:

الأول: أن الحكم المباشر يكلّف الدولة نفقات طائلة، في الوقت الذي لم تفد تركيا اقتصادياً من الأقليم؛ لأن الحملة أساساً لم يكن من بين أهدافها الإفادة الاقتصادية، بل مواجهة

(١) رسالة من شكسبير إلى المقيم البريطاني في بوشهر، السير بيرسي كوك، مؤرخة في ٨/ ٤/ ١٩١١.
(٢) العابد، مصدر سابق، ج٢، ص٢٤٢.

التسلل البريطاني إلى الساحل الأحسائي، فضلاً عن أن الإفادة الاقتصادية تقتضي -كما فعل السعوديون- مضاعفة الضرائب التي تُجبى من الأهالي، مع ما في ذلك من محاذير تؤثر في نتائج التنافس البريطاني -التركي في الخليج، وهو أمر حرص الأتراك على تجنبه منذ البداية.

الثاني: ارتفاع نسبة الوفيات في الجنود، وتفشي الأمراض بسبب الطقس الحار والرطب، في حين أن معظم الجنود جاؤوا من المناطق الشمالية الباردة.

الثالث: سياسة الإصلاح التي بدأ العثمانيون تطبيقها في البلاد العربية، والقاضية باعتماد رؤساء محليين، يتولون الإدارة والحفاظ على الأمن.

لهذا عهدت دولة الخلافة إلى والي بغداد بسحب القوة التركية، فعهد بدورة إلى ناصر باشا السعدون، زعيم المنتفق، ومتصرف البصرة، بإدخال نظام قليل التكاليف، فزار ناصر الأحساء أواخر سنة ١٨٧٣، وصدرت الأوامر بسحب أربع كتائب من القوات التركية المعسكرة في الأحساء، وعادت إلى بغداد، ولم يبقَ إلا كتيبة من الجندرمة أنيط بها مسؤولية الدفاع عن الجبهة بين الأحساء ونجد.. وقد شجّع الانسحاب التركي هذا السعوديين على خلق الاضطرابات والثورات وتهييج القبائل البدوية.. ومن أشهر هذه الثورات تلك التي قادها عبد الرحمن الفيصل، والأخرى التي نفذها أبناء أخيه سعود الفيصل(١).

تبع سحب القوات، أن سلّم متصرف الأحساء فريق باشا الحكم إلى أكبر شيوخ بني خالد، وهو بزيغ بن عريعر، ابن حاكم الأحساء السابق.. ويستشف من المصادر التاريخي، أن لناصر باشا السعدون دوراً في تعيينه، الذي وافق عليه الباب العالي. فبزيغ هذا هو صهر ناصر باشا من جهة، وهو زعيم قبيلة الخوالد المعروفة بعدائها للحكم السعودي من جهة ثانية، ومن جهة ثالثة فإن بزيغ شارك في حملة الأحساء، وكأن إعطاءه الحكم، قد جاء ثمناً لتلك المشاركة.. وبتعيين الخالدي بدأت الخطوة الأولى والهامّة بتعديل الإدارة في الأحساء، في حين بدأت القطيف تستعيد شخصيتها ويبرز فيها الزعماء السياسيون الذين أداروها بشكل شبه مستقل بالتعاون مع القائمقام العثماني، وبحراسة عشرات من الجنود(٢).

---

(١) تاريخ الكويت الحديث، ص٢٥٣. وجمال زكريا قاسم، ج١، ص١٩٦ - ١٩٧. وانظر: أيضاً العابد، مصدر سابق، ج٢، ص٢٤٥.

(٢) الدولة السعودية الثانية، ص١٧٥. وانظر تاريخ الكويت الحديث، ص٢٥٣.

ويلاحظ أن قوة بني خالد بدأت بالضعف والضمور شيئاً فشيئاً، فأصبح حكمهم للأحساء اسميًا، مع أن تسليمهم السلطة السياسية هو اعتراف بقوتهم، كما فعل المصريون حين انسحبوا من الأحساء عام ١٨١٨، ولعلنا لا نعدو الحقيقة إن قلنا: إن خالد قد تحضر القسم الأكبر منهم في ذلك الحين، وقد تسارع تحضّرهم واستيطانهم في واحتي الأحساء والقطيف ببروز قوة العجمان، وقد كان أحد أسباب ضعف بني خالد فيما بعد، هو ذوبانهم في التجمع الحضري، وفقدانهم للحمة العصبية الداخلية التي تجمعهم.

ويبدو أن الإنجليز قد ارتاحوا لرحيل القوات العثمانية، حيث خلا لهم الجو لتعكير صفو الأمن وترتيب أوراق تحالفاتهم للانقضاض على الأحساء، وقد استمروا في دعم سعود الفيصل وأخيه عبد الرحمن، وكذلك القبائل التي خسرت امتيازاتها باستقرار السلطة المنظمة في الأحساء. إلا أن هذا الدعم الذي يجري في أغلبه وراء الستار، والذي يهدف إلى تقويض سلطة الأتراك، لم يكن في البداية سوى عامل إقلاق وإشغال للعثمانيين من التفكير في المناطق الأخرى المحتلة من قبل الإنجليز، وكان الأخيرون حريصين -ظاهريًا على الأقل- على عدم تصعيد الاضطرابات إلى الحد الذي يجعل الأتراك يعيدون قواهم وقوتهم العسكرية المنظمة من جديد.

في أغسطس ١٨٧٤، أي بعد سحب القوات التركية ببضعة أشهر، غادر عبد الرحمن الفيصل بغداد بتساهل من واليها الذي أمن جانبه، بعد أن رتب أوضاع الأحساء، فاتجه عبد الرحمن إلى البحرين -مركز المعارضة البريطاني- وهناك حصل على دعم من المعتمد السياسي «واستقبله الشيخ عيسى بحفاوة بالغة، أمضى بضعة أسابيع قضاها في الاتصال بشيوخ القبائل في الأحساء، يحثهم على الوقوف إلى جانبه، فوجد لديهم الاستعداد للمؤازرة، وأخذ يعد العدة للثورة حتى أتم استعداداته، وبادر بالهجوم على الأحساء[1].

ففي رمضان ١٢٩١ أواخر ١٨٧٤ توجّه عبد الرحمن إلى الأحساء والتقى بحلفاء أخيه سعود من العجمان وغيرهم، حيث أسرع شيوخهم إلى الالتفاف حوله وأعلنوا الثورة والحرب «وتناثرت الإشاعات عن أن شيخ البحرين والإنجليز يقدّمون المساعدات لعبد الرحمن»[2].. وفي بادئ الأمر، قام أتباعه بحركات معارضة أدّت إلى

(١) العابد، مصدر سابق، ج٢، ص٢٤٨.
(٢) عبد العزيز نوار، مصدر سابق، ص٤٣٤.

إخراج المتصرف الخالدي بتواطؤ من النجديين المقيمين في الهفوف، مما أدّى إلى محاصرة القوات النظامية القليلة في الكوت، وراح العجمان وآل مرّة -كعادتهم- ينكّلون بالحضر وينهبونهم ويقتلون من يعترضهم.

انضم الأهالي الحضر «سنة وشيعة» الذين حوصر بعضهم في الكوت إلى لاقوات القليلة لمنع سقوط الحامية، ريثما يأتي المدد من العراق، وفعلاً استطاعوا الصمود عدة أسابيع، مما أنقذ الوجود العثماني في الأحساء من نهاية محققة.

وفي الحقيقة، فإن القوات العثمانية مدينة بصمودها إلى موقف الأغلبية الشيعية في الهفوف، حيث حمل هؤلاء السلاح تحت قيادة زعيم الشيعة في الأحساء، المجتهد آية الله الشيخ محمد بو خمسين، الذي وضع خططاً عسكرية عديدة أفشل بها محاولات اختراق قوات عبد الرحمن الفيصل للكوت، وقد قدّر الأتراك للشيخ محمد دوره هذا، فكان محطّ احترامهم وثقتهم واستشارتهم، ولمّا توفي سنة ١٣٩١هـ شُيّع تشييعاً رسميًّا، وحُمل جثمانه إلى مثواه على مدفع[1].

لم يرسل والي بغداد الجيش السادس في العراق لإنقاذ الأحساء نظراً لضعف ذلك الجيش، فأسند أمر إخضاع البدو لناصر باشا السعدون، فأسرع الأخير في شهر ذي القعدة ١٢٩١هـ/ ١٨٧٤، على رأس قوة من عشرة آلاف مقاتل، ومعهم ألف بعير تحمل المؤونة والذخيرة، والتقى بالعجمان وآل مرّة بقيادة عبد الرحمن الفيصل على مقربة من الهفوف في موقع يقال له «الوزيّة»، حيث دارت الدائرة على عبد الرحمن، وقتل من جماعته الكثير، وفي اليوم التالي دخل ناصر باشا الهفوف، ونكّل بالوهابيين المتعاونين مع السعوديين، وفرّ كثير من المتواطئين إلى البحرين -كالعادة- خوفاً من العقاب، غير أن الشيعة لم يتعرضوا لأي أذى.. ولم ينسَ مؤلف سعودي أن يقول: «ولم تلقَ الجماعات الشعية أي أذى»، وقد عرفت هذه السنة بـ«سنة ناصر باشا»[2].

وينقل المؤرخون أن العديد من الأفراد والعوائل التي تعاونت مع الأمير عبد الرحمن، مثل آل ملحم والعمير والنعيم، لجؤوا إلى منزل آية الله الشيخ محمد بو خمسين، خوفاً من الانتقام.. فأجارهم وألجأهم، وقد توسط للكثيرين حتى لا تطحنهم آلة الانتقام العثمانية.

---

(١) استُقيت هذه المعلومات خلال مقابلات عديدة مع وجهاء من الأحساء في صيف ١٩٨٩.

(٢) الدولة السعودية الثانية، ص١٧٥. وأيضاً: فل عبد العزيز نوار، مصدر سابق، ص٤٣٤. ومحمد عرابي نخلة، مصدر سابق، ص١٩٥. وكذلك: آل عبد القادر، مصدر سابق، ص١٧٤ - ١٧٥.

أما الملك عبد العزيز، مؤسس الدولة السعودية الحديثة، فيقول لشكسبير عن محاولة أبيه لاحتلال الأحساء: إن العرب -أي البدو- «انضموا لشن هجوم على الأحساء لكي يستعيدوا بالقوة ما عجزوا عن استعادته بالدبلوماسية، إلّا أن سعود كان يخشى القيام بمثل هذه المغامرة، خوف أن يقتل الأتراك أخاه عبد الرحمن في بغداد، وأيضاً لأن الإنجليز لم يحاولوا منع القوات التركية من الوصول إلى الأحساء عن طريق البحر.. وبعد أن تم إطلاق سراح عبد الرحمن من الاعتقال الذي استمر ثلاثة أو أربعة أعوام قضاها في بغداد، ونزل إلى شاطئ الأحساء، وجد أن العرب -البدو- يكرهون الأتراك، وأبدوا استعدادهم للانضمام إليه ضدهم، ولأن الأتراك كانوا ضعفاء نتيجة المرض والموت الذي نزل بهم، فقد هاجم عبد الرحمن قلعة الأحساء، ولكن قبل أن يتمكن من تدميرها، استدعى الأتراك قوات إضافية، فما كان منه إلّا أن غادر الأحساء إلى الرياض»[1].

وعلى أثر هذه الحادثة تولّى ناصر باشا متصرفية الأحساء مدة قليلة من الزمن لضبطها، ثم غادرها عام ١٨٧٥ - ١٢٩٢هـ، بعد أن سلّمها لابن بزيغ الخالدي (مزيد) وأصبح المتصرّف فيما بعد هو الحاكم الفعلي للأحساء، إذ تقوّضت وضعفت سلطة بني خالد إلى أبعد الحدود.. واهتزّت الثقة بإمكانيتهم على مواجهة غائلة البادية.

ردّ متصرف الأحساء على دعم الإنجليز وحكام البحرين لثورة عبد الرحمن، بالتحرش بآل خليفة، وفي شهر سبتمبر ١٨٧٤ طلب من تاجرين هنديين -من ذوي التبعية البريطانية- وكانا يقيمان في الدوحة، أن يحضرا للهفوف، فرفضا الامتثال، إلى أن أجبرهما قاسم آل ثاني على ذلك، وكان الهدف توجيه إهانة للمقيم البريطاني في بوشهر، وإخراج تجارة قطر من يد رعايا بريطانيا.

وفي اكتوبر ١٨٧٤ بعث قائمقام القطيف رسالة إلى الشيخ عيسى حاكم البحرين، وجّه له فيها اللوم والتهديد لاستقباله ودعمه عبد الرحمن الفيصل.

لقد أراد السعوديون استغلال فرصة خروج القوات التركية، فهاجموا الأحساء، لكن الرد السريع من والي البصرة، ورفض الشيعة التعاون، أثبت لهم أنه حتى لو أمّن لهم الإنجليز طريق البحر، بمنع إبحار السفن الحربية العثمانية فيه، فإن الأتراك قادرون على الوصل إليهم وبسرعة عن طريق البر.. هكذا غادر عبد الرحمن الفيصل الأحساء إلى

(١) رسالة شكسبير إلى بيرسي كوكس، في ٨/ ٤/ ١٩١١.

الرياض يائساً ليلتحق بأخيه سعود الذي وافته المنية في شهر ذي الحجة ١٢٩١هـ فاستولى عبد الرحمن على الحكم وانشغل بقتال أخيه عبد الله، ثم أبناء أخيه سعود، إلى أن اضطر لترك الرياض والالتحاق بأخيه.. ثم سقطت دولة السعوديين على يد ابن الرشيد.

وهكذا نجد استماتة واضحة لدى الحكام السعوديين للسيطرة على الأحساء، بعكس الحجاز التي سيطروا عليها في عهدهم الأول.. وليس هناك من تفسير لهذه الاستماتة إلا أهمية الأحساء الاقتصادية والاستراتيجية بالنسبة لنجد. إذ لا يمكن لحكومة «نجدية» سابقاً، أو لاحقاً، أن تستمر، دون الاعتماد على الأحساء ومواردها الكبيرة.

ورغم الإعياء الشديد الذي أصاب السعوديين، ورغم هزائمهم المتكررة، وحالة الصراع الداخلي المستمرة، إلا أن الأحساء لم تغب عن بالهم، فقد أصبحت نجد إمارة مغلقة، وليس من الممكن تناسي مفتاحها وقلبها، وأسرع عبدالله إلى التحالف مع إخوته وأبناء أخيه لتجنيد حملة تهاجم القطيف ثم الأحساء والاستيلاء عليها.

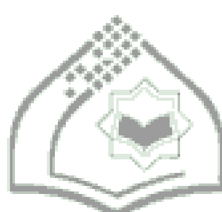
فقد قام أولاد سعود الفيصل في عام ١٨٧٨/ ١٢٩٥هـ بحملة ضد القطيف بالتعاون مع العجمان وآل مرّة، وضربوا حصاراً حول المدينة التي استبسل أهاليها في المقاومة، واستطاعت السلطات العثمانية فك الحصار بمساعدة جاءت من الشمال، وهرب البدو وتخلّوا عن قياداتهم من آل سعود، فما كان من أولاد سعود الفيصل إلّا أن طلبوا اللجوء السياسي من شيخ البحرين والسلطات الإنجليزية هناك.. لكن الأتراك احتجوا على دعم آل سعود في النهب والحرب، وحينها.. ومنعاً للاحتكاك رضخ المعتمد ورفض منح حق اللجوء لابناء سعود بحجة «عدم اللياقة في حماية أشخاص عُرفوا مؤخراً باتصالهم بأعمال الاضطرابات في أرضي دولة صديقة مجاورة»[1].

ولم يهدأ السعوديون في المقاومة من أجل استخلاص الأحساء، حتى انتهى حكمهم في نجد بالكامل على يد قبيلة شمّر وزعمائها آل الرشيد.

---

(١) الدولة السعودية الثانية، ص٢٢١. وانظر: محمد عرابي نخلة، مصدر سابق، ص١٩٦ - ١٩٧. وأيضاً: جمال زكريا قاسم، ج١، ص١٩٨ - ١٩٩.

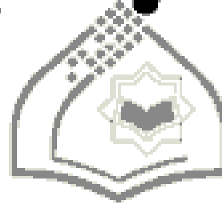
تجدر الإشارة إلى أن الأخير ذكر أن سفينة بريطانية «فلتشر» كانت تبحر بالقرب من القطيف لمكافحة القرصنة، لاحقت السعوديين. والحقيقة أن السفينة لم تقم بأي عمل حربي؛ لأن ذلك ضد السياسة البريطانية. وقد كان ظهور السفينة بالقرب من الساحل القطيفي، قد أوحى للمهاجمين بأنها سفينة عثمانية -بالنظر لدخولها المياه الإقليمية للقطيف-.

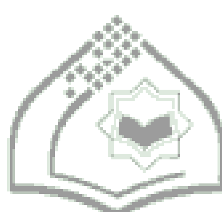

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٥

السياسة والاقتصاد

في الأحساء والقطيف (١٨٧١-١٩١٣)




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

كانت واحتا الأحساء والقطيف، أو ما عُرف بسنجق «نجد»، تشبهان الفتاة المدللة للأب العثماني!.. وإذا كان الحكم التركي المعروف بسوئه وطغيانه في ديار العراق والشام واليمن، يبدو واضحاً لكل الباحثين، فإن الأحساء لم يصبها من ذلك إلا النزر القليل التافه.

ومهما كان تقييم الباحثين لحكم الأتراك في المناطق العربية الأخرى.. فقد كان للأحساء وضعها الخاص في الإدارة والحكم، وذلك يرجع لأسباب متعلقة بموقع الأحساء الجغرافي، وخصوصياتها الثقافية والتاريخية، وتركيبتها السكانية، إضافة إلى وجود الصراع الإنجليزي - التركي، حولها وعليها. حيث كان العثمانيون يحاولون وبشتى الأسباب والوسائل إرضاء الأهالي، وتخفيف الضغوط عنهم، وكان يكفي أن تُرسل عريضة من الأهالي إلى السلطان، أو إلى والي البصرة، أو إلى والي بغداد، حتى يُلبى الطلب، حتى ولو كان عزل المتصرّف.

كل ذلك كان من أجل راحة السكان، وعدم إعطاء الفرصة للبريطانيين بالتدخل وقلب الأوضاع، ليس في الأحساء وحدها فحسب، وإنما في العراق العثماني أيضاً.

لقد كات حملة مدحت باشا لاحتلال الأحساء جزءاً من سياسة الإصلاح العامّة التي اتبعها العثمانيون في بلاد العرب، وكانوا جادّين في تطبيقها، في المناطق التي استولوا عليها حديثاً في الخليج العربي، على الأقل[1].

كانت هناك حساسية لدى العثمانيين تجاه تزايد النفوذ البريطاني في الخليج، ولم يغب

(١) العقاد، مصدر سابق، ص١٧٤.

عن بالهم أنهم ليسوا وحدهم في هذه المنطقة المتصارع عليها، وبالتالي كانوا حريصين على انتهاج سياسة تفوت على العدو المتربص بهم ما كان يخطط لهم. ولهذا نجت الأحساء والقطيف من سياسة القمع والاستبداد التي استُخدمت بطغيان بشع في المناطق العربية الأخرى.

من هنا كانت سياسة العثمانيين في المنطقة مرضيّ عنها، بل كانت في الحقيقة الفترة الذهبية الوحيدة خلال قرنين من الزمان، ابتداء من سيطرة السعوديين الأولى عليها في مطلع القرن الثالث عشر الهجري، وحتى الوقت الحالي.

أما الكُتّاب والمؤرخون السعوديون، فقد تعوّدوا على تضخيم سلبيات الحكم العثماني، ليظهروا الحكم الذي خلف الأتراك بصوة المخلص والمنقذ، وليظهروا حجم الإنجاز الذي قدّمه الحكم الجديد، أو على الأقل لخفيف وقع سلبيات حكم السعوديين.

ويمكننا مناقشة وتقييم العهد التركي، ضمن محورين أساسيين، هما المحور السياسي، والمحور الاقتصادي.

الوضع السياسي

أثناء زيارته للأحساء، وضع مدحت باشا تشكيلاً إداريًا، جعل الأحساء بموجبه متصرفيّة سمّاها «سنجق نجد» يتبع ولاية بغداد، وقسّم السنجق إلى ثلاثة أقضية هي[1]:

الأول: قضاء الهفوف، وهو مركز السنجق، ومحل إقامة المتصرّف.

الثاني: قضاء القطيف، ويشمل إضافة إلى القرى المحيطة، جزر تاروت وجنّة والمسلميّة والعماير وغيرها. واعتُبر قضاء القطيف مركز تمويل الأقضية الثلاثة، وتتواجد به الإدارة المدنيّة، ويحكمه قائمقام له السلطة العسكرية والمدنيّة رسميًا، ويعاونه أحد الرؤساء المحليين «كان الزعيم أحمد مهدي بن نصر الله، ثم المرحوم منصور بن جمعة

(١) قال لوريمر، ويبدو أنه كان مخطئاً، أن السنجق قُسم إلى أربعة أقضية هي: الهفوف، والقطيف، والمبرز، والجفر. في حين أكّد عدد من الباحثين أن الكويت كانت تابعة لمتصرفية الأحساء. ورأى آخرون أنها أصبحت سنجقية مستقلّة.

يشغل هذا المنصب».

الثالث: قضاء قطر، ويحكمه القائمقام قاسم آل ثاني، يساعده ضابط عثماني يشرف على الحامية العسكرية، ويمده بالجنود، وقد أجرى مدحت راتباً سنويًا للقائمقام(١).

من جهة أخرى عيّنت السلطة العثمانية -كما يؤكد لوريمر- عُمدة في كل قرية ليكون همزة الوصل بين السكان والسلطة، وقد أفسح هذا التنظيم للزعامات الحضرية -خاصة الشيعة باعتبارهم أغلب السكان الحضر- بالبروز والنمو، والتعاطي بالشأن السياسي. في الوقت نفسه لم يهمل العثمانيون الذين يمثلهم المتصرف، مشاورة القبائل كالعجمان وآل مرّة في شؤون البلاد- كما أكد ذلك زويمر أثناء زيارته للأحساء عام ١٩٠٠ (٢).

كما أقام العثمانيون عدة حاميات ومفارز عسكرية للحفاظ على الأمن «ولكنهم لم يحاولوا التدخل في شؤون الناس الاجتماعية والاقتصادية.. وكان وجود الحاميات في الإقليم لمجرد حفظ الأمن»(٣). حتى أنه لم يكن في العقير -أهم الموانئ- سوى ضابط واحد مع بضعة أفراد من الشرطة.

ويلاحظ أن عدد الجنود الأتراك كان قليلاً على الدوام، وإن كان يختلف من سنة لأخرى، فعقب نهاية حكم مدحت باشا في العراق لم يكن في كل قضاء -حسب التقارير البريطانية- سوى ثلاثين جنديًا «أي أن المجموع ٩٠ جنديًا فقط!!». وفي عام ١٨٨٨ بلغ عدد الجنود ٧٥٠ جنديًا.. أما في عام ١٩٠٠، أي بعد حوالي عشرين عاماً من الاستيلاء التركي على المنطقة، فكان عدد الجنود في كامل السنجق «٩٠٠ جندي فقط» ستمائة منهم في الهفوف، وثلاثمائة في كل من قطر والقطيف، كما أوضح ذلك زويمر حينما كان في الأحساء في ذلك العام(٤).

ويوم سقطت الأحساء سنة ١٩١٣ لم يكن في كل السنجق سوى أقل من أربعمائة

---

(١) جمال زكريا قاسم، ج١، ص١٩٢. وانظر: محمد عرابي نخلة، مصدر سابق، ص١٧٦.
(٢) المصدر السابق، ص٢٠٢. وانظر كتاب: الإصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبد العزيز، الدكتور عبد الفتاح أبو عليّة، دار المريخ، الرياض ١٩٨٦، ص٩.
(٣) الإصلاح الاجتماعي، ص٦٩.
(٤) جمال زكريا قاسم، ج١، ص٢٠٢.

جندي، مهم ٩٠ في القطيف.

واتبع العثمانيون في بداية عهدهم سياسة الاعتماد على الولاة المحليين، فعيّنوا بزيغ بن محمد العريعر والياً وسحبوا جنودهم، لكن وكما رأينا، لم يستطع هذا الوالي الخالدي، أن يسيطر على الوضع، حينما تعاون العجمان وآل مرّة مع عبد الرحمن الفيصل في مهاجمة الهفوف سنة ١٢٩١هـ، الأمر الذي أدّى إلى عزله، فاعتمد العثمانيون فيما بعد على تعيين ولاة أقوياء من العرب الآخرين، سواء منا لعراق أو غيرها، بالتعاون مع الواجهات المحلية، والسبب يعود إلى التالي:

أولاً: أن قبيلة بني خالد ضعفت كثيراً، ولم تكن قادرة على النهوض بإدارة الأحساء، ومكافحة غوائل البدو والقبائل الناهبة التي تعتدي على المدن والقرى الأحسائية، وكان مارد الدولة العثمانية أن تسيطر هذه القبيلة بقواها العسكرية الذاتيّة على الحكم، مع الإشراف الاسمي لها. لكن الخوالد أصابهم الضعف الشديد، بل إنهم كانوا ضعفاء منذ أن قوّض السعوديون سلطانهم في المنطقة وأوقعوا في صفوفهم القتل والتشريد في أوائل القرن التاسع عشر.. وفي الوقت نفسه وفدت إلى الأحساء قبائل أقوى وأكثر عدداً وأشد شراسة كالعجمان، فتضاءلت أهمية الخوالد، واضمحلّت قوتهم، خاصة وأن الضربات السعودية المتلاحقة التي وُجِّهت إليهم أجبرت العديد منهم على الفرار، إما إلى جنوب العراق، أو الكويت أو الاستيطان في المناطق الحضريّة.

وفي هذه الفترة -فترة الحكم التركي- كانت الأكثرية من أفرع بني خالد قد تحضّرت واندمجت مع السكان. ولربما يقال -وهو الصحيح- أن الدولة العثمانية قد أرادت إعادة القوة لبني خالد، وهم القوة التقليدية المعادية للسعوديين، ولم يكن أمام العثمانيين سواهم، حيث تجربتهم في الحكم -والتي استمرت مدة قرنين- وحيث علاقتهم الوطيدة بالأهالي.. في حين لم تكن الدولة، ولا الأهالي يأمنون القبائل العجمانية وغيرها، المنتشرة في البادية لتسوسهم وتديرهم، وهي قبائل غلب عليها طبع الجفاء ومعاداة الحضر.

ثانياً: حينما أراد العثمانيون تسليم السلطة للقوى المحليّة في الأحساء، لم تكن تلك القوى المحلية مهيّأة لذلك -عدا القطيف-، فمنطقة الأحساء تعرّضت في العهدين السعوديين الأول والثاني إلى تصفية في قواها المحلية قتلاً وإعداماً وتشريداً -بأكثر مما

حدث في القطيف-، وقد اعتاد السعوديون طوال مدة حكمهم، وحتى اليوم على تعيين رؤساء وأمراء وإداريين من خارج الأحساء، وبهذا فإن التهميش المتعمد طوال القرن التاسع عشر، أدى إلى حدوث أمرين خطرين:

أحدهما: عدم بروز قوى محلية تستطيع القيام بإدارة الحكم.

وثانيهما: ولّد التهميش حالة من العُزلة عن مجريات السياسة المحلية، وهو أمر بلغ من الوضوح حدًّا صارخاً في الأحساء.

ويكفي شاهداً على ذلك أن الأغلبية السكانية الشيعية، تولدت لديها حالة من الأبتعاد السلبي في مجال تعاطي أمور الحكم السياسة المحلية، ولم يكن يوم قدم الأتراك للأحساء، قوى فاعلة من الشخصيات يمكن الاعتماد عليها، أو لديها مجرّد الرغبة والطموح السياسي.. كما لا يبدو أن جو الانفتاح الذي خلقه الحكم التركي، أثّر في الواجهات الشيعية التقليدية، وإن كان من الصحيح أنه في أواخر الحكم التركي، بدأت القوى المحلية الأحسائية بالانتعاش، ولكن هذا الانتعاش ما لبث أن أُخمد بمجرد أن سيطر الملك عبد العزيز على الحكم.

لا شك في أن شيعة الأحساء لم يستفيدوا كثيراً من الفرص التي أُتيحت لديهم في فترة الحكم التركي بالشكل المطلوب، في بناء قواهم الذاتية، والتغلب على مشاكل التهميش السابقة وإبراز واجهاتهم السياسية والاجتماعية.. ورغم أنه حدث أن ظهرت واجهات في العلم والأدب والفقه وسائر العلوم، وتطورت الحركة الدينية والثقافية تطوراً ملحوظاً، إلا أنها لم تتعدَّ ذلك كثيراً إلى الخوض في المجالات السياسية والإدارية.

وفي الوقت نفسه يلحظ الباحثون والدارسون للعهد التركي في المنطقة، أن النجديين المقيمين في الأحساء، والذين لم يكن عددهم يصل بأي حال من الأحوال إلى ٥٪ من مجموع السكان، كان صوتهم السياسي أعلى بكثير من السكان الأصليين، ونَجِدُ أن النجديين انخرطوا في الشأن السياسي المحلي، ثم تطور بهم الأمر إلى الدخول في تحالفات وعلاقات مع الإنجليز -عن طريق المعتمد السياسي البريطاني في البحرين- كما وثّقوا علاقاتهم بالملك عبد العزيز الذي كان قد استولى للتو على الرياض.

لقد كانت هذه الفئة طموحة جدًّا من جانب، وكان اسمها قد ارتفع ومركزها قد

تقـوّى في عهد الاحتلال السـعودي الأول والثاني للأحسـاء.. والغريب أن السـعوديين كانوا يدفعون أتباعهم بقوة لتسلّق مناصب الحكم.. والتاريخ السعودي مليء بالشواهد، حيث ترى أن أميراً لقرية نجدية لا يزيد سـكانها عن الألف نسـمة يصبح حاكماً على كل الأحساء ونواحيها.

غـير أن فئـة النجديـين هذه لم تكـن مرغوبـة لـدى الأتـراك، أولاً لارتباطاتها مع الإنجليز ومع آل سـعود على حد سـواء. وثانياً لأن أطروحتهـا الفكرية والمذهبية كانت تصطدم وبشدة مع الأهالي ومع الحكم التركي نفسه.

ثالثاً: بقيت فئة أخرى في مجتمع الأحساء وهي الفئة السنيّة الثانية التي تتبع المذهب الحنفي أو الشافعي أو المالكي، وهذه الفئة انتعشت بقوة نظراً لقربها المذهبي من مذهب الدولـة العثمانيـة، ولأن الأتراك أنفسـهم كانوا يدفعـون هذه الفئة بقـوة للبروز، فكانت تُستشار وتُقدّر وتُحترم في رأيها، إلا أن قوتها لم تصل إلى حد توليتها شؤون الإمارة.. وإن كانت تابعة للحاكم في حقيقة الأمر.

وبصريـح العبـارة، فـإن الأغلبيـة الشيعية لم تُعزل من قبـل الأتراك عـن الحكم وممارسة دور المسؤول في مناطقها، بقدر ما أن الشيعة أنفسهم لم يكونوا بمستوى المواجهة والاقتدار وفرض الذات.. وكان ابتعادهم عن السياسة وسلبيتهم العامة تجاه الحكومات غـير الشرعيـة من أخطر ما مرّ ويمرّ عليهم من ويلات ومآسٍ، في الوقت الحاضر، كما في الماضي، لأن ذلك قد أدى إلى وقوع الحكم في أيدٍ غير نظيفة سامتهم العسف والحرمان.

رابعـاً: أمـا القطيف فهي تختلف إلى حد كبير عن الأحسـاء، ورغم أن كل سـكان القطيف من الشـيعة، وهو أمر يجعل من تركيبتها السـكانية شبه مقارب لما هو موجود في الأحساء.. إلا أن الاختلاف واضح بين المنطقتين.

فشـيعة القطيـف اسـتجابوا -بقدر لا بـأس به- للتحـدّي والحفاظ عـلى هويتهم في مواجهـة التحـدّي السـعودي في عهـده الأول والثـاني، وكان واقعهـم واقـع ثورات وانتفاضات، ومارسوا التحالفات مع القوى المحلية فترة من الزمن، وكانت المنطقة تولّد بين الحين والآخر الزعامات الدينية والسياسية التي استجابت للتحدّي وخوض المعارك من أجل انتزاع حقوقها.

وفي الوقت الذي رأينا فيه الفعاليات الأحسائية من العلماء الكبار والشعراء والمتفقهين، وأساتذة الحوزات العلمية، وهم كثرة كثيرة، يغادرون بلادهم بفعل الاضطهاد السياسي والمذهبي السعودي، فأصبحت البلاد مفرّغة من القوى الفاعلة.. لم يحدث في منطقة القطيف مثل ذلك، وإن حدث أمر مشابه له، لكن الأخيرة سرعان ما أنتجت آخرين. وحتى أولئك الذين شُرّدوا، مارسوا العمل السياسي والإعلامي وحتى العسكري من مواقعهم، سواء في العراق العثماني، أو البحرين المستعمرة الإنجليزية.

وحين دخل الأتراك القطيف، كان معهم الزعيم الكبير أحمد بن نصر الله، وكانت هناك زعامات سياسية في كل مدينة وقرية تقريباً، فتعامل العثمانيون معها على أساس الأمر الواقع، وهكذا أصبح نصر الله زعيماً لواحة القطيف، ولما توفي خلفه الحاج منصور بن جمعة، ثم أخوه عبد الحسين بن جمعة، وكانت لهؤلاء صلاحيات الرؤساء والمتصرفين، وكانت السلطات العثمانية تقدر موقعهم.. ولا تصدر أمراً إلا بالرجوع إليهم، وكان هؤلاء الزعماء يُتشاورون مع الشخصيات الدينية -وهي كثيرة- وكذلك مع عُمد القرى والأرياف.

وباختصار كانت سلطة العثمانيين في واحة القطيف ضئيلة جدًّا، وكانوا أنفسهم راغبين في ذلك، بل إنهم فكّروا في تعيين الباشا منصور بن جمعة ليكون والياً على الواحتين. وأكثر من ذلك، ونظراً لثقل القطيف السياسي، أراد الإنجليز من منصور أن يتمرّد على الإدارة العثمانية ليخلق له دولة أو إمارة في مقاطعة القطيف والأحساء معاً، ولكنه رفض العرض.

تبقى مسألة، أن ما تعرّض له الأحسائيون من اضطهاد على يد السعوديين وأتباعهم، كان أكبر مما وقع على أهالي القطيف، وهذا ما يعطيهم بعض العذر.. ولقد كانت الأحساء ذات ثقل سكاني أكبر، واهتم الوهابيون بتغيير واقعها السكاني، والاقتصادي لصالح القادمين من نجد، ولأنها كانت تمثل التحدي المذهبي الأكبر بالنسبة للوهابيين، فقد جرى على الأحسائيين ما لم يجر على غيرهم من طغيان.

خامساً: وأخيراً فإن الدولة العثمانية التي كانت سلطتها في منطقة شرق الجزيرة العربية متمركزة في واحة الأحساء، التي كانت مستهدفة من قبائل البادية، ولمّا لم تجد من تعهد إليه بإدارتها، قامت بتعيين المتصرفين بنفسها، وكان المتصرفون في غالبيتهم

من عرب العراق، وكانوا على علاقة جيدة مع الأهالي قبل أن يمتد النفوذ السعودي للمنطقة.. بل وكان من بين المتصرفين الشعراء والأدباء، وكانت لهم مساجلات شعرية مع أدباء الأحساء، على نحو ما عدّده آل عبد القادر في كتابه[1].

وتأسيساً على ذلك، فإن الاعتماد العثماني على القوى المحلية، وإسناد العديد من الصلاحيات الإدارية لعُمد القرى والأرياف، وفّر على العثمانيين الكثير من الجهد، وأطال مدة حكمهم، ولم يكونوا بحاجة إلى قوات كبيرة للسيطرة على مقاليد الأمور بالقوة والعنف، فبادروا إلى سحب قواتهم، ورافق تلك الفترة أن تحلّل حكم السعوديين في نجد بسيطرة ابن رشيد الموالي للأتراك، فأصبحت القبائل بين فكّي كماشة، ورضخت، حيث انتهى التحريض السعودي لها.. ولكن بعد أن يسيطر آل سعود على الرياض، تتصاعد وتيرة الاضطرابات في الأحساء، ويحاول الأتراك تدعيم قواتهم وحفظ هيبتهم، إلّا أن الإنجليز كانوا لهم بالمرصاد، فعملوا على منع وصول الإمدادات.

من هنا يجب الالتفات إلى المبالغات التي يطلقها بعض المؤرخين المعارضين، والذين يقولون: إن حكم الأتراك كان قائماً على القوة العسكرية، وعلى اضطهاد القوى المحليّة.. في حين لم يكن من الجنود يوم سقوط الأحساء سوى أقل من ٤٠٠ جندي.. ولا توجد شواهد تدعم هذه الادّعاءات، إذ حتى القبائل البدوية كانت تأخذ مرتباتها من متصرفية الأحساء؛ لأن البديل عن ذلك هو زيادة القوة العسكرية، وهو أمر ما كانت الحكومة العثمانية تريده.

إن من أسباب قبول الأهالي للحكم التركي هو تسامحه في سياسته المحليّة.. وليس لدى المعارضين من أدلة تؤكد مزاعم «الاستبداد السياسي التركي»، وليس صحيحاً «أن الاستراتيجية العثمانية كانت تعتمد على القوة العسكرية» وأن «بقاء استراتيجتها مرهون ببقاء قوّة عسكرية قويّة لها.. لا عن طريق بناء القوة الاجتماعية المحليّة»[2].

ثم يقدّم لنا هؤلاء المعارضون دروساً في مضار ومساوئ الاستبداد: «إن طبيعة الحكم الاستبدادي تكون دائماً من أهم العوامل التي تجلب نقمة الأهالي ضد الحكم، وهذا ما حدث في منطقة الأحساء، عندما عمّت المنطقة موجة من السخط ضد الاستراتيجية

(١) آل عبد القادر، مصدر سابق، من ص١٨٠ – ص١٨٦. وانظر الجزء الثاني من الكتاب أيضاً.
(٢) دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، ص١١٩.

العثمانية، وصارت أدنى أو أقل حادثة تحدث في المنطقة، تثير غضب السكان ضد العثمانيين، وأصبحت لدى الناس حساسية شديدة من أسلوب الحكم العثماني»، كما يقول كاتب سعودي[١]!

وقد تنبّه المؤرخ القدير، الدكتور جمال زكريا قاسم، إلى المبالغات التي تطلقها المصادر السعودية والبريطانية المعارضة على الحكم التركي في الأحساء، فقال في تقييمه للوضع السياسي والإداري: «لا نريد تجسيم الاستبداد -العثماني- كما تصوّره المصادر البريطانية أو السعودية.. وإن من الإنصاف أن نذكر أن الدولة العثمانية حاولت في مرات كثيرة معالجة إدارتها في الأحساء، إلا أنها لم توفّق في بغيتها، وينبغي أن نتيح للدولة العثمانية شيئاً من العذر، فإن انشغالها في حروبها، وخصوصاً ضد روسيا عام ١٨٧٧، عاقها ولا شك عن تشديد قبضتها أو إصلاح إدارتها». وأشار إلى أن ضعف الحاميات العثمانية ترك فرصاً كثيرة للقبائل للتمرد[٢].

لم يكن الأتراك مع استخدام القوة، وإلا جاؤوا بآلاف الجنود، بل إن مشكلة إدارتهم أنهم لم يستخدموا القوة، خاصة في المراحل الأخيرة من حكمهم، حينما كانت القبائل تعتدي وتنهب.. ومن ناحية أخرى لم يكن الأتراك يريدون تكرار تجربة السعوديين السياسية والاقتصادية والمذهبية، وإلا كانوا سيخسرون الأحساء، المنطقة الوحيدة التي بين أيديهم.. وهذا ما حتّم عليهم قدر جهدهم معاملة السكان معاملة كريمة بمقاييس ذلك الزمان.

ويعود المؤلف السعودي نفسه، فيعترف بأن الدولة العثمانية رأت أن تحدد مصروفاتها فأوكلت حماية أتباعها إلى قوى محلية، دون أن تلجأ إلى جيشها المنظم، ويضيف أن «هذه السياسة الجديدة، جرّت الدولة العثمانية إلى سياسة محلية أخرى، وهي تعيين زعماء المنطقة المحليين حكاماً عليها، بدلاً من العثمانيين، فعيّنت بزيغ بن عريعر، ثم من بعده ابنه مزيداً، وكانت الدولة ترى من هذا الإجراء أنها ستجني مجموعة فوائد منها: إقناع الأهالي بأن حكامهم منهم، وكذلك فإن الدولة تكون قد أرضت الزعماء المحليين المتنفذين في المنطقة، وتكون أيضاً قد ضمنت ولاءهم وسيطرتهم على القبائل

(١) المصدر السابق، ص١١٨.
(٢) جمال زكريا قاسم، ج١، ص٢٠٠.

البدوية في المنطقة»[1].

أليست هذه السياسة حكيمة تُرضي جميع الأطراف، الحكومة العثمانية والزعماء المحليين والأهالي؟!

أليس ذلك اعترافاً بأن القوى الاجتماعية المحلية أُتيحت لها الفرصة في ممارسة الحكم ونالت حظها منه، خلافاً للمزاعم القائلة بأن الأتراك لم يكونوا يعتمدون على القوى الاجتماعية المحلية؟!

ورغم حسن هذه السياسة، إلا أن الكاتب عاد من جديد وقال عنها: «إلا أن هذا الأسلوب، كان يمكن أن يكون أكثر فائدة ونفعاً لو كان في وقت غير هذا»!!

لماذا.. الأسلوب جميل ولكن في غير هذا الوقت؟!

لقد مارس الأتراك هذه السياسة منذ عام ١٨٧٣ على الأقل، أي بعد عامين من استيلائهم على الأحساء، وهي سياسة معتدلة، وأقرب إلى روح التسامح والإنسانية.

نعم.. ربما ان الكاتب يشير إلى أن هذه السياسة «عدم استخدام الجند والقوة» لم تكن صالحة بين عامي ١٩٠٢ - ١٩١٣، إذ إن السعوديين استفادوا من ضعف القوات في هزّ هيبة الدولة بدفع القبائل البدوية لمهاجمة الأحساء والقطيف وقراهما، وكان ينبغي زيادة الجند، ومواجهة تحركات البدو المدعومين بالسلاح الإنجليزي الذي كان يوفره المعتمد السياسي البريطاني في البحرين. وإذا كان هذا هو ما يقصده المؤلف، فهو محق!.

من هنا يمكننا التأكيد على أن السياسة المحلية في عهد الأتراك كانت تجري على يد الزعماء المحليين في الغالب، وكان لدى الأتراك الاستعداد للقبول بالولاية الاسمية.. لا عن ضعف، فالأحساء لم تكن بمثل العراق، ولا اليمن، حيث أخذ فيهما الاستبداد مأخذه.. ولم تكن الأحساء لتعجز الأتراك لو أرادوا استخدام القوة.

ووصل الاستعداد التركي؛ لأن يقبلوا عزل واليهم أو متصرفهم بمجرد أن يشكوه السكان، كما حدث عام ١٣٢٢هـ حينما عُزل طالب باشا النقيب، وبمجرد أن يصطدم المتصرّف بالسكان المحليين وبالواجهات المحلية فإنهم يعزلونه.. وما أن يقرروا أمراً

(١) دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، ص١٢١.

ويرفضه الأهالي، إلّا وبادروا بالتراجع عنه بأمر من السلطان العثماني نفسه، الذي كان متأثراً من أن الولاة متعودون على الغطرسة، وهو أمر ما كان يريده للأحساء.

وتدلّنا الحرية المتاحة للسكان، كثرة الشكاوى المقدمة لوالي البصرة، أو للسطان مباشرة، بل وحتى إغلاق المتاجر -إضراباً- وهو أمر لم تقبله الحكومة العثمانية في أية منطقة عربية أخرى، ولم ترضخ له -على حدّ علمنا- كما فعلت مع «سنجق نجد المدلّل!!».

ويصور المعارضون للحكم التركي، هجوم القبائل البدوية على القرى والمدن الأحسائية بشكل خاص، كثورات مسلحة ضد الحكم التركي، وهي في حقيقة الأمر لا تعدو كونها هجمات للنهب بدعم ابن سعود نفسه الذي أقام تحالفاً معها.. وما وجد المعارضون للأتراك شيئاً يعبر عن امتعاض الأهالي من حكم الأتراك، سوى اعتبار هجمات البدو أعمالاً «ثورية» تعبر عن رأي الأهالي الحضر، رغم أن الأخيرين هم المكتوون بنارها! ورغم أن هذه الحوادث تمّت بعد أكثر من ثلاثين سنة من الحكم العثماني، ومع ذلك نرى ضرورة توضيح الموقف السياسي لقبائل البدو في الأحساء.

كانت القبائل البدوية التي تعيش بالقرب من الأحساء والقطيف، أو تلك البعيدة نسبيًا عنها، هي قبائل العجمان والمناصير وآل مرّة والهواجر وغيرهم.. ومعلوم أن البدو لا يريدون الخضوع للسلطة المدنيّة المنظمة التي تحدّ من غزوهم ونهبهم، وهو أمر جرّبه السعوديون طوال عهدهم الماضي والحاضر.

كانت سياسة الدولة العثمانية تجاه قبائل الأحساء ترتكز على وسائل ثلاث:

الأولى: دعم بني خالد، الذين كانوا يوماً ما سادة الصحراء، وحكام الأحساء، إلا أن شأنهم ضعف وتراخى في الوقت الذي صعد فيه نجم العجمان، الذين علا شأنهم منذ أواخر الدولة السعودية الثانية، أثناء صراع سعود وعبدالله أبناء فيصل بن تركي، كما رأينا ذلك في صفحات سابقة.

الثانية: الإبقاء على حامية صغيرة العدد ومجهّزة لحماية الأهالي من اعتداء البدو، وكانت هذه القوة رادعة في بداية الأمر -إلى جانب إعطاء المال- حينما تضعضعت وتلاشت قوة السعوديين في نجد، واضطروا إلى اختيار حياة المنفى في الكويت، وتسلّم

ابن رشيد كامل القوة في نجد. فلم يكن هناك يومها لدى القبائل من خيار سوى الرضوخ، أما بعد أن سيطر الملك عبد العزيز على الرياض عام ١٩٠٢، فقد بدأ يظهر جموح هذه القبائل من جديد، وراح الملك يعطيها المال والسلاح ويحرّضها على زعزعة الأمن.. وحتى مبارك الصباح، حاكم الكويت، وصديق العجمان، كان هذا دأبه، وبالتالي لم تكن الحامية -قليلة العدد- كافية لدرء المخاطر.

الثالثة: إعطاء القبائل مخصصات مالية تعوّضهم عن النهب، وقد استمر الأتراك في الدفع حتى سقوط الأحساء بيد الملك عبد العزيز، وذلك لكفّ شرّ القبائل، وللمحافظة على طريق البر الموصل بين العراق إلى نجد والأحساء. إلا أن ظهور ابن سعود أربك هذه السياسة، واضطرت الدولة إلى استخدام القوة -دون إلغاء الإعانات- إلا أن ذلك لم يكن يجدي كثيراً.

كان أكبر خطأ للأتراك، هو أنهم لم يدعموا وجودهم السياسي في الأحساء بقوة عسكرية معقولة، تحفظ الأمن وتردع المعتدي، وتعيد الهيبة التي بدأت بالاضمحلال، كلما زادت القبائل في خرق القانون والهجوم على القرى نهباً وحرقاً وتخريباً.. كان بإمكان العثمانيين قطع الطريق على العدو من استغلال القبائل إما بدفع المال أكثر!، أو باستخدام القوة. ولسوء الحظ فإن الأتراك أنفسهم -وفي أواخر حكمهم- امتنعوا عن زيادة الإعانات المالية، ولم تكن القوة البديلة موجودة، وكان المحرّضون جاهزين، وكان السلاح متوفراً «ببركات» الإنجليز في البحرين.. فهوجمت القرى وأُحرق بعضها، وعادت الدولة فاتفقت مع زعماء القبائل من جديد على الراتب، ولكن من موقف الضعف!

وازدادت هجمات البدو القبلية على السكان الحضر، أواخر العهد التركي، وكان الأتراك في الأحساء متنبهين لمصدر الإزعاج هذا.. يدلك على ذلك وثائقهم.. فقد كانوا يعلمون أن ابن سعود وراء التحريض، وكذلك الإنجليز وحليفهم مبارك الصباح.. ولكن لم تكن الدولة العثمانية -وهي تلفظ آخر أنفاسها- قادرة على ممارسة سياسة حازمة وفعّالة. وسنعود لمناقشة هذه المسألة في صفحات لاحقة.

لكن ما يجب قوله هنا والتأكيد عليه هو أن هجمات البدو كانت راجعة إلى العادات القبليّة المكتسبة، ولا يمكن اعتبارها معارضة سياسية.. وإلا أمكن اعتبار هجمات البدو

في عهد تركي بن عبدالله وعهد فيصل بن تركي، أعمالاً ثورية ضد الحكم السعودي، وهذا غير صحيح.

اصطدمت القبائل الأحسائية بالأهالي فنهبتهم وقتلتهم، وقليلاً ما اصطدمت مع الحامية التركية.. ومع ذلك صور الكتّاب المعارضون هذه الأفعال بأنها ثورات كبرى، واعتبروا تذمُّر الحضر من ضعف مواجهة الأتراك للبدو وغاراتهم، تذمّراً من أجل «الحكم العربي السعودي»!

وهكذا جمع أحدهم هذه الثورات القبليّة «العظمى» مع تذمر الأهالي من ضعف الأتراك، وعدم توفير الأخيرين الحماية اللازمة، وضرب البدو بيد من حديد.. ليقدّم لنا خليطاً غريباً، فيقول: «إن حالة تذمر أهالي الأحساء وسخطهم على الحكم العثماني، كان يقابله تمرّد بدوي قبلي على السلطة العثمانية هناك. فتضافرت القوتان، فكانتا من أهم العوامل التي أضعفت قواعد الاستراتيجية العثمانية في الأحساء»[1].



المحور الاقتصادي

لم يكن هدف العثمانيين من استيلائهم على إقليم الأحساء.. الإفادة الاقتصادية من الإقليم.. رغم ما به منخيرات زراعية واقتصادية وتجارية.. وطوال عهدهم الذي استمر نحو ٤٢ عاماً (١٨٧١ - ١٩١٣) كانت جباية الزكوات وغيرها لا تكاد تفي بالنفقات التي يصرفونها على الحاميات.. هذا ما يؤكده معظم الباحثين في تاريخ هذه المنطقة.. وإذا ما لاحظنا أن حجم القوات الموجودة في الحاميات كان ضئيلاً، فإن النفقات ستكون ضئيلة أيضاً، وبالتالي فإن ما سيؤخذ من الأهالي سيكون قليلاً بصورة تلقائية.

اتخذ العثمانيون خطوات حاسمة لإصلاح الوضع الاقتصادي في سنجق الأحساء:

- فبادروا بسنّ نظام ضرائبي جديد يعتمد على قوانين الشريعة، وأبطلوا الضرائب الزائدة المرهقة للسكان، والتي استُنّت في العهد السعودي.

(١) المصدر السابق، ص١٢٠.

- وأُعيدت الأراضي المغتصبة من قبل الوهابيين إلى أصحابها[1]، إلا إذا كانت مجهولة المالك، أو فرّ مالكها خوفاً على نفسه ولم يعهد بها إلى أحد.. وهذه الأراضي كثيرة جدًّا خاصة في قرى ومدن الأحساء، بعضها استولي عليه في فترة قريبة أثناء الحرب الأهلية، فكانت كإقطاعات من سعود الفيصل إلى أتباعه من العجمان وآل مرّة.. وبعضها صادره السعوديون بالقوة أثناء حكمهم واستحوذوا عليه لأنفسهم، لهذا كانت إحدى وسائل الضغط التركية على سعود الفيصل، هي مصادرة أملاك عائلته في الأحساء[2]، بل إن عبدالله الفيصل طلب من الخديوي إسماعيل أن يتوسط له لدى الأتراك لإجراء معاش له من الأحساء[3].

- وهُيِّئت أسباب الأمن بعد سنوات طويلة من الحرب التي أتت على الأخضر واليابس.

ولئن أكّد الباحثون على أن الأحساء لم تكن في عهد الأتراك تقدم دخلاً للدولة العثمانية، لأسباب ترجع إلى سياستها التي اعتمدتها في «إرضاء الأهالي»[4]. فإنها حاولت استثمار بعض الأراضي لصالحها، حيث ينقل لوريمر الذي زار الأحساء في مطلع القرن العشرين في معرض حديثه عن «الدائرة السنية» أنها: «تلعب دوراً هامًّا في اقتصاديات العراق التركي، ومنذ ظهورها في الأحساء قبل حوالي عشرين سنة، كانت تملك في واحة الأحساء زراعات في قرية باب الجفر، وكانت تغلّ ما يتراوح بين ٢٠٠٠ إلى ٢٥٠٠ نخلة من التمور، وإنتاجها السنوي من التمور في القطيف يبلغ حوالي ١٦ ألف قلّة من التمر. ويبلغ قيمة الإنتاج السنوي من تمورها في كلا الواحتين -القطيف والأحساء- حوالي ٣٠٠٠ جنيه إسترليني، وفي قرى الجبيل، وجليجلة، والحليلة، والمنيزلة، والمطيرفي، والمزاوي، والشقيق. في واحة الأحساء، توجد أراضي أرز مملوكة للدائرة السنيّة، تغلّ ١٠٠٠ موسميّة «الموسميّة تعادل ١١٠ كغم» من الأرز سنويًّا. وتملك الدائرة أيضاً حوالي ٢٥ منزلاً في مدينة القطيف، كانت مملوكة في السابق للشيخ ابن غانم من شيوخ

(١) مذكرات مدحت باشا، ص١٧٩ - ١٨٠.
(٢) العابد، مصدر سابق، ج٢، ص٢٤٤.
(٣) انظر الصفحات السابقة.
(٤) التطور السياسي لقطر (١٨٦٨ - ١٩١٦)، عبد العزيز محمد منصور، ط٢، ص١٤١. وقد أشار أحد الكتّاب السعوديين إلى أن الأتراك لم يفيدوا من الأحساء، أكثر مما كلّفهم من مصروفات، انظر: الدولة السعودية الثانية، ص١٧٤ - ١٧٥.

البحارنة[١]. كما ويوجد بالأحساء مدير أملاك الدائرة السنيّة، ولكن بصورة غير دائمة، وكذلك رئيس الجندرمة في الهفوف، وواحة القطيف لا تزال منحصرة في حاجي منصور باشا ابن جمعة»[٢].

وبسيطرة ابن سعود على الأحساء، استولى على أملاك الدائرة السنيّة، ووزّع أهمّها على ابناء أسرته ورجاله الذين ساعدوه في احتلالها، وعهد بالنزر اليسير إلى إدارة مالية منطقة الأحساء للاعتناء بها كأراضٍ وأملاك حكومية[٣].

الضرائب

لما وصل مدحت باشا إلى الأحساء بعد شهرين من نجاح حملته التي أعدّها، وزّع منشوراً على الأهالي حوى إعلاناً موقعاً من جانبه، جاء فيه:

«... قد أسقطنا الرسومات التي تؤخذ من الأهالي باسم الجهاد، وخدمات المأمورين على تحصيل الزكاة، والزيادة في الخرص المخالف للأحكام الشرعية، ومراد الدولة العليّة ترقية أحوال التبعة وزيادة ثروتهم، وأمرنا بإلغائها وعدم أخذها، ونبّهنا المأمورين بعد تحليفهم على عدم الزيادة على الواجب الشرعي. والذي يتبيّن منه أنه ارتكب ذلك فقد أوعدناه بالمجازاة الشديدة، ولإعلام كافة الأهالي وتبشيرهم، حررنا هذا الإعلام نسخاً متعددة، وأمرنا بتوزيعها على المدن والقرى، ليكون معلوم الجميع، ليبتهلوا بالدعوات الخيرية، ببقاء أيام الدولة العليّة، ويشتغلوا بتعمي أملاكهم، وتوسيع دائرة محاصيلهم وتجارتهم، وأن يكونوا آمنين مطمئنين، ليكون معلوم الجميع، في جمادى الآخرة، سنة ثمانٍ وثمانين ومائتين وألف[٤].

من الواضح من خلال البيان المذكور أعلاه، وأيضاً من خلال إعلان مدحت باشا

(١) آل غانم هم زعماء الشيعة في القطيف وحكامها في عهد الخوالد، وفي عهد الدولة السعودية الأولى والثانية، وقد فتك بهم السعوديون أكثر من مرّة.
(٢) دليل الخليج، لوريمر، القسم الجغرافي، ص١٠٢٥.
(٣) اكتشاف النفط وأثره على الحياة الاقتصادية في المنطقة الشرقية، ١٣٥٢-١٣٨٠هـ / ١٩٣٣ - ١٩٦٠م، الدكتور عبدالله ناصر السبيعي، ط١، ١٩٨٧م، ص٧٢.
(٤) آل عبد القادر، مصدر سابق، ص١٧٢ - ١٧٣.

الذي وزّعه نافذ باشا على أهالي القطيف، والذي استعرضنا فصوله في صفحات سابقة، أن الدولة العثمانية لم تكن لها النية بالإفادة من منطقة الأحساء اقتصاديًا، وكان الجانب الاقتصادي أحد سببين كانا مثار نقمة الأهالي ضد الحكم السعودي.. أما السبب الآخر، فهو القمع والتمييز الطائفيين المطبّقين بحق الشيعة، ولازال هذان السببان مدار احتكاك مع الحكم السعودي الحالي منذ أن احتلّ الأحساء عام ١٩١٣.

ومدحت باشا -مُعدّ البيانين- يدرك حجم المعاناة، لهذا سارع وأسقط كل الرسوم والضرائب غير الشرعية.. وما قاله منشور مدحت، هو في الواقع إدانة صارخة للمارسات الحكم السابق، وحين يُبطل العثمانيون أمراً كان جارياً، فإنه يقصد بذلك فترة الحكم السعودي.

والمعلوم أن إحدى حجج الأهالي والعثمانيين في عدم تسليم الأحساء لعبدالله الفيصل، هو الإرهاق الاقتصادي الذي يشكو منه الناس، بل إن عرائض وجهاء الأحساء والقطيف، والتي قُدّمت لمدحت باشا، والمطالبة بعدم تسليم البلاد للسعوديين، كانت تستند إلى هذا الأمر بالتحديد. وقد اعترف الحاكم السعودي «عبدالله الفيصل» بزيادة الضرائب، حين فسر توقيع الأهالي لعريضة إقصائه، بأن «السلطان اعتقد أن الموقعين يطالبون بالحكم التركي المباشر، بينما اعتقد موقعو العريضة أنهم كانوا بذلك يطالبون الحماية من الضرائب -السعودية بالطبع- على دخلهم وممتلكاتهم»[1].

أما الضرائب التي أسقطها مدحت فهي كثيرة، خُذ مثلاً ضريبة «الجهاد» التي أشار إليها الإعلان، وهي ضريبة ابتدعها السعوديون، وطُبّقت على الشيعة وحدهم، وقد استُنّت الضريبة هذه في عهد الدولة السعودية الأولى، وصُدّرت فيما بعد إلى البحرين أثناء احتلال السعوديين القصير لها، ولكن آل خليفة لم يلغوها، وكانت مطبّقة حتى الثلاثينات الميلادية من القرن الحالي، وعلى الشيعة وحدهم وهم الذين يشكلون الغالبية العظمى من سكان الجزيرة.. وتُسمّى الضريبة أحياناً بـ«الروسية» نسبة إلى الرأس، حيث كانت مفروضة على كل شخص صغيراً كان أم كبيراً، رجلاً أو امرأة.. وفي البحرين كانت تسمى «رقبيّة».

ولمّا جاء الحكم العثماني ألغى هذه الضريبة في الأحساء، ثم عادت بعودة حكم

(١) العابد، مصدر سابق، ج٢، ص٢٤٢.

السعوديين فيما بعد واستمرت إلى نهاية الحرب العالمية الثانية.

إن ضريبة الجهاد هذه، تشابه إلى حد بعيد «الجزية» في الإسلام، التي تؤخذ من الكفار نظير حمايتهم.. بل إن عدداً من الكتّاب السعوديين كان يسميها الجزية، على اعتبار أنها تطبّق بحق «الشيعة» الذي يُعتبرون كفاراً بنظر أتباع المذهب الوهابي وأساطينه.

وبالنسبة للسعوديين، فقد كانت الضريبة إحدى الوسائل الفعّالة في ابتزاز الأهالي، وكانت تؤخذ أكثر من مرة في العام، قد تصل إلى خمس مرّات، ولهذا عُرف في عهد آل سعود الأخير «الجهاد المطبوق»، و «الجهاد المربوع».. وكانت هذه الضريبة الغريبة تموّل خزانة الحكم السعودي، وبالتالي كان لها دور أساسي في تمويل المعارك السعودية.

لقد وجد السعوديون أن من غير الممكن لهم الاعتماد على الشيعة في القتال معهم، إذ كيف يقاتل الكافر -بزعمهم- إلى جانب المسلم؟!، وطالما استغنوا عن خدمات الشيعة في هذا المجال، فلابد إذن من إرهاقهم بالبديل من المال.. والضريبة هذه لم تحدّد قيمتها ومقدارها، بل إن ذلك متروك للحاكم السعودي نفسه، وكانت في كل الأحيان باهظة، وأكثر من ذلك إن ضريبة الجهاد لم تلغ أخذ الزكاة من الشيعة، باعتبارهم مسلمين؟.. بمعنى أنهم كانوا يدفعون الجزية كالكفار، والزكاة كالمسلمين، إضافة إلى الضرائب الأخرى.

ويعترف السعويون في معظم مراجعهم بضريبة الجهاد وإجهاد السكان في إقليم الأحساء والقطيف بها، تحت أسماء ومبررات مختلفة.. قال أحدهم: «أخذت الحكومات المحلية -السعودية- ضرائب سنويّة من الشيعة في الأحساء لعدم دخولهم في الخدمة العسكرية، حيث أُعفوا من الجندية الإجبارية مقابل دفع ضريبة مالية سنوية، يمكن القول عنها: إنها ضريبة البدل عن الخدمة العسكرية» وهناك «ضرائب إضافية تؤخذ من -بعض- السكان الحضر «الشيعة» وكانت تأتي لهم بالمتاعب الاقتصادية، التي تؤثر بدورها على أوضاعهم الاجتماعية[1].

منجهة أخرى، نلاحظ أن منشور مدحت باشا -أو إعلانه- سارع وألغى ضريبة الجهاد، واعتبرها من الضرائب غير الشرعية، كما سارع وألغى رسوم ورشوات جامعي

(١) الإصلاح الاجتماعي، ص١٣٣.

الـزكاة.. لأن هؤلاء في العهد السعودي كانوا لا يستلمون رواتبهم من الزكاة نفسها، وإنما من الأهالي المجبورين على دفعها، ولأن الأهالي -وهم في غالبيتهم من المزارعين في حقول وبساتين النخيل- فإن السعوديين اعتادوا تقدير الزكاة قبل أن يحين وقت جني الثمار، مما جعل التقديرات «الخرص» تعتمد على شهوات «الخرّاصين» التابعين للحكومة، وكان هؤلاء، وبسبب الأحقاد الطائفيّة العمياء، قد فتحوا أبواباً واسعة من الظلم، وراحوا يقدرون الثمار قبل نضوجها بأكثر من حجمها، وبالتالي فإن الزكاة تكون أكبر، ولم يكن أمام الأهالي إلا التسليم، أو إرضاء «الخرّاص» ورشوته!... وفي كلا الحالتين يقع الظلم.. ولذلك بادر مدحت إلى إلغاء الزيادة في الخرص، وحلّف المسؤولين على جمع الزكاة بالالتزام، وإلا فإن العقاب شديد.. وهذه الأمور مجتمعة كانت تثقل كاهل الأهالي.. وتثير لديهم الأذى والحنق على الحاكمين وأعوانهم.

الغريب أن المقربين من الحكم السعودي من زعماء الوهابيين في الأحساء، تألّموا من الخرص بعد أن أصابهم منه النزر القليل، فراحوا يشكون، يقول الشاعر الشيخ أحمد بن مشرف شاكياً لدى فيصل بن تركي ما أصابه:

إليك شددتُ العيس أشكو ظلامتي ... فقد رام خسفي حاسد وظلوم
وجار عليّ العاملون بخرصهم ... وظلم الورى يوم الحساب وخيم!

لقد حدد الأتراك ما سيأخذونه من رعاياهم في القطيف والأحساء بالزكاة والأعشار الشرعية، وأسقطوا كافة الضرائب غير الشرعية التي سنّها السعوديون خلال حكمهم الماضي.. وقد قوبل هذا الأمر بالارتياح، ليس لأن ذلك كان وعداً وهميًّا، وإنما كان حقيقة ملموسة، إلا أنه في أواخر عهدهم -ونظراً للأزمات المتلاحقة- التي كان الجنود يعانون منها، وباجتهاد شخصي من بعض المسؤولين، أرادوا زيادة بعض الضرائب، وصادف أن بعض المتصرّفين كانوا فاسدين، وبعضهم كان متواطئاً مع ابن سعود، وكانت قبضة الدولة قد تراخت، ففرضوا ضريبة على التمر لتغطية نفقات الحامية، فرفض الأهالي ذلك، وسرعان ما استجابت الدولة إلى مطالبهم.

والسؤال كم هو مقدار الضرائب العثمانية وكم كانت المصاريف؟

يشير المستشرق السوفياتي إليكسي فاسيليف، إلى أن «عائدات الأقليم في عهد

الإدارة العثمانية تعادل ٣٧ ألف ليرة -عثمانية- سنويًا. بينما بلغت نفقات الحامية والإدارة ٥٢ ألفاً.. ويمكن زيادة عائدات الأحساء، وهذا ما عزم عليه عبد العزيز السعود.. حيث فرض ضريبة بنسبة ٨٪ على كل الواردات التي تصل إلى الأقليم الشرقي من جهة البحر»[1].

ويبدو أن هذا التقدير كان أواخر القرن التاسع عشر، أما في بدايات القرن العشرين، فيقدر لوريمر وارادات الأقليم بستين ألف ليرة عثمانية، ينفق على الجنود والموظفين ٥٤ ألفاً منها.. وعاد لوريمر فأكّد أنه حدث في إحدى السنوات ١٩٠٧ أن انقطع حبل الأمن، فتدهورت تجارة التمور وانخفضت أسعاره من ٧ دولارات للمنّ الواحد[2]، إلى أربعة دولارات، وتبع ذلك انخفاض في الضرائب إلى أقل من ٥٤ ألف جنيه، أي أقل من المصروفات[3].

وتشير مذكرات مدحت باشا[4]، إلى أن إيرادات منطقة الأحساء والقطيف كانت تكفي مرتبات الموظفين والعساكر والضباط، ويبقى منها جانب لخزينة الحكومة. ولكن الذين خلفوا مدحت أعادوا الجنود إلى بغداد، وأقاموا مقامهم طائفة من الأكراد والعربان، وأرسلوا إليها رجلاً من أشراف الأهالي لا يعرف قوانين الحكومة ولا نظامها اسمه عبد الرحمن[5].. وكانت الحكومة قد وعدت الأهالي بإعفائهم من كل شيء عدا الزكاة والأعشار، فأراد المشيرون الإكثار من الإيراد، ووضعوا الضرائب وأحدثوا رسوماً جركيّة مما أدّى إلى استياء الأهالي وطرد موظفي الحكومة.

كما أشارت المذكرات السالفة إلى أن الحكومة التركية جمعت الزكوات والأعشار الشرعية بعد الاستيلاء المباشر على الأحساء بكل سهولة، وبلغت واردات الحكومة في سبعة أشهر ثلاثين مليوناً وسبعمائة ألف من القروش، وكان متوقعاً أنه إذا تمّت الإصلاحات

---

(١) فاسيلييف، مصدر سابق، ص٢٤٣.

(٢) المنّ، وحدة وزن يختلف مقدارها بين الأحساء والقطيف، فهي في الأخيرة تساوي ٣٥ رطلًا إنجليزياً «١٦ كغم»، وفي الأحساء بين ٥٢٥ و٦٥٠ رطلاً.

(٣) الإصلاح الاجتماعي، الصفحات ٦٩، ١٣٠، ١٣١.

(٤) يوسف كمال حتاتة، مذكرات مدحت باشا، ص١٨٢.

(٥) عبد الرحمن سلمان، نجدي مقيم في الأحساء، تظاهر بالولاء للأتراك، وكان على علاقة قوية مع المعتمد السياسي في البحرين، ثم كانت له ارتباطات قوية مع ابن سعود، الذي بعثه ليفاوض الإنجليز بشأن الأحساء، قبل احتلالها من قبل السعوديين، انظر دوره في موقع آخر من الكتاب.

وزدات ثروة الأهالي واستتب الأمن، ازدياد إيراد الحكومة[1].

وواجهت الحكومة التركية أول مشكلة بالنسبة للزكوات مع البدو البعيدين عن مركز الدولة، فعقد اجتماع حضره زعماء البدو، واتفق على أخذ ريال عن حمل كل بعير يرد إلى القرى، وانفضّ المشكل[2].

وجاءت تقديرات لوريمر في بدايات القرن العشرين لما يأخذه الأتراك من المنطقة على المحاصيل الزراعية من زكوات وأعشار شرعية على النحو التالي:

تمور الأحساء	٢٦٦٠٠٠	روبية
تمور القطيف	٨٠٠٠٠	روبية
قمح الأحساء	٦٧٢٠	روبية
أرز الأحساء	١٣٤٤٠	روبية
المجموع	٣٦٦١٦٠	روبية[3]

تجدر الإشارة إلى أن المجموع هذا يساوي حوالي ٧٨٥٠ ليرة عثمانية ذهبية.. مما يعزز الشكوك القائلة بأن دخل العثمانيين من المنطقة لم يتجاوز في أي عام ثلاثين ألف ليرة.. إذ يلحظ هنا أن أهم الزكوات على المحاصيل لم تتجاوز سدس المصروفات البالغة حوالي ستين ألف ليرة ذهباً.

وهناك ضرائب تافهة تؤخذ من صيادي اللؤلؤ، مقدارها نصف ليرة ذهبية تركية عن كل سفينة صيد مهما كان حجمها، وذلك في أول موسم الغوص. وأشار لوريمر إلى أن عدد السفن العاملة في الأقليم حوالي ١٦٧ سفينة، ويعمل بها ٣٤٤٤ رجلاً.. وبكلمة فإن الضريبة لن تصل إلى ٩٠ ليرة ذهباً، وهو مبلغ لا يستحق الذكر والتسجيل!

(١) يوسف كمال حتاتة، مصدر سابق، ص١٧٩ - ١٨٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) لوريمر، ج٢، القسم الجغرافي، ص٩٩. وقد أشار لوريمر إلى أن هناك ضرائب أخرى على النخيل، وأنها كانت على ثلاث درجات، الأولى تدفع قرشين ذهبيين عن كل شجرة نخيل، وهذه أجود أنواع النخيل، والثانية قرشاً وربع القرش عن كل شجرة، والثالثة تدفع ثلاثة أرباع القرش. مع ملاحظة أن الليرة العثمانية تساوي مائة قرشاً.

أمام هذه الحقائق، يمكن القول: إن الضرائب العثمانية كانت قليلة، وقد حاول بعض الكتاب الالتفاف على ذلك بالقول: إن الضرائب تستهلكها الحاميات -رغم قلّة عددها- ولا يتوفر منها شيء للخدمات.. وفي هذا القول إهمال لحقيقة أنه لم تكن هناك دولة أو إمارة في الخليج أو نجد أو الحجاز تضع في اهتمامها مسألة الخدمات، بل إن دولة السعوديين الأولى والثانية، ورغم ضخامة الإمكانات المادية التي استوفيت من السكان، لم يكن لديها بند للمصاريف على الخدمات إطلاقاً، ذلك أن أُسس الدولة المنظمة والحديثة لم تقم بعد، وكان الحكم على سوء أو حُسن أي نظام يتم من منظار ما يأخذه من السكان من ضرائب.

فضلاً عن ذلك فإن الأحساء شهدت في وقت مبكر المدارس الحكومية التي أسسها العثمانيون، سنة ١٩٠٢، وسبقت بذلك كل مناطق الخليج دون استثناء، في حين لم يدخل التعليم النظامي في العهد السعودي إلا بعد ٢٥ عاماً من سقوط الأحساء، وبعد ٣٨ عاماً من احتلال القطيف!!

ولم تتأخر الأحساء والقطيف في مجال الخدمات البلدية والبريد وغيرها.. فقد أسس العثمانيون أواخر ١٩٠٢ بلدية في الأحساء وعيّنوا أحد الوجهاء رئيساً لها، ثم طالب الأعيان بترئيس محمد أحمد الشعيبي، فتمّ لهم ذلك.. وبقي الشعيبي رئيساً حتى سقوط الأحساء ١٩١٣، فألغى ابن سعود مهام البلدية، ولم تؤسّس بلدية جديدة، إلا بعد خمسة عشر عاماً، أي في عام ١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م.

وكانت هناك بلدية في القطيف أسست في الفترة ذاتها ولتؤدي المهمات نفسها[1].

وفوق هذا عرفت المنطقة في العهد العثماني الاتصالات البريدية، حيث أوجد الأتراك مكاتب بريدية في كل من القطيف والهفوف والجبيل، وأدّت خدماتها حتى إحتلال ابن سعود للأحساء، فتوقف البريد مدة اثني عشر عاماً على الأقل، أي إلى ما بعد سقوط الحجاز سنة ١٩٢٥، وحينها اعتمد المواطنون -بدرجة رئيسيه- على المسافرين في إيصال رسائلهم[2].

---

(١) اكتشاف النفط وأثره على الحياة الاقتصادية، ص١٧٣ - ١٧٤.

(٢) المصدر السابق، ص٢٥٠ - ٢٥٤.

النشاط الاقتصادي

مارس سكان الإقليم مجموعة من النشاطات الاقتصادية جعلت من الأقليم أغنى أقاليم الجزيرة العربية، فإلى جانب الزراعة عمل السكان في مجال الغوص لصيد اللؤلؤ، كما مارسوا مهنة صيد الأسماك، وتربية المواشي، والصناعات المحليّة العديدة، والتجارة، وغيرها.

الزراعة

وكانت تعتبر المورد الرئيسي للسكان الذين هم في أغلبهم فلاحون، وقد ساعد على نمو الزراعة عبر العصور غزارة المياه، والأرض الخصبة وتشبث الأهالي بأرضهم وزراعتهم.

أما أهم المزروعات، فهي النخيل التي اشتُهرت بها المنطقة منذ عهود ما قبل الإسلام، وضرب بها المثل «كناقل التمر إلى هجر». ويعتبر التمر يومها الغذاء الرئيسي للسكان دون مزاحم، ليس فقط في الجزيرة العربية، بل وفي مناطق أخرى من العالم، قبل أن يزاحمه القمح والرز على الموائد.

وإضافة إلى زراعة التمر، نمت في الأحساء وبعض مناطق القطيف، زراعة الأرز المشهورة، والمعلوم أن الأرز يحتاج إلى الكثير من الماء. وبرزت أيضاً -كما تذكر مذكرات مدحت باشا- زراعة القمح، بعد نجاح حملته في الاستيلاء على الأحساء، وكان أول عهد السكان بزراعة القمح هو في تلك السنين الخوالي. كما زرعوا الذرة والدخن والسمسم واللوبيا والشعير وعبّاد الشمس وغيرها.

وزُرعت في القطيف والأحساء الخضار بأنواعها والفواكه مثل الرمان والتين والعنب والخوخ والحوامض، واللوز والموز والتوت والنبق وتمر الهند والليمون والمشمش والبوبي وغيرها.

وبالنسبة للتمور، قدّر لوريمر إنتاجها في الأحساء عام ١٩٠٧ بـ«٥١ ألف طن سنويًا»، وفي القطيف «٣٤ ألف طن سنويًا» وكان هذا الناتج الضخم يسدّ حاجات السكان ومعظم حاجات شرق ووسط الجزيرة، حيث أصبحت القوافل تهفو نحو

الأحساء والقطيف، لتعود محمّلة بالتمور والأغذية، وقدّرت المساحات المزروعة بحوالي أربعين ألف هكتار، تحوي ما بين ٤ - ٥ ملايين نخلة، في الأحساء وحدها. أما في القطيف فقدّرت المساحة المزروعة في العهد العثماني بـ ١٧ ألف هكتار، وبها حوالي مليوني نخلة.

وحدّد لوريمر صادرات التمور من المنطقة على النحو الذي يوضحه الجدول التالي:

- ٣٠٠٠ طن تصدّر إلى جدة عن طريق ميناء العقير.
- ١٠٠٠ طن تصدّر إلى جدة عن طريق ميناء البحرين.
- ٥٠٠٠ طن تصدّر إلى البحرين.
- ٢٠٠٠ طن تصدّر إلى قطر.
- ٤٠٠٠٠ طن للاستهلاك المحلّي وللتصدير إلى الكويت ونجد[١].

وقد فايدل «Vidal» صاحب مؤلّف (واحات الأحساء) قيمة التمور المنتجة بحوالي مليار وخمسين مليون جنيه، وهو مبلغ بالغ الضخامة يومئذ.

واشتهرت القطيف بتصدير الدبس «عسل التمر» المستخرج من رطب الخنيزي الذي اشتهرت به الواحة، هذا إضافة إلى تصدير السلوق «الرطب بعد أن يُغلى ويجفّف» إلى الهند قبل أن تصدر الأخيرة قانوناً يعيق الاستيراد.

أما الأرز الأحسائي، فقد طغت شهرته على كل الأنواع، وكان سعره من أغلى الأسعار، وقد توسّع الأهالي في زراعته أبّان العهد العثماني، وقدّر الإنتاج السنوي بـ «٤١ مليون رطل». في حين بلغ إنتاج القمح في المواسم الجيدة ما يقارب «ألف مليون رطل»[٢].

صيد الأسماك واللؤلؤ

واشتهرت به منطقة القطيف وتوابعها كسيهات وصفوى وتاروت، وكانت هذه الحرفة مصدر ثراء كبير للمنطقة.. وقدّر لوريمر عدد السفن التي تنطلق للغوص في سنة ١٩٠٧

(١) لوريمر، القسم الجغرافي، ج٢، ص٩٩.
(٢) اكتشاف النفط وأثره على الحياة الاقتصادية في المنطقة الشرقية، ص٧٦.

بحوالي ١٦٧ سفينة يعمل بها ٣٤٤٤ رجلاً.. ويبدو من خلال المقارنة بأحاديث الطاعنين في السن، ممّن عمل بالغوص أن عدد السفن والعاملين يفوق تقديرات لوريمر بكثير.

لقد اشتهرت منطقة ساحل القطيف «الخط» على مرّ العصور بأن بحارها تحوي أجود أنواع اللؤلؤ وأكثرها، حيث انخرط المواطنون في سلك الغواصين، إضافة إلى القيام بالزراعة وغيرها بعد انتهاء الموسم، بل إن بعض المراجع أشارت إلى أن جميع أهل القطيف غواصون، إما لأنفسهم، أو بالأجرة للغير[1].. وتشير التقديرات إلى أن واردات الغوص تصل إلى مائة مليون روبية فضية هندية.

وهكذا نشأت طبقة من المواطنين تقوم بالمتاجرة باللؤلؤ، فتبيعه في البحرين أو الهند وغيرها.. وعادة ما تزدهر الحياة الاقتصادية في المنطقة بعد انتهاء كل موسم، وتزداد حركة التجارة بشكل كبير.

من جهة أخرى، أعطت سواحل الخليج كميات هائلة من الأسماك، فالخليج بمياهه الدافئة وملوحته الزائدة، جعل منه ملاذاً للأسماك، واحترف الأهالي صيده ببراعة، وابتدعوا وسائله، مما وفّر غذاء جيداً ورخيصاً، وصاروا مع تقادم السنين خبراء في أماكن صيده وتوقيته.. ولولا المضايقات الحكومية الحالية، لغطى إنتاج المنطقة كثيراً من بلاد العالم.

وبلا شك فإن الأهالي، ما كانوا يستهلكون كامل الإنتاج، بل يصدرون الفائض إلى الأحساء -التي لم يزاول سكانها هذه المهنة- وإلى الرياض ومدن نجد الأخرى.. في حين تُحفظ الأنواع الرديئة من الأسماك لاستخدامها طعاماً للأبقار، أو أسمدة للزراعة[2].

الصناعات المحليّة

وهي عديدة ومتنوعة، وقد برع فيها الشيعة الأحسائيون بوجه خاص، ذلك أن البدو كانوا يأنفون من مزاولة الحرف لأنها تحطّ من مقامهم -كما يرون وفق العادات

(١) القطيف وأضواء على شعرها المعاصر، عبد العلي يوسف آل سيف، ط١، ١٤٠٦هـ ص٦٤.
(٢) تصدر المنطقة في الوقت الحالي أجود أنواع الربيان في العالم، إلى العديد من دول الغرب، خاصة الولايات المتحدة، وقد احتكر أحد أفراد عائلة القصيبي صيد الربيان، مما تبعه حرمان الأهالي من صيده أغلب أوقات السنة.

القبلية- بعكس الحضر.

فقام الحدّادون والصفارون والنحّاسون بتأمين الاحتياجات المحلية من أوانٍ وقدور ودلال القهوة والهاونات التي استوردوا النحاس من الخارج لصناعتها، ويذكر زويمر أن الأحساء اشتهرت بصناعة الأواني النحاسية من مختلف الأشكال، وكانت تصدّر إلى مختلف أجزاء شبه الجزيرة العربية[١].

وصنع الحدّادون مستلزمات الزراعة والبناء، كالفؤوس والمحاريث، والسلاسل، والمناقيش.. ونشطت صناعة دباغة الجلود والأحذية والحقائب والقرب، وحافظات التمر، والأحزمة، وغمد السيوف وسائر الأمتعة الجلدية.

ومن الفخار قامت صناعة أواني الطبخ والصحون، وبالخصوص أوعية حفظ المياه وتبريدها كالزير والحب والمصخنة والخرس، والتنور الذي يصنع فيه الخبز. ومن النخيل قامت صناعة الحبال، والحصر والأقفاص، والمراوح اليدوية، وسفر الطعام، وقلال التمر «الخصف»، والزنابيل وأسرّة الأطفال، واستخدمت الجذوع للسقوف، وبرع النجارون في صناعة الأبواب والنوافذ ونقشها.

وكانت هناك صناعة النسيج، كالأُزر، والغتر المحلية، والطواقي الصيفية والشتوية، والجوارب الصوفية والقطنية.. إضافة إلى صناعات أخرى كالفُرش والوسائد والمساند والأردية[٢].

وأهم من هذا كله تميزت الأحساء بشهرة عريقة في صناعة العبي والمشالح المشهورة حتى اليوم في كل أنحاء الخليج والجزيرة العربية، وعدّها زويمر واحدة من أهم صناعتين تميزت بها الأحساء، وكانت تصدر العباءات إلى البلدان المجاورة، ويوصي الحكام والأمراء بصنعها لهم بخيوط فضية وذهبية. وقد مارست الجاليات الأحسائية في كل مناطق الخليج هذه الصنعة العريقة.

ويضاف إلى هذا كله، صناعة الحلي الذهبية والفضية، التي أشار إليها لوريمر،

---

(١) جمال زكريا قاسم، ج١، ص٢٥. والإصلاح الاجتماعي، ص٦٠.

(٢) اكتشاف النفط وأثره على الحياة الاقتصادية، ص١١٧ - ١١٨. وانظر أيضاً: «Saudi Arabia; its pepole; Culture» ص٢٩٢.

حيث اكتسبت المصوغات والحلي والمجوهرات التي يتم صقلها وتصميمها في الأحساء -بوجه خاص- شهرة واسعة.

وكل هذه الحرف -كما أشرنا- كانت تعتمد على الشيعة[1] تماماً مثلما هي الزراعة وصيد الأسماك واللؤلؤ -الذي انخرط فيه أعداد من البدو المتحضرين-.. والسبب في استنكاف الآخرين عن ممارسة هذه المهن، أنهم عدّوها مهناً وضيعة تتنافى مع طبيعة البدوي -والمتحضّر حديثاً- الذي يرى في ممارستها إهانة له.

ومع وضوح هذه الصورة الاجتماعية، إلا أن أحد الكتّاب اعتبر أن «المذهب له أثر في تحديد نوعيّة العمل الذي يمارسه السكان السنة والشيعة»[2]. وفي هذا تجاهل للخصائص والطبائع البدوية.. وإيحاء بأن المهن الوضيعة -بالمنظار البدوي- لا يمارسها إلا الشيعة!.

التجـارة

واحتلت المرتبة الثالثة بعد الزراعة والغوص، وقد ازدهرت التجارة في العهد العثماني، رغم المعوقات البريطانية. وكان انتعاش البحرين بالخصوص مرهوناً بحركتها التجارية مع مينائي القطيف والعقير. لهذا ازدهرت التجارة بين هذين المينائين، وبين البحرين والهند «إضافة إلى تعامل محدود مع العراق والكويت وعمان وإيران»، رغم أن الإنجليز أشاروا على الشيخ عيسى، وبمجرّد أن سيطر الأتراك على الأحساء، بأن يُضاعف الضريبة على البضائع المصدرة لمينائي القطيف والعقير بغية إيذاء العثمانيين، فرفعها من ٥٪ إلى ١٠٪ ولم تخفض هذه الضريبة إلا بعد احتلال ابن سعود للأحساء، أو قُبل فور احتلاله لها، فأعادها عيسى إلى ٥٪ بعد أن استمرت لمدة تزيد على أربعين عاماً، والسبب كما قال شيخ البحرين، أنه جعلها ٥٪ «مساعدة منه لابن سعود» لأنه بدأ يفرض ضريبة مماثلة في موانئه[3].

كانت القطيف والأحساء، مركز التجارة، حيث يعتمد على ما يعرض في أسواقها عشرات الآلاف من البدو والحضر، ويكفي أن دخل موانىء المنطقة يزيد على مائة ألف

(١) الإصلاح الاجتماعي، ص٦٠.

(٢) المصدر السابق، ص٤٨. وانظر أيضاً: «Saudi Arabia; its pepole; Culture» ص٢٩٢.

(٣) التغيير السياسي والاجتماعي في البحرين، الدكتور محمد الرميحي، ص١٠٧.

روبية شهريًا يوم احتل ابن سعود المنطقة[١].

ويعتبر ميناء العقير أكثر نشاطاً من ميناء القطيف، وكان يغادره ما بين ٢٠٠٠ - ٣٠٠٠ جمل اسبوعيًا محمّلاً بالبضائع[٢].

أما صادرات المنطقة فهي: التمور وسعف النخيل، العباءات، والجلود، وحطب الوقود، والحلي الذهبية، اللؤلؤ، والخيول، والحمير الحساوية ذات الشهرة العالمية لقوتها وسرعتها وحجمها، وكان الطلب عليها كبيراً في العراق وإيران والبحرين ومصر.. ومن الصادرات السلوق والدبس، والأواني النحاسية وغيرها من الصناعات اليدوية.

في حين كانت الواردات تشمل، الخيوط الملونة والأقمشة، الشاي، القهوة، الهيل، وآخر صرعات السلاح المهرّب من البحرين ومسقط وقطر، والتوابل، والأخشاب.

وهكذا انتعشت الموانئ في العهد التركي، وازدهرت التجارة، وذلك بفعل عاملين:

١- استتباب الأمن أكثر من ثلاثين عاماً متواصلة ١٨٧١ - ١٩٠٢.

٢- انخفاض الضرائب، قياساً بالعهد السعودي السابق واللاحق، وقياساً بالمناطق الأخرى الرازحة تحت الاحتلال البريطاني. وقد رأينا أن مشايخ هذه الدول يفاخرون أحياناً -حينما يقومون بتخفيض الضرائب- فيقولون: إنها وصلت إلى ما يقارب حجم الضريبة المفروضة في القطيف والأحساء.

تربية الحيوانات والدواجن

حيث لم يكن يخلو منزل في المدن والقرى من حظيرة لتربية الأبقاء أو الأغنام أو الدواجن أو الطيور، إضافة إلى مستودع لتخزين التمر والمواد الغذائية الأخرى.. وكان من عادة السكان أن يخزّنوا التمر والأرز والحنطة والسمك المجفف والحطب داخل منازلهم، بما يكفي احتياجاتهم لعام كامل تقريباً[٣].

---

(١) عبد العلي السيف، مصدر سابق، ص٦٥.

(٢) اكتشاف النفط وأثره على الحياة الاقتصادية، ص٩٩، ص١٠٤.

(٣) اكتشاف النفط وأثره على الحياة الاجتماعية في المنطقة الشرقية، ١٣٥٢ - ١٣٨٠هـ/ ١٩٣٣ - ١٩٦٠، الدكتور عبدالله ناصر السبيعي، ط١، ١٩٨٧، ص٥١.

واعتمد الأهالي بشكل كبير على منتوجات الأبقار بشكل خاص من حليب ولبن وأجبان وسمن وغير ذلك، وكان هناك اكتفاء ذاتي من البيض، وقام تبادل بين منتوجات البدو وما ينتجه الحضر.

وبشكل عام بدأت ملامح الثراء تبرز في المنطقة بعيد استيلاء دولة الخلافة عليها؛ لأنها تحمل مقومات الأزدهار والنمو.. فكثرت الخيول والبيوت، وانبثقت شريحة واسعة من التجار والملّاكين، ولم يقتصر الغنى والثراء على منطقة دون أخرى، إلا أن الهفوف والقطيف تركزت فيها الشخصيات والثروات، وأضيفت للعديد من الأغنياء لقب «شاه» دلالةً على الغنى.

وأشار البريطانيون في مصادرهم عن تلك المرحلة إلى تزايد أعداد الزنوج العاملين بالزراعة، وهي إحدى علامات الثراء، بل إن بعض البدو -وهذا أمر غريب- كان لديهم عبيد يعملون في الرعي مع أن تجارة الرقيق في المنطقة كانت قليلة جدًّا بسبب مراقبة السلطات البريطانية، واستنكاف الأهالي عن ممارسة «النخاسة»، ومع ذلك كان الرقيق كثيراً في الأقليم، وكان لدى الأغنياء أكثر من واحد.. في حين أن تجارة الرقيق في «نجد» كانت مزدهرة بسبب ما يُجلب إلى أسواقها من رقيق محمَّل من أفريقيا، وأصبحت الرياض مركزاً من مراكز بيع الرقيق[1].

ومن علامات الثراء، أن إقليم الأحساء، كان له عملته الخاصة به، وهي «الطويلة» إضافة إلى استخدام العملات العثمانية «البارة، القرش، الليرة»، وشاع استخدام الروبية الهندية لكثرة التعامل مع الهند، ولكونها العملة الرئيسية في البحرين والكويت، وإضافة إلى ذلك استخدم الدولار النمساوي «دولار ماريا تريزا» ويسميه الأهالي «بالريال الفنساوي، الفرانسي»، وكان من الفضة، وقد سكّ في فيينا سنة ١٧٨٠، ويحمل صورة امبراطورة النمسا والمجر، وبقيت هذه العملات مستخدمة إلى أن تم ضرب الريال السعودي سنة ١٩٢٨ - ١٣٤٧هـ، في بيرمنغهام[2].

لقد عرفت المنطقة الثراء في العهد العثماني بصورة لم تعهدها من قبل، ولم لم يكن بها إلا التمر الذي اشتهرت به في القديم والحديث لكفى به ثروة في عصر كان أهل

(١) الإصلاح الاجتماعي، ص٣٦، ص٥٢. وانظر: جمال زكريا قاسم، ج١، ص٢٦.
(٢) المصدر السابق ص٢١٣ إلى ٢١٥. واكتشاف النفط وأثره على الحياة الاقتصادية، ص١١٤ - ١١٦.

نجد يأكلون القدّ الملوي، والأخضر واليابس.. وقد أثّرت هذه البيئة المترفة في شعراء الأحساء السنّة، فاختفت رنة الحزن والبكاء، فما أقل ما يبكون وما يحزنون، وما أضعف رثائهم وشكواهم، وحتى غزلهم وما فيه من شكوى قليلة ضعيفة.. بالرغم من أن هؤلاء الشعراء اختلطوا ببيئة التشيع التي أجادت شعر البكاء والرثاء، بصورة لا تراها في شعر الغابرين أو المعاصرين.. وحتى الشاعر ابن مشرف رغم حماسه للدعوة الوهابية، وبعد أن استوطن الأحساء، لم يقل شيئاً ذا بال يمكن أن يوازي شاعريته في نكبات الدرعية والرياض، وذلك بسبب عيشه المترف في الأحساء[١].

ويذكر الألوسي أن ثمن المنزل في الأحساء كان ألف ليرة عثمانية، وأن أجرة الدكان كانت ٤٥ ريالاً في الشهر في الأحوال العادية، وإذا جاءت القوافل بلغت أجرة الدكان في اليوم أربعة أمثال الأجرة العادية، وتلك أرقام تدل على ثراء واسع وكبير، إذا علمنا أن قيمة الجمل في ذلك الحين تبلغ من ريالين إلى خمسة ريالات[٢].

والآن لنستعرض الرؤية السعودية تجاه الوضع الاقتصادي في العهد التركي في الأقليم.

يقول أحد الكتّاب[٣] تحت عنوان: «موقف أهالي الأحساء من الاستراتيجية العثمانية»: إن الواقع الاجتماعي في الأحساء أثبت أن هذه الاستراتيجية -القاضية بتدعيم الوجود العثماني في الجزيرة العربية- غير موفّقة، لسببين هما: «أن الدولة العثمانية لم تفِ بالوعود التي منّت بها الأهالي، فكان هذا سبباً في فقدان القاعدة الشعبية والتأييد السكاني في المنطقة».. أما السبب الثاني فهو: «استناد الاستراتيجية العثمانية على القوة العسكرية، وأن هذا الأسلوب يفتقر إلى تأييد الناس له دائماً».. وقد ناقشنا بطلان هذا السبب في صفحات سابقة.

أما عن الأول، فيتحدث المؤلف عمّا جاء في منشورات مدحت ونافذ باشا حول تخفيف الضرائب وإزالة الكثير وغير الشرعي منها، إلا أنه يقول: إن هذه الوعود لم تكن حقيقة «فازدادت الضرائب المفروضة على كاهل السكان، وسادت المنطقة حالة

(١) الدكتور عبدالله العلي الحامد، مصدر سابق، ص٣٣١.
(٢) المصدر السابق، ص٤٩.
(٣) دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، ص١١٦ - ١١٧.

من التذمّر والسخط، كانت حصيلته الانفجار الشعبي الذي عبّر عنه أهالي الهفوف حين استنفروا وتجمعوا عند مقر حكومة متصرفية نجد، بحجّة أن السعر الذي سعّرته الحكومة للتمر زائد ومضر، فأُغلقت الدكاكين مدة ما، ولكن تدابير الحكومة أدّت إلى تسكين الأهالي».

واعتبر الكاتب هذه الحادثة «من بوادر التذمّر الجماعي المنظم في الأحساء ضد الاستراتيجية العثمانية»، وأنها تدل على «عدم انسجام الأهالي مع أسلوب الحكم العثماني»، وهو إيحاء عنصري كريه، مع أن الأهالي، والأغلبية الساحقة من السكان العرب ما كانوا ينظرون إلى الأتراك كمحتلين، بل اعتبروهم مسلمين، ولم تكن البضاعة القومية المصنّعة في بريطانيا وفرنسا قد غزت يومئذ إلا بعض العقول اليهودية والمسيحية في ديار الشام ومصر، في حين لم يفهم الأهالي العرب ما هي القومية؟

لقد استخدمت هذه الحادثة لتكون دليلاً ضد الأتراك، ليس في مجال الاقتصاد فحسب، بل وفي مجال السياسة، وليس لدى المعارضين أدلة تؤيدهم، إذ لحسن الحظ أن معظم المعلومات المتوفرة، ومن بينها المعلومات الواردة في الوثائق التركية والإنجليزية، والتي عادة ما يقتبس منها المعارضون ما يريدون فتصبح مشوّهة.. مع هذا فالمعلومات عن الحقبة التركية في معظمها تفنّد أقوال هؤلاء الباحثين.

وحادثة تسعير التمر، رغم ما نُفخ فيها، لم تكشف سوى محاسن الحكم التركي.. فالحادثة وقعت أولاً في عام ١٣٢٢هـ أي أواخر عهد الدولة السعودية، وبعد حكم للأحساء دام ٣٤ عاماً، فلا تصلح أن تكون دليلاً على الفترة السابقة.. والملاحظ أن الباحثين السعوديين، لا يقيّمون الوضع الاقتصادي من أساسه وبدايته، وإذا ما أرادوا الحديث فإنهم يبدؤون من عام ١٣٢٢هـ؛ لأنه من ذلك العام أو قبله بقليل بدأت الاضطرابات الأمنية تجتاح المنطقة، بفعل تحريض الملك عبد العزيز لقبائل البادية.

والحادثة المشار إليها لا نعرف تفاصيلها، لكن صاحب كتاب تحفة المستفيد يقول عنها التالي:

«في أيام أبي سهيل -الوالي التركي- قتل في بلد المبرز رجل من عسكر النظام، يسمّى محمود كردي، فقبض أبو سهيل على مشايخ المحلات وسجنهم، وطلب منهم أن يأتوا بقاتل الرجل.. فكتب له العلماء في إطلاقهم لعدم علمهم بالقاتل، فلم يلتفت لقولهم، فأوعزوا

للأهالي بالإضراب عن البيع والشراء، وفتح المتاجر وجلب السلع إلى الأسواق احتجاجاً على عمل أبي سهيل»، وأخيراً «طلب من العلماء التوسط في القضية، فأطلق الرؤساء والأعيان، وأسقط بعض الضرائب، وخفّف في البعض، وسكنت الفتنة، والحمد لله»[١].

وهناك جانب من وثيقة تركية من وثائق الباب العالي، صادرة من الفريق أول سليمان باشا، قائد الجيش السلطاني السادس في بغداد، دائرة الأركان الحربية العامة، الشعبة الرابعة، مؤرخة في ١٩ آذار/ ١٣٢٢هـ، وهي برقية تتحدث عن الأوضاع في الأحساء، وتشرح الحال وتقول: «إن الواجب والمصلحة العامة تقتضي مضاعفة الجهد لنيل حب الأهالي».. وإن الأخيرين «أغلقوا المتاجر في الهفوف وما حولها من قرى.. وهذا ما دعاني إلى أن أذهب إلى مركز الحكومة المحليّة، وأطلق سراح الموقوفين بعد أن زودتهم بالنصائح المؤثرة».. ويشير كاتب البرقية، إلى أن سبب الأزمة هي «أن الحكم بيد البكباشي محمود بك، وهو رجل جاهل، وآلت مصالح المتصرفيّة إلى أُناس غير مؤهلين». وتقول الوثيقة: إن محمود بك وجماعته يعاملون الأهالي بقسوة و«يقومون بأعمال تزعج الأهالي وتدفعهم إلى النفور منهم، وهذا بدوره يؤدي إلى محاذير عظيمة»[٢].

ويلاحظ هنا، أن السياسة العامة للأتراك لا يجريها الولاة كما ينبغي، وهذا يؤدي إلى «محاضير عظيمة» والمحاذير هذه هي سقوط الأحساء بيد الإنجليز، أو بيد حليفهم ابن سعود.

ومن المهم جدًّا الانتباه إلى أن محمود بك، وهو مقدم الدرك، متواطئ مع ابن سعود، كما تشير إلى ذلك وثائق أخرى، وتذكر الكتب السعودية أنه كان يغري القبائل بمهاجمة الحضر وقطع الطرق، فكانت النتيجة أن قتله أهالي المبرز، ففتّ ذلك في عضد الملك ابن سعود، كما سنرى في الصفحات القادمة.

وحول مسألة التمر أيضاً، هناك وثيقة تركية[٣]، تقول: «إن الحكومة المحليّة قد

(١) آل عبد القادر، مصدر سابق، ص١٨٩ - ١٩٠.

(٢) دراسة في مصادر تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر، «مصادر تاريخ البلاد السعودية»، الدكتور عبد الفتاح أبو عليّة، دار المريخ، الرياض ١٩٧٩، ص١٩٩ - ٢٠٠.

(٣) صادرة من ولاية البصرة، إلى دائرة الصدارة العظمى، ومؤرخة في ٢٥ مارس ١٣٢٢هـ وموقعة من قبل والي البصرة وقائدها. انظر: المصدر السابق، ص٢٠٠. ويلاحظ أن الأتراك يستخدمون التاريخ اليملاذي والهجري معاً.

أعدّت قيمة للتمر في مركز لواء نجد -الهفوف- فعدّ الأفراد أن هذه القيمة زائدة عن القيمة السابقة، وتسبب ضرراً على الناس. فقام هؤلاء النفر من الناس وهيّجوا الأهالي ضد الحكومة. فأُغلقت الحوانيت في السوق بعض الوقت. وحلاً للمسألة فقد أجرت الحكومة المحليّة ما يقتضي عمله من تدابير».

أما ما هي التدابير فيلخصها مخبر سري للدولة العثمانية في وثيقة تركية[1]، بقوله: «إن المتصرف قدر ضريبة التمر بـ ١١ ريالاً بدلاً من خمسة ريالات، وأضاف إليها بعض التكاليف الأخرى، مما سبّب نفور الأهالي في الأحساء، وقدموا الشكاوي في ذلك إلى قيادة اللواء التي رفعت أمرهم إلى ولاية البصرة، فردّت الولاية على شكاويهم وأطلقت سراح مسجونيهم».. أي خففت الضريبة وأطلقت سراح السجناء.

هذه هي السياسة العامة للأتراك.. نراها قائمة على أساس استرضاء الأهالي، وإن كان الولاة في الأيام الأخيرة خرجوا عن الخطة المرسومة، بسبب ضعف الحكم المركزي وانتشار الفساد في جهاز الدولة، مما أدى إلى كثرة تبديلات المتصرّفين، حيث توالى خلال الاثني عشر عاماً الأخيرة من الحكم العثماني «١٣٢٠ - ١٣٣١هـ» على حكم الأحساء ستة متصرّفين.

وقد لاحظنا أن العثمانيين استجابوا للشكاوي وبسرعة، كما رأينا حرية الحركة لدى الأهالي سواء في الإضراب أو الشكوى، وهو أمر لم يحصلوا عليه حتى يومنا هذا. وفوق ذلك أن الحادثة -وهو المهم- لم تكن إلا في الأيام المرضية للأتراك، وضمن سياق الانفلات العام، بسبب سقوط هيبة الدولة جراء هجوم البادية.

واعترف الكاتب السعودي الذي نفخ في «ثورة التمر!» فقال: إن الأهالي يرفعون الشكاوي إلى متصرف الأحساء «وفي حالة عدم استجابة مطالبهم، كانوا يرفعون الشكاوى إلى والي البصرة.. وأن الدولة كثيراً ما كانت ترضخ لقبول مطالبهم، فتصدر الأوامر بتخفيض ضريبة التمر والعمل على تحسين أحوال السكان في المنطقة».. واستشهد بوثيقة تركية مؤرخة في الحادي والعشرين من شعبان ١٣٢٢هـ[2].

---

(١) صادرة عن دائرة الأركان الحربية العامة، الشعبة الرابعة، رسالة موجهة إلى قيادة الجيش السلطاني السادس في بغداد ومؤرخة في ٢٥ مايو ١٣٢٢هـ، وهي موقّعة من مخبر اسمه محمد عبده، انظر: المصدر السابق، ص٢٠٥ - ٢٠٦.

(٢) المصدر السابق، ص١١٨.

وللعلم، فإن أرخص شيء في الأحساء كان التمر، وأن الأهالي اعتمدوا على انعاش وضعهم الاقتصادي من خلال بيعه وتصديره.

إننا لا نقبل التفسيرات التي تأخذ من حادثة التمر دليلاً على إثقال كاهل الناس بالضرائب، وأنها من دلالات السخط العام على الأتراك، فقد أشارت إحدى الوثائق التركية إلى أن هناك جهة محرّضة اتخذت من حادثة التمر، وغيرها فيما بعد، حجة لإظهار العصيان وتقريب السكان للحكم السعودي الوليد في نجد.

ومن التفسيرات التي لا تتسم بالموضوعية، أن يُقيّم عهد الأتراك في السنوات العشر الأخيرة، ليكون حجّة على الثلاثين سنة التي سبقتها.. وفي هذا تجنٍّ على الحقائق.

أو أن يعتمد على المصادر السعودية كدليل على سوء الأوضاع الاقتصادية.. وطبيعي فإن المصادر الرسمية ليست طرفاً محايداً، بل هي خصم للعثمانيين.. انظر قول هذا مصدر الحكومي الذي عرض الحكومة السعودية قضيتها حول البريمي، فقد فيه «لقد بدأت علامات التذمّر في المنطقة من حكم الأتراك لكثرة الضرائب الباهظة التي فُرضت على الشعب، مما جعلهم يفكرون في الثورة على حكم الأتراك وعودة الحكم السعودي»!.

وبيت القصيد، هو في «عودة الحكم السعودي».

أو أن يعتمد على كرّاس «تحفة الألباء في تاريخ الأحساء»، وكاتبه سليمان الدخيل، الذي تزوج ابن سعود أخته، والكتاب مقتضب ضعيف السبك، قليل المعلومات، ولا يحوي قيمة علمية ذات معنى، وقد تعرّض له علامة الجزيرة الأستاذ حمد الجاسر بالنقد.. فضلاً عن أن الدخيل كان واسطة جيدة لنقل المعلومات للإنجليز في بغداد عن أحوال نجد والأحساء وشيعة حائل[1]. ومصدر كهذا لا يُعتدّ به أساساً، خاصة إذا اعتمد على أقاويل ومسلمات دون إبراز الدليل.

وكانت إشارة (آن بلنت) في كتابها «رحلة إلى نجد» «Plegramige to Nejd» وهي مذكراتها عن رحلتها إلى حائل أبان حكم الرشيديين لها، صادقة، فقد قالت: «إن منطقة

(١) انظر الوثيقة رقم «FO 317 / 4147» من ضابط البعثة في بغداد إلى حكومة الهند، بتاريخ الثالث من نوفمبر ١٩١٩.

الأحساء تضايقت من حكم الأتراك لكثرة الثورات القبلية التي أدّت إلى تدهور الناحية التجارية، وأدّت إلى عودة القرصنة نتيجة لضعف سيادة الترك وحامياتهم في المنطقة»[1]، وهذا قول صحيح لا غبار عليه، وهو تقييم لعهد الأتراك في أواخره... وأما ثورة البدو فهي من تدبير الإنجليز والسعوديين، وسنوضح ذلك في الصفحات التالية.

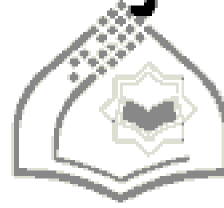
لقد كان الناس يبحثون عن خلاص، وكان الأهالي قد تضايقوا -على حد تعبير آن بلنت -من الحكم التركي، لأنه لم يوفّر الأمن والطمأنينة للحضر.. ولكن السكان لم يكونوا ضد الحكم التركي كحكم، وهو ما ثبت أثناء تسليم القطيف، ولو وفّر الأتراك الأمن، لما كان ابن سعود يستطيع أخذ الأحساء.. ولذا كانت سياسة الأخير تعتمد على إثارة البادية، وتطفيش الحكم التركي وإنهاكه، ودفع الأهالي للقبول بحكمه إنقاذاً لهم من المخاطر.. وهو ما حدث فعلاً.

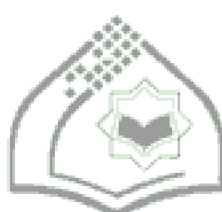


(١) رحلة إلى بلاد نجد، تأليف آن بلنت، ترجمة محمد أنعم غالب، ط١، ١٩٦٧، الرياض، منشورات دار اليمامة.

٦

الوضع المذهبي والثقافي
في الأحساء والقطيف (١٨٧١-١٩١٣)




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

من الصعب تحديد مدّة زمنية لمراقبة نشاط ثقافي أو فكري، فالنهوض لا يتأتّى طفرة واحدة، ولا يخمد مفاجأة وبقرار رسمي.. فرغم أن السعوديين حينما استولوا على المنطقة في مطلع القرن الثالث عشر، وعمدوا إلى كتب الشيعة وتراثهم ومؤلفاتهم ومساجدهم وحسينياتهم فأحرقوها ودمّروها، واضطهدوا علماء الشيعة وطردوا الكثير منهم خارج البلاد، كما اضطروا آخرين إلى الهجرة، شأن الكثيرين من علماء السنّة، ومنهم حنابلة أيضاً كابن فيروز المشهور.. ومع أن السعوديين لم يسمحوا للشيعة بممارسة عقائدهم ودروسهم في مدارسهم، إلّا أن الحركة العلمية لم تخمد؛ لأن رجالها بقوا أحياء، وقاموا بنشر المعارف في مناطق أخرى، وطبعت مؤلفاتهم هناك، إلى أن هدأت الأوضاع وانتهت الدولة السعودية الأولى بعد حوالي ٢٥ عاماً من احتلال المنطقة أول مرّة، فعاد المهاجرون والمهجّرون إلى ديارهم، وبدؤوا عهداً جديداً ونهضة في كافة العلوم.

ومن أوضح الأمثلة في الأحساء، على وجه الخصوص: الشيخ أحمد زين الدين الأحسائي، صاحب المدرسة الفكرية المشهورة، وابنه الشيخ علي، والشاعر أحمد القاري الأحسائي وغيرهم.. فهؤلاء عاشوا مدّة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري، ثم عاصروا الدولة السعودية إلى أن انتهت، وعادوا إلى أوطانهم وبدؤوا نشاطهم من جديد.

لا شك في أن الحركة العلمية تباطأت إلا أنها لم تخمد، ثم ما لبث أن بدأت بالنهوض حتى استولى السعوديون مرّة أخرى عليها، وحدث لها الأمر ذاته... إلى أن جاء الأتراك في أواخر القرن الثالث عشر الهجري، فكان في البلاد بقيّة من علم وحركة دينية، فنمت وتطوّرت على يد المخضرمين ممن عاصروا الدولة السعودية الثانية والحكم

المصري للمنطقة، حتى بلغت الذروة قبيل الاحتلال السعودي الأخير لها.

لكنها حينما احتلت -ورغم المحاربة الشرسة لكل ما يمتّ إلى مذهب التشيّع- فكراً أو أشخاصاً- لم تفقد مكانتها البارزة في مجال العلم، حيث لازالت هناك بقيّة من العلماء والمجتهدين والمراجع والمفكرين، وما هي إلّا ٣٠ عاماً، أي بين العقد السادس والسابع من القرن الرابع عشر الهجري، حتى تخطّفت يد المنون أولئك الرجال، واحداً تلو الآخر.. وبقيت القطيف والأحساء بعد جيل الروّاد الذين صنعتهم الحركة النشطة إبّان العهد العثماني تندب حظّها وتراثها.. قال الأستاذ الشاعر محمد سعيد الجشي -أحد تلامذة أولئك الروّاد- مصوّراً الأحوال:

يا أيّها البلد الذي سلب الحمام مفاخره
أين المجالس زاهيات بالفوائد عامره
بالأمس كانت للقطيف نجوم فضلٍ سائره
واليوم أضحت في دياجٍ دامساتٍ عاكره[1].

وللشاعر قصيدة أخرى يصور فيها القطيف بعد فقد أولئك الفطاحل:

مال الخريف على الربيع فصوّحت ... تلك الأزاهر في الربيع الأخضر
وطغت رياح الخطب تعصفُ بالربى ... تلقي بكلّ مزمجرٍ ومدمّر
حتى اكفهرّ الأفقُ وانطقع الرجا ... من نور فجر للهداية مسفر
أين الجهابذة العباقرة الألى ... طلعوا شموساً في دياجي الأعصر
سحبوا على قم الخلود مطارفاً ... والطهر ملء ردائهم والمئزر
يا ليتهم يلقون ضوء ساطعاً ... يمحو ظلام عمايةٍ وتحير[2]

وواضح أنه لم تنتج القطيف والأحساء «شيعة وسنّة» علماء أو شعراء ومفكرين بمستوى السابقين ولا بعددهم وعطائهم الثقافي والفكري.. وقد اعتبر الأستاذ عبدالعلي السيف أن العقود الأولى من القرن الهجري الرابع عشر، كانت حقبة وعي لدى الشعب في المنطقة بفضل وجود العلماء المخضرمين والخطباء.. وواضح أنه يتحدث عن حقبة

(١) القطيف وأضواء على شعرها المعاصر، عبد العلي السيف، ص١٠١.
(٢) المصدر السابق، ص١٠٠ - ١٠١.

العهد التركي «العقود الثلاثة الأولى»، والثلاثة الأخرى السعودية التي هي استمرار للشوط السابق[1].

كذلك الأمر بالنسبة للدكتور السبيعي الذي أشار إلى «ظاهرة غريبة في حركة التأليف العلمي والأدبي في المنطقة، لا يملك الناظر في تاريخ الحركة الثقافية للمنطقة الشرقية إلا أن يقف عندها طويلاً، وهي ظاهرة نقف عندها مسجّلين لها ولافتين نظر مؤرخي الآداب إلى ضرورة دراستها وتفسيرها، وهي انقطاع الأدباء والمؤلفين فجأة عن مواصلة عطائهم الثقافي في مجالات التأليف، ويمكن التأريخ لهذا الانقطاع المفاجئ بعام ١٣٦٠هـ حيث لم يظهر بعد هذا العام مؤلف ذو بال من قبل مشائخ وعلماء المنطقة، مع وجود العلماء وأفراد الأسر العلمية الذين اشتهر أسلافهم بالتأليف، والعطاء المتواصل»[2].

لا نعتقد أن الأستاذ السبيعي، وهو يكتب هذا المقطع كان غافلاً عن السبب، ولكنه أراد مجرد إثارة الموضوع للنقاش، فلا شك في أنه كتب ذلك وهو يعلم أن الستينات الهجرية كانت نهاية جيل الروّاد، وأن هذا الجيل لم يخلّف -في الثلاثين سنة التي تلت الاحتلال السعودي- من يرثه، بعد أن قُضي على المدارس المذهبية والفكرية، وفرض فكر أحادي ومدرسة فقهية محددة لا يمكن الخروج عن حدودها، فأيّ حركة علمية يمكن أن تبرز في ظل اضطهاد أتباع المذاهب التي لا تلتقي مع المذهب الرسمي الحاكم، وقد كانت الأحساء والحجاز مرتعاً للتعددية الفكرية والمذهبية؟.. ومَنْ مِنَ العلماء والمفكرين والمؤلفين والشعراء من هو مستعد لتسجيل شيء يمكن أن يعاقب عليه بالإعدام، في وقت وصل فيه التطرّف الطائفي مداه ببروز قوة الإخوان بعد عامين من الاحتلال السعودي للأحساء.

لقد سيطر الفكر الأحادي، والقمع الفكري والمذهبي، وكانت يد السلطة قوية وفي عزّ عنفوانها وبطشها، يدعمها سلك علماء نجد، فالتزم العلماء في الأحساء ثم في الحجاز بالصمت، وانخرط القليل في أجهزة ومؤسسات النظام الرسمية.. وانتهت المدارس الفكرية والأدبية في كل مناطق البلاد، اللهم سوى نجد التي أُفسح المجال

(١) المصدر السابق، ص٥٥.
(٢) الحياة العلمية والثقافية والفكرية في المنطقة الشرقية، الدكتور عبدالله السبيعي، ص١٢٣.

فيها -وهذا أمر طبيعي- لدعاة المذهب الرسمي ولفكره بالبروز والنمو، فأفلت شمس الحجاز والأحساء والقطيف، وتقدّمت نجد ضمن الإطار المذهبي الرسمي، الذي أُريد لعلمائه وفكره أن يغطّي الساحة ويذوّب المخالفين.

الحريّات المذهبيّة

إن أهم سبب بنظرنا لتطور المنطقة الثقافي في العهد التركي، هو الحريات المذهبية والفكرية، فبعد أن لاقى أتباع المذاهب الإسلامية الاضطهاد، توفرت الحرية للجميع، ولم يفرض العثمانيون مذهبهم «الحنفي»، ولا اضطهدوا أو منعوا أحداً من ممارسة حرياته الدينية، وعاد أتباع المذاهب إلى نشاطهم بمجرّد أن سيطر الأتراك على المنطقة وأنهوا حكم السعوديين فيها، بعد فتنة الحرب الأهليّة.

جاء في مذكرات مدحت باشا، في حديثه عن المنطقة: «وكل أهالي تلك البلاد في القرى وفي بيوت الشعر يدينون بدين الإسلام، ومذاهبم خمسة.. ولما دخلت الحسا في قبضة الحكومة، عاد إليها أصحاب بقيّة المذاهب، وكانوا قد فارقوها فراراً من ظلم رجال المذهب الوهابي»[1].

واعترف كاتب سعودي بأن العثمانيين «سمحوا لكل المذاهب السنيّة، وأعطوها الحرية الكاملة لفتح مدارسها، إلا أنهم لم يكونوا على وفاق مع الشيعة ومع الحنابلة الجدد الذين اعتنقوا السلفية»[2].

إن إشارة المؤلف لحرية المذاهب السنيّة في الأحساء، وفتح مدارسها، لدليل على أنها لم تكن تتمتع بالحرية في العهد السعودي السابق، وإلا لما استحقت الإشارة.. أما خلاف الأتراك مع «الحنابلة الجدد الذين اعتنقوا السلفية»، فإن الحقيقة هي خلافهم مع الوهابية وليس مع أتباع المذهب الحنبلي، ولم يشأ الكاتب أن يقول «الوهابيين»، فسماهم «حنابلة جدداً» اعتنقوا السلفيّة، والسلفيّة مرحلة زمنيّة وليست مذهباً، وإن حاول الوهابيون التلفّع برداء السلفيّة المطاطي[3].

---

(١) مذكرات مدحت باشا، ص١٧٩.

(٢) الإصلاح الاجتماعي، مصدر سابق، ص٧١.

(٣) صدر مؤخراً ١٩٨٨، كتاب «السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي» للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

أما أن الأتراك كانوا على خلاف مع الشيعة، فليس هناك من شاهد واحد يدعم هذا الرأي.. فالحقيقة أن الأتراك راعوا خصوصية المنطقة الطائفيّة، ولعل تفسير إقحام الشيعة في هذا الموقع هو إبرازهم كنقطة خلاف، في حين أن الواقع هو أن الوهابيين كانوا مكروهين من مختلف التيارات المذهبية والفكرية، ولعله أراد أيضاً تبرير الاضطهاد المذهبي للسعوديين، بل إنه أكد أن المذاهب كلّها توحّدت على خلاف الوهابيّة.. قال: «إن انتشار المذهب الحنبلي السلفي -الوهابي- وما رافقه من تشدّد في نشره بين السكان.. أثار حساسيات عند أصحاب المذاهب الأخرى غير الحنبليّة، وكان لهذه الحساسيات أثر في وحدة المجتمعات التي دخلها المذهب الحنبلي السلفي -الوهابي-.. وإن بعض القبائل والجماعات والأفراد هاجروا تحت ضغط المذهب خارج حدود الأقاليم التي دخلها الحكم السلفي -الوهابي-...»[1].

وهذا اعتراف صريح بأن الوهابيين اضطهدوا المذاهب السنيّة والمذهب الشيعي في المنطقة الشرقية، ممّا اضطرهم إلى الهرب، وإعلان واضح بتحقق الإجماع على كره الوهابيين، حتى أصبح هذا الكره إحدى وسائل التقارب بين هذه المذاهب.

وحاول المؤلف أن يجعل العثمانيين والوهابيين في جهة مقابلة للشيعة، وهذا في منتهى المغالطة، فهو يقول: «لم تكن علاقة السكان الشيعة في الإقليم بالعثمانيين والسعوديين علاقة طيبة وحسنة، بل كانت تسير في منتهى الحذر والشك والريبة، لأن العثمانيين كانوا على مذهب أهل السنّة وكذا السلفيون»[2].

ولا ندري ماذا كانت علاقة الأتراك بالوهابيين، ألم تكن الحرب قائمة بين الطرفين مدة قرن من الزمان، وكان الأتراك -الذين أسقطوا دولة الوهابيين الأولى في حملة محمد علي باشا- كفاراً وملاحدة بنظر الأخيرين.. ألم يقل الوهابي ابن مشرف في الأتراك وحكمهم للأحساء:

ويحكم بالدستور بين ظهوركم   وحكم النبي المصطفى ليس يذكر
فمن لم يكفّر كافراً فهو كافر   ومن شك في تكفيره فهو أكفر؟

(١) الإصلاح الاجتماعي، ص١٢٢.
(٢) المصدر السابق، ص٤٨.

أَوَلَمْ يقل ابن سمحان مكفّراً الأتراك أيضاً:

ومن لم يكفّر كافراً فهو كافر   ومن شك في تكفيره من ذوي الطرد

ألم يقل:

وما الرفض للأتراك في غمراتهم   هو الدين يا معتوه لو كنت مبصراً
ولكن بتكفير لهم وبشتمهم   جهاراً وتصريحاً وغيباً ومحضراً؟!

هكذا أصبحت الدولة الكافرة بنظر الوهابيين حليفة لهم، طالما هي تضطهد الشيعة، فهذا من أهم حسناتها، ولكن لا يوجد دليل واحد على اضطهاد الشيعة طائفيًّا، بل وللحق لم يمرّ في التاريخ الحديث حقبة ذهبيّة مثل الحقبة التركيّة، اللهم إلا في عهد بني خالد الطويل.

أما مدحت باشا، الذي قال: إن جميع السكان مسلمون، ومذاهبهم خمسة «أربعة إضافة إلى الشيعة»، والذي اتّهم الوهابيين باضطهاد المذاهب الأخرى «السنيّة والشيعيّة» فيعلّق على ذلك أبو عليّة مضيفاً مغالطات ونكهة طائفيّة كعادة الغلاة المتطرفين: «ونستخلص من قول مدحت باشا: إن الدولة كانت تحترم جميع المذاهب.. ولكن علينا أن نلاحظ أن الأتراك كانوا من أهل السنّة والجماعة، لذا ظلّ الشيعة نقطة خلاف مع السلفيين والأتراك»[1].

طبعاً، الأتراك من أهل السنّة والجماعة!.

لهذا قال ابن سعود: إن المسيحي الكافر، أقلّ كفراً من الأتراك! وإنه لو كان في بدنه قطرة دم تميل اليهم لأزالها!.

واعتبر الدكتور الحامد أن الوهابيين في آخر عهدهم، غلبت عليهم الحدّة والعاطفة «فكثرت ألفاظ القذف الديني، واستخدام التكفير استخداماً واسعاً، التشدّد في بعض الأمور، كقضية تحديد من هم المشركون ومن هم الكفار، وتكفير البدو والصلب، وتحريم ذبائحهم، وتكفير الدولة العثمانية، وتحريم السفر للتجارة إلى ما يسمّى بلاد المشركين»[2].

---

(١) المصدر السابق، ص٦٥.

(٢) الدكتور عبدالله الحامد، مصدر سابق، ص٧٠ - ٧١.

إنّ القول باضطهاد المذاهب الإسلامية، وبالأخص المذهب الشيعي، الذي يشكّل أتباعه الغالبية من السكان الحضر في القطيف والأحساء ينسف الرأي القائل بأن هناك نهوضاً في المنطقة من الأساس، ذلك أن النهوض الفكري والعلمي ما قام إلا على التعددية والحريات المذهبية، ولأن طليعة المجتمعات يومئذ كانوا من العلماء والمشائخ وطلاب المدارس الدينية وروّاد المجالس الأدبية[1].

ملامح النهضة الفكرية

كثرت في العهد التركي المدارس الدينية، وزاد عدد الطلاب والوافدين من أجل العلم، ووجد عشرات الشخصيات النابغة في الشعر والفقه والفلسفة، وأُلفت عشرات الكتب في مختلف العلوم، ونشطت حركة الاتصال العلمي بالمناطق المجاورة، وشارك فقهاء المنطقة في التصدّي للمذهب الوهابي، حيث ألّف العديد من أتباع المذاهب كتباً وأنشدوا القصائد المناقضة.



المدارس الدينية:

شهدت المنطقة المدارس الدينيّة منذ وقت طويل، وعمّت شهرتها الآفاق في القرن الثاني عشر، حينما كانت المدارس الشيعية والسنيّة تستقطب أعداداً كبيرة من أبناء المنطقة الخليجية ونجد.. ويكفي أن زعيم المذهب الوهابي الشيخ محمد بن عبد الوهاب، كان قد قضى شطراً من حياته متعلّماً في الأحساء على يد الشيخ عبدالله آل عبد اللطيف، والذي كتب ردًّا على أفكار تلميذه سماه: «تجريد سيف الاجتهاد لمدّعي الاجتهاد».

وكانت المدارس يومئذ تعتمد على القواعد المذهبية، فكل مذهب له مدارسه ومعتنقوه ومريدوه وأساتذته، واشتهر آل عفالق بتخصصهم في المذهب الحنبلي، حيث نبغ منهم المحقق محمد بن عبد الرحمن بن عفالق، صاحب الردّ الشهير على الشيخ محمد بن عبد الوهاب «تهكّم المقلدين بمن ادّعى تجديد الدين». وتخصص آل الملا في فقه

(١) اعتبر الأستاذ جمال زكريا قاسم أن هجمات البادية على المدن دلالة على عدم وفاق السنة والشيعة في الإقليم، وهذا بالطبع غير صحيح؛ لأن البدو لا يحركهم الوتر المذهبي، ولقد تعرّضت أملاك السنّة إلى التلف والعطب، وقتل العديد من الشخصيات السنيّة في الأحساء على يدهم مدون تمييز.

المذهب الحنفي، ولكثير من علمائهم كتابات وأشعار في الردّ على الوهابيين، وكذلك آل عبد القادر تخصصوا في فقه المذهب الشافعي، وهكذا.

وبالنسبة للشيعة، فكانت روابط المذهب تشدّهم نحو العراق وإيران والبحرين، حيث كانت الأخيرة تعجّ بالعلماء والمراجع والمجتهدين الكبار، فأُسست المدارس وأوقفت الأوقاف على طلاب العلم وازداد عدد الشعراء والأدباء، وتتابعت المؤلفات في مختلف الحقول الدينية، والعلمية، ونبغ العديد من المراجع في الأحساء والقطيف، وظهرت البيوتات العلمية.

كل هذا التراث والمجهود العلمي تعرض للتدمير في مطلع القرن الثالث عشر، حين بدأت الهجمات الوهابية تترى على المنطقة، وباستيلاء السعوديين عليها اضطرت أشهر أسرتين علميتين سنيّتين في الأحساء إلى الفرار «آل عفالق الحنابلة، وآل فيروز» إلى الكويت، ثم إلى جنوب العراق «الزبير».. وكانت هاتان الأسرتان أشد من تصدى فكرياً لدعاة المذهب الوهابي.

وتعرضت مدارس مختلف المذاهب إلى المصادرة والتعطيل، وفرض تدريس المذهب الوهابي «كتاب الثلاثة أصول للشيخ محمد بن عبد الوهاب»، وأحرق الوهابيون الكثير من الكتب، ونُفي المعارضون الذين هم في أغلبهم من رجال الدين.. قال ابن غنّام رادًا على قصيدة الشيخ محمد بن فيروز الأحسائي، موضحاً ومادحاً أفعال الوهابيين في الأحساء:

وقد ولي الأحسا سعود فأسعدت   مساعيه أهل الخير فانتظموا سمطا
وأبعد أهل الشرك عنها وأُبعدت   مذاهبهم فيها وما أبصروا غمطا

وأهل الشرك، هم كل من خالف الوهابيين في أفكارهم.. ثم يعود إلى الشيعة فيقول مخصّصاً:

نعم هُدّمت للرفض فيها كنائس[1]   وكل شعار الرفض عن أرضها ميطا
وما كان ثم جور ونكث وبدعةٍ   ولهو وتابوت بكل الدا مُعطى
ولم ينف إلّا كل من عمل الردى   ومن كان سبّاباً لمنطقة مسحا[2]

(١) يسمي الوهابيون مساجد الشيعة بـ«الكنائس».
(٢) مشاهير علماء نجد وغيرهم، ص١٥٤ - ١٥٥.

وتتالى الحكام على المنطقة، فمرة تكون بيد المصريين، وأخرى بيد الأتراك، وثالثة في يد الخوالد، ورابعة في يد آل سعود، حتى كانت الحملة التركية، فاستخلصت البلاد من آل سعود.. وعادت المدارس على عهدها السابق، وازداد عددها.

ففي الأحساء كان للشيعة مدارس معروفة تولّاها الشيخ المجتهد محمد بوخمسين، ثم من بعده الشيخ المجتهد موسى بوخمسين، وكان يدرس فيها إضافة إلى الفقه والأصول والمنطق.. الحساب والخط وعلوم اللغة العربية.

وفي القطيف أفتتح الشيخ محمد بن نمر عدة مدارس في العوامية والقديح والدبابية، وحبس لها من ماله ومن مال المقربين منه بعض الأوقاف، وخرّجت مدارس النمر العديد من علماء المنطقة كالشيخ منصور المرهون الذي سجنه الملك ابن سعود هو وابنه، لأنه طالب بافتتاح مدرسة دينية! وكذلك الشيخ رضوان العجيان، والشيخ حسين القديحي، والشيخ طاهر البدر، والشيخ جعفر بن الشيخ محمد صالح، والشيخ محسن العرب، والشيخ محمد بن أحمد بن محسن الفرج وغيرهم[١].

وأهم من مدارس النمر مدرسة صاحب مؤلف «أنوار البدرين» الشيخ المرحوم علي البلادي القديحي، والتي تخرج منها معظم مجتهدي الشيعة وزعماؤهم مثل: المرجع الشيخ عبدالله المعتوق، والحجة السيد ماجد العوامي، والمجتهد الشيخ محمد النمر، والسيد حسين العوامي وغيرهم كثير.

وكانت هناك مدرسة للمرجع الشيخ عبدالله المعتوق في تاروت، كان مقرّها منزل الشيخ عيسى السنّي، وتتلمذ فيها على يديه السيد باقر العوامي، والشيخ عيسى السنّي نفسه، والشيخ منصور بن غنّام، والمجتهد الشيخ علي بن يحيى[٢].

ويضاف إلى هذا عشرات المجالس التي تتخذ صفة المدارس، وإن كانت في أهميتها تضاهي أهمية المدارس نفسها، باعتبار كثرتها، واختلاف مستوياتها، حيث تبدأ من العلوم الأوليّة حتى تصل إلى بحث الخارج الذي هو قمة التدريس حيث يتخرج المجتهدون والمراجع.. وفي الغالب كان لكل رجل دين مجلس يجلس فيه للتدريس، إما

(١) عبد العلي السيف، مصدر سابق، ص٥٠.
(٢) المصدر السابق، ص٥١.

في الفقه، أو الأصول، أو المنطق واللغة العربية، ودراسات القرآن من تفسير وغيره، أو علم الحديث.

وقد كان المجتهد الحجّة أبو الحسن الخنيزي يلقي بحث الخارج في مجلسه، وهو من أجلى مظاهر الحركة العلمية في المنطقة، ومن مظاهر رقي القطيف كثرة المجتهدين والمراجع الذين يرجع لهم العامة في أمور دينهم مثل:

١- الشيخ محمد النمر (١٢٧٧ - ١٣٤٨هـ).
٢- الشيخ حسن علي البدر (١٢٧٨ - ١٣٣٤هـ).
٣- الشيخ أبو الحسن الخنيزي (١٢٩١ - ١٣٦٣هـ).
٤- آية الله الشيخ علي أبو عبد الكريم (١٢٨٥ - ١٣٦٢هـ).
٥- السيد ماجد العوامي (١٢٧٦ - ١٣٧٦هـ).
٦- الشيخ عبدالله المعتوق (١٢٧٤ - ١٣٦٢هـ).
٧- الشيخ علي الجشي (١٢٧٦ - ١٣٧٦هـ)[1].

من جهة أخرى انتشرت الكتاتيب في المنطقة حتى أنه ليصعب عدّها وحصرها بالمئات، وهي تدرس المبادئ الأولية، حيث يتعلّم الطالب والطالبة القرآن والحروف الهجائية ومبادئ الكتابة والحساب، وسيرة الرسول والأخلاق الإسلامية، وعلوم أخرى.. وكان الكُتّاب منتشراً حتى السبعينات الهجرية، لأن المدارس النظامية لم تبدأ إلا في وقت متأخر جدًّا.

وكان من الطبيعي أن يكون التدريس سواء في المدارس أو المساجد وفق المذهب الذي تنتمي إليه كل جماعة، قبل أن يفرض التدريس وفق المذهب الوهابي وحده -بعد الاحتلال السعودي الأخير-، وهكذا رأينا في الأحساء أن آل مبارك يدرسون وفق المذهب المالكي، وآل عبد القادر وفق المذهب الشافعي، وآل الملا وفق المذهب الحنفي، والشيعة وفق مذهبهم الجعفري.

وكان لاتصال الشيعة بحركة العراق العلمية أثر فعّال في تطور الأوضاع في المنطقة، ذلك أن معظم علماء الشيعة هاجروا إلى العراق ودرسوا فيها على يد كبار علمائها

(١) المصدر السابق، ص٥٢.

ومجتهديها، وقلّما تجد عالماً لم يرحل إلى حواضر الشيعة في النجف وكربلاء وغيرها من أجل تلقي المزيد من العلم، وقد أسهم العائدون في تنشيط الحركة العلمية والأدبية، خاصة وأن تراث المنطقة الأدبي منذ جاهليتها، وبحكم اتصالها بالأقوام المختلفة، أهّلها لتساير أوضاع البلاد الأخرى المتطورة علميًّا.

وللدلالة على أثر الارتباط الثقافي والمذهبي على المنطقة وشعبها، أن سكان حاضرة القطيف وغيرها، كانوا أثناء العهد التركي على مستوى رفيع من الثقافة واللغة العربية، حتى أنه قلما يوجد من يلحن في كلامه، وعلى معرفة بالدين وتعاليمه مكّنته من أن يعرف حتى أحكامه الخاصة التي لا يلمّ بها إلا المتخصصون في علم الفقه.. وأما الأدب فيتذوقونه ويحسنون نقده[١].

التعليم النظامي:

يدهش الباحث للوضع الثقافي في المنطقة إبّان العهد العثماني، حينما يجد أن التعليم الحديث دخلها قبل أية منطقة خليجية أخرى.. ففي عام ١٩٠٠ زار المبشر المسيحي زويمر الأحساء، وذكر أن بها ثلاث مدارس في الهفوف التحق بها ٣٥٤٠ طالباً، وأن عدد سكان الأحساء كان يومها ٣٥٠ ألفاً[٢]. وهو رقم مبالغ فيه، فكل السكان الحضر يومها لا يزيدون عن تسعين ألف شخص يشكّل الشيعة ثلثيهم على الأقل. وهكذا فإن نسبة الطلاب جيدة، مراعاةً لتلك الأوضاع.. كما أن التعليم الحديث في العهد السعودي لم يدخل المنطقة إلا بعد نصف قرن، وكان عدد الملتحقين لا يزيدون عن المائة طالب، ومع هذا فإنك تجد من المعارضين، تشنيعاً بالأتراك؛ لأنهم لم يهتموا بالعلم، وأن عدد المدارس لم يكن سوى ثلاث فقط!.

وفي سنة ١٣١٩هـ - ١٩٠٢م أنشأت الدولة العثمانية مدرسة الرشدية، واختارت لها موقعاً متوسطاً وبنتها على طراز حسن يليق بها كمدرسة، حيث كانت منعزلة من جميع جهاتها عن البنيان، وكان يحيط بها فناء واسع أعدّ لمزاولة التمارين الرياضية -كما وصفها الشيخ العلّامة حمد الجاسر-. أما مواد التعليم فهي العربية والتاريخ والرياضيات، وغيرها.. إلا أن هذه المدرسة أُغلقت وصودرت بعد سيطرة آل سعود، ولم يسمح

(١) المصدر السابق، ص٩٢.
(٢) الإصلاح الاجتماعي، ص٦٤. وانظر الحياة العلمية والثقافية والفكرية في المنطقة الشرقية، ص٤٦.

الآخيرون ببناء مدرسة إلا بعد عقدين من الزمان، حيث تبرّع الأهالي ببنائها من أموالهم الخاصة[1].

وهناك مدارس شبه نظامية كان للأتراك جهوداً في تأسيسها ورعايتها، ومن بينها:

* مدرسة علي باشا في الكوت، وعلي باشا هو أحد الولاة العثمانيين، وقد أسست المدرسة سنة ١٠١٩هـ وتدرس الفقه الحنفي، واستمرت حتى السبعينات الهجرية من القرن الرابع عشر.
* مدرسة مصطفى باشا بن علي باشا.
* مدرسة راشد بن دهنين العماني، أُسست عام ١٢٩٢هـ.
* مدرسة محمد بن حسن خاطر، شيدت عام ١٢٧٢هـ[2].

وعدد الأستاذ السبيعي حوالي عشرين مدرسة شبه نظامية يتولّاها أصحاب المذاهب، كانت قائمة أثناء الحكم التركي، أو بعده بقليل، إلّا أنها ضمرت وماتت مع الزمن، بفعل القمع الحكومي، وفرض المذهب الرسمي.

الشخصيات العلمية والأدبية

١- العلّامة الشيخ محمد النمر (١٢٧٧ - ١٣٤٨هـ):

هو الشيخ محمد بن ناصر بن علي بن علي بن أحمد بن علي بن حسين بن عبدالله بن نمر بن نمر بن عايد بن عفيصان، كان أجداده سكنة نجد «قرية الأسلمية» وتشيّعوا منذ عدّة قرون.

تلقّى علومه الأولى في القطيف على يد أعلامها «الشيخ أحمد صالح آل طعان القطيفي، والعلامة الشيخ علي البلادي» ثم هاجر إلى النجف الأشرف وتلقى العلم على يد أساتذته من المجتهدين «الشيخ محمد طه نجف، والشيخ محمود ذهب، والملّا هادي

(١) الحياة العلمية والثقافية، مصدر سابق، ص٤٦.
(٢) المصدر السابق، ص٣٧.

الطهراني».. وبرع في الرياضيات والطبّ فكان طبيباً مشهوراً حاذقاً، إضافة إلى تفوّقه العلمي في الأصول والفقه وعلم الكلام، رغم أنه كان ضريراً، ولكنه وجد الوسيلة للتغلّب على تلك المشكلة.

نال درجة الاجتهاد، وممّن شهد له بذلك مرجع الطائفة في عصره الشيخ محمد طه نجف، والسيد محمد الهندي، ولمّا عاد إلى مسقط رأسه تولّى الفتيا في أمور الفقه والقضاء، وأصبح أحد مراجع الشيعة في المنطقة.. وقد أسس مدرسة علمية وحبس لها من ماله الخاص، وتتلمذ فيها العديد من علماء الطائفة.

له عدّة مؤلفات من رسائل وكتب، فكتب في الفقه والفلسفة والنحو، والطب، والحساب، ونظم عدّة قصائد في الأمور النحوية والفقهية والفلسفية، إضافة إلى قصائد أخرى في الرثاء.

كانت له وقفات مشهورة أثناء حادثة الشربة سنة ١٩٠٨، وقد أشرنا إليها في موقعها.. وفي عام ١٣٤٧هـ ثار ضد الملك السعودي وحمل السلاح، وحاصر مقرّ الإمارة في القطيف، منددّاً بسياسة التمييز الطائفي، وكانت العوامية مركز ثقل الثورة، ولكن الأمور لم تأتِ وفق رغبته، فاضطر إلى المصالحة وتسليم السلاح، فأصابه ألم نفسي ما لبث أن توفاه الله بسببه.. قال الشيخ سعيد أبو المكارم: «وترحّل هذا الفقيد الإسلامي بسبب قهر غاشم مرّ عليه وعلى أمته، وغَلَبَة خالفت سيرة آبائه وشممه، واضطهاد أراد فيه الحفاظ والدفاع اللذين يفرضهما الدين والعقيدة الإسلامية، وقلبت الظروف القاسية ذلك المراد الذي رام فيه الاستشهاد الحبيب رأساً على عقب، فأصيب ذلك الطبيب النطاسي بعقدة نفسية، وأدركه القضاءبعد ذلك بزمن قصير في التاسع من شوال سنة ١٣٤٨هـ، فتأثر الجمهور لفراقه، وكان لصوت ناعيه صدى ورنّة بلغت آفاق القطر»[1].

والحقيقة أن الألم كان بسبب مخالفة بعض العلماء لمشروعه التغييري، وركونهم إلى مصالحة الملك، وتثبيط لاناس عن الثورة.. فهذا هو الذي آلمه وهدّ أركانه.

(١) أعلام العوامية، سعيد الشيخ علي آل أبي المكارم، مطبعة النجف ١٣٨١هـ ج٢، ص٣٧. وانظر: شعراء القطيف من الماضين، ص٢١٦، وأيضاً: الأزهار الأرجية في الآثار الفرجية، للمرحوم الشيخ فرج العمران، ج٣، ص٧٤. وانظر أيضاً أنوار البدرين، للعلامة البلادي، ص٣٧٨.

رثاه ابن أخيه الأديب محمد حسن بن الشيخ حسن النمر فقال:

حكم الزمان وجار في الأحكام ... وغدوت نهب مخالب الأيّام
يا دهرُ حيف في قضائك نحونا ... أكذا القضاة وعادة الحكّام
بدر هويت على التراب فليتني ... لُحدتُ قبلك قبل يوم حمامي
ما «نمرُ» بعدك يا أجلّ سراتها ... إلا قطيع شتّ بعد وئام
أفهل درى الجمع الذي بك قد سرى ... نحو القبور سيقبرون عصامي
أفهل درت نمر بدفن زعيمها ... دفنت علاها في أحط مقام
أبكيك من بُعدٍ بأقرح مقلةٍ ... ما كان أحراها ببلّ أوام
ولأبكينك ما حييت لأنني ... لم أرنُ نعشك إذ رُفعت أمامي

ورثاه المرحوم الشيخ فرج العمران فقال:

قضى نحبهُ مَنْ لدين الهدى ... غدا مرشداً لمن استرشدا
قضى نحبهُ ومضى للجنان ... وعانق أترابها الخرّدا
قضى فهوى عمد المكرمات ... ولا غرو فهو الذي شيّدا
وأبكى جفونَ المعالي دماً ... وأحرق منها الأسى الأكبدا
أيا حامل النعش كيف استطعت ... حملتَ على النعش ركن الهدى
ويا حافر القبر كيف اهتديت ... شققتَ لنور الهدى ملحدا
ويا ملحد الجسم في قبره ... دفنت المكارم والسؤددا
ويا من أهال عليه التراب ... ألمْ تدرِ أن الندى أُلحدا
ويا من أقام عليه العزاء ... ألا فابكِ ما عشت طول المدى[1]

وللشيخ النمر قصائد رثاء، تعكس روحيته الثورية، فأغلب قصائده تدعو للأخذ بالثأر، وتحرّض النفوس على الثورة ضد الطغيان، يقول في إحداها[2]:

قوّموا السمرَ هاشمٌ والكعابا ... وامتطوا للنزال جرداً صعابا

---

(١) آل أبي المكارم، ص٣٧ - ٣٩. والأزهار، ج٣، ص٧٤.

(٢) ثائر من أجل الدين، ملامح من حياة العلامة المجاهد الشيخ محمد بن ناصر النمر، محمد العوامي، ط ١٤٠٧هـ - لندن، ص٦٦ - ٧٣.

وانسجوا من طرادها الترب سحباً ... تملأ الجوّ ظلمةً وعذابا
عارضاً يحمل الحمام ويسقيه ... بني حرب شيبها والشبابا
فلَكَم من أكفها جرّعتكم ... كأس ذلٍّ ذاقته ذلًّا وصابا
ولَكَم أنهلَت برغم المعالي ... بيضها الهام منكمُ والرقابا
ما عرفنا لآل حرب مقاماً ... قبل يوم الطفوف حتى تُهابا
أفعجزاً عن حربها ولقاها ... أم نكولاً عن ضربها وارتهابا
أو ما حرّكت إباكم جيادٌ ... عوّضت عن صهيلها الانتحابا
أينما كرّ ذكر الوغى كادت ... من العزم أن تشقّ الإهابا
هذه بيضكم لطولِ بقاها ... كسيتْ من صدى عليها ترابا
هذه سمركم ركزتم ولكن ... لا بصدر الكماة تلك الحرابا
وذهِ من لظى تلوّت ولكن ... لم تجد من يهزّ منها الكعابا
فاشحذوا في ضرابها كلّ عضب ... ودّ للضرب أن يعدّ الضرابا
واغسلوا من دمائها كل أرض ... صيّرت فوقها دماكم شرابا
واستفزّوا لجمعها كلّ فرد ... لو نحى جمعها لولّى انقلابا(1)

وقال في قصيدة أخرى كسابقتها تتحدث عن الثأر المضيع:

لهاشم يوم الطف ثأر مضيّع ... وفي أرضه للمجد جسم موزّعُ
هجعت فلا ثأرٌ طلبتيه هاشم ... ونمت فلا مجدٌ لك اليوم يرفعُ
وهذي بنو حربٍ أدارتْ لك الردى ... كؤوساً ولا كأس بك اليوم تجرعُ
وتلك الضبا اللاتي شحذت حدادها ... لأنف الإبا من مجدك اليوم تجدعُ
وتلك القنا اللاتي أقمتَ كعابها ... بصدر العلى من عزّك اليوم تقرعُ
فنهضاً فإن العزّ أن تنهضوا لها ... وإلا فإن الكفّ للنفس أنفعُ
سننتم بيوم الفتح صفحا فأصبحت ... نساء بني حربٍ من السبي تمنعُ
فتلك بها اللاتي أشادت لها الضبا ... مضارب من هام السماكين أرفعُ
برغم الهدى أمستْ ولا دون خدرها ... صريع وغى عناه يذبّ ويدفعُ
لقد هجمت حربٌ عليها خباءها ... فكم برقع عنها يماطُ وينزعُ

(١) آل أبي المكارم، مصدر سابق، ص٦٢. وشعراء القطيف من الماضين، ص٢١٦.

وكم من خبأ أمسى إلى النار موقدا   بحيث غَدَت في وجهِ عزّك تسفعُ[1]

وله قصيدة ثالثة تحوي أكثر من ستين بيتاً يقول فيها:

أتتك وبئس السائق البغي ساقها   ومركبها فيه ارتكاب المحارمِ
فأصبحت أنّى ترسل الطرفَ لا ترى   سوى جحفلٍ تالٍ لآخر قادمِ
وتطمع جهلاً أن تضام وما درت   بأن فتى الهيجاء وابن الملاحمِ
أخا المجد ربّ الفخر قد حالف الإبا   أو الحتف لا ينفكّ ضربة لازمِ
فألقحتها بعد المحجّة غارة   يضيق بها رحب الفضا والعوالمِ
قذفت بها من كلّ شهم شمردل   وأبيض وضّاح الجبين وباسمِ
وآساد غيلٍ قد نماها إلى العلى   أبو طالبٍ لا من سلولٍ ودارمِ[2]

٢- الشيخ العلامة حسن علي البدر:

من مواليد عام ١٢٧٨هـ، عاصر معظم سنوات العهد التركي في الأحساء، تلقى تعليمه في النجف الأشرف، وواصله في القطيف على يد الشيخ علي البلادي، وكان أحد مراجع الشيعة في المنطقة، وممّن شهدت الأحداث بمواقفهم المبدئية.. ألّف رسالة «دعوة الموحدين إلى حماية الدين»، داعياً المسلمين محاربة الاستعمار الإيطالي لليبيا المسلمة، وحشد فيها فتاوى أهم مراجع الشيعة في العراق، وقد فرغ من رسالته في العشرين من شوال سنة ١٣٢٩هـ.

بعد احتلال ابن سعود للأحساء، دعا الشيعة في القطيف للمقاومة، لئلا يعيشوا مضطهدين طائفيًّا طيلة عمرهم، وسافر من البلاد في اليوم الذي وطئت فيه أقدام الأمير السعودي ابن سويلم أرض القطيف، وذلك إلى البحرين، ثم إلى العراق.

حمل السلاح إلى جانب مراجع الشيعة، وإلى جانب العثمانيين في الدفاع عن العراق أمام الهجمة الإنجليزية في الحرب العالمية الأولى.. وتألّم كثيراً لسقوط البصرة، حتى إذا ما أُقيم مهرجان للمقاومة في الكاظمية ألقى كلمته، ثم لفظ أنفاسه سنة ١٣٣٤هـ.. وحاله هنا يشبه إلى حدٍّ كبير الشيخ محمد النمر، فهما من مدرسة واحدة، وتوفيا ألماً وحسرة على

(١) محمد العوامي، مصدر سابق، ص٧٤ - ٧٦. وآل أبي المكارم، ص٦٠ - ٦١.
(٢) آل أبي المكارم، مصدر سابق، ص٥٨.

ما أصاب الإسلام وأهله.

تتلمذ على يديه عدد من العلماء كالشيخ منصور المرهون، والشيخ حسين القديحي رحمهما الله.

ومن مؤلّفات المرحوم العلّامة البدر ما يلي:

١- وسيلة المبتدئين إلى فهم عبائر المنطقيين، صنّفها للماجد الوجيه الحاج أحمد بن الشيخ محمد علي بن مسعود الجشي المتوفى سنة ١٣١٧هـ وقد فرغ من تصنيفها في الحادي والعشرين من جمادى الثانية سنة ١٣٠٧هـ.
٢- شرح مبسوط غير تام على المنظومة الموسومة بالعمدة، للعالم الشيخ أحمد بن صالح آل طعان.
٣- حاشية على فرائد الأصول، وضعاه لتحليل رسائل المؤسس الأنصاري، المتوفى سنة ١٢٨١هـ.
٤- حاشية على تهذيب المنطق.
٥- حاشية على كفاية الأصول، وضعها لحل غوامض الكفاية للمحقق الخراساني المتوفى في العشرين من ذي الحجة ١٣٢٩هـ.
٦- إحقاق الحق وإبطال الباطل، صنفها جواباً لسؤال الشيخ علي بن محمد بن مهدي آل محسن القطيفي الكويكبي، وقد فرغ من تصنيفها في العشرين من ذي القعدة سنة ١٣٢٣هـ.
٧- رسالته العملية، المسماة روح النجاة وعين الحياة، وقد طبعت في بغداد في مطبعة الآداب سنة ١٣٢٧هـ.
٨- رسالة في أحكام المكاسب والتجارة.
٩- رسالة في قضاء ذوي الأعذار[1].

وكان البدر يقول الشعر في المناسبات، واتخذ المنحى ذاته الذي اتخذه الشيخ محمد النمر، في تحريضه على القتال والأخذ بالثأر من الطغاة.. يقول في إحدى قصائده[2]:

---

(١) جريدة اليوم السعودية، ٧/ ١١/ ١٩٨٩.
(٢) شعراء القطيف من الماضين، ص١٧٢ - ١٧٣. والأزهار، ج٢، ص١١٧ - ١٢٠. وانظر أيضاً: أنوار البدرين ص١٧٩. وانظر: جريدة اليوم السعودية في عددها الصادر في التاسع من ربيع الثاني الموافق للسابع من نوفمبر ١٩٨٩، مقال عن العلامة البدر بقلم عيد محسن آل حيان.

قضى وهو حرّان الفؤاد من الظما — على غصص فيها قضى كل هاشمي
فما لنزار لا تقوم بثأرها — فترضع حرباً من ضروع اللهاذم
وتملؤها خيلاً تسابق طرفها — على آل حربٍ تحت أسد ضراغم
فتوطئ هاتيك السنابك هامهم — كما أوطؤوها صدر سيّد هاشم
هل استبدلت باللطم فوق وجوها — من الضرب بالأسياف وجه الضياغم
وهل رضيت عن سفك آل أميّة — دماها بإجراء الدموع السواجم
هبوا القتل فيكم سيرةً مستمرةً — فهل عرفت كيف السبى ابنة فاطم
أهان عليكم هجمة الخيل خدرها — كأن لم يكن ذاك الخبا خدر هاشم
لها الله من مذعورة حين أضرموا — عليها ففرّت كالحمام الحوائم
أعيذكمُ أن يستباح حريمكم — وتُسبى نساكم فوق عجف الرواسم
أيرضى إباكم أن تساق حواسراً — كما شاءت الأعدا إلى شر غاشم
أيرضى إباكم أن تسير في السبا — يتامى علي والبتولة فاطم

وله قصيدة أخرى تحريضية تكشف لنا خبايا مشاعره، وتفسّر لنا العديد من مواقفه.. يقول:

متى فقدت ابنا لؤيّ بن غالب — أباها فلم ينهض بها عتب عاتب
أما قرعت أسماعها حنّة النسا — إليها بما يرمي الغيور بثاقب
فكم نظمت جمر العتاب قلائداً — على السمع من قلب من الوجد ذائب
وضجّت إليها بالشكاية ضجّة — تميل بأرجاء الجبال الأهاضب
أأسبى ولا فتيان قومي عوابس — يرفّ لواها في متون السلاهب
بها من بني عدنان كل ابن غابة — يرى الصارم الهندي أصدق صاحب
كميّ يردّ الموت من شزر لحظة — مروع حشاً من شدة الخوف ذائب[1]

وله في مطلع قصيدة شعر حكمة، يقول:

ومَنْ ينظر الدنيا بعين بصيرة — يجدها أغاليطاً وأضغاث حالم
ويوقظه نسيان ما قبل يومه — على أنها مهما تكن طيف نائم

(١) المصدر السابق، ص١٧٣ - ١٧٤. والأزهار، ج٣، ص١٦٠.

ولكنها سحارة تظهر الفنا بصورة موجود بقالب دائم
ولا فرق في التحقيق بين مريرها وما يدّعى حلواً سوى وهم واهم
فكيف بنعماها يغر أخا حجى فيقرع إن فاتت لها سنّ نادم
وهل ينبغي للعارفين ندامة على فائت غير اكتساب المكارم
وما هذه الدنيا بدار استراحة ولا دار لذّاتٍ لغير البهائم
على قدر بعد المرء منها ابتعاده عن الروح واللذات ضربة لازم[1]

ومن شعره، ما جاء في تأبين الشيخ أحمد بن صالح آل طعان حيث يقول:

طرقتك يا أم العلوم فقماء تذب بالحلومِ
فأرتك في الظهر الكواكب فاقعدي جزعاً وقومي
وأتتك تنسف راسيات العلم بالريح العقيم
خلعت على وجه الزمان براقع الليل البهيم
فتغيّبت شمس الهداية في دجا الجهل الفحيم[2]

٣- آية الله الشيخ موسى بو خمسين:

ولد سنة ١٢٩٥هـ في مدينة الهفوف، وهو من عائلة دينية معروفة تحظى بالاحترام الكبير لدى علماء السنة والشيعة، فأبوه الحاج عبدالله وجدّه الشيخ حسين بن الشيخ علي بو خمسين، وعمه آية الله الشيخ محمد بن الشيخ حسين بوخمسين الذي كان مرجعاً دينيًا في زمانه.

قرأ الشيخ موسى جملة من المقدمات في الأحساء، ثم هاجر إلى النجف الأشرف، حيث التحق بمدرسة المعتمد المعروفة بمدرسة كاشف الغطاء، وأقام فيها مدة خمسة عشر عاماً يدرس على يد أفاضل علمائها، مثل الحجة السيد أبي تراب الخونساري، وأجازه دراية ورواية، وشيخ الشريعة الأصفهاني، وأجازه بالاجتهاد والرواية، والسيد محمد كاظم اليزدي، وأجازه بالاجتهاد والرواية، والميرزا محمد حسين الشهرستاني، والشيخ ملا حسين الأردكاني، والميرزا علي الشهرستاني.

---

(١) المصدر السابق، ص١٧١. والأستاذ محمد سعيد المسلم، مصدر سابق، ص٢٨٤. جريدة اليوم، العدد الصادر في ٧ نوفمبر ١٩٨٩.
(٢) المصدر السابق، ص١٧١. والأستاذ محمد سعيد المسلم، مصدر سابق، ص٢٨٤. جريدة اليوم، العدد الصادر في ٧ نوفمبر ١٩٨٩.

ألّف الشيخ موسى عدة كتب منها، كتاب النص الجلي في إثبات الآيات النازلة في الإمام علي عليه السلام، وتعليقة مستقلّة على رسائل الشيخ الأنصاري، وأبحاث استدلالية في أبواب فقهية متفرقة، وتحقيق الأحكام، وهو كتاب في الفقه غير تام، ورسالة عملية في العبادات. كما ألّف الشيخ في المنطق وله عدة كراسات ناقصة في مواضيع فقهية.

وقد أقام الشيخ موسى حوزة علمية قصدها طلاب العلوم الدينية من مختلف المناطق والقرى في الأحساء، وكان لها الأثر الكبير في استمرار الحركة العلمية، وتتلمذ على يده لفيف من العلماء الأفاضل من بينهم: الشيخ عبد الكريم الممتن، والشيخ حسين الصحّاف، والشيخ كاظم الصحّاف، والشيخ عبدالله الدويل، والشيخ إبراهيم الخرس، والشيخ ناصر بو خضر، والشيخ محمد البقشي، وغيرهم.

وكان الشيخ موسى يمارس القضاء والقيادة في منطقة الأحساء، وقد عانى الكثير من المشاكل بعد سيطرة السعوديين على المنطقة، رغم أنه والسيد ناصر الهاشم، كانا المفاوضين الرئيسيين لابن سعود بعد احتلال الأحساء.

في عام ١٣٥٣هـ توجه الشيخ موسى إلى إيران لزيارة الإمام الرضا عليه السلام، وفي طريق عودته توفي في خانقين، ونقل جثمانه إلى النجف الأشرف، ودفن هناك في أواخر ربيع الثاني سنة ١٣٥٣هـ.

وقد خلف رحمه الله ذريّة صالحة، يأتي في مقدمتها نجله العلامة الشيخ باقر بو خمسين، الذي يتصدّى الآن لمهمة القضاء الجعفري في الأحساء، ونجله الفاضل الشيخ محمد جواد الذي توفي في عام ١٣٨٩هـ، إضافة إلى العديد من حفدته، كالشيخ حسن الشيخ باقر، والشيخ موسى الحاج عبد الهادي بو خمسين، والشيخ حسين الحاج عبد الهادي بو خمسين، والشيخ حسن الحاج عبد الهادي بو خمسين(١).

٤- المرجع الديني آية الله الشيخ عبدالله بن معتوق بن درويش بن معتوق المرهون:

ولد سنة ١٢٧٤هـ، تلقّى علومه الأوليّة على يد العلامة الشيخ البلادي، والعلامة الشيخ أحمد آل طعان، ثم سافر إلى النجف حيث درس فيها أكثر من عشرين عاماً، ثم عاد إلى مسقط رأسه في جزيرة تاروت، ومرجعاً دينيًّا، وأصبح مقلّداً لكثير من أهالي القطيف

(١) أهل البيت، نشرة تصدرها رابطة عموم الشيعة في السعودية، العدد الخامس.

والأحساء والبحرين.. له الكثير من الآثار العلمية، من جملتها رسالة في الشك أسماها «سفينة المساكين»، وله ديوان رثاء لأهل البيت عليهم السلام، تجد نماذج من شعره التقليدي في كتاب شعراء القطيف[1].

في طريق عودته إلى وطنه في ربيع الأول سنة ١٣٣٧هـ اعتقلته القوات البريطانية في البصرة التي كانت تحتلها آنذاك، واتهمه قائد الحملة البريطانية بيرسي كوكس، بأنه جاسوس يحمل كتباً من زعماء النجف إلى أهالي البصرة، فكتب العديد من علماء العراق رسائل احتجاج ومناشدة إطلاق سراحه، فأبعده البريطانيون إلى البحرين، ومنها عاد إلى وطنه.

توفاه الله أوائل جمادى الأولى سنة ١٣٦٢هـ بعد أن أدّى خدمات جليلة في بث العلوم والمعارف الدينية، وكان لمدرسته الفضل في تخريج عدد من العلماء والمجتهدين، أمثال المرحوم المجتهد الشيخ علي بن يحيى.

٥- الزعيم أحمد بن مهدي بن نصر الله أبو السعود القطيفي:

أشرنا في مواقع سابقة من الكتاب إلى نشاطه السياسي وزعامته للمنطقة.. ورغم أنه شُغل بالسياسة والحرب إلا أنه كان شاعراً مكثراً، وقد ترك ديواناً غير مطبوع في مجلّدين.. وله أكثر من مائة قصيدة في رثاء أهل البيت، وجارى ابن أبي الحديد في قصائده السبع العلويات، تجدها في كتاب أعيان الشيعة للمرحوم السيد محسن الأمين، كما جارى المعلّقات السبع.

توفي رحمه الله سنة ١٣٠٦هـ، بعد زعامة دامت حوالي العشرين عاماً.

من شعره في مديح الإمام علي عليه السلام، هذه الرائعة[2]:

وعلى أمير المؤمنين تلهفي	وله الثنا ونسيبه المضباكُ
الفارس العربيُّ والمتألّق الـ	ـقرشيُّ والمتحنّنُ الهتّاكُ
ومسابق الآجال طعناً في العدى	متداركاً والآسر الفكّاكُ

(١) شعراء القطيف من الماضين، ص٢٣٨. وانظر: الزهار، الجزء ١١، ص١٧٧، والجزء الثاني من المصدر نفسه في الصفحات ٦٥ إلى ٢١٨. وأيضاً انظر كتاب: أنوار البدرين، مصدر سابق، ص٣٧٥.

(٢) شعرا القطيف من الماضين، ص١٤٠. واقرأ عن المترجم له: الأزهار، ج٥، ص٩٨. وأنوار البدرين، ص٣٥١.

خُلُقٌ أرقُّ من النسيم وسطوةٌ   تعنوا لها الأقدارُ وهي ركاكُ
ومناطُ بأسٍ لو ألم شذاه بالأف   ـلاك لم تتحرك الأفلاكُ
وعلاً يطولُ على العلى ومكارمٌ   خضعت لأخمص طولها الأملاكُ
ويدٌ تمدُّ الغيث من جدوائها   حتى يجلجل من نداه وشاكُ
أسدٌ يعيرُ الموت غرّة وجهه   واليوم ليل والمجالُ ضناكُ
ما سالم الدنيا وقد أدلى لها   كف المهالك والشكيم يلاكُ
كلا ولا ترك الضلال وإنّما   أنحى إليه من يديه هلاكُ

ومن شعره:

في كلّ يوم للحشاشة مصدع   أرقٌ يلمّ وظاعن لا يرجع
وخليقة هتفت عليك ببؤسها   قلب يسيم وناظر لا يهجع
أما الأحبة فالدجنة دونهم   عب الخضارم واليباب اليرمع
جرّبت من نار الهوى لا تنطفي   نار الهوى وتكلّ عمّا تقطع
وغدوت التجع الدنو كأنني   دان من الصفواء لا تتصدّع
سبع وعشرون اهتبلن لي العدا   فغدت بكاسات العنا تتجرّع
أرعى من العهد القديم بروضة   أنف وأدعو معرضاً ما يسمع
وأضن من عصر الصبا بشبيبة   ذهبت وفات بها الزمان المهيع
لم يترك الزمن اللجوج بمهجتي   شيباً يتيّمه الغزال الأمرع
ما لي أذلّ ولا ذراعي رخوة   كلاّ ولا عضبي كهام يوزع
فلأقذفن بكل حزقٍ واسع   عيساً تجد ألده وتزعزع
ولأخضمنّ اليه كل شقيقةٍ   خضم المصاعب نبت واد يمرع
ولأحملنّ على الدجنّة فتية   يجبى لهم من كل فضل مرتع
شعثاً يلوثون الأكف قوابضاً   أكباد وجد في الصبابة تمزع
ضربوا على هذا الدجا بسرادق   من نعدهم ورواق عنف يشرع
وتملّكوا شرق العلاء وغربها   وتسلقوا دين العلا وتدفعوا
فهم نجاد المجد أين تنجّدوا   وهم طلاع المجد أين تطلّعوا
قذفوا بأيدي القارعات تغطرفاً   والشوق بين ضلوعهم يتذلع

وتقنعوا سرح العلا فتفرعوا ... منها العماد وفي البلاد تفرّعوا
الممرعون الجود وهو مغيّض ... والسامكون المجد وهو موزّع
أرمي بهم غسق الظلام وأرتقي ... منهم لمصدع قلّة لا تصدع
وإلى أمير المؤمنين تحمّلي ... وإلى علاه معاذنا والمفزع

ومن قصائده:

سرى ورواق الليل بالدجن مضروب ... وقيد الجواشي بالأشعة مقطوب
وميض كتلويح الرداء ودونه ... وهاد تجافي بالسرى وأهاضيب
فما راعني عذب المراشف شادن ... ولا شاقني وافي الروادف مخضوب
سرى البارق الملتاح منجانب الحمى ... لنا وجناح الليل أسود غرّيب
بدا من كثيب عالج فاستفزني ... بنجد وقلبي بالصبابة ملهوب
وذكرني من كنت أهوى وبيننا ... على النأي إدلاج يطول وتأديب
تهون المعالي عند قوم وإنها ... على الدهر شيء بالمنية مطلوب
سأتخذ الظلماء درعاً حصينة ... وإن قلّ عندي الرجال الأصاحيب
أما كان بدر شاهداً لذوي العلا ... بأن رواق العز في الموت مضروب
غداة تولّى بالمعالي مهذّب ... وعادت بأنكاث المخازي القراصيب
وجاءت قريش تمضغ الغضن والعنا ... صدور عليها للضغائن تكتيب
على كلّ نهد المركلين مطهّم ... كأن عليه من ذرى الشمّ مخشوب
وجرداء ما امتطّت عليها جزارة ... ولكنها تحت العجاجة سرحوب
فلما اشمخرّت واشمأزت قناتها ... إلى حيث لا تسمو الرعان الأخاشيب
سماها عليّ والرماح شوارع ... وفحل المنايا بالشراسة مركوب
جلا نقعها واليوم باليوم مسدف ... وكأس الردى بين الفوارس معبوب
فأضحت وفيها للغواني نوادب ... وللوحش ولغ والقشاعم تخليب
وقد علت البيض القواضب ريّها ... شفاء وأشرعن الرماح السلاهيب
فكم ضيغم أعفى وليس به كرى ... ولكنه من خمرة الموت مصحوب
وكم ملك يأبى المذلة أصبحت ... تقبّل مثواه العتاق اليعابيب
وممتقص قد كان يسمو إلى العلا ... فأضحى وفيه للردى الحمّ تقطيب

وكـم خـرّ فيها مستطيل ودونـه ... طعين بأطراف الأسنّة مخضوب
وكم هان مشبوح الذراعين أغلب ... فأمسى على المثوى لقى وهو مغلوب
وكـم آسـر أضحى ولـلأسـر موثق ... عليه ولـلأغـلال غـل وتكليب
واصـيـد مـا راضـت نـوازق بأسه ... جرى وهو للجرد الشوازب مجنوب
وشقشقة قـرت لـمقـرم مصعب ... وعضب تولى وهو بالعضب معضوب
وناعم جسم عافر الوجه شاحب ... عوائده العقبان والنسر والذيب
هو الخطب ما كانوا يظنون مثله ... ولكنه مـن حـارب الله محروب
تـغـشـاه طـلاع الـثـنـايـا مشيّع ... إذا أرهـق الأقـوام للبؤس أثعوب

ومن شعره:

ألا مـا لعيني والـخـيـال الـمـوازر ... ودون التداني طول رجع المعاذر
أفي كل يـوم لي على الدهر عثرة ... تكر بـأعـقـاب الـجـدود العواثر
ولا يسمح الدهر الغشوم بصاحب ... ولا تـرجـع الأيــام مـنـي بـعـاذر
ولا أقتضي منه ديـونـي ويقتضي ... سـوالـف مـن أسـتـارهـا بالغوابر
فـلا بـلّ كفي بالسماح ولا روت ... زنـادي ولا أم الضيوف مناوري
ولا ذاق بأسي الـزائـرون ولا نما ... عديدي على هام العلا والمفاخر
ولا اقتنصت هذي الليالي حبائلي ... غـلابـاً ولا دارت بهن دوائـري
ولا جلجلت بالدار عين صواعقي ... ولا نصبت فوق الأعـادي منابري
ولا اغتبطت بي في الورى أم قسطل ... ولا انجفلت من سطوتي أم عامر
ولا أبـرقـت يـوم الـنـزال صوارمي ... ولا هتفت يـوم الهياج زماجري
لعمري لقد خـان الأجـيـدع ربه ... وران على المعروف أم المناكر
حنانيك ليس المجد إلا من السرى ... ولا العز إلا تحت وطء الحوافر
ولا مـدح إلّا لـلـوصـي فـإنـه ... مـعـاذ لمن أوداه سـوء الكبائر
لئن تـاه مـدح فيه أو ضـلّ شاعر ... فـقـد دلّـه مـن كـل فـضـل بباهر
ولكن لفظ الـمـدح فيه على فمي ... مـن الفكر منثال بغرّ الجواهر
إلـيـك أمـيـر المؤمنين مدائحي ... وفيك وإن لجّ اللواحي بضائري
هـل الـمـدح إلّا فـي معاليك رائق ... وهـل راق بالأشعار مثل المآثر

٦- آية الله الشيخ محمد حسين بو خمسين:

ولد في العقد الرابع من القرن الثالث عشر الهجري، وقد عاصر دولة السعوديين الثانية، كما عاصر العهد التركي منذ نشأته، وكان مرجعاً دينيًا وزعيماً سياسيًا في منطقة الأحساء، وقد ذكرنا نتفاً عن حياته ومواقفه إبّان الحرب الأهلية السعودية.

له العديد من المؤلفات والشروحات، بينها رسالته العمليّة الكبرى التي سمّاها «منار العارفين» وله الرسالة الصغرى وسمّاها «مصباح العابدين»، توفي رحمه الله سنة ١٣١٦هـ[١].

٧- الشيخ علي البلادي البحراني القديحي:

ولد سنة ١٢٧٤هـ حيث عاصر العهد العثماني في المنطقة من بدايته إلى نهايته، تلقّى علومه على يد العلّامة الشيخ أحمد بن صالح بن طعان، ثم هاجر إلى النجف الأشرف، وحضر عند جملة من فضلائها، وثلّة من علمائها. له العديد من المؤلفات أشهرها «أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والأحساء والبحرين»، حيث حوى ٨٦ ترجمة لأهم علماء القطيف والأحساء والكتاب لا غنى عنه لأي باحث عن تراث المنطقة.

والمرحوم البلادي يقول لاشعر في المناسبات، وله:

هلّ المحرم فاخلع حلّة الطرب ... والبس به حلل الأرزاء والكربِ
واحرم وطفْ كعبة الأحزان منتحراً ... هدي السرور مدى الآباد والحقبِ
قامت على ساقها الحرب الضروس ضحـ ... ـى وأسفرت عن محيًا كالح غضبِ
فصادمتها ليوث الكرّ من مضر ... شم العرانين من أهل ومن صحبِ
فكلما استعرت نار الحروب خبوا ... نيرانها بسيوف الهند والقضبِ
وكلما نكصت أبطالها قدموا ... كأنما استقبلوا خوداً على نجبِ
وكلما سجعت ورق السيوف على ... هام الكماة أجابوا السجع بالطرب
وكلما التهبت أكبادهم عطشاً ... ترشفوا من دم الأعدا عن اللهب
حتى هووا في عراص الطفّ قاطبة ... فوق الصعيد على الكثبان والهضب[٢]

(١) أنوار البدرين، ص٤١٤.

(٢) شعراء القطيف من الماضين، ص١٩٣ - ١٩٤.

٨- الشيخ أحمد بن الشيخ صالح بن طعان القطيفي:

وهو أحد أبرز علماء المنطقة، ونابغة من نوابغها، تربّى على يديه وفي مدارسه العديد من العلماء المجتهدين وفطاحلة العلم من الرعيل الأول.

له العديد من الكتب والمؤلفات والرسائل، وطبع له بعد وفاته ١/ ١٠/ ١٣١٥هـ ديوان حمل اسم «المراثي الأحمدية» ضم بعض أشعاره التي قالها في المناسبات.. ومن شعره:

على الطفّ عرج ولا تعجلا ... ففيه التعجّل لن يجملا
وحلّ وكالمدمع المستفيض ... وأجرِ المسلسل والمرسلا
ورشّ بها عرصات الطفوف ... لتكسي بها خير وشي حلا
على أن أفضل برّ الرسولِ ... بكاؤك قتلى ربى كربلا
وخاضوا الحمام أمام الإمام ... كأن الحمام مدام حلا
فكم قيّدوا للعدى مطلقاً ... وكم فصّلوا منهم مجملا
وكم زوّجوا البيض سمر القنا ... وكان الرؤوس نثار الجلا
فتاق لروض الجنان الجَنانُ ... وحلّ الذي في القضا أجّلا
فخرّوا كما أنجم قد هوت ... عقيب التمام بَدَت أُفّلا[1]

٩- الشيخ علي أبو عبد الكريم الخنيزي:

وقد كان الزعيم السياسي للطائفة في بداية العهد السعودي الأخير، بعد رحيل ابن جمعة، والعلّامة البدر ونظرائهما.

هاجر إلى النجف الأشرف، وتلقّى دروسه عند الشيخ محمد علي الجشي، كما درس المغني والحاشية والشمسية عند المرحوم الشيخ النمر، والمعالم واللمعة والقوانين عند الشيخ حسين بن الشيخ محمد علي آل عبد الجبار، والرسائل عند الشيخ حسن علي البدر.

كانت له مواقف معروفة في تسهيل مهمّة ابن سعود في ضمّ القطيف للمملكة،

---

(١) المصدر السابق، ص١٤٥ - ١٤٧.

وكانت علاقته بابن سعود قوية في كل ما يتعلق بشؤون الشيعة، اقتصاديًا وسياسيًا ومذهبيًا.. ولا أدل على ذلك من رسائل الملك المتابعة إليه، خاصة سنتي ١٣٤٧هـ و ١٣٤٨هـ، ففي هاتين السنتين قامت انتفاضة العوامية بزعامة المرحوم الشيخ محمد النمر، وفيهما فرّ حوالي ثلث سكان المنطقة إلى البلدان المجاورة نتيجة العسف الاقتصادي.. وكان للمرحوم الشيخ علي مواقف معلومة، ورسائل مسجّلة، وبمطالعة كتاب «في ذكرى الزعيم الخنيزي» نكتشف الكثير عن شخصيته المحافظة، ومواقفه المعتدلة[1].

ولد رحمه الله سنة ١٢٨٥هـ، وتوفي سنة ١٣٦٣هـ.

١٠- الشيخ جعفر بن محمد أبي المكارم العوامي:

من نوابغ العلماء، ولد في العوامية في الخامس عشر من جمادى الأولى سنة ١٢٨٢هـ، وهاجر إلى النجف الأشرف وهو في سن مبكرة، ومكث فيها حوالي ١٨ سنة، وعاد إلى بلده مجتهداً مرجعاً كوالده.

من أساتذته آية الله المرجع الشيخ أحمد صالح آل طعان القطيفي، وفي النجف السيد محمد السيد محمود العاملي، والإمام الشيخ محمد الحسين الأصفهاني، وغيرهم.

له مواقف عديدة في الدفاع عن عقيدته، وله مناظرات مع المعارضين. أما كتبه ورسائله فكثيرة تزيد على ٤٤ مؤلفاً، منها ١٩ في الفقه، وأربعة في الأصول، وأربعة في الاستدلال، منها كتاب «مشكاة الأنوار» يناقش فيه رأي الوهابيين الذين كفّروا زائري قبور أهل البيت عليهم السلام، وله «درّة الصدف» وهو كتاب يحوي أجوبة عن أسئلة محدّدة وردته من أحد علماء المذاهب الإسلامية الأخرى.. إضافة إلى كتب أخرى عن أئمة أهل البيت، وديوان شعر سماه «نهاية الإدراك».

توفي ليلة الاثنين ١٣ محرم ١٣٤٢ في البحرين، ودفن إلى جانب الشيخ ميثم البحراني المشهور.

فيما يلي استعراض لبعض شعره، كما وردت في كتاب «أعلام العوامية»[2]:

(١) في ذكرى الزعيم الخنيزي، وانظر: الأزهار ج٢، ص١٣٥. وأيضاً: أعيان الشيعة، وشعراء الغري، وأدب الطف، وطبقات أعلام الشيعة.

(٢) آل أبي المكارم، ص٨٣ - ١٥٣. وانظر: شعراء القطيف من الماضين ص١٩٦ - ٢٠٠.

وردت للشيخ جعفر قصيدة من العلّامة السيد مهدي الغريفي البحراني، وكانت بينهما مراسلات، يشكوه فيها نوائب الدهر، ويقول فيها:

يا بارق الخطّ حدّث عن نوادره ... عن المحاسن فيها عن جواهره
عن المقاصير عن وادي اليمامة عن ... سكّانها عن ثغور من جئادره
عن العيون عن العين الحسان عن ... الخد المضرّج عم دمعي وغامره
برق اليمامة لا تضحك ألست ترى ... عقيق دمعي جرى نظماً كناثره
إني وإن كنت نائي الدار مغترباً ... بين المحيطين من هجر وهاجره
«أبا علي» ومن قلبي له سلم ... عطفاً فلا تسلمن صباً لواتره
لا تشمتن بي حسّاداً تركتهمُ ... ولومهم خلف ظهري غير ناظره

والقصيدة طويلة ردّ عليها الشيخ جعفر، فقال:

دمعي يحدث عن ألحاظ ناضره ... عن مهجة قد رست في غمر زاخره
عن حاملات الأسى في زيّ ساحرة ... عن نار شوق ورت في قلب ناشره
عن سانحات الظبا عن جيد كاظمة ... عن الحريق بنجدٍ عن مغاوره
عن الغرام عن القلب المهام وعن ... جمر توقد عن أنفاس ساعره
عن بارق الخطّ عن برقٍ بلعلعها ... عن قاطن بحماها عن هواجره
عن سارحات بنفسي في مراتعها ... عن الحجيج وباديه وحاضره
عن طيبة ومنى عن خيف محسرها ... عن سلع عن حرّتيها عن مشاعره
عن مكة عن أهيل الدار من هجر ... عن بابها عرفات عن مجاوره
عن الحجون وبطحاها ومروتها ... عن الصفا عن حطيم عن منابره
عن نينوى عن نواويس الطفوف وعن ... مَنْ قد تحيّر في أكناف حائره
عن الغريين عن نور بمربعها ... عن الحماء وعن سورا وعابره
جاشت وما جشأت إلا على حذر ... من جور دهر برى صبري بباتره
يا سيداً ينتمي للعز عن شرف ... لفّت أوائله نبلا بآخره
أنا الأسير حريق القلب شقّته ... بعيدة منك يرجو نيل آسره
إن كنت مغتربا فالقلب مضطهد ... مما يحلّ به من غدر غادره

فاربع فدتك نفوس القوم عن كلف ... يريك باطنه أخفى ظواهره
واعلم هديت بأن الذنب مغتفر ... إلا من أشرك في توحيد غافره
أن الحسود لمأخوذ برمّته ... يقاد قهراً على عنف لقاهره

وكعادة شعراء الشيعة فقد تخصصوا في مراثي ومدائح الرسول وأهل بيته، ومن شعر المديح في المصطفى ﷺ:

يا عصمة الناس التي عرفوا بها نهج المدارك
أنت السفينة للنجاة، فكلّ من ناواك هالك
أنت الطريق المهيعيّ، لمن غدا للحق سالك
عجز الأنام جميعه، من أن يدور على مثالك
يا مرغماً أنف الضلال، ولم تزل فينا كذلك
صلى عليك الله ما كشفت شموس الحق حالك[1].

أما رثاؤه لمصائب آل النبي فكثير، منه:

طال العزاء لفقد السادة الغرر ... ومعدن الوحي والآيات من مضر
والقلب أصبح مني في لظى وجوى ... بادي الكآبة ينعى سادة البشر
فكنت مهما أناخ الدهر كلكله ... وأظلم الدهر والأيام بالضرر
ذكرت مجدهم العالي على علم ... وما أناخ به من حادث الغير
لله درهمُ كم أعقبوا سنناً ... وكم أشادوا إلى العلياء من أثر
وغودروا بين مسموم ومضطهد ... يشكو إلى الله ما عاناه من بطر
لله كم جرّعوا صاباً مصبّرةً ... من الحمام فذاقوها على خطر
وكم لهم من مزايا في الأنام أبَتْ ... تُحصى وجلّت عن الأرصاد في الزبر
حباهمُ الله من إحسانه شرفاً ... على الأنام وفضلاً غير منحصر
جاؤوا الخلافة إذ كانت لهم قدراً ... كما أتى ربه موسى على قدر[2]

(١) أعلام العوامية، ص١١١.
(٢) المصدر السابق، ص١٤٤ - ١٤٥.

ومن رثائه للإمام علي عليه السلام قوله:

أرى الدهر تنحو للكرام عظائمه وتسعى لها بالمرديات قواصمه
يقسّم في أهل الحفاظ سهامه غشاشاً فتبدو للبصير ذمائمه
يمدّ جناحاً قد تأبط للبلا فتظهر منه الخافيات قوادمه
يطير به في عاصفات متى بدت على عرض أُفق أردفتها روازمه
بلاء له الصبر الجميل تهدّمت عوالمه لمّا وطتنا مناسمه
وذلك رزء المرتضى علم الهدى ومن ملأت للخافقين مكارمه[1]

١١- الإمام الشيخ علي أبو الحسن الخنيزي:

أحد كبار مجتهدي الطائفة وزعمائها المبرزين في السياسة والأدب، ولد سنة ١٢٩١هـ، وقد عدّه المؤلفون أحد أهم المؤسسين للحركة العلمية الحديثة في المنطقة، ذلك أن جيل الأدباء المشهورين اليوم، كالمرحوم الشيخ فرج العمران، والمرحوم الشيخ ميرزا البريكي، والأستاذ محمد سعيد الجشي، ومحمد سعيد الخنيزي وأضرابهم، كانوا قد تعلّموا على يد مثل أولئك الأفذاذ.

أخذ المقدمات من أساتذته في القطيف، كالشيخ عبدالله آل نصر الله، والشيخ ناصر آل نصر الله، والشيخ حسين آل عبد الجبار، والشيخ منصور الجشي.. وإضافة إلى تدريسه لعلوم الفقه واللغة العربية والأصول، كان مجلس الخنيزي ملتقى لطلاب العلم وروّاد الأدب، وكان رحمه الله لا يبخل بوقته في التدريس والتوجيه لكل من لديه استعداد للعلم والمعرفة، فاهتمّ بالفئة الشابة ورعايتها، وكان كثيراً ما يزور منازل الأدباء الشباب ويحثّهم ويوجههم.

وللإمام المرحوم ولدان من كبار علماء الطائفة، هما: الشيخ عبد الحميد الخطي، قاضي الشيعة في القطيف، وهو شاعر مبدع مشهور. والآخر الشيخ عبدالله الخنيزي، صاحب كتاب «أبو طالب مؤمن قريش»، الذي أثبت فيه إيمان أبي طالب، فاعتقلته السلطة، وحكم عليه الوهابيون بالإعدام، ولم يتراجع عن الحكم إلّا بعد وساطة شخصيات سياسية ودينية من كافة أنحاء العالم الإسلامي.. وللشيخ عبدالله عدّة مؤلفات

(١) المصدر السابق، ص١١٣.

مطبوعة، وجدّدت طباعة أكثرها، كما ظهرت له السنوات الأخيرة عدّة مؤلفات.

توفي الإمام الخنيزي سنة ١٣٦٣هـ ويصوّر الأستاذ عبدالله الجشي في رثائه اللوعة والحسرة بفقده، فيقول:

جـــدّدت عـهـداً للمعارف ذاهـبـاً ... ونـجـدتَ شعباً للتحرّر واثبا
ودأبــت جهدك للشباب موجّهاً ... فخلقت فـيـه كـفـاءة ومـواهـبـا
وجمعتَ شمل المخلصين مؤلفاً ... منهـم لإسـعـاد الـبـلاد كتائبا
وأخــذت تدفعهم لباب مليكهم ... كالهيم تـوردهـا المعين تعاقبا
وعدلت لم تجنح لـذي قربى ولم ... تدفع عـن الحق الـصـراح أجانبا
وخفضتَ للعافي جناحك رحمة ... ولأنــت أجــرأ لـلـطـغـاة مغالبا
وصبرت صبر المصلحين على الأذى ... وصفحت صفح الأكرمين مجانبا
إيـه أبـا الحسن استمع لمقالتي ... واحلم عليَّ فما عهدتك غاضبا
هـذي بـلادك قـد أضـاعـت رشدها ... وتـفـرّقـت بـعـد الـوئـام مذاهبا
الـقـوم قـومـك إذ تـهـان سراتهم ... والشعب شعبك حين يلقى عاتبا
ولأنــت منهم فـي الصميم أرومـة ... ومـصـالـحـاً ومـبـادئـاً وعـواقـبـا
أأبـا الحسين، وكـم دعيت لأزمـة ... فحللتها وكشفت كـربـاً لازبـا[1]

ورثاه خالد الفرج، شاعر الخليج المشهور، الذي سكن القطيف مدة ٢٥ عاماً، وتوثقت علاقته بعلماء المنطقة وشعرائها، فقال في قصيدة طويلة:

ابــكــوا بـدمـع أو نـجـيـع ... شـيـخـاً يـعـزّ عـلـى الجميع
وتــصــوروا الــبـدر اختـفـى ... فـي غـامـض الـلـيـل الـمـريـع
وكــأنــه روح الــحــيــاة ... مـضـت عـلـى الـجـسـم الصريع
أوّاه لــو يـغـنـي الـبـكـاء ... عـلـيـه أو هـلـع الـهـلـوع
هــل مــن زعـيـم بـالـرجـوع ... عـلـى الـفـدا هـل مـن شفيع؟

(١) ذكرى الإمام أبي الحسن الخنيزي، للشيخ عبدالله الخنيزي، المطبعة الحيدرية، ص١١٥ - ١١٦. للمزيد عن المترجم له، انظر: عبد العلي السيف، مصدر سابق، ص٩٤ - ٩٥. وأعيان الشيعة، للعاملي، ج٨، ص٢٩٥. وأنوار البدرين، ص٣٧٧. والأزهار، ج٦، ص١١١ - ص١٨٠. ونسيم وزوبعة للشيخ عبدالله الخنيزي، ص٣٣٣. والذريعة إلى تصانيف الشيعة، للآغا بزرك الطهراني، ج٤، ص٤٨٠.

أودى فشيّع نعشه ومشى على هام الجموع
نعش تداوله الأكف يكاد يطفو في الدموع
سالت عليه نفوسهم في دمعهم مثل الشموع
يمشون دون هدى وقد غاب الدليل بلا رجوع
تالله لم أشهد بهم من كان في حال طبيعي
والحزن يفتك بالنفو س كفتكة الداء المريع
نشر السواد على الوجو ه كآبة قبل الدروع
ومحا الوقار فلا ترى فيـ ـهم سوى باك جزوع
غصّ الفضاء بهم كما قد غص لحد من ضجيع
يبكون شمس الفضل غابـ ـت لن تعود إلى طلوع
يبكون نهر العلم جـ ـفّ فمن لمصفرّ الزروع؟
يبكون روحاً لن ترفـ ـرف في سجود أو ركوع
فالخطّ أصبح دارساً كالخط في طلل الربوع
يا شيخ كم أيتمت بعد ك من فطيم أو رضيع؟
ولكم تشكّى بعدك البؤ ساء من عري وجوع؟
من للعويص من الأمور يفكّ بالحل السريع؟
من للنوادي إذ تزان بمثل مظهرك لابديع؟
من للأحاديث الرقيقة مثل أزهار الربيع؟
هذا الذي نبكيه من ذكر اك بالدمع الهموع
إنّا تودّع بالبكاء وأنت في الملأ الرفيع
تلتف من حلل الرضا في نور باهرة السطوع
قد صار قبرك في القطـ ـيف: كأنه بعض البقيع[1]

وللعصامي أحمد بن سليمان الكوفي، قصيدة رثاء لأبي الحسن الخنيزي[2]:

بمن الحيارى تهتدي من بعد فقد المرشد؟

---

(١) ذكرى الإمام أبي الحسن الخنيزي، ص١١٢ - ١١٤.
(٢) المصدر السابق، ص١٢٦ - ١٢٧.

ويمن تراها بعد مـ ـولاها علـيّ تقتدي؟
من ذا يقوم مقامه، يقضي بشرعة أحمد؟
قد كنت بدراً نستضـ ـيء بنوره المتوقّد
واليوم عاد الصّبـ ـح ذا دجن كليل أسود
لما أبو حسن قضى وغاب نور المهتدي
واحسرتاه عليك يا من اكن خير مقلّد
والهفتاه لضيعة العا في الضعيف المجتدي
واضيعتاه فما إليـ ـنا -بعده- والمسجد؟
يا قلب ذبْ جزعاً عليـ ـه وغلّتي لا تبرد
يا مقلتي سحّي دماً يا أدمعي لا تجمد
فلقد قضى من همّه إحياء دين محمد
فد فتّ في أعضادنا موت لازعيم الأوحد
ولهيب جمرة فقده في قلب كل موحد

١٢- السيد هاشم السيد أحمد الأحسائي:

كان أحد كبار علماء الطائفة في الأحساء، تلقى علومه في النجف الأشرف، وأصبح أحد مراجع التقليد.. له مجلّد ضخم في أصول الفقه، وله رسالة عملية كبرى في الطهارة والصلاة، ورسالة صغرى، وكتب أخرى في العقائد.

عاصر كامل العهد التركي، وتوفي سنة ١٣٣٩هـ.

وخلّف ابنا فاضلاً سار على نهجه وهو السيد ناصر الذي فاوض الملك عبد العزيز بعد احتلال الأحساء، وقد كانت له وقفة مشهورة مع الجلّاد ابن جلوي تجدها في موقع آخر من الكتاب[1].

١٣- سلمان بن صالح بن أحمد آل إبراهيم الصفواني:

ولد في مدينة صفوى، أواخر القرن التاسع عشر، وتوفي في السادس عشر من

(١) أنوار البدرين، ص٤١٥ - ٤١٦.

اكتوبر سنة ١٩٨٨ في بغداد.

لما ناهز العشرين من عمره هاجر إلى مدينة النجف الأشرف لتلقي العلوم في مدارسها. وقد أصبح الأستاذ الصفواني أحد رموز الحركة الثقافية في العراق؛ لأنه لم يعد إلى وطنه، بل فضّل العيش في العراق وشارك في صنع أحداثه السياسية، وقد سبق له أن اشترك في ثورة العشرين الإسلامية التي قادها مراجع الدين في النجف. ويذكر المرحوم في سيرة حياته التي نشرها في جريدة الهاتف العراقية في عددها الصادر في الخامس عشر من حزيران سنة ١٩٥٣ ما نصه: «فلما نشبت الثورة العراقية سنة ١٩٢٠، اضطرتني ظروفي الخاصة بعد الثورة إلى النزوح إلى الكاظمية، وكان ثقل الحركة الوطنية قد انتقل إليها، وتولّى الشيخ مهدي الخالصي قيادة الحركة، وكنت قد التحقت به، كما كنت من أقرب طلاب مدرسته إليه».

وأضاف في مقالته: «في تلك الآونة عزم الأستاذ محمد الهاشمي وشقيقه المرحوم رشيد الهاشمي على إصدار مجلة باسم اليقين، فاتصل المرحوم الهاشمي بالشيخ الخالصي ورجا منه أن يرشح له من شبابه الطلاب من يتعاون معه في تحرير المجلة. وكانت الوحدة الوطنية شعار الجميع، وكنت مؤهلاً من قبل فوقع الاختيار عليّ».

وبسبب اشتراكه في الثورة فقد كان من ضمن المنفيين إلى خارج العراق على يد المستعمرين البريطانيين، إلى جانب أستاذه الخالصي أكثر من سنة، وبعد ذلك سُمح له بالعودة إلى العراق، ومارس العمل الصحافي كمهنة، فأصدر لأول مرة جريدته «اليقظة»، ومع إشراقة صباح يوم الجمعة المصادف للخامس من سبتمبر ١٩٢٤ - الخامس من صفر ١٣٤٣هـ، صدر أول عدد منها.

وقد شهد له الكثيرون أنه أحد روّاد الصحافة العراقية «انظر تاريخ الصحافة في الكاظمية للعلامة الشيخ محمد حسن آل ياسين، الصادر في حزيران ١٩٦٩».

وبعد صدور العدد الثالث عشر، أغلقت جريدته من قبل مديرية المطبوعات، فأصدر بدلها جريدة «الرأي العام» وهي جريدة أسبوعية، صدر عددها الأول في العشرين من ديسمبر ١٩٢٥، في مدينة الكاظمية، وقد عطلتها السلطات البريطانية بعد صدور عددها الثاني عشر، فاستأنف إصدار جريدة أخرى باسم صاحب الامتياز هذه

المرة، وبقي محررها ومديرها المسؤول، وهي صحيفة أسبوعية جامعة صدرت بأربع صفحات، ومن العدد الثاني أصبح الصفواني صاحبها ومديرها المسؤول، كان ذلك في شهر سبتمبر ١٩٢٦، وقد عُطّلت الصحيفة أيضاً بعد صدور عددها الثاني عشر.

وبنهاية العام ١٩٢٦، انتقل إلى بغداد عاملاً بصحافتها، وفي العام ١٩٢٧ تعين موظفاً في الدولة واختير سكرتيراً لوزير المواصلات والأشغال يومذاك، المرحوم السيد علوان الياسري -أحد قادة ثورة العشرين الإسلامية- وبعد فترة استقال وعاد للعمل بالصحافة.

ومن يونيو حتى سبتمبر من عام ١٩٣٦، سجن الصفواني وحكم عليه بالحبس الشديد سبع سنوات، ثم قُيِّد بسلاسل الحديد وزُجّ به وراء أبواب مغلقة بتهمهة اشتراكه في ثورة العشائر التي حدثت في الديوانية على عهد وزارة ياسين الهاشمي، وقد كتب المرحوم مذكراته عن تلك الفترة على شكل رسائل بعث بها من السجن إلى زوجته، وقد جمعها بعدئذ في كتاب مستقل بعنوان «محكوميتي» طبع في مطبعة العرفان بصيدا سنة ١٩٣٧، ونشر بعض مقتطفاتها.

في عام ١٩٤١ اشترك في الثورة، وكانت له مواقف معروفة لمعاصريه، وقد أنيط به منصب مدير الإذاعة، وفي عام ١٩٦٤، وبعد انتهاء فترة الحرب العالمية الثانية، وإجازة الأحزاب والصحف، كان الصفواني من مؤسسي حزب الاستقلال، وكان عضواً بارزاً في هيئته العليا، ومُنح امتيازاً باستئناف جريدته «اليقظة» اليومية السياسية الشهيرة، التي ظلّت تصدر بانتظام حتى شهر مارس من عام ١٩٥٩، ثم ما لبث أن تعرّضت صحيفته بعد فشل ثورة الشواف في الموصل إلى الهجوم، وتم تدمير وحرق مكاتبها الواقعة في شارع الرشيد، والتجأ الصفواني إلى القاهرة ولم يعد لبغداد إلا بعد ثلاث سنوات.

في العام ١٩٦٥ استوزر الصفواني لشؤون الصحافة، وأثر سقوط الوزارة انصرف إلى كتابة مذكراته عن الأحداث التي عاصرها أو أسهم فيها، وقد نشر فصولاً منها في بعض المناسبات في الصحف والمجلات، كمجلة «آفاق عربية» وجريدة الاتحاد وغيرهما[1].

---

(١) المعلومات وردت في مقال كتبه أحد الصحافيين العراقيين في ذكرى رحيل الأستاذ سلمان الصفواني.

المدهش أن صلات الصفواني بأخيه المرحوم حسين في مسقط رأسه، في مدينة صفوى بالمنطقة الشرقية من السعوية كانت مستمرة ودائمة، ولا زال خلف المرحوم الصفواني يعيشون في العراق، ويحملون الجنسية العراقية.

١٤- الشيخ محمد بن الشيخ عبدالله آل عيثان الأحسائي:

درس في النجف الأشرف واشتغل في التعليم والتعلّم مدة تقرب من ثلاثين سنة، ثم قفل عائداً إلى الأحساء بعد وفاة والده.. من مصنّفاته رسالة في معاني الحروف، وله شرح رضاعية السيد مهدي القزويني، وله رسالة عملية في الطهارة والصلاة، وغيرها.

وقد توفي رحمه الله في العام نفسه الذي احتلت فيه الأحساء ١٣٣١هـ[١].

١٥- الشيخ المجتهد محمد بن الشيخ عبداله بن الشيخ أحمد العوامي:

ولد سنة ١٢٥٥هـ، وتوفي في السابع والعشرين من محرم ١٣١٨هـ بالمدينة المنورة، ودفن في البقيع.. أطراه العلامة الشيخ أحمد بن صالح آل طعان، وكانت بينهما مناظرات ومحاورات علمية، جمعت في كتاب لم يطبع واسمه «الخلافية بالاستدلال». وللمرحوم عدّة مؤلفات في الفقه والنحو والأدب.. وله أيضاً منظومات شعرية في العقائد وأصول الدين.. ومن شعره:

وعلّ امرأً لا يقبل النصح جاهلاً ... يكذبني قولاً ويرمقني شزرا
وينسب قولي للمجاوزة التي ... يضيق بها من لا يطيق له حصرا
فحسبك أنّي ما اعتقدت بأنه ... إله ولكن في الورى قد علا قدرا
فما لم تشأ فاترك وما شئت فاعتقد ... فهذا اعتقادي قد كشفت له سترا
وداد أمير المؤمنين سجيّتي ... حياةً موتاً، لمت لو لم ألم نشرا
وحسبي بـ«خم» نص أحمد جهرة ... بما بعده في الناس قد قطع العذرا[٢]

وله أيضاً:

لا تبك ما عشت يوماً خاشياً سبباً ... وإن تعاظم قدراً أو علا رتبا

(١) أنوار البدرين، ص٤١٥ - ٤١٦.
(٢) أعلام العوامية، ص٥١.

وربّ قائلة في المال تعنفني يوماً إذا قلّ أو أنزلته وصبا
مهلاً عداكِ البلى لا تظهري جزعاً ما دمت حيًّا وإنْ جلّ الذي ذهبا
فإنني لم ترعني قطّ نائبة يوماً وإن كثرت من عظمها النوبا
نعم نوائب آل الله كم فصمت منّي قواي وسامتني به العطبا[١]

ومن شعره:

بُكم المعاهد ماذا فيكِ قد حانا وأين سكانك الساقون قدحانا؟
وقفت فيها أناديها وأسألها أين الأنيس ومن أعلوك بنيانا؟
أين البدور المشيدون العلى شرفاً والملبسون الهدى والدين تيجانا؟
أين الأسود التي تُحمى الثغورُ بهم لا يطلبون لدى الهيجاء أعوانا؟
نادت: بهم لعبت أيدي النوى فغدوا للسيف والنبل والخطّي قربانا[٢]

١٦- الشيخ عبدالله بن رمضان:

كان أحد كبار العلماء، ويعدّ من فحول الشعراء، له قصيدة طويلة أوصى فيها ابنه، مطلعها:

هي الدار دار العنا والمحن ودار الفناء ودار الفتن

وله ابن اسمه علي، يعد من الأدباء والعلماء المعروفين، وله يد قوية في الشعر، وقد قتل شهيداً على يد الوهابيين[٣].

١٧- الشيخ عبدالله بن علي الأحسائي:

وهو من العلماء الأخيار، وشاعر مكثر، له ديوان شعر في مجلدين، وله القصيدة الهائية الكبيرة التي جارى بها المرحوم الشيخ كاظم الأزري في قصيدته المشهورة بالألفية وهي:

لمن الشمس في قباب قباها شفّ جسم الدّجا بروج ضياها

---

(١) المصدر السابق، ص٥٦. وانظر شعراء القطيف من الماضين، ص١٥٦.
(٢) المصدر السابق، ص٥٩.
(٣) أنوار البدرين، ص٤١٥ - ٤١٦.

١٨- الشيخ علي الشيخ جعفر العوامي:

أحد مجتهدي الشيعة وشعرائهم، ولد سنة ١٣١٣هـ، وعاش في ظلّ العهد التركي ثمانية عشر عاماً، وقد ألّف كتابه الأول سنة ١٣٣٠هـ، وهو «اللؤلؤ المنظوم».

تلقى الشيخ علي أكثر علومه على يدي أبيه، ثم رحل إلى النجف الأشرف، وتتلمذ على يد ثلّة من أعلامها المشهورين، وبعد وفاة أبيه هاجر إلى البحرين فعُيّن قاضياً هناك ثم عاد وتوفي في سيهات في ١٣٦٤هـ، له ثلاثة عشر مؤلفاً منها «دعوة السلام» وهي رسالة عمليّة في العبادات والمعاملات، و«الكبير» جامع في الفقه، و«علية الوعظ» الذي حوى خطبه في الجمعة والأعياد، واشتمل على مواعظ تدعو إلى لمّ الشمل والوحدة بين أتباع المذاهب الإسلامية لمواجهة المخاطر التي تهدد المسلمين، وإضافة إلى ذلك ديوان شعره.

من نماذج شعره رثاؤه لأبيه[1]:

أيا دهرُ لا ترمي سهامك من وتر ... أصبت بني الإيمان في فقرة الظهر
رميت عماد الدين بالسهم صائباً ... وهدمت أركان الهدى حيث لم تدر
فلا صوّت الناعي بفقدان جعفر ... ففقدانه قد فلّ منا عرى الصبر
أيا جعفر لو كنت بالبذل تفتدي ... فديناك بالأموال والولد والعمر
أيا جعفر لو أنك اليوم ناظر ... يتاماك أمسكت الحشا من جوى الصدر
فوا عجبا تسري على النعش راحلاً ... ومن عجب هلّا تسير على النسر
ومن عجب أن النجوم تضمّها ... لحود وتبقى في مغيب إلى الحشر
ومن عجب رضوى العلوم مدكدك ... فمن ذا رأى رضوى ببحبوحة القبر
ومن عجب أن المنيرة في الدجى ... تغيب وتخفي في الثرى هالة البدر

١٩- الملا علي الزاهر العوامي:

ولد سنة ١٢٩٨هـ، وتوفي سنة ١٣٥٥هـ له ديوان شعر، ومنه[2]:

يا ليوث الحروب من آل طه ... أسرجوا الخيل يا ليوث وغاها

---

(١) أعلام العوامية، ج٢، ص١٣.

(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٨٩ - ٩٠. وانظر: شعراء القطيف من الماضين، ص٢٢٥ - ٢٢٦.

وامتطوا قبّ ظهرها وابعثوها ... واشحذوا من سيوفكم أمضاها
يا بني هاشم ويا آل فهر ... أنتم في النزال قطب رحاها
يا بني هاشم دهيتم برزء ... طبق الأرض نعيه وسماها
أعلمتم جُذّت أنوف رجـ ... ـالاتكم الغرّ عدوة طلقاها؟
ليس يشفي جوى القلب اعتذار ... ما سوى أخذ ثارها من عداها
أنتمُ شدتمُ إلى المجد بيتاً ... وشرعتم إلى الأباة إباها
رجّت الأرضُ بالنياحة رجّا ... لرزايا دهاكمُ أدهاها
والسموات كدن أن يتزلزلن ... فمنهنّ هدّ طود علاها
أسبلت دمعها دماً باكياتٍ ... حيث آل الرسول سال دماها
وعرى الشمس ظلمة بعدما كـ ... ـان على الالمين عمّ ضياها
ذبح السبط من قفاه لهيفاً ... ليت عين المياه قد غاض ماها

٢٠- آية الله العلّامة الشيخ علي بن حسن الجشّي:

ولد سنة ١٢٩٦هـ، ودرس العلوم الدينية عند مجتهدي القطيف ومراجعها، كالشيخ علي أبي الحسن الخنيزي، والسيد ماجد العوامي، والشيخ علي أبي عبدالكريم.. ثم ترحّل إلى النجف وتابع دراسته الدينية، وعاد مجتهداً يتصدّى للفُتيا.. له آثار عديدة منها: منظومة في أصول الفقه، وكتاب الأنوار في العقائد، ومنظومة أخرى في التوحيد، وكتاب الشواهد المنبرية، طبع سنة ١٣٦٠هـ، إضافة إلى ديوانه المطبوع سنة ١٣٨٣هـ والذي احتوى على ثمانية آلاف بيت من القصيد. توفي بالقطيف في منتصف جمادى الأولى سنة ١٣٧٦هـ(١).

٢١- الحاج محمد بن أحمد البراهيم:

توفي سنة ١٣٣٥هـ في مسقط رأسه بمدينة صفوى، ومن شعره في الاعتداد بالنفس والاستنهاض:

لا رضعت نفسي ضروع العلى ... إن لم أروّي قضبها والقنا

---

(١) شعراء القطيف من الماضين، ص٢٨١ - ٢٨٢.

في معرك الحرب إذا حشرجت نفس كميّ القوم واستجبنا
فقد أعدناها بأسيافنا واحدة لكن سما فوقنا
يا صاحب العصر أصبراً وفي دوركمُ صاح غراب الفنا
أخلت أميّ منكمُ دوركم وأوحشت منكم ربوع الهنا
ضيّقت الأرض على آلكم فلم تدع فيها لكم مأمنا
فانهض فديناك فما في عسى أو سوف أو علّ بلوغ المنى
واطلب بثارات الألى قد غدت أجسادهم طعم الضبا والقنا[1]

٢٢- الشيخ حبيب شعبان «ت ١٣١٠هـ»:

أحد الشعراء والأدباء المعدودين.. من جيّد شعره في مديح الزهراء، وهو يقدّم الغزل كعادة الشعراء السابقين، يقول:

هي الغيد تسقي من لواحظها خمرا لذلك لا تنفك عشاقها سكرا
ضعائف لا تقوى قلوب ذوي النّهى على هجرها حتى تموت به صبرا
وما أنا ممّن يستلين فؤاده وتفتنه الألحاظ في عقله سحرا
ولا بالذي يشجيه دارس مربع فيسقيه من أجفانها أدمعا حمرا
أأبكي لرسم دارس حكم البلا عليه ودار بعد سكانها قفرا
وأصفي ودادي للديار وأهلها فيسلو فؤادي ودّ فاطمة الزهرا؟
وقد فرض الرحمن في الذكر ودها وللمصطفى كانت مودتها أجرا[2]

٢٣- الشيخ حسين علي بن حسن البلادي القديحي:

ابن مؤلف «أنوار البدرين» ولد سنة ١٣٠٢هـ ودرس على يد والده مدّة من الزمن، ثم ترحّل إلى النجف وتتلمذ على يد علمائها.. له مؤلفات منها: كنز الدرر، رياض المدح والرثاء، مجمع الفؤاد، نزهة الناظر، معاد الدارين، المجموعة الحسينية، وغيرها.. إضافة إلى شعره.. توفي رحمه الله في الثالث عشر من ذي القعدة سنة ١٣٨٧هـ[3].

(١) المصدر السابق، ص١٧٦ - ١٧٧.
(٢) المصدر السابق، ص١٤٢.
(٣) محمد العوامي، مصدر سابق، ص٣٦.

٢٤- الشيخ رضي إبراهيم المحروس:

عاصر العهد التركي في معظمه، تلقى مبادئ العلوم في القطيف، ثم هاجر إلى النجف الأشرف، وبقي فيها ١٦ عاماً، وتوفي سنة ١٣٥٢هـ له ديوان شعر في شتى المواضيع، وله كتاب عن الزهراء عليها السلام، وعدد آخر من المؤلفات.. وكان الشيخ ذا شعبية كبيرة يدل عليها التشييع الضخم لجثمانه.

ومن شعره في الرثاء هذه الأبيات من قصيدته المؤثرة المشحونة بالألم، والتي جارى فيها قصيدة الرثاء الشهيرة للسيد حيدر الحلّي التي مطلعها:

الله يا حامي الشريعة ... أتقرّ وهي كذا مروعه
بك تستغيث وقلبها ... لك عن جوى يشكو صدوعه
تدعو وجرد الخيل مصغية ... لدعوتها سميعه

قال المحروس رحمه الله:

الله يا حامي الشريعه ... هذي قواعدها المنيعه
قد هدّمتها آل حرب ... يا لها دهيا فظيعه
ما جاءك العلم المشوم ... ألم تكن أذناً سميعه؟
ماذا يهيجك والحسين ... بكربلا ذبحوا رضيعه
ماذا يهيجك والخيول ... بنعلها طحنت ضلوعه
من بعدما قطعوا الكريم ... فأيتموا تلك الرضيعه
ماذا يهيجك والعليل ... مقيداً أبدى خضوعه
من بعدما هتكوا الخيام ... بنارهم حرقوا ربوعه
فانهض على خيل مسوّمة سريعه
ودعوا خيولكم تسدّ ثرى الأرض الوسيعه
وخذوا بثأر رئيسكم فأميّة شربت نجيعه
يسري بها الحادي على عطش مكشفة مروعه
أعلمت قد حملت حرائركم على بزل ضليعه[1]

(١) شعراء القطيف من الماضين، ص٢٢٢ - ٢٢٣.. انظر تفاصيل عن المحروس في الأزهار، ج٢، ص١١٤.

٢٥- الحاج يوشع بن حسين البحارنة «ت ١٣٠٣هـ»:

أحد الأدباء والشعراء المرموقين، من شعره في الغزل:

زارت بليل على جنح من السّحر   فــأرّج الـربـع منها نفحة العطر
أحيت من الشوق أياماً قد اندرست   وعـذّبـت أعـيُـنَ العشاق بالسهر
كــأن حاجبها قــوس قــد اتّـخـذت   سهماً به حتف من تغشاه بالنظر
كــأن بـيـن عـقـيـقٍ لـؤلـؤاً نثرت   إذا تـبـلّـج منها الـثـغـر بالسفر
حــوريّــة لـو رآهـــا الـبـدر سـافـرة   لجاء يسعى غليها سعي معتذر
فقلت وصـلاً رعـاك الله فابتدرت   تبدي العتاب فلم تبق ولـم تذر
لـلـه كـم لـيـلـة بـتـنـا عـلـى طـرب   ما بين روضٍ على بسطٍ من الزهر
نبيت تحسدنا الـجـوزا وتلحظنا   عين الرقيب، وعين الغفر والنسر[1]

٢٦- الملا عبدالله بن علي المادح:

من الخطباء المعدودين، عاصر كامل العهد التركي، وتوفي سنة ١٣٤٥هـ، له كتاب «سلوة الأخلّاء» وديوان شعر منه:

يـا صاحب الـكـرّة الـغـراء أرقبها   النصر يقدمها والـبـشـر يعقبها
تـقـرّ مـنـا عـيـون طـالـمـا قذيت   وأنـفـس طـال فـي الدنيا تغرّبها
أشكو إليك رعـاك الله نـار جوى   قـد كـاد يأتي على الدنيا تلهبها
يرضيك أن العلى صرعى ضياغمها   وذمّـة الغي يرعى النجم أكلبها
آلـــت صـــوارمـــنـــا ألّا نـجـرّدهـا   إلّا أمـامـك أو يـنـفـلّ مضربها
نـفـوسـنـا ومـوالـيـنـا ومـا ملكت   فـهـاهـي الـيـوم قـربـانـاً نقرّبها
أيدي الخطوب اقصري عنا فقد بلغت   منّا الشكاية نـدبـاً لا يخيّبها[2]

٢٧- الشيخ محمد الزهيري «توفي في ١٣٢٩هـ»:

ولـد في قريـة «الملّاحـة»، وتوفي والده بعـد ولادته بفترة قصـيرة، فتكفل به جده،

(١) المصدر السابق، ص١٢٨ - ١٢٩. وانظر: الأزهار، ج٦، ص١١٥.
(٢) المصدر السابق، ص٢٠١ - ٢٠٣.

وبعدها تولى أموره الحاج محمد عبد العزيز البيات. كان رَحِمَهُ الله ينظم الشعر، وقد قطن مدة من الزمن في البصرة ثم الكاظمية إلى أن توفي فيها.. له ديوان شعر جمعه العلامة الشيخ عبد الحميد الخطّي، مع مقدمة ضافية عن حياة الشاعر[1].

ومن شعره:

يا عين جودي بانسكاب ... لمصاب آل أبي تراب
وحشاي ذوبي باحتراق ... واضطرام واضطراب
وفؤادي المضنى أقم ... ام عشت دهرك في اكتئاب
وعليهم عنّي ائذني ... يا نفس حزناً بالذهاب

٢٨- الحجّة السيد ماجد السيد علي السيد هاشم العوامي:

أحد مراجع الشيعة المقلّدين، وآخر بقيّة العهد الزاهر، آلت إليه زعامة المنطقة في القضاء والفتيا والسياسة.

ولد رَحِمَهُ الله سنة ١٢٧٩هـ، وهاجر للنجف الأشرف طالباً العلم سنة ١٣٠٢هـ، وتعلّم على يد الشيخ عبدالله بن الشيخ عبد العزيز آل سيف القطيفي، والمرجع الشيخ عبدالله المعتوق، حيث قرأ عندهما المقدمات من العربية والفقه والأصول.. كما تعلّم عند العلامة الشيخ محمد بن عيثان الأحسائي، وحضر بحث الخارج لدى آية الله محمد طه نجف والمحقق السيد أبي تراب الخونساري، الذي شهد له بالاجتهاد. وممن شهد له بالاجتهاد شيخ الشريعة الخونساري، والمرجع الأعلى للشيعة السيد محمد كاظم الطباطبائي وغيرهم.

حج رَحِمَهُ الله سنة ١٣٦٦هـ ورافقه بحجه جمهور كثير، ثم توجه مباشرة إلى العراق، وهناك وافته المنيّة سنة ١٣٦٧هـ ودفن بجوار الإمام الكاظم، موسى بن جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وكان لوفاته رنّة ألم وحزن منقطعة النظير، إذ كان آخر المراجع الذين وافاهم الحمام، فبقيت البلاد تندب مجدها الضائع، ولعل استعراض بعض ما رُثي به الحجّة السيد ماجد، ليس يكشف جانب الأسى والالتياع لفقده، وإنما أيضاً مكانته العظيمة

(١) الأزهار، الأجزاء: ٢ من ص١١٨ إلى ص١٣٩. ٤ ص١٣٣. ج١٠ ص١٧٦.

في المنطقة[1].

للشاعر خالد الفرج قصيدتان ترثيانه، إحداهما في أربعينيته، وكان المرحوم خالد الفرج على صلة وثيقة بالسيد المرحوم وغيره، وقد شارك في مختلف المناسبات بقصائده الرنانة التي لم يعهدها النقاد له من قبل.. ولعل مراثيه تؤكد ما يرويه بعض المعاصرين من أنه اعتنق المذهب الشيعي.

قصيدة خالد الفرج الأولى[2]:

هل بالبكاء أو العويل ... نُطفي الأوار من الغليل
كلّا وهل تشفي عصي ... الـدّاء آنات العليل
أم هل تخف لواعج ... الأشجان بالصبر الجميل
هيهات أن الصبر أجمع ... ليس يغني من فتيل
يا ويلنا هل من سبيل ... للعزا هل من سبيل
فالخطب أدهى أن يهون ... عليّ من هذا القبيل
لكنه الأمر المحتّم ... ردّه كالمستحيل
يا برق برق صواعق ... الأرزاء لا برق المخيل
وإذا تكون مخائل ... فمخائل الدمع الهطول
انعبْ كما نعب الغراب ... حيال دارسة الطلول
وقل الذي قد قلته ... فالصاع ملآن الميكل
إن المصائب لا تعدد ... بالكثير أو القليل
إن الرزايا لا تحدّد ... بالقصير أو الطويل
إن الخسارة لا تقوم ... بالحقير أو الجليل
فالبحر يغرق منه عمق ... الباع أو أعماق ميل
مات ابن هاشم ماجد ... مات النبيل ابن النبيل
شخص يفدّيه الشباب ... نفوسهم قبل الكهول

(١) الأزهار ج٢ من ص٤٠ إلى ص٦٨. وأعلام العوامية ج٢ من ص١١١ إلى ص١١٩.
(٢) ذكرى حجّة الإسلام الإمام السيد ماجد العوامي، للسيد محمد حسن الشخص، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف ١٣٦٩هـ. وآل أبي المكارم، ص١١٦ - ١١٨.

كل النفوس تود لو ... ترضى المنايا بالبديل
مات الأب الحاني على ... الشعب المضاع بلا كفيل
شعب غدا مثل اليتيم ... بلا وصي أو كيل
من للأرامل واليتامي ... من لأبناء السبيل
من للمساجد والفتاوى ... في الفروع وفي الأصول
يا هولها من ساعة ... عمّت بغاشية الذهول
أرأيتم النجم الذي ... قد غاب عن عين الدليل
والشمس غابت لن تعود ... مضيئة بعد الأفول
هي تلكم الروح التي ... غابت عن الجسم النحيل
يا ماجد الآباء والأجـ ... ـداد من خير الأصول
الهاشميّ ومن ذوي الغـ ... ـرر المضيئة والحجول
ياليتنا كنا شهدنا ... يوم مشهدك المهول
يا ليتنا فزنا هناك ... بنظرة قبل الرحيل
حيث الجسوم تشيع والأر ... واح طائشة العقول
حيث العيون يصب منها الدمع ... أمثال السيول
حيث القلوب تدق دقّ ... أكف نائحة ثكول
وترى الثياب ممزقات ... من جيوب أو ذيول
وترى الصدور كأنما ... صبغت بألوان الأصيل
أوّاه من ذاك الرحيل ... مضيت فيه بلا قفول
يا خاتم العلماء في الـ ... ـخط المرزأ بالفحول
كنتم كأعلام الصوى ... والغيث في البلد المحيل
كنتم كأعلام البناء ... وقد هوى فوق النزيل
فختمتهم والأنبيا ... ختموا بوالدك الرسول
قد كنت سلوتنا إذا ... ما مات ذو علم جليل
وعمادنا في الحادثات ... وكل ذي حمل ثقيل
والمنهل العذب الذي ... يجري كماء السلسبيل

والـدوحـة الـكـبـرى لـمـن ... يـأوي إلـى الـظـلّ الـظـلـيـل
وإذا الـطـريـق تـشـعّـبـت ... تـهـدي إلـى خـيـر الـسـبـيـل
ولامـشـكـلات تـحـلّـهـا ... بـالـعـلـم فـي أهـدى الـحـلـول
والـحـجّـة الـكـبـرى الـتـي ... تـهـوي عـلـى الـغـاوي الضليل
والآن تـتـركـنـا إلـى ... كـرب مـن الـيـأس الـوبـيـل
إن الـقـطـيـف الآن أحـ ... ـوج مـا تـكـون إلـى دلـيـل
يـا ربـنـا رحـمـاك قـد ... عـودتـنـا فـعـل الـجـمـيـل
فـأمـنـن عـلـيـنـا بـالـعـزا ... وعـلـيـه بـالأجـر الـجـزيـل

وقال خالد الفرج في قصيدته الثانية في أربعينية الحجة العوامي[1]:

إكليل شعر على قبر من النور ... في القلب لا في أديم الأرض محفور
مضمّخ بعبير الذكريات له ... نشر يضع بلا مسك وكافور
يضم جثمان فضل لا حدود له ... باق على صفحات القلب مسطور
والذكريات ومَنْ هذا يعدّدها ... وهل تعدّ بتقليل وتكثير؟
في المسجد الجامع الزاهي بطلعته ... ذكراه في كل تهليل وتكبير
في مجلس الأربعا والجمع محتشدٌ ... يصغي لأحكام آيات وتفسير
في تلكم الطلعة الغرّا تفيض على ... ذاك المحيّا صفات ذات تأثير
ويا لذكراه في يوم الوداع ضحى ... إذ الشوارع غصّت بالجماهير
كأنهم أشفقوا من طول غيبته ... فشيعوه بتقبيل وتوقير
وللمحبين إحساسٌ كأن لهم ... علماً من الغيب عنهم غير مستور
من السعادة إيتان المقادير ... كأنها صدرت عن فعل تخيير
قدّست يا من أتم الواجبات على ... خير الوجوه بتوفيق وتيسير
فزرت أجدادك الأطهار بعد قضا ... حجّ الواع على هدي وتقصير
واخترت مثواك في أرض زكت ترباً ... في الكاظمية بين الولد والحور
مدثراً بالتقى والفضل مدرعاً ... من الأئمة في الجلّ المشاهير
ويا لهول مصاب الخط مزدوجاً ... إذ مت عنها بعيداً غير منظور

(١) المصدر السابق، ص٤٩ – ٥١. وانظر أيضاً: عبد العلي السيف، مصدر سابق، ص١٠٤ – ١٠٨.

يا ماجد الاسم والأفعال كنت لها ... روحاً وريحان أيام الأعاصير
فليتها أودعت في الأرض فلذتها ... من بعد أفخم تشييع وتقدير
بدمعة من تراب الخط سارية ... تسقي رفات عظيم القدر مشهور
يشع منك على الأوطان نور هدى ... فيه المبارك من هدي وتنوير
الأربعون وهل في الأربعين سوى ... معنى تعاقب إشراق وتغوير
أفي جمادى مقام اليوم أم صفر ... ما الفرق إلا بتقديم وتأخير
رزء الحفيد كرزء الجدّ لو سلمت ... تلك الشهادة من ظلم وتحسير
حزن يجدّد في الأجساد لاعجه ... كالنار تخرج من أعماق تنّور
تكاد تنفلق الأكباد من ألم ... وما النياحة منّا غير تعبير
يا يومها إذ نعى الناعون ماجدها ... فأصبح الجمع فيها جمع تكسير
مثل السكارى حيارى في أزقّتها ... من داخل السور أو من خارج السور
هل هزّت البلد المنكوب زلزلة ... ففرّ سكانها خوفاً من الدور
لا إنها نكبة كبرى يهولها ... وقع العجائب من فعل التقادير
فما هناك سوى باكٍ وباكية ... غدوا يهيمون فيها دون تفكير
قد لا يصدّقني من لا يشاهدهم ... والشعر يعجز عن وصف وتصوير
لولا ابن آدم قاسٍ في مرونته ... لا تحمّل عبء الحزن كالطور
يا آل هاشم ماذا الدمع إنكم ... مطهّرون متى احتجتم لتطهير
وهل مصائبكم لا تنقضي أبدا ... وما سواهن يصفو بعد تكدير
لا تخلعون سواداً من ثيابكم ... إلا على كفن في القبر مزرور
أهل القطيف لقد قمتم بواجبكم ... وكلكم ما بين مبرور ومأجور
حملتم الصدمة الكبرى ونازلها ... من بالكويت إلى الأحسا إلى صور
تتلى بها سيرة بيضاء طاهرة ... نصائح بين منظوم ومنثور

ويضاف إلى هذه الشخصيات الدينية والأدبية، عدد آخر كبير منهم، بعضهم كان صاحب مؤلفات، وبعضهم الآخر كان من الخطباء أو العلماء الذين امتهنوا الوعظ والتدريس.. ومن هؤلاء الشيخ منصور بن علي المرهون «١٢٩٤هـ - ١٣٦٢هـ» الذي عاصر العهد التركي، ورأى النهضة العلمية وساهم فيها، وفي أواخر أيامه، وبعد أن رأى

الانحدار الثقافي بسبب الضغوط الحكومية حاول تأسيس مدرسة دينية، فأمر ابن سعود باعتقاله هو وابنه الشيخ علي المرهون، وأرسلا إلى الرياض ليحقق الملك عبد العزيز معهما شخصيًّا، وأمضيا هناك مدة في السجن، ولم يطلقا إلا بالوساطات وبعد أخذ التعهدات، وقد تأثر رحمه الله بالحادث ومات بعد مدّة غير طويلة[1].

ومن شخصيات المنطقة الملّا حسن بن عبدالله الربيع، المتوفى سنة ١٣٦٢هـ، ولد في قرية «الربيعية» في تاروت، وكان صديقاً للشيخ منصور المرهون، وله ديوان معروف بـ«الزهور الربيعية» طبع عام ١٣٦١هـ.

ومنهم الحاج منصور بن محمد علي الجشي «ت ١٣٦٠هـ» وله ديوان غير مطبوع.. ومنهم السيد حسن العوامي «أخ السيد ماجد» ولد سنة ١٢٧٨هـ، وتوفي سنة ١٣٥٨هـ، وقد تتلمذ على يد العلامة البلادي، ثم هاجر للنجف وتتلمذ على يد مجتهديها، الذين كان من بينهم المجتهد الشيخ عبدالله بن الشيخ عبد العزيز القطيفي، وللسيد حسن شروحات وحواشٍ في المنطق والتوحيد والفقه، وتعليق على شرح منظومة السبزواري في الحكمة.

ومنهم السيد محفوظ العوامي، المتوفى سنة ١٣٤٦هـ، وهو أيضاً أخ للحجّة السيد ماجد، وله شروحات في اللغة والأصول، كما أن له شعراً كثيراً في المديح والمراثي.

ومنهم الملّا محمد آل نتيف، من أهالي قرية الخويلدية، توفي في البحرين سنة ١٣٧٢هـ، له ديوان مطبوع سماه «عبرة المؤمنين».

ومنهم الشيخ سليمان عبد الجبار، المتوفى سنة ١٣٦٢هـ وكان رحمه الله من العلماء الأبرار والفقهاء الأخيار، تتلمذ على جماعة من فضلاء القطيف، كالمحقق الشيخ محمد بن عبد الجبار، والشيخ مبارك آل حميدان الجارودي. له مصنفات كثيرة منها «النجوم الزاهرة في أحكام العترة الطاهرة»[2].

ومنهم الحاج حسين بن شبيب، المتوفى سنة ١٣٦٩هـ، له ديوان شعر في جزأين، طبعا في النجف الأشرف سنة ١٣٧٤هـ[3].

---

(١) ذكرى النور في حياة العلامة الشيخ منصور، الأستاذ محمد منصور المرهون، وانظر: الأزهار، وشعراء القطيف من المعاصرين، ص٢٤٣.

(٢) الأزهار ج٦، ص١٣٨. ومن ص١٦٣ - ١٧٣. وانظر: أنوار البدرين، مصدر سابق، ص٢٢٣.

(٣) الأزهار ج٥، ص١٦١. وشعراء القطيف من المعاصرين، ص٢٦١.

ومنهم العلامة الشيخ محمد صالح بن الشيخ أحمد آل طعان «١٢٨١ - ١٣٣٣هـ» له العديد من المصنفات، منها منظومة في الأصول الخمسة، وله كتاب سمّاه «ذرائع الآمال فيما يخص السنة من الأعمال» وله ديوان شعر مخطوط[1].

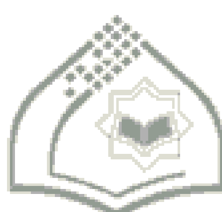
ومنهم الشيخ أحمد الشيخ صالح القطيفي «ت ١٣٤٦هـ» له مصنفات تربو على الأربعين، منها رسالة «جامع الشتات في أحكام الأموات»[2].. إلخ.

وهكذا ترى من الواضح القفزات العلمية للشيعة في العهد التركي، سواء من خلال استعراض أسماء العشرات من المؤلفات، أو من خلال كثرة الأسماء المتخصصة في مختلف العلوم والمعارف.. ولا يمكن لحد أن يقارن ذلك العهد بالعهد السعودي الحالي، قياساً إلى هذين المؤشرين الواضحين.

وبالنسبة لعلماء السنّة في الأحساء، فإن قراءة سريعة لكتاب شعراء هجر، تكفي لتبيان مستوى السموّ العلمي وريادة المنطقة شعراً وفقهاً وأدباً.



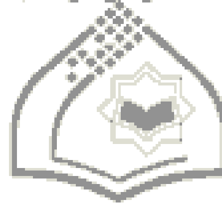
(١) أنوار البدرين، ص٢٦٩. والأزهار، ج٥، ص٧٩.
(٢) أنوار البدرين، ص٣٢٦. والأزهار، ج١١، ص١٧٧.

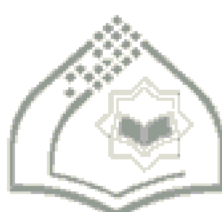

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٧

الأمن في الأحساء والقطيف

(١٨٧١ - ١٩١٣)




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

قضيـة الأمن شـغلت أهالي هـذه المنطقة منذ زمن بعيـد، فقـد كان لتناثر الأماكن الحضريـة في صحـراء قاحلة مترامية الأطراف، يرتادها الأعراب من كل جانب، بسبب وفـرة المراعـي، ولقربها من الواحـات الغنية التي تلبي احتياجاتهم المعيشـية.. كان لهذا أثـر كبـير في بروز مشـكلة انفلات الأمـن، وطمع القبائـل البدوية في السـيطرة على هذه الواحات الغنية.

وكانـت بادية الأحسـاء، كما المراكز الحضريـة الأخرى، مركز اسـتقطاب للقبائل البدويـة، أفـراداً وجماعـات، وإذا ما وجدت هـذه القبائل الفرصة، فإنها تسيطر وتحكم المناطـق الحضريـة، أو على الأقل تنهبها، وتهدّد اسـتقرارها.. ذلك أن قوة البادية ليسـت قليلـة، فمن حيـث العدد كان البدو في تلـك النواحي أكثر عدداً من السـكان الحضر إلى مطلـع الثلاثينـات الميلادية من هذا القرن.. ثم كانت للقبائل القابلية للسـيطرة، بسبب وجـود اللحمـة والعصبية بين أفرادهـا، مما يوفّر لهم قوة كبـيرة، بعكس المناطق الحضرية التـي تضعـف فيها العصبيـات.. ولذا لا تسـلم المناطق الحضرية إلا بوجود سـلطة قوية ومنظمة بشكل كبير، بحيث تكون قادرة على التعاطي مع الانفلات القبلي بحزم.

وقد رأينا أن بني خالد سيطروا على الحكم في المنطقة سنة ١٠٨٠هـ إلى أن أزالهم الحكـم الوهابي السـعودي سـنة ١٢٠٨هـ، بعـد أن حكموا أكثر من قـرن وربع القرن.. وكان الحكم السـعودي هو بداية الحكم الحضري المنظّم في نجد والأحسـاء، ولم يسبقهم في ذلك إلا الأتراك أثناء تواجدهم في المنطقة إبان صراعهم مع الاستعمار البرتغالي.

وفي الدولة السعودية الثانية، لم يستطع السعوديون كبح جماح هذه القبائل البدوية،

وتعتبر الفترة الممتدة بين ١٢٤٠هـ وهي السنة التي بدأ فيها الحكم السعودي الثاني، وبين سنة ١٢٨٨هـ وهي السنة التي احتلّ فيها الأتراك المنطقة للمرة الثانية بعد الحرب الأهلية السعودية، تعتبر هذه الفترة الزمنية من أسوأ الفترات التي تحكّمت فيها البادية بالمنطقة.

ففي هذه السنوات جاء العجمان إليها، وعاثوا فيها فساداً طوال الحكم السعودي، حتى أن بعض المؤرخين يلغي من الأساس وجود عهد سعودي ثانٍ، لأن فترة حكم السعوديين يومها كانت قصيرة جدًا ومزعزعة، رغم ما اشتهر به الحكام السعوديون من شدّة وغلظة في مواجهة القوى البدوية.. ويكفي دليلاً على هذا أن الأمير فيصل بن تركي الذي يعدّ أقوى حاكم في ذلك العهد، والذي وصف المؤرخون قسوته بأنها لا تعرف الحدود، لم يتمكّن من القضاء على العجمان وآل مرّة، رغم الذبح والتقتيل المستمر والغارات المتكررة على مضاربهم.

ولعل أحمد بن مشرف، وهو أحد مشايخ الوهابية في الأحساء، والذي كان على علاقة وثيقة مع السعوديين، كشف في ديوانه وقصائده كم كان الأمن مهدداً في تلك السنوات.. فأكثر قصائد الديوان تضم التهاني والتحريض، تهاني بالانتصار على البدو، وتحريضاً على إفنائهم.

وهنا يهمّنا الالتفات إلى حقيقة أن السعوديين، يعتبرون توفير الأمن أحد أهم مبررات حكمهم، في الماضي والحاضر، بل واعتبروا انفلات الأمن في الأحساء مبرراً لاحتلالها واستخلاصها من الأتراك.

وسنقتطف هنا بعض الأبيات الشعريّة من قصائد ابن مشرف لتوضيح الأوضاع الأمنيّة في عهد السعوديين قبل مجيء الأتراك.

في سنة ١٢٧٥هـ قال ابن مشرف مستنهضاً فيصل بن تركي آل سعود لقتال الأعراب، قال على لسان حبيبته النجدية التي قطعت علاقتها به، وقالت إنه في بلد مخوف:

أنا في رُبى نجد وأنت ببلدة   أحاطت بها الأعداء من كل جانبِ
يغيرون في أطرافها وسُرُوحها   جهاراً ولا يخشون سوطاً لضاربِ

فكم قعدوا للمسلمين بمرصد ... وكم أفسدوا في سُبلها بالنهائبِ
يقولون سيروا إن ظفرتم بنهبة ... على رسلكم لا تحذروا درك طالبِ
وإن تسفكوا فيها الدماء فإنها ... لكم هدر لا تحذروا من معاقبِ
فقل لإمام المسلمين وسِرْ له ... بنفسك أو بلّغه مع كل راكبِ
وأنشده إن أحسستَ منه تثاقلاً ... إذا لم يسالمك الزمان فحاربِ
وشن على الأعراب غارة مُحنق ... وأنهلهم صاب الردى بالمصائبِ
ومزّق جماعات الضلال وحزبه ... بريح سموم من لظى الحرب حاصبِ
وجرّ عليهم جحفلاً بعد جحفلٍ ... وضيّق عليهم أرضهم بالمقانبِ
فإن أنت سالمت العدو مخافةً ... فأيسر ما تلقاه بول الثعالبِ[1]

وقال قصيدة أخرى في فيصل سنة ١٢٧٨هـ يمتدحه:

إذا أفسد الأعراب في أي موطن ... أغار عليهم بالجيوش وأنجدا
فلما بغت حرب على الناس واعتدوا ... رماهم بحرب منهم الشّمل بدّدا
وولّوا سراعاً هاربين كأنهم ... نعام تراهم في المفاوز شرّدا
فحسبك من أيام نصرٍ تتابعت ... على يده ذلّت بها سائرالعدى
وكفّت بها الأعراب عن سوء فعلهم ... ودان بها وانقاد من قد تمرّدا
فكم قد أخافوا السّبل من قبل غزوه ... وكم ريّس منهم أغار وأفسدا
فأضحوا عن المال النّفيس أعفّةً ... ولو نظروا في الطرق دُرًّا وعسجدا[2]

وله قصيدة ثالثة يهنئ فيصل بن تركي على انتصار ابنه عبدالله على الأعراب سنة ١٢٧٥هـ فقال:

قد سرّنا ما جاءنا من بشارة ... فزالت هموم النفس وانشرح الصدرُ
فصبّح قوما بالصبيحية اعتدوا ... وقادهم للبغي مَنْ شأنه الغدرُ
فروّى خدود المرهفات من الدّما ... كما قد روت منها المثقّفة السّمرُ
فغادر قتلى يعصبُ الطير حولها ... ويشبع منها النسر والذيب والنمرُ

(١) ديوان الإمام أحمد بن علي بن مشرف، اعتنى بالطبعة عبدالله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية، لبنان، غير مؤرخة، ص٢٣ - ٢٥.
(٢) المصدر السابق، ص٤٢ - ٤٣.

قبائل عجما ومنهم شوامر ومن لحسين ينتمون وما برّوا
وطائفة مرّيّة غير عذبة خلائقها بل كل أفعالها مرُّ
أساؤوا جميعا في الإمام ظنونهم فقالوا ضعيف الجند في حزمه حصرُ
نغيرُ على بلدانه ونخيفها ليعرفنا الوالي وينمو لنا الوفرُ
فإن لم نُصب ما قد أردنا فإنه صفوح عن الجاني ومن طبعه الصبرُ
وقد قسموا الأحساء جهلاً بزعمهم لعجمانها شطر وللخالدي شطرُ
كذبتم فهجر سورها الخيل والقنا ومن دونها ضرب القماحد والأسرُ
فقل للبوادي قد نكثتم عهودكم وذقتم وبال النكث وانكشف الأمرُ
ولا تبنِ للأعراب مجداً فإنهم كما قيل أوثان لها الهدم والكسر
إذا أودعوا النعماء لم يشكروا لها وإن رُمت نفعاً منهم أبداً ضرّوا(١)

وقال ابن مشرف بعد معارك أخرى مع الأعراب، مادحاً فيصل سنة ١٢٧٧هـ:

نقول لأعداء بنا قد تربّصوا عليكم أديرت سيئات الدوائرِ
ألم تنظروا ما أوقع الله ربنا بعجمانكم أهل الجدود العوائرِ
بأول هذا العام ثم بعجزة بأيام شهر الصوم إحدى الفواقرِ
إذا وردوا الأحساء يرعون خصبها وفي برّها نبت الرياض الزواهرِ
وكم أحسن الوالي إليهم ببذله وبالصفح عنهم في السنين الغوابرِ
وكم نعمة أسدى لهم بعد نعمة ولكنه أسدى إلى غير شاكرِ
ومن يصنع المعروف في غير أهله يلاقي كما لاقى مجير أم عامرِ
فمدوا يد الآمال للملك واقتفوا لكل خبيث ناكث العهد غادرِ
هموا حاولوا الأحسا ومن دون نيلها زوال الطّلى ضرباً وقطع الحناجرِ
فوافق في الوفرى جموعاً توافرت من البدو أمثال البحار الزواخر
سبيعاً وجيشاً من مطير عرمرماً ومن آل قطحان جموع الهواجر
فصبّح أصحاب المفساد والخنا بسمر القنا والمرهفات البواتر
فولّى العدا الأدبار إذ عاينوا الردّى بطعن وضرب والظُّبا والخناجر(٢)

---

(١) المصدر السابق، ص٥٩ - ٦٠.
(٢) المصدر السابق، ص٦٢ - ٦٣.

وبعد غارات بدوية سنة ١٢٧٦هـ، كتب ابن مشرف قصيدة استنهاض لفيصل جاء فيها:

قـومٌ مـن الأعـراب مـن جهلهم ... قد خرقوا الدين ودسـت الكمامْ
وقـطـعـوا السّبـل وعـاثـوا بها ... وحـلّـلوا سفك الـدمـاء الـحـرامْ
عـادات سـوء رضـعـوا ثديها ... فاستصعبوا بعد الرضاع الفطامْ
والـذئـب قـد يـعـدو عـلـى غـرّة ... فـي غـنـم الـراعـي لـهـا إذ ينامْ
يـا راكـبـاً مـن أرض هجر ضحى ... إن رُمـت نجداً فالرياض الإمـامْ
أنـخ قـلـوصـيـك لـدى قصرها ... وبـلّـغ الـوالـي أتـم الـسلامْ
وقـل لـه إن جـهـاد الـعـدا ... فـي ضمنه الـعـز ونـيـل الـمـرامْ
مـا جـرّد الـصـمـصـام ذو همّة ... عند اعـوجـاج الأمـر إلا انتقامْ
فـبـالأمـانـي لا يـنـال الـمنى ... لأنـهـا تـشـبـه حـلـم الـمـنـامْ
والـمـجـد لا يـدركـه مـولـع ... بلثمة الـحـسـنـاء ذات اللثامْ
فـثـب وثـوب الـلـيـث نـحـو العلا ... وبـادر الخصم بـسـلّ الحسامْ
وحـكّـم الـسـيـف بـمـن قـد عتا ... ينقاد للحق ألـدّ الـخـصـامْ[1]

وهناك قصائد أخرى كثيرة نكتفي بما نقلناه منها.

والسؤال هو: إذا كان الحكام السعوديون، ومع ما اشتهروا به من قسوة وقمع للبدو، لم يتمكنوا من إنهاء غوائلهم، فكيف بحكم الأتراك الذي لم يكن يعتمد على القوة العسكرية، وإنما على هيبة موهومة ثبت من خلال الاحتكاك أنها تخفي وراءها قصوراً وضعفاً؟

بل حتى ابن سعود نفسه لم يأمن شرور البادية، إلا بعد توطينها، وكان العجمان آخر من توطنوا -أو أُرغموا على الاستيطان في الهجر-، ومع ذلك قاموا بثوراتهم إبّان ثورة الإخوان وكانوا عماد قوتها، وكانت نهاية البادية الحقيقية في يناير ١٩٣٠، حينما تمّت تصفية الجيش السعودي (الإخوان) وإلى الأبد.

وقد حاول العجمان تدمير الحكم السعودي في الأحساء، بعد سنتين من سيطرة ابن

(١) المصدر السابق، ص١٢٩ - ١٣١.

سعود عليها، فقاتلوا الأخير وقتلوا أخاه سعداً، وجرحوه شخصيًّا، بل وحاصروه عدة أشهر في الهفوف.. ولذا لا يعتبر انفلات الأمن في الأحساء أواخر العهد التركي، سبّة عار للأتراك، ولا مبرّراً لحكم السعوديين، بل يجب الثناء على الأتراك لأنهم استطاعوا مدة ثلاثين عاماً.. حفظ الأمن، دون اللجوء إلى زيادة القوة العسكرية.. ولولا تدخلات ابن سعود والإنجليز، لما اختلّ الأمن في المنطقة، حتى في نهاية الحكم التركي، وسنوضح ذلك في الصفحات التالية.

الأمن في الأحساء ١٨٧١ - ١٩٠٢

وهي مدة ٣١ عاماً، نعمت المنطقة خلالها بالأمن والسلام، فانعكس ذلك على رخائها الاقتصادي، وانتعشت الحركة الثقافية والعلمية والأدبية فيها إلى حد كبير ومذهل... ولم تكن هناك حوادث ذات أهمية تخلّ بالأمن والنظام، رغم أن الإنجليز سعوا طوال تلك السنين إلى خلق المشاكل والتعرّض لهيبة الدولة العثمانية، إذ إن أطماعهم في السيطرة على الأحساء والقطيف قديمة.

ففي عام ١٨٢٣، كان لمقيمية بوشهر مقيم وطني في القطيف، وفي سنة ١٨٦٤ افتتحت أول وكالة تجارية تابعة لمواطني الهند -البريطانية- فيها، وقد تم ذلك في عهد السعوديين أنفسهم.. وحاول تجار الهند البريطانية في البحرين وباصرار تعزيز مراكزهم في القطيف بشكل خاص، وطالبوا بتعيين وكيل قنصلي بريطاني فيها.. ولمّا استولى العثمانيون على الأحساء شرع البريطانيون في عامي ١٨٧٣ و١٨٧٤، بمسح سواحل الأحساء، حيث أرسلت السفينة (كونستافس) لأجل تنفيذ مهمّة استعمارية بالدرجة الأساس[١].

لقد بادر الإنجليز إلى ممارسة شتى الضغوط على القوات التركية في الأحساء، سياسيًّا وعسكريًّا، واقتصاديًّا.. وقد رأينا كيف أنهم قاموا بمضاعفة الضرائب على البضائع المصدرة من البحرين إلى مينائي القطيف والعقير.. وحينما حاولت القبائل التعرّض للنظام وُوجهت بيد قامعة، لا سيما وأنها قد خرجت للتوّ جريحة من الحرب إلى

(١) ناصر الفرج، مصدر سابق، ص١٤ - ١٥.

جانب السعوديين الذين انتهى شأنهم، وقد ساعد في التخفيف من غلوائها، الأعطيات التركية التي تعوّضهم إلى حدّ ما عن النهب.

لهذا اتجهت هذه القبائل فيما بعد لمهاجمة رعايا الإنجليز من البحرانيين بوجه خاص، فبين عام ١٨٧٨ - ١٨٨٠، لمع اسم زيد بن محمد من قبيلة الهواجر كقرصان خطر، حيث استولى على القوارب والسفن التجارية، وأخذ يروّع بأعماله العدوانية الآمنين، وكان نشاطه متركزاً قبالة سواحل القطيف، معتمداً في ذلك على أتباعه من بني هاجر، وآل مرّة، وبعض أفراد قبيلة العجمان، بزعامة (منصور بن منيخر) الأمر الذي تسبب في تأزيم العلاقات بين بريطانيا والدولة العثمانية؛ لأن معظم السفن المنهوبة تخصّ البحرين، أو رعايا آخرين للإنجليز[1].

ويبدو أن الأتراك لم يكونوا مهتمين بالأمر، طالما أن القراصنة يوجهون اعتداءاتهم ضد الإنجليز ورعاياهم، ولعلهم رأوا أن هذه الأفعال تصبّ في صالحهم من حيث إنها تسبب المشاكل لأعدائهم، وتشغلهم عن التفكير في إقلاق المنطقة الأحسائية. لهذا كان التجاهل التركي للطلبات المتكررة بإيقاف القراصنة عند حدّهم واضحاً.. ووصل الأمر أن رفض والي البصرة -عبدالله باشا- العرض - البريطاني بتزويد السلطات العثمانية في الأحساء بقوات نظامية تقضي على قطاع الطرق!

تبع هذا أن قامت السفن البريطانية بين عامي ١٨٧٨ - ١٨٧٩ بالاقتراب من موانئ الأحساء والقطيف، وإزعاج الأهالي العاملين في صيد اللؤلؤ.. وفي عام ١٨٧٩ أسرت سفينة بريطانية سفينة أهلية، ثم ما لبث أن أصدرت السلطات البريطانية في عام ١٨٨١ لقائد بحريتها في الخليج بدخول مياه القطيف، وتعقّب السفن الأهلية، وألّا يتقيّد بمسألة السيادة العثمانية عليها[2].

وفي العامين ١٨٨٧ - ١٨٨٨ وحينما نشطت أعمال القرصنة، وتعرضت لسفن أهلية، قام قارب عثماني بتوجيه إنذار للمتمردين، وقامت الدولة العثمانية بإنشاء قاعدة عسكرية صغيرة في رأس تنورة لمراقبة الوضع، فتوقفت أعمال القرصنة، إلا تلك الموجهة لرعايا الإنجليز.. وفي العام التالي ١٨٨٩، أعطت السلطات البريطانية الضوء الأخضر

(١) الدكتور محمد عرابي نخلة، مصدر سابق، ص٢٠١.
(٢) العرب، دراسات في التاريخ الحديث المعاصر، الدكتور رأفت غنيمي الشيخ، ط ١٩٨٣، ص٤٩.

لزايد بن خليفة، حاكم أبو ظبي، ليغير على ميناء العقير بالاشتراك مع بعض أفراد قبيلة المرّة[1]، إلا أن الهجوم فشل، ولقّن الأتراك المهاجمين دروساً قاسية.

في هذه الأثناء كان الصراع بين آل خليفة في البحرين أثره في تأجيج القرصنة ضد الرعايا البريطانيين.. فقد خلف أحمد بن سلمان آل خليفة، وهو أحد أفراد الأسرة الحاكمة، وأمة من بني هاجر، خلف القرصان زيد بن محمد، وحشد جماعات من قبيلة أمّه لمهاجمة سفن البحرين نكاية بخصومه السياسيين، وقد احتجّت بريطانيا على ذلك، واضطرت في فترات لاحقة المعتمد البريطاني في البحرين (الكابتن بريدو) أن يقوم برحلتين شراعيتين، استغرقت كل واحدة أربعة أيام في عرض البحر، بحثاً عن ذلك القرصان، الذي حكم عليه العثمانيون غيابيًّا بالسجن مدة ١٥ عاماً وذلك عام ١٨٩٣.. ثم زار بريدو القطيف، وقدم للقائمقام العثماني احتجاجه على أعمال القرصنة. ويبدو أن السلطات البريطانية لم تكن مقتنعة بجدية الأتراك في القبض عليه، خاصة إذا علمنا أنهم قبضوا عليه، ولكنهم ادَّعوا أنه هرب من أيديهم[2].

وفي عام ١٨٩٦ جرت أحداث مقلقة في الكويت، انعكس منها القليل على الأحساء.. ففي ذلك العام قام مبارك الصباح بقتل أخويه، حاكم الكويت محمد، والآخر جراح، واستولى على السلطة. وكانت اليد البريطانية ظاهرة واضحة في عملية الاغتيال، ذلك أن الحاكم محمد رفض مراراً عروض التحالف البريطانية لمنع تمدّد النفوذ الألماني إلى الخليج عبر الخط الحديدي الذي كان مزمعاً إنشاؤه، وقد عرضت بريطانيا على حاكم الكويت سنة ١٨٩٥ التحالف، إلا أنه كان صادق الولاء للعثمانيين، مما أدّى إلى مقتله[3].

ورغم إرتياب الأتراك في أن عملية وصول مبارك إلى الحكم كانت إنجليزية، إلا أنهم تظاهروا بالحياد، وأصدروا فرماناً بتعيين مبارك قائمقاماً على الكويت، خوفاً من أن تكون مواجهتها له دافعاً لارتمائه أكثر في الأحضان الإنجليزية. لكن مبارك لم يبحث عن مبرر، ولم يهتم بالتملق العثماني، وراح يجري اتصالاته الصريحة مع غرماء الأتراك، وكانت عيون الأخيرين ترقبه من البصرة، فلوّحوا له بعصا التهديد، وحينها احتضنه

(١) كيلي، مصدر سابق، ص٣٩٥.
(٢) الدكتور محمد عرابي نخلة، مصدر سابق، ص٢٠٤.
(٣) خالد السعدون، مصدر سابق، ص٣٠.

الإنجليز، وهيؤوا أنفسهم لمساعدته، وأرسلت تركيا سفينة حربية لتهديده، فما كان منه إلا أن وقّع اتفاقية حماية في يناير ١٨٩٩، وحُسم الصراع لصالح الإنجليز[١].

ترتب على عملية اغتيال أمير الكويت وأخيه، أن قاد يوسف الإبراهيم «صهر المقتولين» ويدعم من أبناء المقتولين، المعارضة ضد حكم مبارك، حيث خرج الجميع من الكويت لقيادة تلك المعارضة من البصرة حيناً، ومن حائل والهند حيناً آخر، ومن قطر حيناً ثالثاً.

ففي ٢٩/ ١/ ١٣١٥هـ - ١٨٩٧، ذهب يوسف الإبراهيم والشيخ خالد بن الشيخ محمد الصباح إلى قطر للاستنجاد بالشيخ قاسم الذي يحمل عداء لمبارك، فقام الأخير بإعداد حملة بحرية لمجابهة حاكم الكويت، فعلم الأخير بالأمر، وكتب إلى صديقه متصرف الأحساء -سعيد باشا- شارحاً الأمر ومقدّماً الهدايا. وقد أرسل سعيد باشا إلى متسلّم البصرة محسن باشا -الذي أصبح صديقاً حميماً لمبارك- يوضح له نوايا قاسم من إثارة الفتنة ضد مبارك، حيث وصف الأخير بأنه مطيع للدولة!

لهذا سيّر محسن باشا قوة عسكرية حملتها الباخرة زحاف، ومعها السيد رجب النقيب، ومدير الأملاك السنيّة محمد علي، بغرض تهدئة قاسم، وقد نجحوا في ذلك.. ولما علم يوسف الإبراهيم أن متصرّف الأحساء سعيد باشا هو الذي أفشل الخطة، دعا إليه رجلاً من أهالي الجنوب، يقال له «عبد الرحمن بن سلامة»، وأعطاه أربعين بندقية، وخمسين كيساً من الأرز، ومقداراً من النقود، وطلب إليه إثارة قبائل المرّة والعجمان وبني هاجر ضد المتصرف[٢].

وفعلاً أثارت هذه القبائل الفتن واعتدت على إحدى القوافل، فأدبها سعيد باشا بحزم.

بعدئذ، قام يوسف الإبراهيم بإعداد مضبطتين وقعهما رؤساء جميع القبائل المحيطة بالأحساء، يشكون فيها جور المتصرف، ويعزون فيها أسباب إخلالهم بالأمن إلى عسف سعيد باشا وظلمه، وقد أرسل يوسف الإبراهيم نسخة من المضابط إلى مشير بغداد

(١) المصدر السابق، ص٣٢ - ٣٤.

(٢) عبد العزيز الرشيد، مصدر سابق، ص١٥٧ - ١٥٢. وانظر: الشيخ حسين خلف خزعل، مصدر سابق، ج٢، ص٢٥ - ٢٦.

والأخرى إلى محمد أنيس باشا في البصرة، غير أن مبارك استطاع مصادرة المضبطتين قبل وصولهما، وكتب إلى سعيد باشا يشرح له المكيدة مع أصل المضبطتين، فشكره سعيد على يقظته، وكان ذلك في صفر ١٣١٥هـ - ١٨٩٧[١].

وبعد أن وقع مبارك معاهدة الحماية مع بريطانيا في ١٨٩٩، استاء السلطان عبد الحميد كثيراً، وكتب محتجًّا في سبتمبر ١٨٩٩ إلى السفير البريطاني في عاصمته، بأنه لن يتنازل لأحد عن البصرة أو الكويت أو البحرين أو القطيف[٢].

ومعلوم أنه في نهاية القرن التاسع عشر، أصبحت السلطة البريطانية معززة قوية.. ففي البحرين كان آل خليفة يفقدون تدريجيًّا صلاحياتهم، حتى في الشؤون الداخلية، عدا مسألة إعلان الحرب ضد الأغلبية الشيعية في الجزيرة -السكان الأصليين- وقد سبق أن وقعت البحرين معاهدة حماية مع بريطانيا في عام ١٨٨٠، وفي عام ١٨٩٢ لحقت كل من أبو ظبي، ودبي، ورأس الخيمة، والشارقة، وعجمان، وأم القوين، بالركب.. وقبلهم جميعاً إلتحق حاكم مسقط، وبعدهم ألحق حاكم الكويت.. وفي عربستان كان هناك الشيخ خزعل، حامي الأملاك البريطانية.. وفي البصرة يوجد آل النقيب «رجب، ثم طالب» أصدقاء الإنجليز الذين سهّلوا فيما بعد احتلال البصرة رسميًّا!.. أما قطر، فقد كان الشيخ قاسم في نهاية القرن التاسع عشر أكثر قرباً -من الناحية العملية- للإنجليز منه إلى الأتراك -أصحاب السيادة الأسمية-. وهكذا لم تبقَ إلا الأحساء والقطيف، بعيدة عن متناولهم، فدفعوا بالقبائل لازعاجهما.

في عام ١٨٩٩ استولى بدو الهواجر على أموال تجار الأحساء، مما جعل سعيد باشا -المتصرّف- يهتم كثيراً للأمر هذه المرة -خلافاً للمرات السابقة- فأرسل قواته لمهاجمة الهواجر، واستولى على إبلهم وأسر عدداً من شيوخهم، ثم قام بدفع تعويضات لتجار الأحساء المتضررين، ولكنه لم يعوّض تجار البحرين، الأمر الذي أدّى إلى احتجاج البريطانيين[٣].

وفي أواخر عام ١٩٠٠ قام أفراد من قبيلة المرّة بقتل الشيخ سلمان بن دعيج آل

---

(١) عبد العزيز الرشيد، مصدر سابق، ص١٥٣.
(٢) خالد السعدون، مصدر سابق، ص٣٥.
(٣) الدكتور محمد عرابي نخلة، مصدر سابق، ص٢٠١ - ٢٠٣.

خليفة، بالقرب من مدينة القطيف، ونهب المهاجمون ممتلكاته.. ويبدو أن السلطات العثمانية لم تأبه للأمر، باعتبار أن آل خليفة أعداؤها.. ويومها طلب الإنجليز من الأتراك التحقيق في الأمر ومعاقبة القتلة ودفع الفدية، وحاولوا في السنوات الأربع اللاحقة الاستفادة من الحادث لصالح سياستهم الرامية إلى التدخل في شؤون الأحساء.

من جانبها، منعت الحكومة البريطانية شيخ البحرين من اتخاذ خطوات شخصية للحصول على الفدية، وحثته على انتظار نتائج التحقيق، وكان هدفها الرئيسي عدم إثارة مسألة السيادة على المناطق التي تقطنها قبائل بني مرّة.

وحين طرح «راتسلو» القنصل البريطاني في البصرة الأمر على والي البصرة، سمع منه الأعذار نفسها التي كان يبديها متصرّف الأحساء. وقال الوالي: إن لديه «أوامر دائمة وثابتة تقضي باعتبار البحرين من الممتلكات التركية، وأن يتجاهل حق الممثلين البريطانيين التحدث باسم شيخ البحرين»(١).

وفي أغسطس ١٩٠١، كتب المقيم السياسي البريطاني في بوشهر «كمبال» رسالة إلى حكومة الهند، يقول فيها:

«لقد مضى ما يقارب من الثمانية أشهر على وقوع الجريمة، ومما لا شك فيه أنه كان بإمكان السلطات التركية في الأحساء -لو أرادت- أن تحلّ هذه القضية حلًّا كليًّا أو جزئيًّا. ولذلك أقترح إرسال سفينة حربية إلى القطيف في أسرع وقت ممكن، وأن يؤمر قائدها بإبلاغ المسؤول التركي هناك بأنه جاء للاستفسار عن الخطوات التي تتخذ لمعاقبة مرتكبي الجريمة -جريمة مقتل سلمان بن دعيج آل خليفة-. فإذا أجاب المسؤول بأنه لا يعلم شيئاً عن الموضوع، فيطلب منه أن يحيل القضية إلى متصرّف الأحساء، الذي يتوجب على قائد السفينة انتظار جواب منه»!.

والهدف بالطبع من إرسال السفينة، هو استعراض العضلات، لهذا يتابع المقيم قائلاً:

«علمت أنه لم تزر سفينة حربية بريطانية القطيف منذ عدّة سنوات، وإن زيارة

---

(١) الوثيقة «FO .416/16» من راتسلو إلى السفير البريطاني في القسطنطينية، في التاسع والعشرين من يوليو ١٩٠١.

تقوم بها سفينة في هذا الوقت، ربما يكون لها أثر جيّد»[1]!.

وحتى أوائل عام ١٩٠٤ كانت السلطات البريطانية تستغل جاهدة الحادثة للتدخل، وربما لم يهدأ لها بال إلا بعد أن أبلغ وزير الداخلية التركي بريطانيا بأن القتلة قُتلوا في تصادم مع القوات الحكومية العثمانية في الأحساء، وبعد أن طلب من بريطانيا اعتبار الموضوع منتهياً.

فقد أرسل السفير البريطاني في القسطنطينية إلى وزير الخارجية في فبراير ١٩٠٤، معلقاً على حادثة مقتل الشيخ سلمان دعيج آل خليفة: «أن وزير الداخلية العثماني يجد نفسه مضطراً للتصريح بأنه من المستحيل في الظروف الحالية أن تتمكن السلطات الحصول من القبيلة التي ينتمي إليها القتلة على المبالغ التي يطالب بها شيخ البحرين دية، أو على قيمة الأملاك المنهوبة.. فالقبيلة انسحبت إلى داخل الصحراء بعيداً عن متناول السلطات».. وتابع السفير قوله: إنه «طبقاً لكلام وزير الداخلية، فإن قتالاً وقع بين القوات التركية، وبين ابن مكياره «Ben Mekiarih» ورفاقه، وجميعهم ينتمون إلى القبيلة المذنبة، ويعتقد اعتقاداً جازماً بأن جميع القتلة المفترض اشتراكهم في قتل الشيخ، قد لاقوا حتفهم في ذلك القتال. ثم طلب الوزير من حكومة صاحب الجلالة أن تعتبر هذا الموضوع بحكم المنتهي»[2].

وهكذا نرى أن الإخلال بالأمن في المراحل الأولى من حكم العثمانيين للأحساء، كان محدوداً وخارج الحواضر، والأهم من ذلك أنه كان موجّهاً للسلطات البريطانية ورعاياها.. لكن الأمور تغيرت بعد سيطرة ابن سعود على الرياض عام ١٩٠٢.

عودة السعوديين إلى الحكم

كانت وقعة «المليداء» سنة ١٣٠٨هـ، بين محمد بن عبدالله الرشيد وعبدالرحمن الفيصل، آخر معركة فاصلة وحاسمة للحرب الأهلية السعودية في نجد، حيث استولى ابن رشيد عل الرياض، بعد أن قتل من الجند السعودي حوالي ألف رجل، مما أثار سخطاً

(١) الوثيقة «FO .416/16» من المقيم كمبال إلى حكومة الهند في ١٢/ ٨/ ١٩٠١.
(٢) الوثيقة السابقة، رسالة من السفير البريطاني في القسطنطينية، رقم ١١٥، إلى وزارة الخارجية في ٢٣/ ٢/ ١٩٠٤.

كبيراً لدى النجديين خصوصاً أهالي القصيم، وكانت المعركة قد نشبت بسبب محاولة عبد الرحمن الفيصل التمدد خارج أسوار الرياض، للسيطرة على مناطق ابن الرشيد، رغم العهود والمواثيق الموقعة بين الطرفين.

وهرب عبد الرحمن الفيصل متجهاً شرقاً، وأراد الإقامة في الأحساء أو في جوارها، ولكن عاكف باشا متصرف الأحساء، رفض ذلك[١]، فأراد عبد الرحمن البقاء مع العجمان، إلا أن الأخيرين رفضوا ذلك، لن لجوءه إليهم يعدّ استفزازاً للعثمانيين.

واتصل عبد الرحمن بحاكم الكويت، ولكن الأخير أبى أن يقيم عنده، فارتحل بعد أن أرسل إلى البحرين عائلته، إلى قبيلة مرّة، ثم كتب لشيخ قطر فقبل أن يقيم معه لاجئاً، ثم ما لبث أن أمرت الدولة العثمانية الشيخ قاسم بإبعاده، وأخيراً كتب متصرف الأحساء للأمير السعودي يستدعيه، فبقي في الأحساء وعينه على الكويت، وبعد لأي طويل، وافق الأتراك على ترحيله إلى الكويت، وأن يعيش على راتب من الدولة العثمانية قيل إنه ٣٣ ليرة، أو ٦٠ ليرة سنويًا، وأوعزت الحكومة إلى ابن صباح بالموافقة فوافق[٢].

وتدعي بعض المصادر السعودية، أن متصرف الأحساء عرض عليه إمارة الرياض، وأن يدفع للدولة العثمانية ألف ليرة سنويًا، ولكنه رفض لأنه لا يقبل وصاية الأتراك!، ولكن هؤلاء يتناسون الراتب الذي راح يقبضه من العثمانيين بعد أن لجأ إلى الكويت، وظل يستلم ذلك الراتب حتى بعد احتلال ابنه للأحساء، أي حتى نهاية عهد الإمبراطورية العثمانية بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى.

غير أن جلال كشك يقدّم تفسيراً صحيحاً هو أن الأهالي والقبائل لم يكونوا يقبلونه، وقال عبد الرحمن: إن «القبائل صارت خائنة»[٣].

علي أيّة حال بقي آل سعود في الكويت حتى عام ١٩٠٢، وفي عام ١٩٠١ تعاونوا

(١) الزركلي، مصدر سابق، ص٦٤.

(٢) المصدر السابق، ص٦٧. وآل عبد لاقادر، مصدر سابق، ص١٨٠. وخالد السعدون، مصدر سابق، ص٤١ - ٤٢... إلخ.

(٣) السعوديون والحل الإسلامي، جلال كشك، وأشار الدكتور محمد عرابي نخلة إلى الأمير بلفظة أخرى، قائلاً: إن عبد الرحمن برّر رفضه «لعدم ثقته بإخلاص العشائر النجدية بعد أن لمع نجم ابن الرشيد». انظر ص١٩٨.

مع مبارك في قتال ابن الرشيد، فوقعت معركة الصريف التي هُزم فيها الجند الكويتي هزيمة نكراء، ولم يُوقف ابن الرشيد عن احتلال الكويت سوى نزول المدافع البريطانية عند الساحل الكويتي، وسوى أوامر والي البصرة محسن باشا الذي أصرّ على ابن الرشيد بالعودة.

في الكويت تعرف عبد العزيز وأبوه عبد الرحمن على الإنجليز ووثّقا صلتهما بهم، وكان مبارك قد قضى للتو على أخويه الحاكمين وقتلهما، ثم راح يغري السعوديين بالقيام بأعمال ضد ابن الرشيد، مستفيداً من وجود السعوديين في ضيافته، وذلك لتحقيق طموحه في حكم الجزيرة العربية، فاتفق السعوديون في الكويت مع قبائل المنتفق وقبائل أخرى مقيمة شمالي الكويت بغزو أراضٍ تابعة لابن الرشيد، وكانت كل الدلائل تشير بوضوح إلى أن الحاكم السعودي يرتكب تلك الأعمال متواطئاً مع شيخ الكويت[1].

ومن المعلوم أن مبارك كانت تربطه علاقة شخصية مع عبد العزيز، حيث يتفق المؤرخون أن مبارك علّم ابن السعود فن السياسة، وأن الكويت كانت له مدرسة[2]، ولا شك في أن عبد العزيز، ومنذ ذلك الحين، كان على علاقة مع الإنجليز، سواء عن طريق المقيم البريطاني في بوشهر، أو عن طريق مبارك الصباح نفسه، الذي كان يعتبر ابن سعود ولده، فيكتب إلى «ولدي»، في حين يرد عليه الولد إلى «والدي»!!

في نوفمبر ١٩٠١ ترك ابن سعود الكويت بعد أن تجهّز منها ومعه أربعون رجلاً -كما ينقل المؤرخون السعوديون- إلى الجنوب حيث الأحساء، وفي الطريق اجتذب عدداً من البدو الذين يميلون إلى النهب، واستطاع أن يغير على عدد من القبائل، وصارت بادية الأحساء مركزاً لتحركه للتشويش على الأتراك وابن رشيد معاً، ثم «لحق به طلّاب الكسب، وذاع الخبر بأن ابن سعود يغزو، وأقبلت جماعات آل مرّة وسبيع والسهول يحدو أكثرها الطمع بمغانم الغزو».

أغار عبد العزيز -ابن سعود- بهؤلاء على أبيات لقحطان من أعوان ابن رشيد فغنم وعاد إلى أطراف الأحساء، وفيها المتصرف، فتموّن وقصد جماعة آخرين من

(١) خالد السعدون، مصدر سابق، ص٤٧.

(٢) انظر المصدر السابق، ص٦٥، والإسلام والوثنية السعودية، لفهد القحطاني، ١٩٨٥، ص١٢. وأيضاً قلب جزيرة العرب، لفؤاد حمزة، مستشار الملك عبد العزيز، ص١٨. والزركلي، ص٧٠... إلخ.

قحطان، وهاجم فريقاً من مطير فساق بعض مواشيهم أمامه.. وتسامع البدو بخبر الغزو وتسارعوا يتبعون الظافر على عادتهم، فزاد عدد الغزاة مئات، ومركز الاستقرار والتموين جنوب الأحساء وداخلها[١].

كانت خطة مبارك الصباح تعتمد تشتيت قوة ابن رشيد، حتى لا يتفرّغ له وحده، وكانت الخطة إشغاله، فما كان منه إلا أن ضيّق على حاكم الكويت، وطلب من والي البصرة إبعاد ابن سعود عن بادية الأحساء، وشكا إلى الدولة العثمانية تراخي قبضتها على الأحساء.. كما طلب ابن لارشيد من ابن ثاني الكف عن دعم عبد العزيز. واستجابت الدولة لطلبه، وأصدرت أوامرها لمتصرف الأحساء بمنع ابن سعود من الامتياز، وهددت بقطع راتب أبيه عبد الرحمن الفيصل. وحين سمع البدو أن الدولة أعلنت عداءها لابن سعود، خافت وتفرقت عنه خشية أن تتعرض لسخط الدولة، وآثرت السلامة، وانفضّت عنه مسرعة، وكتب عبد الرحمن لابنه بالعودة إلى الكويت، وكذلك فعل مبارك[٢].

غادر عبد العزيز بادية الأحساء واتجه جنوباً إلى واحة يبرين، وهناك قرر القيام بانقلاب في الرياض واحتلالها.. وهكذا تم له الأمر في يناير ١٩٠٢، لتبدأ مرحلة حرجة من تاريخ الأحساء بعد فترة وجيزة.

كانت بريطانيا على علم مبكر بخروج ابن سعود من الكويت، وبرغم إعلان الحياد المصطنع، فإن انتصارات عبد العزيز كانت ستصبح مستحيلة دون ضمان بريطانيا لسلامة الكويت[٣]، ودون دعم مبارك الصباح لعبد العزيز. وقد شهدت وثيقة بريطانية لمبارك الصباح بالدور الذي كان يفعله فقالت: «أما مبارك الصباح فهو يدعم ابن سعود ويحرّضه بلؤم، ولم يكن الأخير ليستطيع عمل أي شيء تقريباً دون مساعدته»[٤].

وكان أول عمل قام به ابن سعود بعد احتلال الرياض، إرسال ناصر بن سعود

(١) الزركلي، المصدر السابق، ص٨٠ - ٨١. والبلاد العربية السعودية، لفؤاد حمزة، ص٢٠.

(٢) خالد السعدون، العلاقات بين نجد والكويت، ص٧٣. وفاسيليف، مصدر سابق، ص٢١٣. وقلب جزيرة العرب، ص٣٦٩. وأيضاً الزركلي ص٨١.

(٣) المصدر السابق، ص٧٦ - ٧٧.

(٤) وثيقة رقم ٣٩، مرسلة من أ.س. راتسلو، القنصل البريطاني في البصرة، إلى السير ن. أوكنور، سفير بريطانيا في القسطنطينية، مؤرخة في ٣١/ ٧/ ١٩٠٢.

إلى الكويت مبشّراً وطالباً المدد، فأرسلوا له مائة رجل وكمية من الذخائر.. وندرك قيمة الذخيرة إذا علمنا أن ابن سعود كسب خلال استيلائه على قلعة الرياض على مائتي بندقية فقط(1).

بل إن مبارك الصباح تبرع من نفسه ليكون ممثلاً لابن سعود لدى الإنجليز ولدى العثمانيين، فهو يقول للإنجليز: إن ابن سعود صاحبكم فادعموه، ويكتب لوالي البصرة أن يرسل للباب العالي طالباً منه الاعتراف بالأمر الواقع، وفي الوقت نفسه يحاول طمأنة الدولة العثمانية من ناحية ولاء ابن سعود لها، ليكسب دعمها أو حيادها على الأقل(2).

ومن ناحيته أعلن عبد العزيز، كما أبوه عبد الرحمن بأنه سيحكم الرياض باسم السلطان، وأنه خادم للدولة العليّة. وكتب عبد الرحمن إلى رجب النقيب، والد طالب النقيب: «ونحن في كل مكان وحال من الأحوال لا نزال بحول الله نؤدّي الخدمات لحضرة أمير المؤمنين، باذلين الجدّ والاجتهاد فيما يحصل به رضاه، منقادين إلى أوامر الدولة العليّة...» إلخ(3).

والحقيقة أن آل سعود أُعجبوا بطريقة مبارك في إدارة تحالفاته الخارجية، وخاصة مع الإنجليز، وقد لمس ابن سعود بنفسه مدى النفوذ البريطاني وتفوقه على الدولة العثمانية، مما جعله يتجه مبكّراً إلى الاستعانة بالتأييد البريطاني(4).

على أن السعوديين فكّروا بالاستعانة بالإنجليز حتى قبل أن يصطدموا بالعثمانيين، وأمامنا رسالة عبد الرحمن الفيصل التي بعث بها من الكويت إلى المقيم البريطاني في بوشهر المستر «كمبال»، وقد تسلّم الأخير الرسالة -كما يقول هو- في ١٢/ ٥/ ١٩٠٢، أما تاريخ كتابتها فهو ٥/ ٢/ ١٣٢٠هـ.. تقول الرسالة نصًّا:

«بعد التحيّات.. لا رغبة لي في التطلّع إلى أحد سواك، وذلك بسبب أفضالك وحمايتك التي تشمل بها كل أولئك الذين يضعون أنفسهم تحت أنظاركم، وإنني أتمنّى أن تبقى عيون حكومتكم دائمة النظر إليّ.

(1) خالد السعدون، مصدر سابق، ص٧٥.
(2) المصدر السابق، ص٧٥.
(3) عبد العزيز الرشيد، مصدر سابق، ص١٧٩.
(4) صلاح العقاد، مصدر سابق، ص١٩٠.

أود أن أخبرك عن القنصل الروسي في بوشهر، الذي أتى إليّ حيث أقيم في الوقت الحالي، وأتى إليّ وطلب مني أن أكتب له رسالة تصف سوء المعاملة التي تلقيتها على يد الأتراك[1]، والمساعدات التي قدّموها إلى ابن رشيد للعمل ضدّي. ولم أجد من المناسب أن أتوجّه إلى غير حكومتكم.. وإنني أرجو من حكومتكم الكريمة أن تعتبرني واحداً من محسوبينكم»[2].. وشرح كمبال لحكومة الهند معنى «محسوبينكم» التي كتبها بحروف لاتينية، بأنها تعني المشمولين بحماية الحكومة البريطانية.

الوضع الأمني في الأحساء والقطيف ١٩٠٢ - ١٩١٣

تركزّ وجهة النظر السعودية على مسألة اضطراب الأمن في الأحساء، وكيف أن البدو ينهبون المارّة ويقتلون الآمنين، بل ويبيعون منهوباتهم على الأهالي المنهوبين وأمام أعينهم.

ثم تتحدث الروايات السعودية، عن شكوى الأهالي من اضطراب الأمن إلى المتصرف في الأحساء، أو الوالي في البصرة، ولكن الحكومة التركية لم تستطع إيقاف الاضطراب، وهذا صحيح.

بعد ذلك تشير الروايات، إلى دور «المنقذ» ابن سعود، وكيف أن الأهالي هم الذين طلبوا منه أن ينقذهم مما هم فيه، وليعيد إليهم الأمن المسلوب.

وهكذا فالروايات محبوكة بصورة جيدة، ولكن علينا أن نجيب عن سؤالين هامين، هما: من الذي كان يشجّع على انفلات الأمن في المنطقة، ثم من الذي دعا ابن سعود من أهالي الأحساء؟

إننا نلاحظ أن القاعدة التي اعتمدت عليها الروايات السعودية هي «اضطراب الأمن» فلنبحث عن دور ابن سعود والإنجليز في إشعال ذلك الاضطراب، أما المسائل الأخرى فسنجيب عنها في موقع آخر.

---

(١) والرجل لا يزال يستلم راتباً من الأتراك!
(٢) شيوعيون في السعودية، ص٦٣. وانظر: عبد العزيز الرشيد، مصدر سابق، ١٧٩ - ١٨٠. والدكتور محمد عرابي نخلة، ص٢٢٨ - ٢٢٩. وأيضاً: التطور السياسي لقطر، عبد العزيز محمد منصور، ص٢٠١.

جهتان كانتا وراء الفتنة والإخلال بالأمن: الإنجليز وابن سعود.. وكان الطرفان يدعمان القبائل البدوية ويعيناها على إشعال الفتنة، وكان لكلا الطرفين جواسيسه ومخبروه من النجديين المقيمين في الأحساء، وكلاهما كان يرقب الوضع السياسي والأمني في المنطقة لاستثماره.

وكان العجمان -حلفاء ابن سعود وأبيه عبد الرحمن وعمه سعود- وكذلك آل مرّة، يسعون للنهب، ولم يكونوا يريدون غيره، كما لم يفهموا كامل المخطط إلا بعد احتلال الأحساء، وحينها وقفوا معارضين لابن سعود، فصفّاهم بشكل دموي.

فور احتلاله للرياض، وثّق الحاكم السعودي تحالفه مع القبائل البدوية في المنطقة، وشجّعها على مهاجمة القرى والحواضر ونهبها وحرقها، لتحقيق هدفين أساسيين:

الأول: إضعاف هيبة الأتراك لدى الأهالي.

الثاني: دفع الأهالي لقبول حكمه والتعاون معه في طرد الأتراك.

ولئن حقّق ابن سعود هدفه الأول، فإن هدفه الثاني لم يحصل عليه، رغم إلحاح مجموعة النجديين المقيمين في محلّتي الرفعة والنعاثل بالهفوف، حيث «أخذت رسل في الخفاء الرسائل السرية لابن سعود تخبره فيها عن الأوضاع الداخلية، وعن مدى استعدادات الأتراك هناك، وعن مدى إمكانية نجاحه إذا حاول استرداد المنطقة» كما يقول كاتب سعودي[1].

وهذا اعتراف واضح بأن النجدين -رغم قلتهم- كانوا أداة للتجسس والتحريض. ونقول النجديين؛ لأن العوائل التي دعمت ابن سعود وراسلته ودعته للاحتلال، هي عوائل نجدية الأصل، وهابية المذهب -في الأغلب-.

ويرى الكاتب السعودي المذكور، أن من مقدمات احتلال ابن سعود للأحساء: «أنه استطاع كسب جماعة من قبائل العجمان التي أخذت تهاجم القوات العثمانية[2] في

---

(١) دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، مصدر سابق، ص١٢٢.

(٢) في الواقع كان هجومها مركزاً على الأهالي، وقد أراد المؤلف أن يصبغ عملية النهب بصبغة معارضة مسلحة وسياسية ضد الأتراك.

الأحساء بين الحين والآخر، وهذه الغزوات[١] أحدثت بلبلة وفوضى في المنطقة، زادت الطين بلة بالنسبة للاستراتيجية العثمانية[٢].

وأشار المؤلف إلى أن بريطانيا كانت توزّع السلاح على القبائل البدوية هبة مجانية لتعمل على مناهضة الحكم العثماني وخربطة الأمن «وبهذا الأسلوب، فإن بريطانيا كانت تعمل على إثارة الفتن، وأعمال الشغب والاضطراب في المناطق الخليجية الواقعة تحت السيادة العثمانية -أي الأحساء والقيطف- وهذا الإجراء كان عاملاً من العوامل التي أضعفت مركز الاستراتيجية العثمانية في الأحساء، وكان همّ بريطانيا أن تخرج الدولة العثمانية من مناطق الخليج والعراق»[٣].

وأشار المؤلف في بحث آخر إلى أن بريطانيا والقوى الوطنية المجاورة «ويقصد ابن سعود» قامت بمحاولات تشويش وتشجيع القبائل على الثورة ضد الأتراك، وأن شيوخ القبائل كانوا يتقاضون أموالاً من الإنجليز، أصحاب السلطة في الخليج، ومن العثمانيين أيضاً[٤].. ومعلوم لدينا أن عطايا الأتراك كان لضمان هدوء القبائل البدوية، أما عطايا الإنجليز فتهدف عكس ذلك.

وهكذا رأت القبائل البدوية، كم هي فرصة ثمينة للنهب، خاصة وأن السلاح يُدفع بالمجان، فبادرت بالهجوم وتهديد القوافل التجارية، ونهب السكان غير مرة، بل ومحاصرة القطيف أكثر من ستة أشهر، وحرق قرى بأكملها، وغير ذلك من الأفعال.. هذه هي الأفعال التي سمّاها الكتّاب السعوديون بـ«الحركات الاجتماعية»! وهذا هو «الكفاح المسلّح»! لأهالي الأحساء ضد دولة الخلافة!

لقد وعى الأتراك، وابن رشيد، والحاج منصور باشا بن جمعة -زعيم شيعة القطيف-، وعوا مبكراً ما تفعله الأيدي المحرّكة للاضطرابات، لكن ضعف الأتراك العام، وسدّ الإنجليز الطريق أمامهم لم يمكّنهم من ترتيب أوضاعهم إزاء الأخطار الجديدة الناشئة.

---

(١) أيضاً العبارة مهذبة، وكان يجب أن يوضح أنها عمليات سطو ونهب.

(٢) دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، ص١٢٢.

(٣) المصدر السابق، ص١٢٠.

(٤) الإصلاح الاجتماعي، ص٥٤، ٦٩، ٦٧.

تنبّه ابن رشيد في وقت مبكر إلى محاولات التسلّل البريطاني للأحساء، والذي ترافق وتناسق مع محاولات ابن سعود في إثارة القبائل البدوية.. وكل الوثائق التي بين أيدينا تشير إلى أن ابن سعود وبعد أقلّ من شهرين من احتلاله للرياض، بدأ يظهر أطماعه في الأحساء.

كان ابن رشيد -حاكم حائل وأغلب مدن نجد- أوّل من تنبّه إلى خطوات ابن سعود، فأرسل إلى الوالي التركي في الأحساء يبلغه ويحذره من الثلاثي «الإنجليز - مبارك الصباح - ابن سعود».. ثم ما لبث أن أرسل إلى السلطان العثماني رسالة يشرح فيها الأخطار المحدقة بالأحساء، وأن الإنجليز يستعدّون لاحتلالها.. إلا أنه لم يلقَ التجاوب المطلوب، لعجز وقصور في السلطة العثمانية نفسها، والتي وافتها أخبار أخرى تؤكد المسألة.

اعتماداً على الوثائق البريطانية، فإن ابن رشيد تنبّه إلى أن ابن سعود بدأ بتوطيد علاقاته مع الأقلية النجدية الوهابية المقيمة في الأحساء، وأنه يستخدمهم لتأليب السكان والرأي العام المحلي ضد الأتراك، ورأى من جهة أخرى أنه قد عقد تحالفات جديدة مع العجمان وآل مرّة، وأخذ يدفعهم لمهاجمة الحضر، ليكون اختلال الأمن الحجة والمبرر للاحتلال.

أرسل ابن رشيد مبعوثاً للوالي التركي في الأحساء اسمه «سعد الحازمي» ليطّلع على الأوضاع هناك، فعاد هذا الأخير وأبلغ ابن رشيد بأفعال الجماعة النجدية، واقترح اعتقال مجموعة من المتعاونين مع ابن سعود، كانت ذلك بعد شهرين من احتلال الرياض فقط، أي في أواخر فبراير -أو بداية مارس-، أما الأشخاص الذين نصح باعتقالهم فهم:

«محمد بن عبدالله حسين، إبراهيم بن طوق، مساعد بن عبد المحسن السويلم، وإبراهيم بن سيف».. ولم ينسَ الإنجليزي أن يشير إليهم بالقول: «وكلهم من مواطني الرياض المقيمين في الأحساء، ومن أشد المتحمسين والمرتبطين بعائلة آل سعود»[1].

ولما كان من الصعب على والي الأحساء قبول رأي ابن رشيد «فقد كتب الأمير -ابن رشيد- إلى والي البصرة حول الموضوع، وبناء على ذلك أصدر هذا الوالي إلى متصرف الأحساء، بأن ينفذ رغبة سعد الحازمي.. وهكذا تم القبض على ثلاثة منهم

---

(١) وثيقة رقم ٦٤، من ج. س. فاسكن، مساعد المعتمد السياسي في البحرين إلى المقيم السياسي في بوشهر، بتاريخ ٢٩ مارس ١٩٠٢.

مؤخراً -مارس ١٩٠٢- في حين تمكّن إبراهيم بن سيف من الهرب بمساعدة أحمد بن عبدالله بن ملحم، وهو أحد أبناء الأحساء[1]. حيث رافقته مجموعة حماية إلى مكان أمين. وكانت المجموعة مؤلفة من ١٦ رجلاً من رجال قبيلة المرّة، حيث أوصلوه بأمان إلى منطقة الحسين، الواقعة على بعد ثمانية أميال جنوبي القطيف، ومن هناك قدم إلى البحرين يوم ٢٦ مارس، على ظهر قارب أرسله له خصيصاً الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الذي أخبر بموعد اقترابه عن طريق أحمد عبدالله الملحم، حيث طلب الأخير من الشيخ محمد بن عبد الوهاب أن يهيئ الترتيبات اللازمة لنقله سالماً إلى البحرين».

وما كاد إبراهيم بن سيف يصل إلى البحرين، حتى أُعدّ له لقاء مع المعتمد السياسي البريطاني هناك، ليعرف منه آخر الأخبار، وقد أبلغ إبراهيم المعتمد بسيطرة ابن سعود على جنوب نجد -وهو غير صحيح يومئذ-، وأضاف أن البدو انضموا لابن سعود. ومن الأخبار التي نقلها للمعتمد، أنه «وبناء على طلب من عبد العزيز آل سعود، فقد نفذ البدو عملية اغتيال لعبدالله بن إبراهيم بن عبد الرحمن، الذي كان والده أحد كبار موظفي الأمير -ابن رشيد-، حيث كان ذلك الشخص موجوداً بين البدو لشراء الأغنام والماعز»[2].

في الفترة ذاتها -مارس ١٩٠٢- أرسل ابن الرشيد رسالة إلى رئيس الوزراء العثماني في ٢١ ذي القعدة ١٣١٩هـ أي بعد شهر ونصف من احتلال الرياض.. يشرح له الأحوال السياسية ببراعة، ولكن رُسُل ابن الرشيد أطلعوا أحد الموظفين الإنجليز عليها، قل أن يسلموها إلى «الصدر الأعظم»!![3].

---

(١) آل ملحم ليسوا أحسائيين أصلًا، فقد نزحوا من الجزعة قرب الرياض، وسكنوا محلّة النعاثل في الهفوف، وكان استيطانهم للأحساء حديثاً. انظر: آل عبد القادر، مصدر سابق، ص٣٤.

(٢) الوثيقة السابقة.

(٣) انظر الوثيقة رقم ٢٨٢، تاريخ ١٧/ ٦/ ١٩٠٢، مرسلة من م. دي. هنسن إلى الماركيز لاندزون، وزارة الخارجية، لندن.

ويقول المرسل: «انقلت إليّ رسالة باللغة العربية، صادرة عن أمير نجد -ابن رشد- ومرسلة إلى الوزير التركي الأعظم، لي الشرف أن أرفق ترجمتها مع هذه الرسالة. وقد أطلعت عليها بشكل سري، وعلى أساس الثقة بأنها ستبقى هي والذي أطلعني عليها في طي الكتمان. الرسالة تتهم الإنجليز بأنهم يسعون بمساعدة ودعم من شيخ الكويت إلى فرض سيطرتهم على أجزاء من شبه الجزيرة، وهي الأجزاء التي تشرف وتسيطر عليها الحكومة التركية في الأحساء والقطيف. ويحذر أمير نجد تركيا من عواقب المكائد والدسائس البريطانية. الرسالة مهمة إلى حد ما؛ لأنها تفضح أحد المصادر التي تغذي شكوك السلطان فيما يتعلق بسياسة إنجلترا في شبه الجزيرة العربية والخليج الفارسي»!

نضع أمام القارئ نص الرسالة المترجم من الإنجليزية لأهميته:

«٢١ ذي القعدة ١٣١٩، ١ مارس ١٩٠٢.

إلى الوزير الأعظم.

بعد السلام والدعاء للسلطان بالتوفيق.

تعلمون سموّكم بالقضية التي أخبرناكم بأساسها، ولا يخفى عليكم ما حدث نتيجة مؤامرات ودسائس ذلك الوغد النذل مبارك الصباح بالاشتراك مع الحكومة البريطانية، وانقضاض هذه الأخيرة على الكويت[١].

كما تعلمون أن الكويت نقطة هامة، فهي مفتاح العراق، وحتى جزيرة العرب كلها، وقد تكون نتائج وعواقب سيطرة بريطانيا على الكويت فادحة الخطورة على الأمة الإسلامية؛ لأن الحكومة البريطانية نفذت مخطاتها، وقد حققت بعض المكاسب الهامة، والكثير من مخططاتها أصبحت مكشوفة، ونياتها مفضوحة تهدف إلى الاستيلاء على تلك الأجزاء من الساحل والتي تشرف على الأحساء، وكذلك السيطرة على الأحساء والقطيف، كما وتهدف إلى إقامة علاقة وثيقة مع العرب عن طريق مبارك وابن سعود.

ولقد حذّرت الحكومة الإمبراطورية «العثمانية» من أن هذه المسألة قد يكون لها عواقبها الخطيرة والوخيمة، وتتطلب الحذر والانتباه.

أنتم تعلمون كيف بدأت هذه القضية، فلقد خُدِع محسن باشا وغُرّر به.. وإننا لم نتوقف عن التنبيه إلى خطورة هذه المسألة خوفاً من العواقب.. وإني إذ أسمح لنفسي بوضع هذه القضية أمامكم وأطلعكم عليها، لأعلم علم اليقين أنكم الناصح والمستشار الأمين للإمبراطورية وللأمة، وأنكم ستحيطون جلالة السلطان علماً بها، حفظه الله وقوّاه ونصره على أمم الكفار، وأعاننا به، وأعانا بمشهورة ونصيحة ورأي سموّكم، وإنني أدعو الله بألّا تنسونا، وأن تهتموا بأمرنا.

صديقكم/ عبد العزيز الرشيد

أمير نجد»[٢].

---

(١) يشير ابن الرشيد هنا إلى ما تلا معركة الصريف «١٩٠١» وهزيمته لابن الصباح، مما أدّى إلى تدخل الإنجليز، وكيف أن والي البصرة محسن باشا -صديق مبارك- ميّع الموقف الحاسم لإنهاء حكم آل صباح.

(٢) انظر مقتطفاً من الرسالة في: قيام العرش السعودي، ناصر الفرج، ص٣٤.

إنّ محتوى الرسالة وتوقيتها، يدلّ -كما قلنا- على وعي مبكر بمجريات السياسية البريطانية في الخليج، ومحاولاتها احتلال ما تبقّى من الشريط الساحلي العربي. ولم يكن ابن رشيد يعدّ ما جرى من احتلال الرياض عملية منفصلة عن المخطط البريطاني الكبير، حيث التحالف الثلاثي، بريطانيا - مبارك - ابن سعود، والهادف إلى تمزيق النفوذ العثماني وإنهائه بشكل مباشر، كما جرى في عمان والبحرين وغيرهما، أو عن طريق واجهات محلية، كابن صباح وابن سعود والشيخ خزعل.

وابن رشيد ركز في حربه الإعلامية مع ابن سعود على أن الأخير عميل للكفار، وأن قوته ليست ذاتية وإنما تأتيه من مبارك الصباح والإنجليز، لذا كان بحاجة إلى إضعاف ركيزة الإنجليز بالتعاون مع الدولة العثمانية، وإلا فإن الخطر الذي يتهدد حكمه سيتصاعد.

وقد كتب القنصل البريطاني في البصرة في الحادي والثلاثين من يوليو ١٩٠٢، إلى السفير البريطاني في القسطنطينية «اوكنور» أن ابن رشيد «حاول عزل واستمالة بعض القبائل التي انضمت إلى ابن سعود، وذلك بإعلان أن هذا الأخير ما هو إلا أداة في أيدي الكفار الإنجليز، وأن من واجب كل مسلم صادق أن يتخلى عنه».

بالنسبة للأتراك فإنهم بدؤوا وبعد استيلاء ابن سعود على الرياض بتدعيم حامياتهم في المنطقة خوفاً عليها، في حين كان الإنجليز يرقبون الوضع من خلال مخبريهم.. وتنقل وثيقة بريطانية صورة عن ضع القوات التركية في الأحساء وقطر والقطيف بعد شهرين من احتلال ابن سعود للرياض، عبر ما كتبه ج. س. فاسكن، مساعد المعتمد السياسي البريطاني في البحرين، إلى المقيم السياسي البريطاني في بوشهر س.أ. كمبال، اعتماداً على أقوال مخبر سري وصله يوم ٢٧/ ٣/ ١٩٠٢ من قطر، وقال: إنه يثق به.. قال: «إن قائد الحامية التركية في البيضا «بقطر» قال في حديث أمام جمع كان المخبر أحدهم، بأن السلطات التركية تنوي زيادة أفراد الحامية الموجودة هناك في فترة قريبة.. وأن مناشدة القائد لأهالي البصرة والأحساء للتبرّع بالأموال لسداد نفقات رواتب وإعاشة القوات الموجودة تحت إمرته لم تلقَ أي تجاوب، وأنه اضطر أن يأخذ قرضاً بمبلغ أربعة آلاف دولار أسترالي من الشيخ أحمد بن ثاني ليرضي قواته به، وأنه كحلّ أخير أرسل أمين صندوق الحامية إلى الأحساء لجمع الأموال من أهلها».

ولم تكـن محاولـة الأتراك في زيادة أفراد حامياتهم، ناشـئة من فراغ، فهم يشـعرون بضغط التدخل الأجنبي، كما لم يكن صعباً عليهم زيادة جندهم، فالمشاكل لم تضخمّ بعد، كما حدث بعد سـنوات واضطروا إلى سـحب العديد من قواتهم -رغم ضعفها وقلّتها- لمواجهـة الإيطاليـين الذين احتلوا ليبيا عام ١٩١٢، وقبلهـا لمواجهة اضطرابات البلقان عام ١٩١١.

لكـن ما تميّـز به الحكم التركـي من فسـاد في الإدارة، المُرافق للضعف العسـكري والمالي، هو الذي يجعل إمبراطورية بحجم الدولة العثمانية عاجزة عن سداد رواتب بضع مئات من جنودها -على أكثر تقدير-.

والملاحظ أنه في الفترة نفسها، أي عام ١٩٠٢، عينت الدولة طالب النقيب متصرفاً على الأحسـاء، وذلك بهـدف إخضاع العشـائر والفتن والثورات التـي كانت تهدف إلى سلخ الأحساء من جسم الدولة.

أمـا ابـن جمعـة «منصور باشـا»، فلـه مواقـف مشرّفة في مجابهـة الأطـماع الأجنبية البريطانية، حينما حاولت بريطانيا تكوين إمارة محلية في القطيف والأحساء تحت رئاسته.. وكات الخطوة الأولى تشجيعه على الانفصال، ليتم فيما بعد تقديم الحماية للإمارة الوليدة، وبسط الهيمنة عليها.

والمعلوم أن عروضاً من هذا القبيل كانت قد تمّت قبل نهاية القرن التاسـع عشر.. ففي عام ١٨٩٩، مثلاً زار المعتمد السياسي في البحرين، الباشا منصور بن جمعة، وعرض عليه المسـاعدة على الاسـتقلال، وتقديم الحماية ضد أي إجراء عسكري، قد تتخذه تركيا «ولكن منصور باشا، وبوازع من الحميّة الدينيّة، ووفاء للدولة الإسلامية، رفض العرض البريطاني جملة وتفصيلاً. وقد نُمي إلى علم السلطان عبد الحميد أمر هذه المحاولة ورفض ابن جمعة قبولها، فأنعم عليه برتبة الباشوية»[1].

وحاول ابن جمعة من جانب آخر تقوية الحاميات التركية في المنطقة، وألحَّ في طلب زيـادة الأفـراد، حيث بـدأت الحكومـة يومئذ بإرسـال بعض منها تحت ضغط لالحاح، وذلـك في النصـف الأول من عام ١٩٠٢، مع أن الإنجليـز احتجوا على ذلك، وحاولوا

(١) المصدر السابق، ص١٥.

منع وصول التدعيمات.

وهكذا أرسل العثمانيون بعض الأفراد إلى جزيرة بوبيان، وأم قصر وغيرهما، وأرسلوا آخرين عن طريق البحر إلى القطيف والعقير والدوحة، كما دُعِّم الوجود العثماني في جزيرة العماير في خليج المسلّمية، شمال القطيف بنحو سبعين ميلاً.. وكتب مبارك الصباح إلى المقيم السياسي البريطاني في بوشهر المستر كمبال، في العاشر من محرم ١٣٢٠، الموافق للتاسع عشر من أبريل ١٩٠٢، يخبره بأمر القوّات التركية.. يقول في جاب من رسالته:

«في هذه الأيام بعث الأتراك من القطيف، ثلاثين جنديًا برفقة بن جمعة إلى جزيرة العماير، لأجل أن يبقى الجنود هناك، ولكن السكان لم يسمحوا لهم بالبقاء[1]، لذلك عاد الجنود إلى القطيف، وبعدئذ أقاموا مع ابن وهب في دارين»[2].

وأخبر ابن صباح المستر كمبال، بأن الجنود الأتراك حاولوا إثارة القبائل ضدّه هو، ولكنها لم تفعل شيئاً.. وقال: إن الجنود المزمع إرسالهم جنوباً، لا يزالون في بوبيان وصفوان وأم قصر، وأن أحد رجال ابن رشيد معهم في صفوان.

وسجل كمبال في مذكراته أن الأتراك وضعوا قواتهم في العماير في الأسبوع المنتهي في الرابع عشر من أبريل ١٩٠٢، وقد بعث بهذه المعلومة لحكومة الهند ضمن رسالة بتاريخ ٢٦/ ٤/ ١٩٠٢[3].

وفي عام ١٩٠٥، قامت بريطانيا بمحاولة أخرى لإقناع ابن جمعة وزعماء الشيعة الآخرين بتكوين إمارة خاصة لهم تحت الحماية البريطانية، وقُدّم العرض هذه المرة إلى المرحوم حسين بن نصر، عمدة مدينة سيهات، ولكنه رفض العرض البريطاني، وأحاله إلى زعيم القطيف الكبير ابن جمعة، الذي أكّد رفضه للمرة الثانية وللأسباب ذاتها التي رفض بسببها العرض السابق[4].

ومرة ثالثة في سنة ١٩٠٧، تولّى المحاولة المقيم البريطاني في الخليج نفسه، السير

(١) الثابت أنه كان للأتراك حامية هناك وكانت على جانب من القوة.

(٢) انظر الوثيقة «FO .78/5252».

(٣) الوثيقة السابقة... من الليفتانت كولونيل كمبال، إلى هـ. س. بارنز، حكومة الهند في سميلا.

(٤) قيام العرش السعودي، مصدر سابق، ص١٥.

بيرسي كوكس، الذي نزل ضيفاً على منصور بن جمعة في قصره المسمى بقصر الدرويشيّة بالقطيف، وطلب منه الموافقة على مساعدة بريطانيا له للاستقلال بالأحساء والقطيف، دون التقيّد بمعاهدة حماية بريطانية، ولكن منصور أصرّ على أن شعوره الديني وحده، يمنعه من التنكّر للدولة الإسلامية، وليس الحاجة للمعونة العسكرية أو الحماية[1].

ما كان ابن جمعة واهماً ليحصل على استقلال دون حماية، فالاستقلال يعني محاربة دولة الخلافة، ومحاربة دولة الخلافة تعني الحاجة إلى استناد إلى حليف قوي في المنطقة، وليس هناك غير الإنجليز.. وقد نظر رجال الدين وابن جمعة إلى الأمر من مزاوية الاختيار بين حكم فاسد، وبين حكم فاسد وكافر أيضاً، ونعني به حكم الإنجليز، فاختار الشيعة الأول، واختار آخرون الإنجليز، كما حدث بالنسبة لابن سعود ولوجهاء البصرة من آل النقيب، وكما حدث لأمراء الكويت وغيرهم.

ولئن كان مبارك الصباح، وأشباهه قد قبلوا حكم الإنجليز ورفضوا حكم الأتراك، فإن الشيعة في القطيف لم يقبلوا ذلك انطلاقاً من القاعدة الدينية التي توجب الدفاع عن حرمة ديار الإسلام.. وليس الدفاع عن الحكم التركي.. ولو قبل الشيعة يومها الحماية الإنجليزية، لكن بيدهم اليوم أغنى دولة في العالم، ولكن على حساب الدين والمبدأ!

قد يقال: إن الشيعة في المنطقة كانت تنقصهم المعرفة والوعي السياسيين، وأن رفضهم العروض الإنجليزية دليل على ذلك.. إذ لو قبلوا لما عاشوا بعد ذلك وإلى يومهم هذا في محن سوداء يترى بعضها بعضاً.. ولما كانوا مواطنين من الدرجة الثانية، ولما كانوا -رغم أن بلادهم مصدر الخير والعطاء في الزراعة والنفط- أفقر السكان، ولما انتهكت حقوقهم كمسلمين وكبشر!

نعم.. قد يكون ذلك صحيحاً، فالألاعيب السياسية لم يكن الشيعة بالأمس، ولا اليوم يهوونها، ليس في الأحساء والقطيف فحسب، بل وفي كل مكان. وهم رغم ثوراتهم التي لا تعرف الكلل والملل ضد الأنظمة الفاسدة، يعرفون هذه الألاعيب، ولكنهم يأنفون من ممارستها، لذلك فإن ثوراتهم تُسرق في كل مكان، لا لجهل -في الغالب- وإنما ترفّعاً عن ممارسات مناقضة للشرع.

---

(١) المصدر السابق.

غير أن هذا لا ينبغي أن يُنسينا أن زعماء الشيعة في المنطقة ضيعوا فرصاً كبيرة في تسلّم زمام أمورهم بأنفسهم، وكانت الأوضاع الدولية مهيّأة لذلك، فلم يستثمروها، أو يعدّوا أنفسهم لاستثمارها، دون الخروج عن إطار الشرعية الدينية.

مهما يكن من أمر، فقد أعيت بريطانيا الحيلة في الحصول على واجهة وطنية تبرّر تدخلها المباشر في ساحل الأحساء، فأرسلت سفينة حربية عام ١٩٠٨/ ١٣٢٧هـ، ورست في رأس تنورة، وأقامت فوقه العلم البريطاني، ثم تقدّمت إلى رؤساء البلاد بعروضها لحمايتهم من عبث البدو، الذين كانت تهيّجهم وتسلّحهم ضد الأهالي، غير أن أهل الحل والعقد رفضوا عروضها باعتبارها دولة غير مسلمة لا يجوز لها التدخل في شؤون المسلمين وقاوموا عروضها بشدة.. وبادر أهالي صفوى[١] إلى إنزال العلم البريطاني وتمزيقه وتحطيم ساريته مما ترك شعوراً باليأس لدى المسؤولين البريطانيين في الخليج، وحملهم على التفاوض المباشر مع ابن سعود، وتسهيل مهمّته في احتلال الأحساء نيابة عنهم، وطرد النفوذ التركي من الخليج كلّه وإلى الأبد[٢].

بداية المشكلة:

بدأ الامتحان الصعب للأمن في المنطقة، بعد وصول ابن سعود للسلطة في الرياض، وتحريضه القبائل على الثورة.. فقد طلب زعماء آل مرّة وبني هاجر زيادة مرتباتهم التي قررتها الدولة لزعماء البادية، فرفض المتصرف طلبهم، وحرّضهم ابن سعود على مهاجمة قوافل التجارة المتجهة بين ميناء العقير والهفوف، فكانت الحادثة الأولى التي أذهبت هيبة الدولة، حينما هجم البدو على قافلة تجارية يحرسها جنود نظاميون، في موقع يقال له «قهدية»، وذلك في عام ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢، حيث انتهبوا القافلة، وقتلوا خمسين من رجال العسكر، وقدّر لوريمر الخسارة المادية بعشرة آلاف ريال، وستمائة جمل، وثلاثمائة حمار، ومنذئذ زالت هيبة العسكر من قلوب الناس، وكان ذلك إيذان بعهد مأساوي مضطرب.

ومن المعلوم أن العقير هو ميناء الأحساء الذي تصدّر من خلاله التمور وغيرها،

---

(١) صفوى: مدينة تقع على بعد ١٢ كلم شمالي القطيف، وتقع رأس تنورة على مقربة منها في الشمال الشرقي.

(٢) ساحل الذهب الأسود، الأستاذ محمد سعيد المسلم، ط٢ بيروت، ص١٩٢ - ١٩٣. وانظر: ناصر الفرج، مصدر سابق، ص١٦.

وترد إليه البضائع من البحرين والبصرة وعمان وفارس والهند، ويبعد الميناء عن العاصمة مسيرة يوم وليلة.. وحينما استولى الأتراك على الأحساء، ولمّا كانت القوافل معرّضة على الدوام لنهب البوادي، قرّرت الدولة إخراج قوة عسكرية من النظام والهجّانة في يوم واحد في الأسبوع هو «الاثنين» فاستقر الأمن في الطريق، وكانت عساكر الدولة مرهوبة الجانب في نفوس الحاضرة والبادية إلى أن وقعت هذه الحادثة[1].

وحين بلغ خبر المقتلة إلى والي بغداد، عزل والي الأحساء موسى كاظم، وعيّن بدلاً منه السيد طالب النقيب، فجاء تصحبه قوة عسكرية، لتأديب البدو، وقد مدحه أثناء قدومه الشيخ عبد العزيز العلجي[2] في قصيدة جاء فيها:

ديارٌ لِوا نجد أتاها سعودها ... وعاد لها بالأروع الشهم عيدها
همامٌ أتى الأحساء وهي مريضةٌ ... يُظن بها أن الشفا لا يعودها
فعلد شفاها مذ أتاها وأصبحت ... منعمة يربدُّ غيظاً حسودها
وصارت شياطين اللوا من مخافةٍ ... أجلّ مناها أن تُزاد قيودها
فنشكر بعد الله قرماً متوّجاً ... أياديه بادٍ كل يوم جديدها
إمام الهدى عبد الحميد الذي به ... وصولته الكفارُ بات جنودها
خليفة دين الله أيان يممت ... عساكره بالله تعلو حدودها
إماما يوالي أمّة أحمديّة ... ظلالاً تقيها أو غياثاً يجودها

ثم يوجه الحديث لطالب النقيب محرّضاً إيّاه على الفتك بالبدو بقسوة:

فجرّدْ سيوف البأس واجعل غمادها ... لثاماً طغى من طول أمن عنيدها
قبائل سوؤ بالإهانة عُوّدوا ... وقد طال عن لقيا الهوانِ عهودها
وغرّهمُ الإكرام منكَ وهكذا ... يجورُ بإكرام الكرام عبيدها

(١) آل عبد القادر، مصدر سابق، ص١٨٦.

(٢) هو الشيخ عبد العزيز بن صالح بن عبد العزيز العلجي، ولد بين عامي ٨٥ - ١٢٩٠هـ، تعلّم على أيدي كبار علماء المذاهب في الأحساء، فكان أحد رجالات المذهب المالكي، وامتدح السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية وولاتها، وحينما استولى السعوديون على الحكم انضم لصفوف المتصرين، له قصائد وكتاب ضد الوهابية، ولكنه أحنى رأسه بعد سيطرتها، بل أصبح أحد دعاتها المتطرفين. توفي سنة ١٣٦١ أو ١٣٦٢هـ. انظر: شعراء هجر للدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، ص٣٨٣ - ٣٨٨، وما تلاها من أشعار.

وظـنّـوا بـأن الـمـلـكَ ليس لرعيه أسـود ولا يحوي رجـالاً تسودها
فـهـان ولـيّ الأمـر فيهم وقـدرُهُ ولم يحترمه وغدُها ورشيدُها[1]
وقـادوا إلـيـه كـل يـوم بليّة قـوافـلَ تسبيها وقتلى تقودها
ومـا ردّهـم عـهـدٌ وثـيـقٌ ولا يدٌ عليهم من الأنعام يُرجى مزيدُها
فـلا بُـدّ فيهم مـن عظيم نكايةٍ تذوبُ احتراقاً من لظاها صديدها
سحابةُ جُـنـدٍ صبّحتهم بصيحةٍ وهـم وبنوهـا عـادهـا وثمودها
ولا تـرضَ منهم باليسير تعطّفاً وعـفـواً فـإن العفو مما يزيدها
وأجّـج بهذي الـدار نـاراً عظيمةً من الحرب أشلاءُ الأعادي وقودُها
وأخّـر جـبـانَ الـقـلـب إن لـرأيـه مناهجَ سوداً تُفسد الملك سُودها
فـإن كنت حـقًّـا مـرسـلاً فكتائباً يـروع الأعـادي بأسها وحديدها
وخُـذْ مـا بأيديهم وأجـرِ دماءهم فيا طالما أجـرى الـدّمـاءَ شديدها
وأبـقِ لهم منهم مـواعـظَ ينتهي بها عن فسادٍ كهلُها ووليدُها[2]

وعلى أثر القصيدة -كما يقول الرواة- خرج طالب بالعساكر والمدافع، وصبّح فريقاً من آل مرّة وهم على ماء يسمى «الزرنوفة»، فأخذ مواشيهم وعاد بها إلى الأحساء ليشاهدها الناس، فقويت نفوسهم، واطمأنوا وعادت الأمور كما كانت سابقة[3].

ومن الثابت أن طالب النقيب كان فتاكاً عنيفاً، فخشيه البدو وأمنت السُّبل، وصوّر العلجي في قصائده التي مدح بها طالب النقيب حالة البوادي بقوله:

ما سيفك المسلول إلا الموت قد أردى الـكـمـاة وإنـه الـبـتّـارُ
صَقَع البغاة فأصبحت فرسانهم صـرعـى كـزرع صـابـه إعـصـارُ
وأطـاعـك الـجـمُّ الغفير مخافةً وتـبـاعـدت عـن خطّنا الأشـرارُ

ووصف الأحساء في قصيدة مدح لطالب:

لقد عَفَت الأحـسـاءُ حتى أعدتها بـرأي وعـزمٍ منك ليس بـخـوّارِ

(١) في شعراء هجر «فهان مولى الحكم فيهم وقدره»، ص٤٠٦.
(٢) شعرا هجر، مصدر سابق، ص٤٠٥ - ٤٠٨. وانظر أيضاً: آل عبد القادر، ص١٨٧ - ١٨٨.
(٣) آل عبد القادر، ص١٨٨.

وشرّفتها من بعد طول خمولها وخلّصتها من وصمة الذّل والعارِ
ومما علاها من وقارٍ وهيبةٍ أعيدت عواديها نواكسَ أبصارِ[1]

لم يبقَ طالب في منصبه سوى عامين، من شهر ربيع الأول ١٣٢٠هـ حتى ربيع الأول ١٣٢٢هـ الموافق لشهر يونيو/ حزيران ١٩٠٤.. ففي هذا الشهر قدّم استقالته، بسبب «دواعي صحية»[2]، أو كما تشير بعض المصادر إلى أنه أُجبر على الاستقالة لخلافه مع المرحوم منصور بن جمعة الذي استصدر أمراً بإقالته من السلطان عبد الحميد[3]، وقد سافر طالب إلى عاصمة الخلافة ليقدم تقريراً عن مهمّته «وصلت للإنجليز نسخة من التقرير عبر طالب نفسه»!، ويحوي التقرير اقتراحات لمحاربة حركة التشيّع وانتشاره بين القبائل العراقية[4].

تجدر الإشارة إلى أنه وفي عهد طالب النقيب، أرسل ابن سعود في نوفمبر ١٩٠٣ مبعوثاً نجديًّا مقيماً في الأحساء لمقابلة الإنجليز في البحرين، وذلك لجسّ نبضهم حول إمكانية مساعدته في احتلال الأحساء واستخلاصها من يد الأتراك.

---

(١) الدكتور عبد الفتاح الحلو، مصدر سابق، ص٤٠٨ - ٤٠٩.
(٢) دراسة في مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ص١٩٨ - ١٩٩.
(٣) يذكر الأستاذ محمد سعيد المسلم في «ساحل الذهب الأسود» ص٢٠٣ - ٢٠٤، أن سبب إقالة طالب النقيب هو خلافه مع ابن جمعة.. قال: «ويصفون السيد طالب بأنه كان طاغياً مستبداً، حدثني المرحوم والدي، أن الصدفة جمعته -أي طالب- بمنصور باشا بن جمعة في الباخرة وهو قادم في طريقه لهذه المنطقة، فتحدث معه في مختلف الشؤون، وكان طالب في أثناء حديثه يظهر اعتداده بنفسه، ويقصّ عليه حكايات مزهوًّا بفتكه وطغيانه، فسخر منه منصور باشا، وعلّق على حديثه: بأنك لم تلتقِ برجل، فوجد عليه وأضمرها في نفسه، فلما قدم إلى القطيف وجد الفرصة مهيأة للانتقام منه، فانتهز فرصة غيابه، فقبض على أخيه -عبد الحسين- واعتقله، ثم عمد إلى قصوره فهدمها، وساعدته الظروف إذ كانت البلاد في ذلك الوقت متفرقة إلى شيع وأحزاب. وحين وصل خبر النكبة لمنصور باشا. اتصل بالباب العالي، ورفع قضيته للدوائر العليا، واستصدر أمراً بعزل السيد طالب باشا النقيب، وكان ابن جمعه في وقته أبرز شخصية مقربة للدولة العثمانية في القطيف»... إلخ. وأكد آل عبد القادر في تحفته، أن طالب النقيب أُقيل من منصبه وكان عمره يومئذ لم يتعدَّ الثلاثين عاماً.
(٤) الوثيقة رقم «FO .416/20» من: السير ن. أوكنور، السفير البريطاني في القسطنطينية بتاريخ ٢٦/ ٨/ ١٩٠٤ «رقم ٦٤٨- سري جدًّا» إلى: الماركيز لانزدون، وزير الخارجية.
ويحوي تقرير طالب التالي: «أن الجزء الأكبر والأهم من شعب العراق تخلّى عن عقيدته السنيّة وتحوّل إلى الهرطقة الشيعيّة! بسبب جهود المجتهدين وعلماء الفقه، ولذا -كما يقول- يتوجب على الحكومة الإمبراطورية العثمانية أن تطرد هؤلاء من المراكز الدينية (مشهد - النجف - وكربلاء) ثم يقترح مشروعاً توطينيًّا للبدو، ومعاملتهم بشكل حسن، حتى لا يتحولوا إلى المذهب الشيعي بسبب الظلم... إلخ.

وتوضح وثيقة بريطانية مؤرخة في السابع من نوفمبر ١٩٠٣ «١٧/ ٨/ ١٣٢١هـ» أن أحد أصدقاء الإنجليز من النجديين المقيمين في الأحساء اسمه عبد الرحمن سلمان، قابل المعتمد السياسي في البحرين في دار المعتمد، وكانت له علاقة بالمعتمدية قديمة، فعبد الرحمن هذا «هو الذي حمل رسالة المتصرف التركي لإقليم الأحساء في أغسطس ١٨٩٥ إلى دار المعتمد»(١).

قال عبد الرحمن للمعتمد أن «هناك رغبة قوية في الانفصال عن الحكم التركي.. والعرب الآن مسلّحون جيداً وبأسلحة حديثة، ويستشعرون قوتهم، وما عادوا يخافون الأتراك».. ويمضي عبد الرحمن قائلاً: «إنه عندما يقضي آل سعود على آل رشيد، سيحاولون طبعاً استعادة الأحساء من الترك، وسينجحون في ذلك، إذا استمرت الظروف الحالية»، وقال: إن الأتراك تمكّنوا من الاستيلاء على الأحساء بتعاونهم مع رؤساء الكويت وعرب المنتفق، ولكن الأوضاع تغيّرت الآن. وسأل عبد الرحمن المعتمد عن إمكانية الاعتماد على الحماية البريطانية في حالة الثورة على الأتراك.. ولكن المعتمد لم يعطِ جواباً يأخذ صفة التآمر على الدولة العثمانية، قال: «ليس من سياسة الحكومة البريطانية التآمر مع رعايا حكومة صديقة»!، فقال عبد الرحمن: «أرجو أن تعتبر ما دار بيننا سرًّا، وأن تسمح لي بالكتابة إليك مرة ثانية».. فردّ المعتمد: «يسعدني دائماً أن أتلقّى أنباء من الداخل»(٢)!.

إلا أن أميراً سعوديًّا اعترف بأن عبد الرحمن سلمان هذا، وهو من أصل نجدي، أُرسل كمندوب لابن سعود بهدف «جسّ نبض البريطانيين حول التفكير في إعادة الأحساء، وذلك في عام ١٩٠٣، ومدى تقبّلهم لتلك الفكرة، ومقدار المساعدة التي يمكنهم تقديمها.. وقد قابل السيد فاسكن وأخبره بأن هناك تذمّراً من قبل المواطنين في المنطقة».. وقال الأمير: «إن حكومة الهند البريطانية أبدت اهتماماً بالغاً بتلك الخطوة وأوصت بمساندة الأمير عبد العزيز، إلا أن حكومة لندن كانت ترى أن مصالح بريطانيا لا تتعدى الخليج وسواحله»(٣).

(١) جلال كشك، المصدر السابق، ص٣١٥ - ٣١٦.

(٢) المصدر السابق، ص٣١٥ - ٣١٦.

(٣) مجلة الدارة، مارس ١٩٨٦، بحث بعنوان «علاقة بريطانيا بالملك عبد العزيز» ١٩٠٢ - ١٩٢٥»، بقلم الأمير الدكتور تركي بن محمد بن سعود الكبير آل سعود، ص٣٨ - ٣٩.

ورأت حكومة الهند بعد وصول معلومات عبد الرحمن سلمان هذا، أن ترسل رجل مخابرات بريطاني الأصل إلى الأحساء، ليستطلع «أوضاع الداخل»!، وحين استتشير المقيم السياسي في بوشهر الكولونيل كمبال، قال: «من الناحية العملية، أعتقد أنه من المستحيل على إنجليزي غير متنكر أن يشق طريقه...»، وأبدى استعداده لترتيب الأمر عن طريق الكويت، رغم أنه لا يرحب بذلك في الوقت الحاضر.

وكان الرأي الحاسم لوزارة الخارجية التي أرسلت رسالة في السادس من فبراير ١٩٠٤ إلى وزارة شؤون الهند، يذكر فيها معاون وزير الخارجية أنه عرض على الوزير نتائج الزيارة التي قام بها الشيخ عبد الرحمن بن سلمان إلى مساعد المعتمد السياسي في البحرين، والمحادثات التي جرت بينهما بهدف ارتباط الشيخ المذكور بعلاقات أوثق مع الحكومة البريطانية.

وفي هذه الرسالة يأمر وزير شؤون الهند حكومة الهند بالامتناع عن اتخاذ أية خطوات لإرسال معتمدين بريطانيين إلى سنجق نجد «الأحساء»، بهدف الدخول في علاقات أوثق مع قبائلها، دون موافقة الحكومة البريطانية، وتضيف: إن الوزير يشك في جدوى وحكمة الدخول حاليًا في مفاوضات مع القبائل موضع البحث، ولكنه قبل إعطاء ردّه النهائي على الموضوع، يريد أن يتشاور مع السفير البريطاني في القسطنطينية[1]، وكان الرد النهائي بالنفي.

ومضت سبعة أشهر بعد إقامة أو استقالة طالب النقيب، كانت فيها متصرفية الأحساء شاغرة «من ربيع الأول ١٣٢٢ هـ حتى شوال ١٣٢٢ هـ».. والسبب في تأخير تعيين الوالي الجديد، يرجع في جانب منه إلى أن الدولة العثمانية لم تكن تريد تسليم الأقليم إلى شخص غير مؤهّل -حسبما تذكر الوثائق-، إذ تشير وثيقة مؤرخة في الحادي عشر من رمضان ١٣٢٢ هـ، صادرة عن هيئة المدنيين، وموجهة إلى نظارة الداخلية، إلى الصفات التي يجب توافرها في المرشح لمنصب متصرفية نجد. من هذه الصفات: أن يكون متمتعاً بالحنكة السياسية، ولديه لباقة وأهلية، فمتصرفية نجد «الأحساء» مترامية الأطراف، وذات موقع مهم، وإدارتها صعبة، وهي بعيدة، لذا فإن كل هذه الأمور تحد من رغبة الأشخاص المعروفين بإدارتهم في قبول هذا المركز، خاصة وأن راتب المتصرّف لا يتجاوز

(١) انظر: الوثيقة «FO 416/16» لعام ١٩٠٤.

«٦٧٥٠ قرشاً عثمانيًّا» واقترحت الهيئة ثلاثة أشخاص لمنصب متصرفية الأحساء هم:

- عبد السلام أفندي، المنفصل عن متصرفية فزان.
- ونجيب بيك، المعزول عن متصرفية إيلبصان في اليونان.
- وشوكت باشا، المنفصل عن وظيفة كاتب بغداد.

وقد رشّحت هيئة المأمورين المدنيين نجيب بيك، لمعرفته بأحوال العرب، وقد نال موافقة الأكثرية في الهيئة.

وقد رافق الصدر الأعظم على ترشيح نجيب بيك، وكتب إلى الباب العالي في في العشرين من رمضان ١٣٢٢هـ يبلغه بذلك، موضحاً الأسباب، فوافق السلطان العثماني على الأمر في ٢١ شوال ١٣٢٢هـ الموافق ٢٨ نوفمبر ١٩٠٤ [١].

حوالي سبعة أشهر والمنصب شاغر!!

وجلالة السلطان نفسه يتأخر مدة شهر كامل حتى يوافق ويوقع على الفرمان.

ومهما تكن تبريرات التأخير، فإنه كان بالغ السوء على الأوضاع الأمنيّة، وقد ألحّ والي البصرة ووالي بغداد على سرعة تعيين متصرّف «إذ لا يجوز أن يبقى هذا المنصب شاغراً، لأن هذا يؤدي إلى أمور غير محمودة في المنطقة»[٢].

والأمور غير المحمودة هي تدخل الإنجليز وابن سعود، وإشعال الاضطرابات، وهو الذي حدث بالفعال.. إذ تسلّم نجيب بيك منصبه في ظروف بالغة السوء، حيث لم يأتِ إلا والاضطرابات قد تفاقمت إلى حدّ بعيد.

في الثاني من كانون الثاني -يناير، ١٣٢٢هـ، كتب القائد العام في الأحساء إلى الصدارة العظمى: «أن وكلاء الإنجليز في بندر بوشهر وجزيرة البحرين يحرّكون مشايخ العشائر في سواحل نجد -الأحساء- ويبيعون أنواع الأسلحة والمعدّات الحربية في كل بقعة من تلك السواحل، تسليحاً لقبائل هذه الجهات ابتغاء الفساد».. وتشير الوثيقة إلى

(١) مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، عدد ٣٠، أبريل ١٩٨٢. وانظر: دراسة في مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ص٢٠٣ - ٢٠٤.

(٢) وثيقة تركية صادرة في ٤ تموز - يوليو ١٣٢٢هـ من والي بغداد.

أن القيادة العامة قد اتخذت الترتيبات اللازمة لإفساد ما يقوم به الإنجليز في المنطقة[1].

ومن ناحية ابن سعود، فإنه استطاع خلال عهد نجيب بيك أبو سهيل، الذي كان ضعيفاً، أن يخترق الإدارة التركية، وأن يقنع محمود بيك بأن يتآمر مع العجمان وعشائر أخرى موالية لابن سعود لقتل الناس ونهبهم، فتحولت مهمّته من حفظ الأمن إلى الإخلال به.

كتب مخبر للحكومة العثمانية[2] عن أسباب تضايق أهالي الأحساء «أن محمد نجيب بيك، متصرف الحساء، كان قد ترك أمر اللوا وكافة شؤونه في يد بكباشي/ مقدم الدرك، صاحب الدفعة محمود بيك، ولأن محمود بيك هذا وابن سعود صحبة، وبينهما اتفاق سرّي، فإن المقدم محمود بيك سلّط عشائر ابن سعود على الأحساء، حيث تجرّأت على قتل الناس، ونهب الأموال وغير ذلك من الأمور غير المرضيّة، وقد وجّه الأهالي والعسكر عدة شكايات ضد هذه الأعمال إلى المتصرف».. وقال المخبر العثماني: «إن محمود بيك عندما توجّه إلى البصرة، كان قد ترك خاله رشيد بيك وأخاه هناك في الأحساء، وكان من رشيد بيك ومن ابن أخته حركات فاسدة بقصد الإخلال في أمن اللواء، ليقال: إن غياب محمود بيك أدى إلى مثل هذا الخلل في المنطقة.. وإن أقارب محمود بيك جاؤوا إلى المبرز ونهبوا الأموال من الأهالي وساقوا معهم ثلاثين شخصاً من رؤساء المنطقة، كل هذا الإجراء بسبب قتل أحد رجال الدرك في المبرز»[3].

ويتحدث المخبر أن عشرة من العجمان المؤيدين لابن سعود قتلوا رئيس قبائل آل مرّة راشد بن شريم، الذي أعطته السلطات التركية الأمان، وذلك في الأحساء بالقرب من القصر المسمى «حميدي»، ولأن المتصرف غير موجود، ولمّا لم يعالج الأمر كثرت تعديات العجمان على قبائل آل مرّة، التي وجدت نفسها أمام ضعف الحكومة، فراحت تهاجم القوافل التجارية.

وفوق هذا كلّه يقول المخبر: إن هناك «اتصالات سرّية بين وكيل القائمقام في

(١) دراسة في مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ص٢٠٢ - ٢٠٣.
(٢) وثيقة تركية مرسلة من مخبر اسمه محمد عبده، إلى قيادة الجيش السلطاني السادس في بغداد في ٢٥ أيار ١٣٢٢هـ. انظر: دراسة في مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ص٢٠٥ - ٢٠٦.
(٣) أشرنا إلى هذه الحادثة في تقييمنا للعهد التركي (اقتصاديًا) انظر: تحفة المستفيد، ص١٨٩ - ١٩٠.

القطيف -أحمد أفندي- وهو من أهالي البصرة، وبين معتمد ابن سعود في البحرين. كما أن هناك اتصالات سرّية تتم بين وكيل القائمقام، وبعض أهالي القصيم وعشائره. وقد وعد وكيل القائمقام كل من اتصل به بتقديم كل التسهيلات اللازمة لهم، من أجل إثارة القطيف ضد السلطة المحلية التركية فيها».. كما «أن بواخر الإنجليز تتردّد هذه الأيام بكثرة على قضاء قطر، يرافقها في الذهاب والإياب قناصل دولة الإنجليز في الخليج وجزر البحرين... إلخ»[١].

يبدو واضحاً الآن، أن ابن سعود يقود دفّة الاضطرابات في الأحساء، بدفع العجمان لمهاجمة القرى ونهبها، وبالتآمر مع بعض موظفي الأتراك من العرب، كما حدث مع محمود بيك ووكيل قائمقام القطيف، وبالتنسيق مع معتمده في البحرين، وهكذا..

وتزايدت الشكايات ضد المتصرّف نجيب بيك أبو سهيل لضعفه وإيكال الأمور إلى المتواطئ مع ابن سعود محمود بيك، وسرعان ما اختلف المتصرّف مع قوّاد عسكره، فقد أرسل القائد العام إلى الصدارة العظمى رسالة في ٣١ يوليو ١٣٢٢هـ تفيد بأن نجيب «لا يأبه بأمور منصبه، وهو يرجح مصالحه الذاتية على مصالح دولته، ويظهر هذا من سلوكه وحركاته غير المرضيّة، بالإضافة إلى ذلك فقد كان يكتم الحقائق ويخفي أمرها. وهو يحاول أن يفتري على هذا أو ذاك ليؤمّن نفسه ومصالحه واغراضه غير المشروعه».. ثم تأتي الرسالة إلى الخلاف بين نجيب وأمير اللواء حلمي بيك «فقد كان نجيب بيك يتهمه بتهم ضالّة ليتستر وراء ما تفعله يداه، وللإثبات أرفق طيه المراسلات والصورة المرفقة إلى مقام الصدارة العظمى»[٢].

وقبل ذلك اتّهمت دائرة الأركان الحربية، في وثيقة مؤرخة في الثاني من يوليو ١٣٢٢هـ اتهمت نجيب بيك بناء على معلومات وردتها من الوكلاء الإنجليز والبحرين ومن شكاوى الأهالي، أنه «قليل الوقوف على الأحوال المحلية.. وهو لا يتصدّى للحركات غير المرضيّة في المنطقة، ويكتم الحقائق لستر أعماله، ولا يهتم بأمر إدارة المتصرفية»[٣].

---

(١) الوثيقة السابقة، ٢٥ أيار ١٣٢٢هـ.

(٢) دراسة في مصادر تاريخ الجزيرة العربية، مصدر سابق، ص٢٠٧ - ٢٠٨.

(٣) المصدر السابق، ص٢٠٩.

وهنا تشير الوثائق بإصبع الاتهام إلى المتصرف بأنه، كمحمود بيك، ليس متساهلاً في التصدّي لغارات البدو فحسب بل وأيضاً متواطئ مع ابن سعود في تسهيل ذلك من أجل أن يحصل على جزء من المنهوبات، أو على بعض المال من ابن سعود نفسه، خاصة وأن راتب المتصرف قليل إلى حدٍّ ما!

وعلى أثر الشكاوى ضد أبي سهيل، قام الحاج منصور بن جمعة، زعيم القطيف بتأليب الناس ضد المتصرف، وكتب للسلطات العليا حول الأمر، فطلب الباب العالي من والي بغداد تقديم بعض الاستيضاحات حول حقيقة المتصرف، وحول حقيقة ما يشكو منه السكان المحليون، وحول خلاف المتصرّف مع الأميرلاي مصطفى حلمي بيك الذي كان يرفض تصرّفات المتصرّف. فأجاب الوالي بأن معرفة المطلوب ليس أمراً سهلاً «بخاصة أنه لا توجد اعتمادات ومصاريف تؤمن إرسال رجل قدير يجري تحقيقاً في الأمر». وتبرّع الوالي بالإجابة قبل أن يحقق، فقال: إنه لم ترد إليه «أية شكاية ضد متصرف نجد، ولم تأتِ أخبار عن ارتكاب قائد نجد لأعمال تسيء إلى وظيفته. كل ما في الأمر أن الحاج منصور باشا القطيفي، أشاع مثل هذه الأخبار الملفّقة ضد المتصرّف، حتى يظهر للناس عدم قدرته في الإدارة، ويقصد بذلك إلى إقصائه»[1].

لم تقتنع السلطات العثمانية بالأمر، وأجرت تحقيقاتها، ووجدت أن مصطفى حلمي بيك أدّى وظيفته بكل إخلاص، واقترحت تعيين سعيد بيك قائداً على نجد وإعداده لذلك[2].

مع هذا كانت الأوضاع تسير من سيّئ إلى أسوأ فالخلافات بين المتصرّف وقيادات العسكر تتسع وتتفاقم، والنقص في المال زاد حدّة، فتناقص عدد الموظفين، وعاش الجند حالة سيئة، ورأى البدو الذين لا يمكن إخضاعهم إلا بالمال أو القوة، الفرصة لخربطة الأوضاع، حيث كانوا يريدون زيادة في مخصصاتهم. وأدّت كل هذه الأمور إلى اهتزاز معنويات رجال الحكومة وأتباعها[3].

إزاء ذلك زاد الإلحاح في طلب تعزيز قوّة الحاميات العسكرية التركية المهلهلة في

(١) المصدر السابق، ص٢٠٨. وثيقة مؤرخة في ٢١ آب ١٣٢٢هـ.
(٢) المصدر السابق، ص٢٠٩، وثيقة مؤرخة في ٢١ تشرين الثاني ١٣٢٢هـ.
(٣) المصدر السابق، ص٢٠١ - ٢٠٢. وثيقة مؤرّخة في الخامس كانون الأول ١٣٢٢هـ.

الأحساء، لإعادة الأمن:

- فقد طلبت «الصدارة العظمى» في برقية مؤرخة في الثالث عشر من تشرين ثاني ١٣٢٢هـ، وموجهة إلى نظارة البحرية «بضرورة إرسال عدد من السفن العثمانية لنقل طابورين من الجيش إلى منطقة الهفوف لتأديب قبيلة العجمان التي أخلّت بالمن في الهفوف»[١].

- وفي الخامس من كانون أول ١٣٢٢هـ أرسل الفريق صدقي باشا قائد الجيش السلطاني السادس في بغداد إلى الجهات العليا برقية جاء فيها: «إن الحل الأجدى للأزمة القائمة في الأحساء، هو إبدال العسكر النظامي بعسكر نظامي غيرهم، عن طريق إرسال أربعة أفواج من الجند النظامي بدلاً من الموجودين حاليًّا، إضافة إلى سرعة ما طلبنا إيصاله إلى المنطقة من قوى الخيّالة».. وتشير البرقية إلى أعوان ابن سعود في الأحساء وأفعالهم في تهييج السكان، حيث تقرّ البرقية بأن: «الأمن العام في المتصرفية قد انسلب»، وأن أعوان ابن سعود «كتبوا إليه خفية يعلنون أنه إذا ما أراد أن يجعل اللواء -أي الأحساء- في يده فسوف يفتحون له سور المدينة»، و«أنه من الصعب على الحكومة المحلية الدفاع عن الأحساء إذا ما هوجمت من قبل ابن سعود»[٢].

- ووافقت «الإدارة السنيّة» على «ضرورة إرسال أربعة طوابير من العسكر إلى الأحساء، إلا أنه لا توجد سفن تنقل العسكر إلى المنطقة المذكورة، وأخيراً تم نقل طابور منهم، وهو الطابور الثالث المنسوب إلى الآلاي الواحد والأربعين إلى ميناء العقير، مع ذخائر تكفي لمدّة أربعة شهور. أما عن مفرزة الخيّالة فيتعذر إرسالها لعدم وجود الدواب، وإذا تمّ إرسال ألفي ليرة من صندوق مال البصرة، فعندها يكون بالمقدور إرسال هذه المفرزة. لذا وجب تبليغ الأمر إلى ولاية البصرة لإرسال المبلغ المذكور إلى بغداد حتى ترسل المفرزة على جناح السرعة[٣].

- ووجهت برقية إلى نظارة الحربية من الصدارة العظمى في ١١ تشرين الثاني

---

(١) المصدر السابق، ص١٩٥.

(٢) المصدر السابق، ص٢٠١ - ٢٠٢.

(٣) المصدر السابق، ص٢٠٤. ثيقة تركية صادرة عن دائرة الأركان العامة، ومؤرخة في السابع عشر من كانون أول ١٣٢٢هـ.

١٣٢٢هـ، تشير إلى أن الأمن في الأحساء غير مستتب، وأن الحوادث الأخيرة فيها تكتسب طابع الخطورة، وفي البرقية إبلاغ بضرورة إرسال سفينتي شحن، وأربعة قوارب عسكرية بحرية «Gun Boats» على وجه السرعة إلى الأحساء، لتعمل على استتباب الأمن، وحتى تبقى طرق المواصلات مفتوحة[١]. ويبدو أن طلب القوارب البحرية له علاقة بمسألة توزيع السلاح الإنجليزي على القبائل البدوية في الأحساء، فبعد مدة طلبت الصدارة العظمى من نظارة البحرية، أن تعطي الأوامر إلى القارب البحري العسكري في ميناء بيروت، وسفينة الرصد «طارش كوبري» الموجودة في البحر الأحمر للقدوم إلى الخليج من أجل رصد سواحل الأحساء والبصرة، ومراقبة التحركات المعادية.

وهناك وثيقة تركية أخرى توصي باتخاذ «الترتيبات اللازمة للسيطرة على المنطقة وحماية الأحساء من الإنجليز ومؤامراتهم في المنطقة حتى تتمكن من عودة الهدوء والأمن»[٢].

في الثالث والعشرين من مارس ١٩٠٥ الموافق ١٧ محرم ١٣٢٣هـ، التقى القائم بأعمال القنصل البريطاني في البصرة «مونهان» بالوالي هناك.. وجرى حديث عام أشار فيه القائم بالأعمال إلى أن حاكم الكويت لا يتدخل في أمور سنجق نجد «الأحساء»، فقال الوالي له: «إنه يتظاهر بذلك، ولكنه يتدخل فيها سرًا».. ولما رد البريطاني بالقول: «أعتقد أن الكويت تبقى على نفس الوضع». أجاب الوالي ملمحاً بأن الأمور تغيّرت، وأن العلاقات بين البصرة والكويت تبدّلت «ولا بدّ من فتح حساب جديد مع حاكم الكويت»؛ لأنه يؤوي المجرمين والفارين من العدالة، من الذين يقومون بالاعتداء على حقوق الناس[٣].

وفي أواخر أبريل من العام نفسه، ألحّت حكومة الهند على وزارة الخارجية بأن تضغط على الباب العالي «في المطالبة بانسحاب الحامية العسكرية التركية من جزيرة بوبيان» لإضعاف النفوذ التركي في تلك الأجزاء.

---

(١) المصدر السابق، ص٢١١.

(٢) المصدر السابق، ص٢١٧.

(٣) وثيقة مؤرخة في ٣١/ ٣/ ١٩٠٥ «FO .416/22». برقية من ج. هـ. مونهان بالبصرة، إلى السفير أوكنور في القسطنطينية.

وفي بدايات شهر رمضان المبارك ١٣٢٣هـ «نوفمبر ١٩٠٥» بعث قائمقام القطيف، والمرحوم منصور باشا الجمعة، العامل بالإدارة المدنية هناك، برقيتين لوالي البصرة يقولان فيهما: «إن الأوضاع مضطربة جدًا في قضاء القطيف، وإن السكان يهاجرون منه»[1]. وعلّق والي البصرة الجديد: «أنه بما أن البرقيتين أرسلتا عن طريق بوشهر والفاو، فلابد أن يعرف محتواهما في الخارج».. وأضاف الوالي: «أنه طالب إحدى وعشرين مرة باتخاذ إجراءات للدفاع عن الساحل، وتبنّي الاجراءات الضرورية، ومع هذا فإن شيئاً من ذلك لم يحدث، وأن الأوضاع تزداد سوء وتدهوراً»[2].

وكما جرت محاولات تركية لإعادة الأمن المسلوب، جرت تبديلات عديدة في قيادات العسكر والحاميات لمواجهة التحديات المفروضة، والتي كانت أكبر مما تتحمله إمبراطورية تسير إلى حتفها ونهايتها!

فقبل أن يودّع محمد نجيب أبو سهيل متصرفيّة الأحساء، وقعت حادثتا «الحزم والوزيّة» اللتان كانتا من الوقعات البارزة في تاريخ المنطقة بين الأهالي في الأحساء، والعجمان. وكانت هاتان الوقعتان قد حدثتا في عام ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦.

يقول مؤلف كتاب تحفة المستفيد[3]: إن العجمان وأحلافهم اعتادوا أن ينزلوا صيفاً في مكان يسمى «الحزم» قرب المبرز، و «الرقيقة» قرب الهفوف، وذلك لشراء ميرتهم وقت جذاذ التمر.. وفي ذلك العام ١٣٢٤هـ اعتدى رجال من الساكنين في حزم المبرز على نخيل «عين الزواوي» فطردهم أهلها، وتراموا بالنبنادق، وفزع أهل المبرز لأهل النخيل، وأهل الرقيقة لأصحابهم، ودامت المعركة من بعد طلوع الشمس حتى قرب الزوال، وقد انتصر الأهالي على البدو، وسقط من الفريقين قتلى كثيرون.. ويومها أعلنت الأحساء الحرب على العجمان، فلا يدخلها أحد منهم، ودام ذلك من شهر جمادى الثانية ١٣٢٤هـ حتى رمضان من العام نفسه «يوليو - أكتوبر ١٩٠٦».

وفي أوائل رمضان ١٣٢٤هـ بلغ أهالي الأحساء، أن العجمان جاؤوا بأجمعهم

(١) راجع الوثيقة السابقة «الأرقام، ٢٩٧، ١٣٧، ٢٤٨».

(٢) الوثيقة «FO .416/24» برقية سرية جدًا من السير ن. أوكنور، السفير في القسطنطينية، إلى وزير الخارجية الماركيز لانزدون، مؤرخة في الرابع عشر من نوفمبر ١٩٠٥.

(٣) تحفة المستفيد، مصدر سابق، ص١٨٩.

لمهاجمتهم، ومعهم حلفاؤهم من البدو، وأخذ الميرة قهراً، فطلب الأهالي من المتصرف أن يخرج معهم حملة عسكرية للتصدي للبدو، ولكنه تردّد كثيراً ثم أجابهم، وخرج الأهالي من القرى وغيرها، ومعهم عساكر من الدولة إلى ناحية «الوزيّة» عصراً. ولكن نظراً لعدم وجود قائد يأتمرون بأوامره، تغلّب العجمان عليهم بحيلة عسكرية، وقتلوا كثيراً من الأهالي، في حين كانت الحامية ترمي بالمدافع على غير ناحية العدو!!

انهزم الأهالي وانتشر الأعداء في النخيل والزروع وأفسدوها، وهاجموا قرى، الحليلة، والكلابية، والشقيق وانتهبوها. وبعد ذلك جرى الصلح بين الطرفين، على أن تعود الأمور كسابق عهدها[1].

وسجّلت وثائق الإنجليز هذه الحادثة، ذلك أنهم كانوا يراقبون الأوضاع، ويعقدون التحالفات مع العجمان، وكان مبارك الصباح يبلّغ بالأخبار أولاً بأول إلى المعتمد السياسي البريطاني في الكويت، المستر نوكس!

فعلى إثر الحادثة، التقى مبارك الصباح في الكويت بالمعتمد البريطاني وأطلعه على ما وصله من أخبار الهجوم بمبالغة كعادته، وهو ما اكتشفه الإنجليز بعدئذ. قال مبارك لنوكس: «إنه لا يملك معلومات دقيقة عن عدد الإصابات التركية في الأحساء، إلا أن قبائل العجمان أعلنت أنها دمرت طابورين، واستولت على أسلحتها، وإن أكثر من نصف جنود حامية الأحساء قد قتلوا».. وأضاف: «إنه مما لا شك فيه أن فهد بن حثلين -زعيم العجمان- والموجود حاليًا في الكويت، قد استولى على مدفع واحد، وأحضر معه بغلين والعديد من الحمير لبيعها في الكويت[2]، وأنه سيرسل أعداداً أخرى منها لهذا الغرض»[3].

(١) تشير معلومات المعتد السياسي البريطاني في الكويت إلى أن حادثة نهب وحرق قرية الشقيق وقعت في الثاني والعشرين من شهر أكتوبر ١٩٠٦، أي في الخامس من رمضان ١٣٢٤هـ.
أما قرية الحليلة، فهي قرية شيعية كاملة، وأما الكلابية والشقيق فيسكنهما أخلاط من السنة والشيعة.

(٢) يدلك على تفاهة مكتسبات العجمان هذه المنهوبات التي لا تتعدى الحمير الحساوية ذات الشهرة العالمية!، وما وجود العجمان في ضيافة مبارك إلا دليل آخر على المساندة، وقد اعتاد مبارك إيواء العجمان وتوفير الحماية لهم نكاية بخصومه، وهو ما فعله فيما بعد مع الملك عبدالعزيز سنة ١٩١٥.

(٣) انظر الوثيقة «FO . 371 / 345» «E 5532» والمؤرخة في العشرين من نوفمبر ١٩٠٦.

غير أن نوكس، المعتمد في الكويت، الذي أصبح فيما بعد رئيساً للخليج «أي لكل المعتمدين في الخليج» لم يكن ليعتمد على مصدر واحد من المعلومات، ليقف على جليّة الأمر في الأحساء، فانتهز فرصة وجود زعيم العجمان في الكويت، ودعاه لمقابلته في دار المعتمدية، ثم قدّم تقييما للأخبار.

قال نوكس: «قدم فهد بن حثلين لزيارتي يوم التاسع عشر من الشهر الحالي - نوفمبر ١٩٠٦ -، ومعه شيخ مسنّ ذو نفوذ، من شيوخ العجمان، واسمه سالم بن محمد، من عشيرة الهادي. أما الزعيم نفسه -أي فهد- فهو شاب أنيق وسيم، في حوالي الثلاثين من عمره. كان يبدو كسولاً، طيّب المعشر، ولم يكن يتكلّم إلا قليلاً، ولكنه ترك انطباعاً لديَّ بأنه سيكون قائداً للرجال شديداً قاسياً، وانتقاميًّا حقوداً، حين يُدفع للعمل».

وأضاف: «كلا الرجلين -فهد وسالم- بالغا وأطنبا مدحاً لرواية الشيخ مبارك عن انتصارهما، وقالا: إن أهالي الأحساء، ومعهم الجنود، قد ذاقوا الآن طعم ثأرهم وانتقامهم، وإن الأخيرين على استعداد الآن للقبول بأية شروط. لقد عرضوا أن ينسوا كل دية مستحقة لديهم، وأن يدفعوا كل الرواتب المتأخرة والمستحقة لشيوخ العجمان[1]، وأنهم عرضوا ألفي ليرة تركية لاسترداد المدفع، وأن يدفعوا ضعف ثمن الأسلحة والبغال المنهوبة، لكن فهد رفض أن يبيعهم المدفع قائلاً: إنه سيرسله إما إلى مبارك أو إلى ابن سعود»[2].

لاحظ هنا ما يستشف من علاقة ورابطة بين ابن سعود والعجمان، وبين الأخيرين ومبارك الصباح، وهذا الحديث يُقال في دار المعتمدية البريطانية في الكويت، وللمعتمد نفسه، الذي حرص على القول بأن الزعيمين العجمانيين «رحّبا بزيارتي لبلادهم إذا أحببت، والتي تقع على بعد مسيرة ثلاثة أيام إلى الجنوب من الكويت»!.

ويخلص نوكس من كل هذا إلى أن ما حدث في الأحساء من هجوم عجماني عليها، وما حدث في نجد من انسحاب القوات التركية من القصيم عدا «٢٥ جنديًّا في بريدة،

(١) هذه توضح أن أحد أسباب شن الهجوم، هو رفض الحامية التركية دفع المبالغ التي يأخذها العجمان، إما لأسباب ترجع إلى عدم القدرة، أو لأن الأهالي الذين يفترض أنهم الذين يدفعون ذلك رفضوا، فتعرضوا للانتقام!

(٢) الوثيقة السابقة.

و١٥ في عنيزة» مع اعتراف ابن سعود الاسمي بتبعيته للسلطان العثماني، بأن ذلك أثر في موقع الأتراك، فاهتزت معنويات الأهالي.. يقول: «يبدو أن الانسحاب التركي من نجد، والأخبار الواردة من الأحساء قد تركت أثراً سيئاً على الرأي العام تجاه الأتراك في هذه الأنحاء، حتى أن الشخص يستطيع أن يغامر بالقول: إن الشيخ مبارك يعلم الكثير، وأكثر مما أخبرني به، حول المضاعفات والتعقيدات في الأحساء».

لم تكن هذه الأخبار هي كل ما التقط الإنجليز من عملائهم ومخبريهم، فقد أضاف القنصل البريطاني في البصرة «المستر كراو» معلومات جديدة عن حادثة «الوزيّة» حيث أرسل القنصل برقية إلى القائم بالأعمال البريطاني في القسطنطينية في السابع من ديسمبر ١٩٠٦ تقول[١]:

«تلقينا رسالة من الأحساء مؤرخة في ١٢ نوفمبر ١٩٠٦، وطبقاً للرواية التي توردها الرسالة، يبدو أن القبائل العربية هاجمت البلدة يوم ٢٢ أكتوبر، واشتبكت مع القوات التركية هناك. كانت الخسائر التركية كبيرة في الرجال والبغال والبنادق، كما استولى العرب على مدفع واحد، كما أن قرية تُدعى الشقيق، وتتبع الدائرة السنيّة قد نُهبت ثم أحرقت. وقد دفعت الأموال للقبائل كي تتراجع، وأُعيد المدفع، واستعادت البلدة السلام والهدوء»[٢]!!.

وصادف أنه في أثناء حدوث هذه الوقائع، أن الأتراك استخدموا الكويت والبحرين كطريق عبور لقواتهم الذاهبة إلى نجد والأحساء، والعائدة منها إلى البصرة، بحراً بالمرور من البحرين، أو برًّا عن طريق الكويت. وقد اعتاد الأتراك على فعل ذلك، إذ إنهم حتى ذلك الحين لم يتنازلوا عن حقوقهم في هاتين الإمارتين «البحرين والكويت» وكان الإنجليز في العادة يتغاضون عن مرور السفن التركية والقوات التركية المارّة بمناطق نفوذهم إلا أنهم هذه المرة حاولوا إثارة الموضوع وتضخيمه مستغلين ضعف الأتراك، وكان على رأس الصقور حكومة الهند ومقيمها في بوشهر والمعتمدين في الخليج الذين طالبوا بإيقاف الأتراك عند حدّهم، في حين اتخذت وزارة الخارجية البريطانية رأياً مخالفاً

(١) الوثيقة «FO . 371 / 345» «E 5532» برقية رقم ٨٤ وتاريخ السابع من ديسمبر ١٩٠٦، مرسلة من المستر كراو «F. E. CROW» في البصرة إلى القسطنطينية، وأرسل المقيم في الخليج إلى حكومة الهند نسخة منها في السادس عشر من ديسمبر من العام نفسه.
(٢) لفظة العرب التي ترد في الوثائق البريطانية يقصد منها البدو.

وتبنت رأي سفيرها عند الأتراك «أوكنور» الذي لا يحبذ إثارة الموضوع.. ولأن حكومة الهند تمثل رأي وزارة المستعمرات وكل الاستعماريين في بريطانيا.. ولمّا كانت العلاقة مع الأتراك تخضع لرأي وزارة الخارجية، فقد رضخت حكومة الهند لذلك الرأي.

فقد أُبلغ المقيم البريطاني «بيرسي كوكس» عن طريق المعتمد السياسي في الكويت، الكابتن نوكس، بأن ٣٠٠ جندي نظامي عثماني عادوا إلى العراق عبر الكويت. فأرسل إلى حكومة الهند يسألها: هل من الصالح دفع مبارك للاحتجاج، وهل من الصالح تقديم احتجاج للباب العالي بعدم استخدام الكويت، لما يسبب ذلك من اضطراب لدى الرأي العام!!

وكان من رأي كوكس أنه إذا ما أراد الباب العالي إرسال قوات إلى نجد وغيرها، أو إخراجهم منها، فإنه يجب أن يُطلب منه استخدام العقير لهذا الغرض، وليس مناطق الشيوخ المتصالحين مع بريطانيا[1].

وبالطبع فإن الإنجليز لا يريدون أن يشعر أحد من حلفائهم أو أعدائهم، بأن لغيرهم أية سلطة أو ميزة في الكويت والبحرين، فهما إقطاعيتان خاصتان بالإنجليز وحدهم. ومن جانب آخر، كان من أهداف الاحتجاج الإنجليزي إعاقة تقدم القوات العثمانية إلى نجد والأحساء، لتكون الحاميات هناك أكثر ضعفاً.

وما لبث أن أرسل الكابتن بريدو، المعتمد البريطاني في البحرين، إلى بيرسي كوكس في بوشهر، رسالة يقول فيها: إنه سمع بأن الباخرة التركية «جون أو سكوت - Jhon.o.Scott» ستصل إلى البحرين، وأن الأتراك ينوون إنزال قواتهم هناك، ثم نقلها في قوارب شراعية إلى مقصدها «القطيف، العقير، الدوحة».

ويعتقد بريدو أن الباخرة نفسها لن تذهب إلى هذه الموانئ. وقال: إنه سمع بأن الباخرة ستطلق قذيفتين في حال وصولها إلى البحرين، إما لتحيّة الشيخ عيسى، أو لإعلام القطيف بوصولها!

وعبّر بريدو عن استيائه من إنزال القوات في البحرين، دون إذن رسمي منه، أو

(١) الوثيقة «FO .371/345» من كوكس، المقيم السياسي في الخليج الفارسي، بوشهر، إلى السير لويس دين، في حكومة الهند، بتاريخ الرابع عشر من أكتوبر ١٩٠٦.

من الشيخ عيسى «الذي هو في الواقع واجهة لا تحلّ ولا تربط»!، وقال: «يبدو لي أن إنزال القوات هنا لا يمكن تبريره إلا إذا كان الميناء جزءاً من الإمبراطورية التركية!، ولذا لا يمكن التسامح مع هذا الإنزال ضمن أية احتمالات أخرى، إلا بعد مراسلات خاصة والحصول على إذن رسمي»[1].

وبعد أسبوع واحد، أي بتاريخ ٢٣ ديسمبر ١٩٠٦، أرسل الكابتن نوكس إلى الميجور بيرسي كوكس، يبلغه باستخدام الأتراك لأراضي الكويت، من أجل العبور من وإلى نجد، وأثار الاعتراضات نفسها التي سبق لزميله بريدو أن أثارها.

وبناء على هذا أرسل كوكس إلى حكومة الهند رسالة بتاريخ ٢٠ يناير ١٩٠٧ يبلغها بالتفاصيل، وضمّ صوته إلى اعتراض بريدو، ثم يطلب رأي حكومته!.

قدمت حكومة الهند رأيها لوزارة الخارجية، الذي يقضي بتوجيه تحذير إلى الباب العالي مباشرة، بحيث يتخذ هذا الشكل: إن استمرار عبور القوات التركية من البحرين والكويت، سيضطر حكومة جلالة الملك -البريطاني- لتفكّر في ماهيّة ردّ الفعل الذي يجب أن تتخذه لحماية مصالحها[2].

وكما يبدو رأت وزارة الخارجية، أن المسألة لا تحتاج إلى كل هذه الإثارة، واستطلعت رأي سفيرها في القسطنطينية «أوكنور» فكتب الأخير إلى حكومة الهند في الأول من أبريل ١٩٠٧ ناصحاً بعدم إثارة الموضوع بشكل مضخم، لأن الحكومة التركية لها حججها التي تستطيع أن تدافع بها، وقال أن من الصالح إعطاء مهلة أو مدة معلومة للباب العالي، لكيلا يستخدم الكويت أو البحرين لعبور قواته.. أما في الوقت الحالي، فمن المحبّذ أن يسمح لـ«بعض» قواته بالمرور... إلخ، وهكذا خمدت ثائرة حكومة الهند!.

وقعة الشربة:

بعد أكثر من عام جاء دور القطيف، حيث وقعت سنة ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨ حادثة الشربة، وكان ذلك في عهد المتصرف محمود باشا.

---

(١) الوثيقة «FO .371/345» . رسالة من المعتمد السياسي في البحرين، الكابتن بريدو إلى المقيم البريطاني في بوشهر، الميجور بيرسي كوكس. مؤرخة في السادس عشر من ديسمبر ١٩٠٦.

(٢) الوثيقة «FO .371/345» رسالة من أ. غودلي إلى وزارة الخارجية البريطانية في ٢٧ مارس ١٩٠٧.

أما سبب الوقعة، فقد اتفقت آراء المؤرخين، على أن بدايتها كانت بسبب اعتداء أحد البدو على سقّاء متجوّل يحمل شربة «جرّة» ماء. ويروي المرحوم الشيخ فرج العمران أن الحادثة وقعت في سوق القطيف، يوم الخميس ١٨/ ٥/ ١٣٢٦هـ «١٧/ ٦/ ١٩٠٨» وبسببها سُدّت الأسواق وعُطّلت الأعمال، وتلفت النفوس ونُهبت الأموال، وهُدمت البيوت، وأُحرقت البساتين.. «وأصلها أن صبيًّا اسمه مكي بن الحاج إبراهيم الدبّوس، من أهالي الدبابية كانت بيده شربة كبيرة «جرّة» متخذة من الطين، ومملوءة ماء للبيع، ووقعت من يده على الأرض فانكسرت، فرمى بها في الشارع فوقعت قريباً من أحد البداة، فظنّ أنه رماها عليه متعمّداً، فجاء إليه البدوي فلزم حلقه ليخفنقه، ووضع خنجره في خاصرته ليقتله، فاجتمعت عليه الناس فخلصوه. فكثر القال والقيل، وفشا السبّ والشّتم، وتوفر الضرب الجرح، فكانت الحادثة العظيمة بين الشيعة وعشائر السنّة من الصبيح ومطير والعجمان والعوازم والمهاشير وغيرهم[١]. واستمرت الحادثة سبعين يوماً تقريباً، وقتلت من الشيعة والسنّة رجال أبطال وذوو شخصيات، وممن قتل فيها من الشيعة الشجاع الباسل جعفر بن الحاج حسن علي الخنيزي، وكان مقتله في ١٨/ ٧/ ١٣٢٦هـ ودفن في القلعة في المقبرة المجاورة لبيت آل أبي السعود»[٢].

لقد تطورت الأوضاع المتأزمة من الحادثة، وتبعها هجوم على القطيف التي حوصرت قرابة ستة أشهر على مشهد ومسمع من قوات أمن الدولة التركية التي أصابها الوهن والضعف.. وكانت وقعة الشربة في شهر يونيو ١٩٠٨ الموافق لشهر جمادى الأولى سنة ١٣٢٦هـ. أما الحصار فقد بدأ بعد الحادثة مباشرة حينما منع الأهالي البدوَ من شراء ميرتهم ودخول مدنهم وقراهم، واستمر الحصار حتى شهر نوفمبر - شوال على الأرجح.

ومما ساعد الأهالي في القطيف وقراها على الصمود ضد هجمات البادية، وجود الأسوار والبروج التي تحفظ المساكن من عبث البدو.. وخلال أواخر العهد التركي،

---

(١) المهاشير، فرع من الخوالد الذين هم أقرب القبائل البدوية إلى الشيعة، بسبب حكمهم السابق للمنطقة وتفاعلهم مع سكانها، وامتزاجهم بأهلها، واعتناق أكثرهم للمذهب الشيعي، ولا تزال صلاتهم قوية حتى اليوم مع الشيعة.. ويقال: إن بني خالد لم يكن لهم دور يذكر في وقعة الشربة.

(٢) الأزهار الأرجية في الآثار الفرجية، المرحوم الشيخ فرج العمران، المجلد ١٣، طبعة النجف الأشرف، ص٣٣٠. وانظر: ساحل الذهب الأسود، ص١٩٢.

ويسبب إنفلات الأمن، عُمّرت الأبراج وأُصلحت الأسوار، بل وابتُني عدد منها في القرى والأرياف.

فالقطيف -مثلاً- كانت تتكون من الكوت، وحي محصن، وسوق طويل، وبجانبه ضواحٍ سكنيّة مختلفة.. ويسمّى الكوت أيضاً «قلعة القطيف». وهي محاطة بسور له أضلاع يبلغ إرتفاعها ثلاثين قدماً، في حين كانت بوابة القلعة مطلّة على البحر إلى جانب بوابات أخرى من الغرب والجنوب.

ووصف الكابتن ج. فورستر سادلير في رحلته عبر الجزيرة العربية عام ١٨١٩ السور بقوله: «يوجد لحصن القطيف ثلاث بوابات، وهو على شكل مستطيل، وبه قلعة عند أقصى زاوية باتجاه الشمال، وهي مزودة بنبع مائي جيّد، ويعتقد أن البرتغاليين هم الذين شيّدوه»[1].

ووصف الأستاذ محمد سعيد المسلم السور كما رآه -وهو وصف أقرب إلى ما كان عليه الوضع أواخر العهد التركي- فقال: إن القطيف «يحيطها سور قديم يبلغ سمكه سبعة أقدام وارتفاعه ثلاثين قدماً. وتبرز بين جوانبه وزواياه أبراج عالية مستديرة الشكل، وتوصل هذه الأبراج التي يبلغ عددها أحد عشر برجاً، جسور ممتدة في أعلى السور لتتصل الحاميات بعضها ببعض أثناء قيامها بمهامها»[2].

لهذا شهد سور القطيف أكثر من هزيمة للبادية، إحداها كانت بعد بضعة أيام من نشوب الفتنة الأولى «وقعة الشربة».. فقد جاء البدو بجمع كثيف، وعسكروا في الجهة الغربية وفي النخيل المجاورة للدبابيّة، ثم واصلوا الزحف إلى القطيف للانتقام.. وكانت المدينة تتكون يومئذ من الشويكة والدبابية والكويكب والشريعة وميّاس والمدارس وباب الشمال والجراري والقلعة التي كانت أكثر تحصيناً ومنعة، فأُدخل فيها النساء والأطفال والعجزة والشيوخ، وعاش الرجال في البلد على حذر، وكان ضمن الحاضرين الشيخ محمد النمر -قائد انتفاضة العوامية ضد الحكم السعودي عام ١٣٤٨هـ-.

وحينها خطط الشيخ النمر -وهو ضرير- بأن يجعلوا الرجال على طول محيط السور

(١) الألعاب الشعبية في القطيف، عبدالله حسن آل عبد المحسن، ص٥٩ - ٦٠.
(٢) محمد سعيد المسلم، ساحل الذهب الأسود.

وفي البرج، وأوصاهم: إذا رموكم -بالنار- فلا ترموهم، وانتظروا حتى ينفذ بعض ما عندهم، ثم ابتدئوا بالرمي ولكن بصورة متقطعة.. وقبل هذا ضعوا «قلال» التمر على امتداد الجدار الأمامي من الداخل، وبقدر الإمكان اجمعوا التراب والرماد، فإذا اشتدت الرماية من قبلهم عليكم، ألقوا به من أعلى من جهتي الغرب والشمال، وعندئذ يظنون أن الحاجز الأمامي قد انهار، وسيتقدمون إليكم بجمعهم يريدون دخول البلدة من هذا المكان، وهم لا يبصرونكم من شدة الغبار وكثافة التراب، وأنتم لهم مبصرون بإطلالكم عليهم، فإذا ما اقتربوا ارموهم رمية رجل واحد، وبهذه الخطة سينهزمون، إن شاء الله تعالى.

وقد نفّذ أهالي القطيف هذا التخطيط البارع، وكانت النتيجة هزيمة البادية عن القطيف[1].

هذا بالنسبة لسور القطيف ودوره، أما القرى والمدن الأخرى، فكانت -كما ذكرنا مسوّرة أيضاً- ولم يستطع البداة اختراقها، فمدينة صفوى كانت للتو قد أعادت بناء سورها سنة ١٩٠٦، أما سورها الأصلي الذي بناه البرتغاليون فقد أُعيد بناؤه قبل عام ١٩٠٦، ولم تكن له إلا بوابة واحدة يطلق عليها «دروازة البحر» وهي التي يخرج منها الأهالي للصيد واستخراج اللؤلؤ.. وأُضيفت بعدئذ بوابات مثل «دروازة العصافير» و«دروازة الخويدعة» و «دروازة حسينية بن جمعة». وعُمل لكل بوابة دهليز لخروج البحارة والمزارعين. وللسور برجان يطلق عليهما «برج العين» و«برج البحر»[2].

أما قرية عنك فكانت مسوّرة، وهي تتشكّل من حي الشيعة «العليوات» وحي «بني خالد» وكان في القرية قلعة تطلّ على البحر، وحامية للأتراك، وكذلك يصدق القول على قرية البحاري، والملّاحة، وحلّة محيش، والخويلدية، والجارودية، وأيضاً مدينة سيهات، والأوجام، والقديح، وتاروت التي لا تزال قلعتها ماثلة للعيان حتى اليوم[3].

على أن وقعة «الشربة» وتأثيراتها السلبية على الأهالي ما كانت لتخفى على الإنجليز

---

(١) عبد العلي السيف، مصدر سابق، ص٤٤ - ٤٥. نقلًا عن مجلة المنهل السعودية. الصادرة في ٢١ ربيع الثاني سنة ١٣٨٨هـ. إجابة من قبل الأستاذ مهدي السويدان عن سؤال حول حادثة الشربة.

(٢) الألعاب الشعبية في القطيف، ص٧٦ - ٧٧.

(٣) المصدر السابق، ص٦٢ - ٦٨.

الذين يرقبون الأوضاع ويتحيّنون الفرص.. وقد سجّلت الوثائق البريطانية الكثير من تفاصيل الحادثة.. وكان اهتمامهم منصبًّا لتحقيق غرضين أساسيين:

الأول: منع اتساع الاضطرابات بحيث لا تصل إلى مناطق تهدّد المصالح والرعايا البريطانيين في البحرين وحتى القطيف إن أمكن.. خاصة وأن البدو استخدموا السفن لمحاربة أهالي القطيف وتجارتهم وسفنهم.. وأن انتشار مثل هذه الأعمال يفقد البريطانيين المصداقية كحماة لما يدعونه «السلم البحري»!.

الثاني: استغلال الحدث، للظهور بمظهر المنقذ لدى السكان، في وقت تجلّت فيه الصورة عن ضعف الأتراك، الذين فقدوا هيبتهم بشكل كامل تقريباً. ولا شك في أن هذا المظهر له أثر كبير في احتمال قبول السكان بالحماية البريطانية.. والذي حدث هو أن الإنجليز تقدّموا بعروض الحماية، وفي الوقت نفسه رفعوا علمهم في رأس تنورة، ولكن الأهالي -رغم موافقة الأتراك على المساعدة- لم يقبلوا الحماية، وعمدوا إلى العلم البريطاني في رأس تنورة فمزّقوه!.

بمجرد وصول أخبار الاضطرابات في القطيف، أفاد قائد البحرية في الخليج الفارسي الأدميرال ج. وارندر عنها في برقية لحكومة الهند، قائلاً: إن هناك «قرصنة في القطيف»!، وطلب «استخدام زورق المعتمد السياسي في البحرين.. وإذا أمكن إعارة الزورق إليه، فسآمر باستخدامه للعمليات العسكرية، وأزوّده بطاقم وعَلَم»[1].

ردّت حكومة الهند إلى الميجور كوكس «المقيم في بوشهر» بأنه «لا مانع لدينا من إعارة الزورق، شريطة إصدار أوامر المهمة الأصولية، وتزويده بطاقم وعلم»[2].

وفي التاسع من أغسطس ١٩٠٨، أرسلت المقيمية البريطانية في بوشهر مذكرة إلى حكومة الهند حول الأحداث الأخيرة التي وقعت في القطيف، اعتماداً على المعلومات التي تلقتها المقيمية من المعتمد السياسي في البحرين.. تقول المذكرة[3]:

---

(١) الوثيقة «FO .424/216» ومؤرخة في ٨ أغسطس ١٩٠٨، ومرسلة من الأدميرال السير. ج. وارندر إلى حكومة الهند.

(٢) الوثيقة «FO .424/216» ومؤرخة في ١١ أغسطس ١٩٠٨ برقية من حكومة الهند إلى كوكس في بوشهر.

(٣) الوثيقة السابقة، مؤرخة في ٩ أغسطس ١٩٨، ومرسلة من الكابتن تريفور، إلى حكومة الهند.

«خلال الأيام العشرة الماضية تصاعدت حدّة العداء بين أهل القطيف، والبدو إلى حد ينذر بلخطر.. يبدو أن الشجار الذي نشأ بسبب القضية التي أشرت إليها في الفقرة ١٣٣٠ من تقرير هذه المقيمية رقم ٢٧، عن الأسبوع المنتهي في الخامس من يوليو ١٩٠٨، قد سوّيت مؤقتاً وظاهريًا فقط، نتيجة وساطة القائمقام، والحاج منصور باشا -بن جمعة- وأن الطرفين ينتظران الفرصة المواتية لتجديد الأعمال العدائية».

وتضيف المذكرة.. «ومما زاد من حدّة العداء، بعض المشاكل التي نشأت مؤخراً بين أهل القطيف وبدو السبيع وعمير المنتشرين على الساحل، بسبب رفض سكان القطيف السماح لهؤلاء البدو بدخول بساتين النخيل لقطف مؤونتهم من التمور. وقد انضمّ السبيعيون والعميريون إلى بدو المناطق الداخلية، واحتشدت نتيجة ذلك قوة كبيرة طوّقت الواحة من جميع الجهات، وبدأت بفتح طرق إلى داخل بساتين النخيل -لنهبها- وقتل من البحارنة -شيعة القطيف- في مجموعات مؤلفة من شخصين أو ثلاثة».

وأشارت المذكرة إلى تضامن الشيعة مع بعضهم في مقاومة الاعتداء، رغم عدم تكافؤ القوى، واستطاعوا إيقاف زحف البدو في هجمات متكررة قدموا فيها خسائر بين «٣٠ - ٥٠» رجلاً في كل هجوم، أما الجنود الأتراك المتمركزون في عنك -وهم قلّة- فقد حاولوا «استعراض عضلاتهم بالزحف داخل الصحراء ولكن دون نتيجة».

وتقوّم المذكرة الوضع بقولها: إنه أصبح «خطراً للغاية منذ ذلك الحين، فالواحة يجتاحها حاليًا بدو يرتكبون جميع أنواع الجرائم الوحشية.. يُقال: إن مئات من أهل القطيف قتلوا، كما جردت آلاف أشجار النخيل من ثمارها ثم قطعت.. ونهب البدو ثمان وعشرين قرية ثم أحرقوها.. وقد وصل حوالي ٨٠٠ من اللاجئين من الرجال والنساء والأطفال، ومعظمهم من طبقة صيادي اللؤلؤ، وصلوا إلى قرية سنابس في البحرين يوم التاسع والعشرين من يوليو ١٩٠٨ «الأول من رجب ١٣٢٦هـ» وتوزعوا في القرية حيث يشغل معظمهم بيوتاً يهجرها أصحابها في هذا الوقت من العام -عادة- وينتقلون إلى المناطق الرطبة قرب الساحل».

«ويقال: إن البدو استولوا على كل قرى الواحة[1]، باستثناء قلعتي عنك والقطيف، ويزيد من خطورة الوضع اندفاع البدو باتجاه البحر لنهب وقتل صيادي اللؤلؤ القطيفيين،

(١) هذا غير صحيح، أضف إلى ذلك أن بعض المبالغات شابت المعلومات التي قدمتها المذكرة.

كما يقال بأن زورقاً محملاً بـ ٢٣ قطيفيًّا، باغته البدو قرب دارين وذبحوهم جميعاً».

وأشارت المذكرة إلى أحد أسباب الاهتمام البريطاني بما يحدث حين قالت بأن «تجار البحرين، والرعايا البريطانيون والأجانب الذين لهم مصالح وأعمال كبيرة في القطيف، قدّموا مذكرة إلى المعتمد السياسي يرجونه فيها إرسال زورق حربي إلى القطيف لإنقاذ الوضع.. وبناءً عليه أُرسل زورق المعتمدية بأمر القبطان الليفتانت كوماندر غود سميث، يوم الثلاثين من يوليو ١٩٠٨، يقوده الليفتانت بريدو - برون، من السفينة الحربية «لابوينغ» وذلك بهدف الحصول على معلومات صحيحة وحديثة من قائمقام القطيف».

«عاد الزورق في الأول من أغسطس يحمل معلومات تشير إلى أن أهل دارين يتعاونون مع البدو، طائعين أو مرغمين، متجاهلين بشكل تام سلطة القائمقام.. وأن البدو القراصنة يستخدمون قوارب أهل دراين بحرية للقيام بعملياتهم ضد أهل قرى وبلدان واحة القطيف. ويقال: إن عدداً من القوارب الكويتية قد سُحبت إلى دارين، وأن أصحابها يجلسون خاملين بلا عمل في الجزيرة». وعبّر القائمقام التركي في القطيف أثناء حديثه مع قائد الزورق البريطاني عن خشيته من أن يشن هؤلاء جميعاً هجوماً على القلعة!.

وكما انضمّ أهل دارين السنة -وبدافع مذهبي وقبلي- إلى البدو، وكذلك فعل بعض الكويتيين.. حاول شيعة البحرين -الذين تربطهم علاقة نسب بأهالي القطيف- رغم بعد المسافة، أن يساعدوهم بالمال وبالسلاح، من هنا كانت خشية البريطانيين من التورط في الأحداث.. وقد بعث أهالي البحرين عدّة شحنات من السلاح وصلت إلى القطيف، بناءً على تنسيق وطلب من المرحوم ابن جمعة، وفي إحدى المرات وقعت شحنة منها بيد البدو.. وقد أشارت المذكرة إلى ذلك بقولها: «إن قارباً محمّلاً بأربعين بندقية، غادر المحرق متوجهاً إلى القطيف حوالي الثلاثين من شهر يوليو، وإن البدو باغتوه بهجوم مفاجئ قرب ميناء القطيف، حيث أُصيب النوخذا حمد بن عبدالله الحسن بجروح طفيفة أثناء محاولته إنقاذ البنادق التي وقعت في أيدي البدو.. وأمر الأخيرون النوخذا بأن يأخذ زورقه ويعود به إلى البحرين، ويحذر الآخرين من مغبة الاقتراب من القطيف»[1].

ولأن الحامية التركية في القطيف ضعيفة متهالكة فقد «أرسل القائمقام برقية في الأول من أغسطس لمكتب بريد البحرين لإرسالها إلى البصرة، يطلب فيها بإلحاح إرسال

(١) الوثيقة السابقة.

التعزيزات العسكرية على جناح السرعة، بما في ذلك سفينة حربية وبعض المدفعية».
وكانت السفينة الحربية البريطانية «لابوينغ» وزورق المعتمدية في البحرين قد أبحرا في اليوم التالي ٢/ ٨/ ١٩٠٨ «بهدف منع اللصوص والقراصنة من اعتراض طريق حركة النقل البحري»!.

وما هي إلا أيام قلائل حتى بعث القنصل البريطاني في البصرة بتفاصيل إضافية عن الأحداث في القطيف إلى السير ج. لوثر في القسطنطينية، ومنه إلى ادوارد غري، وزير الخارجية بلندن.. ففي الخامس عشر من أغسطس ١٩٠٨ كتب القنصل البريطاني في البصرة «آرثر . ب. غري» بأن المقيم في بوشهر أرسل له برقية لينقلها إلى كبير الضباط البحريين البريطانيين، والذي كان متواجداً في البصرة يومئذ، ويقود السفينة الحربية «سفنكس».. ومما جاء في البرقية.. «أن سكان القطيف، والذين تحميهم حامية صغيرة وغير كفوءة، في وضع بالغ الخطورة، حيث يطوّق البدو البلدة بأعداد قدّرت بألفي بدوي. وما لم تصل تعزيزات للحامية فإن من المحتمل أن يُذبح السكان عن بكرة أبيهم».

وتتحدث رسالة القنصل[1] عن إرسال السفينة الحربية البريطانية «لا بوينغ» إلى القطيف، بعد أن تقدم الأتراك رسميًّا بطلب المساعدة، وقيل بمبادرة بريطانية صرفة، غير أن السفينة لم تستطع الرسو في الميناء، فتمركزت في نقطة أقرب ما يمكن من المدينة، بسبب موقعها الذي يجعل من الصعب اقتراب القوارب الحربية إلى موقع يكون فيه الرمي المدفعي فاعلاً إلى ما دون الستة أميال.. وأشارت الرسالة إلى أن سفينة حربية بريطانية «ردبرست» تستعد هي أيضاً لتقديم المساعدة إذا طلب منها ذلك.

إلا أن السفينة التي رفعت العلم البريطاني في رأس تنورة «لابوينغ» تعرّضت لمحاولات الهجوم من الشيعة، فقد تقدّمت السفينة للأهالي بالحماية من عبث البدو، وقد رفض أهل الحل والعقد، وعلى رأسهم منصور بن جمعة، والشيخ علي بن حسن علي الخنيزي، العروض البريطانية باعتبارها دولة غير مسلمة، وقاوموها بشدّة، وعمد أهالي صفوى إلى العَلَم البريطاني في رأس تنورة وحطموا ساريته في الحال[2]. ومع هذا قدّم قائمقام الأتراك في القطيف اعتذاراً عما بدر من الأهالي، نيابة عن حكومته كما سنرى!

---

(١) الوثيقة «E 1792» «FO . 424 / 216» مؤرخة في ١٤ سبتمبر ١٩٠٨. مرسلة من القنصل آرثر .ب. غري. إلى السير ج. لوثر في ١٥ أغسطس ١٩٠٨.

(٢) محمد سعيد المسلم، مصدر سابق، ص١٩٢ - ١٩٣.

وأشار القنصل البريطاني في البصرة «آرثر. ب. غري» إلى أنه اجتمع بوالي البصرة للتأثير عليه، لأن قائمقام القطيف خاضع لسلطة حسان بيك «وقد أظهر الأخير ترحيباً بتصرفنا تجاه هذه المسألة، وأخبرني بأنهم -الأتراك- يستعدّون لإرسال تعزيزات من البصرة، إما بواسطة السفينة الحربية «ليليد البحر»، أو بواسطة سفينة نقل مستأجرة، حيث يوجد خلاف في الرأي حول هذه النقطة بين السلطات العسكرية والسلطات المدنية». ومرّد الخلاف هو أن «مرسى الزورق الحربي التركي بعمق ١٢ قدماً، ولا يستطيع الاقتراب من القطيف إلى نقطة أقرب من رأس تنورة، حيث يتوجب في هذه الحالة إنزال الجنود في قوارب، وقد يتعرضون أثناء ذلك لنيران البدو بقيادة جاسم بن محمد بن عبد الوهاب، الذي يحتل دارين والمتحالف مع ضاربي الحصار»[1].

وسأل والي البصرة القنصل البريطاني، عمّا «إذا كان من الممكن الحصول على مساعدة زورق الحكومة البريطانية، الموضوع تحت تصرف المقيم السياسي في البحرين» فأجاب القنصل: «إنني لا أستطيع الإجابة على هذا السؤال قبل تلقي التعليمات من السلطات الأعلى».. وكان الميجور كوكس قد ذكر في برقية له، أن حكومة الهند سألت عند مدى استعدادها لتقديم المساعدة للأتراك، نظراً للمصالح التجارية للرعايا البريطانيين الهامة الموجودة هناك.

في هذه الأثناء قدمت برقية من المعتمد في البحرين إلى القيم في بوشهر تؤكد حرج الموقف في القطيف، فألحّ القنصل البريطاني -نظراً للمصالح التجارية- بإرسال التعزيزات الفورية، ورغم وعد الوالي بأن يفعل ذلك «فإنني أشك في وعده، لأنه لا يوجد سوى حوالي ٢٥٠ جنديًا في البصرة، والوالي غير راغب في إخلاء البلدة من الجنود، ومن المحتمل إصلاح هذا النقص عند وصول التعزيزات من بغداد، لكن من الممكن تماماً في هذه الأثناء أن ينخفض عدد حامية القطيف انخفاضاً حادًّا، وتجبر بالتالي على إخلاء البلدة، ولذلك فأنا أواصل إلحاحي على الوالي لكي يرسل كل من يستطيع توفيره من القوات إلى مسرح العمليات»[2].

على أن كل هذا اللغط لم يعطِ أيّة نتيجة، فلا الأتراك قدّموا المساعدة العاجلة، ولا

(١) الوثيقة السابقة.
(٢) الوثيقة السابقة.

الأهالي قبلوا المساعدة البريطانية، بل واصلوا المقاومة حتى ردّوا البدو على أعقابهم دون أيّة مساعدة.

وسبق لقائمقام القطيف أن كتب إلى الكابتن غود سميث معتذراً عما فعله الأهالي بالعَلَم البريطاني فقال: «أُبلغت بخبر وصلوكم إلى القطيف من قبل مترجمكم المستر كيلو، أنا آسف جدًّا للمعاملة غير المقصودة التي وقعت قبل بعض الوقت، وأنا على استعداد لزيارتكم، بدءاً من الساعة الخامسة صباحاً -بالتوقيت الإفرنجي- وإذا كانت الريح مؤاتية، فآمل أن أصل إلى سفينتكم في الساعة الحادية عشرة صباحاً»(١).

وقد وصل القائمقام وقدّم اعتذاره حسبما هو مطلوب ومتفق عليه -كما ذكرت وثيقة بريطانية-(٢).

ذلك أن الليفتانت كوماندر غود سميث كتب إلى الكوماندر ليتشفيلد، كبير ضباط البحرية في الخليج الفارسي، والقائد العام لجزر الهند الشرقية، من مقره في السفينة «لابوينغ» الراسية في شواطئ القطيف «راس تنورة» في الثامن من يونيو ١٩٠٨ ما يلي:

«بناء على أوامر الإبحار الصادرة عنكم والمؤرخة في الثالث من الشهر الحالي، لي الشرف بأن أعلمكم بأنني وصلت إلى القطيف يوم الجمعة، الخامس من الشهر الحالي، وأُرسل المترجم إلى القطيف حاملاً رسالة مفتوحة من والي البصرة إلى قائمقام القطيف. وقد وضعت الترتيبات لقدوم القائمقام إلى السفينة قبل ظهر اليوم التالي، بقاربه الخاص، لتقديم الاعتذار المطلوب. وقد أرسل القائمقام مع المترجم اعتذاراً خطيًّا باللغة العربية»(٣).

ويضيف غود سميث: «وقبل ظهر يوم السبت، السادس من يونيو ١٩٨٠، توجّه القائمقام إلى السفينة، يرافقه ضابط الميناء، وقائد القوات التركية المتمركزة حول

(١) الوثيقة رقم «FO .424/216» مؤرخة في ٢٣ مايو ١٩٠٨. من قائمقام القطيف إلى الكابتن غود سميث.

(٢) الوثيقة «FO . 424 / 216» «E 28190» مؤرخة في ١٣ أغسطس ١٩٠٨. ومرسلة من قيادة البحرية «و. غراهام غرين» إلى وزارة الخارجية في ١٢ أغسطس ١٩٠٨.. وقد أرسلت القيادة هذه نسخة ومرفقاتها عن الموضوع جاءتها من قائد السفينة «لابوينغ» مؤرخة في ٨ يونيو ١٩٠٨.

(٣) الوثيقة «FO . 424 / 216» «E 28190». من الكوماندر غود سميث بالقطيف، إلى الكوماندر ليتشفيلد، بتاريخ ٨ يونيو ١٩٠٨.

القطيف، وكان القائمقام يرتدي ثياباً مدنية، في حين يرتدي مرافقاه اللباس العسكري، وقد حضروا على ظهر مركبهم الخاص، وقاموا بزيارتي».

«وبدا واضحاً أن القائمقام كان آسفاً عن صدق لتصرفات مسؤولي الميناء السابقين، وأعرب عن أمله بألّا تتكرر تلك التصرفات في المستقبل. وقد ألحّ القائمقام عليّ كي أردّ زيارته، وأتصور أنه أُخبر بأن يتوقع هذه الزيارة بناء على أوامر تلقاها من القسطنطينية، خاصة وأنه كرر ذكر السلطان وانزعاجه جدًّا من الحادثة -اعتداء البدو على أهالي القطيف-. وفي اليوم التالي زرت القائمقام في منزله وعوملت بكرم ضيافة بالغ، كما تلقّى طاقم قاربي عناية جيدة من القائمقام»[1].

وما لبثت وزارة الهند أن أرسلت لوزير الخارجية البريطاني في ١٤ أغسطس ١٩٠٨، رسالة حول أحداث القطيف بناء على معلومات تلقاها الكابتن بريدو أثناء زيارته لها وأرسلها إلى المقيمية في بوشهر في ١١ أغسطس ١٩٠٨.

فقد «أفاد بريدو الذي عاد لتوّه من زيارة القطيف، أن البدو في تلك الواحة وما جاورها قد تمرّدوا وهاجموا بلدة القطيف والقرى الشيعية. وذبح المتمردون عدداً كبيراً من الناس، كما دمّروا معظم أشجار النخيل.. وإضافة لذلك تتعرّض القطيف في كل ليلة إلى اعتداءات جديدة، والأتراك في ضائقة كبيرة. يتوقع بريدو أن تضطر الحامية التركية إلى مغادرة البلدة والتخلّي عن أهلها، وتعريضهم لمذبحة رهيبة، ما لم ترسل التعزيزات بسرعة. كما يتوقع أن يتقدم القائمقام قريباً جدًّا بطلب مساعدة السفن الحربية[2]، ويسأل بريدو عما إذا كانت حكومة صاحب الجلالة ستوافق على تقديم مثل هذه المساعدة، وإلى أي مدى».

وتقول الرسالة: «أرسل كبار تجار البحرين مذكرة لبريدو، أوضحوا فيها أنه نتيجة علاقاتهم التجارية الوثيقة بالقطيف، فإنهم سيكونون أكبر الخاسرين نتيجة تدمير الممتلكات في الواحة، والقضاء على أهل القطيف. ويعبر بريدو عن الأمل بأن يكون رد حكومة صاحب الجلالة في هذه الظروف ردًّا إيجابيًّا».

---

(١) الوثيقة السابقة.

(٢) هذا يعني أن تقدم السفن البريطانية في وقت سابق لميناء رأس تنورة لم يكن ذا صفة رسمية، وإن كان مرضيًّا عنه من المسؤولين الأتراك المحليين.

ولكن حكومة الهند أبلغت المقيم في بوشهر «أنه ما لم تطلب السلطات التركية المساعدة رسميًا، فإنه من غير الوارد بالنسبة لنا أن نقدمها»[١] خاصة بعد التجربة السابقة وما سببته من حرج.

هذا ما ورد من وثائق بريطانية عن وقعة «الشربة» التي لم يستطع الإنجليز استغلالها بسبب تيقّظ قيادات الشيعة الدينية والسياسية.. أما فيما يتعلق بالصراع نفسه، فقد جرى الصلح بين البداة والأهالي، رغم ما تكبّده الأخيرون من غرامات، وتتابعت السنون والبلاد في حالة من القلق والفوضى، بحيث أصبح المواطن لا يستطيع أن يتعدّى أسوار القلعة إلا بخفير أو فرقة مسلحة من الرجال[٢].

وجدير بالملاحظة أن هجمات البادية على الأحساء، كانت أكثر شراسة وأكثر نجاحاً، ذلك أن الأحسائيين اعتمدوا في الغالب على الحاميات التركية المريضة، فلم تحم أرضاً أو تدفع ضرراً، في حين كان تواجد القوات العسكرية التركية، ومنذ البداية، قليلاً في القطيف، مما جعل الأهالي يعتمدون على أنفسهم في حماية أرواحهم وأملاكهم، وقد ساعد وجود الشخصيات السياسية في القطيف على التصدّي للبداة، وكانت خسائر هؤلاء الأخيرين أكثر من خسائرهم في الأحساء.

ومما جعل الأوضاع تتفاقم في الأحساء، هو أن المتصرفين أو أعوانهم الكبار أقاموا علاقات مع زعماء البدو ومع ابن سعود أحياناً، كما فعل محمود باشا سيّئ السيرة والتدبير، الذي كانت علاقته بابن سعود قوية، وكان يوعز إلى البادية بقطع الطرق، مقابل أن يحصل على نصيب من المنهوبات، فما كان من أهالي الأحساء، إلا أن ترصّدوا له فقتلوه في سوق الهفوف بعد صلاة العصر، في الثامن من ذي الحجة سنة ١٣٢٧هـ الموافق للعشرين من ديسمبر ١٩٠٩[٣].

ووصل الحال أن أصبحت المنطقة في عام ١٩١٠ وما بعده، سائبة لمن أراد الاعتداء والنهب، حتى أمير الكويت مبارك الصباح، وأمير قطر الشيخ قاسم، طمعاً في الاستيلاء

(١) الوثيقة «FO . 424 / 216» «E 28301». مؤرخة في ١٤ أغسطس ١٩٠٨. وهي رسالة من حكومة الهند إلى الفايكونت مورلي «وزارة شؤون الهند» بتاريخ ١٣ أغسطس ١٩٠٨.

(٢) محمد سعيد المسلم، مصدر سابق، ص٩٢.

(٣) آل عبد القادر، مصدر سابق، ص١٩٠.

على المنطقة، فما بالك بابن سعود؟

وفي عام ١٩١١ تعدّى مبارك على أهالي الجبيل «آل بوعينين» دون خوف.. والقصة كما رواها حسين خلف خزعل، وعبد العزيز الرشيد، تقول: إن عشيرة آل بوعينين كانت تسكن الوكرة، وهم أصهار بني خالد، وكانت الرئاسة فيهم، حيث كان أميرهم عام ١٩٠٨ / ١٣٢٦هـ عبدالله بن علي بن راشد.

ولكنهم، وبعد خلاف مع أمير قطر غادروها إلى الكويت، ولكن مبارك الصباح لم يفسح لهم المجال، فغادروها إلى الجبيل -من توابع القطيف- فخشي مبارك أن تزاحم الجبيل الكويت في المستقبل، فعرض عليهم العودة إليه، ولكنهم رفضوا، فما كان منه إلا أن حرّض بعض بني خالد للتعرّض لهم بالأذى، ثم ما لبث أن وجّه لهم سريّة بقيادة الشيخ علي الخليفة، فشكوه إلى والي البصرة حسن رضا باشا، الذي كتب لمبارك سنة ١٣٢٩هـ/ ١٩١١، طالباً منه كفّ الأذى وعدم التدخل في شؤون أهالي الجبيل أو التعرض لهم، وقال له في الرسالة: «إن الحالة الحاضرة التي عليها الدولة العثمانية لا تتطلب من المخلصين إليها القيام بمثل هذه الأمور الصغيرة التي لا موقع لها الآن، وإنما المتطلب منهم مصافاتها والقيام بخدمتها وإنقاذها من تلك الهوّة السحيقة»!!.. والوالي يشير هنا إلى الأوضاع المتأزّمة من حرب الغرب مع العثمانيين في البلقان، وقد اعتذر مبارك وأنكر، وكفّ الأذى[1].

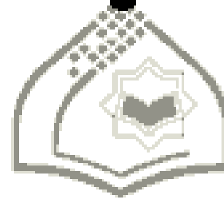
واستمرت الأحوال في المنطقة على سوئها، ومما زاد الطين بلّة، أن والي البصرة السابق سليمان بك استدعى سنة ١٩١٠ معظم القوة العسكرية، فأثار ذلك طمع ابن سعود، الي أخذ يترقب الفرصة المؤاتية للاستيلاء عليها، وحين خرجت الدولة العثمانية من حرب البلقان منهوكة القوى، وأخذت الأطماع تكتنفها من كل جانب، رأى أن هذه هي الفرصة التي كان ينتظرها، فقرر احتلالها.. وفي الصفحات القادمة نتتابع مطامع ابن سعود في المنطقة إلى أن يحتلها.

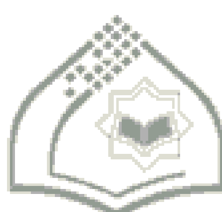
(١) عبد العزيز الرشيد، مصدر سابق، ص٢٠٠ - ٢٠١. وانظر تاريخ الكويت السياسي، ج٢، ص٨٣ - ٨٤.

٨

أطماع السعوديين

في الأحساء والقطيف (١٩٠٢-١٩١١)




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

كانت الأحساء والقطيف تجلبان انتباه حكام الرياض دوماً، ولم يكن الأمر يقتصر على اعتبارهما ضيعة لهم، فإن واحات المنطقة الغنيّة، والمداخيل الجمركيّة، كان بوسعها أن تعزّز الحالة المالية للسعوديين، وتساعدهم في تحقيق مطامعهم التوسعية[1].

وإقليم الأحساء هو أخصب إقليم في جزيرة العرب قاطبة من حيث غزارة مياهه، وكثرة حاصلاته الزراعية منذ عهد قديم وإلى وقت ظهور النفط، وكان يغمر الأقاليم المجاورة له بالتمر والأرز -كما قال الأستاذ حمد الجاسر-[2].

ومن المعروف أن المنطقة كانت أزهى مناطق الجزيرة العربية حضارة، وأخصبها أرضاً، وأكثرها خيرات، وأقواها صلة بالأقطار المجاورة شرقاً وشمالاً، وكانت مصدر قضاء حاجات سكان داخل الجزيرة العربية على اختلاف أنواعها، حيث كانوا يستمدون منها غذاءهم وكساءهم وسلاحهم وتوابلهم وآنيتهم، ثم أصبحت بعد تدفق النفط أعظم مصدر للثروة والغنى حيث يرقد تحت ترابها بحار من النفط[3].

واعتبرها «روبرت ليسي»[4]: «أنها اليوم أثمن قطعة أرض على وجه البسيطة».. وكتب مرّة أخرى مشيراً إلى أهمية الأحساء بأنها «أغنى مناطق آل سعود» و«أن حقول بترول المملكة تقع في هذا القاطع الشمالي/ الشرقي من شبه الجزيرة العربية، وقبل قرن كانت تجارة التمور واللؤلؤ هي مصدر غنى الأحساء.. وقد عجّل الاحتلال التركي

---

(١) فاسيلييف، مصدر سابق، ص٢٣٣ - ٢٣٤.

(٢) آل عبد القادر، مصدر سابق، المقدمة، ص ي.

(٣) المعجم الجغرافي للمنطقة الشرقية، ج١، حمد الجاسر، ص٤٢ - ٤٣.

(٤) المملكة، روبرت ليسي، ترجمة دهام عطاونة، ص٧٤.

للأحساء من سقوط حكم آل سعود في السبعينات والتسعينات من القرن الماضي، نظراً إلى أن الرياض كانت تعتمد على الدخل من وارادات الأحساء لشراء ولاء القبائل.. لذا كان الاتجاه الواضح للسياسة الخارجية السعودية هو مقاومة قوة وأطماع الأتراك العثمانيين -في الأحساء- بعد أن رسّخ عبد العزيز دعائم حكمه في الرياض في السنوات التي تلت عام ١٩٠٢م»[1].

وقال في موقع ثالث: «لقد جعلت منطقة الأحساء مزدهرة لدرجة أنه كانت للمنطقة عملتها الخاصة بها: الطويلة.. كانت تتداول إلى جانب الروبية الهندية وريال ماريا تيريزا.. ولمّا حاول الكولونيل بيلي عام ١٨٦٥ تقييم ثروة الإمبراطورية الوهابية قرر أن نصف إيراداتها تماماً أتت من الهفوف ومنطقة الأحساء، التي كانت تضمّ ربع السكان تقريباً.. وكان فقدان الأحساء عام ١٨٧١ بمثابة خسارة مالية كبيرة مُني بها آل سعود»[2].

واعتبر كشك[3] احتلال الأحساء: «ضربة العمر لابن سعود وآل سعود، باعتبار الموقع وما تفجّر عنه من نفط ومال. حتى وإن كانت مكانة الحجاز في العالم الإسلامي لا سبيل لتقديرها ماليًّا»!.. وفعلاً كانت الأحساء ولا تزال بالنسبة للحكم السعودي، وقبل النفط وبعده، أهم بالنسبة له من الحجاز ومقدساته، رغم ما يمثله من ثقل ديني لدولة السعوديين التي قامت على أساس دعاوٍ دينية. لهذا رأينا أن الحجاز سواء في الدولة السعودية الأولى أو الثالثة، يُحتل بأموال الأحساء والقطيف!

لقد كان أمام السعوديين هدفان يجذبانهم نحو الأحساء:

الأول: الثراء الهائل في المنطقة، حيث عُدّت أغنى مناطق الجزيرة العربية، لوجود المياه بكثرة، وملايين من أشجار النخيل، ومساحات شاسعة من حقول الأرز والقمح، ومحاصيل زراعية أخرى.

وكانت القطيف، إضافة إلى زراعتها، قد اعتمدت في جانب من ثرائها على صيد اللؤلؤ والاتّجار به مع الهند وفارس والعراق.

(١) المصدر السابق، ص٤٨.
(٢) المصدر السابق، ٧٢ - ٧٣.
(٣) جلال كشك، مصدر سابق، ٢٣٧ - ٢٣٨.

الثاني: موقع الأحساء الاستراتيجي، الذي أغرى المستعمرين البريطانيين، وقبلهم البرتغاليين الذين احتلوا القطيف مدة من الزمن، بل وأغرى الصهاينة حيث تقدم طبيب صهيوني في باريس عام ١٩١٤ بعرض تأسيس دولة لليهود في الأحساء «راجع الملاحق».. ولم يكن غائباً عن ذهن السعوديين حاجتهم إلى ميناء يطلّ على البحر، إذ إن غير ذلك يجعلهم يختنقون في نجد، أو يجبرهم على الرضوخ إلى سلطات الساحل الأحسائي وغيره، باعتباره المنفذ الذي يرد إليهم منه حاجاتهم.

يصوّر لنا فاسيلييف الحاجة السعودية هذه حينما قال مشيراً لاحتلال ابن سعود للمنطقة: «لقد انتزعت إمارة الرياض من الإمبراطورية العثمانية إقليماً غنيًّا من أقاليم الجزيرة العربية، وحصلت على منفذ إلى الخليج من الكويت حتى قطر.. إن أهمية الأحساء بالنسبة لإمارة الرياض لا تقدّر بثمن، فالأراضي التي كان السعوديون يسيطرون عليها حتى ذلك الحين خالية من أية موارد طبيعية. ولم يكن محصول التمر في حدودها يكفي لسدّ حاجة الحضر والبدو. ولم تكن الحبوب كافية، وكانت الإمارة بحاجة إلى استيرادها. وكان السكان الحضر يعتمدون كليًّا تقريباً على استيراد الأقمشة، وكانت القوات بحاجة إلى مشتريات السلاح من الخارج، وقد أمّن الاستيلاء على إقليم الأحساء والحصول على منفذ في الخليج قوة حيوية للدولة السعودية واستمرار تطورها»[1].

ويلاحظ كل من تسنى له الاطلاع على التاريخ السعودي، ولو كان هذا الاطلاع قليلاً موجزاً، أن الأحساء وواحة القطيف، كانتا في أول بنود استراتيجيات الاحتلال السعودي، فبمجرد أن يسيطر السعوديون على نجد، أو حتى على جزء منها، فإنهم يحثّون الخطا نحوهما، للسيطرة على مواردهما الضخمة واللازمة في تمويل احتلالات أخرى.

حدث ذلك في الدولة السعودية الأولى، فكانت الأحساء المنطقة الثانية التي أُخضعت بعد نجد، وحدث ذلك أيضاً في الدولة السعودية الثالثة، فإن ابن سعود، وقبل أن تتدعّم سلطته خارج أسوار الرياض، بدأ يفكّر في احتلال الأحساء، وكان الملك السعودي مقتنعاً أنه لن يتمكن من إخضاع ابن رشيد واحتلال حائل -قلب نجد وعاصمته يومئذ- إلا بموارد الأحساء نفسها.

وردت أول إشارات لأطماع ابن سعود في الأحساء، بعد أقل من شهرين من

(١) فاسيلييف، مصدر سابق، ٢٤٣.

احتلاله للرياض في شهر يناير ١٩٠٢، حينما طلب ابن رشيد عن طريق مبعوثه الحازمي بطرد المتعاونين الوهابيين مع ابن سعود، أما الإشارة الثانية فهي في إرسال الأخير مبعوثه «عبد الرحمن سلمان» في عام ١٩٠٣ إلى البحرين لمقابلة المعتمد السياسي البريطاني هناك، وجسّ نبضه حول إمكانية احتلال ابن سعود للأحساء والقطيف، وموقف بريطانيا من ذلك، وما يمكنها أن تقدمه من مساعدة، وذلك على النحو الذي أشرنا إليه في صفحات سابقة.

ولحساسية العلاقة مع الأتراك، أُعطي لخارجية لندن الدور الأكبر في تحديد مستواها مع ابن سعود، بالشكل الذي لا يزعج الأتراك كثيراً، ولذا أُجّل موضوع الحماية التي يطلبها ابن سعود «بمنع الأتراك من مهاجمته بحراً إذا ما قام باحتلال المنطقة» إلى فترة لاحقة، خلافاً لرغبة حكومة الهند ووزارة المستعمرات، وخلافاً لرغبة السير بيرسي كوكس، رئيس المعتمدين في الخليج والمقيم في بوشهر.

في مايو ١٩٠٤ تحركت قوات تركية من أربعة آلاف مقاتل من العراق لدعم ابن الرشيد، فأرسل ابن سعود للمقيم السياسي محتجاً على الغزو، وطالباً المساعدة والحماية[١].. وفي فبراير ١٩٠٦ عرض ابن سعود احتلال المنطقة على السير بيرسي كوكس، في رسالة له أرسلها عن طريق الكابتن بريدو -المعتمد السياسي في البحرين- بيد مبعوثه مسعود بن سويلم، وقال في الرسالة: «إنه قد استشعر في نفسه الآن قوة تكفي لطرد الأتراك من الأحساء، وإنه راغب في عقد معاهدة مع الحكومة البريطانية مع الترخيص لها بتعيين وكيل سياسي في الأحساء والقطيف، شرط أن يكفل الإنجليز الحماية من الهجوم التركي»[٢].

وأضاف ابن سعود بصراحة: «أنه يريد تأييد الأسطول البريطاني في حملة تهدف إلى إخراج العثمانيين من الأحساء، وبيّن حاجته إلى ذلك الأقليم الذي يصله بالعالم الخارجي، وعرض مقابل ذلك امتيازات غير محددة تحصل عليها بريطانيا في بلاده»[٣].

(١) كشك، مصدر سابق، ص٣٢٣. وناصر الفرج، مصدر سابق، ص٢٦. وانظر التطور السياسي لقطر، مصدر سابق، ٢٠٢، حيث يقول المؤلف: إن ابن سعود «استغاث بالحماية البريطانية».

(٢) عبد العزيز محمد منصور، مصدر سابق، ص٢٠٢.

(٣) الدكتور العقاد، مصدر سابق، ص١٩١. وانظر: جمال زكريا قاسم، ج١، ص٣٠٥ - ٣٠٦. وأيضاً مجلة «الدارة» مارس ١٩٨٦، ص٣٩.

ورغم أن بريدو لم يشجّع العروض السعودية، إلا أن كوكس حاول عبثاً توضيح مزايا التحالف مع ابن سعود للسياسة والتجارة والاستراتيجية البريطانية.. لكن جواب حكومة الهند كان الرفض، وحدّد جون مورلي للسير بيرسي كوكس، بأن بريطانيا تقتصر عنايتها ونفوذها على الساحل[1].

في عام ١٩٠٦ أيضاً، زار كوكس «القطيف» والتقى مع زعيمها ابن جمعة في قصر الدرويشية المطلّ على البحر، وعرض عليه الحماية إذا انفصل عن الأتراك، ولكن الأخير رفض العرض، ويبدو أنه كان سهلاً على بريطانيا تبرير دعمها -لو حدث- لابن جمعة، بحجّة أنه زعيم محلي، أما ابن سعود القابع في نجد، فلا يمكن لبريطانيا تبرير دعمها له لاحتلال منطقة اعترف الإنجليز «بعثمانيتها».

واستخدم ابن سعود مبارك الصباح، وكذلك قاسم آل ثاني، حاكم قطر، كسعادة بريد لإيصال رسائله للإنجليز.. ففي أغسطس ١٩٠٦، حاول مبارك إقناع المعتمد السياسي في الكويت «الكابتن نوكس» بمزايا وضع ابن سعود تحت الحماية البريطانية، ومساعدته في احتلال الأحساء.. وبعد شهر واحد، أي في يوليو ١٩٠٦ طلب نوكس -بناء على أوامر من المقيم- من مبارك أن يعرفه بما لديه من معلومات عن الرواتب التي يتقاضاها أمير حائل «متعب بن رشيد» وعبد الرحمن الفيصل آل سعود، فأبلغه بالتالي:

- لعبد الرحمن بن فيصل آل سعود ٩٠ ليرة تركية كل سنة.
- لمتعب بن رشيد ٢٠٠ كيس أرز، و ٢٠٠ ليرة كل سنة[2].

كان واضحاً من الاستطلاع أن البريطانيين يعدّون خطة للسيطرة على كامل

(١) عبد العزيز محمد منصور، مصدر سابق، ص٢٠٢.

(٢) انظر الوثيقة رقم «FO .371/345». رسالة من الكابتن نوكس بالكويت، إلى الميجور بيرسي كوكس في بوشهر، بتاريخ ٣٠ سبتمبر ١٩٠٦. وقال نوكس في رسالته: «وبينما كنت أناقش هذا الأمر مع الشيخ مبارك، التفت إليّ فجأة وقال: لقد سألتني عن مخصصات ابن رشيد وابن سعود، ولكنك لم تسألني عن مخصصاتي؟.. قلت له: بالتأكيد إنك لا تتقاضى أي شيء؟.. أجاب: بالطبع، ولكن السلطات التركية في البصرة تضغط عليّ لقبول المخصص، وبدلاً من ذلك، أنا الذي أقوم بالدفع للأتراك، فحينما يطلبون مني مائتي ليرة تركية، أرسل لهم ستمائة. لقد أخبرتهم في إجابتي على إلحاحهم، بأن قطع الحكومة للراتب صار مصدراً للشرف، ولذلك لم يعد يغريني قبوله. الحمد لله أنا أملك مالاً كثيراً».

التراب النجدي، وذلك بإغراء ابن رشيد للتعاون معهم، وإقامة علاقات حسنة مع ابن سعود.. وقد فشلوا في ذلك إبان الحرب العالمية الأولى.

ويذكر كوكس أنه حينما كان يتجوّل على الشاطئ الغربي من الخليج في مايو ١٩٠٦، سنحت له الفرصة في لقاء الشيخ قاسم حاكم قطر، الذي أبدى تعاطفه الواضح مع ابن سعود. وقال: إن الأخير قوي بما فيه الكفاية ليخرج الأتراك من نجد والأحساء، وأضاف نيابة عن ابن سعود، أن الأخير يسأل الحكومة البريطانية «ما إذا كانت على استعداد لتقديم الحماية له في البحر، مثلما فعلت مع مبارك ورؤساء العرب في الساحل، نظراً لسياسة بريطانيا التقليدية في حفظ أمن الملاحة في الخليج»؟. وقال قاسم مقترحاً: إن ابن سعود يمكنه بسهولة مقابلة أي مسؤول بريطاني على الساحل لمناقشة الأمر، إذا كان ذلك مرغوباً فيه!

ردّ كوكس: «قلت للشيخ قاسم بأن تلك مسألة لا أستطيع أن أُقدّم له جواباً محدداً ومرتجلاً عليها، وبدون تعليمات من حكومة الهند»[1].. فما زال الإنجليز يودّون لو أنهم لا يكلفون ابن سعود بهذه العملية.

وكان المقيم رغم ردّه الدبلوماسي هذا مقتنعاً بمزايا التحالف «الرسمي» مع ابن سعود، وألحّ على حكومته أكثر من مرّة بأن تتبنّى وتدعم الحكم السعودي.. ففي رسالة كتبها لحكومة الهند في السادس عشر من سبتمبر ١٩٠٦، عدد الفوائد أو المخاطر التي يمكن أن تتم إذا ما جرى اتفاق رسمي مع ابن سعود، وهي:

١- إن تجاهل ابن سعود وعروضه لإقامة صداقة مع الحكومة البريطانية، قد يؤدي إلى تكوين نظرة عدائية لنا.

٢- إزالة القلق لدى مشايخ الخليج الصغار من ابن سعود «فلو أنني استطعت أن أبلغ أمراء الساحل المهادن بأننا على اتفاق معه لانتهى الأمر، ولكنني لا أستطيع، ونتيجة لذلك سيظل الأمراء في حالة مضطردة من القلق والاضطراب».

٣- إن تأثير ابن سعود سيساعدنا على قمع أعمال القرصنة.

---

(١) انظر الوثيقة رقم «FO .371/345» رسالة من نوكس إلى المقيم كوكس في السادس عشر من سبتمبر ١٩٠٦. وانظر أيضاً: جمال زكريا قاسم، ج١، ص٣٠٧.

٤- إذا لم تساعد بريطانيا ابن سعود ضد العثمانيين، فإنه قد يتجه إلى الاستعانة بدولة أخرى.

وكان من رأي أوكنور «السفير البريطاني في القسطنطينية»، أنه لا يمكن الارتباط بابن سعود، إلا إذا انسحب الأتراك من وسط الجزيرة العربية.. أما الحماية فإن بريطانيا تغامر مغامرة كبيرة إذا ما ساعدته في السيطرة على الأحساء والقطيف.. أما إذا استطاع ابن سعود نفسه السيطرة عليهما، ففي هذه الحالة فقط يمكن أن ترتبط به الحكومة البريطانية[١].

وفي أكتوبر ١٩٠٦، شعبان ١٣٢٤هـ، قدم ابن سعود عرضاً آخر للإنجليز لمساعدته في احتلال الأحساء، حيث بعث بالعرض عبر الشيخ قاسم، وعبر مبارك الصباح، للدفاع عن وجهة نظره ومطامعه.

وحين وصل العرض إلى الشيخ قاسم من ابن سعود بعد شهر تقريباً، وفيه «أنه -أي عبد العزيز- بدأ يرتاب ويشك بأن زعيم الكويت يعرض قضاياه على حكومة الهند بأسلوب فاتر»!، كتب الشيخ قاسم إلى الكابتن بريدو، المعتمد في البحرين، رسالة مقتضبة وبخط يده، مؤرخة في ١٩ شعبان ١٣٢٤هـ، ٨ أكتوبر ١٩٠٦، تقول: «بعد التحيات، اسمحوا لي بأن أقول: إنني في حاجة لمقابلتكم في لوصيل «Lusail» حتى ولو كان ذلك لمدة ربع ساعة، فلدي كلمتان فقط أود أو أقولها لكم شخصيًّا»[٢].

لكن بريدو لم يستطع مقابلته: «لم يكن بإمكاني الذهاب إلى لوصيل، خلال فترة معقولة بعد استلامي الرسالة، ولهذا أنبتُ عني مترجمي، السيد إنعام الحق، لزيارة الشيخ قاسم، وأمرته أن يستلم رسالة الزعيم العجوز فقط، وألَّا يعطي أي ردّ باسمي». وفي ٢٣ أكتوبر ١٩٠٦، الموافق للرابع من رمضان ١٣٢٤هـ غادر إنعام الحق البحرين وتسلّم الرسالة، وعاد في اليوم التالي حاملاً نسخة من رسالة ابن سعود.

تقول الرسالة كما كتبها بريدو على لسان الأمير السعودي:

---

(١) جمال زكريا قاسم، ج١، مصدر سابق، ص٣٠٦ - ٣٠٧.

(٢) الوثيقة «E 5532» «FO . 371 / 345»، مؤرخة في الثامن عشر من فبراير ١٩٠٧. من المعتمد السياسي في البحرين، الكابتن ف. ب. بريدو، إلى المقيم السياسي في الخليج - بوشهر، السير بيرسي كوكس. تاريخ الإرسال في ١٧ نوفمبر ١٩٠٦.

«إن موارد نجد قد استُنزفت إلى أبعد الحدود، نتيجة الحروب الداخلية الضروسة الأخيرة، وإن ابن سعود يعدُّ واحتي الأحساء والقطيف من أغنى ممتلكات آبائه وأجداده الوهابيين في وقت سابق.. ولهذا فهو يتوق شوقاً إلى استعادة هاتين المقاطعتين، وهو يقترح ترتيب إتفاق سرّي بينه وبين الحكومة البريطانية، يمنح هو بموجب الاتفاق الحماية البريطانية من أي هجوم تركي يأتي عبر البحر في حال نجاحه في طرد الأتراك، من ممتلكات آبائه وأجداده دون مساعدة خارجية. ومقابل هذه الحماية، سيكون الأمير ابن سعود مستعداً لإلزام نفسه باتفاقيات معينة، وبأن يقبل بوجود ضابط سياسي بريطاني -معتمد- يقيم في بلاطه، كما أنه يرغب في أن يتفق على تفاصيل هذه المعاهدة السرية، وأن يتم بحثها في لقاء عبّر عن استعداده لإجرائه معي -أي مع بريدو- شخصيًا، وقد ينيب شقيقه كممثل له».

«إن ابن سعود مصمم على القيام بمحاولة لامتلاك الأحساء والقطيف، إذ دون العائدات الإضافية التي يمكن أن يستوفيها من هذه المناطق[1]، فإنه يقرُّ ويعترف بأنه لن يكون قادراً في السيطرة على القبائل التي تعتدي على طرق التجارة والحج. وبناء على ذلك فهو يقترح أن يناشد السلطان التركي بأن يجعله متصرفاً على المقاطعتين، ثم يطيح بنير العبودية التركي حالما يرى أن الفرصة مناسبة، ويعد أن يكون قد ثبّت قواعده، ووطّد أقدامه هناك».

«أما إذا رُفض طلبه هذا من قبل السلطان، فسيغير على المقاطعتين بمجرد أن يكون مستعداً لذلك. وبعد أن يستولي عليهما، سيناشد الحكومة البريطانية علناً طالباً حمايتها. وحتى إذا فشل في كل مخططه، فإنه -أي ابن سعود- لن يُفشي سرّ الاتفاق بينه وبين الحكومة البريطانية![2] وربما لا يقوم بمحاولته إلا بعد أربعة أو خمسة أعوام أخرى»[3].

---

(١) لاحظ أن ابن سعود، وقبل أن يستولي على الأحساء يفكر في كيفية استغلال أهلها وثرواتها، فهو لا يتحدث فقط عن الزكوات والضرائب المعتادة، وإنما يتحدث عن عائدات إضافية فوق كل ذلك. ونحن نقدم هذا النص من الرسالة إلى كل أولئك الذين بالغوا في الحديث عن اضطهاد الأتراك الاقتصادي للسكان، وأن ابن سعود جاء لينقذهم من ذلك، خاصة للأستاذ الدكتور عبد الفتاح أبو عليّة، ولفاسيلييف الذي يقول: «كان سكان الأحساء الذين أرهقهم ابتزاز الأتراك وظلمهم ينظرون إلى النجديين كمنقذين» انظر ص٢٤١ من كتابه فصول من تاريخ العربية السعودية.

(٢) علامة التعجب موجودة في الأصل، وهذه من عندنا «!!!».

(٣) الوثيقة السابقة، وانظر ملخصاً لها في كتاب التطور السياسي لقطر ص٢٠٣، وكتاب قيام العرش السعودي، ص٣٣. وأيضاً تاريخ الأحساء السياسي، ص٢٣٠ - ٢٣١.

هـذه الرسالة -العرض- التي قدمها ابن سعود للإنجليز، تكشف لنا الخطوط العامة لسياسة ابن سعود المزدوجة تجاه الأتراك، وتجاه الإنجليز، وأهدافه من احتلال الأحساء، وحتى وسائله في تحقيق هذه الأهداف!.

فالرسالة مثلاً، تكشف عن أهمية الأحساء الاقتصادية في تعزيز السلطة السعودية قديماً وحديثاً، وأنه لولا خيراتها فإنه ما كان بإمكان السعوديين السيطرة على قبائلهم. أما طرق الاستفادة من الأحساء فهي بفرض مزيد من الضرائب، مع أن الأحساء والقطيف لم يعلم أحد يومها أنهما تحويان كنوز النفط، وأنهما ستدرّان في وقت ما نصف مليار دولار في اليوم الواحد، حينما ارتفعت الايرادات بسرعة الصاروخ[1].

مسألة أخرى توضحها رسالة ابن سعود، جديرة بالتأمل، فهو يعرض في الرسالة، أن بإمكانه وحده احتلال الأحساء دونما حاجة إلى دعم إنجليزي، ذلك أنه كان يعلم بأن الجنود الأتراك لا يزيدون عن ٥٠٠ رجل في كلتا الواحتين، وقد أثبتت هجمات بدو القبائل التي حرّضها هو، على المدن والقرى، هشاشة القوة العسكرية التركية، وكان ابن سعود على إطلاع كامل بحقيقة أوضاع الأحساء. لكن ما كان يخشاه هو أن ترسل تركيا قوات عسكرية إلى المنطقة عن طريق البحر لاستعادتها، وبالتالي فهو بحاجة إلى الدعم الإنجليزي العسكري والسياسي.

أما المسألة الثالثة والهامة، فقد أوضح ابن سعود طريقتين للاستيلاء على واحتي الأحساء والقطيف:

أولها: أن يطلب من الأتراك أن يجعلوه متصرفاً عليهما، ويحكم باسمهم، ثم ينتهز الفرصة بعد أن يثبّت إقدامه فيطرد الأتراك، ويعلن الانفصال. وبالطبع فإن هذا المخطط لا يمكن أن ينجح، وقد رأينا وثائق الأتراك تشير إليه بإصبع الاتهام والتآمر مع ابن صباح[2]. ولم يصدق الأتراك مزاعم ابن سعود وتملقاته لهم بأنه يتبع «عظمة السلطان»! وما كانوا مصابين بالعمى إلى حد أنهم يسلمون ابن السعود الحكم في المنطقة.. ولا يوجد بين أيدينا أية معلومات تشير إلى أن ابن سعود قد قدّم هذا الطلب إلى السلطان العثماني.

(١) جلال كشك، مصدر سابق، ص٦٢.

(٢) أصدر السلطان العثماني في عام ١٣٢٢هـ، أمراً بالإنعام على ابن رشيد بلقب قائد عام العسكر والمجاهدين في نجد والزبير، اعترافاً منه بفضل ما قام به من أعمال حربية ضد الإنجليز.

فالأقرب أنه تراجع عن هذا الخيار، لعدم إمكانية تحقيقه.

وثانيها: الهجوم المباغت على الأحساء وإحراج الترك. وهذا لا يتم إلا في حالة إنهاك القوات العثمانية هناك، وترتيب أوراقه في نجد، وكان ابن سعود يتوقع أن يتم ذلك خلال أربع أو خمس سنوات.

وإزاء هذا الخيار الذي رجح من الناحية العملية، استمر ابن سعود في دفع أتباعه من العجمان وآل مرة لزيادة هجماتهم على المدن والقرى في المنطقة، أملاً في فرض الأمر الواقع واحتلالها، وهو الذي نجح في آخر الأمر، وكتب للإنجليز طالباً الحماية منهم فور سقوط المنطقة بيده، فالتقى به بيرسي كوكس في العقير هذه المرة لينسّق الأمور معه.

على أية حال، لم يلق الاقتراح السعودي تحمّساً لدى الدوائر البريطانية العليا خاصة في وزارة الخارجية، ولكن بقيت وزارة الهند والمستعمرات تناقشان مدة من الزمن فكرة تكليف ابن سعود بالمهمة.. واقترح المعتمد السياسي في البحرين، الكابتن بريدو، أن يكون الرد على رسالة ابن سعود على النحو التالي:

«طالما أن الحكومتين البريطانية والتركية، تربطهما علاقات ودية مع بعضهما البعض، فإنه يستحيل على الحكومة الهندية -حكومة الهند البريطانية!- أن تدخل في أي إتفاق من النوع الذي يرغب فيه الأمير ابن سعود».. ويضيف بريدو: إنه يجب توجيه تحذير لابن سعود بألّا يتجه إلى الأتراك حتى لو رفض الإنجليز مشروعه، «إلا أنني أسمح لنفسي بأن أضيف إلى هذا الرد تحذيراً للأمير، بأنه يجب أن يكون حريصاً على عدم إلزام نفسه بأي صورة من صور الاعتراف بخضوعه للسلطان.. إلّا إذا قرر أن يتحمل العواقب، وقد فهمت بأنه لم يفعل شيئاً من هذا القبيل حتى الآن»[1]!.

وصل العرض السعودي إلى بيرسي كوكس، ثم ما لبث أن تسلّم عرضاً مشابهاً من المعتمد في الكويت والذي سلمه له مبارك الصباح. فقد التقى نوكس صباح العشرين من نوفمبر ١٩٠٦ بمبارك الصباح، وقدّم الأخير له «سلّة» أخبار عن الأحساء والأتراك.

قال مبارك أنه تلقى رسائل من ابن سعود تفيد بأن «المتصرف التركي وبرفقة ١٢٠٠ من الجنود السوريين، واثنا عشر مدفعاً، قد غادروا الأحساء إلى المدينة المنورة في

(١) الوثيقة السابقة، من بريدو إلى كوكس، رسالة مؤرخة في ١٧ نوفمبر ١٩٠٦.

الخامس عشر من رمضان ١٣٢٤هـ، الموافق للثالث من نوفمبر ١٩٠٦».

ثم قدّم عرض ابن سعود لمساعدته في احتلال الأحساء، ضمن تقييمه للأوضاع هناك، فقال: «إن الأحساء في حالة سيئة للغاية، وسيكون عملاً ممتازاً لو أن ابن سعود استولى على أملاك آبائه وأجداده في الأحساء والقطيف، وعندها يتقدم بطلب رسمي لفرض حماية حكومة جلالة الملك البريطاني».

ولمعرفة نوكس بتوجهات حكومته، لم يعطِ جواباً واضحاً لمبارك حول العرض المقدم، حيث قال بغموض يحمل الرفض: «إنني لا أستطيع أن أعلّق على هذا الاقتراح بأي تعليق على الإطلاق. ولكن وكما يدرك الشيخ تماماً، فإن كل المعلومات عن الاتصالات التي يقوم بها، والتي يقدمها لي، يجري على الفور نقلها لكم -المخاطب هنا هو كوكس-، لتقوموا بدوركم بنقلها إلى السلطات البريطانية العليا، والتي ترسل بدورها من التعليمات ما تراه مناسباً، وأنه سيكون من الغباء بالنسبة لي أن أحاول التكهّن بوجهات النظر التي قد تتبناها تلك السلطات»![1].

وفي الوقت الذي كان يحاول فيه ابن سعود جاهداً للحصول على الحماية الإنجليزية، كان يمارس سياسة مزدوجة مع العثمانيين، حيث ينقل مبارك لنوكس بعض أخبار الأمير السعودي التي تسلّمها منه، والتي منها: «أن ابن سعود يحتفظ بورقة وقّعها ثمانون ضابطاً تركيًّا يقولون فيها: إنهم وجدوا ابن سعود خادماً مخلصاً لجلالة سلطان الإمبراطورية، وأنه ساعدهم في كل ما يحتاجون إليه قدر المستطاع، وإن منطقة نجد فقيرة الموارد، وذات مناخ سيئ جدًّا، ومياها آسنة، وليس فيها من المؤن والموارد ما يكفي لدعم القوات التركية»[2]!.

إن هذه الورقة -على فرض صحتها وهو الأقرب- تدل على أن القوات التركية فاسدة حتى النخاع، ولا تريد أن تقاتل أو تبقى في نجد، وأن ابن سعود لا يريد بقاء القوات التركية بحجج غريبة، مثل أن موارد نجد قليلة، وكأنه مُلزم بإعاشة آلاف

(١) الوثيقة رقم «FO . 371 / 345» «E 25532»، رسالة من الميجور نوكس، المعتمد السياسي في الكويت إلى الميجور بيرسي كوكس، المقيم السياسي في الخليج الفارسي، بوشهر، مؤرخة في العشرين من نوفمبر ١٩٠٦.

(٢) الوثيقة السابقة.

الجنود، لقد طلب الأتراك أن تبقى قوة من مائة جندي في بريدة، ومائة آخرين في عنيزة، ولكن ابن سعود أصرّ على أن تبقى قوة لا تزيد عن ٢٥ رجلاً في بريدة، و١٥ آخرين في عنيزة.

لقد كان بيرسي كوكس من أشد المناصرين لقضية دعم ابن سعود، لو لا أن وزارة الخارجية البريطانية كانت تعيق تحركه، وكان من المستعجلين في إنهاء الإمبراطورية العثمانية، وقد أفرغ حماسه كاملاً حينما عُيّن قائداً لحملة الإنجليز على العراق واحتلاله.. لهذا أرسل اقتراح ابن سعود، الذي جاء من نوكس في الكويت إلى حكومة الهند طالباً إرسال معتمد بريطاني للبلاط السعودي، حتى يحفظ مصالح بريطانيا في الخليج، وربما ساحل الأحساء، فأجابته حكومة الهند مهدّئة من حماسته، ومؤكدة «أن مصالح بريطانيا يجب أن تُحفظ على الساحل وأن تستمر»، ولكن ليس بالضرورة أن يتم ذلك عن طريق إرسال الوكلاء إلى نجد[1].

ثم أرسل كوكس نسخة تفصيلية حول العرض السعودي، الذي وصله من الكابتن بريدو، إلى حكومة الهند، وألحّ في دعم ابن سعود، كما حذّر من عواقب عدم إعطائه جواباً مقنعاً، وحاول إثارة ضجّة بربط الأمر وكأنه إهانة شخصية له، قال:

«إن الصعوبة التي أواجهها حاليًّا تكمن في إيجاد جواب مناسب إلى الشيخ مبارك والشيخ قاسم في قطر، واللذان يتحدثان نيابة عن ابن سعود، وأنا لا أستطيع أن لا أُقدّم جواباً إلّا إذا أردت أن أُعرّض سمعتي للاستخفاف الشخصي والفظاظة بين الرؤساء المهتمين، مما يؤدي إلى تعريض عملي للأذى بطرق شتى».. واقترح كوكس على حكومة الهند أن تقدم أجوبة جديرة بالاعتماد والمسؤولية[2].

بناء على ذلك أرسل نائب الملك في الهند برقية إلى كوكس تخبرة بأن حكومة الهند تعدّ دراسة «مذكرة» لمراجعة سياسة بريطانيا في شرق الجزيرة العربية، وقالت البرقية[3]:

(١) الوثيقة السابقة «E 5532» رسالة رقم ٢٧١٩ تاريخ ٢٤ نوفمبر، ١٩٠٦. من المقيم السياسي في بوشهر، إلى حكومة الهند.
(٢) الوثيقة السابقة.
(٣) الوثيقة السابقة «E 5937» تاريخ ١٥ فبراير ١٩٠٧. من نائب الملك في الهند، إلى المقيم السياسي في بوشهر.

«سنرسل لكم قريباً مراسلة تستعرض لاوضع في شرقي الجزيرة العربية، وتقترح أن تنقلوا ردّنا على ابن سعود، بأن الحكومة البريطانية في حين ترغب في المحافظة على علاقات ودّية معه، طالما أنه يتصرف بطريقة تخدم المصالح البريطانية، وتتفق مع التزاماتنا مع الشيوخ العرب على الساحل، فإنها لا ترى أية ضرورة في الوقت الحاضر لتقديم أي وعد رسمي له بالحماية، وهو وعد -إذ قُدّم الآن- فقد يكون له أثر في دفع وتشجيع المقاومة والمعارضة التركية لمحاولاته في توطيد سلطته ونفوذه. يمكنكم نقل هذا الردّ شفهيًّا بواسطة الشيخ قاسم، أو بواسطة أي وكيل بريطاني يوصي به معتمدنا في منطقة الخليج الفارسي»[1].

والآن لنستعرض ما خلصت إليه المذكرة، بل الدراسة الشاملة تجاه ابن سعود والأحساء، والتي سببها إلحاح بيرسي كوكس وخلافه مع وجهات نظر أوكنور ووزارة الخارجية، فهذه المذكرة تخلص إلى:

١- ليحتل ابن سعود الأحساء والقطيف، ثم ليطلب الحماية من الإنجليز.

٢- سيقوم الإنجليز حينها بمساعدته، والاحتجاج على أي تحرك عسكري تركي بأن عملهم يؤدي إلى خلخلة الأمن... إلخ

لقد أعدّ المذكرة ثمانية من فطاحلة الاستعمار بناء على رغبة حكومة الهند[2]، حيث توضح المذكرة الخطوط العامة للسياسة البريطانية في الخليج والقائمة على عدم التصادم مع الأتراك، وحفظ مصالح الحكومة البريطانية، وتطالب بتعديل جزئي في هذه السياسية، التي تتبناها بحذافيرها وزارة الخارجية، وتطويرها بحيث تتناسب والأوضاع

(١) انظر: أحمد عرابي نخلة، مصدر سابق، ص١٣٠ - ١٣١. والإسلام والوثنية السعودية، ص٢٧. وانظر أيضاً: جمال زكريا قاسم، ج١، ص٣٠٨.

(٢) انظر المذكرة في الوثيقة رقم «FO .371/345» وقد أعدّت حكومة الهند المذكرة في الحادي والعشرين من فبراير ١٩٠٧، وقدمت إلى جون مورلي.. أما الثمانية فهم:

1- E. N. Baker
2- C. H. Scott
3- H. Adamson
4- J. F. Finlay
5- Minto
6- D. Ibbetson
7- Kichener
8- H. E. Richards

المستجدة، وتتوافق مع رأي حكومة الهند، التي ترى أن الأتراك باتوا ضعفاء في نجد، وقد تأزّم حالهم في الأحساء، في حين أن ابن سعود يرمي بكامل ثقله نحو الحكومة البريطانية، في الوقت الذي يدعم الأتراك بقوة ابن الرشيد.

لقد سبق أن حذر السفير البريطاني في القسطنطينية من استعداء الأتراك بدعم ابن سعود في احتلال الأحساء وحمايته من غضب الأتراك.. لكن المذكرة تفنّد بحس استعماري هذه المخاوف، وتقول: إنه لا بد من مراجعة السياسة القديمة، وليس بالضرورة دعم ابن سعود لاحتلال الأحساء، ولكن ألّا نقف بوجهه.. ونلاحظ في المذكرة تعاطفاً واضحاً مع مطامع ابن سعود، ولكن السؤال: كيف يتم ذلك دون استعداء الأتراك؟!

تقول المذكرة: «لقد أصدرنا أوامرنا الضرورية إلى الميجور كوكس لتأمين تقيّده والتزامه بخط السياسة العامة.. ولكن في الوقت الحالي فإننا نعتقد بوجوب توضيح أن هناك ما يوحي أن أوضاع الأتراك في نجد أصبحت أكثر صعوبة، وأنهم أضحوا غير قادرين على فعل شيء أكثر من المحافظة على مظهر القوة الشكلي في الأحساء، إذ أوقفوا إلى حدٍّ ما التراجع العكسي الذي تم على يد العرب المحليين[1]. ويحاول الأتراك الآن، إعادة ترتيب وضعهم هناك بواسطة الجنود اليائسين. كما أن الأتراك أشاعوا أنهم سيستخدمون البحرين قاعدةً وسيطة لنقل قواتهم، ولكنهم لم ينفذوا بهديدهم وأرسلوا قواتهم مباشرة إلى القطيف».

وهكذا تمضي المذكرة في استعراض انتصارات ابن سعود في نجد عام ١٩٠٦، وتقرر أن الأوضاع تتطور وتتغير، وبالتالي لابد من التعاطي مع مسألة الأحساء. فلقد «قدّم ابن سعود طلباً محدداً عبر الشيخ قاسم، من أن بإمكانه ترتيب اتّفاق تفاهم سرّي مع الحكومة البريطانية، يحصل بموجبه على الحماية البريطانية من الهجمات التركية البحرية، إذا ما نجح في طرد الأتراك من أراضي أسلافه».

ثم تتحدث المذكرة عن الردود التي أُعطيت له، وتحذر من مخاطر إهمال تطلعات ابن سعود، لأنه قد ينجح «في السيطرة على الأحساء والقطيف بدون إعلامنا، سواء كان بعقد ترتيبات مع الأتراك ليكون ممثلاً لهم في المقاطعتين، أو إذا احتلها بجهده الشخصي».

---

(١) إشارة إلى حادثة الشقيق وحرقها من قبل العجمان.

صحيح: «نحن لا نريد أن تكون القوات التركية قويّة معزّزة في نجد، لدرجة تؤدي إلى إضعاف تأثيرنا على الكويت والشيوخ الآخرين»، ولكن «إذا حصل ابن سعود على سلطة غير مسؤولة في نجد والأحساء والقطيف، فإنه سيؤدي إلى اضطراب في تأثيرنا على سياسة الساحل، إلا إذا ارتبط ابن سعود بنا بطريقة ما»!.

وتعالج المذكرة مسألة هامة تتعلق بكيفية عمل ابن سعود لاحتلال الأحساء، من خلال عرضه السابق لاحتلالها، فقد كتب ابن سعود أنه سيطلب من السلطان العثماني أن يجعله متصرفاً للأحساء والقطيف، فإن فعل فإنه سينقلب عليه بعد أن يثبّت مواقعه، وإذا لم يوافق فإن ابن سعود سيعدّ نفسه لاحتلالها بالقوة.. وهذا رأي الإنجليز في ذلك:

« من غير المحتمل أن يسلّم الأتراك السلطة الاسميّة في نجد والأحساء والقطيف إلى ابن سعود، في جوابهم على طلباته التي يعتزم تقديمها للسلطان العثماني[1]. وحتى إذا فعلوا، فإن ابن سعود بقبوله ذلك سوف لن يستمر طويلاً، ولكنه سينتهز أول فرصة للإطاحة بالعبودية التركية. وإذا ما أخرج ابن سعود الترك من الأحساء بالخداع والنفاق أو بالقوة، واستناداً على خياره المقترح، فإنه لن يستطيع أبداً المحافظة على حكمه هناك طويلاً، ما دام الأتراك قادرين على مهاجمته من البحر».

لهذا تنصح المذكرة بأنه لا تجب المجازفة بتحويل ابن سعود إلى الإنجليز عن طريق السقوط في صراع مع الأتراك.. إلا في حالة واحدة هي:

«إذا استطاع ابن سعود النجاح ورسّخ سلطته في الأحساء والقطيف، فحينها سيبقى مجبوراً ليتجه نحو الحكومة البريطانية من أجل الحماية ضد الهجمات البحرية.. وحكومة جلالة الملك -البريطاني- ستكون في وضع يمكنها فيه من التفكير فيما تتطلبه مصالحها، بحيث تنسجم مع تعهداتها مع الباب العالي، فتمدّ يدها لابن سعود المُجبر على أخذها حفاظاً على مصالحه، ومن الممكن إذا ما أخرج الأتراك من الأحساء والقطيف،

---

(١) أرسل الكابتن بريدو إلى كوكس في ١٧ نوفمبر ١٩٠٦ حول إشاعة ترددت في البحرين «بأن الحكومة التركية، وبعد أن وجدت نفسها غير قادرة على تحصيل العائدات في القطيف والأحساء، وبعد أن وجدت أن الأهالي فيهما يميلون إلى ابن سعود، تفكر بدعوة هذا الأخير إلى تسلّم منصب المتصرف فيهما باسم السلطان».

انظر الوثيقة «E 5532» «345 / 371 . FO»، ولا شك في أن هذه الإشاعة من تصدير ابن سعود نفسه، خاصة وأنها توحي بأن ابن سعود سيستلم الحكم ليأخذ العائدات التي لم تدفع للأتراك!

أن تدرس حكومة جلالة الملك فيما إذا كان من الصالح كبح جماح الأتراك ومنعهم من مهاجمة ابن سعود على الساحل، بحجّة أننا مسؤولون عن السلام البحري في الخليج، وأننا لا نستطيع السماح لحرب أن تتواصل على الشاطئ لتلحق الضرر بذلك».. وختاماً تقول المذكرة: «إن الأتراك لا يجب أن يحوزوا على أي مظهر للسلطة في شواطئ شرق الجزيرة العربية ابتداء من جنوب الزبير..»!.

لقد جمعت المذكرة رأي وزارة الخارجية، في عدم التحرش بتركيا بعقد معاهدة حماية مع ابن سعود عدو الأتراك، وعدم مساعدته ماديًا -على الأقل- في احتلال الأحساء.. وأرضت المذكرة في الوقت نفسه عتاة الاستعماريين في حكومة الهند، بأن ابن سعود سيلقى الحماية والدعم بعد أن يطرد الأتراك من شرق الجزيرة العربية، ويثبت أقدامه فيها، وهذا ما يطلبه ابن سعود تحديداً!.. إنه يريد حمايته قدر الإمكان من الهجوم البحري التركي، وهذا هو المهم. وقد قدّمت المذكرة سيناريو اتّبعت خطواته بحذافيرها حتى احتلال ابن سعود للأحساء.

ولكن بقيت مسألة هامة، لم تحددها المذكرة، واختلفت حكومة الهند مع وزارة الخارجية حولها... وهي: هل يُبلّغ ابن سعود بأنه إلى جانب عدم قدرة بريطانيا في الوقت الحالي على عقد معاهدة حماية معه، فإنها قدر الإمكان ستوفر له الحماية والدعم إذا ما طرد الأتراك من الأحساء؟.

هذه نقطة بالغة الأهمية، فقد أبلغ شكسبير -المعتمد السياسي البريطاني في الكويت- ابن سعود بسياسة الإنجليز هذه، وحرّضه على احتلال الأحساء، في حين كتب لرؤسائه بأنه نصحه بعدم الإقدام على ذلك! واكتشف رؤساؤه الأمر، وإزاء ضغط وحنق وزارة الخارجية أُبعد إلى لندن، وما هي إلا مدة قصيرة حتى اشتعلت الحرب العالمية الأولى، فطُلب شكسبير على وجه السرعة ليمثل مصالح بلاده في بلاط ابن سعود كأول ممثل لبريطانيا، وما هي إلا أشهر حتى كان شكسبير هذا يدير مدفعاً لابن سعود ضد ابن رشيد في معركة جراب في يناير ١٩١٥ فيُقتل على يد الشمّريين.

فهناك من أوصل فحوى المذكرة لابن سعود.. هناك من قال له: إن بريطانيا لا تعارض احتلال الأحساء، وأنها ستدعمه وتحميه، وليس أحد يعرف هذه السياسة سوى المعتمدين البريطانيين في الخليج.

وهذا ما دفع أحد الكتاب لأن يقول: «ورغم أن ابن سعود لم يتلقَ جواباً بريطانيًا

حاسماً، فلم يغب عن ذكائه اللمّاح موقف الرضا الذي يكمن في ثنايا الصمت البريطاني. إذ لم تكن السلطات البريطانية غافلة عن الفوائد التي ستعود عليها من عملية كهذه»[١].

مهما تكن الأحوال، فقد وافقت وزارة الخارجية على السياسة المعدّلة الجديدة، وأرسل السفير أوكنور إلى حكومة الهند في الأول من أبريل ١٩٠٧ مؤكداً موافقته، ومعيداً بالنصح بعدم التورط في دفع ابن سعود لاحتلال الأحساء «لأننا اعترفنا بأنها جزء من الإمبراطورية العثمانية»، وأن «ابن سعود لم يتعاطَ بعد مع القوة العسكرية التركية الكبيرة، بسبب الاضطرابات القبلية من جهة، وبسبب سياسة النفاق التي يتبعها تجاه السلطان العثماني من جهة أخرى».

ولكن:

«إذا حدث في وقت ما أن ابن سعود قد نجح في تأسيس حكم وسلطة تتمتع بقدر مقبول من الاستقرار، فإنه يبدو من الضروري التفكير فيما إذا كان علينا أن نعترف به كممثل لرغبة شعبه، وربما نفكر في المقدار المرغوب فيه من الحماية لشواطئه قبال الهجوم -التركي- والقرصنة»!.

وهنا تتفق رؤية أوكنور مع ما ورد في المذكرة مع اختلاف بسيط جدًّا، ولكنه ملحوظ[٢].

ومرّت السنون: ١٩٠٧، ١٩٠٨، ١٩٠٩، وطيف الأحساء وأحلام السيطرة عليها لم يفارق مخيلة الحاكم السعودي، وكلّما زادت مشاكله في نجد مع آل الرشيد، ازداد قناعة بضرورة وأهمية الأحساء في تسهيل وتوسعة المُلك السعودي.

في مطلع ١٩٠٩ كانت المشاكل قد تصاعدت في غير صالح آل سعود في نجد، حيث الثورات المتكررة، وانشقاق العائلة المالكة، وتفرّق القبائل عن الحكم الجديد.. في تلك الأثناء كتب القنصل البريطاني في دمشق «ج. ب. ديفي» إلى السير «ج. لوثر» في القسطنطينية بتاريخ التاسع عشر من يناير ١٩٠٩ يبلغه: «أن القوات التي كان ابن سعود يعتمد عليها بدأت تتلاشى إلى حدٍّ أنه تخلّى عن فكرة القيام بحملة على الأحساء

(١) خالد السعدون، مصدر سابق، ص١٤٣.
(٢) يذكر حافظ وهبة في كتابه جزيرة العرب في القرن العشرين، أن العرض السعودي للإنجليز حول احتلال الأحساء، قد تم سنة ١٩٠٧، وربما كان ذلك اشتباهاً منه، بسبب أن مناقشة العرض استمرت إلى ذلك العام، انظر: كشك، مصدر سابق، ص٣٣٥.

والساحل الشرقي».. وهذا غير دقيق تماماً، فالفقرة هذه توضح حجم مصاعب ابن سعود، وقد أشارت الرسالة إلى شيء منها، حين قالت: إن حمود بن سبهان نجح في تقريب وتوحيد فروع قبائل شمر تحت قيادته، واستطاع استمالة أكبر عدد من قبائل نجد. وإن ابن سعود قد تخلّت عنه قبائل عتيبة ومطير، وأعلنت استقلالها عن كلا الأميرين في نجد «ابن سعود، وابن الرشيد». وإن قبيلة أسلم وهي فرع من شمّر، والتي إنحازت عام ١٩٠٨ إلى ابن سعود، عادت وانضمت إلى ابن سبهان.

ويرى أحد الكتاب أنه لم يمنع ابن سعود «من تحقيق أهدافه في بسط سيطرته على الأحساء، إلا انشغاله في حروبه داخل الجزيرة العربية، ومنها على سبيل المثال، ثورة الهزازنة في مقاطعتي الحريق والخرج في عامي ١٩٠٩ و ١٩١٠، وهي ثورة أُسرية من جانب المطالبين بالحكم، وهم الفرع الأكبر من أحفاد عمه سعود»(١).

وفي عام ١٩١١ احتلت إيطاليا ليبيا، فأحدثت هزة كبرى في العالم الإسلامي، لم تستطع دولة الخلافة الاستفادة منها واستثمارها في مقاتلة المحتلين.. ففي اليمن أعلن الإمام يحيى الذي اكتوى بنار حكم الأتراك أنه مستعد لإرسال قواته لمحاربة الكفار الإيطاليين الذين أعلنوها حرباً صليبية ضد الإسلام، وظهرت أناشيدهم تقول:

أنا ذاهب إلى طرابلس
فرحا مسروراً لأبذل دمي
في سبيل سحق الأمة الملعونة
ولاحارب الضذلالة الإسلامية
سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن
ليس بأهل للمجد
من لم يمت إيطاليًا حقًا

وفي مصر تطوّع الناس للقتال إلى جانب الأتراك، وراح الشعراء «شوقي وحافظ» وأمثالهما يشعلون الحماس، وشُكّلت لجان الدعم والمناصرة، بل إن بعض المبتعثين إلى أوروبا، قطعوا دراساتهم وعادوا للقتال في ليبيا.

(١) عبد العزيز محمد منصور، مصدر سابق، ص٢٠٣.

وفي داخل العراق أفتى العلماء الشيعة بوجوب الجهاد ضد الطليان، منهم آية الله محمد سعيد الحبوبي، وآية الله محمد كاظم الخراساني، وآية الله عبد الله المازندراني، وشيخ الشريعة الأصفهاني، وعلي رفيش، ومحمد حسين القمشة، وغيرهم[1].

---

(١) لعل من المناسب أن نورد نموذجاً من فتاوى علماء الشيعة في وجوب الجهاد ضد الإيطاليين، وإليك نص إحداها:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى كافة المسلمين الموحدين، ومن جمعتنا وإيّاهم جامعة الدين، والإقرار بمحمد سيد المرسلين.

السلام عليكم أيها المحامون عن التوحيد، والمدافعون عن الدين، والحافظون لبيضة الإسلام.

لا يخفى عليكم أن الجهاد لدفع هجوم الكفار على بلاد المسلمين وثغوره، مما قام إجماع المسلمين، وضرورة الدين على وجوبه. قال سبحانه: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذه كفرة إيطاليا قد هجموا على «طرابلس الغرب» التي هي أعظم الممالك الإسلامية وأهمها، فخربوا عامرها وأبادوا أبنيتها، وقتلوا رجالها ونساءها وأطفالها. ما لكم تبلغكم دعوة الإسلام فلا تجيبون، وتوافيكم صرخة المسلمين فلا تعتنون، أتنتظرون أن يزحف الكفار إلى بيت الله الحرام، وحرم النبي، والأئمة عليهم السلام ويمحوا الديانة الإسلامية عن شرق الأرض وغربها، وتكونوا معشر المسلمين أذل من قوم سبأ؟.

فالله الله في التوحيد، الله الله في الرسالة، الله الله في نواميس الدين، وقواعد الشرع المبين، فما بعد التوحيد إلا التثليث، ولا بعد الاقرار بمحمد ﷺ إلا عبادة المسيح، ولا بعد استقبال الكعبة إلا تعليق الصليب، ولا بعد الأذان إلا قرع النواقيس.

فبادروا إلى ما افترضه الله عليكم في الجهاد في سبيله، واتفقوا ولا تفرقوا، واجمعوا كلمتكم، وابذلوا أموالكم وخذوا حذركم ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، لئلا يفوت وقت الدفاع وأنتم غافلون، وينقضي زمن الجهاد وأنتم متثاقلون ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

التوقيعات:

١ - خادم الشريعة المطهرة، محمد كاظم الخراساني.

٢ - الأحقر الجاني، عبد الله المازندراني.

٣ - الجاني، شيخ الشريعة الأصفهاني.

٤ - الأقل، علي رفيش.

٥ - أقل خدّام الشريعة محمد حسين القمشة.

٦ - أقل خدام الشريعة الغراء، حسن بن المرحوم صاحب الجواهر.

٧ - الأحقر الجاني، السيد علي التبريزي.

٨ - الأقل الجاني، مصطفى الحسيني الكاشاني.

٩ - الراجي عفو ربه الغفور، محمد آل الشيخ صاحب الجواهر.

١٠ - الراجي عفو ربه الغفور، محمد جواد الشيخ مشكور.

١١ - الأحقر، جعفر بن المرحوم الشيخ عبد الحسن.

١٢ - بسم الله الناصر المعين.. وبه أنا وكل مسلم نستعين محمد سعيد الحبوبي.

وانتشرت حركة الرفض إلى الأحساء والقطيف، حيث أفتى المجتهد العلامة حسن علي البدر بحمل السلاح ضد الإيطاليين، وقد طبعت الفتوى في كرّاس حمل اسم «دعوة الموحدين إلى حماية الدين».. وعلى العموم كانت النقمة عامة، في كل أرجاء البلاد الإسلامية، لكن الأتراك استسلموا للهزيمة، وكان ذلك من أكبر الأسباب التي أدّت إلى النفور منهم فيما بعد.

أما الموقف السعودي، فإن الكتب السعودية نفسها تشير بوضوح إلى انتهازيته، فالأتراك الذين حاربوا إيطاليا لبعض الوقت لم يلقوا من حاكم الرياض أي تعاطف، بل اعتبر ذلك فرصة مناسبة للانقضاض على الأحساء واحتلالها، وقد فعل.

وحتى مبارك الصباح، اضطر لأن يحني هامته أمام المشاعر الجياشة التي كانت سائدة يومئذ، فتبرع بثلاثة آلاف ليرة تركية في حرب طرابلس، وأرسلها إلى والي البصرة في التاسع والعشرين من نوفمبر ١٣٢٩هـ مصحوبة بخطاب يعلن فيه «تعلّقه بأذيال الدولة وتمنيه من صميم قلبه أن يكون لها الفوز على أعدائها، وقال: بأنه لا يدخر وسعاً في معاضدتها»، وتبرع نيابة عن ابن سعود، فقال: إن لديه -أي مبارك- ستين ألف مقاتل ما بين فارس وهجّان بما فيهم ابن سعود نفسه[(١)].

تجد هذه الفتوى في كتاب «دعوة الموحدين إلى حماية الدين» للعلامة الكبير، المجتهد الشيخ المرحوم حسن علي البدر القطيفي، وكان قد فرغ من تسجيل فتواه في العشرين من شوال ١٣٢٩هـ الموافق للثالث عشر من أكتوبر ١٩١١.

(١) عبد العزيز الرشيد، مصدر سابق، ص٢٠٠. ويذكر حسين خلف الشيخ خزعل في كتابه تاريخ الكويت، ج٢، ص٨٥ - ٨٦: أن مبارك أرسل إلى ابن سعود أن يحني هو الآخر هامته، في كتاب وجهه إليه، فلما بلغ ابن سعود الكتاب أرسل هذه البرقيات:

«لأعتاب الخلافة.. عبوديتي وخدماتي لمقام الخلافة الإسلامية معلومة وثابتة، عند أولياء الأمور، وإن سكان جزيرة نجد عموماً قلباً وقالباً قد تحرّكت النخوة العربية في عروقها، حينما بلغهم اعتداء الطغاة الطليان، جعل الله كيدهم في نحورهم، وأصان الدولة الإسلامية من تجاوزاتهم، وجميعنا على استعداد للدفاع عن الدولة بسيوفنا وأموالنا وأرواحنا، ومنتظرين الإشارة من مقام الخلافة، والأمر لكم.

خادم الدولة أمير نجد ورئيس عشائرها

عبد العزيز السعود».

وأبرق إلى الصدر الأعظم سعيد حلمي: «اليوم نفتخر نحن من سكان نجد بتوجيه الصدارة لعهدتكم، وإننا آملين في تسوية المشاكل الحاضرة بهمتكم المشهورة، وإننا على استعداد لمعاونة الدولة بأرواحنا ومنتظرين أمركم السامي».

وأبرق إلى نظارة الداخلية ونظارة الحربية برقيتين بالمعنى المذكور.

وفي العام نفسه ١٩١١، قدّم ابن سعود أكثر من عرض للإنجليز لاحتلال منطقة القطيف والأحساء، وعرض عليهم امتيازات خاصة غير محددة إذا ما حموه بأسطولهم البحري، وقدّم مبارك هذا العرض للمعتمد السياسي البريطاني في الكويت، حيث أوضح له أن «مصالح ابن سعود لا تتعارض مع مصلحتهم في هذا الموضوع، فكلاهما يريد التخلص من الأتراك، وبذلك يتهيّأ لبريطانيا تحقيق هدفها دون الدخول في صراع مكشوف مع الإمبراطورية العثمانية وإثارة ممالك أوروبا وإماراتها.. أما إذا تولى ملك نجد طرد الأتراك، فلن يتعدّى الأمر نطاقاً خاصًا داخليًا محدوداً يعود بالنتائج السارّة على الجميع. واقتنع الإنجليز بهذا المنطق، وأبلغوا مبارك الصباح أنهم لا يعارضون خطط ابن سعود»[١].

وفي عام ١٩١١ نفسه أيضاً -عام الحرب مع إيطاليا- ورغم برقيات ابن سعود الولائية للعثمانيين فإنه وثّق علاقاته مع معتمد بريطانيا في الكويت الجديد «الكابتن شكسبير»، وكتب هذا الأخير تقريراً عن رحلة له في أعماق نجد، بعد أن التقى بابن سعود في معسكره، وادّعى بأن اللقاء كان «صدفة»، رغم أنه تمّ في أعماق نجد، ولكن الوثائق البريطانية نفسها، ما لبثت أن اعترفت بأن الأمر كان مدبّراً.

لقد أقام شكسبير في معسكر ابن سعود أياماً عديدة، وأعدّ تقريراً ممتعاً عن توجهات السعوديين السياسية، وخططهم المستقبلية. وقال: إنه عومل بكرم بالغ، وهو أمر غير منتظر كما يقول. دعنا نتابع فقرات التقرير المطوّل، واحدة واحدة[٢].

ابتداء يثني شكسبير على معاملة ابن سعود له فيقول: «لقد عاملني بكرم بالغ، وبأكثر أساليب الصداقة صدقاً، ولم يوفر جهداً ولا عناء لجعل إقامتي عنده في غاية الامتاع، حيث لم يظهر هو لا إخوته أي أثر للروح المتعصبة التي يمكن أن يتوقعها المرء من العائلة الوهابية الحاكمة.. كما عوملنا، أنا ومن معي، من قبل مستشاريه وقادة قواته بأقصى ما يمكن من الصداقة والود، وأجابوا على أسئلتي عن بلادهم وعاداتهم ومواردهم، وغير

---

(١) عبد العزيز آل سعود، سيرة بطل ومولد مملكة، بنوا ميشان، ترجمة عبد الفتاح ياسين، ص١١١. وانظر: خالد السعدون، مصدر سابق، ص١٤٣.

(٢) الوثيقة «E 20868» تقرير من الكابتن شكسبير في الكويت إلى الميجور كوكس في بوشهر، ومن كوكس إلى مكماهون. وهناك نسخة من التقرير، وهي الأصلية في مكتب الهند «India Office» محفوظة تحت رقم «I. O. R / 15 / 5 / 25, NO. C-17». وانظر: روبرت ليسي، مصدر سابق، ص ٧٠ - ٧١.

ذلك، بكل الصراحة الممكنة، ومُنحت مطلق الحرية للتجوّل بين الخيام، والتحدث إلى الجماعات والأفراد، دون أن أُثير أي مقدار من الريبة أو الشكوك التي يثيرها عادة أجنبي يقيم بين عرب الداخل. وإنني أشعر بالقناعة بصحة هذا الانطباع، لأنني غالباً ما كنتُ أناقش في قضايا العقيدة والعادات والتقاليد والدين، وهي مسائل يعتبر المذهب الوهابي النقاش فيها مع غير الوهابيين من المحرمات. وكانت الإجابات تأتيني هادئة ذكية المنطق، دونما أثر لحرارة التعصّب».

«إن هدفي من تدوين ما أوردته أعلاه، هو أن أُظهر أن علاقتي بعائلة آل سعود يمكن أن توصف بأنها من القُرب والالتصاق بما لا يدع مجالاً للشك في صدقهم وإخلاصهم حول ما دار بيننا.. والحقيقة فإنهم اعتادوا على مناداتي باسم «الأخ»، ولو كنتُ أخاً بالفعل، لما عوملت بشكل أفضل وأكرم، باعتباري واحداً من أفراد العائلة المالكة».

بعد هذا ينتقل شكسبير للحديث عمّا يخص السعوديين، فالرجل جاء للاستطلاع، وقد أعطوه كل المعلومات التي أرادها.. وقد سأل ابن سعود الكابتن عن العلاقات البريطانية التركية، فأجاب شكسبير على الفور: «قلت له على الفور بأنني لم آتِ لمناقشة قضايا سياسية، ولكن لأتمتّع بالتجوّل في الصحراء، ولأقابله إن أمكن.. ولأرى كيف يعيش زعماء العرب في الصحراء، وإضافة لذلك، لستُ مخوّلاً لمناقشة قضايا سياسية معه»[1].

وبكلمة، أوضح له أنه جاء ليستمع ويسجّل المعلومات، فطلب ابن سعود إصغاءه، وأعلن عن سعادته «لتوفّر هذه الفرصة لفتح قلبه كاملاً في الحديث»!.

قال ابن سعود: إنه «أرسل رسولاً سرّيًّا إلى بوشهر بهدف استئناف العلاقات القديمة مع المقيم، لكن الرسول لم يحمل أي رسائل، وكانت التعليمات الصادرة إليه بأن يقابل المقيم شخصيًّا، وأن يُسرّ إليه بشكل عام، بأن ابن سعود يرغب في الدخول في علاقات مع الحكومة البريطانية، وأن أية علاقة أكثر رسمية من ذلك، يمكن إجراؤها عن طريق المعتمد السياسي في الكويت».. وقال: إن اسم الرسول «مسحوق»، وإنه

(١) مجلة الدارة، مارس ١٩٨٦، ص٣٩ – ٤٠.

افترق عن ابن سعود أواخر يناير ١٩١١ [١].

بعد هذه المقدمة، راح ابن سعود يحدث شكسبير عن تاريخ عائلته ابتداء من أيام إبراهيم باشا قائد الحملة المصرية، وكيف قام جدّه تركي بن عبدالله بتأسيس حكمه مؤكداً أن مملكته كانت تضم «الأحساء والقطيف» وهما بيت القصيد. ثم تحدث عن اغتيال تركي، وتولي جده فيصل بن تركي الحكم، ثم عودة المصريين لنجد بقيادة خورشيد باشا حيث قاموا بأسره ونفيه إلى مصر، وأكد ابن سعود أن جده فيصل «وبعد محاولة دامت سنوات طويلة نجح في الحصول على عفو عنه ثم عاد إلى نجد»، وكان أول عمل قام به هو أنه «جدّد المعاهدة القديمة مع الحكومة البريطانية.. وصار يتلقى بموافقة الأخيرة جزية من سلطان مسقط بلغت ١٥ ألف دولار سنويًا».

وأضاف ابن سعود «ومع أن فيصل كان في هذا الوقت على اتصال دائم بالحكومة البريطانية، فإنه لم يسمح له بمساعدة محمد بن عبدالله آل خليفة في محاولة استعادة حقوقه في البحرين، حيث كان المعتمد البريطاني قد عيّن أحد أفراد عائلة آل خليفة في موقع السلطة.. إلا أن الحكومة البريطانية، وكدليل على صداقتها لعائلة آل سعود، عاقبت شيخ البحرين حين تحرّك للقيام بهجوم على أراضي الأحساء والقطيف، التي كانت أملاكاً وهابية في ذلك الحين. وفي ذلك الوقت تقريباً، بدأت بريطانيا تظهر مدى التصاق علاقاتها بنجد، وذلك بإرسالها أحد ضباطها إلى الرياض [٢]، حيث جدّد المعاهدات والصداقات القديمة، رغم أن ذلك لم يكن بموجب وثائق فعليّة مكتوبة».

ويستمر ابن سعود في الحديث، كما يستمر شكسبير في الكتابة.

تحدث ابن سعود عن موت فيصل والحرب الأهلية بين عبدالله الفيصل وأخيه

---

(١) قال المقيم السياسي في بوشهر، السير بيرسي كوكس، معلقاً على هذه الفقرة من التقرير، في رسالة إلى السير هـ. مكماهون بتاريخ ٢٠ أبريل ١٩١١: إن مسحوق «قدّم نفسه إلينا في بوشهر، قبل حوالي ستة أسابيع -بداية مارس- حاملاً رسالة شفوية، قال: إنها آتية من ابن سعود. ورغم أن ملامح مسحوق وأسلوبه كانا يوحيان بصدق ادّعاءاته، فإنه لم يكن يحمل أية أوراق اعتماد تعرّف هويته، بحيث لم أتمكن من معرفة شخصيته الحقيقية، وعلى هذا الأساس عاملته بحرص وحذر المرتاب، ولم أزد على أن أصدرت تعليماتي بأن يزود كغريب عربي بكل ما يحتاجه من الطعام، بانتظار مغادرته البلاد عائداً من حيث أتى على ظهر أول مركب يغادر بوشهر»!.

(٢) إشارة إلى زيارة لويس بيلي.

سعود الفيصل، وكيف أخذ الأتراك الأحساء، ووجّه اللوم للإنجليز على سماحهم للأتراك باستخدام البحر للوصول إلى موانئ القطيف، وقد اشرنا إلى ما قاله في حديثنا عن الحرب الأهلية، وأكد ابن سعود مستعرضاً حديثه عن احتلاله للرياض وحربه مع ابن رشيد والقوات التركية عام ١٩٠٦، حيث انسحبت أغلب هذه القوات بعدئذ.

هنا يغري شكسبير رؤساءه بالأتراك منتهزاً ضعفهم: «منذ إخراج الأتراك الأخير هذا، لم تظهر أية علائم على وجود أي سلطة تركية في نجد، واستطاع عبدالعزيز أن يوطّد سلطانه على مسافة تمتد مسيرة يومين من حائل، حتى الشريط الساحلي للخليج الفارسي، باستثناء الهفوف والقطيف، حيث أبقى الأتراك هناك على بعض الحاميات».

وأوضح ابن سعود بفخر واعتزاز بالغ «أنه لم يعلن أنه من أتباع السلطان، وأنه كوهابي لا يعترف بالسلطان خليفة على المسلمين[1]، والوهابيون يكرهون الأتراك -كما قال عبد العزيز- ولا تقل كراهيتهم تلك إلا عن كراهيتهم لشيوخ فارس، وذلك بسبب الممارسات الكافرة التي أدخلها كلاهما -الفرس والأتراك- على الدين الصحيح النقي الذي أنزل في القرآن»!.

وتقول الفقرة التالية من التقرير ما هو أدهى.. فقد قال ابن سعود: إنه استعرض مع شكسبير تاريخ آل سعود على مدى أعوام مديدة «ليبرهن أن آل سعود كانوا دائماً على علاقة ودّية مع الإنجليز، وإنهم كانوا دائماً يكرهون الأتراك من كل قلبهم... ولكن حين وصل الأتراك عن طريق البحر إلى الأحساء، واستطاعوا المحافظة على مواقعهم هناك، فإن آل سعود لم يتمكنوا من طردهم. ولطالما عبّر آل سعود عن رغبتهم للإنجليز في القيام بأعمال عسكرية، ولكنهم كانوا يخلصون إلى هذه النتيجة في كل مرة، بأن حملة عسكرية من هذا النوع ستكون عديمة الجدوى، ما لم يوضع حدّ لقدرة الأتراك على جلب قواتهم عن طريق البحر، وهذا أمر لا يمكن تحقيقه إلا من قبل الإنجليز»!.

(١) كتب عبد الرحمن الفيصل من الكويت قبل أن يغادر إلى الرياض، رسالة إلى السيد رجب النقيب في الخامس من صفر سنة ١٣٢٠ هـ يعلن فيها «أننا خدام محسوبين على الدولة العليّة» و«إننا لم نلجأ إلى أحد إلا الله تعالى ثم إلى عدالة أمير المؤمنين أدام الله مجده».. وكان عبدالرحمن قد أرسل للتوّ طالباً من المقيم البريطاني في بوشهر الحماية والعون.. وقال عبدالرحمن للنقيب: «أخذنا ننتظر تعطفاته الملوكية بأن نُعطى من المعاش ما يقوم بأحوالنا» و«نحن في كل مكان وحال من الأحوال نؤدي الخدمات لحضرة أمير المؤمنين، باذلين الجدّ والاجتهاد فيما يحصل به رضاه، منقادين إلى أوامر الدولة العليّة، فنرجو من مراحم وتفضلات وإحسان حضرة أمير المؤمنين بحلول أنظاره علينا... وإجراء ما تفضّل به من المعاش»!!.. انظر: تاريخ الكويت، عبد العزيز الرشيد، ص١٧٩.

أما لماذا يكره ابن سعود الأتراك، ولماذا هو حريص على احتلال الأحساء، فذلك ما يشرحه شكسبير بقوله:

«إن آل سعود يكرهون احتلال الأتراك للأحساء كراهية عمياء لسببين رئيسيين:

الأول: لأن المقاطعة تشكّل جزء من ممتلكات آل سعود المتوارثة عبر سلالتهم[1].. وهي أغنى تلك الممتلكات على الإطلاق.

الثاني: لأن الاحتلال التركي يحرم حاكم نجد من الميناء الطبيعي لممتلكاته، ويجعل من مهمّة الإشراف والسيطرة الحقيقية على القبائل البدوية المنتشرة ما بين البحر والرياض مهمة مستحيلة، مع ما ينتج عن ذلك من عواقب وخيمة بالنسبة لازدهار نجد التجاري».

هذه مبررات احتلال الأحساء الحقيقية، وهذه هي أهمية الأحساء لابن سعود قبل عهد النفط، فكيف بها بعد فورانه وطغيانه؟!.. إن منطقة نجد دون الأحساء والخليج، تصبح عضواً ذابلاً لا يمكنه المقاومة أو حتى الاستمرار.

ويزعم ابن سعود أنه ليس وحيداً -كما أخبر شكسبير- في كراهيته للأتراك، فكل أمراء الجزيرة العربية يتبادلون الرسائل وينسّقون معاً لطرد الأتراك نهائيًّا، وذكر ابن سعود أنه تلقّى رسائل من إمام اليمن بهذا الشأن، وكذلك من محمد الإدريسي، وحتى من ابن الرشيد!!.

هذه مغالطة كبرى، وأكبر منها قوله: «إن العرب أصحاب الحل والعقد في الأحساء والقطيف» كانوا ممّن طلبوا إليه يرجونه أن يساعدهم في القيام بثروة عامة شاملة وناجحة في جميع أنحاء الجزيرة العربية»!.

إذا كان الإدريسي فعل ذلك، فهو أمر ليس بغريب أن يصدر منه؛ لأنه تعامل مع الطليان ومع الإنجليز وقبّل أقدامهم، وطعن دولة الخلافة في الظهر وفي أسوأ أيام محنتها، حينما هاجمت دول الصليب أطرافها!.

أما إمام اليمن، فلا يجب أن تقارن كراهيته للترك بكراهية ابن سعود لهم. كلّا.. فتلك مغالطة لا يجوز المرور بها مرور الكرام!

إن اليمن بلد الثورات ضد الأتراك الذين مارسوا فيها أبشع وأقبح ما مُورس تجاه

(١) ليس لآل سعود حقوق متوارثة، بمنطق الإسلام، وبمنطق الوقائع كما سيتبين ذلك لاحقاً.

بلد من ممالكهم -باستثناء العراق ربما-.. ولكن يحيى الذي حارب الأتراك مراراً لم يكن إلا سيّد نفسه. دعنا ممّا يقال عن تحجره ورجعيّته، لكن الوثائق تثبت أنه كان خصماً عنيداً للإيطاليين والإنجليز على حدٍّ سواء.

الإمام يحيى لم يمدّ يده للإنجليز، لكي يحارب الأتراك كما فعل ابن سعود.

والإمام يحيى لم يستغلّ ضعف الأتراك أثناء حربهم مع دول أوروبا في البلقان وغيرها لكي يطعنهم، فيقدم فائدة جلّى لأعداء الإسلام.

كلّا... والإمام يحيى لم يحارب دولة الخلافة حينما قامت الحرب العالمية الأولى، ولم يقل: «لو كان في بدني قطرة دم تميل إلى الأتراك لأخرجتها».. ولم يرسل تهنئة للإنجليز باحتلالهم للبصرة كما فعل ابن سعود حين ارسل لكوكس قائد الحملة مهنئاً: «سيدي السير بيرسي كوكس، مندوب بريطانيا العظمى دام عزّها.. دخول جيوشكم الإنكليزية العظيمة للعراق نصر مبين للمسلمين، وعزّ مكين لنا.. وعبوديتنا وخدماتنا لبريطانيا العظمى، وولاؤنا لكم إلى الأبد».

ولم يرسل الإمام يحيى ابنه إلى لندن مهنئاً بهزيمة دولة الخلافة وتقسيم ديار العرب، كما فعل ابن سعود عام ١٩١٩ حينما أرسل ابنه فيصل إلى لندن لتهنئة الملك جورج الخامس!.

لا شك في أن الإمام يحيى كان كارهاً للأتراك، كما كره المسلمون ممارساتهم، أما أن يتحالف مع دول الكفر ضدهم، فتلك غلطة لم يرتكبها الإمام الذي أثبت يومها أنه أشرف الحكام المسلمين.. ومن أرا المزيد، فليراجع الوثائق البريطانية للسنوات «١٩١٢ - ١٩١٨».

وها هو ابن سعود يطلب عبر شكسبير «الحماية الإنجليزية».. خوفاً من «اضطهاد» الأتراك كما يقول.. وها هو يعلن براءته من دولة الخلافة، ولكنه في الوقت نفسه مستعد عن طيب خاطر لأن يرفع العلم البريطاني في القطيف قبل أن يحتلها.

قال شكسبير على لسان ابن سعود نصّاً: «ليس لآل سعود أية أطماع في أية منطقة باستثناء الأحساء والقطيف.. ولكن ما هو أهم من ذلك كله، هو أنهم -أي السعوديين- يريدون أن يكونوا على علاقة بالحكومة البريطانية، بحيث تتردّد الحكومة التركية قبل أن تحاول اضطهادهم، أو التدخل في شؤونهم في نجد. وقد قدّم عبدالعزيز وضع الشيخ مبارك كمثل للعلاقات التي يرغب فيها مع بريطانيا». أي معاهدة حماية، ثم يزايد ابن سعود على مبارك الصباح، فكيف يحصل الأخير على الحماية البريطانية وهو أقل من ابن سعود؟!: «وأضاف ابن

سعود: إن آل سعود في وضع أفضل من وضع مبارك، لأنه لا علاقة لهم بالأتراك على الإطلاق، ولا يرفعون علمهم، كما يفعل مبارك، ولا يعترفون حتى بخليفة الإسلام -السلطان-. وهو -أي ابن سعود- يناشد الإنجليز من أجل حمايته على أساس العلاقة القديمة والطويلة، ولأن الإنجليز يعملون دائماً من أجل السلام والعدل، وإذا أعطوا وعداً فيمكن الوثوق بأنهم يحافظون على وعودهم»!!.. نعم، والدليل وعود مكماهون للشريف حسين من جهة، ووعود الإنجليز لليهود بإقامة وطن قومي في فلسطين من جانب آخر!.

وأظهر ابن سعود -كما يقول شكسبير في تقريره- «استعداداً كاملاً لاستقبال معتمد سياسي بريطاني، ولكن بما أن الأتراك يحتلون حاليًّا الميناءين الوحيدين اللذين يخصّان الوهابيين[1]، فلا يسعه إلا الاقتراح بأن يقيم مثل هذا المعتمد إما في القطيف أو العقير، بعد أن يجبر الأتراك على الجلاء عن الأحساء. وحين يتمّ ذلك، فإنه سيرحب بالعلم البريطاني عن طيب خاطر[2] كدلالة على أنه لا يخاف من تركيا بعدئذ، وأن الأخيرة لن تستطيع مضايقته وإزعاجه بعد ذلك».

واستمر ابن سعود يقدّم إغراءاته، وشكسبير يسجّل: «أضاف ابن سعود مبيّناً أن آل سعود إذا ما سيطروا على الأحساء، وأقام ضابط بريطاني في أحد الميناءين، فإن الإنجليز سيستفيدون كثيراً من ازدياد النشاط التجاري الذي سينشأ من وجود سلطة مستقرة مؤثرة فعّالة، تسيطر على البدو، الذين جعلوا طرق التجارة مع الداخل -أعماق

(١) على أي منطق استند قول: إن ميناء العقير والقطيف يخصّان الوهابيين، فإن كان بمنطق ملك الآباء والأجداد، فأهل المنطقة أولى منه بهما، لأنهم سكانها وحكامها قبل آبائه وأجداده.. وحتى السلطان العثماني، بإمكانه أن يغلب ابن سعود إذا استخدم هذا المنطق، لأن آباء عبدالحميد الثاني أخذوا الأحساء منذ القرن العاشر الهجري، وبعد مائة وخمسين سنة، أخذها آل سعود، وإن كانت المسألة تعتمد على منطق الغلبة والقوة والفتح، فالمنطقة بيد الأتراك الآن، وإن كان بمنطق الإسلام، فلا الحكومة التركية ولا السعودية تقومان على الشرع ونظامه.

(٢) ينقل حافظ وهبة، مستشار ابن سعود، وسفيره المفوض في لندن، هذه الحكاية: «سألني قبل أربع سنوات -أي في عام ١٩٣٠- أحد شيوخ البحرين، عن حقيقة ما أشيع من أن جلالة الملك سيقبل تعيين أحد القناصل في القطيف والأحساء، فقلت له: إن الإشاعة غير صحيحة. ولكن ماذا يمنع من ذلك؟ فقال: إذا قبل الملك ذلك فعلى بلاده السلام. إن الراية الإنجليزية ما رفعت على بلد، إلا وأعقبها الاستيلاء عليه، ولقد رأيت ما صنعوا بالبحرين.. إنهم في خمسين سنة قضوا على كل نفوذ لشيوخ البحرين».
والحقيقة أن الراية لم ترتفع في القطيف، وإنما رفعت منذ وقت مبكر في العاصمة السياسية للمملكة السعودية في جدّة. وعلى أية حال لا تحتاج المور دائماً إلى رايات مرفوعة، فوسائل الاستعمار كثيرة.

نجد- غير آمنة على الاطلاق حاليًا».

ويلاحظ أن شكسبير يكتب بعاطفة مؤيّدة، وقد أُتيحت له الفرصة ليسأل سؤالاً تتضح فيه سياسة ابن سعود المزدوجة طوال تسع سنوات مع الأتراك، قال الكابتن: «حين استفسرت عن كيفية توفيقه بين استلامه لراتب منتظم من الأتراك، وبين ادّعائه الاستقلال المطلق، قال عبد العزيز: إن الراتب يعود تاريخه إلى زمن توقيف والده في بغداد، وكان يدفع له حينئذ كراتب يعيش عليه، وإنه استمر منذ ذلك الحين كراتب شخصي يدفع لعبد الرحمن، وإنه لا يزيد عن ستين جنيهاً -ليرة- تركيًا سنويًا. أما هو نفسه فلم يتسلم شيئاً من أي نوع طيلة حياته من الأتراك، سواء كان ذلك أوسمة ونياشين، أو كان راتباً ماليًا، يقترح عبد العزيز أن يسمح لراتب والده أن يوقف بعد وفاته.. وإن كل ما تبادله من الرسائل مع المسؤولين الأتراك ذو طبيعة دبلوماسية، إما لتحقيق جلاء القوات التركية بالتظاهر بالخضوع لهم، أو لتخفيف حدّة صعوبات ومشاكل أخرى كلّما برزت. ولو أ الإنجليز -يقول ابن سعود- أبقوا على علاقاتهم القديمة مع آل سعود، ووضعوهم تحت جناحهم، وهو ما يرغبون فيه، لما وقعت هذه التقلبات، ولا هذه الذرائع المصلحية، ولا كان لها لزوم على الاطلاق»!.. أي ضعونا تحت جناحكم واحمونا وساعدونا، وسنعلنها بعدئذ حرباً على الأتراك.

وأخيراً يقترح شكسبير في تقريره «جَمْع القادة الرئيسيين في الجزيرة العربية، والتنسيق معهم للقيام بثورة متزامنة يرأسها أشخاص من ذوي الميول الدينية المتفاوتة، مثل الإمام يحيى، والإمام الوهابي.. وسوف يؤدي ذلك إلى توحيد العرب إلى أن يتحقق هدفهم»!.

لكن الحقيقة هي أن الإنجليز لم يجدوا أصلح من الشريف حسين، فهو قرشي، ويدّعي الانتساب إلى سلالة الرسول، وهو حاكم مكة والمدينة اللتين تضمّان أقدس مقدسات المسلمين، في حين أن ابن سعود أصبح بعدئذ تابعاً لأمير مكة، لأن سمعة الوهابيين بين المسلمين سيئة، أما الإمام يحيى فبقي على الحياد، ولم يلوّث نفسه بثورة لورنس!.

ويعتقد شكسبير في آخر التقرير، وهو في الواقع يقترح: «أنه إذا ما وطّد آل سعود دعائم حكمهم في الأحساء، وأقاموا علاقات صداقة معنا، فإن وضعنا سيزداد قوة

بدرجة كبيرة، وستختفي المحاولات التي تجري حاليًا لحبك الدسائس والمؤامرات بين زعماء المشيخات المتصالحة وبين الأتراك.. ومما لا شك فيه، إن قوة وسلطة ابن سعود في أعماق الجزيرة العربية، ستجعل طريق القوافل إلى الداخل آمناً إلى حد يمكن للتجارة -وهي في معظمها الآن بريطاني أو هندي- أن تستفيد ماديًا».

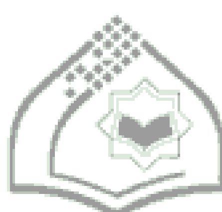
سؤال أخير: ألا يحق للإنجليز، ولشكسبير شخصيًا، أن يرحبوا بحاكم مثل ابن سعود، فيأخذ الأحساء ويطرد الأتراك، ويرفع العلم البريطاني في القطيف، ويسمح للتجارة البريطانية في الخليج بأن تجني أرباحاً طائلة.. وفوق هذا يدفع بمشايخ الساحل أن يلتزموا حدّهم، فيرتمون أكثر في الأحضان البريطانية، ويشجّع على الثورات ضد الأتراك، إلى أن تسقط الإمبراطورية العثمانية وتتوزع أشلاء تتقاسمها ممالك أوروبا الصليبية؟![1].

---

(١) هذا التقرير المطول لشكسبير، والذي استعرضناه في الصفحات لاسابقة، لا يشير له الكتّاب السعوديون ولا يتعرّضون له -إن أرادوا- إلا لماماً، فمثلاً يقول جلال كشك، الذي ابتسر كل الوثائق الإنجليزية وحوّر مقتطفاتها إلى صالح السعوديين، يقول حول التقرير: إنه في عام ١٩١١ اجتمع شكسبير مع ابن سعود، وتحدث معه عن كراهيته للأتراك «واستيائه الشخصي من احتلالهم للأحساء، الإقليم الذي كان ابن سعود شديد الاهتمام باسترداده، ليس فقط لأنه من أملاك آبائه، بل لأنه يعطيه منفذاً على البحر، ويمكنه من السيطرة على القبائل في المنطقة الممتدة من الرياض إلى الساحل».. وأشار كشك إلى أن ابن سعود عرض على شكسبير أنه «في حال استرداد الأحساء، فسيرحب بقبول وكيل بريطاني في أحد موانئ الإقليم».. وأن الأخير رد «بأن الحكومة البريطانية تحصر اهتمامها في الساحل -الساحل لا بد أن يشمل الأحساء والقطيف-، ولم تنازع تركيا أبداً في سيادتها على وسط الجزيرة»... إلخ.. انظر: السعوديون والحل الإسلامي، ص٣٤١ - ٣٤٢.

ويرى المستشرق الروسي إليكسي فاسيلييف، أن مباحثات ابن سعود وشكسبير، كانت ودّية «واتفق معه على التعاون، وتخلّى حاكم الرياض عن كل الادّعاءات في مسقط وعمان، وتقرّر أن يسيطر على الأحساء والقطيف، وجزيرة دارين ومرفأ العقير، وأن يحول الإنجليز دون تدخل أية دولة من جهة البحر» انظر: فاسيلييف، مصدر سابق، ص٢٣٤.

وأشار خالد السعدون، في صفحة ١٤٢ - ١٤٣ إلى اللقاء بقوله: إن ابن سعود «استغل فرصة اجتماعه بالوكيل السياسي البريطاني في الكويت، في ربيع الثاني ١٣٢٩هـ - أبريل سنة ١٩١١، فعرض عليه الفكرة -فكرة احتلال الأحساء- وألمح له بما سيعود على بريطانيا من فوائد فيما إذا وقفت بجانبه عند تنفيذ خطته المزمعة. ورغم أنه لم يتلقّ جواباً بريطانيًا حاسماً، فلم يغب عن ذكائه اللماح موقف الرضا الذي يكمن في ثنايا الصمت البريطاني. إذ لم تكن السلطات البريطانية غافلة عن الفوائد التي ستعود عليها من عملية كهذه».. وبعد ذلك يضع المؤلف إشارة عابرة للوثيقة أو التقرير الذي كتبه شكسبير نفسه.

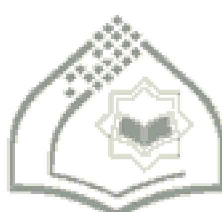

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٩

المرحلة الحرجة..

ما قبل الاحتلال (١٩١٢-١٩١٣)




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بحلـول عام ١٩١٣ تجمّعـت كل الظروف الإقليمية والدولية والمحلية المسـاعدة لتجعل عملية احتلال الأحسـاء من قبل ابن سـعود سـهلة يسـيرة، بل لم يحدث أن أحتل ابن سعود منطقة بأسهل منها.

وهناك جهات أربع يهمّنا استطلاع أوضاعها، عشيّة الاحتلال السعودي لها، وهي الأتراك، وابن سعود في نجد، والأهالي في الأحساء، والإنجليز في الخليج.

بالنسبة للأتراك، يتفق المؤرخون والكتّاب بالإجماع تقريباً على أن ابن سعود استغلّ انشغال دولة الخلافة في مشاكلها الدولية، وحروبها مع الغرب في أوروبا، والتمردات التي واجتها هناك، ليقـوم بمباغتـة الأتراك من الخلف، وهم في أقصى حالات الانشـغال والضعف. وينسـب بعض المؤرخين سـبب تأجيل ابن سـعود لاحتلال الأحسـاء حتى هذا الوقت، أنه جاء بناء على نصيحة من مبارك الصباح حاكم الكويت، وبعضهم نسبه إلى الإنجليز، ومهما كان الحال فإن الأمر سيّان، مع أننا لا نعتقد أن ابن سعود يقلّ ذكاء ودهاء عن مبارك.. وسنقتطف فيما يلي فقرات متعددة مما قاله المؤلفون -أكثرهم من المؤيدين- حول استغلال ابن سعود للضعف التركي هذا.

١- تحت عنوان «تحرير المنطقة الشرقية» كتب أحمد عسّه، بعد أن يتحدث عن كيفيّة سيطرة ابن سعود على القصيم: «واليوم نجد عبد العزيز في عام ١٩١٣/ ١٣٣١هـ يغتنم فرصة انشـغال الدولة العثمانية في حرب تشـتبك فيها مع إيطاليا من أجل السـيطرة على ليبيا، وبعض جزر البحر الأبيض المتوسـط، ليقوم بتحرير مقاطعة الأحسـاء ويسـتردها من الدولة العثمانية»[1].

(١) معجزة فوق الرمال، أحمد عسّه، ط٣ - ١٩١٧، بيروت، ص٦٥.

٢- قالت حفيدة الملك السعودي في دراسة لها[1]: «في عام ١٩١١ هاجم الإيطاليون طرابلس الغرب، وما كادت تنتهي الحرب الإيطالية التركية فيها حتى نشبت حروب البلقان الأولى ١٩١٢، بينما انفجر الصراع بين آل الرشيد في حائل، وهكذا توفرت الأسباب التي جعلت غزو الأحساء فرصة مواتية».

وتابعت قائلة: «وتعتبر الأحساء المنفذ الطبيعي لنجد إلى الخليج العربي والخارج، بالإضافة إلى مصادر الدخل منها، ولذلك كان عبد العزيز يتطلّع إلى اليوم الذي يسير فيه لاسترداد الأحساء، وقد جاء هذا اليوم في جمادى الأولى ١٣٣١هـ/ ١٩١٣، مستفيداً من ضعف الدولة العثمانية نتيجة حربها ضد الإيطاليين وفي حروب البلقان، واضطرارها لسحب جزء من حامياتها في الهفوف»[2].

٣- وكتب بنوا ميشان[3]: «ضمن ابن سعود حياد الإنجليز!، ولكن خوض معركة ضد الأتراك لم يكن مع ذلك مأمون العواقب، فنصحه الأمير مبارك الذي كان على اطلاع وثيق على ما يدور في الأستانة، بالتريث وترقب الفرص.. وصدق حدس مبارك بأسرع مما كان يتوقع، في نهاية العام -تشرين الثاني ١٩١١- هاجم الإيطاليون طرابلس الغرب، ولم تنته الحرب التركية - الإيطالية حتى نشبت حرب البلقان الأولى -تشرين الأول ١٩١٢-، وزحف الصرب إلى سالونيك والبلغار إلى الأستانة، وأصبح الأتراك بحاجة إلى كل واحد من جنودهم.. وأدرك ابن سعود أن ساعة العمل قد أزفت».

٤- وكتب آخر[4]: «يبدو أن ابن سعود أجّل تنفيذ عزمه استجابة لنصيحة مبارك له، بانتظار انتهاء فورة النشاط التي اتّسم بها نظام الحكم العثماني الجديد.. ولقد صدق ذلك الحدس، إذ تبدّد ذلك النشاط في مواجهة مشاكل دولية عويصة، مثل الحرب العثمانية - الإيطالية سنة ١٣٢٩هـ/ ١٩١١، والحرب البلقانية سنة ١٣٣٠هـ/ ١٩١٢. فاستغلّ ابن سعود الفرصة السانحة وعبأ قوّاته في ربيع الأول ١٣٣١هـ - فبراير سنة ١٩١٣، وتحرك صوب الأحساء بحجّة إخماد بعض الفتن القبلية هناك. ثم فاجأ القوات

(١) الملك عبد العزيز ومؤتمر الكويت ١٩٢٣ - ١٩٢٤ موضي بنت منصور بن عبد العزيز آل سعود، ط١ جدّة، ١٩٨٢، ص٢٣.
(٢) المصدر السابق، ص٢٣.
(٣) بنوا ميشان، مصدر سابق، ص١١١، وأيضاً بنوا ميشان، فيصل، تعريب رمضان لاوند، ص٢٣.
(٤) خالد السعدون، مصدر سابق، ص١٤٣.

العثمانية في الهفوف وأجلاها عن طريق البحر في أبريل ١٩١٣ - جمادى الآخرة سنة ١٣٣١هـ، بعد قتال طفيف لم يزد عدد ضحاياه عن خمسة وعشرين رجلاً».

٥- وكتب خامس: «وترجع أسباب هذا الانتصار السريع لابن سعود في فتحه المفاجئ للأحساء، إلى انشغال الدولة العثمانية في حروبها في البلقان، إذ لم تزد قوات الأتراك في الأحساء على نحو أربعمائة رجل»[1].

٦- وقال الدكتور العقاد: «في سنة ١٩١٣، تهيأت الظروف لغزو الإقليم، فالعثمانيون يواجهون صعوبات في البلقان، وقد اضطروا إلى انقاص حامياتهم في أطراف الدولة الأخرى حتى قدرت في الأحساء بنحو ٤٠٠ رجل...، وفي مايو[2] شنّ غارة من غاراته المفاجئة على الحاميات العثمانية، فلم يصادف مقاومة تذكر»[3].

٧- وكتب الأستاذ ناصر الفرج: «كما خططت بريطانيا لابن سعود احتلال الأحساء والقطيف، فقد وقّتت له هذا الاحتلال وحدّدته، في الوقت الذي كانت فيه الدولة التركية تحشد كل جيوشها وطاقاتها العسكرية لصدّ الزحوف المتوالية عليها في البلقان، وفي الوقت الذي تتعرّض فيه سالونيك والأستانة للسقوط بيد الصرب والبلغار.. وقد فاجأ ابن سعود تركيا بأحداث لم تكن تنتظرها في الخليج، ولم تكن في حال تمكّنها من استعادة سلطتها الفعليّة على منطقة الأحساء»[4].

٨- وأشار الأستاذ جمال زكريا قاسم إلى أن «انشغال الدولة العثمانية في البلقان كان مما ساعد عبد العزيز على فتح الأحساء، إذ ترتّب على تلك الحروب سحب سليمان نظيف بيك والي البصرة الاتحادي معظم القوات العثمانية من الأحساء، فلم تزد القوات الموجودة على أربعمائة نفر، منهم ٩٠ في القطيف»[5].

٩- ويذكر كشك، أن شكسبير قدم لابن سعود آخر المعلومات عن أحوال الأتراك

---

(١) الدين والدولة في المملكة العربية السعودية، الدكتور أيمن الياسيني، ط لندن الأولى، ١٩٨٧، ص ٤٨ - ٤٩ وأيضاً الدكتور عبد العزيز منصور، مصدر سابق، ص٢٠٤.

(٢) بعض المؤرخين يقول: إنه في شهر «أبريل».

(٣) الدكتور العقاد، مصدر سابق، ١٩٢ - ١٩٣.

(٤) ناصر الفرج، مصدر سابق، ص٤٤.

(٥) جمال زكريا قاسم، ج١، ص٣١٠.

في حروبهم الدولية يومئذ، وكان شكسبير قد قضى نحو أسبوعين في معسكر ابن سعود في المجمعة بين ١٩ نوفمبر حتى الثالث من ديسمبر ١٩١٢/ ١٣٣٠هـ، وقال الكابتن عن ذلك اللقاء: «كان الأمير قلقاً على سماع أنباء حرب البلقان»!.

فما هو سرّ هذا القلق؟

يقول شكسبير: إنه أعطى الأمير حقيقة المعلومات عن الحرب، وأن الأتراك هزموا: «فأعطيته المعلومات الحقيقية لأدهش لردّة الفعل.. فلم يكن هناك أي عطف على الأتراك، بل إن الأمير وإخوته وأعيان نجد لم يجدوا في هذا الموقف إلا فرصة ممتازة للتخلّص نهائيًا من كل بقايا النفوذ العثماني، وطرد قوتهم من القطيف والأحساء.. وقد خرجت بانطباع أن النكبات لم تثر أي عطف عليهم...»[1].

وما دمنا قد تعرّضنا لرأي الإنجليز في مسألة توقيت الاحتلال للأحساء، وما سجّلوه على لسان ابن سعود، فإننا سنتعرض لما قاله ابن سعود لشكسبير يومئذ بالتفصيل.

يبدأ شكسبير تقريره[2] المؤرخ في ١٥ مايو ١٩١٣ بالقول:

«خلال الجولة التي قمت بها مؤخراً في أعماق -غرب- الكويت في هذا الربيع، والتقيت مرة أخرى بعبد العزيز بن سعود أمير نجد، وأمضيت أربعة عشر يوماً في معسكره..».

«كان هو وإخوته بالغي السرور لتجديد علاقتنا القديمة، وكان الاستقبال الذي حظيت به، وكل ذرة منه، مليء بالصداقة والود وكرم الضيافة، كما كان الاستقبال أول مرة في مارس ١٩١١».

«كان الأمير توّاقاً لسماع آخر الأخبار عن الحرب التركية - البلقانية، وعن مجرى الأحداث فيها، لأنه لم يكن يصدق -كما قال- الروايات التي وصلته سواء من المصادر

(١) جلال كشك، مصدر سابق، ص٤٥١. ويبدو أن اللقاء تمّ في عام ١٩١٣ قبل أسابيع من احتلال الأحساء، وليس في أواخر عام ١٩١٢، لدرجة أن التقرير لم يصل إلى رؤسائه إلا بعد احتلال الأحساء.

(٢) انظر الوثيقة «FO . 371 / 1820» «E 29150»، مؤرخة في الخامس والعشرين من يونيو ١٩١٣. ومرسلة من الكابتن شكسبير في الكويت، إلى السير بيرسي كوكس في بوشهر.

التركية، أو من الصحف المصرية، إذ رغم أن هذه الأخبار كانت تحتوي على وصف للنجاحات التركية العديدة، فقد كانت القوات التركية تبدو دائماً وكأنها تهرب وتتراجع من موقع لآخر، وقد سمع من الكويت والبحرين، أن الجيش العثماني لم يكن يسيطر إلا على العاصمة التركية فقط، وعلى بعض القلاع التي لا تبعد أكثر من مسيرة يوم عنها، إضافة إلى بعض المناطق المعزولة، في حين أن كل بقية تركيا الأوروبية قد استولى عليها الحلفاء».

«قدّمت له من المعلومات ما كان قد وصلني -أخبار سقوط الدرنديل لم تكن وصلتني حينها-، وقد دُهشتُ حين وجدتُ أنه، بدل التعبير عن روح موالية للأتراك، فقد كان العكس هو الصحيح، حتى أن الأمير، وإخوته، وكل وجهاء نجد الموجودين في المعسكر، بدوا وكأنهم ينظرون إلى هزائم تركيا وضعفها الحالي، وكأنها توفر لنجد أفضل فرصة للتخلّص من السيادة العثمانية ولطرد قواتها من الأحساء والقطيف»[1].

«سأحاول الآن أن أبيّن فقط مدى تأثير أحداث العامين الماضيين -الحرب الإيطالية في طرابلس، والحرب التركية البلقانية- على آراء الأمير وطموحاته. لقد تحدث بعنفوان أعظم من الماضي عن كراهيته للأتراك، وكان خائب الأمل بشكل ظاهر، بحيث لم أكن بحاجة إلى تشجيعه، ولا حتى إلى إعطائه أقل أمل بأن طموحاته ستلقى موافقة الحكومة البريطانية، ولقد بذلت جهداً شاقاً لتبيان أننا على علاقة وديّة مع الحكومة التركية.. وأننا نجري مفاوضات معها، وأن الفترة الحالية من بين جميع الفترات لم تكن مناسبة لنا للقيام بدور البطولة في الدفاع عن مطالبه، حتى ولو كنّا راغبين في ذلك».

على أية حال، فهذا كلام لم يقنع حتى رؤساء شكسبير، فالجميع أدرك أن ابن سعود لم يكن على اطلاع كافٍ على أوضاع الحكومة التركية، وأن المعتمد لا شكّ شجّعه على احتلال المنطقة، وقال له: هذه هي الفرصة المناسبة، فاضرب ضربتك. ويبدو أن حكومة الهند ووزارة المستعمرات والمعتمدين السياسيين في الخليج، كانوا في قرار أنفسهم يؤيدون شكسبير في علمه، عدا وزارة الخارجية التي وصل إليها التقرير في شهر يونيو ١٩١٣، أي بعد أن تمّ احتلال الأحساء في أبريل ١٩١٣، وهذا أول تقرير يتأخر

(١) واضح أن شكسبير قدّم المعلومات لابن سعود محرّضاً إيّاه على احتلال الأحساء، ويبدو أنه كتب هذا التحليل على لسان ابن سعود نفسه، والغريب أن التحليل هذا وصل إلى وزارة الخارجية البريطانية بعد احتلال ابن سعود للأحساء، أي بعد أن قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان!.

كل هذه الشهور!.

ورأت وزارة الخارجية أن المسألة طبخها شكسبير، ووافق عليها البقية، ولم يكن أمامها سوى الغضب، والاحتجاج الذي أدّى إلى إبعاد الكابتن إلى لندن لبضعة أشهر، وكان الأخير قد أخذ احتياطه، ليس فقط بتقديم معلومات كاذبة لرؤسائه، وإنما أوضح لهم بأن ابن سعود رغم تحذيره الشخصي سيحتل الأحساء، فإذا حدث ما توقعه، يخرج هو بريء من تهمة التآمر مع ابن سعود!.

ونتابع في التقرير هذه الفقرات: «قال الأمير: إنه منذ أن تحدث إليّ آخر مرّة عن هذا الموضوع، مرّ على تركيا عامان، أظهرت فيهما عجزها عن القيام بعمليات عسكرية، وبالتالي شعر العرب أنهم قادرون على إجلاء القوات التركية من الأحساء والقطيف بأقصى السهولة. وكانوا جميعاً متفقين على أنه لن تسنح فرصة أفضل من هذه الفرصة، حيث جيش تركيا مهزوم محطّم، فاقد التنظيم، وأوضاعها المالية مشلولة، ورعاياها العرب في العراق وسوريا يطالبون جميعاً بالإصلاح والحكم الذاتي، ولهذا فستكون تركيا منهمكة مقيّدة اليدين في مقاطعاتها وأقاليمها الآسيوية، وبسبب محاولة الاستنقاه بعد انتهاء الحرب، بدرجة لن تستطيع معها إرسال حملة عسكرية جادّة إلى الأحساء أو إلى نجد»!.

لقد بتنا في حيرة من أمرنا، ولعل القارئ يشاركنا في هذه الحيرة، فما قدرنا أن نميّز أن هذا الكلام هل هو تحليل لشكسبير، أم للأمير السعودي نفسه، بحيث إن صديقه الإنجليزي كان يكتب بالنيابة عنه؟.

وقال ابن سعود محللاً هزائم الأتراك من وجهة نظر دينية: «إن العرب يعتقدون عن يقين بأن الهزائم والخسائر التركية ما هي إلا حكم الله وعقابه لأناس يسمّون أنفسهم مسلمين، بينما هم قد تخلّوا عن إيمانهم منذ أعوام طويلة، واضطهدوا رعاياهم، واستنزفوا وابتزّوا أموال الأوقاف الدينية، وخرقوا كل حدّ من حدود القرآن، وخربوا حكم الخلافة.. ثم أكّد جازماً بأن السلطان الحالي لم يعد خليفة حقًّا بأي معنى من المعاني، بل يتمسك بعرشه، وهو لعبة في أيدي عصابة من السياسيين في القسطنطينية، هدفهم الوحيد ملء جيوبهم، وهم على استعداد لإيجاد خليفة آخر غداً إذا أثبت التغيير أنه أفضل بالنسبة لمصالحهم».

ثـم يبرّر ابن سـعود العلاقة مع الإنجليـز، بزعم عدالتهم ونزاهتهـم، يقول: «أما العـرب فليسـوا فاقدي البـصر، ولا يمكـن إلا أن يقارنـوا العدالة والصدق والمساواة والازدهـار، والرفاه المادي، والحريـة الدينية[1]، التي يتمتع بها الناس في ظل حكم الأمم الأخرى، خاصة تلك الخاضعة تحت العلم البريطاني.. أن يقارن العرب كل ذلك بما رأوه ويرونه في ظل سلطة الحكومة التركية».

فابـن سـعود هنا واضح وصريح في آرائـه.. إنه يفضّل ولايـة الإنجليز على حكم الأتراك، وبتبرير ديني أيضاً.. ولقد قال لشكسبير فيما بعد بالنصّ:

«إن الكافر من وجهة نظره كان أفضل من التركي، لأن هذا الأخير كان يخالف القانون الذي يدّعي بأنه يتبعه.. بينما الأول -الكافر- يتصرّف بموجب القانون الخاص به»[2].

هـذه الجملة هي الأسـاس الذي يعتمده الوهابيون -حتـى اليوم- في تعاملهم مع المسلمين، ممّن لا يؤمن باعتقاداتهم، ويغض النظر عمّا قاله ابن سعود، لأنه ليس هنا مجال مناقشـة مثل هـذه الآراء المتطرفة.. فإن ما يجب التأكيد عليه، هو حقيقة أن السـعوديين والإنجليز اسـتغلّوا الضعف التركي لاحتلال المنطقة، وكان شكسـبير صادقاً حينما ذكر أن مشـاعر ابـن سـعود «لم تكـن تتناقل سرّاً» وأن «مثـل هذا الحديث كان يجـري علناً في كل لقاء للأمير مع رؤسـاء قبائله وعشـائره، ولقد كوّنتُ انطباعاً مؤكداً، أن هزائم تركيا وتراجعاتهـا لم تثـر أي عطف أو تعاطف معها كدولة، ولكنها أعتبرت كبرهان قاطع على أن تركيـا تجاهلـت دينها وتخلّت عنه ونسـيته، ولذا نسـاها الله وتخلّى عنهـا، فحري بكل وهابي أن يتخلّص ويبتعد عن أية صلة مع مثل هؤلاء المنغمسين بالمعاصي والهالكين».

---

(١) من الطريف جدًّا أن يتحدث الوهابيون عن «الحرية الدينية» التي لا يؤمن بها أساطين المذهب الوهابي، حتى وإن كانت ضمن إطار الإسلام، ولذا كان قتل من خالفهم في الرأي سمة من سمات تشدّدهم وغلوّهم.

(٢) وثيقة رقم «FO . 371 / 3044» «E 35392»، مؤرخة في الرابع عشر من فبراير ١٩١٧. من تقرير مطوّل أعدّه الكابتن أ. ت. ويلسون، كبير الضباط السياسيين الملحقين بالقوات الإمبراطورية البريطانية «المكتب العربي» في البصرة بعد احتلالها، ومرسل إلى المدير العام لمكتب الاستخبارات العربية، عن طريق مدير الاستخبارات العسكرية بالقاهرة.

وقد أُرسلت نسخة من التقرير المطوّل جدًّا، إلى كل من «وزير الخارجية، لندن -وزير خارجية حكومة عموم الهند البريطانية، دلهي- السكرتير السياسي في وزارة شؤون الهند، لندن - وإلى سكرتير حكومة عموم الهند للشؤون الحربيّة».

ويمكن القول الآن، بكل وضوح، أن ليست هناك أية حجّة لمن يزعم بأن الحاكم السعودي لم يستفد من انشغال تركيا في حروبها مع ممالك أوروبا الصليبية المحتشدة ضدها.. كما قال ذلك جلال كشك[1]، والذي أراد أن يمرّر مقولة بعيدة عن الواقع بحجم قوله: إن عملية احتلال الأحساء كانت موجهة بالكامل ضد بريطانيا، وإن اتخذت طابع المواجهة مع الأتراك!

هذا هو حال الأتراك عشية احتلال السعوديين للمنطقة الشرقية «واحتي الأحساء والقطيف».. ولكن كيف كان حال ابن سعود في نجد، وهو الطرف الآخر في المعادلة؟

كانت أوضاع نجد السياسية أواخر ١٩١٢ وبداية ١٩١٣، هادئة وتميل إلى صالح ابن سعود، فمن جهة كان الأخير قد تخلّص من منافسة أبناء عمه المسمّون بـ«العرايف» في ثورتهم التي قاموا بها ضدّه في الخرج، وتخلّص من الانتفاضات التي قامت في بريدة وغيرها بأشدّ الأساليب قسوة ووحشية.

ومن جهة أخرى، بدأت الخلافات تتسع وعمليات الاغتيال تتصاعد في البيت الرشيدي الحاكم في حائل، مما جعله غير قادر على مواجهة الطموح والنفوذ السعوديين.. فضلاً عن أن بعض الباحثين يؤكدون أن ابن سعود ارتبط مع ابن الرشيد في مهادنة مؤقتة لتأمين ظهره إبان حملته على الأحساء[2].

ومسألة ثالثة ترد هنا حول وضع ابن سعود الشخصي، فهو رجل يحمل طموحات توسعيّة على حساب جيرانه، ولقد وصف بيرسي كوكس، المقيم البريطاني في بوشهر، والذي عرك ابن سعود سنوات طويلة، وصف مطامعه التي لا تحدّ بقوله: «يعتقد ابن سعود من الناحية العملية أن له الحق من حيث المبدأ في استعادة أية أراضٍ كان أجداده قبل نحو قرن قد استولوا عليها، أو جعلوها من مناطق نفوذهم»[3].

ثم أن عملية الأحساء، لا تكلّف ابن سعود شيئاً كثيراً، وهي أسهل المناطق التي يمكن أن تسقط في قبضته، بل لم تسقط منطقة بالسهولة، التي سقطت بها الأحساء.

(١) جلال كشك، المصدر السابق، ص٤٥١.
(٢) جمال زكريا قاسم، مصدر سابق، ج١، ص٣١٠.
(٣) كيلي، مصدر سابق، ص١٨٥.

أما أوضاع الأحساء الداخلية فهي ناضجة منذ مدة، فالأهالي أصابهم الإعياء من انفراط الأمن الذي كان أحد مسببيه، ابن سعود نفسه، وقد انقطعت سُبل التجارة والمعاش، بسبب الحصار المتكرر الذي فرضه البداة على الحواضر القطيفية والأحسائية، ممّا أذهب بازدهار المنطقة التي كتبت عنها الدولة العثمانية في دائرة معارفها «إن هذه الواحة، لولا ما يحيط بها من بوادي سوء، لازدهرت الحياة فيها ازدهاراً لا نظير له، لتوفر وسائل العمران في هذه التربة الخصبة»(١).

ولم تكن لأهالي المنطقة بعد سنوات من الفتن والاضطراب، أي قدرة على مقاومة الغزاة.. شأنهم في ذلك شأن الجنود الأتراك أنفسهم، وفي الوقت نفسه فقدت القطيف زعيمها السياسي الأول المرحوم منصور بن جمعة، وأصابت الفرقة زعماء القطيف الدينيين والسياسيين، ممّا سهّل عملية الاحتلال.. في حين أن من حاول المقاومة وحضّ الأهالي عليها قد غادر البلاد بمجرد أن وصلت القوافل السعودية للقطيف، كما حدث بالنسبة للعلامة المجتهد حسن علي البدر، ليموت بعد حوالي عامين أثناء مقاومته للاحتلال البريطاني للعراق.

وهكذا حين دخل ابن سعود القطيف والأحساء وإن كانت غير راغبة فيه، فإنها لم تكن قادرة على مقاومته.

بقيت نقطة جديرة بالالتفات إليها، نحاول أن نجيب عنها، وهي: هل دعا الأهالي ابن سعود ليأخذ الأحساء وينقذهم من انفراط الأمن؟

بالنسبة للقطيف، يمكننا الإجابة بالنفي، حتى وإن زعم ابن سعود نفسه ذلك.

وأما الأحساء، فقد استعرضنا أكثر من قول لابن سعود ومؤيديه من أن الأهالي دعوه لإنقاذهم.. ولكن هناك مبالغات في هذا الدعوات، لدرجة أن كشك علّق عليها بأنها من «عادة كبار الفاتحين»!.. قال: «وإذا كانت العادة قد جرت أن يقول كل الفاتحين الكبار: إنهم جاؤوا بناء على طلب الأهالي، فإن ابن سعود هو أحقّهم بهذا الادّعاء، لأنه ليس غريباً على الأحساء، وفتحه عاد بالخير والاستقلال والعروبة للإقليم»(٢)، وفي هذا

(١) الحياة العلمية والثقافية والفكرية في المنطقة الشرقية، الدكتور عبدالله ناصر السبيعي، ط١، ١٩٨٧، ص٢٥.
(٢) جلال كشك، المصدر السابق، ص٤٥٣.

القول نقاش طويل للتبريرات نتركه إلى حينه.

ويبدو أن عمل مخبري ابن سعود من النجديين -في الغالب-، اعتبر دعوة مفتوحة لاحتلال المنطقة، فكانوا هم المبرر.. فمَنْ هم هؤلاء؟

قال قدري قلعجي[1]: إن عبد العزيز قبل احتلال الأحساء «كتب إلى أصدقاء له هناك من آل سويلم والقصيبي والعجاجي والغنيم، ينبئهم بهجومه، ويطلب منهم أن يطمئنوا الأهالي، فيلزموا مساكنهم ويخلدوا إلى السكينة».. أي القيام بعملية تثبيط.. وأشار آخرون إلى دور آل الملا، والحملي والمبارك والملحم.

هذه هي العوائل، فمتى جاءت إلى الأحساء، وما هو تصنيفها المذهبي؟

- **آل العجاجي**: نزحوا إلى الأحساء من الرياض في آخر القرن الثالث عشر[2].. أي أنهم مستوطنون جدد، وخلال أقلّ من عقدين بدؤوا ينسقون مع ابن سعود في تحركاته، وهم وهابيو المذهب، واعتنق بعضهم المذهب الشيعي، كما يوجد جماعات منهم في البحرين.

- **آل غنيم**: نزحوا إلى الأحساء من الرياض في القرن الثالث عشر[3]، وحالهم مثل الذين سبقوهم، واعتنق بعضهم المذهب الشيعي.

- **آل ملحم**: نزحوا إلى الأحساء من بلدة الجزعة المشهورة في نجد بقرب الرياض[4]، وهم وهابيو المذهب سعوديو الولاء منذ أيام الدولة السعودية الثانية، حيث عيّنهم آل سعود ولاة على الأحساء فاستقروا فيها.

- **آل سويلم**: ينتمون إلى العرينات، البطن المشهور في سبيع، وقد نزحوا إلى الأحساء من الرياض[5].

- **آل جبيح**: نزحوا إلى الأحساءمن بلدة شقراء بنجد.

(١) موعد مع الشجاعة، قبس من حياة عبد العزيز، قدري قلعجي، ص١٧٤.
(٢) آل عبد القادر، مصدر سابق، ص٣٤.
(٣) المصدر السابق، ص٣٤.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق، ص٣٧.

- آل الملا: وفدوا من الشام مع الحملة التركية الأولى في القرن العاشر الهجري، وكان عميدهم «مطوّع» العسكر التركي، واسمه علي الواعظ آل الملا[١].

- آل مبارك: تميميون نجديّون، جاؤوا إلى المنطقة حوالي منتصف القرن الثالث عشر، منهم الشيعة والسنّة، واشتهر منهم من الشيعة، الشيخ محمد بن صالح المبارك.

- آل القصيبي: نجديون وكانوا أوّل ممثلين لابن سعود في الخرج، برز منهم عبد العزيز القصيبي ممثل الملك في البحرين، والذين أشعل الفتنة الطائفية فيها أوائل العشرينات الميلادية، مما اضطر الإنجليز إلى إبعاده مؤقتاً[٢].

وهكذا يتبين أنه لا أحد من الغالبية الشيعية في الأحساء، قد دعا ابن سعود، كما أن الغالبيّة السنيّة التي ارتبطت مصالحها بالحكم التركي، وهي حنفيّة وشافعية ومالكية المذهب، بقيت على ولائها، إلا ما شذّ، وإن كان الأخيرون قد صُهروا في بوتقة الحكم السعودي المنتصر فيما بعد.

والمشكلة الأساسية التي واجهها السكان يوم احتل ابن سعود الأحساء، هي عدم وجود القيادة السياسية مطلقاً في حين سلّمت القيادة الدينية بحكم الأمر الواقع، ولم تكن لها الإمكانات الحقيقية للتمرّد على ذلك الواقع، وإن كان ذلك لا يعفيها من العتاب.

بقي علينا استطلاع وضع الإنجليز لنكون قد ألممنا بالصورة الكاملة لما كان يجري عشية احتلال الأحساء.

فإزاء الضعف الذي ألمّ بالأتراك، تقدّم الإنجليز خطوة لأخذ الشرعية الكاملة لتواجدهم في الخليج، فقاموا بالتفاوض مع الأتراك واعترفوا لهم بالأحساء والقطيف على الساحل، في حين تخلّى الأخيرون عن حقوقهم في الإمارات الخليجية الأخرى، واعترفوا للإنجليز بالسيادة الكاملة على مياه الخليج.. وقد كان ذلك مشروع اتّفاق لم يوقع إلا بعد الاحتلال السعودي للمنطقة، وهو «مشروع إتفاق وُلد ميّتاً» كما وصفه العقاد[٣].

---

(١) المصدر السابق، ص٣٣٣.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن هذه العائلة، راجع كتب «The Merchant» للكاتب مايكل فيلد، والكتاب مترجم ويحمل اسم «التجار»، جزءان، ترجمة دهام عطاونة، لندن.

(٣) العقاد، مصدر سابق، ص١٩٢ - ١٩٣.

ورغم أن الخلاف في وجهات النظر بين حكومة الهند ووزارة الخارجية، لم يكن استراتيجيًا بأية حال، فإن الآراء تتفق حول تصفية الإمبراطورية «الذاهبة»، أو «الرجل المريض» ولكن الخلاف في التوقيت.

فوزارة الخارجية تتعامل مع الدولة العثمانية، كما تتعامل مع أية دولة قاصرة، وكانت ترى في هذا القصور فرصة ممتازة لتوطيد المصالح البريطانية على حساب تلك الدولة المهلهلة رويداً رويداً.. في حين أن حكومة الهند ووزارة المستعمرات ووراءهما كل الاستعماريين يستعجلون الحرب مع الدولة العثمانية لإنهائها كليّة مرة واحدة، وقد انتصرت وجهة النظر هذه، حينما بدأت بريطانيا الحرب ضد دولة الخلافة دون أي مبرر ودونما استفزاز مسبق من الأخيرة.

وقد كانت وجهة نظر حكومة الهند تجاه ابن سعود على خلاف مع وجهة نظر وزارة الخارجية، مما جعل الأولى تلتفُّ بشتى الطرق على تذرعات الثانية، وراحت ترغم القرار الرسمي تشجّعه عن طريق المعتمد السياسي في الكويت الذي اعتاد على مقابلة ابن سعود في أعماق نجد.

وفي لقائه الأخير الذي تم بعده مباشرة إحتلال الأحساء، كتب شكسبير: «حين راح ابن سعود يناقش طموحاته الشخصية، وقال: إن الوقت قد حان ليختار سياسته المحددة الواضحة بالنسبة للمستقبل. فلقد ازدادت سلطته في وسط الجزيرة العربية، ولم يعد يخشى أيًا من شيوخها أو حكامها، والأكثر من ذلك أنه متحالف معهم جميعاً، باستثناء واحد فقط، هو شريف مكة، وهو الذي عاد فتحالف مع الأتراك خوفاً من غزو وهابي جديد».

وقال شكسبير: «إن آل سعود قادرون على الاحتفاظ بما استعادوه من أملاكهم القديمة في الجزيرة العربية على مدى الخمسة عشر عاماً الأخيرة، وهم يشعرون بأنهم قادرون على ذلك بسهولة نسبيًا، لولا التهديد الدائم بغزو تركي يأتي من الشرق عن طريق الأحساء، ومن الغرب عن طريق مكة والمدينة، وأن آل سعود لا يستطيعون مواجهة الأتراك من الجهتين، ولكي يأمنوا حدودهم الغربية بحشد قواتهم العسكرية هناك، تحدوهم الرغبة في طرد الأتراك من الأحساء والقطيف. وهناك سبب آخر من أهم الأسباب أيضاً لتحقيق تلك الرغبة، وهو امتلاك هاتين المقاطعتين الغنيتين وامتلاك

ميناءيهما، خاصة العقير، لأنهما سيوفران مورداً عظيم القيمة من العائدات لدولة هي الآن من أشد الدول فقراً.. وإضافة لذلك، فإن لآل سعود مبررات أخرى في مطالبتهم بالأحساء والقطيف، أحدها هو أن هاتين المقاطعتين كانت من أملاك عائلتهم، وأن الأتراك في وثيقة أعطاها نافذ باشا لعبدالله الفيصل، وافقوا على أن المنطقة من حق عبدالله وعائلته وهم الذين يحكمونها، وقد أخبرني الأمير بأن هذه الوثيقة لم تقع في يده إلا منذ فترة قريبة، وأنه سيرسل إليّ بعد عودته إلى الرياض نسخة منها»[1].

وقال ابن سعود: «إن هناك وثيقة أخرى سمع بها ولكنه لم يستطع العثور عليها حتى الآن، تصل في فحواها أن تكون معاهدة عقدها الكولونيل السير لويس بيلي، تضمن بالنيابة عن الحكومة البريطانية، بأن يُعترف بآل سعود شيوخاً على مقاطعة القطيف. وقال: إن هذه الوثيقة جاءت نتيجة مفاوضات جرت بعد العمليات العسكرية البحرية التي وقعت في القطيف والدمام عام ١٨٦٥[2]، حين قام أربعة رجال هم: محمد بن مانع، عبد العزيز بن عمر، صالح الوداوي، إبراهيم بن غانم، بزيارة للمقيم البريطاني في بوشهر كممثلين لعبد الله الفيصل بن سعود الذي أرسلهم إلى هناك».

لقد أوضحنا في صفحات سابقة أنه لم تكن هناك معاهدة، وإنما تعهّداً سعوديًا دون مقابل، وأوردنا نص التعهد، ولعلّ ذلك هو ما كان يبحث عنه ابن سعود. وبناء على ذلك، ولأن شكسبير يبحث عن كل المبررات لدى حكومته وللآخرين التي تدعم الاحتلال السعودي للأحساء والقطيف، فقد راجع أرشيفات بريطانية قديمة للتحقق من ادّعاء ابن سعود الأخير، فلم يجد سوى التعهد السعودي الذي قدمه محمد المانع، نيابة عن الحاكم السعودي الجديد عبدالله الفيصل، وقال: إن هذا التعهد الصريح، ربما يكون له دلالة فيما يتعلق بالاتفاقية.

ولكن ما هو الموقف الإنجليزي من احتلال الأحساء؟

قال المستشرق الروسي[3]: «لم تقف بريطانيا حجر عثرة أمام طرد الحامية التركية

---

(١) انظر أيضاً: كشك، مصدر سابق، ص٣٤١ - ٣٤٢. وربما لا تعدو الوثيقة المذكورة منشوراً من منشورات نافذ باشا لتبرير الاستيلاء على الأحساء، وإذا كانت مواعيد الأتراك قد ذهبت هباء، فإن مواعيد السعوديين لأهالي المنطقة قد أخلفوها مرّات ومرّات، وفي شتى المجالات.

(٢) إشارة إنجليزية مهذّبة للقصف البريطاني للقطيف في فبراير ١٨٦٦.

(٣) اليكسي فاسيلييف، ص٢٤٣.

من الأحساء، وقد قام المندوب البريطاني في البحرين بزيارة مجاملة لعبدالعزيز في مرفأ العقير بعد سقوط الأحساء».. وكتبت القنصلية الروسية في البصرة بعد سقوط الأحساء: «من المحتمل أن يكون قد حدث كل ذلك، ليس بدون علم الإنجليز وليس بدون نصائحهم، فإن دسائسهم بين الشيوخ العرب معروفة جيداً»[1]. وصار من الثابت أن مما «ساعد على نجاح ابن سعود في المرحلة الأولى من حكمه، دعم بريطانيا له في كفاحه ضد الإمبراطورية العثمانية وولاتها، وإنهيار هذه الإمبراطورية نتيجة للحرب العالمية الأولى»[2].

والذي حدث أثناء لقاء ابن سعود مع شكسبير، كان يجري في هذا الاتجاه، اتجاه الحثّ والتحرّيض لابن سعود على احتلال الأحساء، ولكن ما كتبه شكسبير في التقرير مخالف للواقع، حيث قال: إنه حذره من أن الدعم الإنجليزي لن يأتيه إن فعل ذلك.. وقبل أن نستعرض ما جاء في التقرير نطرح تفسيراً لما جاء فيه:

أولاً: كانت أجوبة المعتمد في الكويت على طلب ابن سعود في توفير الحماية له إذا ما احتل الأحساء، مبالغة في التقيّد بوجهة نظر وزارة الخارجية، وكأنها كتب القرير «إبراء للذمة»، من أنه حذر ابن سعود بألّا يحتل الأحساء.

ثانياً: إن توقيت زيارة شكسبير إلى أعماق نجد، لم يكن دون هدف، وأن يُمضي في معسكره أسبوعين ليس أمراً اعتياديًا، وأن تأتي عملية احتلال الأحساء بعد أسابيع قليلة من اللقاء، يزيد في الشكوك حول حقيقة ما قاله شكسبير.

ثالثاً: لم يبعث الكابتن شكسبير تقريره إلا متأخراً، خلاف المألوف، لرؤسائه، فإذا كانت المسألة على درجة عالية من الأهمية فإن الرسائل تبعث برقيًا في حينها، بينما لم يصل التقرير إلى وزارة الخارجية إلا بعد شهرين من احتلال الأحساء، وبعد حوالي أربعة أشهر من اللقاء مع ابن سعود، فبماذا يمكن أن يفسر تأخير وصول تقرير مهم عن منطقة مهمة للإنجليز؟!

رابعاً: إن حكومة الهند، التي يبدو أنها على اطلاع على ما فعله شكسبير، لم تعترض

(١) المصدر السابق، ص٢٤٢.
(٢) المصدر السابق، ص٣٣٠.

على فعلته، وإنما جاء الاعتراض من وزارة الخارجية، إلى حد طلب إبعاده إلى لندن.

خامساً: إن شكسبير نفسه من أقوى المؤيدين لآل سعود، ودليلنا على ذلك «حب وهيام» عبد العزيز به والإطراء على مواقفه[١]، وأيضاً قتال شكسبير إلى صف ابن سعود في مواقع الخطر، لدرجة أن يقتل في إحدى معاركه، مما يدل على إيمان تام بأن مصلحة بريطانيا تكمن في دعم ابن سعود إلى أبعد مدى. ولقد صدق فيلبي -الذي خلف شكسبير في منصبه- بأنه لو بقي شكسبير على قيد الحياة، لما أصبح لورنس أسطورة يتغنّى بها المستعمرون لسنوات طويلة، ولكان شكسبير هو الذي استحق هذا «المجد»!.

والآن إلى ما قاله شكسبير في تقريره[٢]:

«وجد ابن سعود نفسه مجبراً على طلب الحماية البريطانية -من النوع الذي منحناه للكويت وللشيوخ الآخرين نتيجة علاقات الصداقة القديمة- أو أن يعتمد على سيفه وإيمانه، وهو مصمم على طرد الأتراك من الأحساء والقطيف عاجلاً أم آجلاً، وإن لم يكن ذلك بالدبلوماسية فسينفذه باللجوء إلى السلاح».

«وابن سعود لا يستطيع أن يتنبأ بفرصة أفضل من المتاحة حاليًا، ولكن قبل أن يندفع حتى آخر الطريق، فإنه يرغب في أن يكون على اطلاع حول الموقف الذي يجب أن نتخذه نحن. حول هذه النقطة أخبرته على الفور بأنه إذا ما هاجم الأحساء فإنني على يقين من أننا لن نعرّض علاقاتنا مع تركي للخطر من أجله، وعليه أن يدرك بأنه سيكون من الصعب جدًّا علينا، أن نثير مثل هذا الخلاف حين يصل إلى حدّ الصدام، أو بعد هجوم غير مبرر يقوم به ضد الأتراك في الأحساء».

«بالطبع قد يكون بإمكانه طرد الأتراك في الفترة الحالية، لأن الأتراك لا يحتفظون بحامية كبيرة، ولكن ذلك قد يعني معارك ضارية، وفي هذه الحالة عليه أن يكفر بما سيكون

(١) ينقل روبرت ليسي طرفة تقول: إن أحد أعضاء وفد بريطاني سأل الملك عبد العزيز في الرياض، عن أعظم شخصية بريطانية أُعجب بها، فردّ دون تردد «شكسبير»، فظن الزائر السائل، أن الملك يقصد الأديب الإنجليزي شكسبير، وتعجّب كيف أن بدويًا منزوياً في نجد يتابع باهتمام الأدب الإنجليزي، ولكن الملك أكمل حديثه مثنياً على شكسبير، وتبيّن لهم أن المقصود هو المعتمد السياسي البريطاني في بلاطه، والذي قُتل معه في معركة جراب.

(٢) انظر الوثيقة «FO . 371 / 1820 / E 29150» مرسلة من الكابتن شكسبير، إلى المقيم في بوشهر، بتاريخ ١٥ مايو ١٩١٣.

عليه تتابع الأحداث فيما بعد. إن أي عمل يقوم به ضد الأحساء سيستتبع بالتأكيد عملاً انتقاميًّا، قد يتطور إلى حالة حرب شبيهة بتلك التي وقعت مؤخراً في اليمن، وقد تؤدي إلى تقدم تركي جديد داخل نجد، وفي هذا الحالة قد يفقد كل ما يسيطر عليه الآن».

«لا يمكن إنكار الحقيقة القائلة بأنه سيحاول قتال قوة عالمية إذا حاولت بجد أن تحطّمه وتدمّر قواته نهائيًّا.. ويبدو لي أن مثل هذا المشروع -احتلال الأحساء- أحمق، نهايته محتومة، وسيؤدي إلى أن يفقد كل ما يملكه الآن.. ولأني صديق، فلم أكن لأتركه يخطط ضمن فهم وتقدير خاطئين إلى هذا الحد فيما يتعلق بالقوة التركية، رغم أن مجرى الأحداث في حرب البلقان كان يبرر مثل هذا الفهم الخاطئ».

هذه مبالغات شكسبير التي لم يقتنع بها هو ولا رؤساؤه ولا ابن سعود عن قوة تركيا، وهو يورد هذه المبالغات -كتابة- ليقول: إنه فعل كل جهده لإثناء عبد العزيز عن احتلال الأحساء!.

مع هذا تتحدث فقرة التقرير التالية، عن عدم قناعة ابن سعود بالرأي وأنه مصمّم على احتلال الأحساء.

«من كل ما سمته في معسكر ابن سعود، لا أشك في أنه سيقوم في يوم من الأيام بمحاولة لأحتلال الأحساء والقطيف، فكل النقاشات كانت تشير إلى أن العرب يحتقرون القوات التركية الموجودة في الحاميات هناك، باعتبارها عديمة الفائدة، وإلى أن العرب واثقون من انتصارهم الفوري، وإلى أن تفكيرهم الرئيسي ينحصر الآن في الطريقة التي يمكن أن ينجز بها هذا الأمر على أكمل وجه، وإن أمكن، دون إراقة الدماء. لأنهم حينها سيشعرون بأنهم قد يكسبون تعاطف البريطانيين في هذه الحالة».

«شعرت أنه من الضروري أن أبيّن ما كان يبدو لي محتّم الوقوع، أي الردود الانتقامية العنيفة من قبل الأتراك، وعدم إمكانية أي تدخّل من جانبنا لدعم قضية ابن سعود، وقد فعلت ذلك في كل مناسبة أُثير فيها هذا الموضوع».

ويقدم شكسبير تحليلاً يحمل الصبغة الوطنية والسياسية لأطماع السعوديين فيقول:

«مما لا شك فيه أن العرب -أي البدو- في جميع أنحاء الجزيرة العربية -تقريباً-

يحتقرون الأتراك الآن إلى حد يشعرون معه بأنهم قادرون تماماً على تصفية حسابهم معهم. ذلك أن الحربين اللتين خاضتهما تركيا مسؤولتان عن انهيار هيبتها، بينما عدم الثقة بالأتراك واحتقارهم قد ازداد حدّة نتيجة انفضاح حقيقة الهزيمة التركية، والتي تزدادجلاء يوماً بعد آخر، بأن الانتصارات المزعومة لم تكن إلا أكاذيب تشيعها الحكومة التركية عمداً لإخفاء ضعفها وفشلها، وأن الرغبة في التحرر من نير الحكم التركي لا تقتصر على نجد، فالصحافة تعجّ بالروايات والتقارير عن قيام حركات مماثلة تطالب بالحكم الذاتي».

وقال شكسبير في تقرير عن ابن سعود في ١٥ مايو ١٩١٣: «في الأعوام الأخيرة، خاصة خلال حروب تركيا مع إيطاليا ودول البلقان، كان المسؤولون الأتراك يلحون على عبد العزيز ليقدم لهم الدعم والمساعدة، خاصة بالرجال والمال وأن يبرهن على أنه من رعايا السلطان المخلصين:

١ - بإرسال ثلاثة من آل سعود إلى القسطنطينية للدراسة والخدمة في الجيش العثماني.

٢- وبالاعتراف بالسيادة التركية علناً، وذلك بأن يقبل لقباً تركيًّا، مع فرمان سلطاني يُعيّن بموجبه حاكماً على نجد.

٣- وأن يسلّم لهم كل الرسائل والوثائق التي تبودلت في أية فترة بين آل سعود والمسؤولين البريطانيين».

«وقد رفض ابن سعود حتى الآن كل هذه المطالب، بلغة مهذبة قدر الإمكان، لأنه يعلم أن الأتراك ما أن يمسكوا به حتى يتحول في الواقع إلى واحد من الرعايا الأتراك، وهو ما لا يعترف بأنه واقع حاليًّا».

«وإلى جانب ذلك فالأتراك مقتنعون بأن شكلاً ما من أشكال التفاهم موجود وقائم فعلاً بين آل سعود والحكومة البريطانية. هذا الاعتقاد هو أحد أسباب محاولاتهم المتكررة لجعله يتخلّى عن استقلاله.. وهو -أي ابن سعود- على استعداد شخصيًّا لأن يعلن بصراحة على الملأ عن أي اتّفاق واضح ومحدّد معنا، إذ إن مجرد وجود مثل هذا الاتفاق سيريحه من الأذى والتحرّش التركي. وما لم يكن مسلحاً بشكل ما من أشكال

التفاهم مع الحكومة البريطانية.. يجبر الأتراك على التمهل والتردد في مهاجمته، فإنه سيكون دائماً عرضة للمكائد والدسائس ولامؤامرات».

أما ما يريد أن يصل إليه المعتمد فهو: «آمل أن تولوا عناية جدّية لشؤون ابن سعود، وقضايا وسط الجزيرة العربية، فالرجل حاكم من أفضل ما ينتجه العرب.. ولا أظن أنه سيكون هناك أدنى شك بأن تحرك ابن سعود الأول سيكون هجوماً على الأحساء والقطيف.. وهو في الوقت الحاضر عميق الصداقة والود نحونا، وهو ميّال إلى إلزام نفسه بالتزامات تجاهنا.. وإني أميل إلى الاعتقاد بأن الطريق ستكون طويلة إذا ما توفرت له الأسباب للاعتقاد بأننا سنساعده في طرد الأتراك من الأحساء والقطيف.. ومن الناحية الأخرى فإن رفض مبادرات الأمير ستولّد بلا شك مرارة لديه قد تنعكس على مصالحنا على طول الساحل العربي للخليج، ربما ليس على الفور، ولكن في المستقبل القريب.. وإنني مقتنع بأن ابن سعود سيكون مسروراً بأن يقدم لنا أي تعهد نرغبه في الحفاظ عل «الوضع الراهن» في المستقبل. وختاماً لي الشرف بأن أستحثّ دعمكم ومساندتكم لإعادة النظر في كل مسألة علاقاتنا مع أمير نجد... إلخ»[1].

هذا هو تقرير شكسبير الذي أجراه قبل احتلال الأحساء بفترة قصيرة مع ابن سعود، وأرسله بعد سقوطها إلى رؤسائه.. فماذا قال هؤلاء؟!

علّق رئيس شكسبير، وهو المقيم السياسي في بوشهر السير بيرسي زكريا كوكس، وهو عادة ما يعبّر عن وجهة نظر حكومة الهند، علّق بقوله: إنه «تقرير هام وممتع أُرسل إليّ قبل أن يسمع الكابن شكسبير بسقوط الأحساء والقطيف.. ومما لا شك فيه أنه من الغريب حقًّا، من وجهة نظرنا، أن يصل ابن سعود باحتلال الأحساء إلى آخر المدى في هذه المرحلة من المفاوضات الأنجلو - تركية، وبعد فترة وجيزة جدًّا من ذلك اللقاء الودّي مع معتمدنا».. ومع هذا الشك الذي طرحه كوكس، وأبدى استغرابه من توقيت عملية الاحتلال، إلا أنه يقفز على ذلك متجاهلاً: أنه لا بد من الرضوخ للأمر الواقع، ثم يثني على العملية وتوقيتها قائلاً: إن «اللحظة كانت مثالية بالتأكيد»[2].

وحين وصلت المراسلات إلى حكومة الهند، أرسلت نسخة منها إلى وزارة الخارجية

---

(١) الوثيقة السابقة.

(٢) رسالة من الليفتنانت كولونيل، السير بيرسي كوكس، إلى حكومة الهند، في ١٦ مايو ١٩١٣.

واستلمتها في ٢٥ ينيو ١٩١٣، في وقت متأخر، وبعد أن انتهى الاحتلال وتوابعه.. مع هذا وضع الماركيز كراو -وزير شؤون الهند- خطًّا أمام الجمل الهامة من تقرير شكسبير والتي تثبت تواطؤه مع ابن سعود، وكتب تعليقاً مقتضباً: «الرجاء التركيز على الفقرات التي وضع الماركيز علامات عليها. يجب الطلب من الكابتن شكسبير الامتناع عن الظهور بمظهر المشترك في مؤامرات ودسائس ابن سعود. التوقيع/ الوزير، في ٢٦ يونيو ١٩١٣».

وهذه الجملة بالغة الدلالة في اتِّهام الكابتن وحكومة الهند بالتوطؤ، وإن جاءت بتعبير مبطَّن.

وعلَّق آخر في حكومة الهند: «لقد حُذِّر الكابتن شكسبير بألَّا يظهر هناك...»[1]. فحتى حكومة الهند التي ينتمي إليها شكسبير حاولت إرضاء وزارة الخارجية وتبرئة نفسها من العمليَّة!.

أما وزير الخارجية فقد طلب من أحد موظفيه في الوزارة أن يرسل رسالة شديدة اللهجة إلى وزارة الهند وحكومتها، وإلى السير برسي كوكس شخصيًّا، وإلى كل المعتمدين الذين هم تحت إمرته، محذِّراً إيّاهم من التمادي في دعم ابن سعود لأن وزارة الخارجية هي المسؤولة في التعاطي مع قضيته المرتبطة بالعلاقة مع تركيا، وما علينا الآن إلا أن نضع أمام القارئ بعض نصوص تلك الرسالة.

فقد كتب «لويس ماليت» نيابة عن وزير الخارجية السير إدوارد غري، إلى وزارة شؤون الهند، رسالة بتاريخ الثاني من يوليو ١٩١٣ قائلاً[2]:

«أمرني الوزير السير غري أن أبيّن بأنه درس بعناية فائقة المراسلة المؤرخة في ٢٦ مايو ١٩١٣، الصادرة عن المقيم السياسي في بوشهر، والمرسلة إلى حكومة الهند، وكذلك درس مرفقاتها، وهي المراسلة المؤرخة في ١٥ مايو ١٩١٣، الصادرة عن المعتمد السياسي في الكويت والمتعلقة بالأوضاع في نجد».

«لقد علم السير غري ببالغ الأسف أن الكابتن شكسبير قد أمضى أربعة -عشر-

(١) راجع التعليقات على الوثيقة «FO . 371 / 1820 / E 29150» .

(٢) الوثيقة «E 29150» تاريخ ٢/ ٧/ ١٩١٢، من وزارة الخارجية إلى وزارة شؤون الهند.

يوماً مؤخراً في معسكر ابن سعود، وهو عمل لم يكن يبدو أنه أمر أساسي وضروري لأية مهمة يمكن أن يكون ذلك الضابط قد كُلّف بها في أعماق الكويت، وهو عمل سيكون له بكل تأكيد أثر كبير في إثارة الشكوك حول الأطماع والنوايا البريطانية».

ويرد غري على ما جاء في رسالة شكسبير التي يقول فيها: إن إهمال مبادرات ابن سعود ستترك شعوراً بالمرارة وتعرّض المصالح البريطانية للخطر على الساحل.. يرد بقوله: «إن السير غري، ليس في موقع يستطيع من خلاله أن يقدّر مدى صحة هذا التنبؤ. ولكنه مقتنع تماماً بأن عواقب مثل هذا الاستياء وهذه المرارة لن تكون ذات قيمة أبداً. بالمقارنة مع مرارة واستياء الأتراك..».

«وبالنظر إلى هذه المراسلة، والمراسلات التي وصلت مؤخراً من المعتمدين البريطانيين في منطقة الخليج الفارسي، فإن السير غري، يرى بأنه يجب إصدار تعليمات إضافية أكثر تشديداً وحزماً إلى السير بيرسي كوكس، تحظر عليه وعلى مرؤوسيه، وتأمره بالامتناع وببالغ الحذر والعناية، من إجراء أية اتصالات مهما كان نوعها مع ابن سعود، باستثناء ما كان منها ذا طابع شكلي محض، وباستثناء ما كان منها محتماً لا مفر منه».

وفعلاً أُبلغ كوكس والمعتمدون بطلبات وزارة الخارجية، وإن كان هؤلاء كعادتهم يلتفون حول احتجاجات وزارة الخارجية؛ لأنهم يرون أن مصلحة بريطانيا تفرض دعم ابن سعود. وقد سبق للوزير إدوارد غري أن بعث برقية في ١٨ يونيو ١٩١٣، إلى وزارة شؤون الهند بأنه «سيسره إن لم يكن هناك مانع لدى المركيز كرو -وزير شؤون الهند-، أن يطلب من المعتمد السياسي في الكويت برقيًّا، الامتناع قدر الإمكان عن الاتصال بأمير نجد، أو إلزام حكومة جلالة الملك بأية سياسة مهما كان نوعها[1].

وتتابعت الاحتجاجات، فكتب وزير الدولة للشؤون الخارجية في التاسع من يوليو ١٩١٣، يقول: «كنا نود لو أن شكسبير لم يقم برحلته هذه.. إننا نعتقد أنه أخطأ، أو أسيء نصحه بالسفر بعيداً إلى هذا الحد»، وأنه «ستصدر التعليمات إلى حكومة الهند بضرورة التنبيه على الوكلاء السياسيين بأن يلتزموا في المستقبل، بالحدود المقررة في الاتفاق الأنجلو - تركي»، وأن الأمر يستدعي «بصفة عاجلة تقليل الوكلاء السياسيين قدر الإمكان من اتصالاتهم بابن سعود. وأن حكومة صاحب الجلالة لا تريد في هذه

(١) انظر الوثيقة «FO . 371 / 1820 / E 27206»، برقية في الثامن عشر من يونيو ١٩١٣.

المرحلة أن يصدر قول أو فعل يمكن أن يثير الشكوك لدى تركيا أو غيرها، بأن حكومة صاحب الجلالة ترغب أو تشجّع على تمزيق السلطة التركية في آسيا»[١].

وأصدر المكتب الهندي في ١١ يوليو ١٩١٣ نسخة من التعليمات المتعلقة بموضوع العلاقاة السعودية/ البريطانية من قبل الحاكم العام للهند، تضمّن ما يلي: «لاحظنا أنه في مارس ١٩١٣ كان الكابتن شكسبير في المجمعة التي تقع على بعد مائة وخمسين ميلاً خارج حدود الكويت عندما سمع بوجود ابن سعود في المنطقة المجاورة. ارجو أن تبلغوا ملاحظاتي للكابتن شكسبير، وهي أنه لا يُسمح للوكلاء السياسيين -ما لم تصدر تعليمات مباشرة من حكومة صاحب الجلالة- بتجاوز حدود المنطقة المتعارف عليها باسم الكويت في الاتفاق الأنجلو - تركي»[٢].

وأدلى السفير البريطاني في القسطنطينية والمحسوب على وزارة الخارجية، بدلوه فانتقد تصرفات شكسبير في معرض حديثه عن اتّفاقية ٢٦ يوليو ١٩١٣، فقال: «لقد وقعت حوادث عدّة تعزز شك الحكومة التركية في أننا نريد التعامل مع ابن سعود، فمثلاً قبل شهر واحد من هجوم ابن سعود على الأحساء، كان الوكيل البريطاني بالكويت يزوره في الداخل، وفي مطلع هذا العام ١٩١٤ زاره موظفون بريطانيون آخرون مما أدّى إلى صدور التعليمات لحقي باشا للشكوى في لندن»[٣].

وإزاء هذه المارضة الصلبة من وزارة الخارجية ضد وزارة شؤون الهند وتوابعها -«حكومة الهند، المقيم في بوشهر السير بيرسي كوكس، والمعتمدين التابعين له في الخليج»- على دعمهم لابن سعود وتشجيعهم إيّاه على احتلال الأحساء، اضطر الجميع إلى إبعاد معتمدها شكسبير عن منصبه إلى لندن، حيث ضحّت وزارة شؤون الهند به وهي مرغمة لإسكات وزارة الخارجية.

غادر المعتمد الكويت وهو مصرّ على تحدّ رأي وزارة الخارجية، ربما بإيعاز من حكومة الهند التي كان رأيها -من وجهة المصلحة الاستعمارية البريطانية- أكثر صوابية،

---

(١) جلال كشك، مصدر سابق، ص٣٤٩.

(٢) المصدر السابق، وهناك ملاحظة هامة، هي أن احتلال الأحساء تمّ في الحادي عشر من أبريل ١٩١٣، أي أن اللقاء تم مع ابن سعود قبل أقلّ من شهر من إقدامه على احتلال المنطقة.

(٣) المصدر السابق، ص٣٥٥.

فمرّ شكسبير بالرياض التي وصلها في التاسع من مارس ١٩١٤ برًّا بعد رحلة طويلة مضنية، وهناك قابل ابن سعود وأباه عبد الرحمن، واطّلع على الحركة العسكرية النشطة في نجد لمواجهة احتمالات الهجوم التركي لإعادة احتلال الأحساء والقطيف. وبعث من هناك بتقاريره التي تفيض بالتأكيدات على أن مصالح بريطانيا ستتأكد وتدعّم باحتضان حركة ابن سعود، وسوف نستعرض هذه التقارير في موقعها.

ومهما يكن من أمر، فقد استمرّ شكسبير في مراسلة ابن سعود محافظاً على العلاقة الشخصية معه، فيطلب منه أحياناً أن يبلغ سلامه وتحياته لوالده «الإمام عبدالرحمن»، وأخيراً وصل شكسبير إلى لندن في شهر مايو ١٩١٤، وما هي إلا هاأشهر قلائل حتى طلب منه العودة للخدمة في أكتوبر ١٩١٤ ليمثل مصالح بلاده في الرياض بسبب اندلاع الحرب مع الأتراك»[1].

وملخص الأمر أن الموقف البريطاني عشيّة احتلال ابن سعود للرياض كان موائماً للأخير، رغم أن الخلاف مع وزارة الخارجية والممثلين المحليين البريطانيين انتهى باحتلال ابن سعود للأحساء أولاً، وبتعديل رأي وزارة الخارجية بعد أقل من عام فقط.. فالمهم أن الممثلين المحليين هم الذين ينفذون السياسة الواجب اتّباعها، وأن صناع السياسة ليسوا جهة واحدة وإنما جهات عديدة أهمها حكومة الهند.

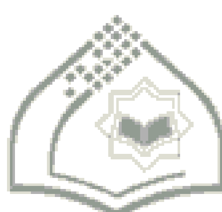
لهذا كله تهيّأ لابن سعود السيطرة على المقاطعة الغنيّة.

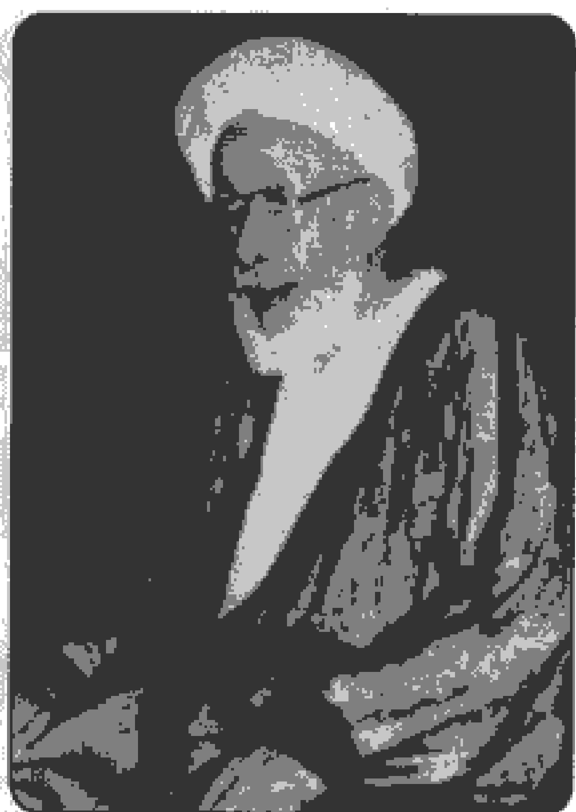
فكانت ضربة الاحتلال.

(١) انظر الوثيقة «FO . 371 / 3044 / E 35392»، ومؤرخة في ١٤ فبراير ١٩١٧. أعد التقرير في ١٢ يناير ١٩١٧، وانظر أيضاً: جلال كشك، مصدر سابق، ص٣٥٨ - ٣٦٠.

ملحق الصور





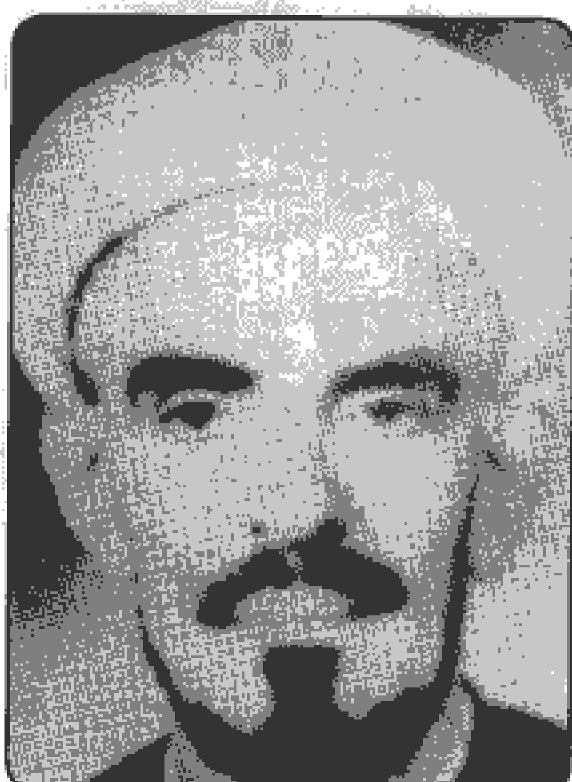


آية الله المجتهد الشيخ محمد الهاجري من كبار العلماء المعاصرين في الأحساء



العلامة الأديب الشيخ عبدالحميد الخطي، قاضي الشيعة في القطيف، وأحد كبار العلماء المعاصرين





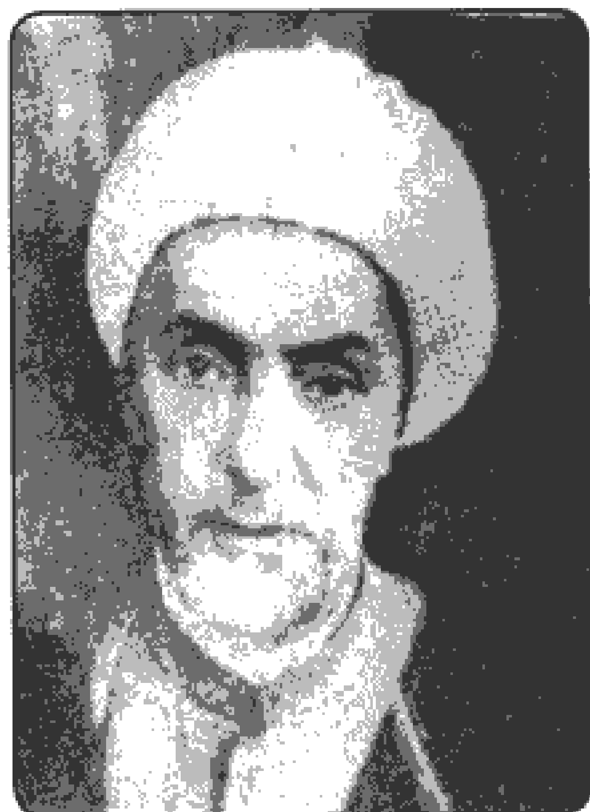
العلامة الشيخ حسن الخليفة، أحد كبار العلماء المعاصرين في الأحساء



فضيلة الشيخ محمد علي العمري، أحد العلماء المعاصرين في المدينة المنورة

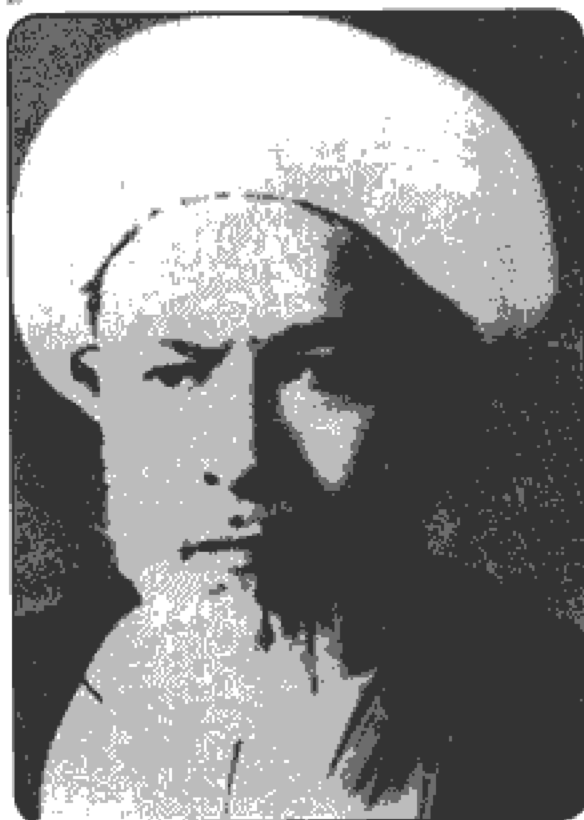


الإمام الشيخ علي أبو حسن ابن مهدي
الخنيزي ١٢٩١ - ١٣٦٣هـ

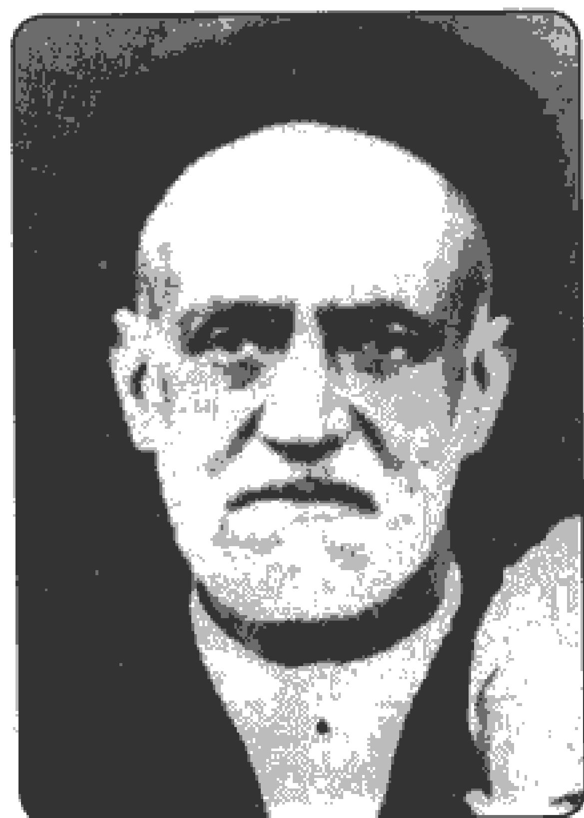


آية الله الشيخ محمد صالح المبارك
الصفواني (صفوى) ١٣١٨ - ١٣٩٤هـ





العلامة الشيخ فرج حسن العمران
(القطيف) ١٣٢١ - ١٣٩٨هـ



الخطيب الفاضل السيد هاشم السيد شرف
المير الصفواني (صفوى) ١٣٢٣ - ١٣٨٧هـ



العلامة الخطيب الشيخ منصور المرهون
(أم الحمام) ١٢٩٤ - ١٣٦٢هـ

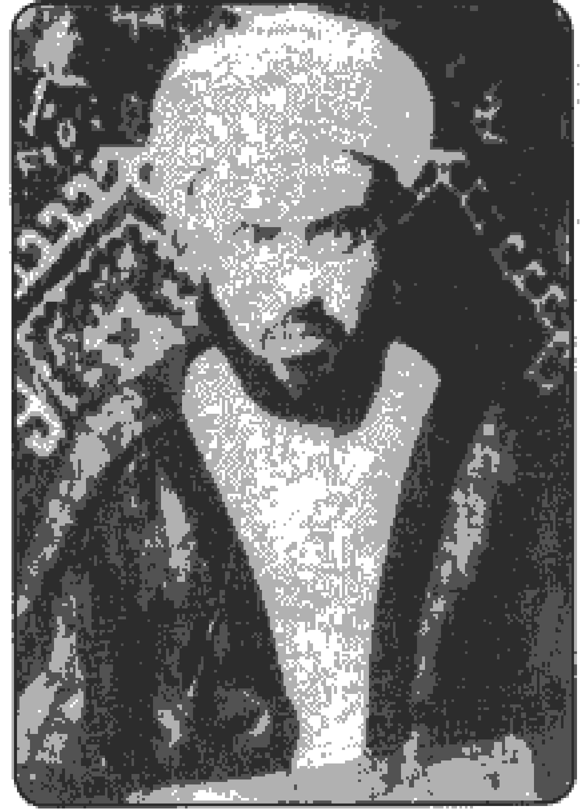


آية الله السيد ماجد السيد هاشم العوامي
(القطيف) ١٢٧٩ - ١٣٦٧هـ





العلامة الشيخ علي بن يحيى المحسن
(تاروت - السنابس) ١٣٢٢ - ١٤٠١هـ

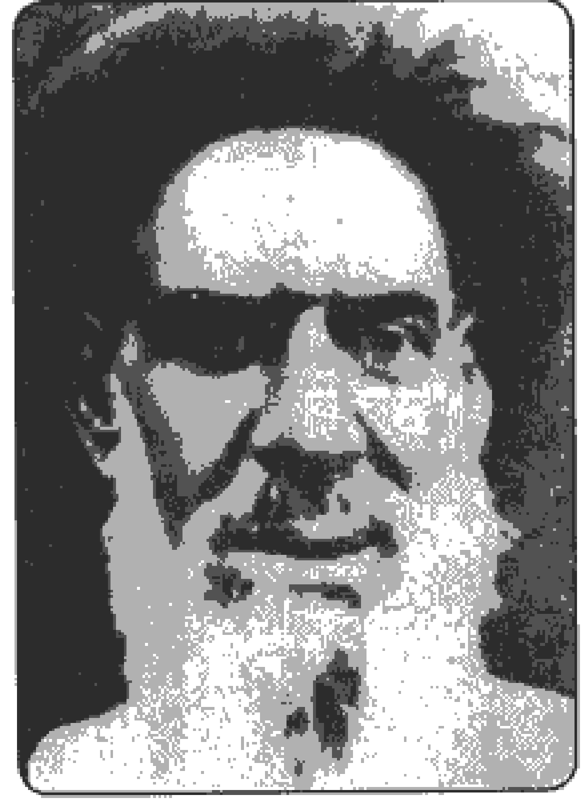


العلامة الشيخ عبدالكريم حسين الفرج (العوامية) ١٣١٩ - ١٣٧٣هـ



آية الله الشيخ موسى أبو خمسين (المفوف) ١٢٩٥ - ١٣٥٣هـ

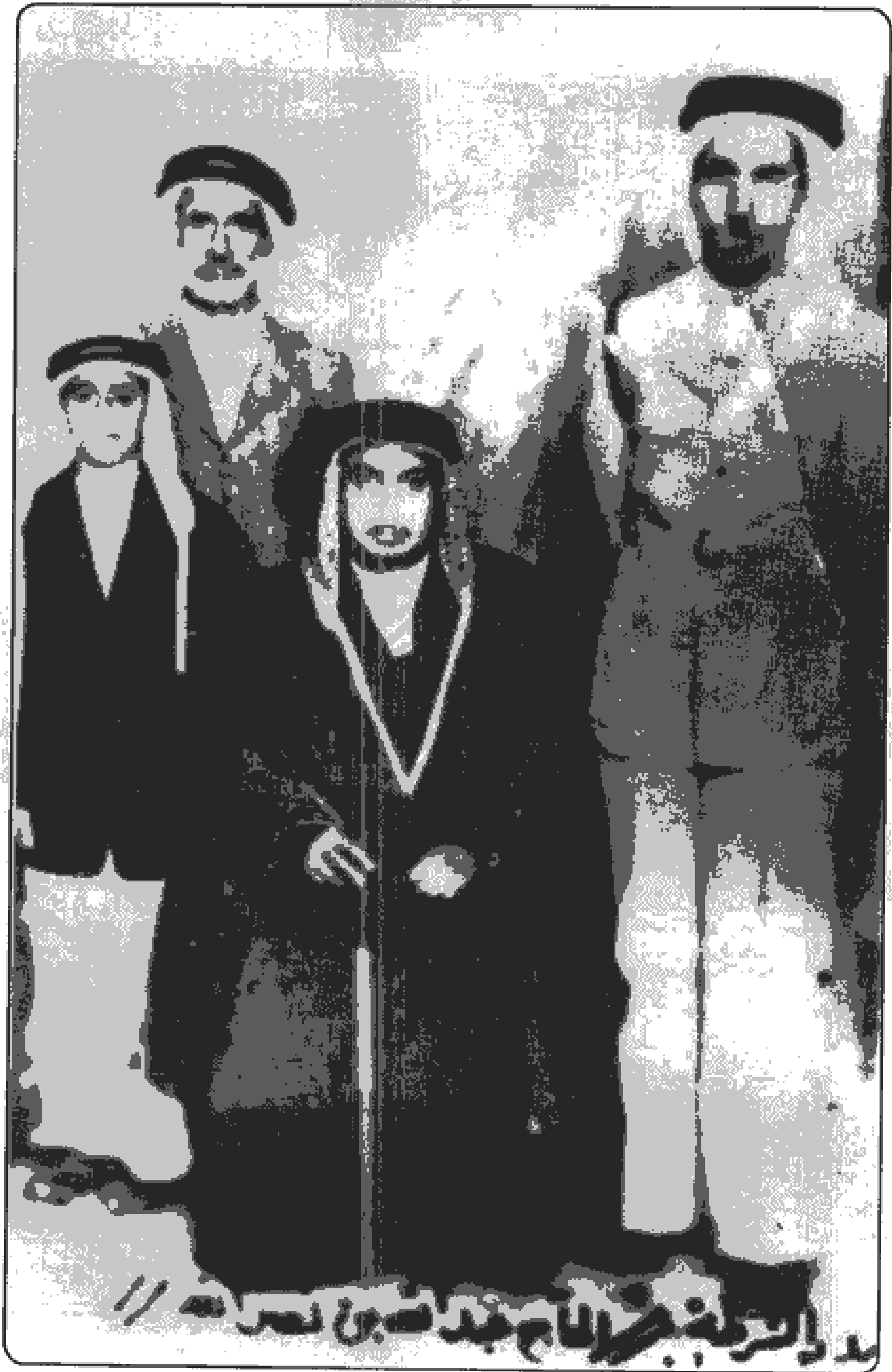




آية الله السيد ناصر السيد هاشم السلمان الأحسائي (المبرز) ١٢٩١ - ١٣٥٨هـ



آية الله المجاهد الشيخ حسن علي عبدالله البدر (القطيف) ١٢٧٨ - ١٣٣٤هـ



من اليمين: مدير شرطة القطيف أحمد مقادمي، الحاج عبدالله نصر الله، الحاج أحمد الكاكا، وعبدالرحيم بن نصر «الصغير» التقطت الصورة سنة ١٣٦٩هـ



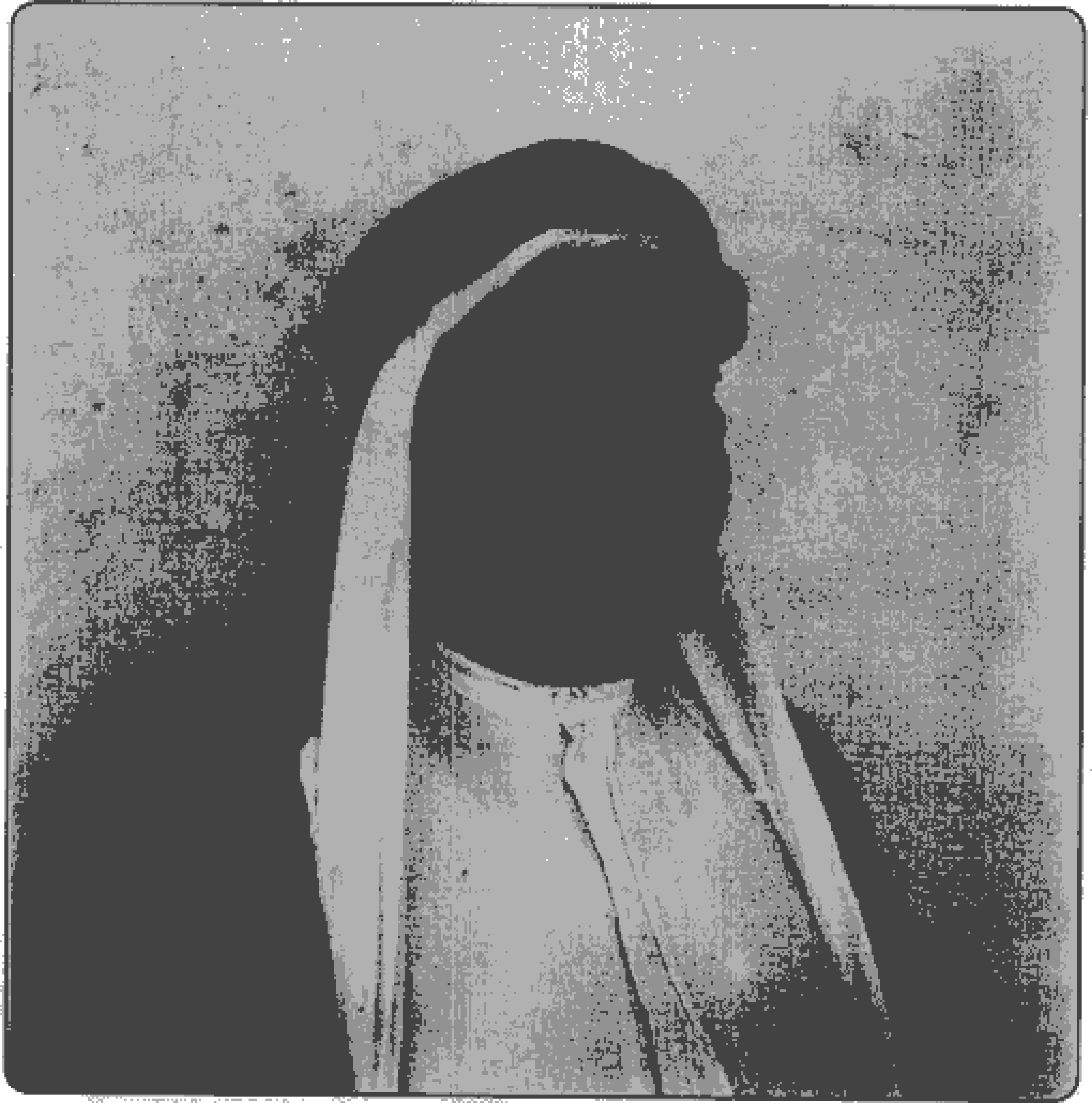
من اليمين: الزعيم الحاج عبدالحسين بن جمعة الذي أعدمته السلطات السعودية عام ١٩١٤م، الوجيه المرحوم الحاج عبدالله بن راشد، الزعيم الوطني الباشا منصور بن جمعة المتوفى ١٣٣٠هـ



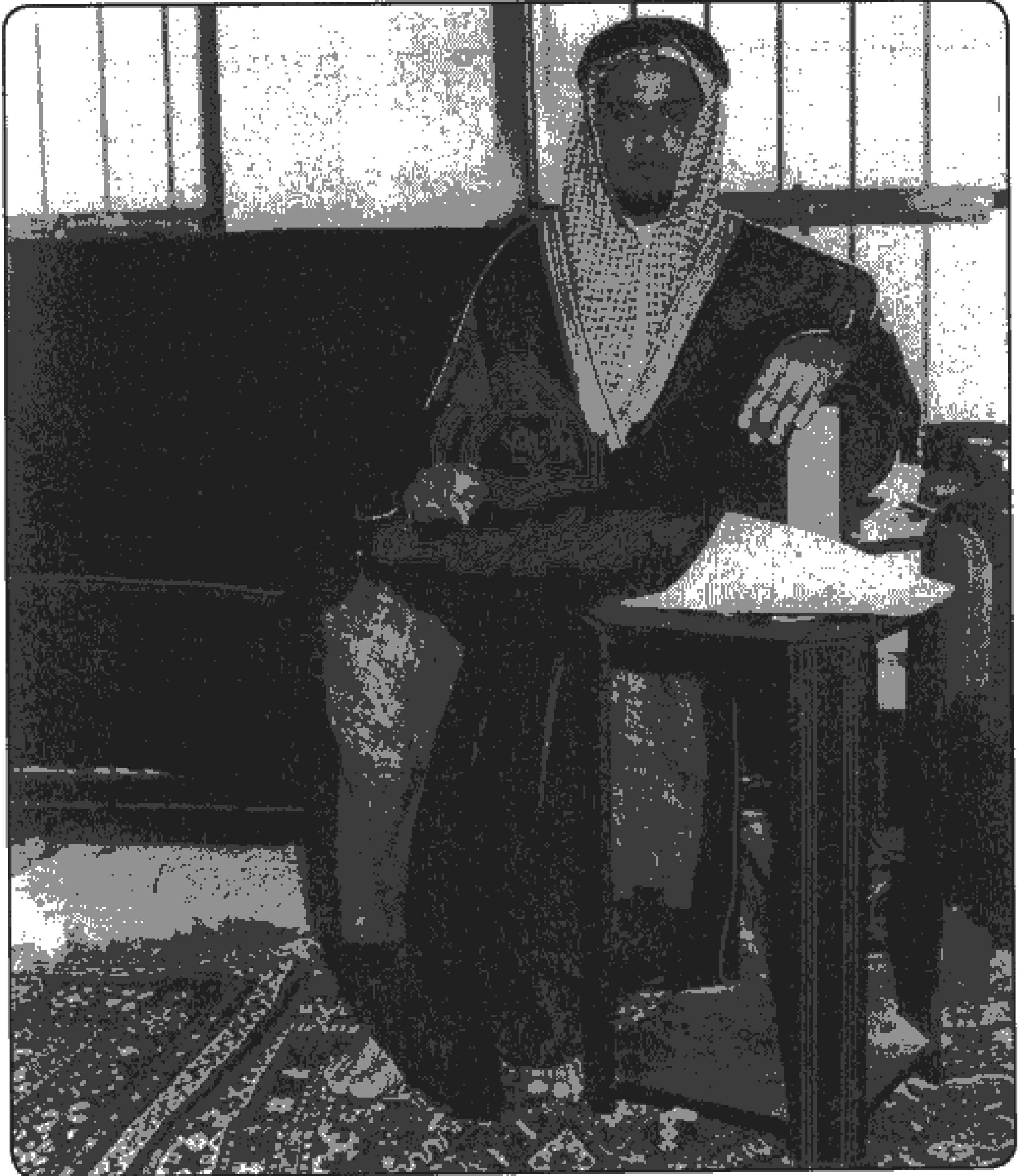
من اليمين: مندوب إمارة المنطقة الشرقية ممثل الأمير سعود بن جلوي، أحد تجار القطيف الكبار -آنذاك- ويدعى أبا عائشة وهو من حائل، الوجيه عبدالله بن نصر الله عمدة القطيف، الوجيه سلمان عبدالله الشماسي، عمدة سيهات، الوجيه سلمان عبدالهادي عمدة صفوى، حسن علي المرزوق، أحد وجهاء القطيف، وسائق مندوب الإمارة



الزعيم الوطني الباشا منصور بن جمعة المتوفى سنة ١٣٣٠هـ



سلمان بن عبدالهادي، زعيم بلدة صفوى، التقطت الصورة في يونيو ١٩٤٧م



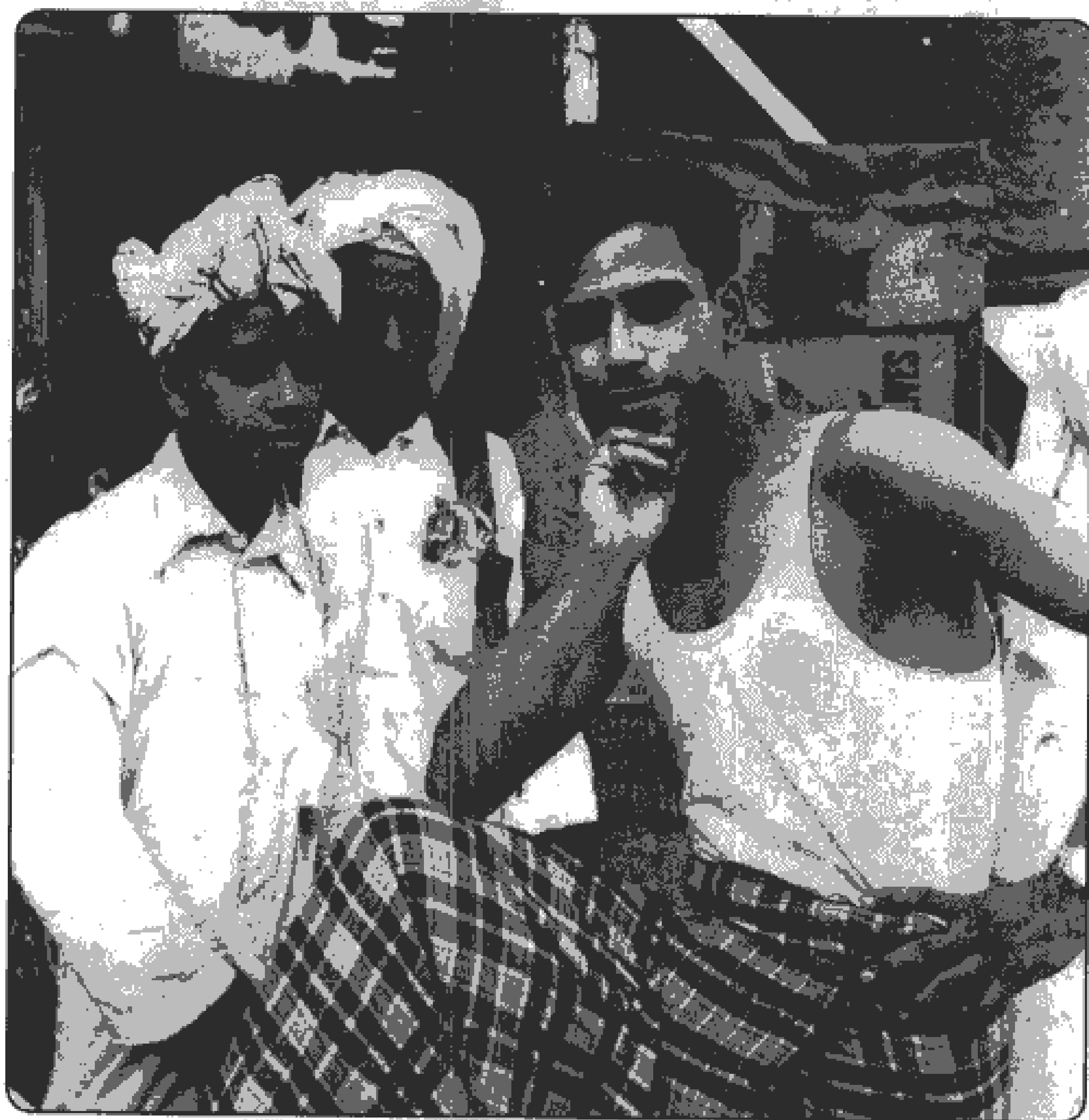
أمير الظهران وأخ حاكم الأحساء، الأمير عبدالمحسن بن جلوي،
قبل أن يصبح أميراً لعموم المنطقة الشرقية لسنين طويلة



رئيس قوة الشرطة في القطيف، يونيو ١٩٤٧م



أحد شيوخ القطيف مع ابنه ينتظران ملاقاة الأمير في مبنى الإمارة



ثلاثة من موظفي أرامكو السعوديين خارج خيمتهم في رأس تنورة،
ويعملون كخدم لدى الأمريكيين



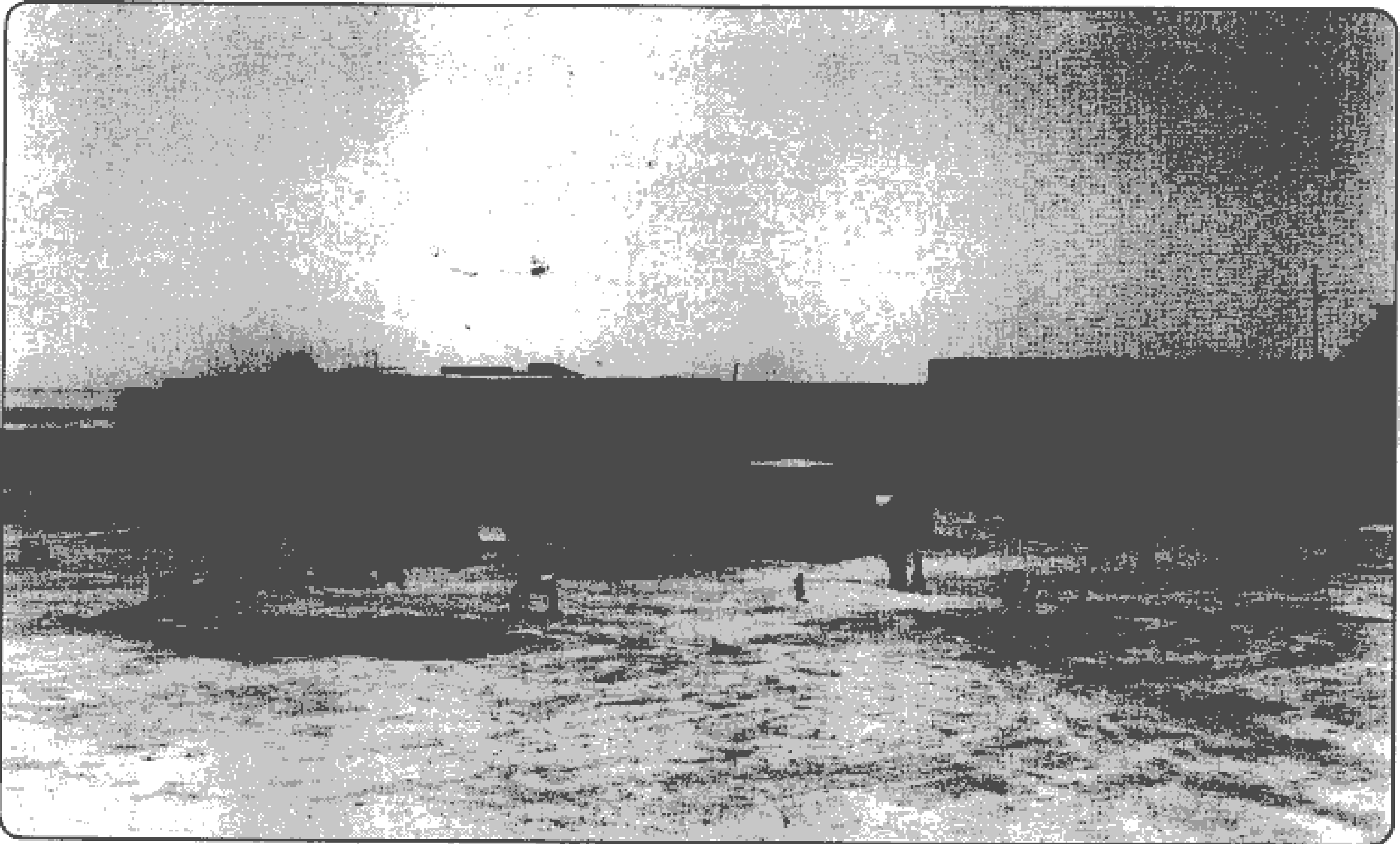
ثلاثة يجلسون خلف الطاولة، يتوسطهم أمير رأس تنورة تركي العطيشان، صاحب الشهرة الذائعة الصيت أثناء الخلاف على واحات البريمي، وعن يمينه مدير الجمارك في رأس تنورة سالم البزيري، وعن يساره مدير جمارك بلدة الخبر



مجموعة من خويا ابن جلوي في الظهران والمكلَّفين بحفظ الأمن!



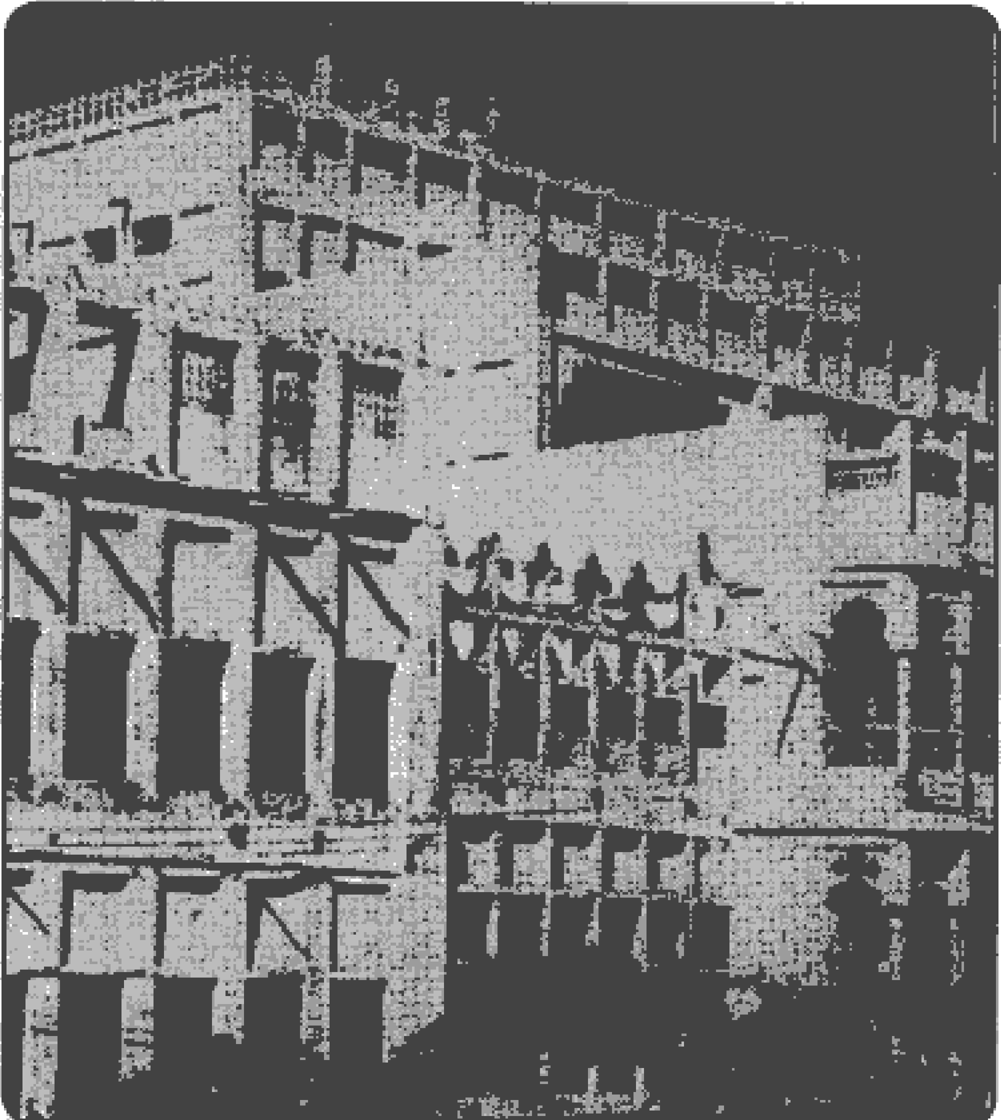
صبّاب القهوة في أمارة القطيف مع دلّته وأقداحه (الفناجين)



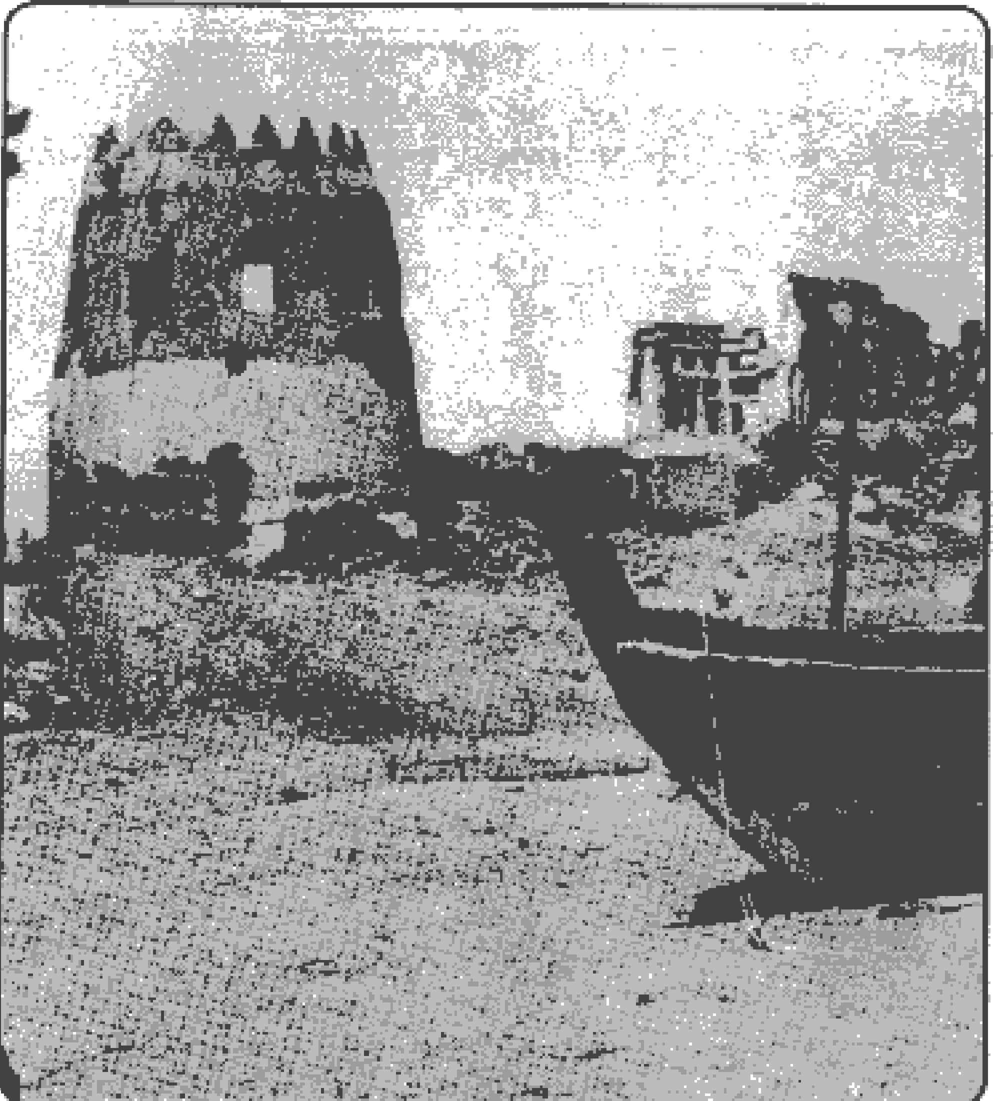
مبنى الإمارة في القطيف في يونيو ١٩٤٧م، وأميرها يومئذ حمود البقماوي



مبنى الجمارك في القطيف، ومن خلفه الميناء الذي يتم عبره تصدير التمور إلى عدد من البلدان



مقر إمارة المنطقة الشرقية بعد نقلها من الهفوف إلى الدمام



قلعة جزيرة تاروت بناها البرتغاليون أثناء احتلالهم المنطقة



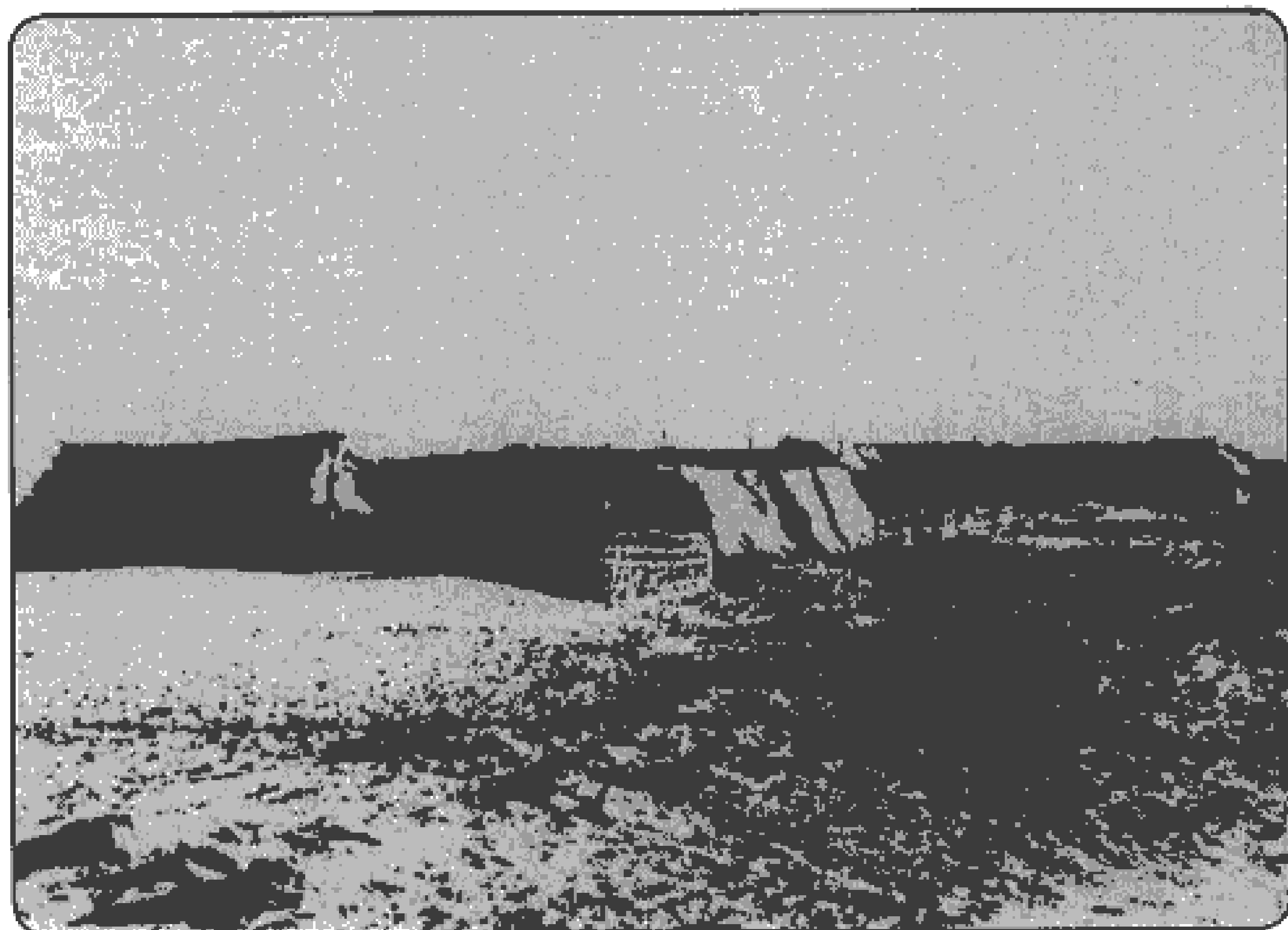
مدينة القطيف الساحلية والزراعية في لقطة من الجو، حيث تحفّ بها مئات الألوف من أشجار النخيل، التقطت الصورة في يونيو ١٩٤٧م



مدينة الجبيل عام ١٩٣٥م لم تزد مساحتها عن كيلو متر واحد



ميناء العقير ١٩٣٥م



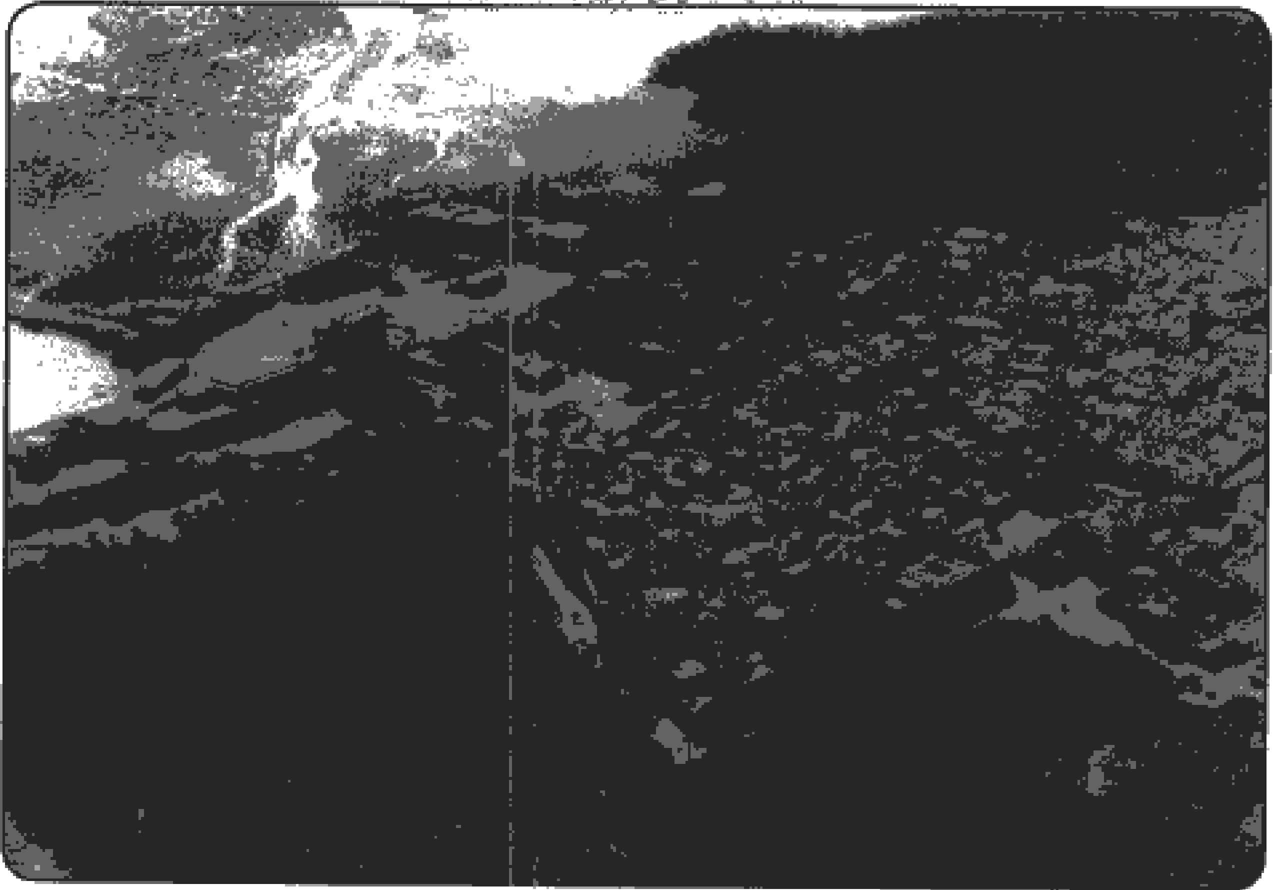
كانت الخبر قبل الأربعينات قرية لصيد السمك، والصورة لبعض المنازل فيها



نواة مدينة الدمام اليوم، حيث لم يكن سوى بعض البيوت والمتاجر والسكان



صورة للقطيف من الجو التقطت عام ١٩٥٥م



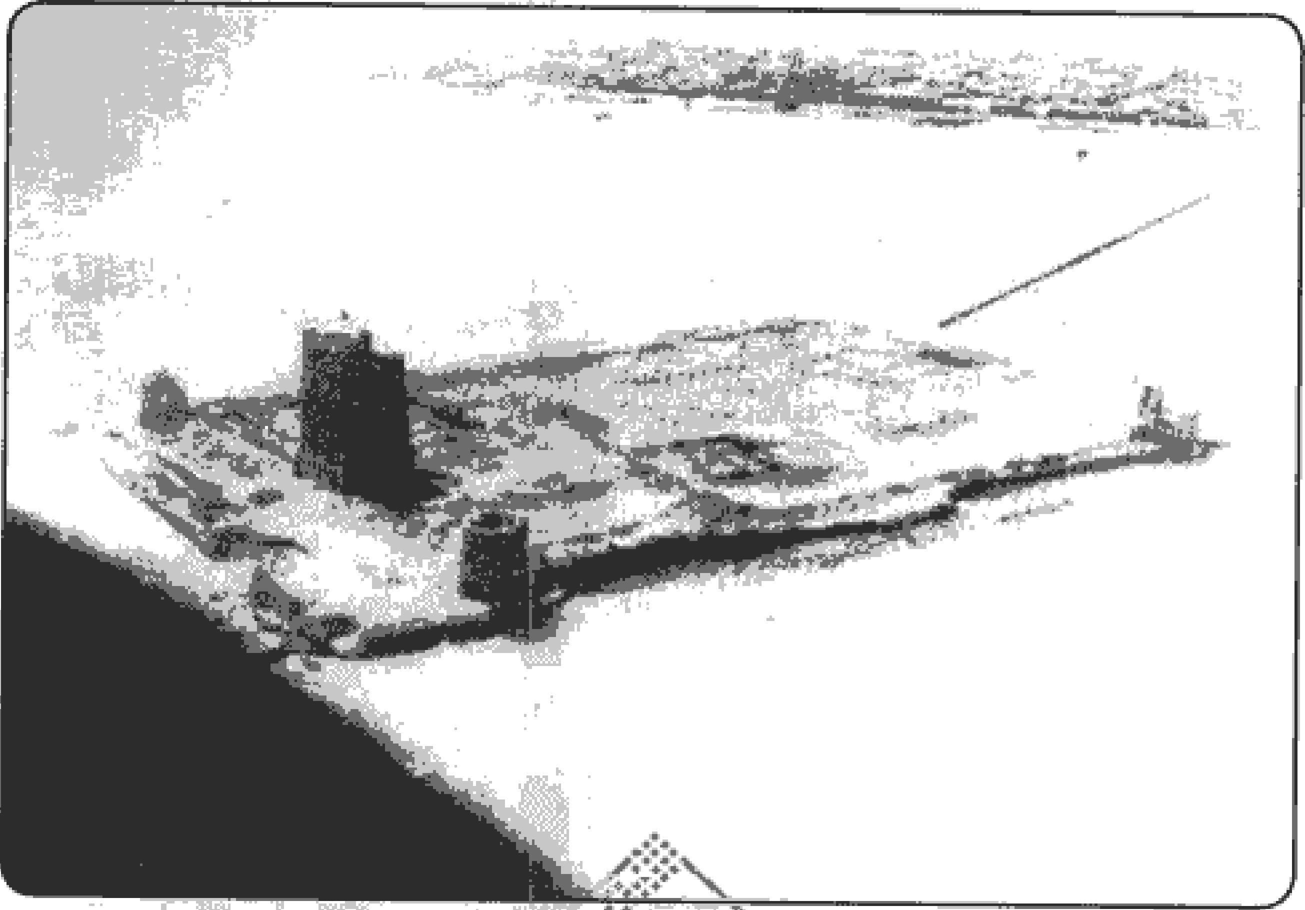
صورة جوية أخرى لجزء من مدينة القطيف عام ١٩٥٥م،
وقد بدا سورها يحيط بالأحياء السكنية



جانب آخر من القطيف في صورة التقطت أيضاً في العام ١٩٥٥م



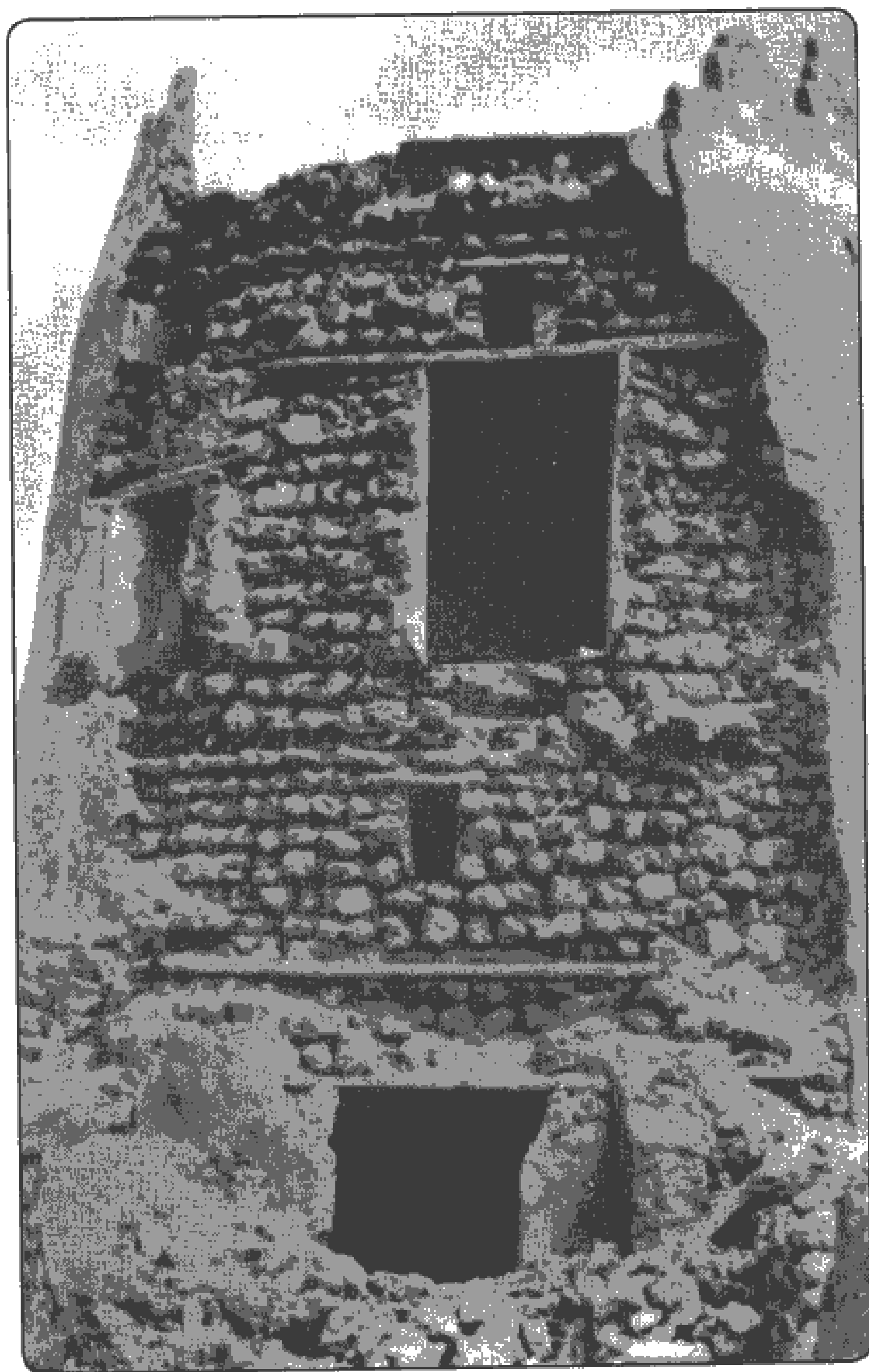
عين أم سبعة في الأحساء



إحدى قلاع الدمام القديمة قبل أن تصبح الدمام مدينة



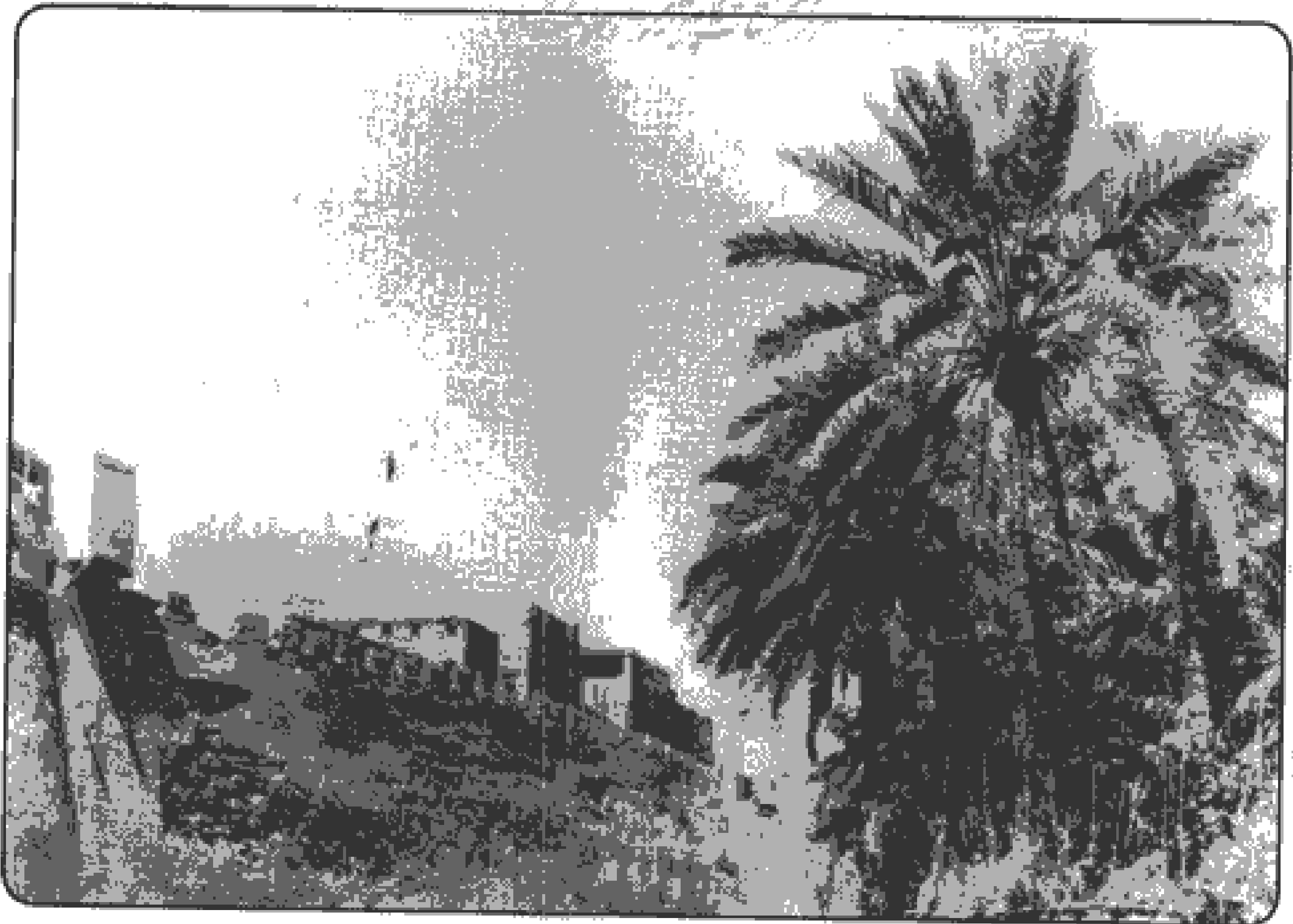
قلعة بناها الأتراك في قرية عنك جنوب القطيف



إحدى القلاع التاريخية في منطقة دارين الساحلية



سوق القطيف القديم



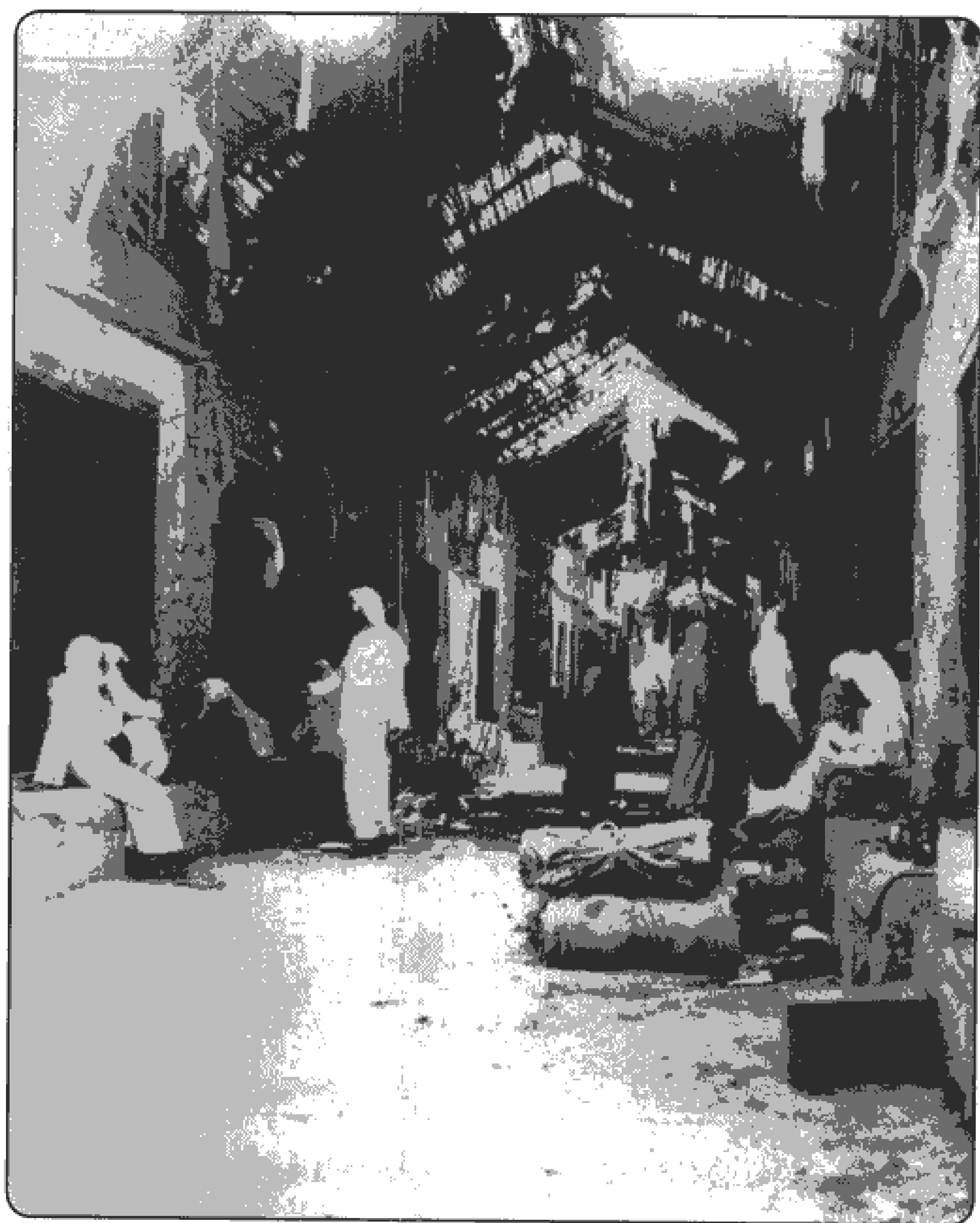
سور إحدى القلاع التاريخية بالمنطقة



سور آخر لقلعة تاريخية أخرى



قلعة القطيف التي بناها مؤسس الدولة الساسانية، أردشير بابك، (٢٢٦ - ٢٤١م)



سوق القطيف المعروف بسوق السكة



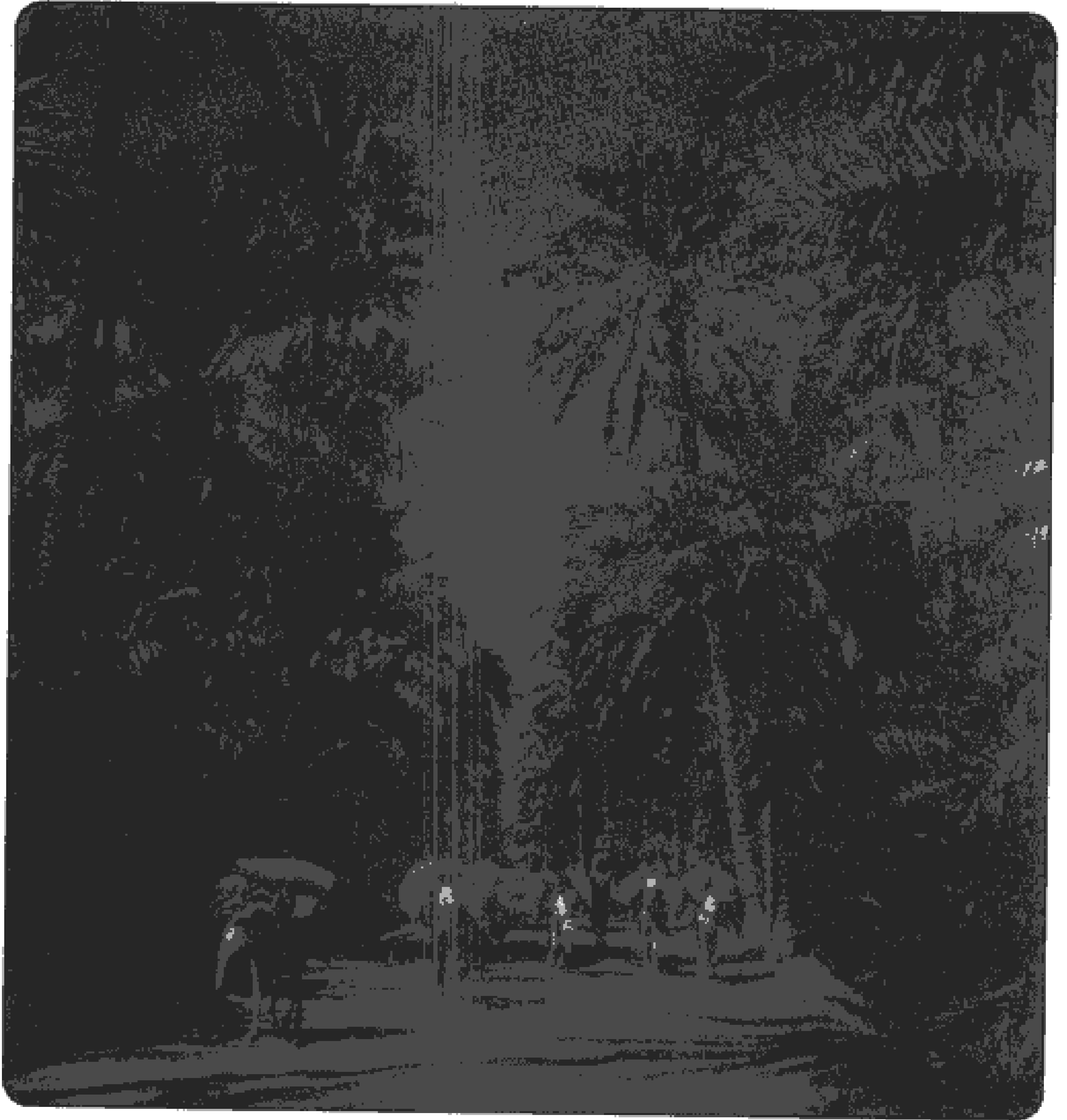
إحدى قنوات الري الصغيرة والكثيرة، التي يقف عندها الفلاحون لتشرب الحمير الماء



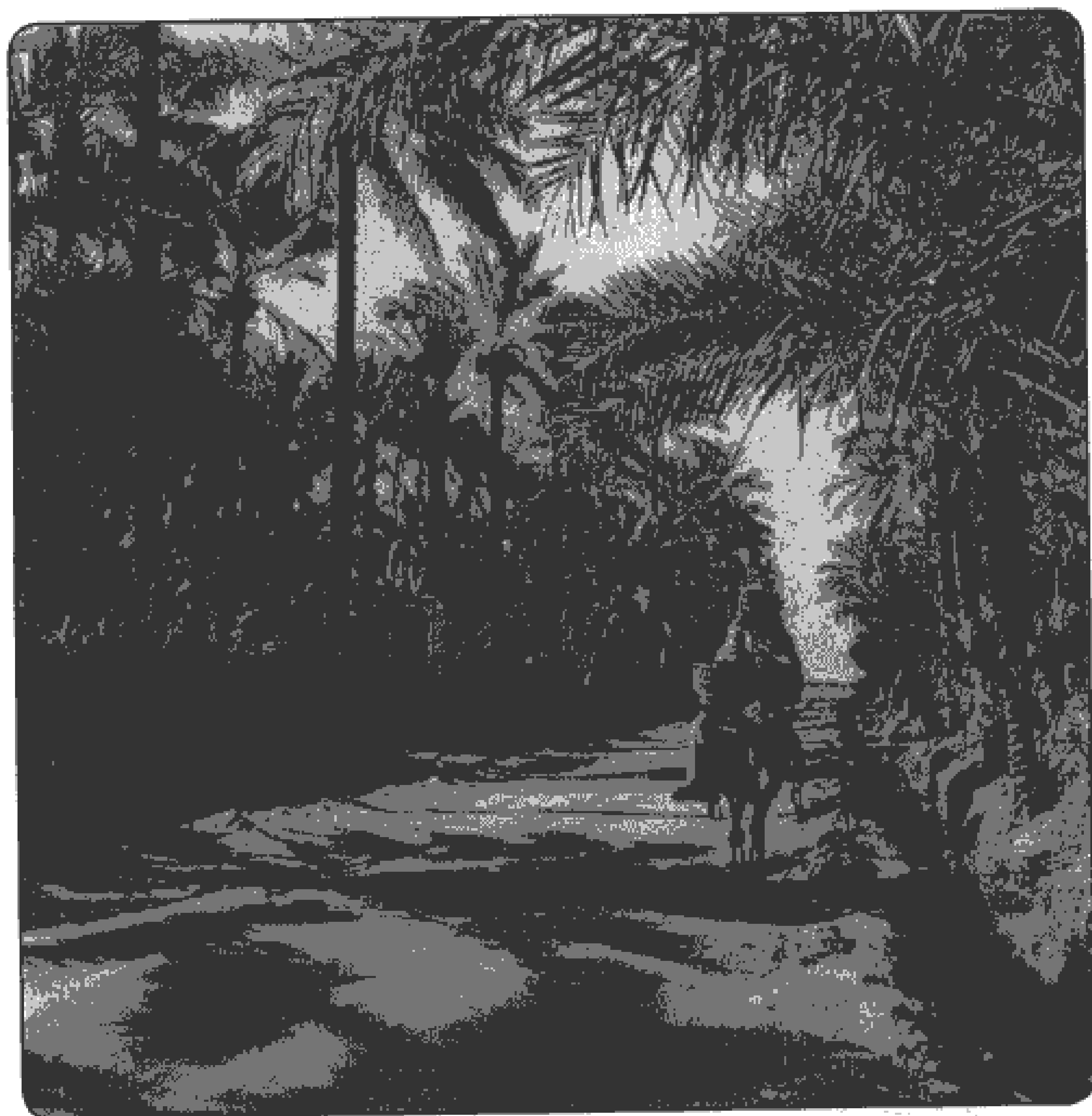
صبي يتسلَّق شجرة لوز تشتهر بها منطقة القطيف بنحو خاص



سعف النخيل على ظهور الحمير، المادة الأساسية في صناعة الكثير من احتياجات السكان



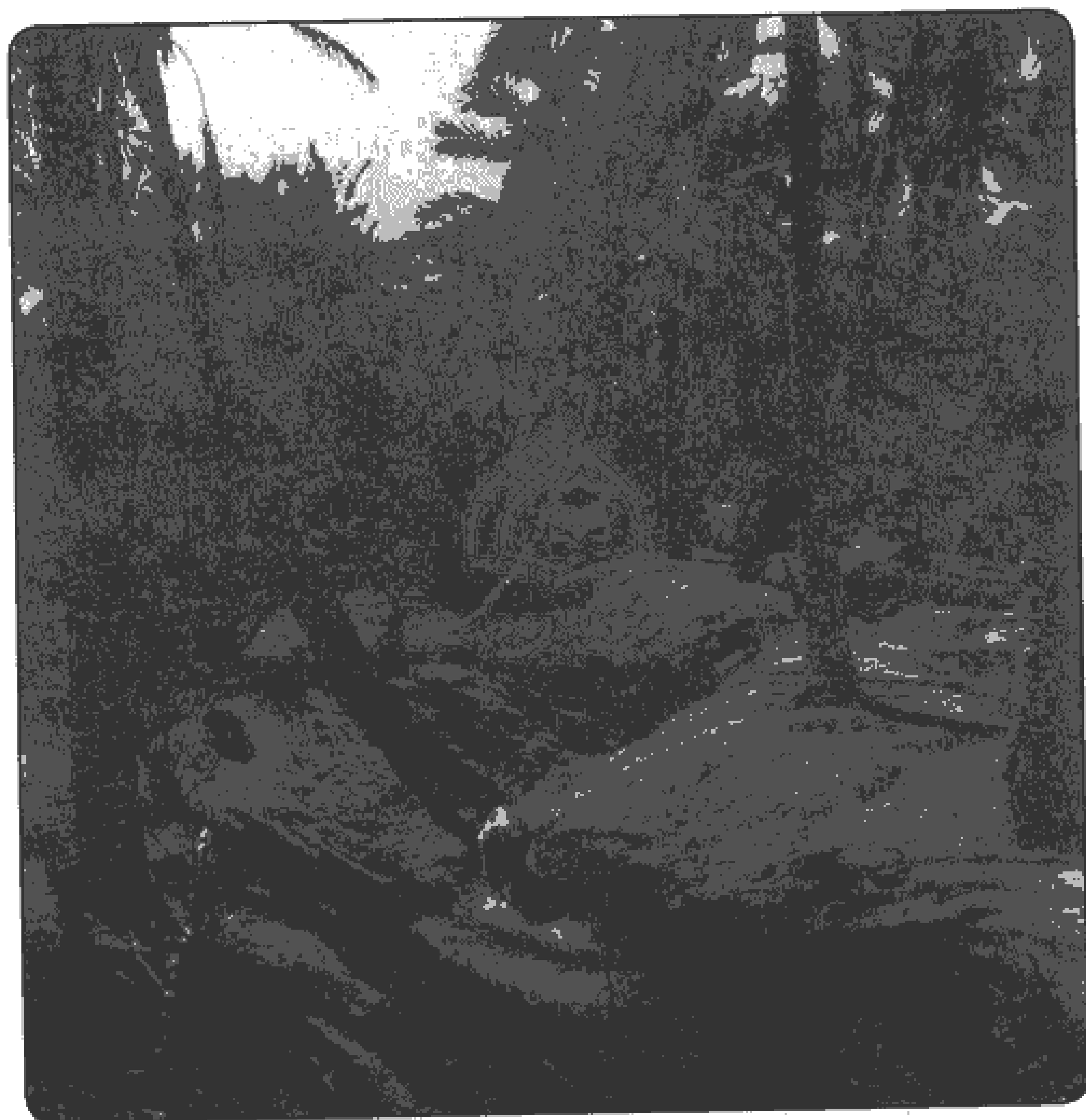
قافلة صغيرة من الحمير مغادرة سوق القطيف في طريقها إلى إحدى القرى
عبر شارع ترابي بين النخيل



فلاح في طريق عودته إلى منزله قادماً من أحد بساتين النخيل



القطيف.. إحدى عيون المياه العذبة المنتشرة تحيط بها بساتين النخيل يونيو ١٩٤٧م



قناة ري ترابية تخترق الغابات الكثيفة من أشجار النخيل



حافلات أيام زمان بالقرب من سوق القطيف



شارع جديد مستحدث في منطقة سوق القطيف، حيث تعرض الفواكه والخضراوات في سلال محلية صنعت من سعف النخيل وغيرهان ١٩٤٧م



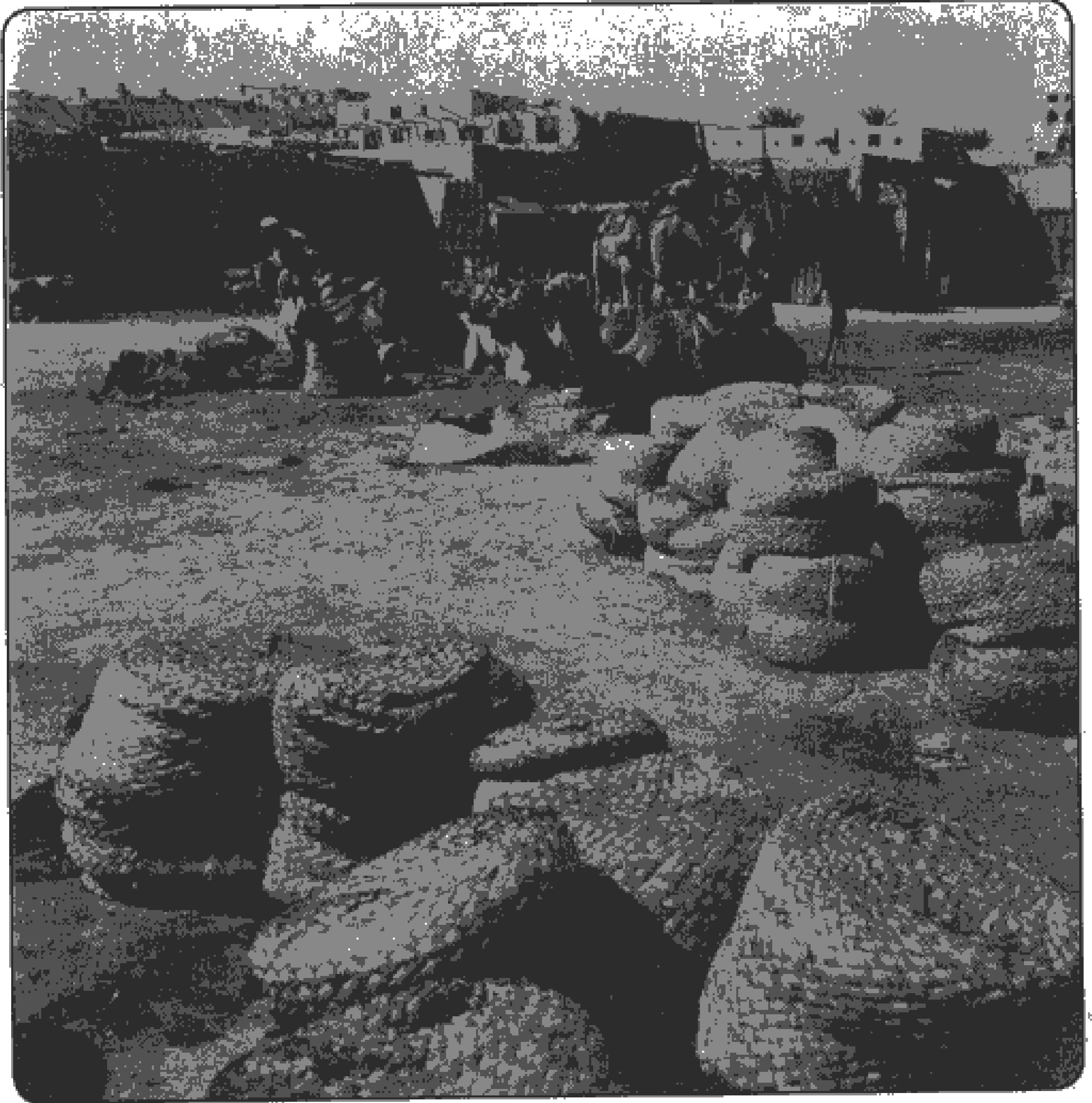
شارع في منطقة السوق بالقطيف، والسقف: قليل من جريد النخيل. ١٩٤٧م



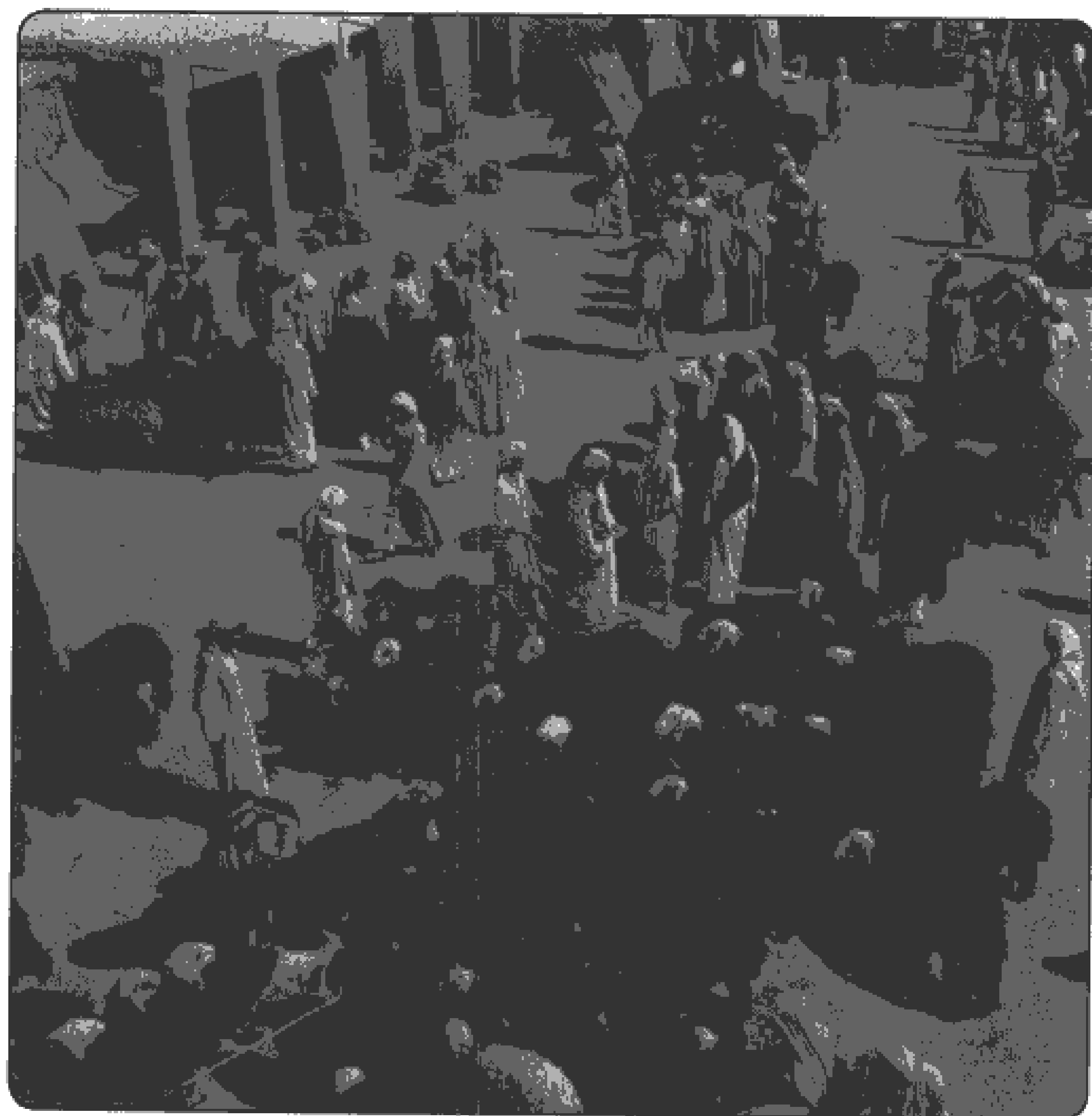
أحد موظفي أرامكو يبيع في السوق غير الرسمية التي تشكلت خلف بوابة معمل التكرير (الريفاينري) في رأس تنورة، وذلك في يوم استلام العمال لمرتباتهم، سبتمبر ١٩٤٧م



الظهران.. سوق الحي السعودي، أو سعودي كامب!.
جمال وخراف وماعز وغيرها للبيع، يونيو ١٩٤٧م



سوق التمر بالقطيف. قلال التمر المضغوط للبيع،
وجمال وحمير تأتي بالبضائع من أجل التبادل التجاري



جانب من سوق الغنم بالقطيف، يونيو ١٩٤٧م



لقطة أخرى من مدينة القطيف وسوقها، السوق المفضّل الذي يرتاده البدو المقيمون في محيط المدن والقرى في منطقتي الأحساء والقطيف، يونيو ١٩٤٧م



قافلة من الحمير تخترق شوارع القطيف وهي تحمل أكياس الرز والطحين



ساحة خلاء، وعمال النفط ينتظرون استلام مرتباتهم نصف الشهرية والتي تدفع عادة يوم الخميس ليعودوا في سيارات شحن أرامكو إلى منازلهم وقضاء العطلة بين ذويهم



لقطة أخرى للعمال السعوديين الذين استلموا رواتبهم للتو وهم يبحثون عن مكان لهم في سيارات الشحن التي تقلّهم إلى مدنهم وقراهم



عمال النفط يتدافعون للحصول على مكان في سيارات الشحن التي ستقلّهم
من ابقيق إلى مناطق سكناهم في المدن والقرى الأخرى



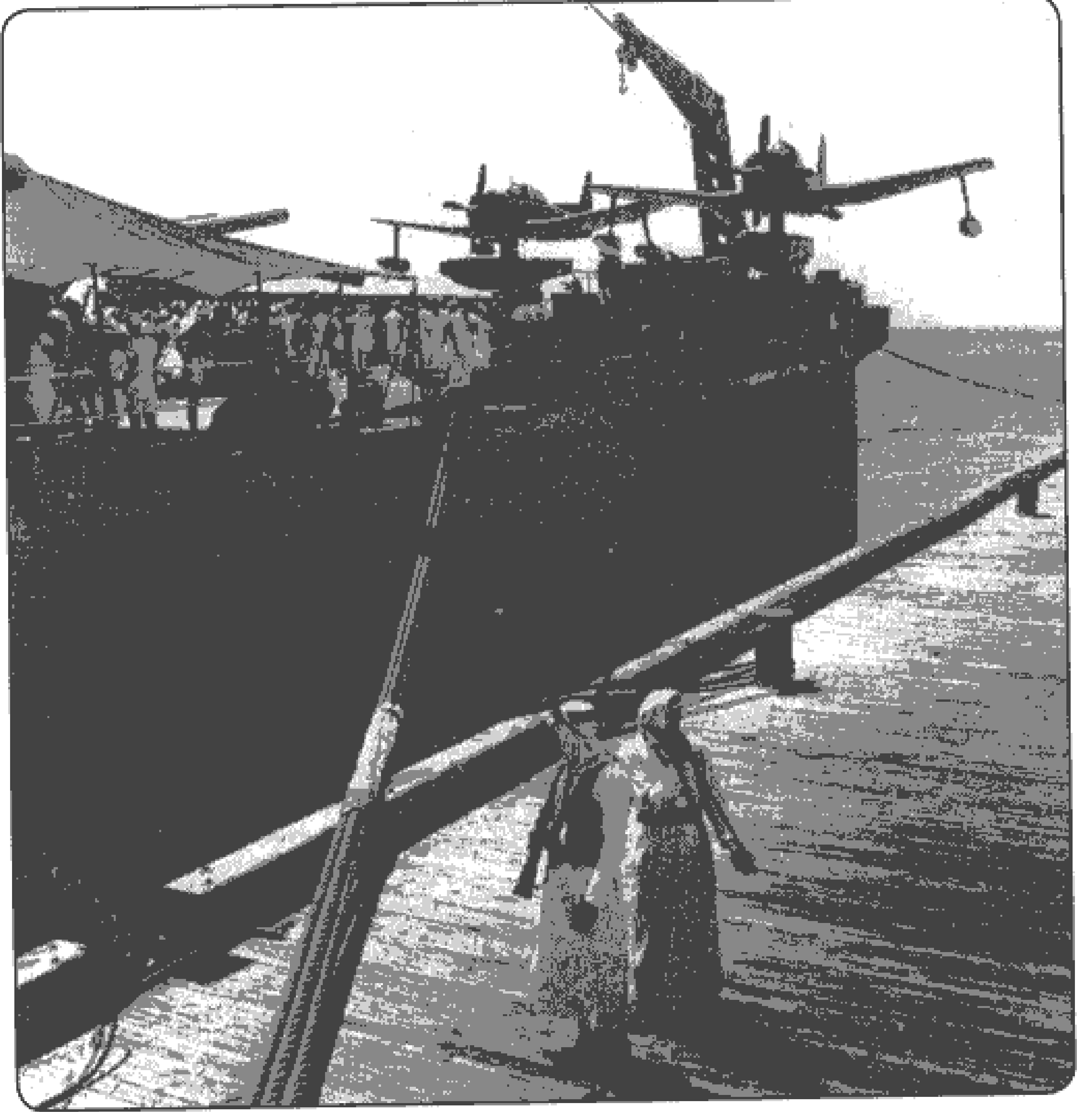
المواصلات والمرتبات والسكن، ثلاثة أمور كانت دائماً مثار اعتراض المواطنين العاملين لدى شركة النفط الأمريكية - أرامكو، سيارة شحن تنقل العمال إلى رأس تنورة



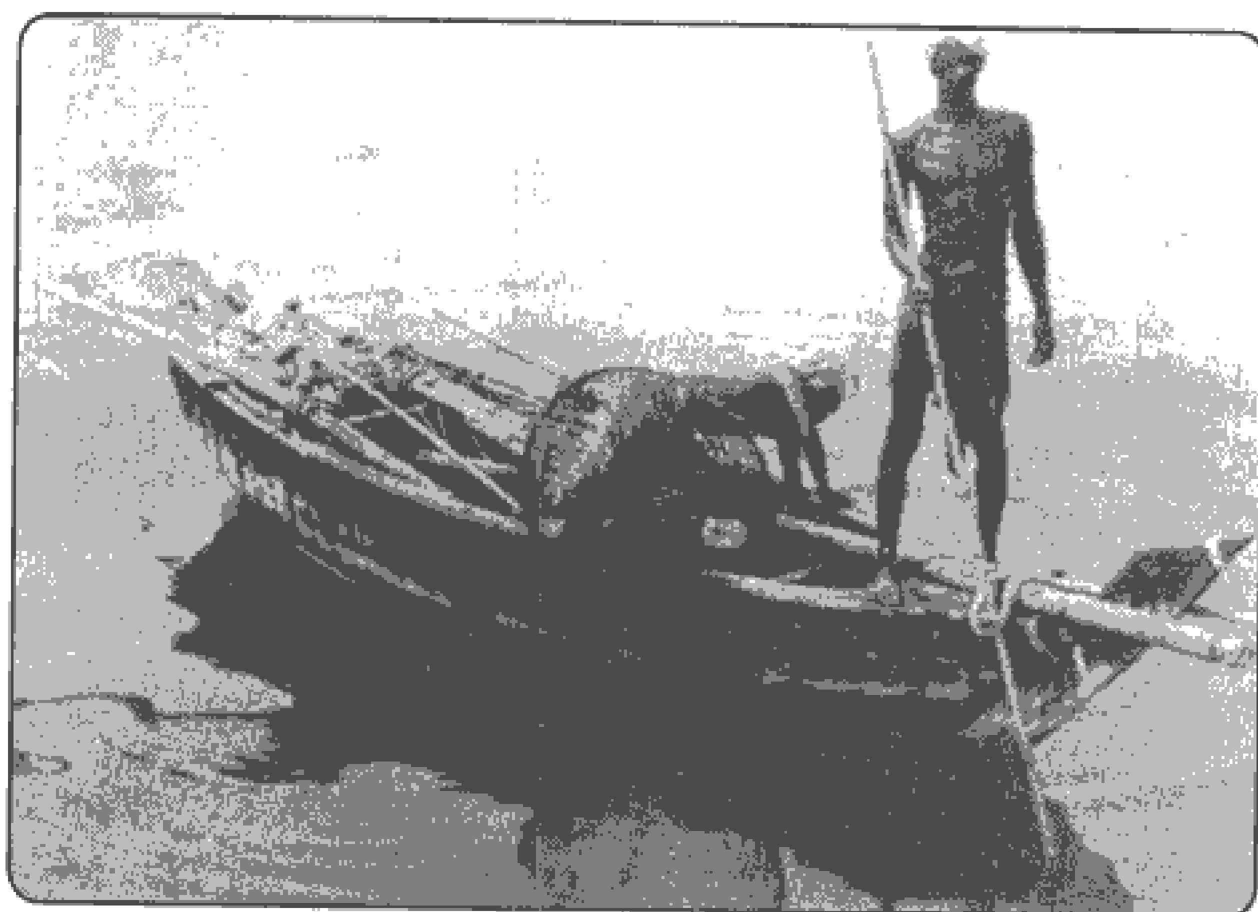
النسخة المحسّنة لمواصلات أرامكو!، سيارة شحن طوّرها النجارون السعوديون لتصبح حافلة!، خصصت للمسافات الطويلة بين رأس تنورة والهفوف



نماذج من القوارب الشراعية الصغيرة التي كانت تصنَّع محليًا بالقرب من مرفأ بحري لأرامكو
رأس تنورة، سبتمبر ١٩٤٧م



المدمّرة الأمريكية توليدو أثناء زيارتها لميناء رأس تنورة النفطي، فيما يقوم حرس ابن جلوي الشخصيين بمعاينتها وحراستها، مايو ١٩٤٧م



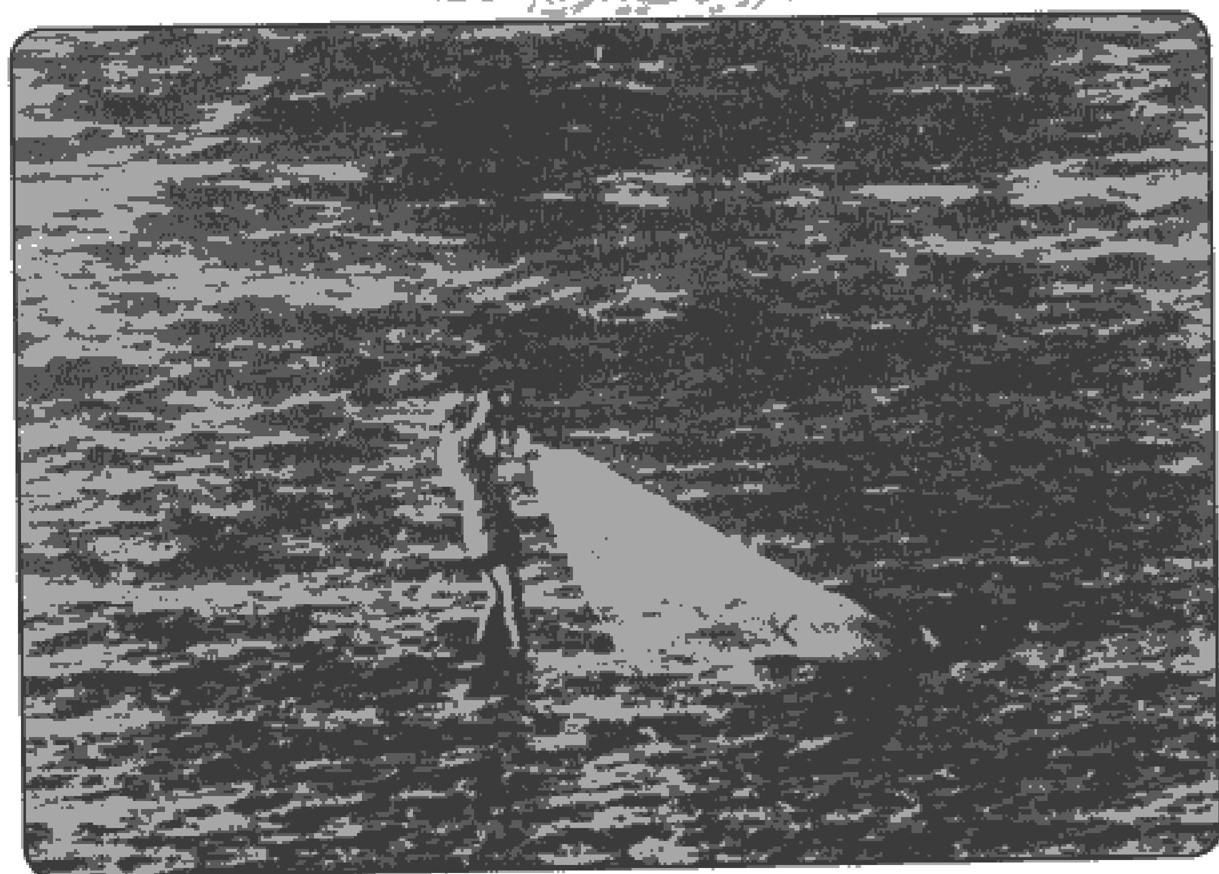
قارب صغير للصيد



وقار آخر بفريق أكبر



صناعة السلال وغيرها من شجر النخيل



الصيد بالشبكة في المياه الضحلة



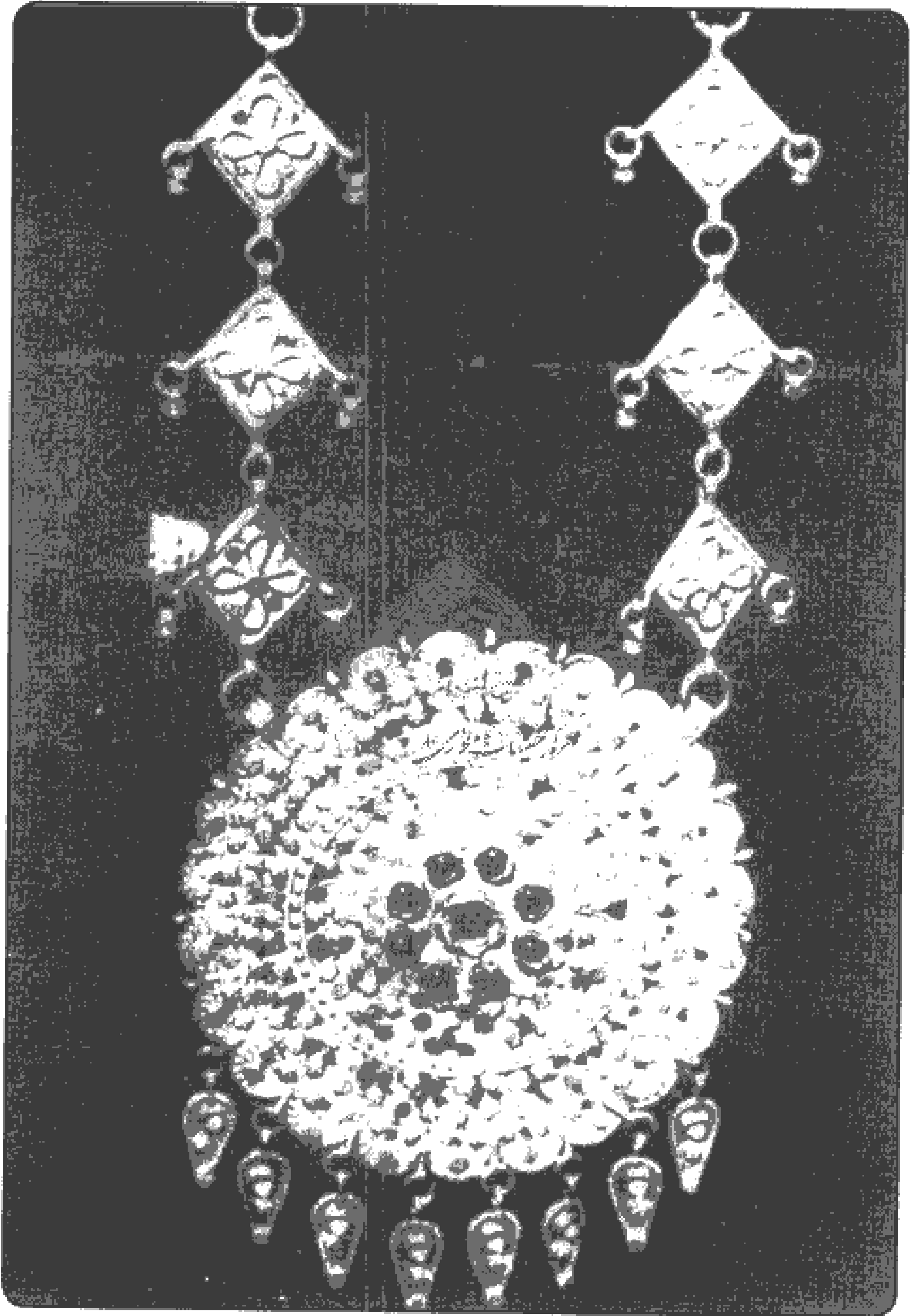
أحد غواصي اللؤلؤ في لباس الغوص



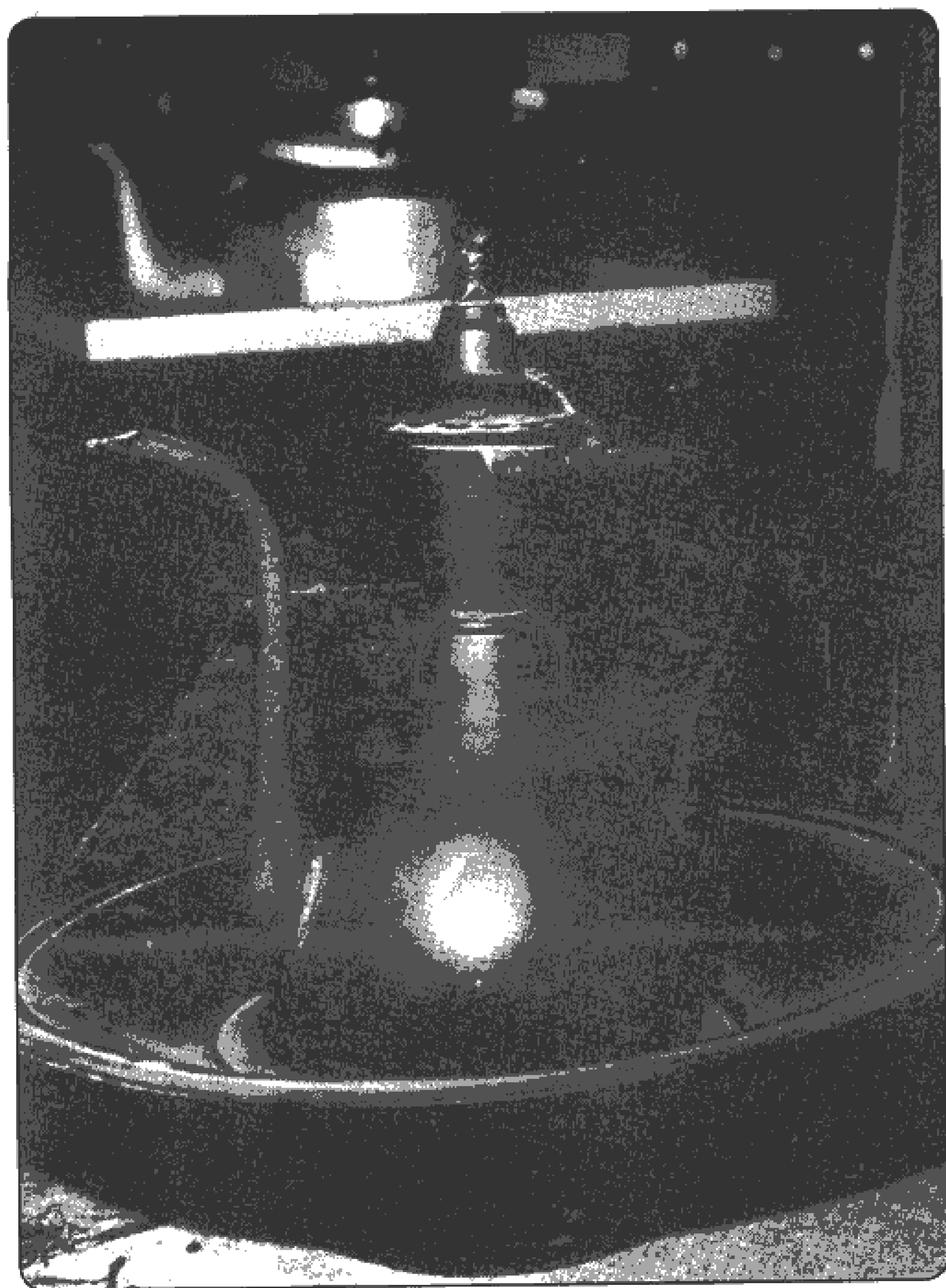
والسفينة تستعد للإبحار لأجل الغوص



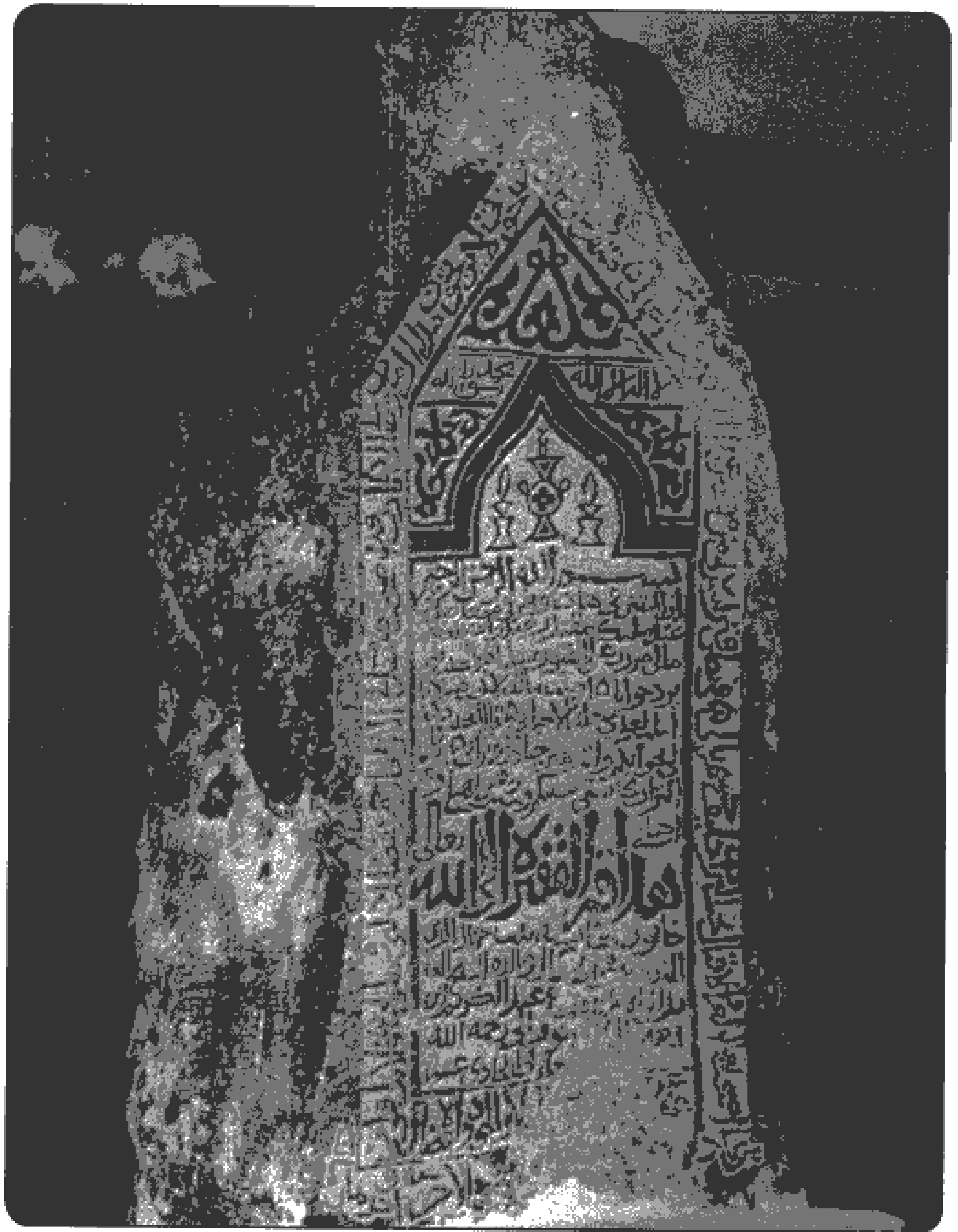
تاجر لؤلؤ من جزيرة تاروت - سنابس وهو المعاصر الحاج علي بن عبدالله الحبيب



أنموذج من صناعات الحلي التي أجادها الحرفيون الشيعة



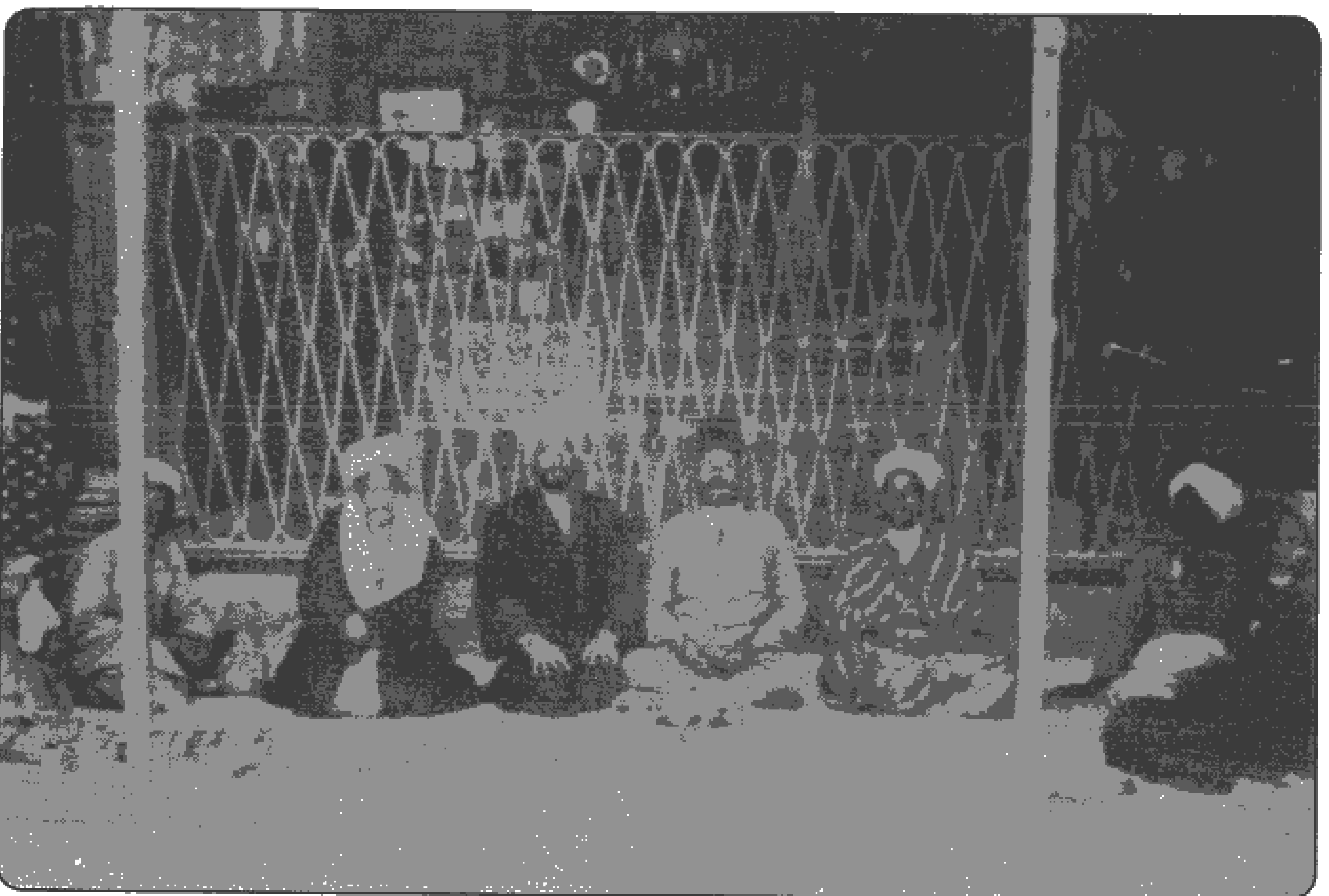
واجادوا أيضاً الصناعات النحاسية، وفي الصورة إناء وإبريق ماء يستخدمان للوضوء



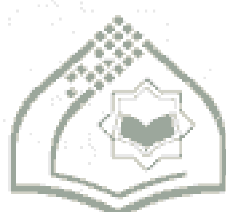
صخرة نحت عليها زخارف وآيات من القرآن الكريم، وضعت علامة على قبر متوفاة،
عثر عليها في المنطقة الشرقية

صورة من رسالة بعث بها رسول الله ﷺ بيد العلاء الحضرمي يدعو فيها والي هجر من قبل ملوك فارس المنذر بن ساوي للدخول في الإسلام

منزل الصحابي الجليل أبي أيو الأنصاري قبل تدميره كليًا بيد الوهابيين



قبر سيد الشهداء الحمزة بن عبدالمطلب قبل أن يهدمه الوهابيون



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المحتويات


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی